

فتوح الغيب

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الريب

تأليف: الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ©

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية بالأردن: (٢٠١٠/٧/٢٥٣٣)

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨٩٩٥٧٢٣١٨٠٤

ما ورد في حواشي هذا الكتاب يعبر عن رأي محققه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الجائزة

ص. ب. ٤٢٠٤٢ دبي - الامارات العربية المتحدة

هاتف: ٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦+

فاكس: ٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨+

الموقع على الانترنت: www.quran.gov.ae

البريد الإلكتروني: Rs@quran.gov.ae

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

أسهم في نشر هذا الكتاب

ADIB



مصرف أبوظبي
الإسلامية

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

وَهُوَ حَاشِيَةُ الطَّيْبِيِّ عَلَى الكَشَافِ

لِلإِمَامِ شَرَفِ الدِّينِ الحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّيْبِيِّ

المُتَوَلَّى سَنَةَ ٧٤٣ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

الجزء السادس عشر

تَفْسِيرُ الشُّورَى مِنَ المَعَانِجِ إِلَى نَهَايَةِ النَّاسِ

حَقَّقَ هَذَا الجُزْءَ

الدُّكْتُورُ يُوْسُفُ عَبْدِ اللَّهِ الجَوَارِزَةَ

أَسْتَاذُ العَمَلِ السَّاعِدِ بِكَلْبَةِ الآدَابِ بِجَامِعَةِ طَبِيبَةِ المَدِينَةِ الشَّوَرَةِ

الشُّرْفُ العَامِرُ عَلَى الإِخْرَاجِ العِلْمِيِّ لِلکِتَابِ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبْدِ الرَّحِيمِ سُلْطَانِ العُلَمَاءِ

خَانَةُ دَوْلَتِ اَلدَّوْلَةِ اَلْمَمْلُوكِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَفْرُجُ
الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَأَصْبَحَ سَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ
بَعِيدًا * وَرَأَيْنَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمًا *
يُصْرُوهُمْ يُودُّ الْمُجْرِمُ * لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتْ تُوْبِهِ
* وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى * نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى *]

[١٨-١]

ضَمَّنَ ﴿سَأَلَ﴾ مَعْنَى دَعَا، فَعُدِّي تَعْدِيَّتَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: دَعَا دَاعٍ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.....

سورة المعارج

أربع وأربعون آية، مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقني

قوله: (ضَمَّنَ ﴿سَأَلَ﴾ مَعْنَى «دَعَا»). قال الواحدي: «الباءُ في ﴿بِعَذَابٍ﴾ زيادةٌ للتوكيد، كقوله: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِمِجْنَعٍ آتَخَلَّوْا﴾ [مريم: ٢٥]، والمعنى: سأل سائلٌ عذاباً واقعاً»^(١).

(١) الوسيط في تفسير القرآن (٤: ٣٥٠).

مِنْ قَوْلِكَ: دَعَا بِكَذَا، إِذَا اسْتَدْعَاهُ وَطَلَبَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ
ءَامِنِينَ﴾ [الدَّخَان: ٥٥]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، قَالَ:
إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.
وَقِيلَ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، اسْتَعْجَلَ بِعَذَابٍ لِلْكَافِرِينَ. وَقُرِيَ: «سَأَلَ سَائِلٌ» وَهُوَ
عَلَى وَجْهِينِ: أَنْ يَكُونَ مِنَ السُّؤَالِ وَهِيَ لُغَةٌ قُرَيْشٍ، يَقُولُونَ: سَأَلَتْ تَسَالًا، وَهِيَ
يَتَسَايَلَانِ؛ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ السَّيْلَانِ،

قَوْلُهُ: (وَقُرِيَ: «سَأَلَ سَائِلٌ»). نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ: «سَأَلَ»، بِالْأَلْفِ سَاكِنَةٌ بَدَلًا مِنَ الْهَمْزَةِ،
وَهُوَ مَسْمُوعٌ مِنَ الْعَرَبِ^(١)، وَبِالْبَاقُونَ: بِهَمْزَةٍ، وَحَمْزَةٌ يُجَعِّلُهَا فِي الْوَقْفِ بَيْنَ بَيْنِ^(٢). وَقِيلَ:
سَأَلَ سَائِلٌ بِالْأَلْفِ، أَجْوَفُ يَأْتِي، بِدَلِيلٍ: يَتَسَايَلَانِ؛ فَقَوْلُهُ: «مِنَ السُّؤَالِ» يَعْني أَنَّهُ بِمَعْنَاهُ،
وَأَلَّا فِذَاكَ مَهْمُوزٌ وَهَذَا أَجْوَفُ.

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أَلْفُ «سَأَلَ» مُنْقَلَبَةٌ عَنِ الْهَمْزَةِ، نَحْوُ: «مِنْسَاءٌ» فِي «مِنْسَاءَةٌ»، وَلَمْ يَذْكَرِ
الْمَصْنُفُ هَذَا الْقَوْلَ هَاهُنَا^(٣)، وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي «الْمَفْصَلِ»^(٤)، لِأَنَّ هَذَا الْإِبْدَالُ رَاجِعٌ إِلَى السَّمْعِ
الْمَحْضِ، فَيَتَّبِعُ تَجْوِيزُهُ فِيهَا سَمْعًا، قَالَ سَبِيوِيَّةُ: «لَيْسَ ذَا بَقِيَّاسٍ مُتَلَبِّبٌ، وَإِنَّمَا يُحْفَظُ عَنِ
الْعَرَبِ»^(٥). وَلَمَّا أَمْكَنَ حَمْلُ «سَأَلَ» عَلَى وَجْهِ قِيَاسِيٍّ، كَمَا نَقَلَهُ مِنْ لُغَةِ قُرَيْشٍ، لَمْ يَحْتَمِلْهُ عَلَى
مَا يَكُونُ سَمَاعِيًّا.

(١) قَالَ الْمَبْرَدُ: «مَنْ لَمْ يَهْمِزْ فَعَلَى أَحَدٍ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْ (سَأَلَ يَسِيلُ) مِنَ السَّيْلِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ
(سَأَلَتْ أَسَالَ)، كَمَا تَقُولُ: خِفْتُ أَخَافَ، وَنَمْتُ أَنَامَ». انظر: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» لِابْنِ زَنْجَلَةَ، ص ٧٢٠.

(٢) انظر: «التيسير» لِأَبِي عَمْرٍو الدَّانِي، ص ٢١٤. وَأَجْمَعَ الْقِرَاءَةُ عَلَى هَمْزِ «سَائِلٌ» سِوَاهُ كَانَ مِنْ (سَأَلَ)
أَوْ مِنْ (سَأَلَ).

(٣) فِي (ح): «هَذَا».

(٤) انظر: «الْمَفْصَلُ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ»، ص ٣٤٩ وَمَا بَعْدَهَا.

(٥) «الْكِتَابُ» (٣: ٥٥٤) لِسَبِيوِيَّةِ.

وقال أبو علي في «الحجّة»: «مَنْ قَرَأَ «سَالَ» غَيْرَ مَهْمُوزٍ، جَعَلَ الْأَلْفَ مُنْقَلَبَةً مِنَ الْوَاوِ، الَّتِي هِيَ عَيْنٌ مِثْلُ: قَالَ وَخَافَ. وَحَكَى أَبُو عُثْمَانَ عَنْ أَبِي زَيْدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ مَنْ يَقُولُ: هُمَا يَتَسَاوَلَانِ»^(١). وَقَالَ ابْنُ مَالِكٍ: «لَيْسَ «سَالَ» فِي الْقِرَاءَاتِ مُحْفَفًا مِنْ «سَالَ»، إِنَّمَا هُوَ مِثْلُ «هَابَ»، وَقَوْلُ الْمَصْنُفِ: «هُمَا يَتَسَايَلَانِ» مُوَافِقٌ لِهَذَا الْقَوْلِ.

وقال سيبويه: «جاء في بعض المواضع جوازُ جعلها بينَ بين، قبلها حرفُ حركةٍ ما قبلها، وليس ذا قياسٍ مُثَلَّبٌ. ومن جملة ذلك قولهم: منسأة بالالف، وكان منسأة بالهمزة»^(٢). ومنها قولهم: «سَالَ» في «سَالَ»^(٣)، فُرى قوله تعالى: ﴿سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ بالالف المحضة. ومن أبيات الكتاب، قول حسان رحمه الله:

سَأَلْتُ هُذَيْلَ رَسُولَ اللَّهِ فَاحِشَةً صَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا جَاءَتْ وَلَمْ تُصِبِ^(٤)

التمس هذيل النبي ﷺ، أن يُبيح لهم الزنا، فقال حسان ذلك. وقول آخر:

سَالَتَانِ الطَّلَاقُ أَنْ رَأَتَانِي قَلَّ مَالِي، قَدْ جِثْمَتَانِي بِنُكْرٍ^(٥)

وقال سيبويه بعد الإنشاد: «فهؤلاء ليس من لغتهم: سَلْتُ^(٦) تَسَالُ»^(٧). وقد مرَّ أنه لغة في سالت، مُعْتَلِّ الْعَيْنِ كَهَبْتُ تَهَابَ.

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣١٧).

(٢) «الكتاب» (٣: ٥٥٤) بتصرف.

(٣) في (ف): «ساله في سائل».

(٤) ديوانه (١: ٤٤٣)، وروايته: بها سالت، وفي (ف): «بها قالت». وانظر: «الكتاب» (٣: ٥٥٤) لسيبويه.

(٥) عزه سيبويه في الكتاب (٣: ٥٥٥) إلى زيد بن عمرو بن نُقَيْل القرشي. وانظر: «خزانة الأدب» (٦: ٤١٢) للبغدادي.

(٦) في (ف): «سالت».

(٧) «الكتاب» (٣: ٥٥٥).

ويؤيده قراءة ابن عباس «سأل سئلاً»، والسَّيْلُ: مصدرٌ في معنى السائل، كالغُورِ بمعنى الغائر، والمعنى: اندفع عليهم وادي عذابٍ فذهب بهم وأهلكهم. وعن قتادة: سأل سائلٌ عن عذابِ الله على مَنْ يَنْزِلُ وبِمَنْ يقع؟ فنزلت، و«سأل» على هذا الوجه مُضْمَنٌ معنى: عُنِيَ واهْتَمَّ.

فإن قلت: بِمَ يتصل قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾؟

قلت: هو على القول الأول متصلٌ بعذابٍ صفةً له، أي: بعذابٍ واقعٍ كائناً للكافرين، أو بالفعل، أي: دعا للكافرين بعذابٍ واقع، أو بواقع؛ أي: بعذابٍ نازلٍ لأجلِهِم، وعلى الثاني: هو كلامٌ، مبتدأ، جوابٌ للسائل، أي: هو للكافرين.....

قوله: (قراءة ابن عباس: «سأل سئلاً»)، على وجهٍ قياسيٍّ كما نقله من لغة قريش^(١). قال ابن جني: «السَّيْلُ هاهنا: الماء السائل، وأصله المصدرُ من قولك: سأل الماء سَيْلاً، إلا أنه أوقع على الفاعلِ كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]، أي: غائراً»^(٢). قوله: (اندفع عليهم)، الجوهري: «اندفعَ الفَرَسُ، أي: أسرعَ في سَنَرِهِ»^(٣)، واندفعوا في الحديث.

قوله: (هو على القول الأول). أي: على أن يكون ﴿سَأَلَ﴾ مُضْمَناً معنى «دعا».

قوله: (وعلى الثاني). أي: قول قتادة، ﴿سَأَلَ﴾ مُضْمَنٌ معنى: عُنِيَ واهْتَمَّ، أي: اهْتَمَّ وَعُنِيَ بعذابٍ سائلاً عنه، كأنه قيل: لما سأل^(٤) سائلٌ بعذابٍ، أي: اهْتَمَّ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، اتَّجَهَ لسائلٍ أن يقول: لمن سأل بالعذاب واهْتَمَّ به؟ فقيل: هو للكافرين.

(١) قوله: «على وجه قياسيٍّ كما نقله من لغة قريش» سقط من (ط)، (ح).

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٢٩).

(٣) في (ط) و(ف): «سيرها».

(٤) في (ف): «سئل».

فإن قلت: فقوله ﴿مِنْ أَنَّهُ﴾ بم يتصل؟

قلت: يتصل بواقع، أي: واقع من عنده، أو بدافع؛ بمعنى: ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجب الحكمة وقوعه. ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعد، جمع معرج، ثم وصف المصاعد وبعده مداها في العلو والارتفاع فقال: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أو امره ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ يُقَدَّرُ﴾ كمقدار مدة ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بما يعدُّ الناس. والروح: جبريل عليه السلام، أفرده لتمييزه بفضله، وقيل: الروح خلقهم حفظة على الملائكة، كما أن الملائكة حفظة على الناس.

فإن قلت: بم يتعلق قوله ﴿فَاصْبِرْ﴾؟

قوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾: ذي المصاعد، جمع معرج، روى محيي السنة عن سعيد بن جبير: ذي الدرجات. وعن قتادة: ذي الفواضل والنعم، أو معارج الملائكة، وعن ابن عباس: هي السموات لأنها معارج الملائكة. وقال القاضي: «هي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح، أو يزقن فيها المؤمنون في سلوكهم، أو في دار ثوابهم»^(١).

قوله: ﴿ثُمَّ وَصَفَ الْمَصَاعِدَ وَبُعَدَ مَدَاهَا فِي الْعُلُوِّ﴾، لم يرد بالوصف المتعارف، قال القاضي: «هو استئناف لبيان ارتفاع تلك المعارج، وبعده مداها على التمثيل، أي: أنها بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان في زمان يُقدَّرُ خمسين ألف سنة من سني الدنيا»^(٢). وروى محيي السنة عن عكرمة وقاتدة: «هو يوم القيامة، وأراد أن موقفهم للحساب، حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا»^(٣).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) المصدر السابق (٥: ٣٨٧).

(٣) «معالم التنزيل» (٨: ٢٢٠).

قلت: بـ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾؛ لأنَّ استعجال النَّصْرِ بالعذابِ إنما كان على وَجْهِ الاستهزاءِ برسولِ الله ﷺ والتكذيبِ بالوحي، وكانَ ذلكِ بما يُضجِرُ رسولَ الله ﷺ، فأمرَ بالصبرِ عليه، وكذلك مَنْ سألَ عن العذابِ لمن هو، فإنما سألَ على طريقِ التعنُّتِ، وكانَ من كفارِ مكة. ومَنْ قرأ: «سألَ سائل» أو «سئِلَ»، فمعناه: جاءَ العذابُ لقربِ وقوعِهِ، فاصبرْ فقد شارفتِ الانتقامَ، وقد جُعِلَ ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من صلوةِ ﴿واقِعٍ﴾ أي: يقع في يومٍ طويلٍ مقداره خمسونَ ألفَ سنةٍ من سِنِيكُمْ، وهو يومُ القيامة: إما أن يكونَ استطالةً له لشِدَّتِهِ على الكُفَّارِ، وإما لأنه على الحقيقة كذلك. قيل: فيه خمسونَ موطناً كلُّ موطنٍ ألفُ سنة، وما قَدَّرُ ذلكَ على المؤمنِ إلا كما بينَ الظَّهْرَ والعَصْرَ

قوله: (وكذلك مَنْ سألَ)، عطفُ على قوله: «لأنَّ استعجال النَّصْرِ بالعذابِ»، يعني: ﴿فَاتصِرْ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، لأنَّ ﴿سَأَلَ﴾: إمَّا مُضَمَّنٌ معنى «دعا» والداعي هو النَّصْرُ^(١)، وهو إتِّمُّا دعا على نفسه استهزاءً بمحمَّدٍ، صلواتُ الله عليه، فاقترضى ذلكَ تسليته صلواتُ الله عليه، وأنَّ ينصره على أعدائه^(٢)، وأنَّ يتصبرَ على أذاه. وإمَّا مُضَمَّنٌ معنى «اهتمَّ» و«عني» بالسؤال؛ فالسائلُ لما سَمِعَ معنى قوله: اهتمَّ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، قال مُستهزئاً: لمن هو؟

قوله: (وما قَدَّرُ ذلكَ على المؤمنِ إلا كما بينَ الظَّهْرَ والعَصْرَ)، رَوينا في «المُعْتَمِدِ» عن مُحْيِي السُّنَّةِ في «شرحِ السُّنَّةِ»، عن أبي سعيد: قيلَ لرسولِ الله ﷺ: يَوْمَ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، فما أطولَ هذا اليومَ! فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نَفْسِي بيده، إِنَّه لَيُخَفَّفُ على المؤمنِ، حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ، يُصليها في الدنيا»^(٣).

(١) هو النَّصْرُ بن الحارث القرشي.

(٢) قوله: «وأنَّ ينصره على أعدائه»، سقط من (ط).

(٣) «شرح السُّنَّةِ» (١٥ : ١٢٩) للبخاري، و«مُسْنَدُ الإمامِ أحمد» (١١٧١٧)، وقد صَغَفَهُ الشيخُ شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه، وانظر تمامَ تخريجِهِ فيه (١٨ : ٢٤٦).

الضميرُ في ﴿يَرَوْنَهُ﴾ للعذابِ الواقع، أو ليومِ القيامةِ فيمن عَلَّقَ ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بواقع؛ أي: يَسْتَبْعِدُونَهُ عَلَى جِهَةِ الإِحَالَةِ، ﴿و﴾ نحن ﴿نَرَاهُ قَرِيبًا﴾ هيناً في قُدْرَتِنَا غَيْرَ بَعِيدٍ عَلَيْنَا وَلَا مُتَعَذِّرٍ، فالمرادُ بالبعيد: البعيدُ من الإمكان، وبالقريب: القريبُ منه. نُصِبَ ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾ بقريباً، أي: يُمكنُ وَلَا يَتَعَذَّرُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، أو بِإِضْهَارِ يَقَعُ، لِدَلَالَةِ ﴿وَاقِعٍ﴾ عليه، أو يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ، أو هو بَدَلٌ عَنِ ﴿فِي يَوْمٍ﴾ فيمن عَلَقَهُ بواقع. ﴿كَأَلْهَلٍ﴾ كدُرْدِيّ الزيت، وعن ابنِ مسعودٍ: كَالْفَضِيَّةِ الْمَذَابِةِ فِي تَلَوْنِهَا.

قوله: (فيمن عَلَّقَ)، أي: في قولِ مَنْ عَلَّقَ ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بـ ﴿وَاقِعٍ﴾. ويُفهمُ منه أَنَّ الضميرَ إِذَا كَانَ لِلْعَذَابِ لَمْ يُعَلِّقْ بِهِ.

اعْلَمَ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ ﴿فِي يَوْمٍ﴾ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿تَنْزُجٍ﴾، حَيْثُ قَالَ: ﴿تَنْزُجُ الْمَلَكِيَّةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ﴾، أَي: إِلَى عَرْشِهِ إِلَى آخِرِهِ. وَثَانِيهِمَا: تَضْرِيحُهُ بِقَوْلِهِ: «وَقَدْ جُعِلَ ﴿فِي يَوْمٍ﴾ مِنْ صِلَةِ ﴿وَاقِعٍ﴾»؛ فَإِذَا عَلَّقَ بِـ ﴿تَنْزُجٍ﴾، فَالمرادُ مِنَ اليَوْمِ يَوْمٌ مِنَ أَيَّامِ الدُّنْيَا عَلَى تَقْدِيرِهِ بِالْمُدَّةِ، كَمَا قَالَ: فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مُدَّةَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاسُ. وَالقَرِيبُ وَالبَعِيدُ عَلَى حَقِيقَتَيْهِمَا، لِأَنَّ المَرَادَ مِنَ العَذَابِ، مَا نَزَلَ بِقَرِيشِ يَوْمَ بَدْرٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: السَّائِلُ نَضْرُبُ الحَارِثِ، قَالَ: «إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»^(١). وَقَوْلُهُ: «وَقِيلَ: هُوَ رَسولُ اللهِ ﷺ، اسْتَعْجَلَ بِعَذَابٍ لِلْكَافِرِينَ»؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ رَبُّ اللهِ ذِي المَعَارِجِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اسْتِطْرَاداً، تَعْظِيماً لِما اسْتَهْزَؤُوا بِهِ، أَي: يَسْتَهْزِئُونَ عَذَابَ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظْمَتُهُ.

وَإِذَا عَلَّقَ بِـ ﴿وَاقِعٍ﴾، فَالمرادُ مِنَ اليَوْمِ يَوْمُ القِيَامَةِ، وَالمُدَّةُ عَلَى حَقِيقَتَيْهَا، وَالقَرِيبُ وَالبُعْدُ عَلَى المَجَازِ، لِقَوْلِهِ: «البَعِيدُ مِنَ الإِمْكَانِ وَالقَرِيبُ مِنْهُ». وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾

(١) أَي: قَالَ اللهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِ، وَالأَيَةُ مِنَ سُوْرَةِ الأَنْفَالِ (٣٢).

﴿كَأَلْعَيْنٍ﴾ كالصَّوْفِ المصبوغِ ألواناً؛ لأنَّ الجبالَ جُدَّدَ بِيضٌ ومُحْمَرٌ مُخْتَلِفٌ ألوانها وغرابيبُ سودٌ، فإذا بُسَّتْ وطُيِّرَتْ في الجوى: أشبهتِ العَيْنَ المنفوشَ إذا طَيَّرْتَهُ الرِيحُ. ﴿وَلَا يَنْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأله بـ: «كيفَ حالُكَ» ولا يكلمُه، لأنَّ بكلِّ أحدٍ ما يَشغَلُه عن المسأَلَةِ.....

استئناف، فإنَّه لَمَّا قيل: سال سائلٌ بعذابٍ واقع، وكَيْتَ وكَيْتَ، أنكره الكافر، قيل: لماذا أنكره الكفار؟ قيل: لأنهم يعتقدون خُلْفَ وَعْدِ الله، أو أن لا حَشَرَ ولا نَشَرَ، وسُتَبعدون إِمكانه، فعلى الأول: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ منصوبٌ «كان كَيْتَ وكَيْتَ»، فيحصل لهم عذابُ الدارين. وعلى الثاني: مَنْصوبٌ بـ ﴿قَرِيبًا﴾، أو بإِضمارِ «يقع»، أو هو بَدَلٌ عن ﴿في يومٍ﴾.

قوله: (بُسَّتْ): فُتَّتْ، أو سِيَقَتْ.

قوله: (أي: لا يسأله وكيف حالُكَ؟)، رُوِيَ عن المصنِّبِ أَنه قال: قَوْلِي: بكيف حالُكَ، عَثَرْتُ على مثله في شعرِ العرب، قال يَحْيَى بنُ تَوْفَلِ الحِميري (١):

ولقد أتيتُ قُبورَهُم كَيْما تُحَبِّرني المِقابِرُ
فَهتفتُ عند قُبورِهِم يا با سعيد ويا مهاجر (٢)

وقال أبو الشعر الضَّبِّي (٣):

فسائلُ بنا إن كنتَ تَجْهَلُ أمرنا غدا تَنزِدُ والعِلْمُ يَجْلُو لك الجَهلا

(١) أصله من اليمن، شاعر هجاء يكاد لا يمدح أحداً، كان في أيام الحجاج، وله أخبار مع بلال بن أبي بُرْدَةَ أمير البصرة وقاضياها، أورد له المبرِّدُ قطعةً يمدحه بها:

فَلَوْ كُنْتُ مُمْتَدِحاً لِلنَّوَالِ فَتَى، لا متدحُّتُ عليه بلالا

انظر: «الكامل» (٢: ٨٠) للمبرد، و«الأعلام» (٨: ١٧٤) للزركلي.

(٢) لم أهتدِ إلى تخرجهما.

(٣) واسمُه: موسى بنُ سُحيم. عاش في زمانِ مُسلمة بن عبد الملك، وكان يُهاجِي الشاعر الطَّرَمَاح، له ترجمة مختصرة في «مُعجم الشعراء» للمرزباني.

﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ أي: يُبْصِرُ الأَحْمَاءُ الأَحْمَاءَ، فلا يُخْفُونَ عليهم، فما يمنعونهم من المساءلة أن بعضهم لا يُبْصِرُ بعضاً، وإنما يمنعونهم التشاغل. وقرئ: «يُبْصِرُونَهم»، وقرئ: «ولا يُسأل» على البناء للمفعول، أي: لا يقال لحميم: أين حميمك؟ ولا يُطلب منه؛ لأنهم يُبْصِرُونَهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب.

فإن قلت: ما موقع يُبْصِرُونَهم؟

قلت: هو كلامٌ مستأنف، كأنه لما قال ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، قيل: لعله لا يُبْصِرُهُ، فقيل: يُبْصِرُونَهم، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم.

فإن قلت: لم جمع الضميران في ﴿يُبْصِرُونَهم﴾ وهما للحميمين؟

تُنَبِّأ بِكُمْ قَدَ أَيُّومٍ مِّنْ نَّسَائِكُمْ وكم قد أذاقوا من عجائزك الثكلا (١)

قوله: (الأحماء)، جمع: حميم، كأشداء جمع شديد.

قوله: (ولا يُسأل) على البناء للمفعول، قال القاضي: «قرأها ابن كثير» (٢).

قوله: (لأنهم يُبْصِرُونَهم)، التبصير: التعريف والإيضاح.

قوله: (وهما للحميمين)، قيل: كان القياس: يُبْصِرُهُ (٣)، ليكون الضمير المستتر عائداً إلى أحد الحميمين، والبارز إلى الحميم الآخر. وقلت: هو من قول الواحدي: معنى: ﴿يُبْصِرُونَهم﴾: يُعَرِّفُونَهُمْ، أي: يُعَرِّفُ الحميم حميمه حتى يعرفه، ومع ذلك لا يُسأل عن شأنه لشغله بنفسه. والآية على حذف الجار، يقال: بَصَّرْتُ زيدا بكذا إذا عَرَّفْتَهُ (٤) إِيَّاهُ، ثُمَّ يُحَدِّفُ الجارُ فيقال: بَصَّرْتُهُ إِيَّاهُ (٥).

(١) لم أهتم إلى تخريجها.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٨٨)، وانظر تمام تخريج القراءة: «معجم القراءات القرآنية» (٧: ٢٢٠-٢٢١).

(٣) سقط لفظ «يُبْصِرُهُ» من (ح) و(ف).

(٤) في (ح) و(ف): «إلا أعرفته».

(٥) «الوسيط» (٥: ٥٥٢).

قلت: المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين. ويجوز أن يكون ﴿بَصْرُوهُمْ﴾ صفة، أي: حمياً مبصرين مُعرِّفين إياهم. قرئ: ﴿يَوْمِيذٍ﴾ بالجر والفتح على البناء للإضافة إلى غير مُتمكّن، و«من عذاب يومئذ»، بتنوين «عذاب» ونصب «يَوْمِيذٍ». وانتصابه بـ «عذاب»، لأنه في معنى: تعذيب. و«فصيلته» عشيرته الأذنون الذين فصل عنهم «تؤويه» تضمه انتهاء إليها، أو ليأذا بها في النوائب. ﴿يُنَجِّهِ﴾ عطف على ﴿يَقْتَدِي﴾، أي: يودُّ لو يقتدي، ثم لو يُنَجِّهِ الافتداء، أو من في الأرض. وثمَّ: لاستبعاد الإنجاء، يعني: يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه، ثم يُنَجِّيه ذلك وهيهات أن يُنَجِّيه. ﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتنبية على أنه لا ينفعه الافتداء ولا يُنَجِّيه من العذاب،

قوله: (المعنى على العموم)، الانتصاف: «فيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعم، كما التزم في قوله: والله لا أشرب ماءً من إداوة، أنه (١) يعم في المياه والأدوات، خلافاً لبعضهم في الإداوة» (٢).

قوله: (ويجوز أن يكون ﴿بَصْرُوهُمْ﴾ صفة)، عطف على قوله: «كلامٌ مُستأنف». روى محيي السنة عن السدي: «يعرفونهم: أما المؤمنُ فبياضٍ وجهه، وأما الكافرُ فسوادٍ وجهه» (٣). قوله: ﴿كَلَّا﴾: ردع (٤) للمجرم عن الودادة وتنبية، قال الكواشي: ﴿كَلَّا﴾: وقف تام، إن جعلتها ردعاً عن الودادة، وإن جعلتها بمعنى «ألا» (٥): استفتاحاً، ووقفت قبلها. فإن قلت: فكيف جمع المصنف المعنيين معاً؟ قلت: التنبية لازم ذلك الردع.

(١) في (ف): «فإنه».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٠٩).

(٣) «معالم التنزيل» (٨: ٢٢٢) للبغوي.

(٤) في (ف): «ردع».

(٥) سقط لفظ «ألا» من (ح) و(ف).

ثم قال: ﴿إِنَّمَا﴾ والضميرُ للنار، ولم يَجْر لها ذِكْر؛ لأنَّ ذَكَرَ العذابِ دَلٌّ عليها. ويجوزُ أن يكونَ ضميراً مبهماً تَرَجَمَ عنه الخبرُ، أو ضميرَ القِصة. و﴿لَطَى﴾ عَلَّمَ للنار، منقولٌ من اللطى، بمعنى اللهب، ويجوزُ أن يرادَ اللهب. و(نَزَّاعَةً): خبرٌ بعدَ خبرٍ لـ «إن»؛ أو خبرٌ لـ ﴿لَطَى﴾ إن كانتِ الهاءُ ضميرَ القِصة، أو صفةً له إن أرذتِ اللهب، والتأنيثُ لأنه في معنى النار، أو رفعٌ على التهويل، أي: هي نَزَّاعَةٌ. وقُرئ: نَزَّاعَةٌ، بالنصبِ على الحالِ المؤكدة، أو على أنها مُتَلَطِّئَةٌ نَزَّاعَةٌ؛ أو على الاختصاصِ للتهويل. والشَّوى: الأطرافُ أو جَمْعُ شِوَاة، وهي جلدة الرأسِ تَنزَعُها.....

قوله: (و﴿لَطَى﴾ عَلَّمَ للنار)، قيل: إِنَّهُ مَنقُولٌ مِن اسمِ الجِنسِ، وهو غيرُ مُنصَرَف.

قوله: (أو خبرٌ لـ ﴿لَطَى﴾ إن كانتِ الهاءُ ضميرَ القِصة)، لأنَّ ضميرَ القِصةِ والشَّانِ، يَسْتَدْعِي جملَةً مُفسِّرةً.

قوله: (أو رَفَعٌ على التهويل)، أي: رَفَعٌ على الاختصاصِ المفيدِ للتهويل.

قوله: (أو على أنها مُتَلَطِّئَةٌ نَزَّاعَةٌ)، فيكونُ حالاً منتقلة، قال أبو البقاء: «قيل: هو حالٌ من الضميرِ في ﴿تَدْعُوا﴾ مقدمة، وقيل: حالٌ بما دلت عليه ﴿لَطَى﴾؛ أي: تتلطى نَزَّاعَةٌ. وقيل: هو حالٌ من الضميرِ في ﴿لَطَى﴾، على أن تجعلها صفةً غالبَةً، مثل الحارثِ والعباسِ. وقيل: التقديرُ: أعني»^(١).

قوله: (والشَّوى: الأطراف)، الراغب: «الشَّوى: الأطراف، كاليدِ والرَّجْلِ، يُقالُ: رَمَاهُ فَأَشْوَاهُ: أصابَ شِوَاهُ، قال تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾. ومنه قيلُ للأمرِ الهَيِّئِ: شَوَى، مِن حيث إنَّ الشَّوى ليس بِمَقْتَلٍ».

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٤٠).

نَزَعًا فَتَبَّيْهَا ثُمَّ تَعَادَ، وَتَدْعُوا) مجازاً عن إحضارهم، كأنها تَدْعُوهم فَتُحَضِّرُهُم،
وَنَحْوَهُ قَوْلُ ذِي الرِّمَّةِ:

تَدْعُو أَنفَهُ الرَّبِّ

وقوله:

لَيْالِي اللَّهْوُ يَطْبِينِي فَأَتْبَعُهُ

قوله: (فَتَبَّيْهَا)^(١)، أي: تَقَطَّعَهَا.

قوله: (تَدْعُو أَنفَهُ الرَّبِّ)، يَصِفُ الثَّوْرَ الْوَحْشِيَّ، أَوَّلُهُ:

أَمْسَى بِوَهْيَيْنَ مُجْتَازاً لِمَرْتِعِهِ مِنْ ذِي الْفَوَارِسِ تَدْعُو أَنفَهُ الرَّبِّ^(٢)

الْوَهْيَيْنِ: اسْمُ مَوْضِعٍ، مُجْتَازاً لِمَرْتِعِهِ: طَالِباً لَهَا الرَّبِّبَ، جَمْعُ رَبَّةٍ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يَنْبْتُ مِنَ
الْأَرْضِ. وَذُو الْفَوَارِسِ: اسْمُ مَوْضِعٍ^(٣) فِيهِ رَمْلٌ. تَدْعُو أَنفَهُ: تَجْرَهُ لِأَكْلِهِ. وَفِي «الْمُجْمَلِ»:
«الرَّبَّةُ: نَبَاتٌ يَبْقَى فِي آخِرِ الصَّيْفِ»^(٤).

قوله: (لَيْالِي اللَّهْوُ يَطْبِينِي فَأَتْبَعُهُ)، تَمَامُهُ:

كَأَنِّي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبٌ^(٥)

يَطْبِينِي: دَعَانِي، طَبَاهُ يَطْبُوهُ: دَعَاهُ. الضَّارِبُ: السَّابِحُ، وَأَضْلُ الضَّرْبِ الْإِسْرَاعُ فِي
الْأَرْضِ، يَقُولُ: يَدْعُونِي لَيْالِي اللَّهْوُ فَأَتْبَعُهُ، كَأَنِّي سَابِحٌ فِي غَمْرَةٍ مِنَ الْمَاءِ لَعِبٌ فِيهِ.

(١) فِي (ف): «فَيْتَهكَّهَا».

(٢) الْبَيْتُ لِذِي الرِّمَّةِ، مِنْ قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ: مَا بَالُ عَيْنِكَ ... انظُر: «دِيوانه»، ص ١٦.

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: «مُجْتَازاً لِمَرْتِعِهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٤) «الْمُجْمَلُ فِي اللُّغَةِ» لِابْنِ فَارِسٍ، ص ٣٧١.

(٥) الْبَيْتُ لِذِي الرِّمَّةِ مِنْ قَصِيدَتِهِ السَّابِقَةِ، انظُر: «دِيوانه»، ص ١٢.

وقول أبي النجم:

تَقُولُ لِلرَّائِدِ أَعْشَبْتَ أَنْزِلَ

وقيل: تقول لهم: إني إلي يا كافر يا منافق، وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثم تلتقطهم التقاط الحب، فيجوز أن يخلق الله فيها كلاماً كما يخلق في جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وكما خلقه في الشجرة، ويجوز أن يكون دعاء الزبانية. وقيل: تدعو: تهلك؛ من قول العرب: دعاك الله، أي: أهلكك، قال:

دَعَاكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ بِأَفْعَى

قوله: (تقول^(١) للرائد: أعشبت أنزل)، قبله:

مُسْتَأْسِدٌ ذَبَانُهُ فِي غَيْطَلٍ^(٢)

المستأسد: النبات الطويل الغليظ، يقال: استأسد الزرع إذا قوي، ويقال للأصوات المختلفة: غيطة. والذبان: جمع ذباب، والرائد: الذي يطلب الماء والكلأ، أعشبت: أي: وجدت العشب، والغيطة: الجلبة، أي: صياح القوم، يقال للأصوات المختلفة: غيطة، والكلأ إذا التفت وكبر وأزهر كثير ذبابه، وصورتن: أي: يقول: الذبان: أصبت حاجتك فاقنع ولا تتجاوز، وقيل: يقول: الأرض المتجع، وقعت في عشب^(٣)، أنزل. مستأسد: خبر مبتدأ محذوف، أي: نبأه مستأسد.

قوله: (دعاك الله من رجل^(٤) بأفعى)، تمامه في «الأساس»:

إِذَا نَامَ الْعَيُونُ سَرَّتْ عَلَيْكَ^(٥)

(١) في «ديوان العجلي»، ص ٣٤١: «يَقُلْنَ».

(٢) من قصيدة طويلة لأبي النجم العجلي، مُسَمَّاةٌ بِأَمِّ الرَّجَزِ؛ يمدح فيها هشام بن عبد الملك، مطلعها:

الحمد لله العليُّ الأجلُّ
الواهبُ الفضلِ الوهوبِ المُجَزَّلِ

انظر: «ديوانه»، ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٣) في (ف): «شعب».

(٤) في (ف): «أجل».

(٥) لم أهدد إلى قائله، وتمامه كما في حواشي الكشاف: ضئيل تفتت السم الدعافا.

﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ ﴿وَوَلَّى﴾ عنه ﴿وَجَمَعَ﴾ المَالَ فجعله في وعاءٍ وكنّزه ولم يؤدِّ الزكاةَ والحقوقَ الواجبةَ فيه، وتشاغل به عن الدين؛ وزُهي باقتنائه وتكبر.

[﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ شُهَدَاتِهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ فِيهَا حَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ ١٩-٣٥]

أريد بالإنسانِ الناس؛ فلذلك استثنى منه: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾. والهلعُ: سرعةُ الجزع عند مسِّ المكروه، وسُرعةُ المنع عند مسِّ الخير؛ من قولهم: ناقةٌ هِلُوعٌ سريعةُ السير. وعن أحمد بن يحيى، قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلعُ؟ فقلت: قد فسره الله، ولا يكون تفسيرٌ أبين من تفسيره، وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهرَ شدةَ الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه الناس. والخيرُ: المَالُ والغنى، والشرُّ: الفقر، أو الصحة والمرض؛ إذا صحَّ الغنيُّ منع المعروف وشحَّ بماله، وإذا مرَّضَ جَزَعٌ وأخذَ يوصي.

«مِنْ رَجُلٍ»: مِنْ: تَجْرِيدِيَّة.

وفي «الأساس»: «دَعَاَهُ اللهُ بِمَا يَكْرَهُ: أَنْزَلَهُ بِهِ. وَأَصَابَتْهُمْ^(١) دَوَاعِي الدَّهْرِ: ضُرُوفُهُ».

قوله: (وعن أحمد بن يحيى)^(٢)، هو أبو العباس أحمد بن يحيى الشَّيبَانِيُّ المعروف بـ«تغلب»،

إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه.

(١) في (ف): «وأصابته».

(٢) في (ح): «عن أحمد بن حنبل بن يحيى».

والمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنها منه ورُسوخها فيه، كأنه مجبولٌ عليهما مطبوعٌ، وكأنه أمرٌ خلقتي وضروريٌّ غيرٌ اختياري، كقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلعٌ، ولأنه ذمٌ والله لا يُذمُّ فعله، والدليل عليه: استثناء المؤمنين

قوله: (والدليل عليه)، أي: على أن المعنى: أنه لإيثاره ذلك، جعل كأنه مجبولٌ عليه، وليس المراد أنه مخلوق كذلك، وإلا فكان لازماً له غيرٌ مُنفك عنه كما ذكر. وأيضاً، لو كان فعلُ الله، لوجبَ أن لا يُذمَّ عليه.

أما قوله: (والدليل عليه: استثناء المؤمنين)، فهو حجةٌ أخرى من حيث النقل والنص بعد دليل العقل. الانتصاف: «يُنزَهُ ظاهراً، ويُشرك باطناً؛ يُنزه الله تعالى عن خلقِ الهلع^(١)، ويُشرك معه في استبداد الخلق. وأنت إذا قلت: برئت القلم رقيقاً، فقد نسبت إليك البري والرقّة معاً. وقوله: «الله لا يُذمُّ فعله»، المذموم: العبدُ بحجةِ الله، أنه جعل فيه الاختيار، والله الحجةُ البالغة»^(٢).

وقلت: وأما الجوابُ عن قوله: «إنه كان في البطن والمهد لم يكن به هلعٌ»، فما ذكره الراغب في «غرة التنزيل»^(٣): «فإن قيل: كيف يصح أن يقال: خلق الإنسان هلعاً جزوعاً متنوعاً؟ هذا يوجب أن يكون الهلعُ والجزعُ والمنعُ، موجودةً حال خلقِ الله له وليس كذلك، لأنه لا يشعرُ بذلك في حال الطفولية؟ وأجيب: بأن معناه: خلق حيواناً ضعيفاً لا يصبرُ على الشدائد إذا دامت عليه، وإجراؤه عليه في حال الخلق توسعٌ ومجاز.

(١) في (ف): «البعض».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦١٢).

(٣) تقدم التعليق على نسبة هذا الكتاب إلى الراغب، وأن الصواب فيه أنه للخطيب الإسكافي، وأن عنوانه: «درة التنزيل وغرة التأويل».

وقال: الذي أذهب إليه، أَنَّ الهَلْعَ أصله التَّسْرُعُ والقلقُ نَحْوَ الشَّيْءِ، والحريصُ يَهْلَعُ، والجَزُوعُ يَهْلَعُ، والحريصُ يَتَسْرَعُ إلى مُسْتَهَاءِ أَتْبَاعِهِ هَوَاهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ زَدَاهُ^(١). والإنسانُ في حالِ صِغَرِهِ مَطْبُوعٌ عَلَى هَذِهِ الخِلَالِ، لِأَنَّهُ يَتَسْرَعُ إِلَى الثَّدْيِ، وَيَخْرُصُ عَلَى الرِّضَاعِ، وَإِنْ مَسَّهُ أَلَمُ جَزَعٍ وَبُكَاءٍ، وَإِنْ تَمَسَّكَ بِثَدْيِ^(٢) فَزَوَّجَمَ فِيهِ، مَنَعَ بِهَا فِي قُدْرَتِهِ مِنْ اضْطِرَابٍ وَبُكَاءٍ، فَلَا يَزَالُ يَفْعَلُ ذَلِكَ^(٣) إِلَى آخِرِ عُمُرِهِ^(٤).

وَرَوَى الإِمَامُ عَنِ القَاضِي عَبْدِ الجَبَّارِ، أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾: «نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وليس المرادُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ عَلَى هَذَا الوَصفِ. والدليلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى ذَمَّهُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَذُمُّ فِعْلَهُ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَى اسْتَنَى المَؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاهَدُوا أَنفُسَهُمْ فِي تَرْكِ هَذِهِ الخِصْلَةِ المَذْمُومَةِ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الخِصْلَةُ حَاصِلَةً بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، لَمَا قَدَرُوا عَلَى تَرْكِهَا».

ثُمَّ قَالَ الإِمَامُ: «اعلم أَنَّ الهَلْعَ لفظٌ واقِعٌ عَلَى أمرينِ: أحدهما: الحَالَةُ النَّفْسَانِيَّةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا يُقَدِّمُ الإنسانُ عَلَى إِظْهَارِ الجَزَعِ وَالتَّصَرُّعِ. والثاني: تِلْكَ الأفعالُ الظَّاهِرَةُ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ، الدَّالَّةُ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ النَّفْسَانِيَّةِ^(٥)، فَلَا شَكَّ أَنَّهَا تَحْدُثُ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ مَنْ خُلِقَتْ نَفْسُهُ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ، لَا يُمَكِّنُهُ إِزَالَتُهَا عَنْ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا حَالَةٌ نَفْسَانِيَّةٌ مَخْلُوقَةٌ فِيهَا عَلَى سَبِيلِ الاضْطِرَارِ، بِخِلَافِ الأفعالِ الظَّاهِرَةِ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ^(٦)، فَإِنَّهَا يَسْهُلُ تَرْكُهَا

(١) في (ف): «رداؤه».

(٢) في (ط) و(ف): «بشيء».

(٣) في (ح): «لذلك»، وفي (ف): «كذلك».

(٤) «درة التنزيل وغرة التأويل»، ص ٢٨٧.

(٥) زاد في «مفاتيح الغيب» هنا: «أما تلك الحالة النفسانية»، ولا شك أن إسقاطها من قبل الطيبي مقصود، لسعة الأفهام، وإدراك مقاصد الكلام في زمانهم.

(٦) من قوله: «الدالة على تلك الحالة النفسانية» إلى هنا، سقط من (ط).

والإقدام عليها، لأنها أمورٌ اختياريةٌ»^(١). أرادَ الإمامُ أنْ كَوَّنَ الإنسانَ مَجْبُولاً عَلَى شَيْءٍ، ليس إليه التَّخَلُّصُ منه، لكن لا يَمْنَعُ مِنْ إِبْدَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِمَا يُخَالِفُهُ.

وقال الراغب: «فإن قيل: ما الحكمةُ في خَلْقِ الإنسانِ عَلَى مَسَاوِيِ الْأَخْلَاقِ؟ قلنا: الحكمةُ في خَلْقِ الشَّهْوَةِ، أَنْ يُمَانِعَ نَفْسَهُ إِذَا نَارَعَتْه نَحْوَهَا، وَيُحَارِبَ شَيْطَانَهُ عِنْدَ تَزْيِينِهِ الْمَعْصِيَةَ، فَيَسْتَحِقُّ مِنَ اللَّهِ مَثُوبَةً^(٢) وَجَنَّةً^(٣)». ^(٤).

وقال القاضي: «هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً، أحوالٌ مُقَدَّرَةٌ أَوْ مُحَقَّقَةٌ، لأنها طَبَائِعُ جِبِلِّ الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا. وَإِذَا ﴿الْأُولَى ظَرَفٌ لـ ﴿جَزُوعاً﴾^(٥)، وَالْأُخْرَى لـ ﴿مَنُوعاً﴾، وَ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ لِلْمُوصُوفِينَ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ، بَعْدَ ذِكْرِ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْأَحْوَالِ الْمَذْكُورَةِ، قِيلَ: بِمُضَادَّةِ تِلْكَ الصِّفَاتِ لَهُمْ»^(٦). وَقُلْتُ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ الْاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعاً، وَتَكُونُ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ فِيهَا أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرْتَبِّ عَلَيْهِمُ الثَّوَابِ، مُقَابِلَةً لِمَا ذُكِرَ مِنْ^(٧) أَوْصَافِ^(٨) الْكَافِرِينَ الْمُسْتَحَقِّ بِهَا الْعِقَابِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾، بِدَلِيلِ خَتْمِ الْآيَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُكْرَمُونَ﴾، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ إِلَى آخِرِهِ، تَعْلِيلًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١١٤)، قاله في تفسير الآيات (١٩-٢١) من سورة المعارج.

(٢) في (ح): «عند».

(٣) في كتاب الإسكافي: «عقوبته»، وليس بصواب.

(٤) «درة التنزيل وغيرة التأويل» للخطيب الإسكافي، ص ٢٨٧.

(٥) في (ف): «لـ: هلوعاً».

(٦) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٨٩)، قاله في تفسير الآيات (١٩-٢١) من سورة المعارج.

(٧) في (ط) و(ف): «منها».

(٨) من قوله: «المؤمنين المرتب عليها الثواب» إلى هنا، سقط من (ح).

الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكارِه وظَلَّفوها عن الشَّهوات، حتى لم يكونوا جازِعِين ولا مانِعِين. وعن النبي ﷺ: «سُرُّ ما أُعطي ابنُ آدمِ سُحُّ هالِعٌ وجُبْنٌ خالِعٌ».

وتَحْرِيرُهُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَصَفَ النَّارَ بِهَا وَصَفَ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهَا ﴿تَتَعَوَّأْنَ مِنْ آذَانِ وَقَوَّيْ * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾، وهي أُمُّ الرِّذَائِلِ، وَسُرُّ خِصَالِ وَعِلَلِ الْأَخِيرِينَ^(١) بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، بِمَعْنَى: أَنَّ قِلَّةَ الصَّبْرِ، وَشِدَّةَ الْحِرْصِ مِنْ جِبَلَّةِ الْإِنْسَانِ، وَهُمَا اللَّذَانِ حَمَلَاهُ عَلَى جَمْعِ الْمَالِ، وَالْمَنَعِ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، - كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِذَا أَصَابَهُ الْفَقْرُ لَمْ يَصْبِرْ، وَإِذَا أَصَابَ الْمَالُ لَمْ يَنْفِقْ» - اسْتَطْرَدَ ذِكْرَ الَّذِينَ خَصَّصَهُم بِالْفَضَائِلِ، وَاسْتَخْلَصَ قُلُوبَهُمْ مِنْ تِلْكَ الرِّذَائِلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، فَوَصَفَهُمْ بِخِصَالٍ ثَمَانٍ مُضَادَّةٍ لِتِلْكَ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ، لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى الْإِسْتِغْرَاقِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالْجِزَاءِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَكَسْرِ الشَّهَوَاتِ، وَإِثَارِ الْأَجْلِ عَلَى الْعَاجِلِ^(٢)، ثُمَّ حَكَّمَ^(٣) لَهُمْ أَنَّهُمْ فِي جَنَاتٍ مُكْرَمُونَ. ثُمَّ فَرَعَ عَلَيْهِ بِالْفَاءِ قَوْلَهُ: ﴿فَأَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَبَلَّكَ الْمُهْطِعِينَ﴾، تَخْصِيصاً بَعْدَ تَعْمِيمِ، وَرَجَعاً إِلَى بَدْءِ، لِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ افْتَتَحَتْ السُّورَةَ بِسُؤَالِهِمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: (وَظَلَّفُوهَا)، الْجَوْهَرِيُّ: «ظَلَّفَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّيْءِ يَظْلِفُهَا ظَلْفًا، أَي: مَنَعَهَا مِنْ أَنْ تَفْعَلَهُ أَوْ تَأْتِيَهُ». وَعَنْ بَعْضِهِمْ: يُقَالُ: أَرْضٌ ظَلْفَةٌ، أَي: خَشِنَةٌ تَمْنَعُ عَنِ الشَّيْءِ.

قَوْلُهُ: (سُرُّ مَا أُعْطِيَ ابْنَ آدَمَ)، الْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «سُرُّ مَا فِي الرَّجُلِ سُحُّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»^(٤). قَالَ صَاحِبُ «الْجَامِعِ»: الشُّحُّ: أَشَدُّ الْبُخْلِ، وَالهُلَعُ: أَشَدُّ الْجُرْعِ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الشَّحِيحَ يَجْزَعُ جَزَعًا شَدِيدًا، وَيَجْزَنُ عَلَى دِرْهَمٍ يَقُوتُهُ وَيَخْرُجُ عَنْ

(١) لعل صوابه: وسرُّ خصال الأخيرين وعللهم.

(٢) في (ح): «الأجل».

(٣) في (ف): «حكى».

(٤) «سنن أبي داود» (٢٥١١).

فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ثم على صلاتهم يحافظون؟

قلت: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، كما روي عن النبي ﷺ: «أفضل العمل أدومه وإن قل»، وقول عائشة: «كان عمله ديمة». ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها، ومواقبتها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها. ﴿حَقُّ مَعْلُومٌ﴾ هو الزكاة، لأنها مُقدَّرة معلومة؛ أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة. السائل: الذي يسأل ﴿وَالْمَعْرُورِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيُحرّم ﴿يُصَدِّقُونَ يَوْمَ الْبَيْنِ﴾ تصديقاً بأعمالهم واستعدادهم له، ويشفقون من عذاب ربهم،

يده. وهذا من باب قولهم: «ليل نائم ويوم عاصف»، أي: ينأم فيه، وتغصف فيه الريح^(١)، ويحتمل أن يكون قد قال: «هالع» لمكان «خالع» لللازدواج. والخالع: الذي كأنه خُلِعَ فؤاده، لِشِدَّةِ خَوْفِهِ وفزعِهِ^(٢).

قوله: (أفضل العمل أدومه)، وقولها: (كان عمله ديمة)، أخرج أحمد بن حنبلٍ معنى الحديث الأول^(٣)، ولفظ الثاني في «مسنده»^(٤).

قوله: (ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم)، مذهبه^(٥).

(١) سقط لفظ (الريح) من الأصول الخطية.

(٢) «جامع الأصول في أحاديث الرسول» (٩٣٧٨-١١/٧١٥) لابن الأثير.

(٣) انظر: «مسند الإمام أحمد» (٢٤٣٢٢، ٢٥٤٣١، ٢٥٤٧٣، ٢٦٠٣٨، ٢٦٣٠٧).

(٤) انظر: «مسند الإمام أحمد» (٢٤١٦٢، ٢٤٢٨٢).

(٥) يعني مذهب المعتزلة في الإحباط والتكفير. انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاظمي عبد الجبار، ص ٦٢٤ وما بعدها.

واعترض بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا ينبغي لأحدٍ وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء. قرئ: «بشهادتهم»، و﴿بشهادتهم﴾، والشهادة من جملة الأمانات، وخصّها من بينها إبانة لفضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتضحيقها، وفي زيتها: تضييعها وإبطالها.

[﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ﴾ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَبْطَعُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ * عَلَيَّ أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ * فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا الَّذِي يُوْعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ [٣٦-٤٤]

كان المشركون يَحْتَفُونَ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَلَقًا حَلَقًا وَفِرَقًا فِرَقًا، يَسْتَمْعُونَ ويستهنون بكلامه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمدٌ فلندخلنا قبلهم، فنزلت. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسْرِعِينَ نَحْوَكُ، مَاذِي أَعْنَاقِهِمْ إِلَيْكَ،

قوله: («بشهادتهم» و﴿بشهادتهم﴾)، حفص: ﴿بشهادتهم﴾ على الجمع، والباقون: بغير ألف على التوحيد^(١).

قوله: (في زيتها)، أي: منعها.

قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مُسْرِعِينَ نَحْوَكُ مَاذِي أَعْنَاقِهِمْ، الجوهري: «هَطَعَ الرجلُ: إذا أقبل ببصره على الشيء لا يُقْلَعُ منه^(٢)، يَهْطَعُ هَطْرَعًا. وَأَهْطَعَ إِذَا مَدَّ عُنُقَهُ وَصَوَّبَ^(٣) رَأْسَهُ، وَأَهْطَعَ فِي عَدُوِّهِ إِذَا أَسْرَعَ».

(١) انظر: «التيسير» لأبي عمرو الداني، ص ٢١٤.

(٢) في «الصحاح»: «عنه».

(٣) في (ج): «وضرب».

مُقبِلين بأبصارِهِم عليك ﴿عَزِينَ﴾ فِرْقَا شَتَى جَمْعُ عِزَّةٍ، وَأَصْلُهَا عِزْوَةٌ، كَأَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ تَعْتَزِي إِلَى غَيْرِ مَنْ تَعْتَزِي إِلَيْهِ الْأُخْرَى؛ فَهَمَّ مُفْتَرِقُونَ، قَالَ الْكَمِيتُ:

وَنَحْنُ وَجَنْدَلُ بَاغٍ تَرَكْنَا كَتَائِبَ جَنْدَلٍ شَتَى عِزِينَا

وقيل: كان المستهزون خمسةً أزهط.

﴿كَلَّا﴾: رَدَعُ لَهُمْ عَن طَمَعِهِمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَهُوَ كَلَامٌ دَالٌّ عَلَى إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، فَكَانَهُ قَالَ: كَلَّا إِنَّهُمْ مُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ وَالْجِزَاءِ؛ فَمَنْ أَيْنَ يَطْمَعُونَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيِّ وَجْهِ دَلَّ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ؟

قَوْلُهُ: (وَأَصْلُهَا عِزْوَةٌ)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿عَزِينَ﴾: جَمْعُ عِزَّةٍ^(١)، وَالْمَحذُوفُ الْوَاوُ وَقِيلَ: الْبَاءُ؛ مِنْ عَزَوْتُهُ إِلَى أَبِيهِ وَعَزَيْتُهُ، لِأَنَّ الْعِزَّةَ الْجَمَاعَةَ، وَبَعْضُهُمْ مُنْضَمٌّ إِلَى بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ الْمُنْسُوبَ مَضْمُومٌ إِلَى الْمَضْمُومِ إِلَيْهِ^(٢). وَ﴿عَنِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿عَزِينَ﴾، أَيُّ: مُتَفَرِّقِينَ عَنْهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا^(٣).

قَوْلُهُ: (وَنَحْنُ وَجَنْدَلُ) الْبَيْتِ^(٤)، أَيُّ: نَحْنُ تَرَكْنَا كَتَائِبَ جَنْدَلٍ مُتَفَرِّقِينَ، وَالْحَالُ أَنْ جَنْدَلًا بَاغٍ. وَ«جَنْدَلُ» مَبْتَدَأٌ، وَ«بَاغٍ» خَبْرُهُ، وَالْجُمْلَةُ كَالْإِعْتِرَاضِ، وَ«تَرَكْنَا» خَبْرُ «نَحْنُ».

(١) في الأصول الخطية: عزوة، وليس بصواب.

(٢) في «التيان»: «المنسوب إليه».

(٣) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٤١).

(٤) من نونيته الشهيرة التي مطلعها:

ألم تتعجبي من ريبٍ دهرٍ رأيتُ ظهوره قُلبتُ بطوننا

انظر: «ديوان الكميت»، ص ٤٤٨.

قلت: من حيث إنه احتجاجٌ عليهم بالنشأة الأولى، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل، وذلك قوله: ﴿خَلَقْنَهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطف، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناساً خيراً منهم، وأنه ليس بمسبوقٍ على ما يريدُ تكوينه لا يعجزه شيءٌ، والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة.

ويجوز أن يُراد: إنا خلقناهم مما يعلمون، أي: من النطفة المذرة، وهي منصبتهم الذي لا منصب أوضع منه، ولذلك أبهم وأخفى، إشعاراً بأنه منصبٌ يُستحيا من ذكره، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم.

وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفةٍ كما خلقنا بني آدم كلهم، ومن حُكمتنا أن لا يدخل أحدٌ منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح،

قوله: (وبالقدرة على أن يهلكهم)، عطفٌ على قوله: بـ«النشأة الأولى»، فقوله «بالنشأة الأولى»، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: «بالقدرة»^(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، وهما من قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أُمَّتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَظَمْنَا النُّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) [الواقعة: ٦١-٦٢].

قوله: (وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفةٍ كما خلقنا)، يعني: أن المراد من قوله ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ النطفة. وذكرها إما لإثبات القدرة على أن يُقال: إنا كما قدرنا على خلقهم من ماء، نقدر على إعادتهم، أو لإثبات الإهانة والحقارة، وأنهم لا يستحقون تلك الكرامة من حيث أنفسهم، ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٣]، أو أنهم وسائر من خلق من الماء مُستوون، وإنما التقديم بحسب العمل. قال القاضي: «المعنى أنكم مخلوقون من نطفةٍ مذرة، وهي غير مناسبة لعالم القدس، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق

(١) من قوله: «فقوله: بالنشأة الأولى» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «قوله: وبالقدرة» إلى هنا، سقط من (ف).

فَلِمَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ إِيمَانٌ وَعَمَلٌ؟ وَقُرئ: «بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»،
و﴿يَخْرُجُونَ﴾، و﴿يُخْرَجُونَ﴾، و﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ بالإظهار والإدغام، و﴿نُصِبَ﴾،
و﴿نُصِبَ﴾، وهو كُلُّ مَا نُصِبَ فَعُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿يُؤْفَضُونَ﴾ يُسْرِعُونَ إِلَى الدَّاعِي مُسْتَبِقِينَ
كَمَا كَانُوا يَسْتَبِقُونَ إِلَى أَنْصَابِهِمْ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «سَأَلَ سَائِلٌ» أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ هُمْ
لَأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

بِالْأَخْلَاقِ الزَّكِيَّةِ، لَمْ يَسْتَعِدَّ لِدُخُولِهِ. أَوْ أَنْكُمْ مَخْلُوقُونَ مِمَّا تَعْمَلُونَ مِنْ أَجْلِ مَا تَعْلَمُونَ،
وَهُوَ تَكْمِيلُ النَّفْسِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَتَبَوَّأْ^(١) فِي مَنَازِلِ الْكَامِلِينَ^(٢).

قَوْلُهُ: (بِالْإِظْهَارِ وَالْإِدْغَامِ، و﴿نُصِبَ﴾)، بِالْإِدْغَامِ: أَبُو عَمْرٍو^(٣)، و﴿نُصِبَ﴾ بِضَمَّتَيْنِ:
ابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ، وَالْبَاقُونَ: بَفَتْحِ النُّونِ وَإِسْكَانِ الصَّادِ^(٤). قَالَ الزَّجَّاجُ: «فَمَنْ قَرَأَ «نُصِبَ»،
فَمَعْنَاهُ: كَأَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى عِلْمٍ مَنْصُوبٍ لَهُمْ. وَمَنْ قَرَأَ «نُصِبَ»، فَمَعْنَاهُ إِلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾^(٥) [المائدة: ٣].

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) فِي (ح): «يَتَوَّأ».

(٢) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٥: ٣٩١) بِتَصْرُفٍ.

(٣) أَدْغَمَ أَبُو عَمْرٍو الثَّاءَ فِي السِّينِ مِنْ قَوْلِهِ: «الْأَجْدَاثُ سُرَاعًا».

(٤) انظُرْ: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» لِابْنِ زَنْجَلَةَ، ص ٧٢٤.

(٥) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» الزَّجَّاجُ (٥: ٢٢٤).

سُورَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ أَوْ ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَتَقَوَّوْا إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُونَ لَوِ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١-٤﴾]

﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾ أصله: بأن أنذر، فمُحذَفُ الجَائِزِ وأُوصلَ الفعل، وهي أن الناصبة للفعل، والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له أنذر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار.....

سورة نوح

ثمان وعشرون آية، مكية، إجماعاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ: (وهي «أن» الناصبة للفعل)، قال في «يونس»: «قَدْ سَوَّغَ سَبِيوِيهِ أَنْ تَوَصَّلَ أَنْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ»^(١)، وَإِنْ كَانَ مِنْ حَقِّ الصَّلَةِ أَنْ تَكُونَ جَمَلَةً، تَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ، لِأَنَّ الْغَرَضَ وَصْلَهَا بِمَا تَكُونُ مَعَهُ فِي مَعْنَى الْمَصْدَرِ، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ دَالَّانِ عَلَى الْمَصْدَرِ»^(٢).

(١) انظر: «الكتاب» (٣: ١٦٢) لسبيويه.

(٢) انظر: (٧: ٥٨٢)؛ في تفسير الآية (١٠٥) من سورة يونس.

ويجوز أن تكون مفسرة؛ لأن الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود: «أنذر» بغير «أن» على إرادة القول. و﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ نحو ﴿أَنْ أَنْذِرَ﴾ في الوجهين.

فإن قلت: كيف قال ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ قلت: قضى الله - مثلاً - أن قوم نوح إن آمنوا عمّرتهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسع مئة، فقبل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى، أي: إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه، وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمداً لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت، ولم تكن لكم حيلة، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

[﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي مَا آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَوْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَتَلَّنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ.....﴾]

قوله: (قضى الله - مثلاً - أن قوم نوح عليه السلام إن آمنوا عمّرتهم) إلى آخره، ذكره الإمام بعينه في «تفسيره»^(١)، وقال الواحدي ونحوي السنة: «المعنى: يعافيكم»^(٢) إلى مُتَّهَى آجَالِكُمْ فلا يعاقبكم، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، يقول: آمنوا قبل الموت تسلموا من العقوبات، فإن أجل الموت إذا جاء^(٣) لا يؤخر، فلا يُمكنكم الإيمان إذا جاء الأجل^(٤). وقد مرّ شيء صالح من هذا البحث في «الفاطر» عند قوله: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ [فاطر: ١١].

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١١٩).

(٢) في (ط) و(ح): «يعاقبكم».

(٣) في (ط) و(ح): «حَلَّ».

(٤) انظر: «الوسيط» (٤: ٣٥٦) للواحدي، و«معالم التنزيل» (٨: ٢٢٧) للبغوي.

إِنَّهُ كَاتٌ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٥-٢٠﴾

﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ دأباً من غير فتورٍ مُستغْرِقاً به الأوقات كلها ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ﴾ جعل الدعاء فاعلاً لزيادة الفرار. والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فراراً؛ لأنه سببُ الزيادة، ونحوه: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤].
﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سَدَّوْا مَسَامِعَهُمْ عَنْ اسْتِمَاعِ الدَّعْوَةِ.....

وقال الإمام: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يعني: كنتم من أهل النظر والعلم، وفيه: أنهم لائنهم في حُبِّ الدُّنْيَا، كَأْتَمُّ شَاكُونَ فِي الْمَوْتِ^(١).

قوله: (والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فراراً)، يُرِيدُ أَنَّهُ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ.

قوله: (فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً)، يعني: جرد المسبب عن السبب، ليكون أشنع عليهم، أي: ليس مقصودي من دعوتكم^(٢) إلى الإيِّان والطاعة، سوى المنفعة العائدة عليكم^(٣)، فما أقبح إعراضكم عما ينفعكم! قال الإمام: «إنما دعاهم نوح عليه السلام إلى العبادة والتقوى، لأجل أن يغفر الله لهم؛ فإن المقصود الأولي هو حصول المغفرة، فالطاعة إنما تُطلبُ للتوسُّلِ بها إليها»^(٤).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٢٠).

(٢) في (ح): «دعواكم».

(٣) في (ط) و(ح): «إليكم».

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٣١) بتصرف.

﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وَتَغَطُّوا بِهَا، كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا أَنْ تَغْشَاهُمْ ثِيَابَهُمْ، أَوْ تَغْشِيَهُمْ لِثَلَا يُبْصِرُوهُ كِرَاهَةً النَّظْرِ إِلَى وَجْهِهِ مِنْ يَنْصَحُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ. وَقِيلَ لِثَلَا يَعْرِفَهُمْ؛ وَيَعْضُدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود: ٥].

الإصرار: مِنْ: أَصْرَ الْحِمَارِ عَلَى الْعَانَةِ إِذَا صَرَ أذْنِيهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَكْدِمُهَا وَيَطْرُدُهَا؛ اسْتَعِيرَ لِلْإِقْبَالِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْإِكْبَابِ عَلَيْهَا ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ وَأَخَذَتْهُمُ الْعِزَّةُ مِنْ اتِّبَاعِ نُوحٍ وَطَاعَتِهِ، وَذَكَرَ الْمَصْدَرِ تَأَكِيدٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى فَرْطِ اسْتِقْبَالِهِمْ وَعُتُوهُمْ. فَإِنْ قُلْتَ: ذَكَرَ أَنَّهُ دَعَاهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا، ثُمَّ دَعَاهُمْ جَهَارًا، ثُمَّ دَعَاهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ حَتَّى يَصِحَّ الْعَطْفُ.

قُلْتُ: قَدْ فَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا يَفْعَلُ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فِي الْإِبْتِدَاءِ بِالْأَهْوَنِ وَالتَّرْقِي فِي الْأَشَدِّ فَالْأَشَدِّ، فَافْتَتَحَ بِالْمُنَاصِحَةِ فِي السِّرِّ، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلُوا نَتَى بِالْمَجَاهِرَةِ، فَلَمَّا لَمْ تَوْثُرْ ثَلَاثَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ. وَمَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾ الدَّلَالَةُ عَلَى تَبَاعُدِ الْأَحْوَالِ، لِأَنَّ الْجِهَارَ أَغْلَظُ مِنَ الْإِسْرَارِ؛ وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ،

قوله: (أَنْ تَغْشَاهُمْ ثِيَابَهُمْ، أَوْ تَغْشِيَهُمْ)، أَي: اسْتَغْشَوْا، إِمَّا مِنَ الْغِشَاءِ أَوْ التَّغْشِيَةِ.

قوله: (أَصْرَ^(١) الْحِمَارِ عَلَى الْعَانَةِ^(٢))، الْجَوْهَرِيُّ: «صَرَ الْفَرَسُ أذْنِيهِ: صَمَّهَا إِلَى رَأْسِهِ».

العانة: هِيَ الْقَطِيعُ مِنْ حُمْرِ الْوَحْشِ، وَالْكَدْمُ: الْعَضُّ.

قوله: (اسْتَعِيرَ لِلْإِقْبَالِ عَلَى الْمَعَاصِي)، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي إِلَّا

التَّشْبِيهُ^(٣) بِالْحِمَارِ، لَكَفَى بِهِ مَرْجَرًا، فَكَيْفَ وَالتَّشْبِيهُ فِي أَسْوَأِ حَالٍ وَأَفْحَشِهَا، وَهُوَ حَالَةُ الْكَدْمِ، وَالطَّرْدِ لِلسَّفَادِ^(٤)؟».

(١) فِي (ف): «أَضْمَر».

(٢) فِي (ح): «الْغَايَةُ»، فِي الْمَوْضِعَيْنِ.

(٣) فِي (ف): «التَّشْبِيهُ».

(٤) فِي (ح): «لِلْفَسَادِ»، وَفِي (ف): «وَالسَّقَاوَةِ»، وَفِي (ط): «الْمُسْتَفَاد».

أغلظ من إفراد أحدهما. و﴿جِهَارًا﴾ منصوبٌ بدعوتهم نَصَبَ المصدر، لأنَّ الدعاءَ أحدُ نوعيه الجِهار، فنُصِبَ به نَصَبَ القُرْفَصَاءِ بَعْدَ، لكونها أحدَ أنواعِ القُعود، أو لأنه أرادَ بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾: جَاهَرْتُهُمْ.

ويجوزُ أن يكونَ صفةً لمصدرِ دعا، بمعنى دُعَاءِ جِهَارًا، أي مجاهرًا به، أو مصدرًا في موضعِ الحال، أي مجاهرًا؛ أمرهم بالاستغفارِ الذي هو التوبةُ عن الكفرِ والمعاصي، وقَدَّمَ إليهم الموعدَ بما هو أوقعُ في نفوسِهِم وأحبُّ إليهم من المنافعِ الحاضرةِ والفوائدِ العاجلة، ترغيبًا في الإيمانِ وبركاته والطاعةِ وتناججها من خيرِ الدارين، كما قال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرِكَاتٍ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُغْفَرْنَ لَهُنَّ وَالرِّجَالُ عَلَىٰ السَّيْرِ أَشَقُّونَ﴾ [الحج: ١٦].

قوله: (وقدَّمَ إليهم الموعد)، أي: ﴿وَزَيْلَ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا﴾ الآية. نحوُه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ [ق: ٢٨]، أي: أوعدتكم بعذابٍ على السنةِ رُسُلي^(١).

قوله: (كما قال): ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ [الصف: ١٣]، استشهادٌ لقوله: «بما هو أوقعُ لِنفوسِهِم وأحبُّ إليهم من المنافعِ الحاضرة»، أي: ولكم إلى هذه النعمةِ المذكورة، نعمةٌ أخرى محبوبةٌ إليكم، وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، أي فتحُ مكة. وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ شيءٌ من التوبيخِ على محبةِ العاجلة.

وقال القاضي: «كأنهم لَمَّا أمرهم بالعبادةِ قالوا: إن كُنَّا على حَقٍّ فلا نترُكُه، وإن كُنَّا على باطلٍ، فكيفَ يقبلُنا ويَلطِّفُ بنا مَنْ عَصَيْنَاهُ؟ فأمرهم بما يَجِبُ معاصيهم، ويَجْلِبُ إليهم المنح، ولذلك وَعَدَهُم عليه بما^(٢) هو أوقعُ في قلوبِهِم»^(٣).

(١) من قوله: «قوله: وقدَّمَ إليهم الموعد» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) في (ف): «ولذلك وَعَدَهُم ما».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٩٣)؛ قاله في تفسير الآية (١٠) من سورة نوح.

وقيل: لما كذّبوه بعد طولِ تَكْرِيرِ الدَّعوة، حَبَسَ اللهُ عَنْهُمْ القَطْرَ وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ نَسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَرُوي سَبْعِينَ، فَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى الخِضْبَ وَدَفَعَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ. وَعَن عَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَمَا زَادَ عَلَى الاستِغْفَارِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا رَأَيْتَكَ اسْتَسْقَيْتَ! فَقَالَ: لَقَدْ اسْتَسْقَيْتُ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا المَطْرُ؛ شَبَّهَ الاستِغْفَارَ بِالأَنْوَاءِ الصَّادِقَةِ الَّتِي لَا تُحْطَى. وَعَن الحَسَنِ، أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الجَدْبَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهُ؛ وَشَكَا إِلَيْهِ آخِرُ الفَقْرِ، وَآخِرُ قَلَةِ النِّسْلِ، وَآخِرُ قَلَةِ رَيْعِ أَرْضِهِ، فَأَمَرَهُمْ كُلَّهُمْ بِالاستِغْفَارِ،

قوله: (بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ)، المَجَادِيحُ: واحِدُهَا مَجْدَحٌ، واليَاءُ زَائِدَةٌ لِلإشْبَاعِ. وَالقياسُ أَن يَكُونَ واحِدُهَا مَجْدَاحًا، وَأما مَجْدَحٌ فَجَمْعُهُ المَجَادِيحُ. وَالْمَجْدَحُ نَجْمٌ مِنَ النُّجُومِ، وَقِيلَ: هُوَ الدَّبْرَانُ. وَقِيلَ: هُوَ ثَلَاثَةُ كَوَاكِبَ كَالْأَثَافِي، تُشْبِهُهَا بِالمَجْدَحِ^(١) الَّذِي لَهُ ثَلَاثُ شُعَبٍ. وَهُوَ عِنْدَ العَرَبِ مِنَ الأنْوَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى المَطْرِ^(٢)، فَجُعِلَ الاستِغْفَارُ مُشَبَّهًا بِالأنْوَاءِ مُحَابَبَةً بِهَا يَعْرِفُونَهُ، لَا قَوْلًا بِالأنْوَاءِ^(٣).

وجاء بلفظِ الجَمْعِ لإِرَادَةِ الأنْوَاءِ جَمِيعِهَا، الَّتِي يَزْعَمُونَ أَنَّ مِنْ شَأْنِهَا المَطْرُ. وَعَن بَعْضِهِمْ: وَقَدْ أَجْرَى اللهُ تَعَالَى إِنْزَالَ المَطْرِ عِنْدَ طُلُوعِ ذَلِكَ، ثُمَّ رَأُوا المَطْرَ مِنْهُ لَا مِنَ اللهِ. وَقِيلَ: المَجْدَحُ كَوَكْبٌ كَانَ يَكْثُرُ المَطْرُ عِنْدَ طُلُوعِهِ، أَكْثَرَ مَا يَكُونُ عِنْدَ طُلُوعِ سَائِرِ الكَوَاكِبِ^(٤).

(١) المَجْدَحُ: مَا يُجْدَحُ بِهِ، وَهُوَ خَشَبَةٌ ذُو جَوَانِبِ. «الصَّحاح» (١: ٣٥٨-جَدَح) لِلجوهرِيِّ.

(٢) انظر: «الأنواء» لابن قتيبة الدِّينوري، ص ١٤-١٥.

(٣) قَالَ الإمام الشافعي في «الأم» (٢: ٥٥١): «مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنِوَاءِ كَذَا وَكَذَا، عَلَى مَا كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الشَّرِكِ يَعْتَنُونَ مِنْ إِضَافَةِ المَطْرِ إِلَى أَنَّهُ أَمْطَرَهُ نِوَاءُ كَذَا، فَذَلِكَ كَفْرٌ؛ لِأَنَّ النِّوَاءَ وَقْتُ، وَالوَقْتُ مَخْلُوقٌ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ شَيْئًا، وَلَا يَمْطُرُ وَلَا يَصْنَعُ شَيْئًا. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنِوَاءِ كَذَا، عَلَى مَعْنَى مُطِرْنَا بِوَقْتِ كَذَا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: مُطِرْنَا فِي شَهْرِ كَذَا، وَلَا يَكُونُ هَذَا كَفْرًا».

(٤) فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ الخَدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَمْسَكَ اللهُ القَطْرَ عَنِ النَّاسِ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ لِأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ بِهِ كَافِرِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنِوَاءِ المَجْدَحِ». «مسند الإمام أحمد» (١١٠٤٢)، وَتَمَّةٌ تَمَامٌ تَحْرِيجِهِ.

فقال له الربيعُ بنُ صبيحٍ: أتاك رجالٌ يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية. والسماء: المظلة؛ لأن المطرَ منها ينزلُ إلى السحاب؛ ويجوزُ أن يرادَ السحابُ أو المطر، من قوله:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ

والمدراؤ: الكثيرُ الدرور، ومفعالٌ مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجلٌ أو امرأةٌ معطارٌ ومفقال. ﴿جَنَّتْ﴾ بسايتين. ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تأملون له توقيراً، أي: تعظيماً، والمعنى: ما لكم لا تكونون على حالٍ تأملون فيها تعظيمَ الله إياكم في دارِ الثواب،

قوله: (إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ)، تمامه:

رَعَيْنَاهَا وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا^(١)

ويروى: «رَعَيْنَاهُ»، على رواية: «إِذَا نَبَتَ السَّمَاءُ»، أي: العُشب.

قوله: (ما لكم لا تكونون على حالٍ تأملون فيها تعظيمَ الله إياكم في دارِ الثواب)، يعني: حثُّ على رجاءِ الوقارِ لله تعالى.

والمرادُ: الحثُّ على الإيمان والطاعةِ الموجبين لرجاءِ ثوابِ الله، فهو من الكنايةِ التلويحية، لأن من أرادَ رجاءَ تعظيمِ الله وتوقيره إياه، آمنَ به وعبده وعملَ صالحاً، ومن عملَ الصالحاتِ رجاءَ ثوابِ الله وتعظيمه إياه في دارِ الثواب، فهو من بابِ مُقدِّمةِ الواجب، لأن الحثُّ على تحصيلِ الرجاءِ مسبوقٌ بالحثِّ على تحصيلِ الإيمان، قال الإمام: «إن القومَ كانوا يُبالغون في الاستخفافِ^(٢) بنوحِ عليه السلام، فأمرهم الله بتوقيره، أي: إنكم إذا وقرتم نوحاً وتركتم استخفافه، كان ذلك لأجلِ الله، فما لكم لا تَرجونَ الله وقاراً»^(٣).

(١) لم أهد إلى قائله.

(٢) في (ط): «الاستحقاق»، وبعدها: «استحقاقه»، وليس بصواب.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٢٣).

و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقر، ولو تأخرَ لكانَ صلةً للوقار. وقولُه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه وهي حالٌ موجبة للإيمان به، لأنه خلقكم أطواراً، أي تاراتٍ: خلقكم أولاً تراباً، ثم خلقكم نُطفاً، ثم خلقكم علقاً، ثم خلقكم مُضغاً، ثم خلقكم عظاماً ولحمًا، ثم أنشأكم خلقاً آخر. أو لا تخافون الله حِلماً وترَكْ معاجلةً بالعقابِ فتؤمنوا؟ وقيل: ما لكم لا تخافون الله عظمةً؟

وعن ابن عباس: لا تخافون الله عاقبةً، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب، من: وَقَر؛ إذا ثبت واستقر.

قوله: (بيانٌ للموقر)، بكسر القاف، كأنه لَمَّا قيل: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، فقيل: لِمَنِ الوقار؟ فأجيب: لله، أي: الله الوقارُ فيوقركم، ولو تأخر كان صلةً للوقار، لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه. وعن بعضهم: البيانُ في كلامهم قد يتقدم ويتأخر، فالتقدم كقول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَقَارًا﴾، والتأخر كقولك: مَرَحِبًا بِكَ، فـ «بك» بيان. ولكن إذا تقدم هنا وجب أن يكون بياناً، أي: وقاراً. وإذا تأخر فالظاهر أنه صلة، ويجوز أن يكون بياناً، أي: وقاراً، لمن؟ أي: لله.

قوله: (وهي حالٌ موجبة للإيمان)، قال القاضي: «حالٌ مُقررةٌ للإنكار، من حيث إتها موجبة للرجاء، لأن خلقهم أطواراً يقتضي ذلك»^(١).

قوله: (وقيل: ما لكم لا تخافون الله عظمةً؟). قال الفراء: «إنما يوضع الرجاء موضع الخوف، لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف من الناس»^(٢)، ومن ثم استعمل الخوف بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِيَاكُمْ حُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]^(٣).

قوله: (من: وَقَر؛ إذا ثبت واستقر)، الجوهرى: «وَقَرَ الرَّجُلُ: إذا ثبت، يَقَرُّ وَقَارًا وَقَرَّةً، فهو وَقورٌ».

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٩٤).

(٢) في الأصول الخطية: «الياس»، وليس بصواب، انظر: «التحرير والتنوير» (٢٩: ١٢٨٦) لابن عاشور.

(٣) لم أهدئ إلى موضع عبارة الفراء.

تَبَهُم عَلَى النَّظْرِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْلَا؛ لَأَنَّهَا أَقْرَبُ مَنْظُورٍ فِيهِ مِنْهُمْ، ثُمَّ عَلَى النَّظْرِ فِي الْعَالَمِ وَمَا سَوَى فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ الشَّاهِدَةِ عَلَى الصَّانِعِ الْبَاهِرِ قَدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ﴿فِيهِنَّ﴾: فِي السَّمَوَاتِ، وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ بَيْنَ السَّمَوَاتِ مَلَابَسَةً مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا طَبَاقٌ، فَجَازَ أَنْ يُقَالَ: فِيهِنَّ كَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي جَمِيعِهِنَّ، كَمَا يُقَالُ: فِي الْمَدِينَةِ كَذَا وَهُوَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا.

وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَجُوهَهُمَا مِمَّا يَلِي السَّمَاءَ، وَظَهَرُوهَا مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ. ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يُبْصِرُ أَهْلَ الدُّنْيَا فِي ضَوْئِهَا كَمَا يُبْصِرُ أَهْلَ الْبَيْتِ فِي ضَوْءِ السَّرَاجِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى إِبْصَارِهِ، وَالْقَمَرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّهَا هُوَ نُورٌ لَمْ يَبْلُغْ قُوَّةَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وَالضِّيَاءُ أَقْوَى مِنَ النُّورِ.

استعيرَ الإنباتُ للإنشاء، كَمَا يُقَالُ: زَرَعَكَ اللهُ لِلْخَيْرِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ أَدَلَّ عَلَى الْحُدُوثِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا نَبَاتًا كَانُوا مُحَدَّثِينَ لَا مُحَالَةَ حَدُوثِ النَّبَاتِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْحَشْوِيَّةِ: النَّابِتَةُ وَالنَّوَابِتُ، لِحُدُوثِ مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ أَوْلِيَّةٍ لَهُمْ فِيهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نَجَمَ فُلَانٌ لِبَعْضِ الْمَارِقَةِ.....

قَوْلُهُ: (أَقْرَبُ مَنْظُورٍ فِيهِ مِنْهُمْ)، «مِنْهُمْ» صِلَةٌ «أَقْرَبُ»، يُقَالُ: قَرَّبَ مِنْهُ. وَإِضَافَةٌ «أَقْرَبُ» إِلَى النَّكْرَةِ، نَحْوُ: زَيْدٌ أَفْضَلُ رَجُلٍ، أَيْ إِذَا عَدَّدَ وَقَفَّصَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَنْظُورِ فِيهِ، وَاحِدًا وَاحِدًا، تَكُونُ أَنْفُسُهُمْ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْجَمِيعِ لَا مُحَالَةَ.

قَوْلُهُ: (لِبَعْضِ الْمَارِقَةِ)، النَّهَايَةُ: «الْمَارِقُونَ»: الْخَوَارِجُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١)، أَيْ: يَجُوزُونَهِ وَيَتَعَدَّوْنَهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٥١) وَمُسْلِمٌ (١٤٤-١٠٦٤).

والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتاً. أو نُصِبَ بأنبتكم لتضمينه معنى نبتتم ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين، ثم «يُخْرِجُكُمْ» يوم القيامة، وأكده بالمصدر كأنه قال: يُخْرِجُكُمْ حقاً ولا محالة، جعلها بساطاً مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ﴿فَجَاجَا﴾ واسعة مُنْفَجَّة.

[﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي نَبِيٌّ مِّنْ رَبِّكَ وَأَتَّبِعُ مِلَّةَ آبَائِي الْأَخْيَارِ﴾ * وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَيْكَلَ وَلَا نَدْرَأُ وَدًا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ ٢١-٢٤]

قوله: (فَنبِئْتُمْ نباتاً)^(١)، قال الزجاج: «معنى أنبتكم: تنبتون. والمصدر على اللفظ: أنبتكم إنباتاً، ونباتاً أبلغ في المعنى»^(٢)، لهما يشعر بأن الله أراد نباتكم^(٣) فنبتم.

الانحصار: «هذا من بديع القرآن، لا ترى العُدول من لفظ إلى آخر إلا للمعنى، والنحوي يقول: أجري المصدر على غير فعله، وصاحب المعاني يقول: له فائدة في التحقيق وراء هذا، وهو التنبية على تحتم القدرة وسرعة نفاذ حكمها، حتى كان إنبات الله تعالى نفس النبات، فقرن أحدهما بالآخر»^(٤). وقال القاضي: «تقديره: أنبتكم إنباتاً فنبتم نباتاً، فاخصر اكتفاء بالدلالة الإلزامية»^(٥).

وقلت: نحو هذه الدلالة ما في قوله تعالى: ﴿أَنفٍ أَضْرِبَ يَعْصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فَأَنْبَجَسَتْ ﴿[الأعراف: ١٦٠]، أي: فَضْرَبَ فأنبجست؛ قال: «فَجُعِلَ الانبجاسُ مُسَبِّباً عن الإيحاء

(١) في (ف): «فيقيم بياناً».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٣٠).

(٣) في (ط) و(ح): «إنباتكم».

(٤) لم أهتد إلى موضعه في «الانحصار».

(٥) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٩٤)، وفي (ف): «بالأدلة الالتزامية». والدليل الإلزامي: ما سلم عند الخصم،

سواء كان مُسْتَدَلًّا عند الخصم أو لا. انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص ١٤٠.

﴿وَاتَّبِعُوا﴾ رؤوسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام، وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزد لهم إلا وجهة ومنفعة في الدنيا زائدة ﴿خَسَارًا﴾ في الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمية يعرفون بها، تحقيقاً له وتثبيتاً، وإبطالاً لها سواء. وقري: ﴿وَوَلَدُهُ﴾، «وَوَلَدُهُ» بضم الواو وكسر ها.

بضرب الحجر، للدلالة على أن الموحى إليه، لم يتوقف عن اتباع الأمر^(١)، هذا معنى قول صاحب «الانتصاف»: «هذا هو التنبيه على تحتم القدرة وسرعة نفاذ حكمها»^(٢).

قوله: (وارتسموا ما رسموا لهم)، يقال: رسمت له كذا فازتسمه، أي امتثلته.

قوله: (زائدة ﴿خَسَارًا﴾)، ﴿خَسَارًا﴾: مفعول «زائدة»، و«زائدة» ثاني مفعولي ﴿جَعَلَ﴾.

قوله: (وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم، وسمية يعرفون بها)، يعني: كنى عن الرؤساء بقوله: ﴿مَنْ لَزِيذُهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾، كما يُكنى عن الإنسان بقولهم^(٣): حيئ مستوي القامة عريض الأظفار، لأنه صفة لازمة، أي: كاشفة موصحة، فنفى عنهم جميع وجوه الأرباح والمنافع، وأثبت لهم الخسار، وإليه الإشارة بقوله: «تحقيقاً له وإبطالاً لها سواء».

قوله: «(وَوَلَدُهُ» بضم الواو)، وقال الزجاج: «الوَلَدُ والوَلْدُ: بمعنى؛ مثل: العَرَبِ والعُرَبِ»^(٤). قرأ نافع وعاصم وابن عامر: «وَلَدُهُ»، بفتح الواو واللام، والباقون: بضم الواو وإسكان اللام^(٥). وكسر الواو^(٦): شاذ.

(١) انظر: (٦: ٦٢٣)؛ في تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأعراف.

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٢: ٣٣١)؛ قاله في التعليق على تفسير الزمخشري للآية (١١) من سورة يونس.

(٣) في (ف): «بقوله».

(٤) «معاني القرآن وإعراجه» (٥: ٢٣٠).

(٥) الوَلَدُ والوَلْدُ لغتان، مثل: الحَزْن والحُزْن، والرَّشِد والرُّشْد. والوَلْدُ بالضم جمع الوَلْد. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٢٦.

(٦) قراءة الحسن البصري، انظر: «إتحاف فضلاء البشر» (٢: ٥٦٤) للدمياطي.

﴿وَمَكْرُؤًا﴾ معطوفٌ على ﴿لَمَّا بَرَدَهُ﴾، وجمع الضمير وهو راجع إلى «من»؛ لأنه في معنى الجمع. والمكرون هم الرؤساء، ومكرهم: احتياهم في الدين وكيدهم لنوح، وتخريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه، وقولهم لهم: لا تذرون آلهتكم إلى عبادة ربّ نوح. ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ قرئ بالتخفيف والثقل. والكبائر أكبر من الكبير، والكبائر أكبر من الكبائر، ونحوه: طوال وطوال. ﴿وَلَا تَذَرْنَّ وَدًّا﴾ كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصّوها بعد قولهم: ﴿لَا تَذَرْنَّ الْهَتَكُمُ﴾، وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب، فكان «ودّ» لـ «كلب»، وسواع لـ «همدان»، ويعوق لـ «مذحج»، ويعوق لـ «مراد»، ونسر لـ «حمير»؛ ولذلك سمّيت العرب بعبد ودّ وعبد يعوق، وقيل: هي أسماء رجال صالحين، وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا؛ فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم؛ فعبدوهم. وقيل: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويعوق على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر. وقرئ: «ودّ» بضمّ الواو.

قوله: ﴿كَبِيرًا﴾ قرئ بالتخفيف والثقل، المشهورة، والتخفيف^(١): شاذّ.

قوله: ﴿فَكَانَ وُدًّا﴾ لـ «كلب» إلى آخره، مثله: رواه البخاري عن ابن عباس^(٢) مع

اختلاف فيه.

قوله: ﴿وَقُرِّي: «وُدًّا»﴾ بضمّ الواو: نافع، والباقون: بفتحها^(٣).

(١) «كَبِيرًا» ابن محيصن، جمع كبير. انظر: «إنحاف فضلاء البشر» (٢: ٥٦٤)، و«كَبِيرًا»: عيسى وابن

محيصن، للمبالغة. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٥٨) لأبي حيان.

(٢) صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل ... الخ.

(٣) وهما لغتان، وهو اسم صنم، كانوا يقولون: عبَدَ وُدَّ وُودًا. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة،

وقرأ الأعمش: «ولا يَغوثاً وَيَعوقاً» بالصَّرف، وهذه قراءةٌ مُشكِّلةٌ، لأنها إن كانا عربيتين أو أعجميتين ففيهما سبباً مَنع الصَّرف: إما التعريفُ ووزنُ الفعل، وإما التعريفُ والعُجْمَة؛ ولعله قصدَ الازدواجَ فصرفَهما، لمصادفتِهِ أخواتِها مُنصرفاتٍ: ودأ وسواعاً ونسراً، كما قرئ: ﴿وَحُصَّهَا﴾ بالإمالة، لوقوعه مع الممالاتِ للازدواجِ.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ الضميرُ للرؤساء، ومعناه: وقد أضلُّوا ﴿كثيراً﴾ قبلَ هؤلاءِ الموصينَ بأن يَتَمَسَّكوا بعبادةِ الأصنامِ ليسوا بأولَ مَنْ أضلَّوهم. أو وقد أضلُّوا بإضلالهم كثيراً، يعني أن هؤلاءِ المُضَلِّينَ فيهم كثرةٌ. ويجوزُ أن يكونَ للأصنامِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

فإن قلت: علامَ عطفَ قوله ﴿وَلَا تُزِدُ الظَّالِمِينَ﴾؟

قلت: على قوله: ﴿رَبِّ إِيَّاهُمْ عَصَوْنِي﴾، على حكايةِ كلامِ نوحٍ عليه السلامُ بعدَ ﴿قَالَ﴾ وبعد الواوِ النائيةِ عنه، ومعناه: قال ربِّ إِيَّاهُمْ عَصَوْنِي،

قوله: (ومعناه: وقد أضلُّوا)، مبتدأ وخبر، وقوله: «ليسوا بأولَ مَنْ أضلَّوهم»، بدلٌ أو بيان للخبر.

قوله: (وقد أضلُّوا بإضلالهم) أي: بإضلال المؤمنين (كثيراً)، وهم هم؛ فهو من التجريد، وكان من الظاهر: وقد أضلَّ الرؤساء، إيَّاهم، أي الموصينَ المخاطبين بقوله: ﴿لَا تُذَرُّنَّ ءَالَهُتَكُمُ﴾، فوضع «كثيراً» موضعه على سبيل التجريد؛ فالباءُ في «بإضلالهم» كالباءِ في: رأيتُ بك أسداً^(١).

قوله: (بعدَ ﴿قَالَ﴾ وبعد الواوِ)، يُريد: أن كلامَ نوحٍ مذكورٌ بعدَ ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِيَّاهُمْ عَصَوْنِي﴾، وبعد الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾،

(١) من قوله: «قوله: وقد أضلُّوا بإضلالهم»، إلى هنا، سقط من (ح).

وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً، أي: قال هذين القولين، وهما في محلّ التّصّب، لأنهما مفعولاً ﴿قَالَ﴾ كقولك: قال زيدٌ: نودي للصلاة وصلّ في المسجد؛ تحكي قوليه معطوفاً أحدهما على صاحبه.

فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟

قلت: المراد بالضلال: أن يُخذلوا ويُمنعوا الألفاظ، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسنٌ جميلٌ يجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع والهلاك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

[﴿مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَعْرِفُوا فَاذْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَٰجِرًا كٰفَرًا﴾ [٢٥-٢٧]

فحكي الله تعالى الكلامين وعطف أحدهما على الآخر؛ فالواو في قوله: ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ﴾ من كلام الله لا من كلام نوح، ومن ثمّ فسّر المعنى، وقدره بقوله: «أي: قال هذين القولين». ولو كان الواو من كلامه عليه السلام، لكان المقول واحداً، ألا ترى كيف جعل ما بعد ﴿قَالَ﴾، وهو ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، وما عطف عليه من قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ و﴿وَمَكْرُوا﴾ و﴿وَقَالُوا﴾، قولاً واحداً؟ ولعلّ قصده في ذلك: أن الجملة الثانية مُسبِّبة عن الأولى، فكان حَقُّها الفاء، أي: رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي، فلا تزدهم إلا ضلالاً، فتركت لِمكان الاستئناف، أي: فما تريد بهذا القول؟ فقال: لا تزد. ويُمكن أن تُجعل الواو من كلامه عليه السلام، ويُفوّض الترتيب إلى ذهن السامع.

قوله: (المراد بالضلال أن يُخذلوا)، الانتصاف: «هذا من قاعدته»^(١) التي عُرف فسادها.

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٢٠). وقاعدته التي بنى عليها، تقوم على مذهب المعتزلة في أن الله لا يريد الشر ولا يفعله. انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار، ص ٥١٨ وما بعدها.

تقديم ﴿مَمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، فإدخالهم النار، إلا من أجل خطيئاتهم، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما». وفي قراءة ابن مسعود «من خطيئاتهم ما أغرقوا» بتأخير الصلة، وكفى بها مزجراً لمُرْتَكِبِ الخطايا، فإن كُفِرَ قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم، وإن كانت كُبراهن، وقد نُعِيَتْ عليهم سائر خطيئاتهم كما نُعِيَ عليهم كفرهم، ولم يُفَرَّقْ بينه وبينهن في استيجاب العذاب، لئلا يتكَلَّ المسلمُ الخاطيءُ على إسلامه، ويعلم أن معه ما يستوجبُ به العذابَ وإن خلا من الخطيئة الكبرى. وقُرئ: ﴿خَطِيئَتِهِمْ﴾ بالهمزة،

قوله: (تقديم ﴿مَمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان^(١))، فإدخالهم النار، إلا من أجل خطيئاتهم). قال الإمام: «مَنْ قَالَ مِنَ الْمُتَجَمِّينَ: إِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ أَنَّهُ انْقَضَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ نِصْفُ الدَّوْرِ الْأَعْظَمِ، كَانَ مُكْذِباً^(٢) لَصَرِيحِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَيَجِبُ تَكْفِيرُهُ»^(٣).

قوله: (بتأخير الصِّلَةِ^(٤))، أي: بتأخير «ما» الزائدة عن ﴿خَطِيئَتِهِمْ﴾.

قوله: (وقُرئ: خطيئاتهم، بالهمزة)، أبو عمرو: مِمَّا خَطَايَاهُمْ، عَلَى لَفْظِ: قَضَايَاهُمْ^(٥). والباقون بالياء والتاء والهمزة جمعاً، والقراءتان الأخيرتان^(٦) شاذتان.

(١) سقط لفظ «بالطوفان» من (ح) و(ف).

(٢) في (ح): «تكذيباً».

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٢٩).

(٤) قوله: «بتأخير الصِّلَةِ»، سقط من (ح) و(ف).

(٥) وحجته أن الخطايا أكثر من الخطيئات، قال: «إِنَّ قَوْمًا كَفَرُوا أَلْفَ سَنَةٍ كَانَتْ لَهُمْ خَطَايَا لَا خَطِيئَاتٍ»، فضلاً عن إجماع القراء في سورة البقرة: ﴿تَنْفَرُ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٨]. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٢٦.

(٦) أي: خَطِيئَاتِهِمْ، بقلب الهمزة ياءً وإدغامها بالمجاورة، قراءة أبي رجاء. وخطيئتهم، على الأفراد مهموزاً، قرأها الجحدري عن أبي عمرو. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٥٩) لأبي حيان.

و«خَطِيئَاتِهِمْ» بقلبها ياءً وإدغامها، و«خَطَايَاهُمْ»، و«خَطِيئَتِهِمْ» بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد الكُفْر.

﴿فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾: جَعَلَ دُخُولُهُمُ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ كَأَنَّهُ مُتَعَقَّبٌ لِإِغْرَاقِهِمْ، لِاقْتِرَابِهِ، وَلِأَنَّهُ كَاتِنٌ لَا مَحَالَةَ، فَكَأَنَّهُ قَدْ كَانَ. أَوْ أُرِيدَ عَذَابُ الْقَبْرِ، وَمَنْ مَاتَ فِي مَاءٍ أَوْ فِي نَارٍ أَوْ أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ وَالطَّيْرُ، أَصَابَهُ مَا يُصِيبُ الْمَقْبُورَ مِنَ الْعَذَابِ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ: كَانُوا يَغْرُقُونَ مِنْ جَانِبٍ وَيُحْرَقُونَ مِنْ جَانِبٍ. وَتَكَثُرُ النَّارُ إِذَا لَتَعْظِيمِهَا، أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لَهُمْ عَلَى حَسَبِ خَطِيئَاتِهِمْ نَوْعًا مِنَ النَّارِ. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ تَعْرِضُ بِاتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى نَصْرِهِمْ، وَتَهَكِّمُ بِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَنْصُرُونَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]. ﴿دِيَارًا﴾ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي النَّفْيِ الْعَامِ، يُقَالُ: مَا بِالْدَّارِ دِيَارٌ وَدِيُورٌ، كَقِيَامٍ وَقِيَوْمٍ؛ وَهُوَ فَيَعَالٌ مِنَ الدَّوْرِ، أَوْ مِنَ الدَّارِ؛ أَصْلُهُ دِيُورٌ، فَفَعَّلَ بِهِ مَا فَعَلَ بِأَصْلِ سَيِّدٍ وَمَيِّتٍ، وَلَوْ كَانَ فَعَالًا لَكَانَ دَوَارًا.

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ الْكُفْرُ)، يَعْنِي: خَطِيئَتِهِمْ، عَلَى التَّوْحِيدِ: إِذَا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ، فَاشْتَمَلَ عَلَى الْخَطِيئَاتِ كُلِّهَا، فَهِيَ كَالْجَمْعِ. وَإِنَّمَا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْعَهْدُ^(١)، وَهِيَ الْخَطِيئَةُ الْكُبْرَى، وَهِيَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ مَاتَ فِي مَاءٍ أَوْ نَارٍ، أَوْ أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ وَالطَّيْرُ: أَصَابَهُ مَا يُصِيبُ الْمَقْبُورَ مِنَ الْعَذَابِ)، قَالَ الْإِمَامُ: «اعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي كَانَ مَوْجُودًا مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا الْجَسَدُ ثُمَّ كَبِيرًا، وَإِنْ أَجْزَأَهُ فِي التَّحَلُّلِ وَالذَّبْحِ^(٢) دَائِمًا، فَالْإِنْسَانُ عِبَارَةٌ عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ، الَّذِي هُوَ بَاقٍ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَقَلَ^(٣) ذَلِكَ الشَّيْءَ إِلَى النَّارِ وَالْعَذَابِ»^(٤).

(١) أي: العهد الذهني.

(٢) في الأصول الخطية: و«الدوران».

(٣) أي: إنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَقَلَ، وَفِي (ح): «إِنَّهُ انْتَقَلَ».

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٢٩) بتصرف.

فإن قلت: بِمَ عَلِمَ أَنْ أَوْلَادَهُمْ يَكْفُرُونَ، وَكَيْفَ وَصَفَهُم بِالْكَفْرِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ؟
 قلتُ: لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَذَاقَهُمْ وَأَكَلَهُمْ وَعَرَفَ طِبَاعَهُمْ
 وَأَحْوَالَهُمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَنْطَلِقُ بِابْنِهِ إِلَيْهِ، وَيَقُولُ: احْذِرْ هَذَا، فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، وَإِنَّ
 أَبِي حَدَّرَنِيهِ، فَيَمُوتُ الْكَبِيرُ وَيَنْشَأُ الصَّغِيرُ عَلَى ذَلِكَ؛ وَقَدْ أَخْبَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَنْ
 يَأْمَنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدِ آمَنَ؛ وَمَعْنَى ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا﴾: لَا يَلِدُوا إِلَّا مَنْ
 سَيَقْفَرُ وَيَكْفُرُ، فَوَصَفَهُمْ بِمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ».
 [رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ
 الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا] ﴿٢٨﴾

﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ أَبُوهُ لَسَمَكَ بَنُ مَثْوَشَلِيخَ، وَأُمُّهُ شَمَخَا بِنْتُ أَنْوَشَ، كَانَا مُؤْمِنِينَ.
 وَقِيلَ: هُمَا آدَمُ وَحَوَاءُ. وَقَرَأَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ: «وَلِوَالِدَيَّ»، يَرِيدُ: سَامَاً وَحَامَاً. ﴿بَيْتِي﴾
 مَنْزِلِي، وَقِيلَ: مَسْجِدِي، وَقِيلَ: سَفِينَتِي؛ خَصَّ أَوْلَاءَ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى وَأَحَقُّ
 بِدَعَائِهِ، ثُمَّ عَمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ. ﴿نَارًا﴾ هَلَاكًا.

فإن قلت: مَا فَعَلَ صَبِيائِهِمْ حِينَ أُغْرِقُوا؟

قلتُ: غَرِقُوا مَعَهُمْ لَا عَلَى وَجْهِ الْعِقَابِ، وَلَكِنْ كَمَا يَمُوتُونَ بِالْأَنْوَاعِ مِنْ أَسْبَابِ
 الْمَوْتِ، وَكَمُ مِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ بِالْغَرَقِ وَالْحَرَقِ،

قَوْلُهُ: (غَرِقُوا مَعَهُمْ لَا عَلَى وَجْهِ الْعِقَابِ، وَلَكِنْ كَمَا يَمُوتُونَ)، الْإِنْتِصَافُ: «لَمَّا عَلَّلَ
 أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَصَالِحِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَنَّ أَطْفَالَ قَوْمِ نُوحٍ لَمْ يَعْملُوا مَا يَقْتَضِي الْعُقُوبَةَ، فَاجْتَرَأَ^(١)
 عَلَى إِنْكَارِ عِقُوبَةِ الْأَطْفَالِ. وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَقَائِلُونَ: لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»^(٢).

(١) فِي (ف): «فَأخْبِرُوا».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٢١) بتصرف.

وكان ذلك زيادةً في عذابِ الآباءِ والأمهاتِ إذ أبصروا أطفالهم يَغرقون. ومنه قوله عليه السلام: «يَهْلِكُونَ مَهْلِكاً واحداً وَيُضْذَرُونَ مَصادِرَ شَتَّى»، وعن الحسن: أنه سُئِلَ عن ذلك، فقال: علمَ اللهُ براءَتَهُم فأهلكَهُم بغيرِ عذاب. وقيل: أَعقَمَ اللهُ أرحامَ نساءِهِم، وأبَيَسَ أصلابَ آبائِهِم قبلَ الطوفانِ بأربعينَ أو سبعينَ سنة، فلم يَكُنْ معهم صَبِيٌّ حينَ أُغْرِقُوا.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ نوحٍ كانَ مِنَ المؤمنينَ الذينَ تُدْرِكُهُم دعوةُ نوحٍ عليه السَّلام».

قوله: (ويُضْذَرُونَ مَصادِرَ شَتَّى)، يعني: يَعْمَهُمُ الهلاكُ، فيشملُ الصالحَ والطالحَ، لكن يُحْشَرُونَ وَيُضْذَرُونَ على قَدْرِ أَعْمالِهِم: فريقٌ هالِكُونَ، وفريقٌ ناجونٌ كما وَرَدَ في حديثِ خَسْفِ البَيْداءِ^(١).

تمت السورة



(١) أخرجه مسلمٌ (٢٨٨٤)، من رواية عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «عَبَثَ رسولُ اللهِ ﷺ في منامِهِ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، صنعتَ شيئاً في منامِكَ لم تكن تفعله، فقال: «العَجَبُ أنْ أناساً مِنْ أمتي يؤمُونُ بالبيتِ برجلٍ مِنْ قريشٍ، قد لجأَ بالبيتِ حتى إذا كانوا بالبيداءِ خُسِفَ بهم». فقلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الطريقَ قد يَجْمَعُ الناسَ، قال: «نعم، فيهم المستبصرُ والمجبورُ وابنُ السبيلِ، يهلكون مَهْلِكاً واحداً، وَيُضْذَرُونَ مَصادرَ شَتَّى، يَبْعَثُهُم اللهُ على نياتِهِم».

سُورَةُ الْجِنِّ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنِيعَهُ وَلَا وِلْدًا * وَأَنَّهُ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * ﴿١-٥﴾]
 قُرِي: «أُحِي»، وأصله: وُحِي؛ يقال: أوحى إليه ووحي إليه،

سُورَةُ الْجِنِّ

ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ آيَةً، مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقني

قوله: (قُرِي: «أُحِي»)، قال ابن جني: «وهي قراءة ابن عائذ^(١)، أُحِي: من وحيئت في وزن «فعل»، يقال: أوحيت إليه ووحيئت إليه. وأصله: وُحِي، فلما انضمت الواو ضمًا لازماً هُمزت كقوله تعالى: ﴿أُفْنِتْ﴾ [المرسلات: ١١]، أي: وُفنت، وقالوا في «وُجوه»: أُجوه^(٢)».

(١) هو جُوَيْهٌ بن عائذ الأسدي الكوفي، روى عن عاصم، له اختيار في القراءة. انظر: «غاية النهاية» (١: ١٩٩) لابن الجزري.

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٣٠).

فقلبت الواو همزة، كما يقال: أَعِدَّ، وَأَزِن، ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، وهو من القلب المطلق جَوَازُهُ في كُلِّ واوٍ مضمومة؛ وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كإشاح وإسادة، وإعاء أخيه. وقرأ ابنُ أبي عَبَّلة: «وُحِي» على الأصل. ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ بالفتح، لأنه فاعلٌ ﴿أُوْحِيَ﴾، و﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ بالكسر؛ لأنه مبتدأٌ محكيٌّ بعد القول، ثم نُحْمَلُ عليهما البواقي، فما كان من الوحي فُتِحَ، وما كان من قولِ الجنِّ كُسِرَ؛ وكُلُّهُنَّ من قولِهِم إلا التَّيْنِ الأُخْرَيْنِ ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾ [الجن: ١٨]،

قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، بالفتح، ابنُ عامِرٍ وحفصٌ وحمزةٌ والكسائيُّ بفتحِ الهمزة من ﴿وَأَنَّهُ﴾، ﴿وَأَنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ﴾، من لَدُنْ قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبًّا﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾، في ابتداءِ كُلِّ آيةٍ. والباقون: بكسرِها^(١).

وقال أبو البقاء: «ما في هذه السورة من «إِنَّ»، فبعضه مفتوحٌ وبعضه مكسورٌ وفي بعضه اختلاف، فما كان معطوفاً على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ فهو مفتوحٌ لا غير، لأنها مصدريةٌ وموضعها رَفَعٌ بـ ﴿أُوْحِيَ﴾. وما كان معطوفاً على ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، فهو مكسورٌ لأنه محكيٌّ بعدَ القول، وما صَحَّ أن يكونَ معطوفاً على الهاءِ في ﴿بِهِ﴾، كان مفتوحاً على قولِ الكوفيينَ على تَقْدِيرِ: وبأن، ولا يُجِيزُهُ البصريونَ، لأنَّ حرفَ الجرِّ يلزمُ إعادته عندهم هنا.

فأما قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾، فالفتحُ فيه على وجهين: أحدهما: أنه معطوفٌ على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، فيكونُ: قَدْ أُوحِيَ. والثاني: أن يكونَ مُعْلَقاً بـ ﴿تَدْعُوا﴾، أي: لا تُشْرِكُوا مع الله أحداً، لأنَّ المساجدَ، أي: مواضعَ السجود. وقيل: هو جمعُ مسجدٍ، وهو مصدر. ومن كَسَرَ استأنفَ، وأما ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾، فيحتملُ العطفَ على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، وعلى ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾^(٢).

(١) انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٢٧.

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٤٣).

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ [الجن: ١٩]، وَمَنْ فَتَحَ كُلَّهُنَّ فَعَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي ﴿فَتَامَنَا بِهِ﴾، كَأَنَّهُ قِيلَ: صَدَّقْنَا وَصَدَّقْنَا ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَاثَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾، وكذلك البَوَاقِي.

﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾: جماعةٌ منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل: كانوا من الشَّيْصَبَانِ، وهم أَكْثَرُ الْجِنِّ عِدْدًا، وِعَامَةٌ جُنُودِ إِبْلِيسَ مِنْهُمْ. ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ أَي: قَالُوا لِقَوْمِهِمْ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]. ﴿عَجَبًا﴾ بَدِيعًا مُبَيِّنًا لِسَائِرِ الْكُتُبِ فِي حُسْنِ نَظْمِهِ وَصِحَّةِ مَعَانِيهِ، قَائِمَةٌ فِيهِ دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ. وَعَجَبٌ مُصَدَّرٌ يَوْضَعُ مَوْضِعَ الْعَجِيبِ، وَفِيهِ مِبَالِغَةٌ؛ وَهُوَ مَا خَرَجَ عَنْ حُدُودِ أَشْكَالِهِ وَنَظَائِرِهِ. ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ يَدْعُو إِلَى الصَّوَابِ، وَقِيلَ: إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيْمَانِ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾ لِلْقُرْآنِ؛ وَلَمَّا كَانَ الْإِيْمَانُ بِهِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَيُوحَدَانِيَّتِهِ وَبِرَاءَةً مِنَ الشَّرْكِ، قَالُوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، أَي: وَلَنْ نَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِهِ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿رَبِّنَا﴾ يُفَسِّرُهُ.

قَوْلُهُ: (فَعَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ)، أَي: فَيُعْطَفُ عَطْفًا. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: «الْعَطْفُ عَلَى الْمَجْرُورِ رَدِيٌّ»، لِأَنَّهُ لَا يُعْطَفُ عَلَى الْهَاءِ الْمَخْفُوضَةِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْخَافِضِ. وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ مَحْمُولًا عَلَى مَعْنَى «أَمَّنَّا بِهِ»، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: صَدَّقْنَا وَعَلِمْنَا، أَي: وَصَدَّقْنَا أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا»^(١).

قَوْلُهُ: (قَالُوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ﴾)، هُوَ جَوَابٌ لِمَا أَرَادُوا أَنْ عَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، مِنْ بَابِ عَطَفِ الْمَسَبِّ عَلَى السَّبَبِ، وَحَرْفُ الْجَمْعِ^(٢) يُفَوِّضُ التَّرْتِيبَ إِلَى ذَهْنِ السَّمَاعِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْفَاءِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَجْمُوعَ قَوْلِهِ: ﴿فَتَامَنَا بِهِ﴾ وَ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، مُسَبَّبٌ عَنْ مَجْمُوعِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾؛ فَكَوْنُهُ قِرَاءَةً عَجَبًا، أَي: مُعْجَزًا بَدِيعًا،

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٣٤).

(٢) أي: الواو؛ ومعناها، عاطفة؛ مطلق الجمع. وفي (ط): «الجر» بدلًا من «الجمع».

﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾: عظمتُهُ، مِن قولك: جَدَّ فلانٌ في عيني، أي: عَظُم. وفي حديثِ عمرَ رضي الله عنه: «كان الرجلُ مِننا إذا قرأ البقرةَ وآلَ عمرانَ جَدَّ فينا». ورُوي: «في أعيننا». أو مُلكُهُ وسلطانُهُ أو غناه، استعارةٌ من الجَدِّ الذي هو الدَّولةُ والبَختُ؛ لأنَّ الملوكةَ والأغنياءَ هم المَجْدودون، والمعنى: وَصَفَهُ بالتعالَى عن الصَّاحِبَةِ والوَلدِ لعَظَمَتِهِ، أو لسلطانِهِ ومَلِكوتِهِ أو لغناه. وقوله: ﴿مَا آمَنَّا بِصَاحِبَةٍ وَلَا وَدَّاءٍ﴾ بيانٌ لذلك.....

يوجبُ الإيَّانَ به، وكونُهُ يَهْدِي إلى الرُّشدِ، موجبٌ قَلَعَ الشُّركَ مِن سِنخِهِ^(١)، والدَّخولُ في دينِ الله كُلِّهِ.

قوله: (إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا)، الحديثُ مِن روايةِ البُخاريِّ ومُسلم، عن أنسٍ، «أنَّ رجلاً كان يكتُبُ للنبيِّ ﷺ، وقد كانَ قرأ «البقرة» و«آلَ عمران»، وكانَ الرَّجُلُ إذا قرأ «البقرة» و«آلَ عمران» جَدَّ فينا»^(٢).

قوله: (أو مُلكُهُ)، عَظَفُ على «عَظَمَتُهُ».

قوله: (استعارةٌ من الجَدِّ)، أي استعارَ المَلِكُ والغنى من «الجَدِّ»، وهو يَحتمَلُ أن يكونَ استعارةٌ لفظيةٌ أو معنويةٌ؛ فاللفظيةُ أنَّ الجَدَّ موضوعٌ للبَختِ والدَّولةِ، وهما لا يستعملانَ إلا في المحلوفِ، فاستعيرَ في الله تعالى استعارةَ المرسنِ للأَنفِ. والمعنويةُ أنَّ يمثَلُ ما في الغائبِ، وهو عَظَمَةُ الله ومَلِكُهُ وغناه تعالى، بها في الشَّاهدِ من البَختِ والدَّولةِ للملوكِ، فاستعملَ في المشبَه ما كان مستعملاً في المشبَه به، من لفظِ الجَدِّ والبَختِ، ونحوهُ سبقَ في قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهَ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(٣) [الصَّافات: ٦٥].

(١) السِّنخُ: الأَصْلُ مِن كُلِّ شَيْءٍ.

(٢) انظر تكملة الحديث في البخاري (٣٦١٧)، ومسلم (٢٧٨١).

(٣) من قوله: «قوله: استعارة من الجَدِّ» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

وَقُرِي: «جَدًّا رَبَّنَا» على التمييز، و«جِدُّ رَبَّنَا»، بالكسر، أي: صِدْقُ رُبُوبِيَّتِهِ وَحَقُّ إِلهِيَّتِهِ عن اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَوَفَّقُوا لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، تَنَبَّهُوا عَلَى الْخَطِئِ فِيهَا اعْتَقَدَهُ كَفْرُهُ الْجَنِّ مِنْ تَشْبِيهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ وَاتِّخَاذِهِ صَاحِبَةً وَوَالِدًا، فَاسْتَعْظَمُوهُ وَنَزَّهُوهُ عَنْهُ. سَفِيهِهِمْ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ مَرَدَةِ الْجَنِّ. وَالشَّطَطُ: مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الظُّلْمِ وَغَيْرِهِ. وَمِنْهُ: أَشْطَطَ فِي السَّوْمِ إِذَا أَبْعَدَ فِيهِ، أَي: يَقُولُ قَوْلًا هُوَ فِي نَفْسِهِ شَطَطٌ؛ لِفَرَطِ مَا أَشْطَطَ فِيهِ، وَهُوَ نِسْبَةُ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ إِلَى اللَّهِ، وَكَانَ فِي ظَنِّنَا أَنَّ أَحَدًا مِنَ الثَّقَلَيْنِ لَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَلَنْ يَفْتَرِيَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ بِحَقِّ،

قوله: (وقرئ: جدًّا ربنا، على التمييز)، قال ابن جني: «قرأها عكرمة، أي: تعالى ربنا جدًّا،^(١) ثم قُدِّمَ المميِّزُ، نحو قولك: حَسَنٌ وَجَهًا زَيْدٌ»^(٢).

قوله: («وجِدُّ رَبَّنَا» بالكسر، أي: صِدْقُ رُبُوبِيَّتِهِ)، وَنَحْوُهُ: جِدُّ الْعَالِمِ، أَي: لَيْسَ فِيهِ هَزَلٌ، يَعْنِي أَنَّ عِلْمَهُ غَيْرُ مَشُوبٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَهْلِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»، جَوَابًا عَنْ قَوْلِهِمْ: «أَلَنْ نَخْذَنَا هَزُورًا؟» [البقرة: ٦٧]. فَمَعْنَى قَوْلِهِ: «جِدُّ رَبَّنَا» فِي هَذَا الْمَقَامِ، مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخِذَ لَهَوًا لَأَتَّخَذْتَهُ مِنْ لُدْنَا» [الأنبياء: ١٧]، إِذَا فُسِّرَ «لَهَوًا» بـ «وَلَدًا»، وَلِهَذَا قَالَ: «وَحَقُّ إِلهِيَّتِهِ عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ».

قوله: (أشطَطَ فِي السَّوْمِ إِذَا أَبْعَدَ فِيهِ)، الْجَوْهَرِيُّ: «يُقَالُ: سَامَتِ الْمَاشِيَةُ تَسُومُ سَوْمًا، إِذَا رَعَتَ، فِيهِ^(٣) سَائِمَةٌ».

قوله: (أي: يَقُولُ قَوْلًا هُوَ فِي نَفْسِهِ شَطَطٌ)، أَي: «شَطَطًا» صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ. قَالَ الْقَاضِي: «أَي: قَوْلًا ذَا شَطَطٍ، أَوْ^(٤): هُوَ شَطَطٌ لِفَرَطِ مَا أَشْطَطَ فِيهِ^(٥)».

(١) فِي (ح): تَعَالَى جِدُّ رَبَّنَا، وَلَيْسَ بِصَوَابٍ.

(٢) «الْمَحْتَسِبُ» (٢: ٣٣١).

(٣) فِي (ح): «فَتَبَقَى».

(٤) فِي (ح): «أَي»، وَسَقَطَ فِي (ف).

(٥) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٥: ٣٩٨).

فكنا نُصدِّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك، حتى تبيّن لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم. ﴿كَذِبًا﴾ قولاً كذباً، أي: مكذوباً فيه. أو نُصِبَ نَصْبَ المصدرِ لأنَّ الكذب نوعٌ من القول. ومن قرأ: «أن لن تقول»، وَضَعَ كَذِبًا موضعَ تَقُولًا، ولم يجعله صفةً؛ لأنَّ التَقَوْلَ لا يكونُ إلا كذباً.

[﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٦-٧﴾]

والرَّهَقُ: غَشْيَانُ المحارِمِ، والمعنى: أنَّ الإنسَ باستعاذتهم بهم زادوهم كِبَرًا وكُفْرًا؛ وذلك أنَّ الرجلَ مِنَ العربِ كان إذا أمسى في وادٍ قَفِرٍ في بعضِ مَسَايِرِهِ وخافَ على نفسه قال: أعودُ بسيدِ هذا الوادي من سُفهاءِ قومه، يريد الجنَّ وكبيرهم؛ فإذا سَمِعُوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدْنَا الجنَّ والإنسَ؛ فذلك رَهَقُهُمْ، أو فزادَ الجنُّ الإنسَ رَهَقًا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأنَّ الإنسَ ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ وهو من كلام الجن، يقوله بعضهم لبعض. وقيل: الآيتان من جملة الوحي، والضميرُ في ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ للجن، والخطابُ في ﴿ظَنَنْتُمْ﴾ لكفارِ قريش.

قوله: (ومن قرأ: «أن لن تقول»)، قال ابن جنّي: «قرأها الحسنُ ويعقوب، و﴿كَذِبًا﴾ على هذا منصوبٌ على المصدرِ من غيرِ حَذْفِ موصوفٍ معه، وذلك أنَّ «تَقَوْلَ» في معنى «تكذِب»، كأنه قيل: أن لن يكذبَ الإنسُ والجنُّ على الله كذباً. وأما من قرأ: «أن لن تقول»، فإنه وَصَفُ مصدرٍ محذوف، أي: أن لن تقولَ على الله قولاً كذباً، أو نَصَبَهُ^(١) نَصْبَ المفعولِ به، أي: أن لن تقولَ كذباً، كقولك: قلتُ حقاً، وقلتُ شعراً^(٢).

قوله: (الآيتان من جملة الوحي)، يعني: قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ﴾، وقولهم: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾، من جملة قوله: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، فعلى هذا، الحقُّ أن تُفْتَحَ ﴿أَنَّهُ﴾ و﴿وَأَنَّهُمْ﴾ كما مرَّ آنفاً.

(١) في (ف): «ونَصَبَهُ».

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٣٢).

[وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا * وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدًا

لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٨-٩﴾]

اللَّمْسُ: المَسُّ، فاستعير للطلب؛ لأن الماسَّ طالبٌ مُتعرِّفٌ قال:

مَسِسْنَا مِنَ الْآبَاءِ شَيْئًا وَكُنَّا إِلَى نَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرِ وَاضِعٍ

يقال: لَمَسَهُ وَالتَّمَسَهُ، وَتَلَمَسَهُ، كَطَلَبَهُ وَأَطْلَبَهُ وَتَطَلَّبَهُ، وَنَحْوُهُ: الْجَسَّ، وَقَوْمُهُمْ: جَسَّوهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَتَجَسَّسُوهُ. وَالْمَعْنَى: طَلَبْنَا بِلُغَةِ السَّمَاءِ وَاسْتِمَاعَ كَلَامِ أَهْلِهَا. وَالْحَرَسُ: اسْمٌ مُفْرَدٌ فِي مَعْنَى الْحَرَّاسِ، كَالْحَدَمِ فِي مَعْنَى الْحَدَّامِ؛ وَلِذَلِكَ وَصِفَ بِشَدِيدٍ، وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَاهُ لَقِيلَ: شَدَادًا؛ وَنَحْوُهُ:

أَخْشَى رُجَيْلًا أَوْ رُكَيْبًا غَادِيَا

قَوْلُهُ: (مَسِسْنَا^(١) مِنَ الْآبَاءِ) الْبَيْتُ (٢)، بَعْدَهُ:

فَلَمَّا بَلَّغْنَا الْأَمْهَاتِ (٣) وَجَدْتُمْ بَنِي عَمِّكُمْ كَانُوا كِرَامَ الْمُضَاجِعِ

أَيُّ: طَلَبْنَا عِيًّا، لِأَنَّ الْمَاسَّ طَالِبٌ مُتَعَرِّفٌ، وَقَوْلُهُ: «غَيْرِ وَاضِعٍ» صِفَةٌ «نَسَبٍ»، يَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْمَفَاخِرَةِ مَعَ الْأَقْرَبَاءِ: طَلَبْنَا مِنْ جَانِبِ الْآبَاءِ، هَلْ فِينَا مِنْ ضَعْفٍ وَفَسَادٍ، فَوَجَدْنَا كُلًّا مِنَّا يَنْتَمِي إِلَى حَسَبٍ شَرِيفٍ وَنَسَبٍ كَرِيمٍ يَرْفَعُهُ وَلَا يَضَعُهُ، فَلَمَّا بَلَّغْنَا الْمَفَاخِرَةَ إِلَى الْأَمْهَاتِ، وَجَدْتُمْ بَنِي عَمِّكُمْ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، كِرَامَ الْمُضَاجِعِ. وَالْمُضَاجِعُ كِنَايَةٌ عَنِ الْأَزْوَاجِ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْمَعَارِيضِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ: كُنَّا مِنْ طَرَفِ الْآبَاءِ سِوَاءٍ، وَكَانَتْ أَمْهَاتُنَا أَشْرَفَ مِنْ أَمْهَاتِكُمْ.

(١) فِي (ف): «مَسْنَا»، وَذَلِكَ يَقْتَضِي فَاعِلًا، فَضْلًا عَنِ انْكَسَارِ الْوِزْنِ.

(٢) الْبَيْتُ مِنْ مَقْطُوعَةِ الشَّاعِرِ يَزِيدِ بْنِ الْحَكَمِ الْكَلَابِيِّ، انْظُرْ: «شَرْحُ دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ» (١: ١٦٩-١٧٠) لِلْمَرْزُوقِيِّ.

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «مِنِ الْأَمْهَاتِ».

لأن الرَّجَلَ والرَّكْبَ مفردانِ في معنى الرُّجَالِ والرُّكَّابِ. والرَّصَدُ: مثل الحَرَسِ: اسمُ جمعٍ للرَّاصِدِ، على معنى: ذَوِي شُهَابٍ راصِدِينَ بالرَّجْمِ، وهم الملائكةُ الذين يَرْجُمُونَهُم بالشُّهُبِ، وَيَمْنَعُونَهُم مِنَ الاسْتِمَاعِ. ويجوزُ أن يكونَ صِفَةً للشُّهُابِ بمعنى الرَّاصِدِ، أو كقولهِ:

وَمَعَى جِيَاعًا

يعني: يَجِدُ شُهَابًا راصِدًا لَهُ ولأجلِهِ.

فإن قلتَ: كَأَنَّ الرَّجْمَ لم يكنِ في الجاهليةِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥]، فذَكَرَ فائِدَتَيْنِ في خَلْقِ الكواكِبِ: التزيينَ، وَرَجْمَ الشياطينِ؟

قولُهُ: (ذوي شُهَابٍ) إلى آخِرِهِ، قيل: حاصلُ الوجهِ الأوَّلُ: أن المرادَ بقولِهِ: ﴿شُهَابًا﴾ الملائكةُ، و﴿رَصَدًا﴾ صِفَتُهُ على الوجهِ الذي ذَكَرَهُ. والثاني: أن المرادَ بالشُّهُابِ مَعْنَاهُ المشهورُ مِن غيرِ حَذْفِ المضافِ، والرَّصَدُ مفردٌ لا اسمُ جمعٍ، وهو صِفَةٌ «شُهَابٍ». والثالثُ: أن يكونَ المرادُ بالشُّهُابِ اسمُ جمعٍ، كما في قولِهِ:

وَمَعَى جِيَاعًا^(١)

فإن المرادَ بالمعَى الجمعُ؛ ولهذا وَصَفَهُ بالجمعِ.

وقلتُ: لعلَّ الحاصلَ أن ﴿شُهَابًا رَصَدًا﴾، لا يخلو: إمَّا أن يُحْمَلَا على الجمعِ، كما يقالُ: ذوي شُهَابٍ راصِدِينَ. أو على الإفرادِ، بأن يُقالَ: شُهَابًا راصِدًا، أي: يَجِدُ كُلُّ واحدٍ مِنَ المُسْتَمِعِ شُهَابًا راصِدًا لَهُ ولأجلِهِ. أو يُحْمَلُ ﴿شُهَابًا﴾ على الإفرادِ، و﴿رَصَدًا﴾ على الجمعِ مُبالِغَةً، نحو قولِهِ: «مَعَى جِيَاعًا»، تَنزِيلًا لِلواحدِ وهو الموصوفُ منزلةَ الجمعِ؛ فإن المرادُ أن

(١) ذكر الطيبي تمامه بعد قليل.

قلت: قال بعضهم: حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ وهو إحدى آياته، والصحيح أنه كان قبل المبعث؛ وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية، قال بشر بن أبي خازم:

والعير يُرهبها الغبارَ وجحشها ينقض خلفها انقصاص الكوكب

كل مكان من أمكنة^(١) الأمعاء بمنزلة معي واحد، فكأنه أمعاء لشدة الجوع. كذلك، كل واحد من المستمع بمنزلة جماعة فيرمى بالراصدين؛ فلما كان الوجهان قرينين، عقبها بقوله: «يعني: يجد شهاباً راصدأله».

الجوهري: «المعي واحد الأمعاء». وفي الحديث: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر في سبعة أمعاء»^(٢).

وقلت: الحديث رواه البخاري ومسلم ومالك والترمذي، عن أبي هريرة. وأما «معي جياعاً»، فتأمله:

كأن فتود رخلي حين صممت حوالب غزراً ومعى جياعاً^(٣)

«حوالب» خبر «كأن»، والقنود عيدان الرّحل، جمع قند، والحالبان: العرقان المكتنفان بالسرّة، والحلوبة الناقة ذات اللبن تركت^(٤)، والحوالب جمعها. وغزرت الناقة كثر لبنها، وغزرت إذا قلّ لبنها، فهي غارزة، نزل الموصوف وهو واحد منزلة الجمع، ووُصف بالجمع وهو «جياعاً». قوله: (والعير يُرهبها) البيت^(٥)، «يُرهبها»: يكلّفها ويُغشيها، يعني: العير يكلّف الأتان

(١) في (ح): «الأمكنة».

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٦)، ومسلم (٢٠٦٣).

(٣) سبق تخريجه في سورة (طه).

(٤) في (ط): «تركب».

(٥) تأمله من رواية «الديوان».

والعير يُرهبها الحبارَ وجحشها ينقض خلفها انقصاص الكوكب

انظر: «ديوان بشر»، ص ٤٠. والحبار: الأرض اللينة الرّخوة تسوخ فيها القوائم.

وقال أوس بن حجر:

وانقَضَ كالذَّرِّيِّ يَتَّبِعُهُ نَقَعُ يَشُورُ نَحَالَهُ طُنْبًا

وقال عوف بن الحر:

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ الْفِهِ أَوْ النَّوَرَ كَالذَّرِّيِّ يَتَّبِعُهُ الدَّمَّ

ويتبع أثرها، ويُغشيها بالغبار في العدو، والجنحس يعدو خلفها، كما يهوي كوكب الرجم. خازم، بالخاء المعجمة.

قوله: (وانقَضَ كالذَّرِّيِّ) البيت^(١)، يَصِفُ فَرَسَهُ^(٢)، أي: هوى في العدو كالكوكب الذَّرِّيِّ، يَتَّبِعُهُ نَقَعٌ، أي: غبارًا، نَحَالَهُ، أي: تحسب الغبار طنبًا من امتداده، انقَضَ الطائر: سَقَطَ، وانقَضَ الطائر: هوى في طيرانه، ومنه انقضاض الكواكب.

قوله: (يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ) البيت^(٣)، يَصِفُ عَدُوَّ فَرَسِهِ، أي: يَرُدُّ عَلَيْنَا الْحِمَارَ الْوَحْشِيَّ وَهُوَ يَنْقُضُ، أي: يسقط ويهوي في عدوه.

من دون إلفه، أي: قُربِ زوجِه، مَعَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَ الْفِهِ، كَانَ أَشَدَّ نِفَارًا وَأَحَدًا عَدُوًّا. يَتَّبِعُهُ الدَّمُّ، أي: أَنَّهُ مَجْرُوحٌ. وكالذَّرِّيِّ، وهو إمَّا صَفَةٌ لِلشَّوْرِ أَوْ لِلْفَرَسِ، إِذَا فُتِّرَ الدَّمُّ لِلتَّقَرُّبِ وَالْحُمْرَةِ، وَهِيَ نَارُ الْحَاجِبِ.

وقوله: «عوف بن الحر»، صحَّ بالخاء المعجمة والراء والعين المهملة.

(١) لأوس بن حجر، كما نصَّ عليه الزمخشري، وهو في «ديوانه» ص ٣.

(٢) في (ف): «قرينه».

(٣) لعوف بن الحر، جعله ابن سلام في الطبقة الثامنة من شعراء الجاهلية. انظر: «طبقات فحول الشعراء»

(١: ١٦٤).

ولكن الشياطينَ كانت تَسْتَرِقُ في بعضِ الأحوال، فلَمَّا بُعِثَ رسولُ الله ﷺ، كَثُرَ الرَّجْمُ وِزَادَ زِيَادَةً ظَاهِرَةً؛ حَتَّى تَنَبَّهَ لَهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَمُنِعَ الْاِسْتِرَاقُ أَصْلَابًا.

وعن مَعْمِرٍ: قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِالنَّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ﴾؟ فَقَالَ: غُلِظْتُ وَشُدِدَ أَمْرُهَا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ. وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَقْرِ مِنَ الْأَنْصَارِ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي مِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ». وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مُلِثْتُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَادِثَ هُوَ الْمَلَأُ وَالكَثْرَةُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا﴾، أَي: كُنَّا نَجِدُ فِيهَا بَعْضَ الْمَقَاعِدِ خَالِيَةً مِنَ الْحَرَسِ وَالشُّهْبِ، وَالْآنَ مُلِثْتُ الْمَقَاعِدُ كُلَّهَا، وَهَذَا ذِكْرٌ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى الضَّرْبِ فِي الْبِلَادِ حَتَّى عَثَرُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ.

[﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [١٠]

يقولون: لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْحَادِثُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّجْمِ وَمَنْعِ الْاِسْتِرَاقِ، قُلْنَا: مَا هَذَا إِلَّا لِأَمْرِ أَرَادَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرًّا أَوْ رَشَدًا، أَي: خَيْرًا، مِنْ عَذَابٍ أَوْ رَحْمَةٍ، أَوْ مِنْ خِذْلَانٍ أَوْ تَوْفِيقٍ.

قوله: (ولكن الشياطين)، مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْمَبْعَثِ»^(١).

قوله: (وهذا ذكر ما حملهم)، أَي: هَذَا ذِكْرُ الدَّاعِي الَّذِي حَمَلَهُمْ. وَالذِّكْرُ الْمَشَارُ إِلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ مَجْمُوعٍ: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. وَهَذَا أَوْقَعَ «يقولون» بَيَانًا لِقَوْلِهِ: «وَهَذَا ذِكْرٌ مَا حَمَلَهُمْ». وَ«لَمَّا» مَعَ^(٢) جَوَابِهِ، مَقُولٌ «يقولون».

قوله: (ما هذا إلا لأمرٍ أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرًّا أَوْ رَشَدًا)، الْاِنتِصَافُ: «وَمِنْ عَقَائِدِهِمْ، أَي: الْجِنِّ، أَنَّ الْهُدَى وَالضَّلَالَ جَمِيعًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَتَأَدَّبُوا

(١) فِي (ف): «البعثة».

(٢) فِي (ف): «بلغ».

﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَتَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [١١]

﴿وَمَا الصَّالِحُونَ﴾ الأبرار المتقون، ﴿وَمَتَادُونَ ذَلِكَ﴾ ومنا قومٌ دون ذلك، فحذف الموصوف، كقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤]، وهم المقتصدون في الصِّلاح غيرُ الكاملين فيه، أو أرادوا الطالحين. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ بيانٌ للقسمة المذكورة، أي: كنا ذوي مذاهبٍ مُتفرقةٍ مختلفة، أو كنا في اختلافٍ أحوالنا مثل الطرائق المختلفة، أو كنا في طرائقٍ مختلفة، كقوله:

كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الشَّعْلَبُ

بنسبة الرِّشادِ إليه تعالى، وجعلوا الشرَّ مُضمَرِ الفاعِلِ، فجمعوا بين حُسْنِ الاعتقادِ والأدبِ الحَسَنِ^(١). وقلت: مثله قوله تعالى: ﴿أَنَّمَتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

قوله: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ بيانٌ للقسمة المذكورة، قال الزَّجَّاجُ: «قَدَدًا: مُتَفَرِّقِينَ مُسْلِمِينَ وَغَيْرَ مُسْلِمِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَنَسِطُونَ﴾، تَفْسِيرٌ لـ ﴿طَرَائِقَ قَدَدًا﴾^(٢). اعلم أنَّ ﴿طَرَائِقَ﴾ هو خبرٌ ﴿كَانَ﴾، إمَّا بحذفِ المضافِ في الخبر، وهو «ذو» تارة، و﴿قَدَدًا﴾ صفةٌ، وهو المرادُ من قوله: «كنا ذوي مذاهبٍ مُتفرقة». وأخرى مثلُ على منوال: زيدٌ أسدٌ، وكذلك أتى بأداة التشبيه وبين وجه الشَّبه بقوله: «في اختلافِ أحوالنا». وإمَّا على أنه ظرفٌ مُستقرٌّ يُحذفُ «في» في الوقت^(٣)، وإليه الإشارةُ بقوله: «كنا في طرائقٍ مختلفة». ويجوزُ أن يُترك على ما هو عليه، ويُقدَّرُ مضافاً في اسمِ كان، وهو المرادُ من قوله: «أو كانت طرائقنا طرائقَ قَدَدًا». قوله: ﴿كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الشَّعْلَبُ﴾، أولُه:

لَدُنْ بِهِرٍ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنَهُ فيه (٤)

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٢٥) وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٢) للعراقي.

(٢) «معاني القرآن وإعراجه» (٥: ٢٣٥).

(٣) في (ج) و(ف): «بحذف في الموقف».

(٤) البيت لساعدة بن جُوَيَّة الهذلي، انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣: ١١٢٠). وفي البيت شاهدٌ نحوي على نزع الخافض، أراد: في الطريق.

أو كانت طرائقنا طرائق قِداداً، على حَذْفِ المضافِ الذي هو الطرائقُ، وإقامةِ الضميرِ المضافِ إليه مقامه؛ والقِدَّةُ من قَدَّ، كَالِقِطْعَةِ من قَطَعَ، ووَصِفَتِ الطرائقُ بِالْقِدَدِ، لدلاليتها على معنى التقطُّعِ والتفرُّقِ.

﴿وَأَنَاظَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ، هَرَبًا﴾ [١٢]

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿هَرَبًا﴾: حالان، أي: لن نُعْجِزَهُ كائينَ في الأرضِ أينما كُنَّا فيها، ولن نُعْجِزَهُ هارينَ منها إلى السماء. وقيل: لن نُعْجِزَهُ في الأرضِ إن أرادَ بنا أمراً، ولن نُعْجِزَهُ هَرَباً إنْ طَلَبْنَا. والظنُّ بمعنى اليقين؛ وهذه صفةُ أحوالِ الجِنِّ وما هُم عليه من أحوالهم وعقائدهم: منهم أحياناً، وأشراز، ومُقتصدون؛ وأنهم يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَزِيزٌ غَالِبٌ لَا يَفُوتُهُ مَطْلَبٌ وَلَا يُنْجِي عَنْهُ مَهْرَبٌ.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىءَ آمَنَّا بِهِءَ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِءَ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [١٣]

﴿لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىءَ﴾: هو سَمَاعُهُم القرآنَ وإيمانهم به ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يَخَافُ، أي فهو غيرُ خائفٍ؛ ولأنَّ الكلامَ في تقديرٍ مبتدأٍ وخبرٍ دخلتِ الفاءُ، ولولا ذلك لَقِيلَ: لَا يَخَفُ.

فإن قلت: أي فائدةٍ في رفعِ الفعلِ وتقديرٍ مبتدأٍ قبله حتى يقعَ خبراً له ووجوبِ إدخالِ الفاءِ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لَا يَخَفُ؟

قلت: الفائدةُ فيه: أنه إذا فَعَلَ ذلك،

رُمِحَ لَدُنْ: أي: لَيِّنَ، عَسَلَ: أي: أَسْرَعَ، والضميرُ في «فيه» للهِزِّ أو «الكفِّ»، أي: عَدَا في الطريقِ، وفيه إشكال؛ لأنَّ حُكْمَ مَوْقِفِ المَكَانِ كحُكْمِ غيرِ الظروفِ، فلا يُحَذَفُ «في»، والبيتُ شاذٌّ. وقيل: منصوبٌ بحذفِ الجارِّ واتِّصالِ الفعلِ.

قوله: (الفائدةُ فيه: أنه إذا فَعَلَ ذلك)، أي: الرِّفْعُ والتقديرُ. مُخْلِصَةٌ الجوابِ: أن العَدْوَلَ مِنَ الظاهرِ لفائدتين: إحداهما: دلالةُ الثبوتِ والدوامِ التي تُعْطِيها الجُمْلَةُ الاسميةُ. وثانيتهما: تقديمُ الفاعِلِ المعنويِّ المفيدِ للاختصاصِ، وآتاه هو المختصُّ بذلك دون غيره.

فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره. وقرأ الأعمش: فلا يخف، على النهي. ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: أي جزاء بَخْسٍ ولا رَهَقٍ، لأنه لم يبخس أحداً حقاً، ولا رَهَقَ ظُلماً أحداً فلا يخاف جزاءهما، وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم»، ويجوز أن يراد: فلا يخاف أن يبخس؛ بل يُجزى الجزاء الأوفى، ولا أن ترهقه ذلّة، من قوله عز وجل: ﴿وَرَهَقَهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

[﴿وَأَنَا مَنَا الْمُسْلِمُونَ وَمَنَا الْقَلِيسُطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَلِيسُطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ١٤-١٥]

قوله: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾، الراغب: «رَهَقَهُ الأمرُ، أي: غَشِيَهُ بِقَهْرٍ»^(١). الأساس: «رَهَقَهُ: دَنَا مِنْهُ، وَأَزْهَقْنَاهُمْ الْخَيْلَ، وَصَبِيٌّ مُرَاهِقٌ: مُدَانٌ لِلْحُلْمِ». النهاية: «في حديث علي، رضي الله عنه، أنه وعظ رجلاً في صُحْبَةِ رَجُلٍ رَهَقَ، أي: فِيهِ خِفَةٌ وَحِدَّةٌ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ فِيهِ رَهَقٌ، إِذَا كَانَ يَخْفُ إِلَى الشَّرِّ وَيَغْشَاهُ».

قوله: (لأنه لم يبخس أحداً حقاً)، يريد أنه من باب نفي السبب لانتفاء السبب، وقد وُضِعَ مَوْضِعَ ذَلِكَ السَّبَبِ الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ؛ لِيُؤْذَنَ بِأَنَّ الْإِيْمَانَ هُوَ السَّبَبُ فِي الْاجْتِنَابِ عَنِ الْبَخْسِ وَالظُّلْمِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ». والحديث من رواية الترمذي والنسائي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من آمنه الناس على دمايهم وأموالهم»^(٢).

قوله: (ويجوز أن يراد: فلا يخاف أن يبخس)، عطف على قوله: «أي: جزاء بَخْسٍ ولا رَهَقٍ».

(١) «مفردات القرآن»، ص ٣٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٤٩٩٥).

﴿الْقٰسِطُوْنَ﴾ الكافرونَ الجاثرونَ عن طريقِ الحق. وعن سعيدِ بنِ جبْرِ رضي اللهُ عنه: أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لَهُ حِينَ أَرَادَ قَتْلَهُ: مَا تَقُولُ فِي؟ قَالَ: قَاسِطٌ عَادِلٌ، فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ! حَسِبُوا أَنَّهُ يَصِفُهُ بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ؛ فَقَالَ الْحَجَّاجُ: يَا جَهْلَةَ، إِنَّهُ سَمَانِي ظَالِمًا مُشْرِكًا، وَتَلَا لَهُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْقٰسِطُونَ﴾، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وَقَدْ زَعَمَ مَنْ لَا يَرَى لِلجَنِّ ثَوَابًا، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْعَدَ قَاسِطِيهِمْ وَمَا وَعَدَ مُسْلِمِيهِمْ؛ وَكَفَى بِهِ وَعْدًا أَنْ قَالَ: ﴿فَأُولٰئِكَ نَحْرَوْنَا رِشْدًا﴾، فَذَكَرَ سَبَبَ الثَّوَابِ وَمَوْجِبَهُ، وَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَ الْقَاسِطَ وَلَا يُثِيبَ الرَّاشِدَ.

والفرقُ أَنَّ الْقَصْدَ فِي نَفْيِ الْخَوْفِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ^(١)، كَانَ لِأَجْلِ انْتِفَاءِ سَبَبِهِ، وَعَلَى الثَّانِي لِإِثْبَاتِ مَنَافِيهِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، لِتَرْتَبِ^(٢) عَلَيْهَا الْجِزَاءُ الْأَوْفَى. كَمَا دَلَّ الْأَوَّلُ عَلَى أَنَّ مِنَ حَقِّ الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يُنْقَصَ حَقُّ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ وَلَا يَظْلِمَهُ، ذَلِكَ الثَّانِي عَلَى أَنَّ مِنَ حَقِّهِ أَنْ يَعْمَلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَيُفْهِمُ مِنْهُ أَيْضًا، أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، تُجْعَلُ أَعْمَالُهُ الَّتِي حَسِبَهَا أَعْمَالًا، هَبَاءً مَنثورًا.

قَوْلُهُ: ﴿الْقٰسِطُونَ﴾: الكافرونَ الجاثرونَ، الرَّاغِبُ: «الْقِسْطُ هُوَ النَّصِيبُ كَالنَّصْفِ وَالنَّصْفَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]. وَالْقِسْطُ بِالْفَتْحِ، هُوَ أَنْ يَأْخُذَ قِسْطَ غَيْرِهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: قَسَطَ الرَّجُلُ: إِذَا جَارَ، وَأَقْسَطَ: إِذَا عَدَلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْقٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]^(٣).

قَوْلُهُ: ﴿فَذَكَرَ سَبَبَ الثَّوَابِ وَمَوْجِبَهُ﴾، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿نَحْرَوْنَا رِشْدًا﴾، قَالَ: أَيُّ: قَصَدُوا

(١) وَهُوَ: لَا يَخَافُ جِزَاءَ بَخْسٍ وَلَا رَهَقٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَنْخَسْ أَحَدًا حَقًّا، وَلَا ظَلَمَ أَحَدًا. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: لَا يَخَافُ أَنْ يَنْخَسَ، بَلْ يَقْطَعُ بِأَنَّهُ يُجْزَى الْجِزَاءَ الْأَوْفَى. انظر: «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٤١).

(٢) فِي (ح): «لِيَتَرْتَبَ».

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٦٧٠.

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا * لِنَفْنِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [١٦-١٧]

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا﴾: «أن» مخففة من الثقيلة، وهو من جملة الموحى، والمعنى: وأوحى إلي أن الشأن والحديث: لو استقام الجنُّ على الطريقة المثلى، أي: لو ثبت أبوهم الجنُّ على ما كان عليه من عبادة الله والطاعة، ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر، وتبعه ولده على الإسلام، لأنعمنا عليهم ولو سَعْنَا رزقهم. وذكر الماء العَذَق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها؛ وقُرئ بهما، لأنه أصلُ المعاشِ وسعةُ الرزق. ﴿لِنَفْنِنَهُمْ فِيهِ﴾ لِنختبرهم فيه كيف يشكرون ما حوّلوا منه. ويجوزُ أن يكونَ معناه: وأن لو استقام الجنُّ الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم يتقلوا عنها إلى الإسلام، لو سَعْنَا عليهم الرزق مُستدرجين لهم،

طريق الحق والرشد. وقيل: تحروا: توخّوا^(١) وعمدوا. والضميرُ في «به» مُبهم، يُفسّره قوله: «أن قال».

قوله: ﴿بِفَتْحِ الدالِ وكسرها، وقُرئ بهما﴾، العَذَقُ^(٢)، بالفتح: هي المشهورة، وبالكسر^(٣): شاذة.

قوله: ﴿ويجوزُ أن يكونَ معناه﴾، عطفٌ من حيثُ المعنى على قوله: ﴿لو استقام الجنُّ على الطريقة المثلى﴾. واختلافُ التفسيرين^(٤) بحسبِ تفسيرِ ﴿لِنَفْنِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ فعلى الأولِ مؤولٌ بالاختيار، وعلى الثاني بالفتنة والهلكة. وينصُرُ الثاني التذييلُ بقوله: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربِّه يسلكه عذاباً صعداً﴾، لأنه توكيدٌ لمضمونِ السابقِ من الوعيد، أي: لِنستدرجهم فيتبعوا الشهواتِ التي هي موجبةٌ للبَطَرِ والإعراضِ عن ذكرِ الله.

(١) في قول الزمخشري: «وكفى به وعداً أن قال: ﴿فأولئك تحرّوا رَسَدًا﴾».

(٢) في (ف): «القذف».

(٣) قراءة عاصم في رواية الأعمش، انظر: «مختصر شواذ القراءات»، ص ١٦٣.

(٤) وهما: الاستقامة المؤدية إلى الإيمان فسعةُ الرزق، والاستماع الذي لا يتبعه إيمان، بل سعةُ رزقٍ للاستدراج.

لِنَفْتَنَهُمْ فِيهِ: لَتَكُونَ النِّعْمَةُ سَبَبًا فِي اتِّبَاعِهِمْ شَهَوَاتِهِمْ، وَوُقُوعِهِمْ فِي الْفِتْنَةِ، وَإِزْدِيَادِهِمْ إِثْمًا؛ أَوْ لِنُعَذِّبَهُمْ فِي كُفْرَانِ النِّعْمَةِ. ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عَنْ عِبَادَتِهِ أَوْ عَنْ مَوْعِظَتِهِ، أَوْ عَنْ وَحْيِهِ. ﴿يَسْأَلُكَ﴾: وَقُرِئَ بِالنُّونِ مَضْمُومَةً وَمَفْتُوحَةً، أَي: نُدْخِلُهُ ﴿عَذَابًا﴾، وَالْأَصْلُ: نَسَلُكَ فِي عَذَابٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا سَأَلَكَ فِي سَقَرٍ﴾ [المدثر: ٤٢] فَعُدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ: إِذَا بَحَذَفِ الْجَارَ وَإِيصَالَ الْفِعْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ خَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وَإِنَّمَا بَتَضْمِينِهِ مَعْنَى «نُدْخِلُهُ»، يُقَالُ: سَلَكَهُ وَأَسْلَكَهُ، قَالَ:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ

وَالصَّعْدُ: مَصْدَرٌ صَعِدَ، يُقَالُ: صَعِدَ صَعْدًا وَصُعُودًا، فَوُصِفَ بِهِ الْعَذَابُ، لِأَنَّهُ يَتَّصَعَدُ الْمَعْدَبُ، أَي: يَعْلُوهُ وَيَغْلِبُهُ فَلَا يُطِيقُهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرِ بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ: مَا تَصَعَّدَنِي شَيْءٌ مَا تَصَعَّدَتْنِي خِطْبَةُ النِّكَاحِ، يَرِيدُ: مَا شَقَّ عَلَيَّ وَلَا غَلَبَنِي.

قَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُكَ﴾، وَقُرِئَ بِالنُّونِ، عَاصِمٌ وَحَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ: بِالْيَاءِ مَفْتُوحَةً، وَالْبَاقُونَ: بِالنُّونِ^(١).

قَوْلُهُ: (حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ)، عَجَزُهُ:

شَلًّا كَمَا تَطْرُدُ الْجَمَالَ الشُّرْدَا^(٢)

قُتَائِدَةٌ: نَتِيَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَالشَّلُّ: الطَّرْدُ، أَي: يَسْلُونَ شَلًّا؛ يَصِفُ جَيْشًا هَزَمَهُمْ، حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ فِي هَذِهِ الشُّنْيَةِ، كَمَا تَطْرُدُ الْجَمَالَ النُّوقَ الشُّرْدَ النَّافِرَةَ.

قَوْلُهُ: (مَا تَصَعَّدَنِي^(٣) شَيْءٌ مَا تَصَعَّدَتْنِي خِطْبَةُ النِّكَاحِ)، «مَا» الْأُولَى نَافِيَةٌ، وَالثَّانِيَةُ مَصْدَرِيَّةٌ.

(١) بِالْيَاءِ: إِخْبَارٌ عَنِ اللَّهِ، لِقُرْبِهِ مِنْ لَفْظِ «رَبِّهِ». وَبِالنُّونِ: اللَّهُ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ، إِجْرَاءً لِلْكَلامِ عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ فِي:

﴿لَأَسْأَلَنَّهُمْ﴾، وَ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾. انظر: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» لِابْنِ زَنْجَلَةَ، ص ٧٢٩.

(٢) مِنْ شِعْرِ عَبْدِ مَنْفَرِ بْنِ رَبِيعِ الْجُرَيْمِيِّ، انظر: «شَرْحُ أَشْعَارِ الْهذَلِيِّينَ» (٢: ٦٧٥).

(٣) فِي (ف): «يَصُدُّنِي.. تَصُدُّنِي»، وَليْسَ بِصَوَابٍ.

[وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾]

﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ ﴾ من جملة الموحى. وقيل معناه: ولأن المساجد ﴿ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا ﴾، على أن اللام متعلقة بـ «لا تدعوا»، أي: فلا تدعوا ﴿ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ في المساجد، لأنها لله خاصة ولعبادته. وعن الحسن: يعني الأرض كلها؛ لأنها جعلت للنبي ﷺ مسجداً. وقيل: المراد بها المسجد الحرام، لأنه قبلة المساجد، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤]. وعن قتادة: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعتهم وكنائسهم أشركوا بالله، فأمرنا أن نخلص لله الدعوة إذا دخلنا المساجد. وقيل: المساجد أعضاء السجود السبعة،

النهاية: «يقال: تصعد الأمر إذا شق عليه وصعب، وهو من الصعود^(١): العقبة؛ وقيل: إنما تصعب عليه لقرب الوجوه^(٢) من الوجوه، ونظر بعضهم إلى بعض، لأنهم إذا كان جالسا معهم^(٣) كانوا نظراء وأكفاء، وإذا كان على المنبر كانوا سوقة ورعية».

وروي عن المصنف أنه قال: إنما قال عمر رضي الله عنه ذلك، لأنه كان من عاداتهم، أنهم كانوا يذكرون في الخطبة جميع ما كان في الخاطب من الأوصاف الموروثة والمكتسبة، فكان يشق عليهم ازججالاً، أو كان يشق أن يقول الصدق في وجه الخاطب وعشيرته^(٤).

قوله: (لأنها جعلت للنبي ﷺ)، هو من قوله صلوات الله عليه: «جعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً»^(٥). الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(١) في (ح) و(ف): «صعود»، من غير ألف، مغاير للمعنى.

(٢) قوله: «لقرب الوجوه»، سقط من الأصول الخطية.

(٣) في الأصول الخطية: «كانوا جالسين معه».

(٤) لم أهد إلى موضعه، وانظر: «الفاثق في غريب الحديث» (٢: ٢٩٩) له.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله.

قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة آراب، وهي: الجبهة، والأنف، واليدان، والرُكبتان، والقدمان»، وقيل: هي جمع مسجِد وهو السُّجود.

[وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾]

﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾: النبي ﷺ.

فإن قلت: هَلَا قِيلَ: رسولُ الله أو النبي؟ قلتُ: لأنَّ تقديره: وأوحى إليَّ أنه لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ، فلما كَانَ واقِعاً في كلامِ رسولِ الله ﷺ عن نفسه، جيءَ به على ما يَقتضيه التواضعُ والتذللُ، أو لأنَّ المعنى أن عبادة عبدِ الله لله ليست بأمرٍ مُستبعدٍ عن العقلِ ولا مُستنكر، حتى يكونوا عليه لِبَدًا.....

قوله: (أمرت أن أسجد على سبعة آراب)، عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سجد العبد سجدة، سجد معه سبعة آراب: وجهه وكفاه ورُكبتاه وقدامه»^(١)، أخرجه البخاري^(٢) ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

قوله: (أو لأنَّ المعنى)، يريد أن قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾، من جملة الموحى في قوله: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾، ومعطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ أَسْمَعَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾، فيكون من تيممة كلامه صلواتُ الله عليه، لأنه هو المأمور بقوله: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾، فكان الأصل: قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ لَمَّا قَمْتَ تَدْعُو؛ فَوَضِعَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ عِنْدَ اللَّهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَذَلُّلاً لَجَلَالِهِ تَعْلِيماً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْدِيبًا لَهُ^(٣). أو يكون نقلاً لكلام الله تعالى الموحى إليه؛ فتخصيص ذكر العبد إدماجٌ لمعنى أن العبادة من العبد غير مُستبعدة^(٤)، فلا ينبغي أن نتعجب منه.

(١) أخرجه أبو داود (٨٩١)، والنسائي (١٠٩٤)، والترمذي (٢٧٢) بهذا اللفظ، وانظر: مسلم (٤٩١)،

وفيه: سبعة أطراف، والبخاري (٨٠٩).

(٢) سقط لفظ «البخاري» من (ح) و(ف).

(٣) سقط قوله «وتأديبا له» من (ح) و(ف).

(٤) في (ح) و(ف): «مُستبعدة»، على معنى: ليست العبادة بأمرٍ مُستبعد. أما وقد استخدم «غير»، فإن اللفظ يقتضي التأييد.

ومعنى «قام يدعوه»: قام يعبده، يريد: قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أنه الجن فاستمعوا لقراءته ﷺ. ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي يزدهون عليه متراكمين تعجباً بما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً وساجداً، وإعجاباً بما تلا من القرآن، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمِعوا بما لم يسمِعوا بنظيره.

ولعل هذا الثاني^(١) أولى وأحرى لاضمحلال رسيمه، فراراً في مطاوي الفناء، فكأنه صلوات الله عليه يقول: أنا مبلغ كلام ربي هذا.

قوله: (قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أنه الجن)، روى الترمذي عن ابن عباس: «كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا سمعوا كلمة زادوا عليه تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ، قائماً يصلي بين جبلين أراه قال: بمكة، فلَقَّوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث^(٢) الذي حدث في الأرض^(٣). وروى الإمام أحمد ابن حنبل عن عكرمة: «كان رسول الله ﷺ، بنخلة يصلي العشاء، كادوا يكونون عليه لِبَدًا»^(٤).

قوله: (وإعجاباً)، عطف على «تعجباً». يقال: تعجبت من الشيء، وأعجبتني هذا الشيء بحسنه. والإعجاب يتعدى بنفسه إلى واحد، فعدها إلى اثنين بزيادة الباء، كأن البعض قال لبعض آخر: أنظروا إلى حُسن هذا القرآن، وغبابة نظمه، وغبارة حكمه.

(١) أي الجواب الثاني.

(٢) من قوله: «قائماً يصلي» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٢٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٤٣٥).

وقيل معناه: لَمَّا قَامَ رَسُولًا يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ مَخَالِفًا لِلْمَشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْآلِهَةَ مِنْ دُونِهِ، كَادَ الْمَشْرِكُونَ لِنِظَاهُرِهِمْ عَلَيْهِ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى عِدَاوَتِهِ، يَزْدَحْمُونَ عَلَيْهِ مُتْرَاكِمِينَ. ﴿لِبَدَاءَ﴾: جَمْعُ لِبْدَةٍ، وَهُوَ مَا تَلْبَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا (لِبْدَةُ الْأَسَدِ). وَقِرْيٌ: «لِبْدَاءُ»، وَاللُّبْدَةُ فِي مَعْنَى اللَّبْدَةِ، وَلِبْدَاءٌ: جَمْعُ لَابِدٍ، كَسَاجِدٍ وَسُجَّدٍ، وَلِبْدَاءٌ بِضَمِّتَيْنِ: جَمْعُ لَبُودٍ، كَصَبُورٍ وَصُبْرٍ. وَعَنْ قَتَادَةَ: تَلْبَدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصَرَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ. وَمَنْ قَرَأَ «وَلِإِنَّهُ» بِالْكَسْرِ، جَعَلَهُ مِنَ كَلَامِ الْجِنِّ، قَالُوهُ لِقَوْمِهِمْ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ حَاكِينَ مَا رَأَوْا مِنْ صَلَاتِهِ وَازْدِحَامِ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ فِي اثْتِمَامِهِمْ بِهِ.

قوله: (وقيل: معناه: لَمَّا قَامَ رَسُولًا) (١)، ويروى أن رسول الله (٢). وهو من بابِ سَوَقِ المعلوم مساقٍ غيره، فَوَضِعَ مَوْضِعَ «رَسُولًا» «عَبْدُ اللَّهِ»، نَعْبًا عَلَى الْمَشْرِكِينَ سَوَاءً صَنِعْتَهُمْ عَمَّنْ يُوَحِّدُ اللَّهُ وَيَعْبُدُهُ وَحْدَهُ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْقَسْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]. وَيُمْكِنُ أَنْ يُجْمَلَ هَذَا الْوَجْهُ، عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ (٣) حِكَايَةً لِقَوْلِ الْجِنِّ قَوْلُهُ: (ومنها لبدة الأسد)، الجوهري: «قِيلَ لِزُبْرَةِ الْأَسَدِ: لِبْدَةٌ، وَهِيَ الشَّعْرُ الْمَتْرَاكِبُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ».

قوله: (وقرئ: «لبدأ»)، هشام (٤): بضم اللام، والباقون: بكسرها (٥).
قوله: (ناواه)، أي: عاداه. الجوهري: «أصله الهمز، لأنه من النوء، وهو النهوض».
قوله: (ومن قرأ: «ولإنه»، بالكسر)، في «المعالم»: «قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة،

(١) في (ف): «رسول الله ﷺ».

(٢) قوله: «ويروى أن رسول الله» سقط من (ح)، وفي (ف): رسول الله.

(٣) أي: «ولإنه لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ»، وهي قراءة نافع وعاصم من رواية أبي بكر بن عياش.

(٤) أبو الوليد هشام بن عمار السلمي الدمشقي، رواية ابن عامر اليخصب.

(٥) في (ح) و(ف): «بفتحها»، وليس بصواب؛ قال ابن زنجلة: «قرأ هشام: لبداً، بضم اللام جمع لبدة، مثل

غُرْفَةٌ وَغُرْفٌ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: لِبْدَاءً، جَمْعُ لِبْدَةٍ، مِثْلُ كِسْرَةِ وَكِسْرٍ. انظر له: «حجة القراءات»، ص ٧٢٩.

[﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ * قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولًا مِنْ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [٢٠-٢٨]

«قَالَ» للمتظاهرين عليه: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾، يريد: ما أتيتمكم بأمر منكراً، إنما أعبدُ ربي وحده ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على مقبتي وعداوتي. أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين: ليس ما ترون من عبادتي الله ورَفْضِي الإِشْرَاقَ به بأمر يُتَعَجَّبُ منه، إنما يُتَعَجَّبُ مِنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ وَيَجْعَلُ لَهُ شَرِيكًا. أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله ﷺ ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ ولا نفعاً،

والباقون بفتحها^(١) وهو عطفٌ من حيث المعنى على قوله: ﴿عَبُدُوا اللَّهَ﴾: النبي ﷺ، والكلام على ما سبق مبني على «أنه» بالفتح. وقد مرَّ أن قراءة الفتح مبنية^(٢) على أنه من جملة الموحى، والكسر على أنه من كلام الجن.

قوله: «(قال)»^(٣) للمتظاهرين عليه، أي: الضمير في «قال إنما أدعو»، لرسول الله ﷺ. والتعريف في «المتظاهرين»، معهودٌ خارجيٌ تقديريٌ لما يفهم^(٤) من قوله السابق: «لتظاهروهم عليه... متراكمين»^(٥).

قوله: «(أو قال الجن لقومهم)»، عطفٌ على قوله: «قال للمتظاهرين عليه»، وفي كلامه لَفٌّ

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٢٤٢) للبغوي.

(٢) في (ط): «مبنية».

(٣) قرأ حمزة وعاصم: قُلْ، بصيغة الأمر، وقرأ الباقون: قال، على الخبر. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٢٩.

(٤) في (ف): «يوهم».

(٥) في (ح): «متظاهرون»، وفي (ف): «متظاهرين».

أو أراد بالَصْر: الغي، ويدل عليه قراءة أبي: «غَيًّا ولا رَشْدًا»،

وَنَشْر. وتقريره: أن قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ الآية، من كلام رسول الله ﷺ؛ فإذا قرئ: ﴿أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ بالفتح، يُقدَّر أن الله تعالى يحكي كلامه صلوات الله عليه، وهو ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾، وهو لوجهين بناءً على تفسير قوله تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾:

فإذا أُريدَ بهم المشركون كما قال: «كاد المشركون لتظاهروا بهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه»، فالمعنى: إنما أدعو ربِّي، أي: ما أتيتكم بأمرٍ مُنكر، إنما أعبدُ ربِّي وحده، إلى آخره. وإذا أُريدَ بهم الجن، كما قال حينَ أتاه الجن فاستمعوا لقراءته: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، فالمعنى: ليس ما ترون من عبادتي الله، ورَفُضي الإِشراك به، بأمرٍ مُتَعَجِّبٍ منه، إلى آخره. وإذا قرئ: «إنه لما قام» بالكسر، يكونُ الجنُّ قد حَكوا لقومهم حينَ قفلوا إليهم، ما رَأوا من رسولِ الله ﷺ من قيامه لعبادةِ الله وما سمعوا منه، من قوله لهم: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ الآية.

قوله: (ويدل عليه قراءة أبي^(١)): «غَيًّا»، يريدُ أن ﴿رَشْدًا﴾ وقعَ مقابلًا لـ ﴿صَرًّا﴾، وليس من التقابل^(٢) الحقيقي؛ فإِذَا أن يُؤوَّلَ الثاني بما يُطابقُ الأوَّلَ أو عكسه^(٣)، وينصُرُ الثاني قراءة أبي: «غَيًّا».

وقلتُ: الأسلوبُ والنَّظْمُ يقتضيانها معاً، لأنه صلواتُ الله عليه، لما ازدحم عليه الجنُّ ازدحاماً عظيماً، وتَعَجَّبوا منه تَعَجُّباً بليغاً، قيل له: قُلْ لهم: هَوَّنوا على أنفسكم ولا تزدحموا عليّ، لأنِّي عبدٌ مَبْعُوثٌ مُبَلِّغٌ، ليس إليَّ صَرُّكم ولا نَفْعُكم ولا رَشْدُكم ولا غِيْكم، فإن ذلك إلى الله تعالى؛ وإِنَّمَا ذهبَ إلى هذا الأسلوب، وعدلَ من التقابلِ الحقيقي، ليجمعَ بين المعنيين،

(١) في (ف): «ابن عباس».

(٢) في (ح): «التطابق».

(٣) قال أبو حيان: «يمكن أن يكون المعنى: صَرًّا ولا نفعاً، ولا غَيًّا ولا رَشْدًا، فحذفَ من كلِّ ما يدلُّ عليه مقابله». «البحر المحيط» (٨: ٢٦٧).

والمعنى: لا أستطيع أن أضركم وأن أنفَعكم، إنما الضارُّ والنافعُ الله. أو لا أستطيع أن أقسركم على الغيِّ والرَّشْد، إنما القادرُ على ذلك اللهُ عز وجل، و﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ استثناءً منه، أي: لا أملكُ إلا بلاغاً من الله. و﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾ جملةٌ معترضةٌ اعترضَ بها لتأكيدِ نفيِ الاستطاعةِ عن نفسه وبيانِ عجزه، على معنى أن الله إن أرادَ به سوءاً من مَرَضٍ أو مَوْتٍ أو غيرِهما، لم يصحَّ أن يُجِيرَه منه أحدٌ أو يجِدَ من دونه مَلاذأً يأوي إليه. والمُلتجأُ، المُلتجأُ، وأصلُه المُدخَل، مِنَ اللَّحْد. وقيل: مَحِيصاً وَمَعِدِلاً. وقُرئ: «قَالَ لَا أَمْلِكُ»، أي: قَالَ عبدُ الله للمُشركينَ أو للجنِّ. وَيَجُوزُ أن يكونَ من حكايةِ الجنِّ لقومِهِم. وقيل: ﴿بَلَاغًا﴾ بدَلٌ من ﴿مُلتَحَدًا﴾،

وقد مرَّ في قوله تعالى في «يونس»: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذَكَرَ الْمَسَّ فِي أَحَدِهِمَا وَالْإِرَادَةَ فِي الثَّانِي؟ قُلْتُ: كَانَ أَرَادَ أَنْ يَذَكَرَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً: الْإِرَادَةَ وَالْإِصَابَةَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الضَّرِّ وَالْخَيْرِ.

قوله: (أو لا أستطيع أن أقسركم على الغيِّ والرَّشْد)، الانتصاف: «الآية لما دلت على أن الله تعالى هو الذي يملكُ لعباده الرَّشْدَ والغَيِّ، فإنه صلواتُ الله عليه، إنما سلبها عن نفسه يمحُضُ إضافتهما إلى الله تعالى، أعملُ الزمخشريُّ الحيلة، فتارةً يحملُ الرَّشْدَ على النَّفعِ، وتارةً يَنظُرُ إلى خصوصيةِ الرَّشْدِ، فيضيفُ إليه قَيْدَ الإكراه. ومع هذا، فالجنُّ أَشَدُّ مِنْهُمْ نَظَرًا لِمَا سَبَقَ مِنْ اعْتِقَادِهِمُ الْحَقَّ»^(١).

قوله: (و﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ استثناءً منه)، أي: من قوله: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾، قال القاضي: «لأنَّ التبليغَ إرشاداً»^(٢)، وقال أبو البقاء: «هو استثناءٌ من غير جنس»^(٣).
قوله: (وقيل: ﴿بَلَاغًا﴾ بدَلٌ من ﴿مُلتَحَدًا﴾)، فعلى هذا لا يكونُ قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ اعتراضاً.

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٣١).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٠١)؛ قاله في تفسير الآية (٢١) من سورة الجن.

(٣) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٤٥).

أي: لن أجد من دونه مَنْجِيّ إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هي (إن لا) ومعناه: إن لا أبلغ بلاغاً كقولك: إن لا قياماً فقعوداً. ﴿وَرَسَلْتِهِ﴾ عطفٌ على ﴿بَلَّغَا﴾، كأنه قيل: لا أملكُ لكم إلا التبليغَ والرِّسالات. والمعنى: إلا أن أبلغ عن الله فأقول: قال الله كذا، ناسباً لقوله إليه، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان.

فإن قلت: ألا يُقال: بَلَّغَ عنه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بَلَّغُوا عني بَلَّغُوا عني»؟

قلت: «من» ليست بصلةً للتبليغ، إنما هي بمنزلة «من» في قوله: ﴿بِرَأْيِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١]، بمعنى بلاغاً كائناً من الله.....

قوله: (إن لا قياماً)، حَذَفَ الفعلَ بعد «إن» الشَّرطيةِ الداخلةِ على «لا» النافية، وأقامَ المصدرَ مقامه، والمعنى: إني لن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ، أن لا أبلغَ بلاغاً، وأن لا أبلغَ رسالاته. ومعنى قوله: إن لا قياماً فقعوداً: إن لم تُقَمْ قياماً فاقعدُ قعوداً.

قوله: (وأن أبلغ رسالاته)، إنما قَدَّرَ: أن أبلغ، لكونه معطوفاً على مصدرِ «أبلغ» المضمَر، فيدلُّ الأوّلُ على إيجادِ التبليغِ على التأكيد، ولهذا قال: «فأقول: قال الله كذا، ناسباً القول» (١) إليه. والثاني على تبليغِ أشياء واجبةِ الإرسال، ومن ثم قال: «أن أبلغ رسالاته التي أرسلني» (٢) بها من غير زيادة ولا نقصان. وهذا من بابِ العطفِ على التقديرِ لا الانسحاب، لما (٣) يلزمُ منه عطفُ المفعولِ به على المفعولِ المطلق.

(١) في «الكشاف»، وفي الأصول الخطية: «لقوله»، وصوابه ما أثبتته عن «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٤٦) للرازي، إذ نقل عبارة الزمخشري ثمة.

(٢) في (ح) و(ف): «أرسلتني».

(٣) في (ط) و(ف): «لثلاث».

وَقُرِي: «فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ» على: فجزاؤه أن له نار جهنم، كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]، أي: فَحُكْمُهُ أَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ. وقال: ﴿خَلِيدِينَ﴾ حملاً على معنى الجمع في «مَنْ».

فإن قلت: بِمَ تَعَلَّقَ ﴿حَتَّى﴾، وَجُعِلَ مَا بَعْدَهُ غَايَةً لَهُ؟

قلتُ: بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ [الجن: ١٩]، على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة، وَيَسْتَضَعِفُونَ أَنْصَارَهُ، وَيَسْتَقْلُونَ عَدَدَهُمْ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ مِنْ يَوْمِ بَدْرِ وَإِظْهَارِ اللَّهِ لَهُ عَلَيْهِمْ، أَوْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حِينَئِذٍ أَنَّهُمْ ﴿أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

ويجوز أن يتعلّق بمحذوفٍ دلّت عليه الحال، من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده، كأنه قال: لا يزالون على ما هم عليه، ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾،

قوله: (بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾)، أي: ﴿حَتَّى﴾ غايَةٌ قوله: ﴿يَكُونُونَ﴾. هذا إنما يستقيم، إذا فُسرَ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾، بالتظاهر والتعاون به. وأما إذا فُسرَ بِتَرَاكُمِ الْجِنِّ وَتَرَاكُمِهِمْ، فالواجب أن يُعَلَّقَ بمحذوفٍ كما في الوجه الآتي. ونظيره ما في «مريم»: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ [مريم: ٧٥]، قال: تقديره: «قالوا: أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً، ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: لا يبرحون يقولون هذا القول، إلى أن يشاهدوا الموعد رأياً عيناً»^(١). وهاهنا كما سمع المشركون هذا الوعيد والتهديد الشديد، قالوا: متى يكون هذا الموعد؟ إنكاراً له. فقيل لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾. وإنما أُعيدَ ﴿تُوعَدُونَ﴾، ليؤذن بأنه كائن لا ريب فيه، فقوله: «قال المشركون» إشارة إلى تقدير سؤال يقتضيه الفصل بقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ﴾.

(١) انظر: (١٠: ٨٧) في تفسير الآية (٧٥) من سورة مريم.

قال المشركون: متى يكون هذا الموعود؟ إنكاراً له، فقيل: ﴿قُلْ﴾ إنه كائنٌ لا ريب فيه، فلا تُنكروه؛ فإنَّ اللهَ قد وَعَدَ ذلك وهو لا يُخْلِفُ الميعاد. وأما وقتُه فما أدري متى يكون؛ لأنَّ اللهَ لم يُبَيِّنْهُ لِمَا رَأَى في إِخْفَاءِ وقْتِهِ من المصلحة.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَمْرٌ يَجْعَلُ لَهُ رَجِيًّا أَمْدًا﴾، والأمدُ يكون قريباً وبعيداً، ألا ترى إلى قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]؟

قلت: كان رسولُ الله ﷺ يَسْتَقْرِبُ الموعِد، فكانه قال: ما أدري أهو حالٌ متوقِّعٌ في كلِّ ساعةٍ أم مؤجَّلٌ ضُرِبَتْ له غاية، أي: هو ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يُطلع، و﴿مِن رَّسُولٍ﴾ تَبَيَّنَ لِمَنْ ارْتَضَى،

قوله: (ما معنى قوله: ﴿أَمْرٌ يَجْعَلُ لَهُ رَجِيًّا أَمْدًا﴾)، أي أن الهمزة «أم» المعادلة يُقتضيان أن يقال: أقرب ما توعدون أم بعيد؟ والأمر مشترك بين البعد والقرب. وأجاب أن رسولَ الله ﷺ، لما كان مهتماً بقرب الوعد، صرح^(١) في الجزء الأول من الكلام ما كان مقتضياً إثباته^(٢). وفي الجزء الثاني أطلق، على أنه غير مُلبس أن المراد: أم مؤجَّلٌ ضُرِبَتْ له غاية.

قوله: (أي: هو ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾)، يريد أن ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾، خبرٌ مبتدئٌ محذوف، والإضافة محضة. وأنت تعلم أن تعريفَ الخير يُنبئ عن^(٣) التخصيص، والكلام وقع تعليلاً لنفي الدراية، كأنه قيل: ما أدري قرب ذلك الموعِد ولا بُعده، إلا أن يُطلعني اللهُ عليه، لأن عَلِمَ جميع الغيب مُحْتَصٌّ به، وهو يُطْلَعُ^(٤) على بعضه بعضَ الخلق، على هذه الطريقة المخصوصة المذكورة في هذه الآية، و«الفاء» في ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾، لتعقيب^(٥) حُكْمٍ بَعْدَ حُكْمٍ،

(١) في (ح): «خرج».

(٢) في (ط): «مهتماً بشأنه»، وفي (ف): «مهتماً بشركه».

(٣) في (ف): «يبني على».

(٤) في (ف): «يطلع».

(٥) في (ف): «لتغليب».

يعني: أنه لا يُطَّلَعُ عَلَى الْغَيْبِ إِلَّا الْمُرْتَضَى الَّذِي هُوَ مُصْطَفَى لِلنَّبُوَّةِ خَاصَّةً، لَا كُلَّ مُرْتَضَى، وَفِي هَذَا إِبْطَالٌ لِلْكَرَامَاتِ؟

وَفِي «فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ» لِلسَّبَبِ. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «مِنْ أَرْضَوْنَ» مَبْتَدَأٌ، وَالْخَبْرُ: «فَإِنَّهُ»، وَ«رَصَدًا» مَفْعُولٌ «يَسْأَلُكَ»^(١)، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «فَإِنَّهُ» لِلْمُرْتَضَى.

قَوْلُهُ: (وَفِي هَذَا إِبْطَالٌ لِلْكَرَامَاتِ)، قَالَ الْإِمَامُ: «قَوْلُهُ «عَلَى غَيْبِهِ» لَفْظٌ مَفْرَدٌ لَيْسَ فِيهِ صِفَةُ الْعُمُومِ، فَيَكْفِي أَنْ يُقَالَ: إِنْ اللَّهُ لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبٍ وَاحِدٍ مِنْ غُيُوبِهِ أَحَدًا إِلَّا الرِّسْلَ، فَيَحْمِلُ عَلَى وَقْتِ وَقُوعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكَيْفَ وَقَدْ ذَكَرَهَا عَقِيبَ قَوْلِهِ «أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ»؟^(٢).

وَقُلْتُ: وَهُوَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ الرِّسْلَ أَيْضًا لَمْ يُظْهِرُوا عَلَى ذَلِكَ. أَمَا إِذَا حُمِلَ «مَا تُوعَدُونَ» عَلَى إِظْهَارِ اللَّهِ لَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَيَجُوزُ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ: «وَيُحْتَمَلُ^(٣) أَنْ يَكُونَ الْاسْتِثْنَاءُ مَنْقَطَعًا، أَي: لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ الْمَخْصُوصِ^(٤) أَحَدًا. لَكِنْ، مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ، حَفَظَةً يَحْفَظُونَهُ مِنْ مَرَدَّةِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ كَانَ جَوَابًا لِسُؤَالِ مُسْتَهْزِئٍ»^(٥).

وَقَالَ الْقَاضِي: «جَوَابُهُ تَخْصِيصُ الرِّسُولِ بِالْمَلَكِ وَالْإِظْهَارِ^(٦) بِمَا يَكُونُ بَغَيْرِ وَسْطٍ، وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ، إِنَّمَا تَكُونُ تَلْقِيًّا عَنِ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا طَلَعْنَا عَلَى أَحْوَالِ الْآخِرَةِ بِتَوَسُّطِ الْأَنْبِيَاءِ^(٧)».

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٤٥).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٤٨) بتصرف ملحوظ.

(٣) في (ح): «ويجوز».

(٤) أي: قيام القيامة.

(٥) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٤٩).

(٦) في الأصول الخطية: «والأولياء».

(٧) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٠٢)، وسقط لفظ (الأنبياء) من (ح)، (ف).

لأن الذين تُضاف إليهم وإن كانوا أولياء مُرتضين، فليسوا برُسل، وقد خصَّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم، لأن أصحابها أبعُد شيء من الارتضاء وأدخله في السَّخَط. ﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ﴾ يَدِي مَنْ ارْتَضَى للرسالة. ﴿وَمَنْ خَلَفَهُ رَصَدًا﴾ حَفَظَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ يَطْرُدُونَهُمْ عَنْهُ وَيَعْصِمُونَهُ مِنْ وَسَاوِسِهِمْ، حَتَّى يُبَلِّغَ مَا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ.....

الانتصاف: «ادعى الزمخشري عاماً واستدل بخاص، فالدعوى امتناع الكرامات كلها، فيجوز إعطاؤه^(١) الكرامات كلها إلا الاطلاع على الغيب. ولعل شبهة القدرية في إبطالها، أن الله تعالى لا يتخذ منهم ولياً أبداً»^(٢).

وقلت: الأقرب تخصيص الإطلاع بالضعف والخفاء؛ فإن إطلاع الله الأنبياء على الغيب، أمكن وأقوى من إطلاع الأولياء، يدل عليه حرف الاستعلاء في ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾، قال الله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النَّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]، فَضْمَنَ ﴿يَطْهَرُ﴾ معنى «يُطْلَع»، أي: فلا يُطْلَعُ اللهُ عَلَى غَيْبِهِ إِظْهَاراً تَاماً، وَكَشْفاً مُرْضِياً جَلِيّاً، إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يُطْلَعَ النَّبِيُّ عَلَى الْغَيْبِ، يُوْحِي إِلَيْهِ أَوْ يُرْسِلُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، وَيَحْفَظُ الْمَوْحَى بِرَصْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْتِيبُ الْكَلَامِ^(٣) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمَنْ خَلَفَهُ رَصَدًا﴾، وَتَعْلِيلُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ آتَيْنَاهُ رِسَالَتٍ رَّبِّهِمْ﴾.

وأما كرامات الأولياء، فهي من قبيل التلويحات واللّمحات، أو من جنس إجابة دعوة وصدق فِرَاسَةٍ؛ فَإِنَّ كَشْفَ الْأَوْلِيَاءِ غَيْرُ تَامٍ كَالْأَنْبِيَاءِ، قَالَ الشَّيْخُ الْعَارِفُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِيُّ

(١) أي: إعطاء الولي.

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٣٢).

(٣) في (ح): «الملائكة».

وعن الضحاك: ما بُعِثَ نبيٌّ إلا ومعه ملائكةٌ يَحْرَسُونَهُ من الشياطينِ أن يتشبهوا بصورة الملك. ﴿لِيَعْلَمَ﴾ اللهُ ﴿أَن قَدْ أَتَلَعُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني الأنبياء؛ وَحَدَّ أَوْلَىٰ عَلَى اللِّفْظِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، ثُمَّ جَمَعَ عَلَى الْمَعْنَى، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ [الجن: ٢٣]، والمعنى: لِيَبْلُغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ كَمَا هِيَ، مَحْرُوسَةً مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ؛

رحمه الله تعالى: «ظهورُ الكراماتِ على الأولياءِ جائز، لأنه لا يؤدي^(١) إلى رَفْعِ أصلٍ مِنَ الأصول، وظهورها علامةٌ صِدْقٍ مَن ظَهَرَتْ^(٢) عليه في أحواله»^(٣)، كما أن ظهورَ المعجزة، علامةٌ صِدْقٍ مَن ادَّعى النُّبُوَّةَ.

قال الإمام أبو إسحاق^(٤): «الأولياءُ لهم كراماتٌ شَبُهَتْ إجابةَ الدعوة، وأما جنسُ ما هو معجزةٌ للأنبياء فلا»^(٥). وقال الإمام أبو بكر بن فُورَك: «الفرقُ بين المعجزاتِ والكراماتِ، هو أن الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم مأمورونَ بإظهارِها، والوليُّ يَجِبُ عليه سِتْرُها وإخفاؤها. والنبِيُّ يدَّعي ذلك ويقطَعُ القولَ به، والوليُّ لا يدَّعي ولا يقطَعُ لجوازِ الاستدراج»^(٦).

وقلت: لا يدخلُ في هذا المعنى حُكْمُ المنجمِ المخدول، لأن ذلك تَكْرِمَةٌ وتَشْرِيفٌ، والمنجمُ مطرودٌ مَرْجُومٌ، قال الزجاجُ والواحدِيُّ وصاحبُ «المطلع» رحمهم اللهُ: «الآيةُ توجِبُ على مَنْ ادَّعى أن النجومَ تدلُّه على ما يكونُ من حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك، فقد كَفَّرَ بها في القرآن»^(٧).

(١) في (ط): «لأنه يؤدي».

(٢) في الأصول الخطية: «ظهر».

(٣) «الرسالة القشيرية»، ص ٣٥٣.

(٤) الإسفراييني، الأصولي الشافعي، الملقب بركن الدين، توفي سنة (٤١٨ هـ) للهجرة.

(٥) «الرسالة القشيرية»، ص ٣٥٣.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٥٤ بتصرف.

(٧) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٣٧) للزجاج، و«الوسيط في تفسير القرآن» (٤: ٣٦٩) للواحدي.

وَذِكْرُ الْعِلْمِ كَذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقَّقْنَا لَكُمْ الْعِلْمَ الْمُجْتَهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وَقُرِئَ: «لِيُعَلِّمَ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بِمَا عِنْدَ الرَّسُولِ مِنَ الْحِكْمِ وَالشَّرَائِعِ، لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ وَلَا يَنْسَى مِنْهَا حَرْفًا، فَهُوَ مُهَيِّمٌ عَلَيْهَا حَافِظٌ لَهَا، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ مِنَ الْقَطْرِ وَالرَّمْلِ وَوَرَقِ الْأَشْجَارِ، وَزَبَدِ الْبِحَارِ، فَكَيْفَ لَا يُحِيطُ بِمَا عِنْدَ الرَّسُولِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ؟ وَ«عَدَدًا»: حَالٌ، أَيْ: وَضَبَطَ كُلَّ شَيْءٍ مَعْدُودًا مُحْصُورًا، أَوْ مَصْدَرًا فِي مَعْنَى إِحْصَاءٍ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْجِنِّ، كَانَ لَهُ بَعْدُ كُلُّ جَنِّيٍّ صَدَقَ مُحَمَّدًا ﷺ وَكَذَّبَ بِهِ، عَتَقَ رَقَبَةً».

قَوْلُهُ: (وَذِكْرُ الْعِلْمِ كَذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقَّقْنَا لَكُمْ الْعِلْمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ﴾)، وَالْمَعْنَى: لِنُعَلِّمَهُ عِلْمًا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجِزَاءُ، وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَهُ مَوْجُودًا حَاصِلًا.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سُورَةُ الْمَزْمَلِ
مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ عَشْرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ آيَةً
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْزَلُ * فِرَّائِلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصْفَهُ، أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتِلَ الْقُرْآنُ أَنْ تَرْتِيلًا﴾ ١-٤]

﴿الْمَرْزَلُ﴾ المتزمل، وهو الذي تَزَمَّلَ في ثيابه، أي تَلَفَّفَ بها، بإدغام التاء في الزاي. وَنَحْوُهُ: المَدْتَرُ في المَدْتَرِ، وقُرئ: «المتزمل» على الأصل، والمزمل، بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرها. على أنه اسمُ فاعلٍ أو مفعول، مِنْ زَمَلَهُ، وهو الذي زَمَلَهُ غيره أو زَمَلَ نَفْسَهُ؛ وكان رسولُ الله ﷺ نائماً بالليل متزماً في قَظِيفِهِ، فَنَبَهُ وَنُودِيَ بِمَا يُهَجَّنُ إِلَيْهِ الْحَالَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مِنَ التَزْمَلِ فِي قَظِيفَتِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِلِاسْتِثْقَالِ فِي النُّومِ، كَمَا يَفْعَلُ مَنْ لَا يُهَمُّهُ أَمْرٌ وَلَا يَعْغِيهِ شَأْنٌ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ ذِي الرِّمَّةِ:

وَكَاثِنٌ تَخَطَّتْ نَاقَتِي مِنْ مَفَازَةٍ
وَمِنْ نَائِمٍ عَنِ لَيْلِهَا مُتَزَمِّلٌ

سورة المزمل

عشرون آية، مكية (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

قَوْلُهُ: (وَكَاثِنٌ تَخَطَّتْ نَاقَتِي) الْبَيْتُ (٢)، «كَاثِنٌ»، مَعْنَاهَا: مَعْنَى كَمِ الْخَبْرِيَّةِ، يَقُولُ: كَمِ مِنْ

(١) فِي (ط): «مَكِّيَّةٌ»، وَهِيَ ثِنَاثِي عَشْرَةَ آيَةً، وَهُوَ مُوَافِقٌ لَعَدِّ الْمَدِينِيِّينَ، أَمَا كَوْنُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً فَمُوَافِقٌ لَعَدِّ الْمَكِّيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ، وَكَوْنُهَا عِشْرُونَ آيَةً فَمُوَافِقٌ لَعَدِّ الْكُوفِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ. انظر «البيان في عدّ آي القرآن» لللداني، ص ٢٥٧.

(٢) لَدِي الرِّمَّةِ، مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ يَهْجُو فِيهَا وَيَفْتَخِرُ، انظر «ديوانه»، ص ٢٣١.

يريد: الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معازم الأمور وكفايات الخطوب، ولا يُجمل نفسه المشاق والمتاعب، ونحوه:

سُهداً إذا ما نام ليل الهوجل

وفي أمثالهم:

أوردَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُسْتَمِلٌ ما هكذا تُوردُ يا سَعْدُ الإبل

فدَمَه بالاشتغال بكسائه، وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس،

مفازة تحطت ناقتي فيها، وكم من نائم، أي: غافلٍ عن ليل تلك المفازة، مُترَمِّلٍ في ثوبه غير مُهتَمٍّ بشأنها. وقيل: الضمير في «ليها» للناقة، وأراد ليل نفسه، وأضافه إلى ناقته. قوله: (سُهداً إذا ما نام ليل الهوجل)، أوله:

فَأَتَتْ به حُوشُ الفؤادِ مُبَطَّنًا^(١)

حُوشُ الفؤاد، أي: ذكِي الفؤادِ حَدِيدُهُ. مُبَطَّنًا^(٢)، أي: خميص البطن. الهوجل: الثقل الأحمق الكسلان. يقول: أتت الأم بهذا الولد متيقظاً حذراً ذكياً ساهراً، إذا نام الكسلان.

قوله: (وفي أمثالهم: أوردَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُسْتَمِلٌ)^(٣)، قيل: هذا سَعْدُ بنُ زَيْدِ مَنَاةَ، أخو مالك بن زيد مناة الذي يقال في حقه: أبُلٌ من مالك، قال الميداني: «هو سبطُ تميم بن مرة وكان يتحمق، إلا أنه كان أبُلَ أهل زمانه، ثم إنه تزوج وبنى بامرأته، فأوردَ الإبل أخوه سَعْدٌ ولم يُحسِن القيامَ عليها والرَّفَقَ بها، فقال مالكُ:

أوردَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُسْتَمِلٌ ما هكذا تُوردُ يا سَعْدُ الإبل»^(٤)

(١) البيت لأبي كبير الهذلي.

(٢) المبطن: خميص البطن، ورجلُ مبطان إذا كان غير خميص البطن. انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣: ١٠٧٣).

(٣) البيت للشاعر مالك بن زيد مناة يخاطب أخاه سعداً.

(٤) «مجمع الأمثال» (١: ٨٦)، وانظر: (٢: ٣٦٤)، ويضرب هذا المثل لمن قصّر في الأمر.

وَأَمْرًا بِأَنْ يُخْتَارَ عَلَى الْهَجُودِ التَّهَجُّدِ، وَعَلَى التَّرْمَلِ التَّشْمُرَ والتَّخَفُّفَ لِلْعِبَادَةِ وَالْمُجَاهَدَةَ فِي اللَّهِ، لَا جَرَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَشَمَّرَ لِدَلِّكَ مَعَ أَصْحَابِهِ حَقَّ التَّشْمُرِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى إِحْيَاءِ لِيَالِيهِمْ، وَرَفَضُوا لَهُ الرَّقَادَ وَالدَّعَةَ، وَتَجَاهَدُوا فِيهِ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَأَصْفَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ، وَظَهَرَتِ السَّيْمِيُّ فِي وُجُوهِهِمْ وَتَرَامَى أَمْرُهُمْ إِلَى حَدِّ رَحْمَتِهِمْ لَهُ رَبُّهُمْ، فَخَفَّفَ عَنْهُمْ.

وقيل: كَانَ مَتَزْمَلًا فِي مِرْطٍ لِعَائِشَةَ يَصَلِّي،

أي: أتى بها الورد، والحال أنه مُشْتَمِلٌ لَيْسَ بِمُشْمَرٍ، فَذَمَّهُ بِالِاشْتِمَالِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ خِلَافَ الْجَلْدِ وَالْكَيْسِ. وَقِيلَ: ذَمَّهُ بِالِاشْتِمَالِ بِكِسَائِهِ، وَادَّعَى أَنَّ الْخَلَلَ كَانَ لِيَكِيلَهُ إِلَى الدَّعَةِ، وَعِلَامَتُهُ الْإِشْتِمَالُ^(١).

الانتصاف: «هذا القول والاستشهادُ سوءُ أدب. وَجَعَلَتِ الْعِلْمَاءُ نِدَاءَهُ بِالْمَزْمَلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ تَشْرِيفًا لَهُ إِذْ لَمْ يُنَادِهِ بِاسْمِهِ، وَاسْتَشْهَادُهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَيَّاتٍ قِيلَتْ ذَمًّا فِي جُفَاءِ الْعَرَبِ، أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَأَرَبَأُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ»^(٢).

وقلت: وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ عَنْ عِكْرَمَةَ: أَنَّهُ^(٣) يَا أَيُّهَا الَّذِي زُمَّلَ أَمْرًا عَظِيمًا، أَي: حُمِّلَهُ. وَرَوَى السُّلَمِيُّ عَنْ ابْنِ عَطَاءٍ: «يَا أَيُّهَا الْمُخْفِيُّ مَا يُظْهِرُهُ عَلَيْكَ مِنْ آثَارِ الْخِصُوصِيَّةِ، أَنْ أَوَانُ كَشْفِهِ فَأَظْهَرَهُ، فَقَدْ أَيْدِنَاكَ بِمَنْ يَتَّبِعُكَ وَيُؤَافِقُكَ، وَلَا يَخْذُلُكَ وَلَا يُخَالِفُكَ، وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»^(٤).

قوله: (مُتَزْمَلًا فِي مِرْطٍ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، الْإِنْتِصَافُ: «هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَالْبِنَاءُ

(١) من قوله: «وقيل: ذممه» إلى هنا، سقط من (ف)، وفي (ح) جاء هذا القول منقولاً من «الانتصاف»، وليس بصواب، إذ لم أصف عليه في «الانتصاف»، ولا في مخطوط «الإنصاف» للعراقي.

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٣٤).

(٣) أي: أن المعنى. ومن بديع ما قاله السهيلي في هذا الصدد: «ليس المزمّل باسم من أسماه عليه السلام يُعرف به، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التيس بها حالة الخطاب، والعرب إذا قصدت ملاحظة المخاطب وترك المعاتبه، سمّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي كرم الله وجهه، وقد نام ولصق بجنبه التراب: فمأبا تراب، إشعاراً بأنه ملاطف له؛ فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ فيه تأنيس وملاطفة.

انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٩: ٣٣) للقرطبي.

(٤) «حقائق التفسير» (٢: ٣٥٥) للسلمي.

فهو على هذا ليس بتهجين، بل هو ثناءٌ عليه وتحسينٌ لحاله التي كان عليها، وأمرٌ بأن يدومَ على ذلك ويواظبَ عليه. وعن عائشة رضي الله عنها: أنها سُئِلت: ما كان تزميله؟ قالت: كان مِرْطاً طوله أربعَ عشرة ذراعاً نصفه عليّ وأنا نائمةٌ ونصفه عليه وهو يُصلي، فسُئِلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خِزاً ولا قِزاً ولا مِرْعِزِي ولا إِبْرِيْسِيًّا ولا صُوفاً؛ كان سداه شِعراً ولحْمته وَبراً. وقيل: دخل على خديجة، وقد جُثتَ قِرْقاً أول ما أتاه جبريل وبوادِرُه ترعدُ، فقال: «زَمِّلوني زَمِّلوني»، وحسبَ أنه عَرَضَ له؛

على عائشة كان بالمدينة^(١). وفي «جامع الأصول»: «تزوَّجها النبي ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، قبل الهجرة بثلاثٍ ولها ستُّ سنين، وأعرَسَ بها في المدينة في شوال سنة اثنتين من الهجرة، على رأسِ ثمانية عشر شهراً، ولها تسعُ سنين»^(٢).

قوله: (مِرْعِزِي)، الجوهري: «المِرْعِزِي: الرَّغَبُ الذي تحت شِعْرِ العنز، وهو «مِفْعَلِي»، لأنَّ «فِعْلَلِي» لم يبيحْ؛ وإنما كَسروا الميمَ إتباعاً لكسرة العين».

قوله: (وقد جُثتَ قِرْقاً)، النهاية: «وفي حديث المبعث^(٣): فَجُثتُ منه قِرْقاً، أي: دُعِرْتُ وخِفْتُ؛ يقال: جُثتَ الرَّجُلُ، وجُثِفَ، وجُثَّتْ، إذا فَرَع»^(٤).

قوله: (بوادِرُه)، النهاية: «هي جَمْعُ بادِرَة، وهي لَحْمَةٌ بين المِنكِبِ والعُنُق»^(٥).

قوله: (وحسبَ أنه عَرَضَ له)، الأساس: «عَرَضَ لفلانٍ إذا جُنَّ». روينا عن البخاريِّ ومُسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أول ما بُدئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحيِّ الرؤيا

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٣٤).

(٢) «جامع الأصول» (٨٩٤٤) لابن الأثير، والفقرة من قوله: «وفي جامع» إلى قوله «تسع سنين»، ساقطة في (ف).

(٣) في (ف): «المتعة».

(٤) انظر تمام الحديث في «صحيح مسلم» (١٦١-٢٥٥)، وتمام تخريجِهِ في «مسند الإمام أحمد» (١٥٠٣٥).

(٥) «النهاية» (١: ١٠٦).

فبينما هو على ذلك إذ ناداه جبريل: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ﴾

الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب^(١) إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - وهو التعبدُ - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد ليلها، حتى جاءه الحقُّ فجاءه الملكُ فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، كذا ثلاثاً، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَلْمَ﴾. فرجع بها رسولُ الله ﷺ تزجفُ بوأدِّره^(٢)، فدخَلَ على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي. فقالت له خديجة: كلاً، أبشر؛ فوالله لا يُجزيك الله أبدأً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به على ورقة بن نوفل، وهو ابن عمِّ خديجة، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، فكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً. فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فأخبره رسولُ الله ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً^(٣)، لآيتني أكون حياً إذ يُخْرَجُك قومك» الحديث^(٤).

قوله: (إذ ناداه جبريل: فقال^(٥)): ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ﴾)، روينا عن البخاريِّ ومُسلم، عن جابر، عن رسولِ الله ﷺ، قال: «جاورتُ بحراءَ شهراً، فلما قضيتُ جوارِي هَبَطْتُ، فنُوديتُ، فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرتُ عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرتُ أمامي فلم أرَ شيئاً^(٦)، ونظرتُ من خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعتُ رأسي فرأيتُ شيئاً، وفي رواية: «فرفعتُ

(١) في (ح) و(ف): «وحُبِّب».

(٢) في (ط) و(ح): «يزجفُ فؤاده»، وهي إحدى روايتي البخاري (حديث رقم ٣)، وروايتي مسلم (٢٥٤-

١٦٠)، وليست موضع الشاهد.

(٣) الجذعُ من الرجال: الشابُّ الحدث.

(٤) أخرجه البخاري (٣) (٦٩٨٢)، ومسلم (٢٥٢-١٦٠).

(٥) لفظ «فقال» سقط من «الكشاف».

(٦) قوله: «ونظرتُ أمامي فلم أرَ شيئاً» سقط من (ح) و(ف).

وَعَنْ عِكْرَمَةَ: أَنَّ الْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الَّذِي زُمَّلَ أَمْرًا عَظِيمًا، أَي: حُمِّلَهُ، وَالزَّمْلُ: الْحِمْلُ، وَازْدَمَلَهُ: اخْتَمَلَهُ. وَقُرِي: «قُمُّ اللَّيْلِ»، بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا. قَالَ عِثْمَانُ بْنُ جَنِّي: الْغَرَضُ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ التَّبْلُغُ بِهَا هَرَبًا مِنَ التَّقَاءِ السَّاكِنِينَ،

رَأْسِي فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ^(١) عَلَى عَرْشٍ فِي الْمَوَاءِ، يَعْنِي جَبْرِيلَ، فَأَخَذْتَنِي رَجْفَةً شَدِيدَةً»، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَكَّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، وَصَبَّوْا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ! قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَبِابِكَ فَطَهِّرْ﴾^(٢). فَظَهَرَ مِنْ هَذَا هُجْنُهُ مَا قَالَهُ: (وَنُودِي بِمَا يَهْجُنُ إِلَيْهِ^(٣)) الْحَالَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَحَسُنَ مَا لَهَجَ بِهِ مَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا الْمَخْفِيُّ مَا يَظْهَرُ عَلَيْكَ مِنْ آثَارِ الْخُصُوصِيَّةِ».

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «قُمُّ اللَّيْلِ»)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي السَّمَّالِ وَرَوْحٍ. وَقَالَ: عَلَّةٌ جَوَازٌ ذَلِكَ، أَنَّ الْغَرَضَ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ، إِنَّمَا هُوَ التَّبْلِيغُ بِهَا، هَرَبًا مِنَ اجْتِمَاعِ السَّاكِنِينَ، فَبِأَيِّ الْحَرَكَاتِ تَحْرُكُ فَقَدْ وَقَعَ الْغَرَضُ، وَلَعَمْرِي إِنَّ الْكَسْرَ أَكْثَرَ، فَأَمَّا أَنْ لَا يَجُوزُ^(٤) غَيْرُهُ فَلَا. حَكِي قُطِرْتُ عَنْهُمْ: قُمُّ اللَّيْلِ، وَقُلُّ الْحَقِّ؛ مَنْ كَسَرَهُ فَعَلَى الْأَصْلِ، وَمَنْ ضَمَّ أَوْ كَسَرَ أَيْضًا أَتَّبَعَ، وَمَنْ فَتَحَ فَجُنُوْحًا إِلَى خِفَّةِ الْفَتْحِ»^(٥).

وَفِي الْحَاشِيَةِ: ابْنُ جَنِّي: بِكَسْرِ فَسْكَوْنِ الْيَاءِ، وَلَيْسَتْ بِيَاءِ النَّسَبِ، وَلَكِنَّهُ فِي الْأَصْلِ: كَنِي، فَعُرِّبَ وَبُنِيَ عَلَى السَّكُونِ.

قَوْلُهُ: (التَّبْلِيغُ^(٦) بِهَا)، أَي: الْاِكْتِفَاءُ بِهَا.

(١) فِي (ح): «فَاعِلُهُ».

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩٢٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧-١٦١)، وَانْظُرِ الْبُخَارِيُّ (٤٩٢٤).

(٣) كَذَا فِي «الْكَشَافِ»: يَهْجُنُ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ صَوَابَهُ مَا ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ فِي «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» (٣٠: ١٥١): بِمَا يَهْجُنُ تِلْكَ الْحَالَةَ، وَمِثْلُهُ فِي «السَّرَاحِ الْمُنِيرِ» (٤: ٢٩٩) لِلْخَطِيبِ الشَّرِيبِيِّ.

(٤) فِي (ح) وَ(ف): «أَنْ يَجُوزَ».

(٥) «الْمَحْتَسَبُ» (٢: ٣٣٤-٣٣٥).

(٦) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيَّةِ، وَكَذَا هُوَ فِي نَصِّ «الْكَشَافِ» مِنْ (ط)، لَكِنْ فِي الْأَصْلِ الْخَطِي مِنْ «الْكَشَافِ» وَفِي الْمَطْبُوعِ: «التَّبْلُغُ».

فبأيِّ الحركاتِ تُحْرَكُ فقد وَقَعَ الغَرَضُ. ﴿نِصْفَهُ﴾: بَدَلٌ مِنْ ﴿أَيْلٍ﴾، و﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾: استثناءٌ مِنَ النِّصْفِ، كَأَنَّهُ قَالَ: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ. وَالضَّمِيرُ فِي «مِنْهُ» و«عَلَيْهِ» لِلنِّصْفِ، وَالْمَعْنَى التَّخْيِيرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؛ بَيْنَ أَنْ يَقُومَ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ عَلَى الْبَتِّ، وَبَيْنَ أَنْ يَخْتَارَ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَهُمَا التَّقْصَانُ مِنَ النِّصْفِ وَالزِّيَادَةُ عَلَيْهِ. وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ «نِصْفَهُ» بَدَلًا مِنْ «قَلِيلاً»، وَكَانَ تَخْيِيرًا بَيْنَ ثَلَاثٍ: بَيْنَ قِيَامِ النِّصْفِ بِتَمَامِهِ، وَبَيْنَ قِيَامِ النَّاكِصِ مِنْهُ وَبَيْنَ قِيَامِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا وُصِفَ النِّصْفُ بِالْقَلَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُلِّ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: لَمَّا كَانَ مَعْنَى ﴿قُرْ أَيْلٌ إِلَّا قَلِيلاً﴾ * ﴿نِصْفَهُ﴾، إِذَا أَبَدَلْتَ النِّصْفَ مِنَ اللَّيْلِ: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ، رَجَعَ الضَّمِيرُ فِي «مِنْهُ» و«عَلَيْهِ» إِلَى الْأَقَلِّ مِنَ النِّصْفِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ، أَوْ: قُمْ أَنْقِصْ مِنْ ذَلِكَ الْأَقَلِّ أَوْ أَزِيدْ مِنْهُ قَلِيلاً، فَيَكُونُ التَّخْيِيرُ فِيهَا وَرَاءَ النِّصْفِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الثَّلَاثِ.

قوله: ﴿نِصْفَهُ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَيْلٍ﴾، اعْلَمْ أَنَّهُ جَعَلَ ﴿نِصْفَهُ﴾ تَارَةً بَدَلًا مِنْ ﴿أَيْلٍ﴾، وَأُخْرَى مِنْ ﴿قَلِيلاً﴾، وَجُعِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ التَّقْدِيرَيْنِ عَلَى وَجْهَيْنِ.

وَاعْتَرَضَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ» عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ، قَالَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: «لَمَّا كَانَ الضَّمِيرُ فِي «مِنْهُ» و«عَلَيْهِ» رَاجِعًا إِلَى النِّصْفِ، كَانَ الْمَعْنَى: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ، أَوْ انْقِصْ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ^(١)، أَوْ زِدْ عَلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، كَأَنَّهُ قَالَ: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ، أَوْ قُمْ زِدْ عَلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، وَهَذَا ظَاهِرُ الْفَسَادِ. وَقَوْلُهُ: «عَلَى الْبَتِّ» لَا دَلَالََةَ فِي الْآيَةِ عَلَيْهِ.

وَقَالَ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ ﴿نِصْفَهُ﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿قَلِيلاً﴾» إِلَى آخِرِهِ: هَذِهِ هِيَ الْوَجْهَةُ. وَتَمَامُهُ أَنْ يَقَالَ: ذَكَرَ ﴿قَلِيلاً﴾ ثُمَّ أَبَدَلَ ﴿نِصْفَهُ﴾ مِنْهُ، إِشَارَةً إِلَى أَنْ مَا نَامَ فِيهِ مِنَ اللَّيْلِ، وَإِنْ كَانَ نِصْفًا مِنْهُ، فَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى النِّصْفِ الْقَائِمِ قَلِيلٌ^(٢)، لِأَنَّ النِّصْفَ الْقَائِمَ يُضَاعَفُ إِلَى الْعَشْرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

(١) قوله: «أَوْ قُمْ زِدْ عَلَى نِصْفِ اللَّيْلِ» سَقَطَ مِنْ (ط).

(٢) سَقَطَ لَفْظُ «قَلِيلٌ» مِنْ (ح) وَ(ف).

والنصفُ النَّائمُ^(١) لاستراحةِ النفس، وإن كان لا يخلو من أن يدخل في العبادة، من حيث إنه استعدادُ لها، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَقْدَرُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

ويمكنُ أن يقالَ: القِلَّةُ في الحقيقةِ صفةٌ للحاصلِ في النصف، ثم اعتبرت صفةً للنَّصفِ^(٢)، كقولهم: نهاره صائمٌ وليله قائم. فعلى هذا: النصفُ النَّائمُ قليلٌ بالإضافةِ إلى النصفِ القائم، بالنظرِ إلى ما في كلِّ واحدٍ منهما، أي من الثواب؛ فجعَلَ القليلُ مبدلاً منه، والنصفُ بدلاً، تبييناً على هذا المعنى الدقيق. وأما التَّخْيِيرُ، فليُعلمَ أنَّ هذا ليس بما لا يزيد ولا ينقص، بل بما يَحْتَمِلُ الزيادةَ والنقصانَ، أعني ذَكَرَ النصفِ أولاً. فلو اقتصرَ عليه، ظُنَّ أنَّ الزيادةَ والنقصانَ لا يتطرقانِ عليه، كركعاتِ^(٣) الصلاةِ المفروضة، وكأوقاتِ الصلاة، والحدود، ولأنَّ في تَرْكِ التَّخْيِيرِ تَعْسِيراً، وفي وجوده تيسيراً.

ويجوزُ أن يكونَ ما يوجدُ من هذه الأقسام، أعني: النصف، أو الناقصَ منه، أو الزائدَ عليه، يكونُ فرضاً كالقراءةِ في الصلاة؛ فإنَّ ما قرأ المصلِّي، وإن كان تمامُ القراءةِ كان فرضاً وإن اقتصرَ على آيةٍ أو على ثلاثِ آياتٍ كما عرف، كان^(٤) مؤدياً للفرض، وكانت صلاته مؤداةً بما فرضَ عليه من القراءة.

وقالَ على الوجهِ الثالث - وهو قوله: «وإن شئت قلت: لما كان معنى ﴿قُرْ أَيْل﴾ إلى آخره -: الاعتراضُ عليه من وجهين: أحدهما: أن يقالَ: قوله: قُمْ أَقَلُّ من نصفِ الليل، أو أنقصَ من ذلك الأقل، أو أزيدَ من ذلك الأقل، بمنزلةِ أن يقالَ: قُمْ أَقَلُّ من النصف، أو قُمْ أَقَلُّ من النصف، أو قُمْ أَقَلُّ من النصف؛ لأنه يلزمُ أن يكونَ أزيدَ من أَقَلِّ النصفِ بالغاً

(١) في (ف): «القائم».

(٢) في (ف): «صفةُ النَّصف»، وليس بصواب.

(٣) في (ف): «كرامات»، محرّفة.

(٤) جواب: فإنَّ ما قرأ المصلِّي.

النَّصْف، بل يمكنُ أن يكون أقلَّ من النَّصْف أيضاً، فيكفي في هذا أن يقال: قم أقلَّ من النَّصْف^(١)؛ فأَيُّ مَقْدَارٍ قام، وهو أقلُّ مِنَ النصف، كان مؤدِّياً ما أمرَ به. وثانيهما: أن يقال: الناقصُ من أقلِّ من النصف، لا يلزمُ أن يكونَ ثلثاً، حتَّى يصحَّ قوله: «فيكونُ التخييرُ فيما وراءَ النصفِ بينه وبين الثلث».

وقال على الوجه الرابع - وهو قوله: «ويجوزُ إذا أبدلتَ ﴿نِصْفَهُ﴾ من ﴿قَلِيلاً﴾، وفَسَّرَته به» إلى آخره - الاعتراضُ عليه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن «نصفه» غيرُ مذكورٍ في الثاني، ولو كانَ مذكوراً لَصَحَّ أن يكونَ بدلاً كما في الأول؛ فعلى هذا لَزِمَ حذفُ البدل، وهو غيرُ جائزٍ بالإجماع، ولأنه هو المقصودُ في الكلام، فلا وجهَ لحذفه. وثانيها: قوله: «وتجعلُ المزيدَ على هذا القليل، أعني الربع، نصفَ الربع كأنه قيل: أو زدْ عليه قليلاً نصفه»، يلزمُ منه حذفُ البدلِ والمبدلِ منه، وهذا أبعدُ من الأول^(٢). وثالثها: قوله: «ويجوزُ أن تجعلَ الزيادةَ، لكونها مطلقةً، تيمَّةَ الثلث» منظورٌ فيه؛ لأنَّ من الإطلاق كما جازَ أن يكونَ تيمَّةً جازَ أن يكونَ غيرَها؛ فالحملُ على كونها تيمَّةً، يلزمُ منه الترجيحُ من غيرِ مُرجح، وهو باطلٌ، وبالله التوفيق.

فنقول: نحنُ لا نشتغلُ بتفاصيلِ الجوابِ، لأنها تُؤدِّي إلى التَّطويلِ المُملِّ، بل نفَسِّرُ^(٣) كلامَ المصنِّفِ ليظهرَ المقصودَ. أمَّا الوجهُ الأوَّلُ، فمن كلامِ الزجاج، قال: «إن ﴿نِصْفَهُ﴾ بدلٌ من ﴿أَيْلَلٍ﴾»، كما تقولُ: ضربتُ زيداً رأسه؛ فإنما ذكرتُ «زيداً» لتوكيدِ الكلام، فهو أوكدُ من قولك: ضربتُ رأسَ زيد^(٤)، تمَّ كلامُه. فالمعنى: قم نصفَ الليلِ إلَّا قليلاً،

(١) من قوله: «لأنه يلزم» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) في (ح): «البدل».

(٣) في (ف): «نشير إلى» بدلاً من «نفسر».

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٣٩).

أو انقُص من النصف، أو زد على النصف كثيراً، أو انقص منه قليلاً؛ كُرِّرَ «أو انقص منه قليلاً»، ليؤدِّنَ بأنَّ الأوَّلَ عزيمةٌ والثاني رخصة، كما تقول: جالسِ الحسنَ أو ابنَ سيرين، تُريدُ أنَّ مُجالسةَ الحسنِ لا بُدَّ منها، فإنَّ لزامتك ضرورةٌ فأنت بالخيارِ بين مُجالسته ومُجالسة ابن سيرين. هذا معنى قوله: «على البتَّ».

وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِجَنَّكَ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]، قال: «ليكوننَّ أحدُ الأمور، يعني: إنَّ كان الإتيانُ بالسلطانِ لم يكنْ تَعذِيبٌ ولا دَبْحٌ، وإنَّ لم يكنْ كانَ أحدهما»^(١)، وفهَمَ منه أنَّ إتيانَ السُّلْطَانِ، لم يكنْ كأحدِ هُذَيْنِ العذابينِ.

وأما بقيةُ الوجوهِ الثلاثة، فمبنيةٌ على تفسيرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُكَ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، على اختلافِ القراءتين، أعني: فتح «نصفه» و«ثلثه»، وكسرها^(٢).

أما بيانُ كيفيةِ مُطابَقةِ الوجهِ الثاني، وهو أن يكون ﴿يَضَعُكَ﴾ بدلاً من ﴿قَلِيلًا﴾، ويقعُ التخييرُ بين الثلاث، فإنه مبنيٌّ على معنى القراءةِ بالفتح، أي: تقومُ أدنى من ثُلثي الليلِ وتقومُ النصفَ وتقومُ الثلثَ، كما صرَّحَ به في موضعه. وأما الوجهُ الثالثُ، وهو أن يكونَ ﴿يَضَعُكَ﴾ بدلاً من ﴿الَّيْلِ﴾، ويكونُ الضميرُ في ﴿مِنَهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾ للأقلِّ من النصفِ، فهو مُنزَلٌ على القراءةِ بالكسر، وهي: تقومُ أدنى من ثُلثي الليلِ ونصفه وثلثه. فقوله: «قُم أقلَّ من نصفِ الليلِ»، هو المرادُ من تقديرِ قوله: أدنى من نصفه. وقوله: «أو قُم أو انقص من ذلك الأقلَّ»، هو المرادُ من تقديرِ: أدنى من ثُلثه. وقوله: «أو أزيدَ منه قليلاً»، هو المرادُ من معنى: أدنى من

(١) انظر: (١١: ٤٩٧).

(٢) بالكسر قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو، حملوه على الجاز، أي: تقوم أدنى من نصفه ومن ثُلثه، والباقون بالفتح، بوقوع الفعل، أي: تقوم نصفه وثلثه. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٣١، ٧٣٢.

ويجوزُ إذا أبدلت «نصفه» من «قليلاً» وفسرته به، أن تجعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف: وهو الربع، كأنه قيل: أو انقص منه قليلاً نصفه، وتجعل المزيد على هذا القليل، أعني الربع، نصف الربع كأنه قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه. ويجوزُ أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمّة الثلث، فيكون تخيراً بين النصف والثلث والربع.

فإن قلت: أكان القيام فرضاً أم نفلاً؟

قلت: عن عائشة رضي الله عنها أن الله جعله تطوعاً بعد أن كان فريضةً، وقيل: كان فرضاً قبل أن تفرص الصلوات الخمس، ثم نسخ بهن إلا ما تطوعوا به.

ثلاثي الليل: فيكون التخيير بين الأقل من النصف وفيما وراء النصف^(١)، وهو أقل من الثلث وأزيد منه؛ فعلم منه أن الضمير في قوله: «بينه وبين الثلث»، راجع إلى «ما وراء النصف»^(٢). والظرف الثاني بدل من الأول، لا كما ظن أنه راجع إلى القليل كما فسّر بالنصف.

وأما الوجه الرابع، وهو أن يكون ﴿نِصْفَهُ﴾ بدلاً من ﴿قَلِيلًا﴾، فهو مُنزَلٌ أيضاً على القراءة بالكسر. وتقريره أن القليل الأول كما فسّر بالنصف، يُفسّر الثاني بنصف النصف لاحتئاله. ولما كانت المطابقة بين الآيتين مطلوبة: يُجعل نصف النصف الربع، ويُحمل المطلق، وهو قوله: ﴿زِدْ عَلَيْهِ﴾، لأنه لا يعلم كمية الزيادة، على المقيد وهو نصف النصف، فيحصل الثمن، فيضم مع الربع، فيصير الربع والثلث، وهو الثلث تقريباً، فكأنه قيل: قم الليل نصفه أو ربعه أو ثلثه. وإذا لم تحمّل^(٣) الزيادة المطلقة على المقيد، بل تجعل تتمّة للثلث، أي: ما يتم به الربع ثلثاً تحقيقاً، فيقع التخيير أيضاً بين النصف والربع والثلث، كما صرح به أيضاً في موضعه، فلي نظر هناك. وإياك أن تصحح هذه الوجوه الثلاثة بغير ما ذكر، فتقع في المتعسف.

قوله: (وقيل: كان فرضاً)، روى محيي السنة عن مقاتل وابن كيسان: «كان هذا بمكة»

(١) قوله: «وفيما وراء النصف»، سقط من (ط).

(٢) لفظ «النصف» سقط من النسخ الثلاث، والزيادة من «الكشاف».

(٣) في (ح): «تحصل».

وعن الحسن: كان قيامُ ثلثِ الليلِ فريضةً، وكانوا على ذلك سنةً. وقيل: كان واجباً، وإنما وقع التخييرُ في المقدار، ثم نُسِخَ بعد عشرِ سنين. وعن الكلبي: كان يقومُ الرجلُ حتى يُصبحَ مخافةً أن لا يحفظَ ما بين النصفِ والثلثِ والثلثين؛ ومنهم من قال: كان نَفْلاً بدليلِ التخييرِ في المقدار، ولقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

ترتيل القرآن: قراءته على ترسُل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأفحوان،

قبل أن تُفرض الصلاة، ثم نُسِخَ بالصلواتِ الخمس^(١). وروناه عن البخاريِّ ومسلمٍ في حديثِ جابر^(٢) أيضاً.

قوله: (ومنهم من قال: كان نَفْلاً، بدليل التخيير في المقدار)، قال الإمام: «استدلَّ على عدم الوجوب، بأنه تعالى قال: ﴿ تَصَفَّهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْزِدْ عَلَيْهِ ﴾ ففُوضَ ذلك إلى رأي المكلف. وما كان كذلك لا يكون واجباً، وهو ضعيف؛ لأنه لا يبعدُ أن يقال: أوجبْتُ عليك قيامَ الليل. فأما تقديره بالقلَّة والكثرة، فهو مُفوضٌ إليك^(٣)، وإليه الإشارة بقوله: «كان واجباً، وإنما وقع التخييرُ في المقدار».

قوله: (ولقوله^(٤)): ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩])، فيه نظر؛ لأنه فسرها في موضعه بقوله: «إن التهجُّدَ زيدٌ لك على الصلوات المفروضة، فريضةً عليك خاصةً دون غيرك، لأنه تطوَّعَ لهم^(٥)».

قوله: (وهو المفلج)، الجوهري: «الفَلَجُ في الأسنان: تباعدُ ما بين الشايات والرِّباعيات»،

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٢٥٠) للبغوي.

(٢) انظر: البخاري (٤٩٢٥)، ومسلم (٢٥٦-١٦١).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٥٢).

(٤) عطفٌ على قوله: التخيير في المقدار، أي: وإنما وقع التخيير في المقدار، ولقوله تعالى: «ومن الليل

فتهجد ...».

(٥) انظر: (٩: ٣٥٩).

وَالَا يَهْدُهُ هَذَا وَلَا يَسْرُدَهُ سَرْدًا، كَمَا قَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَرُّ السَّيْرِ الْحَقِّقَةُ، وَشَرُّ الْقِرَاءَةِ الْهَذْرَمَةُ، حَتَّى يُشْبِهَ الْمُتَلَوُّ فِي تَتَابُعِهِ الثَّغْرَ الْأَلْصَ. وَسُئِلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: لَا كَسَرَدِكُمْ هَذَا،

و«ثَغْرٌ رَتَلٌ: إِذَا كَانَ مُسْتَوِي النَّبَاتِ». الرَّاعِبُ: «الرَّتَلُ: اتِّسَاقُ الشَّيْءِ وَانْتِظَامُهُ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، يُقَالُ: رَجُلٌ رَتَلٌ رَتَلُ الْأَسْنَانِ. وَالتَّرْتِيلُ: إِرسَالُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْفَمِّ بِسَهُولَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ»^(١).
قَوْلُهُ: (وَالَا يَهْدُهُ هَذَا)، الْجَوْهَرِيُّ: «الْهَدُّ: الْإِسْرَاعُ فِي الْقَطْعِ وَفِي الْقِرَاءَةِ. يُقَالُ: هُوَ يَهْدُ الْقُرْآنَ هَذَا: يَسْرُدُهُ».

قَوْلُهُ: (الْحَقِّقَةُ)، النِّهَاطُ: «فِي حَدِيثِ سَلْمَانَ: شَرُّ السَّيْرِ الْحَقِّقَةُ، هُوَ الْمُتَعَبُ مِنَ السَّيْرِ. وَقِيلَ: هُوَ أَنْ تُحْمَلَ الدَّابَّةُ عَلَى مَا لَا تُطِيقُهُ»^(٢).

قَوْلُهُ: (الْهَذْرَمَةُ): «هِيَ السَّرْعَةُ فِي الْمَشِيِّ وَالْكَلامِ، وَيُقَالُ لِلتَّخْلِيطِ: هَذْرَمَةٌ»^(٣).

قَوْلُهُ: (الْأَلْصَ)^(٤)، الْجَوْهَرِيُّ: «هُوَ الْمُتَقَارِبُ الْأَضْرَاسِ، وَفِيهِ لَصَصٌ».

قَوْلُهُ: (وَسُئِلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟)، رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ، قَالَتْ: «مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنَةٍ»^(٥)، فَضَّلُ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ»^(٦).
النِّهَاطُ: «يَسْرُدُ سَرْدًا، أَي: يُتَابَعُهُ وَيَسْتَعَجَلُ فِيهِ»^(٧).

(١) «مفردات القرآن»، ص ٣٤١.

(٢) «النِّهَاطُ» (١: ٤١٢).

(٣) المصدر السابق (٥: ٢٥٦).

(٤) فِي (ح): «الْأَرْضِ».

(٥) فِي (ف): «بَيِّنَةٍ»، وَهِيَ مُوَافِقَةٌ لِمَا فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٣٦٤٨) فِي طَبْعَةِ الْعِلْمِ الْمَحْدَثِ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ شَاكِرَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «تَحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ» (٣٥٧٢): «بَيِّنَةٍ: صِفَةٌ لِكَلَامٍ، أَي: كَانَ يَتَكَلَّمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَلَامٍ يَوْضَحُهُ. «فَضَّلُ»: صِفَةٌ ثَانِيَةٌ لِكَلَامٍ، أَي: بَيِّنٌ ظَاهِرٌ، يَكُونُ بَيْنَ أَجْزَائِهِ فَضْلٌ».

(٦) «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٣٦٣٩)، وَثَمَّةٌ تَمَامٌ تَخْرِيجُهُ.

(٧) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٥: ٤٠٥).

لو أراد السامع أن يعدَّ حروفه لعدّها. و﴿تَرْتِيلاً﴾ تأكيدٌ في إيجاب الأمر به، وأنه ما لا بُدَّ منه للقارىء.

[﴿إِنَّا سُنِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ٥]

هذه الآية اعتراض، ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلفين، خاصة على رسول الله ﷺ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته؛ فهي أثقل عليه وأهبط له. وأراد هذا الاعتراض: أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأنّ الليل وقت الشبات والراحة والهدوء، فلا بُدَّ لمن أحياء من مُضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا نزل عليه الوحي نُقِلَ عليه وتربّد له جلده.

وعن عائشة رضي الله عنها: رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد.....

قوله: (هذه الآية اعتراض)، يعني قوله: ﴿إِنَّا سُنِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، قال القاضي: «والجملة اعتراض لتسهيل التكليف عليه بالتهجد، ودالٌّ على أنه مشقّة مُضادة للطبع مخالفة للنفس، أو رصين لرزانة لفظه ومثانة معناه، أو يثقل على المتأمل فيه، لافتقاره إلى مزيد تصفية السّرّ وتجريد النّظر». وقيل: الاعتراض: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ * ﴿إِنَّا سُنِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١)، لأنّها اعترضت بين كلامين متصّلين معنًى، وهو الكلام في قيام الليل، والأظهر الأوّل.

قوله: (والهدوء)، الجوهرى: «هَذَا هَدَاءٌ»^(٢) وهدوءاً: سكن، وأتانا وقد هدأت العيون.

قوله: (تربّد)، النهاية: «في الحديث: كان إذا نزل عليه الوحي اُزْبِدَّ وجهه صلوات الله عليه، أي: تَغَيَّرَ إلى العُبْرَةِ».

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها: رأيتُه ينزل عليه الوحي)، الحديث رواه البخاريُّ

(١) من قوله: «قال القاضي» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) في (ح): «يهداً»، وسقطت من (ف).

فَيُقْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَرْفُضُ عَرَقًا. وعن الحسن: ثقيلٌ في الميزان، وقيل: ثقيلٌ على المنافقين، وقيل: كلامٌ له وزنٌ ورجحانٌ، ليس بالسفساف.

[﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكًَا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ٦]

﴿ناشئةً آليل﴾: النفسُ الناشئةُ بالليل، التي تنشأُ من مَضْجِعِهَا إلى العبادَةِ، أي: تَنهَضُ وتَرْتَفِعُ؛ مِنْ نَشَأَتِ السَّحَابَةِ إِذَا ارْتَفَعَتْ، وَنَشَأَ مِنْ مَكَانِهِ وَنَشَرَ إِذَا تَهَضَّ، قَالَ: نَشَأْنَا إِلَى خُوصِ بَرَى تَيْهَا الشَّرَى وَأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاحِدِ

ومسلمٌ ومالكٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، عنها أُنْثَا قَالَتْ: «وَلَقَدْ رَأَيْتَهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُقْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»^(١).

النهاية: «فَيُقْصِمُ: أَي يُقْلَعُ. وَأَفْصَمَ الْمَطْرُ إِذَا أَقْلَعَ وَانْكَشَفَ». وازْفَضَّ^(٢) عَرَقًا، أَي: جَرَى عَرَقُهُ.

قوله: (ليس بالسفساف)، الجوهرى: «السفساف: الرديء من كل شيء».

قوله: (نشأنا إلى خوصِ البيت)^(٣)، أي: تَهَضُّنَا وَقُمْنَا، مِنْ نَشَأَتِ السَّحَابَةِ إِذَا ارْتَفَعَتْ، وَنَشَأَ مِنْ مَكَانِهِ وَنَشَرَ إِذَا نَهَضَّ^(٤). وَالخُوصُ جَمْعُ خَوْصَاءَ^(٥)، وَهِيَ النَّاقَةُ الْمَرْهَفَةُ الْأَعْلَى

(١) انظر: البخاري (٢)، ومسلم (٨٧-٢٣٣٣)، والإمام مالك (٧)، والنسائي (١٠٠٨)، والترمذي (٣٦٣٤).

(٢) ذكر الزمخشري في الحديث: لَيَرْفُضُ عَرَقًا بَدَلًا مِنْ: لَيَتَفَصَّدُ. وَمِنْهُ فِي حَدِيثِ الْبُرَاقِ، أَنَّهُ اسْتَضَعَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ... فَارْفَضَّ عَرَقًا. انظر: «سنن الترمذي» (٣١٣١)، و«النهاية» (٢: ٥٩٨).

(٣) لم أهد إلى قائله.

(٤) في (ط) و(ف): «نهش».

(٥) في (ح) و(ف): خوصانه، وليس بصواب؛ فالخوصُ هي الإبلُ الغائرة العيون من جهد السفر. قال المرقش الأصغر:

أو قيام الليل، على أن الناشئة مصدرٌ، من: نَشَأَ؛ إذا قامَ وَهَضَ، على «فاعلة» كالعافية، ويدلُّ عليه ما روي عن عبيد بن عمير: قلتُ لعائشة: رجلٌ قامَ من أوّلِ الليل، أتقولينَ له قامَ ناشئةً؟ قالت: لا؛ إنما الناشئة القيامُ بعدَ النوم؛ فَفَسَّرَتِ الناشئة بالقيامِ عن المَضْجَعِ، أو العبادة التي تَنشَأُ بالليل، أي: تَحْدُثُ وَتَرْتَفِعُ. وقيل: هي ساعاتُ الليل كُلِّها؛ لأنها تَحْدُثُ واحدةً بعدَ أخرى. وقيل: الساعاتُ الأوّلُ منه.....

الضخمة الأسفل، وقيل: الخوضُ عَوْرَ العَيْنَيْنِ، والْتِيّ: الشحم، وَتَوَتِ الناقةُ نَيْأً: سَمِنَتْ، وَالصَّقَ: أي: طَأْطَأَ وَنَكَسَ. الْقَهَّاجِدُ: جمعُ الْقَهَّاجِدَةِ، بزيادةِ الميم: ما خَلَفَ الرَّأْسَ (١). يقول: قَصَدْنَا إِلَى نَاقَةٍ مَهْزُولَةٍ مِنَ السَّرِيِّ، وَرَحَلْنَا.

قوله: (أو قيام الليل)، عَطَفْتُ عَلَى قَوْلِهِ: «النفسُ الناشئة»، وَيُرْوَى: «قيام» بالنصب، عطفًا على (٢) «النفسُ الناشئة»، إِذَا رُوِيَ بِالنَّصْبِ.

قوله: (عن عبيد بن عمير)، في «الجامع»: «هو أبو عاصم، عبيد بن عمير بن قتادة بن سعد اللبني الحجازي، قاضي أهل مكة، وُلِدَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ يُقَالُ: رَأَى، وَهُوَ مَعْدُودٌ فِي كِبَارِ التَّابِعِينَ، سَمِعَ عُمَرَ وَأَبَا ذَرٍّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو وَبْنَ الْعَاصِ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» (٣).

قوله: (رجلٌ قام)، «رَجُلٌ»: مبتدأ، و«قام» صفته، و«أتقولين» خبره؛ أُقْحَمَتِ هَمْزَةُ الاستفهامِ بَيْنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ لِلتَّأَكِيدِ، وَإِنَّمَا كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاشِئَةِ الْقِيَامَ وَالنَّهْوُضَ مِنَ النَّوْمِ، لِقَوْلِهَا: «لا، إِنِ النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ مِنَ اللَّيْلِ» (٤).

= رَمَتْكَ ابْنَةُ الْبَكْرِيِّ عَنِ فَرْعِ ضَالَّةٍ وَهَنَّ بِنَا حُوصٌ يُجَلِّنُ نَعَابَةَ

انظر: «المفضليات»، ص ٢٤٤.

(١) انظر: «الصحاح» (٢: ٥٢١-٥٢٢، مادة «قحد»)، وفيه: ناقةٌ مَقْحَادٌ: ضخمة السنائم.

(٢) من قوله «النفسُ الناشئة» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) «جامع الأصول في أحاديث الرسول» (١٢: ٦٩٦)، لابن الأثير.

(٤) من قوله: «قوله: رجلٌ قام» إلى هنا، سقط من (ف).

وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما، أنه كان يُصلي بين المغرب والعشاء ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾؟ هذه ناشئة الليل. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا﴾ هي خاصة دون ناشئة النهار، أشدُّ مواطأةً يُواطئُ قلبُها لسانها؛ إن أردت النفس. أو يُواطئُ فيها قلبُ القائم لسانه؛ إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات. أو أشدُّ موافقةً لما يراؤ من الخشوع والإخلاص. وعن الحسن: أشدُّ موافقةً بين السرِّ والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. وقرئ: «أشدُّ وطأً» بالفتح والكسر،

قوله: (أو يُواطئُ فيها قلبُ القائم لسانه، إن أردت القيام، أو العبادة، أو الساعات^(١))، الانتصاف: «إن جعلت الناشئة للنفس، فالمواطأة فيها حقيقة، وإن جعلتها للساعات أو المصدر فمجاز»^(٢). قلت: ويجوز أن يكون من المجاز الحُكمي، بأن تُسند الوطاءً إلى القيام أو العبادة أو الساعات على المجازي، وإنه لصاحبها حقيقة، وإليه الإشارة بقوله: «أو يواطئُ فيها قلبُ القائم»^(٣) لسانه، وأن تجعل لكل واحدٍ منها^(٤) قلباً ولساناً، وتُحِيل^(٥) له مواطأةً به على الاستعارة المكنية. قوله: (أو «أشدُّ موافقةً»)، عطفٌ على «أشدُّ مواطأةً»؛ فعلى هذا: الإسنادُ في الكل حقيقة؛ فالحاصل: «الناشئة» لا يخلو: إما أن يُرادَ بها النفس أو القيام مثلاً، والمواطأة إما أن يُعنى بها مواطأة القلب اللسان، أو موافقتها لما يراؤ من الخشوع. فإذا عنيت بها النفس، فإذا المواطأة حقيقة على التقديرين. وإذا عنيت بها القيام ونحوه، فالمواطأة مجازٌ على التقدير الأول، حقيقة على الثاني. قوله: (وقرئ: «أشدُّ وطأً»)، أبو عمرو وابن عامر: بكسر الواو والمد^(٦)، والباقون: بالفتح وإسكانِ الطاء.

(١) في (ط): «الطاعات».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٣٨).

(٣) في (ف): «النائم».

(٤) في (ف): لكلٍ منها.

(٥) في (ف): «وتجعل».

(٦) وطاء؛ مصدرٌ وطاءً مواطأةً ووطاءً، أي: ملاءمةً وموافقةً، ومنه: ليواطئوا بمعنى ليوافقوا. وتمامُ القراءة بالفتح.

فمعناها: أقل، أي: الناشئة أقل على المصلي من ساعات النهار. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجنة، ص ٧٣٠.

والمعنى: أشدُّ ثباتَ قَدَمٍ وأبعدُ مِنَ الزَّلَلِ. أو أثقلُ وأغلظُ على المصلي من صلاةِ النهار، من قوله عليه السلام: «اللهمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ».

﴿وَأَقَوْمٌ قِيلاً﴾ وَأَسَدٌ مَقَالاً وَأُثْبِتُ قِرَاءَةً لِهَدْوِ الْأَصْوَاتِ. وعن أنسٍ رضي الله عنه أنه قرأ: «وَأَصُوبٌ قِيلاً»، فقيل له: يا أبا حمزة، إنما هي: وأقوم؛ فقال: إن أقوم وأصوب وأهياً واحداً. وروى أبو زيد الأنصاري عن أبي سَرَّارِ الغنوي أنه كان يقرأ: فَحَاسُوا، بحاءٍ غيرِ مُعْجَمَةٍ، فقيل له: إنما هو (جاسوا) بالجيم، فقال: جَاسُوا وَحَاسُوا واحداً.

[إِنَّكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾]

قوله: (اللهمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ)، وقد أخرجناه^(١) فيما سبق.

النهاية: «أبي: حُذِّمَ أَخْذًا شَدِيدًا، وَالْوَطْءُ فِي الْأَصْلِ: الدَّوْسُ بِالْقَدَمِ».

قوله: (وعن أنسٍ أنه قرأ: وَأَصُوبٌ)، هذا، وَنَحْوَهُ ما رَوَيْهِ عن أبي سوار^(٢): «فَحَاسُوا»، بالحاءِ المهملة، مما لا يُلتفتُ إليه^(٣).

(١) انظر: البخاري (٨٠٤)، ومسلم [٢٩٥-٦٧٥].

(٢) في الأصول الخطية: «أبي سرار»، وصوابه ما أثبتناه، وفي «المحتسب» (٢: ١٤) لابن جني: «فحاسوا» بالحاء: قراءة أبي السَّمالِ. ولعلَّ الصواب كما في «البرهان في علوم القرآن» (٣: ٣٨٨) للزركشي أنه قال: «والقارئ هو أبو السَّوارِ الغنوي لا أبو السَّمالِ فاعلم ذلك، كذلك أسنده الحافظ أبو عمرو الداني، فقال: حدثنا المازني، قال: سألت أبا السَّوارِ الغنوي، فقرأ: «فحاسوا» بالحاء غير الجيم، فقلت: إنما هو «فجاسوا»، قال: حاسوا وجاسوا واحداً».

وفي مختصر ابن خالويه: «أن أبا السَّمالِ قرأ: «فحاشوا» بالحاء والشين. انظر: ص ٧٥».

(٣) أورد الألويسي في «روح المعاني» (١٥: ١١٧)، أن رجلاً قال لأنس بن مالك: إنا نقروها: «وأقوم قِيلاً»، فقال: إنَّ أَصُوبٌ وَأَقَوْمٌ وَأَهْيَاءٌ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ واحداً، أي: بمعنى واحد. ومثله في «المحتسب» و«البرهان»: حاسوا وجاسوا بمعنى واحد، قال ابن جني: «وهذا يدلُّ على أن بعضَ القراءة يُتَخَيَّرُ بلا رواية، وتعقبه الزركشي بقوله: «وهذا الذي قاله ابن جني غيرُ مستقيم، ولا يحلُّ لأحد أن يقرأ إلا بالرواية، وقوله: «إنها بمعنى واحد» لا يوجبُ القراءة بغير الرواية». «البرهان» (٣: ٢٨٨).

﴿سَبْحًا﴾ تَصَرَّفًا وَتَقَلُّبًا فِي مُهِمَاتِكَ وَسُوَاعِلِكَ، وَلَا تَفْرَغُ إِلَّا بِاللَّيْلِ؛ فَعَلَيْكَ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ الَّتِي تَقْتَضِي فِرَاقَ الْبَالِ وَانْتِفَاءَ الشَّوَاغِلِ. وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ بِالْحَيَاءِ فَاسْتِعَارَةٌ مِنْ سَبْحِ الصُّوفِ، وَهُوَ نَفْسُهُ وَنَشْرُ أَجْزَائِهِ؛ لِانْتِشَارِ الْهَمِّ وَتَفَرُّقِ الْقَلْبِ بِالشَّوَاغِلِ؛ كَلَّفَهُ قِيَامَ اللَّيْلِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحِكْمَةَ فِيهَا كَلَّفَهُ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّيْلَ أَعُونُ عَلَى الْمَوَاطَاةِ وَأَشَدُّ لِلْقِرَاءَةِ، لِهَدْوِ الرَّجْلِ وَخُفْوِ الصَّوْتِ، وَأَنَّهُ أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ وَأَضْمُّ لِنَشْرِ الْهَمِّ مِنَ النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ تَفَرُّقِ الْهَمُومِ وَتَوَزُّعِ الْخَوَاطِرِ وَالتَّقَلُّبِ فِي حَوَائِجِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ. وَقِيلَ: فِرَاغًا وَسَعَةً لِنُومِكَ وَتَصَرُّفِكَ فِي حَوَائِجِكَ، وَقِيلَ: إِنَّ فَاتَكَ مِنَ اللَّيْلِ شَيْءٌ فَلَكَ فِي النَّهَارِ فِرَاغٌ تَقْدَرُ عَلَى تَدَارُكِهِ فِيهِ.

[﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ * رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ * وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ * ٨-١٠]

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ وَدُمْ عَلَى ذِكْرِهِ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَاحْرِصْ عَلَيْهِ، وَذَكُرْ اللَّهَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ طَيْبٍ: تَسْبِيحٍ، وَتَهْلِيلٍ، وَتَكْبِيرٍ، وَتَمْجِيدٍ، وَتَوْحِيدٍ، وَصَلَاةٍ، وَتِلَاوَةٍ قُرْآنٍ، وَدِرَاسَةِ عِلْمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعْرِقُ بِهِ سَاعَاتِ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ وَانْقَطِعْ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ ﴿تَبْتِيلًا﴾ مَكَانَ تَبْتُلًا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ مَعْنَى تَبْتَّلَ بَتَّلَ نَفْسَهُ، فَجِيءَ بِهِ عَلَى مَعْنَاهُ مُرَاعَاةَ لِحَقِّ الْفَوَاصِلِ.....

قَوْلُهُ: (فَجِيءَ بِهِ عَلَى مَعْنَاهُ مُرَاعَاةَ لِحَقِّ الْفَوَاصِلِ)، لِأَنَّهُ قِيلَ: قَلِيلًا، طَوِيلًا، فَقِيلَ: تَبْتِيلًا. مُرَاعَاةَ لَهَا، قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: «يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: يَعْنِي لَمَّا كَانَ مَعْنَى «تَبْتَّلَ إِلَيْهِ»: انْقِصَاعُ إِلَيْهِ، أُقِيمَ التَّبْتِيلُ مَقَامَهُ، وَأُكِّدَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْانْقِطَاعَ إِلَى الرَّبِّ، لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَكَرُّارِ التَّبْتُلِ؛ فَالتَّبْتِيلُ يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ الشَّدَّةِ، وَالتَّبْتُلُ عَلَى التَّكْرَارِ. لِأَنَّ التَّفْعِيلَ لِتَكَثِيرِ النِّفْعِ».

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرئ مرفوعاً على المدح، ومجوراً على البدل من ﴿رَبِّكَ﴾. وعن ابن عباس: على القَسَمِ بإضمار حرفِ القَسَمِ، كقولك: الله لأفعلن، وجوابه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد. وقرأ ابن عباس: «رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ». ﴿فَأَنخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مُسَبَّبٌ عن التهليل؛ لأنه هو وَحْدَهُ هو الذي يَجِبُ - لتوحيده بالربوبية - أن تُوكَلْ إليه الأمور. وقيل ﴿وَكِيلًا﴾ كفيلاً بما وَعَدَك من النصر والإظهار. الهَجْرُ الجميل: أن يُجَانِبَهُم بقلبه وهواه، ويخالقهم مع حُسْنِ المُخَالَقة والمداراة والإغضاء وتَرْكِ المكافأة. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكثير في وجوه قوم ونضحك إليهم،

قوله: (﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، قرئ مرفوعاً)، أبو بكر وابن عامر وحزمة والكسائي: «رَبُّ» بخفض الباء، والباقون: برفعها.

قوله: (وجوابه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾)، أقسم بما اتفقوا عليه على ما اختلفوا فيه؛ فإثم اعترفوا أن الله ربُّ المشرق والمغرب، ولكنهم أشركوا معه الأصنام في العبادة، ألا ترى كيف أفحم خليل الله نمرود بقوله: ﴿فَلَا تَأْتِي اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وكليم الله موسى فرعون بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١) [الشعراء: ٢٨].

قوله: (إنا لنكثير في وجوه قوم)، الأساس: «كثّر الرجل إلى صاحبه: تبسّم، وكاشره»، قال المتلمس:

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْثُرُ لِي حِينَ الْقَاهِ، وَإِنْ غِبْتُ شَتَمَ^(٢)

(١) في الأصول الخطية: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، وهي من الآية (٢٤) قبل هذه، إذ قال الله على لسان فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]، واستمر الحجج بينهما.

(٢) «ديوانه»، ص ٣٢٥.

وإنَّ قلوبَنَا لَتَقْلِيهِمْ. وقيل: هو منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

[﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَحَجِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴾ ١١-١٤]

إذا عَرَفَ الرَّجُلُ مِنْ صَاحِبِهِ أَنَّهُ مُسْتَهْمٌ بِحَطْبٍ يَرِيدُ أَنْ يُكْفَاهُ، أَوْ بَعْدُ يَسْتَهِي
أَنْ يُنْتَقَمَ لَهُ مِنْهُ وَهُوَ مُضْطَلِعٌ بِذَلِكَ مُقْتَدِرٌ عَلَيْهِ قَالَ: ذَرْنِي وَإِيَاهُ، أَي: لَا تَحْتَاجُ إِلَى
الظَّفْرِ بِمُرَادِكَ وَمُسْتَهَاكَ، إِلَّا أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بِأَنْ تَكِيلَ أَمْرَهُ إِلَيَّ وَتَسْتَكْفِينِيهِ، فَإِنَّ
فِي مَا يُفْرَعُ بِأَلْكَ وَيُجَلِّي هَمَّكَ، وَلَيْسَ نَمَّ مَنَعٌ حَتَّى يَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذَرَهُ وَإِيَاهُ.....

قوله: (أَنَّهُ مُسْتَهْمٌ)، الأساس: «اهتمَّ به، ونزَّلَ به مُهْمٌ. وَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: اسْتَهَمَّ لِي
بكذا»، فِيهِ مَبَالِغَةٌ، كَأَنَّهُ يَقْصِدُ قَصْدًا وَاحِدًا، أَوْ يَطْلُبُ مَنْ يَهْمُ بِذَلِكَ الْأَمْرِ وَيَقْصُدُهُ.

قوله: (وَلَيْسَ نَمَّ مَنَعٌ حَتَّى يَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذَرَهُ)، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ، قَرِيبٌ مِنْ نَحْوِ
قَوْلِكَ: لَا أَرِيَنَّكَ هَاهُنَا، يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى أُنْمِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ طَلَبَ مَنَعَهُ أَنْ يُوقَعَ
بِالْمُكَذِّبِينَ، وَأَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا طَلَبَ الْمَنَعَ، بَلْ شَوَّهَدَ مِنْهُ مَا نَزَلَ مَنَزَلَةَ الْمَنَعَ، مِنْ تَرْكِ
الاسْتِكْفَاءِ وَتَفْوِضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ تَعَالَى. الْمَعْنَى: مَالِكٌ لَا تَسْتَكْفِينِيهِ، وَلَا تُفَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيَّ حَتَّى
أَسْتَكْفِيكَ وَأَنْتَقِمَ لَكَ مِنْهُ؟

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ التَّهْيِيجِ وَالِالْتِفَاتِ^(١)، وَفِيهِ أَنْ مَنْ لَهُ عَدُوٌّ يُضَادُّهُ وَيُنَاوِبُهُ،
فَاللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ يَجِبُ أَنْ يَكْفِيَ شَرَّهُ، وَالْمُظْلُومُ إِذَا لَمْ يُسْتَكْفَ شَرُّهُ مِنَ اللَّهِ كَأَنَّهُ مَنَعَهُ، فَإِذَا
فَعَلَ ذَلِكَ كَأَنَّهُ ظَفَرَ بِهِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ^(٢) الْمُرَادِ غَايَةَ التَّمَكُّنِ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ^(٣): «وَفِيهِ دَلِيلٌ
عَلَى الْوَثُوقِ بِأَنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْوَفَاءِ بِأَقْصَى مَا تَدَوَّرُ حَوْلَهُ أَمْنِيَةُ الْمُخَاطَبِ».

(١) فِي (ح): «وَالِالْتِفَاتِ»، وَفِي (ف): «وَالِإِطْنَابِ».

(٢) فِي (ح): «عَنْ»، وَفِي (ف): «عَلَى»، وَلَيْسَ بِصَوَابٍ.

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: «وَفِيهِ أَنْ مَنْ لَهُ عَدُوٌّ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ط).

إِلَّا تَرَكَ الْاسْتِكْفَاءَ وَالتَّقْوِيضَ، كَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكِلْ أَمْرَهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ مَنَعَهُ مِنْهُ؛ فَإِذَا وَكَلَهُ إِلَيْهِ فَقَدْ أزالَ الْمَنَعَ وَتَرَكَهَ وَإِيَاهُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْوُثُوقِ بِأَنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْوَفَاءِ بِأَقْصَى مَا تَدَوَّرُ حَوْلَهُ أَمْنِيَةً الْمَخاطَبِ وَبِهَا يَزِيدُ عَلَيْهِ. النَّعْمَةُ بِالْفَتْحِ: التَّنْعَمُ، وَبِالْكَسْرِ: الْإِنْعَامُ، وَبِالضَّمِّ: الْمَسْرَةُ؛ يُقَالُ: نَعَمَ، وَنُعْمَةٌ عَيْنٌ، وَهَمَّ صِنَادِيدُ قَرِيشٍ، وَكَانُوا أَهْلَ تَنْعَمٍ وَتُرْفَةٍ.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ مَا يُضَادُّ تَنْعَمَهُمْ: مِنْ أَنْكَالٍ، وَهِيَ الْقَيْوُودُ الثَّقَالُ؛ عَنِ الشَّعْبِيِّ: إِذَا ارْتَفَعُوا اسْتَفَلَّتْ بِهِمْ، الْوَاحِدُ: نِكْلٌ وَنَكْلٌ. وَمِنْ جَحِيمٍ: وَهِيَ النَّارُ، الشَّدِيدَةُ الْحَرُّ وَالْإِتْقَادُ. وَمِنْ طَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، وَهُوَ الَّذِي يَنْشَبُ فِي الْخَلُوقِ فَلَا يُسَاعِ، يَعْنِي: الضَّرِيحَ وَشَجَرَ الزَّرْقُومِ. وَمِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ: مِنْ سَائِرِ الْعَذَابِ، فَلَا تَرَى مُوَكَّوِلًا إِلَيْهِ.....

قوله: (إِلَّا تَرَكَ الْاسْتِكْفَاءَ)، قِيلَ: الْاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

قوله: (نَعَمٌ، وَنُعْمَةٌ عَيْنٌ)، نَعَمٌ: حَرْفٌ إِيجَابٌ، يَقُولُ الْمُجِيبُ لِلطَّالِبِ: نَعَمٌ، وَنُعْمَةٌ عَيْنٌ، قِيلَ: التَّقْدِيرُ: أَنْعَمَ عَيْنَكَ إِنْعَامًا، أَي: أَقْرَاهَا. وَقَالَ: وَلَمْ يُسْمَعْ هَذَا إِلَّا عِنْدَهُمْ. الْجَوْهَرِيُّ: «نُعْمَةُ الْعَيْنِ، بِضَمِّهَا: قُرَّتْهَا. وَيُقَالُ: نُعِمَ عَيْنٌ، وَنُعْمَةٌ عَيْنٌ، أَي: أَفْعَلُ ذَلِكَ كِرَامَةً لَكَ وَإِنْعَامًا لِعَيْنِكَ، وَمَا أَشْبَهَهُ».

قوله: (فَلَا تَرَى مُوَكَّوِلًا إِلَيْهِ)، مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَرْنِي﴾، لِأَنَّ الْفَاءَ تَنْجِيحٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ لَدَيْنَا مَا يُضَادُّ تَنْعَمَهُمْ». وَ«إِنَّ لَدَيْنَا» تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿ذَرْنِي﴾، أَي: كِلْ إِلَيَّ أَمْرَهُمْ وَذَرْنِي وَإِيَاهُمْ، فَإِنَّكَ لَا تَرَى أَحَدًا مُوَكَّوِلًا إِلَيْهِ [أمرهم] ^(١)، وَلَا مُوَذَّورًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْإِنْتِقَامِ، وَهُوَ الْأَنْكَالُ وَالْجَحِيمُ وَالطَّعَامُ وَالْعَذَابُ؛ فَالضَّمِيرُ فِي «إِلَيْهِ» وَ«بَيْنَهُ»، يَعُودُ إِلَى الْمُوصُوفِ الْمَحذُوفِ، وَلَا ضَمِيرَ فِي «مُوَكَّوِلًا» وَلَا «مُوَذَّورًا»، لِإِسْنَادِهِمَا إِلَى «أَمْرَهُمْ» وَإِلَى «بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ»، وَ«يَنْتَقِمُ» ^(٢): صِفَةٌ لِلْمُوصُوفِ الْمَحذُوفِ، لَا لِلْمُوكَّوِلِ وَالْمُوَذَّورِ، لِأَنَّ الْوَصْفَ لَا يُوَصِّفُ.

(١) زيادة للإيضاح.

(٢) سقط لفظ: «ويتنقم»، من (ح) و(ف).

أمرهم مؤذوراً بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام.

وروي أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية فصعق، وعن الحسن: أنه أمسى صائماً، فأتى بطعام، فعرضت له هذه الآية؛ فقال: ارفعه، ووضع عنده الليلة الثانية، فعرضت له، فقال: ارفعه، وكذلك الليلة الثالثة، فأخبر ثابت البناني ويزيد الصبي ويحيى البكاء، فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

﴿يَوْمَ تَرَجُّفُ﴾ منصوبٌ بما في ﴿لَدَيْنَا﴾. والرَّجْفَةُ: الزَّلْزَلَةُ والزَّرْعُزَعَةُ الشَّدِيدَةُ، والكُثْبُ: الرَّمْلُ المَجْتَمِعُ، مِن كَثَبَ الشَّيْءَ إِذَا جَمَعَهُ، كَأَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ فِي أَصْلِهِ، وَمِنَ الكُثْبَةِ مِنَ اللَّبْنِ، قَالَتِ الضَّائِنَةُ: أُجْزُ جُفَالًا، وَأَحْلَبُ كُثْبًا عِجَالًا، أَي: كَانَتْ مِثْلَ رَمْلٍ مَجْتَمِعٍ هَيْلَ هَيْلًا، أَي: نُثِرَ وَأَسِيلَ.

[﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾]

فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٥-١٦﴾

قوله: (بينه وبينهم)، أي: بين من وكل أمره إلى القائل: ﴿ذَرْنِي﴾، وهو الموكول إليه.

قوله: (ومنه الكُثْبَةُ مِنَ اللَّبْنِ)، كلُّ شَيْءٍ جَمَعْتَهُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ غَيْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَلِيلًا،

فَهُوَ كُثْبَةٌ^(١).

قوله: (قَالَتِ الضَّائِنَةُ: أُجْزُ جُفَالًا)، الجوهري: «قَالَتِ الضَّائِنَةُ: أَوْلَدُ رُخَالًا، وَأُجْزُ جُفَالًا، وَأَحْلَبُ كُثْبًا ثِقَالًا، وَلَمْ تَرَ مِثْلِي مَالًا». «الرَّخْلُ، بَفَتْحِ الرَّاءِ وَكسْرِ الحَاءِ: الأَنْثَى مِنَ وُلْدِ الضَّانِ، وَالجَمْعُ رُخَالٌ. وَالجُفَالُ: الصَّوْفُ الكَثِيرُ، أَي: أُجْزُ بِمِرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَذَلِكَ أَنْ صَوْفَهَا لَا يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى يُجِزَّ كُلُّهُ»^(٢).

(١) كذا في «الصحيح» (١: ٢٠٩ - كسب)، والكُثْبَةُ مِنَ اللَّبْنِ: قَدْرٌ حَلْبَةٍ، قال أبو زيد: «لَمَّا أُلْقِيَ القَدْحُ مِنَ اللَّبْنِ.

(٢) «الصحيح» (٤: ١٦٥٦ «جفل»، ١٧٠٨ «رخل»). والضائنة: المرأة كثر ولدها.

الخطابُ لأهلِ مكة، ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهدُ عليكم يومَ القيامةِ بكُفْرِكُمْ وتكذيبِكُمْ. فإن قلت: لم نُكِرَ الرسولُ ثم عُرِفَ؟ قلتُ: لأنه أراد: أرسلنا إلى فرعونَ بعضَ الرُّسل، فلما أعاده، وهو معهودٌ بالذكر، أدخلَ لامَ التعريفِ إشارةً إلى المذكورِ بعينه. ﴿وَيَبِلًا﴾ ثقیلاً غليظاً، من قولهم: كَلَأَ وَيَبِلُ: وَخِمٌ لا يُسْتَمِرُّ لِثِقَلِهِ. والوييلُ: العصا الضَّخْمَةُ، ومنه الوابلُ للمَطَرِ العَظِيمِ.

[﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ،

مَفْعُولًا ﴿١٧-١٨﴾]

﴿يَوْمًا﴾ مفعولٌ به، أي: فكيفَ تَقُونَ أنفُسَكُم يومَ القيامةِ وهوْلَهُ، إن بَقِيتُم على الكُفْرِ، ولم تُؤْمِنُوا وتَعْمَلُوا صالحاً. ويجوزُ أن يكونَ ظرفاً، أي: فكيفَ لكم بالتقوى في يومِ القيامةِ إن كَفَرْتُمْ في الدنيا، ويجوزُ أن يَنْتَصِبَ بـ «كَفَرْتُمْ» على تأويلِ جَحَدْتُمْ، أي: فكيفَ تَتَّقُونَ اللهَ وتَحْشَوْنَهُ إن جَحَدْتُمْ يومَ القيامةِ والجزاء؛ لأنَّ تقوى الله خوفٌ عقابِهِ. ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ مَثَلٌ في الشَّدةِ، يقالُ في اليومِ الشَّدِيدِ: يومٌ يُشِيبُ نَوَاصِي الأَطْفَالِ، والأصلُ فيه

قوله: (أي: فكيفَ تَتَّقُونَ اللهَ وتَحْشَوْنَهُ إن جَحَدْتُمْ يومَ القيامةِ)، يعني: إذا جَحَدْتُمْ يومَ القيامةِ وأنكرتموه فلا تَعْتَقِدُونَ العقابَ، فلا يكونُ لكم خَشْيَةٌ ولا تقوى.

وهذا الوجهُ^(١) أَوْفَقُ للتأليفِ، يَعْنِي: حَوَقْنَاكُمْ بِالْأَنْكَالِ والجحيمِ، وأرسلنا إليكم رسولاً شاهداً يومَ القيامةِ بكُفْرِكُمْ وتكذيبِكُمْ، وأنذرناكم بما فعلنا بفرعونَ مِنَ العذابِ الوييلِ والأخذِ الثَقِيلِ، فما نَجَّعَ فيكم ذلكَ كلُّهُ ولا اتَّقِيتُم اللهَ، فكيفَ تَتَّقَوْنَهُ وتَحْشَوْنَهُ إن جَحَدْتُمْ يومَ القيامةِ والجزاء؟ وفيه: أن مَلَائِكَةَ التقوى والخشيةِ الإيْمَانِ بيومِ القيامةِ.

(١) أي: انتصاب ﴿يَوْمًا﴾ بـ «كَفَرْتُمْ»، وانظر: «روح المعاني» (١٥: ١٢١)، إذ نقل عبارة الطيبي ثمة.

أَنَّهُمُومَ وَالْأَحْزَانَ إِذَا تَفَاقَمْتُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَسْرَعَ فِيهِ الشَّيْبُ، قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

وَالهَمُّ يَحْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

وقد مرّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يُقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أو أن الشيخوخة والشيب. ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضاً، وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه، فما ظنك غيرها من الخلائق؟ وقري: «مُنْفَطِرٌ وَمُنْفَطِرٌ»، والمعنى: ذات انفطار، أو على تأويل: «السماء» بالسقف، أو: السماء شيءٌ مُنْفَطِرٌ، والباء في «به» مثلها في قولك: فَطَرْتُ العودَ بالقُدومِ فانفطر به، يعني: أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله، كما ينفطر الشيء بما يُفطر به. ويجوز أن يُراد: السماء مُثْقَلَةٌ به إتحالاً يؤدي إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله: ﴿نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

قوله: (كالثغامة)، الجوهرى: «الثغام، بالفتح: نبت يكون في الجبل يبيض إذا يبس، يشبه به الشيب، الواحدة: ثغامة».

قوله: (ويجوز أن يوصف اليوم بالطول)، يعني: يكون قوله ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾، كناية عن طول اليوم.

قوله: (والمعنى: ذات انفطار)، قال أبو البقاء: «مُنْفَطِرٌ، بغير تاء، على النسب، أي: ذات انفطار، وقد ذكّر حملاً على معنى السقف، وقيل: السماء تُذكَرُ وتؤنث»^(١).

قوله: (ويجوز أن يُراد: السماء مُثْقَلَةٌ به)، أي: جعل كون السماء مُثْقَلَةً، لعظم اليوم عليها

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٤٨).

﴿وَعَدُّهُ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، والضمير لليوم، ويجوز أن يكون مضافاً إلى الفاعل وهو الله عزّ وعلا، ولم يجز له ذكرُ لكونه معلوماً.

[إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾]

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآياتِ الناطقة بالوعيدِ الشديدِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ اتعظَ بها واتخذَ سبيلاً إلى الله بالتقوى والحشية. ومعنى اتخذه السبيل إليه: التقربُ والتوسُّلُ بالطاعة.

[﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا يَنْتَسِرَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنَّ عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًىٰ وَأَآخِرُونَ يَصْرِيئُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَآخِرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا يَنْتَسِرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾]

﴿أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾ أقلُّ منها؛ وإنما استعير الأَدنى وهو الأقربُ للأقل؛ لأن المسافة بين الشئين إذا دنت، قلَّ ما بينهما من الأحياز؛ وإذا بُعدت كثر ذلك. وقرئ: ﴿وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ﴾ بالنصبِ على: أنك تقومُ أقلَّ من الثلثين، وتقومُ النصفَ والثلث،

وحسبها من وقوعه، كأنها مرفوعةٌ مُنفطرةٌ به، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: ثقلت الساعةُ فيها، لأن كلَّ شيءٍ لا يطيقها ولا يقوم لها، فهي ثقيلةٌ فيها.

قوله: (وقرئ): ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ بالنصب، الكوفيون وابنُ كثير: بنصبها، والباقون: بالخفض، قال أبو البقاء: «بالجرِّ حملاً على ﴿ثُلُثِي﴾، وبالنصبِ حملاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾»^(١).

(١) «التيبان» (٢: ١٢٤٨)، والنصبُ بوقوع الفعل، أي: تقوم أدنى من ثلثي الليل، وتقوم نصفه، وتقوم ثلثه. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٣٢.

وهو مطابق لما مرّ في أوّل السورة، من التخيير بين قيام النصف بتمامه، وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين. وقُرئ: «وَنُصِفَهُ وَثُلَيْثَهُ» بالجرّ، أي: تقوم أقلّ من الثلثين وأقلّ من النصف والثلث، وهو مطابق للتخيير بين النّصف: وهو أدنى من الثلثين، والثلث: وهو أدنى من النصف، والرّبع: وهو أدنى من الثلث، وهو الوجه الأخير.

﴿وَطَافَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتها إلا الله وحده؛ وتقديم اسمه عزّ وجلّ مبتدأً مبنياً عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾: هو الدالّ على معنى الاختصاص بالتقدير؛ والمعنى: إنكم لا تقدرون عليه، والضمير في ﴿لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ لمصدر «يقدر»، أي: علّم أنه لا يصحّ منكم ضبط الأوقات، ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية، ...

قوله: (وهو مطابق لما مرّ في أوّل السورة) أي: في الوجه الثاني من الوجوه المذكورة في

قوله: ﴿قُرْءَانَ لَيْلٍ لَّا قَلِيلًا﴾ يَصِفُهُ، الآية.

قوله: (وهو مطابق) إلى قوله: (وهو الوجه الأخير) أي: الوجه الرابع من الوجوه.

قوله: (وتقديم اسمه تعالى [مبتدأً] ^(١) مبنياً عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾: هو الدالّ على [معنى]

الاختصاص)، هذا خلاف رأي صاحب «المفتاح»، حيث قال: «لا يكون لقولنا: زيدٌ عَرَفَ غير احتمال الابتداء، اللهم إلا بذلك الوجه البعيد، فلا يرتكب عند المعرف لكونه عن شرط الابتداء؛ وإنما يرتكب عند المنكر لفوات الشرط» ^(٢). وجوابه ما سبق في سورة الرعد في قومه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٦]، أن إفادة الاختصاص من خصوصية الاسم جمع

(١) سقط لفظ «مبتدأً» من الأصول الخطية.

(٢) «مفتاح العلوم»، ص ٢٢٤.

إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط، وذلك شاقٌ عليكم بالغٍ منكم. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عبارة عن الترخيص في تركِ القيامِ المقدّر، كقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْكَفَّ بِشِرْوَاهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والمعنى: أنه رَفَعَ التَّبِعَةَ في تَرْكِهِ عنكم، كما يَرْفَعُ التَّبِعَةَ عن التائب. وَعَبَّرَ عن الصلاةِ بالقراءة لأنها بعضُ أركانها، كما عَبَّرَ عنها بالقيامِ والركوعِ والسُّجودِ، يريد: فَصَلُّوا ما تيسَّرَ عليكم، ولم يتعدَّزْ من صلاةِ الليل؛ وهذا ناسخٌ للأوّل،

مع التركيب، لما تَجِدُ التفاوتَ بين ما عليه التلاوةُ وَقَوْلُنَا: يُقدِّرُ اللهُ الليل، وكذا بين قولنا: زيدٌ يجود، وحاتمٌ يجود.

قوله: (ولم يتعدَّزْ من صلاةِ الليل)، أي: صَلُّوا ما بَعَدَ من صلاةِ الليل، وما لم يُنسبوا إلى التَّقْصِيرِ فيها، كما تقول: هذا لم يتعدَّزْ عليّ، أي: هو سهلٌ عندي، لأنِّي لم أَقْصُرْ في تحصيله. الجوهري: «التَّعْدِيرُ في الأمر: التَّقْصِيرُ فيه».

قوله: (وهذا ناسخٌ للأوّل^(١))، روينا عن الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ ومُسلمٍ وأبي داودَ والدارمي وابنِ ماجه والنسائي، عن سعدِ بنِ هشام، قال: قلتُ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: يا أُمَّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالت: أَلَسْتُ تَقْرَأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى، قالت: فَإِنَّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ القرآنَ. قال: فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، ولا أسألَ عن شيءٍ حتى أموت. ثُمَّ بَدَأَ لي، فقلتُ: أنبئيني عن قيامِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فقالت: أَلَسْتُ تَقْرَأُ؟ ﴿يَتَأَيَّأُ الْمَرْمَلُ﴾؟ قلتُ: بلى. قالت: فَإِنَّ اللهُ قد افترَضَ قيامَ الليلِ في أولِ هذه السورة، فقامَ نبيُّ اللهِ ﷺ وأصحابُه حولاً، وأمَسَكَ اللهُ خاتِمَتَها اثني عَشَرَ شهراً في السماء، حتى أنزلَ اللهُ تعالى في آخرِ السورةِ التخفيفَ، وصارَ قيامَ الليلِ تَطَوُّعاً^(٢).

(١) في (ط): «وهذا نافعٌ للأقل».

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦)، والإمام أحمد في المسند (٢٤٢٦٩)، وأبو داود (١٣٤٢)، والدارمي (١٥١٦)، وابن ماجه (٢٣٣٣)، والنسائي (٤٢٤). وثمة تمام تخريجه.

ثم نُسِخا جميعاً بالصلواتِ الخَمْسِ. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها؛ قيل: يقرأ مائة آية، ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يُحَاجَّه القرآن، وقيل: من قرأ مئة آية كُتِبَ من القانتين. وقيل: خمسين آية.

وقد بيَّنَ الحكمةَ في النَّسخِ، وهي تَعَدُّرُ القيامِ على المرضي، والضارِبينَ في الأرضِ للتجارة، والمجاهدينَ في سبيلِ الله. وقيل: سَوَّى اللهُ بينَ المجاهدينَ والمسافرينَ لِكَسْبِ الحلالِ. وعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: أَيُّما رجلٍ جَلَبَ شيئاً إلى مدينَةٍ من مدائِنِ المسلمينَ صابِراً مُحْتَسِباً، فباعه بسعْرِ يَوْمِهِ، كانَ عندَ اللهِ من الشهداءِ.....

وعن أبي داود، عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله: ﴿تَرَالَيْلَ إِلا قَلِيلاً﴾ الآية. قال: نَسَخْتَهَا الآيةُ التي فيها ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُحْضَوْهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَ مَا يَنْتَرُكَ﴾ الحديث (١).

قوله: (ثُمَّ نُسِخَا جَمِيعاً)، أي: الرُّخْصَةُ والعَزِيمَةُ.

قوله: (وقيل: هي قراءة القرآن بعينها)، عَطَفُ على قوله: «وَعَبَّرَ عن الصلاةِ بالقراءة». دليلُ الأَوَّلِ: تَرْتُبُ ﴿فَاقْرَأْ وَ﴾ بالفاءِ على قوله: ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُحْضَوْهُ﴾. ودليلُ الثاني: عَطَفُ قوله ﴿وَاقْرَأُوا الصَّلَاةَ﴾ على ﴿فَاقْرَأْ وَ مَا يَنْتَرُكَ﴾. عن البخاري، عن سفيان، قال لي ابنُ شُبْرُمة: نَظَرْتُ كم يكفي الرَّجُلُ مِنَ القرآنِ، فلم أجد سورةً أَقَلَّ مِنْ ثلاثِ آياتٍ، فقلتُ: لا يَنْبَغِي لأحدٍ أن يقرأ أَقَلَّ مِنْ ثلاثِ آياتٍ (٢).

قوله: (لَمْ يُحَاجَّه القرآن)، النهاية: «لَمْ يَغْلِبْهُ بِالْحُجَّةِ. وَمِنْهُ الحديثُ: «فَحَجَّ آدمُ موسى»، أي: غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ» (٣).

قوله: (سَوَّى اللهُ بينَ المجاهدينَ والمسافرينَ لكسبِ الحلالِ)، وذلك أنه أُعيدَ ذِكْرُ

(١) أخرجه أبو داود (١٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥١).

(٣) هذه الفقرة تقدّمت في الأصول قبل سابقتها، وأخرناها إلى هنا مراعاة لـ «الكشاف».

وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتةً أموتها بعد القتلِ في سبيلِ الله، أحبَّ إليَّ من أن أموتَ بين شُعبتي رَحْلٍ، أضربُ في الأرضِ أبتغي من فضلِ الله. و﴿عَلِمَ﴾ استئنافٌ على تقديرِ السؤالِ عن وَجْهِ النسخ. ﴿وَأَقْرِضُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني المفروضةَ والزكاةَ الواجبةَ، وقيل: زكاةَ الفِطْرِ؛ لأنه لم يكن بمكةَ زكاة، وإنما وَجِبَتْ بعدَ ذلك. ومن فسَّرَها بالزكاةَ الواجبةَ جعلَ آخرَ السورةِ مَدنيًّا. ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يجوزُ أن يريدَ سائرَ الصدقاتِ، وأن يريدَ أداءَ الزكاةِ على أحسنِ وَجْهِ: من إخراجِ أطيبِ المالِ وأعوده على الفقراءِ، ومُراعاةِ النيةِ وابتغاءِ وَجْهِ الله، والصَّرْفِ إلى المُستحقِّ، وأن يريدَ كلَّ شيءٍ يُفعلُ من الخيرِ بما يتعلَّقُ بالنفسِ والمالِ. ﴿خَيْرًا﴾ ثاني مفعوليَّ وَجَدَ. و﴿هُوَ﴾ فَضْلٌ، وجازَ - وإن لم يقع بين معرفتين - لأنَّ «أفعلٌ من»

﴿وَأَخْرُونَ﴾، وقوبلَ ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ بقوله ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ثمَّ جمعا في قوله: ﴿فَأَقْرِبُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾، لفظاً من حيثِ الضميرِ، وحُكماً في الأمرِ بالقراءةِ على سبيلِ التيسيرِ^(١). وكان أصلُ الكلام: عَلِمَ أن سيكونَ منكم مَرَضِيٌّ ومُساوِرُونَ، فقسَّمهم قسمينِ: المُبتغينِ من فضلِ الله والمجاهدينِ، ولم يكتفِ بذلك، بل قَدَّمَ المسافرِينَ على المجاهدينِ.

روينا عن أحمدَ بنِ حنبلٍ، عن عمرو بنِ العاصِ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ لي: «إني أريدُ أن أبعثَكَ على جيشٍ فيُسلمُكَ اللهُ ويُعِينِكَ، وأزعبُ لك من المالِ زَعْبَةً^(٢) صالحةً»، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أسلمتُ من أجلِ المالِ، ولكنني أسلمتُ رغبةً في الإسلامِ، وأن أكونَ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: «يا عمرو، نِعَمَ المَالُ الصالحُ للمرءِ الصالحِ»^(٣).

قولُه: ﴿و﴿هُوَ﴾ فَضْلٌ، وجازَ - وإن لم يقع بين معرفتين - لأنَّ أفعلٌ إلى آخره، «من»

(١) في (ف): التفسير.

(٢) في الأصول الخطية: «أرغب ... رغبة»، وهو تصحيف، والمعنى - كما في «النهاية» (٢: ٧٤١) -: أعطيك

دفعاً من المالِ، وأصلُ الزَّعْبِ: الدَّفْعُ والقَسْمُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣).

أشبهه في امتناعه من حرف التعريف، المعرفة. وقرأ أبو السَّمَال: «هو خيرٌ وأعظمُ أجراً»، بالرفع على الابتداء والخبر.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ المزمل، دَفَعَ اللهُ عَنْهُ العُسْرَ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ».

مُتَعَلِّقٌ بـ «أفعل»^(١)، أي: لفظه «أفعل من» أشبه المعرفة في امتناعه من حرف التعريف، قال ابنُ الحاجب: «أفعل من كذا، مُشَبَّهٌ للمعرفة شَبْهًا قَوِيًّا مِنْ حَيْثُ المَعْنَى، حَتَّى مَعْنَى قولِكَ: أَفْضَلُ مِنْ كَذَا: الأَفْضَلُ، بِاعتبارِ: فَضيلتُهُ مَعهودة، وَلذلك قام مقامه». وَقَالَ أيضاً: «وَلذلك لَمْ يَجْمَعُوا بَيْنَهُمَا»^(٢).

قوله: (وَقَرَأَ أَبُو السَّمَالِ: «هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا»)، بِالرَّفْعِ)^(٣)، وَفِي «المَوْضِحِ»: عَدَّ مِنْ القُرَاءِ أبا السَّمَالِ، وَأبا السَّمَاكِ أَيْضاً^(٤). قَالَ الزَّجَّاجُ: ﴿خَيْرٌ﴾: مَنْصُوبٌ، مَفْعُولٌ ثَانِي لـ ﴿يَجِدُوهُ﴾، وَدَخَلَتْ ﴿هُوَ﴾ فَضْلاً. وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ القُرْآنِ جَازًا: «تَجِدُوهُ هُوَ خَيْرٌ»، وَالنَّصْبُ أَجُودٌ فِي العَرَبِيَّةِ، وَلَا يَجُوزُ غَيْرُهُ، أَي: فِي القُرْآنِ^(٥).

تَمَّت السُّورَةُ

بِحَمْدِ اللهِ وَعَوْنِهِ

* * *

(١) فِي (ط): «بِأَفْضَلِ».

(٢) انظُر: «الإيضاح فِي شرح المَفْصَلِ» (٢: ٦٥٥) بِمَعْنَاهُ لَا يَلْفِظُهُ.

(٣) قَالَ أَبُو زَيْدٍ: «هِيَ لُغَةٌ بَنِي تَمِيمٍ، يَرْفَعُونَ مَا بَعْدَ الفاصِلَةِ، يَقُولُونَ: كَانَ زَيْدٌ هُوَ الفاعِلُ، بِالرَّفْعِ». «رُوح المَعَانِي» (١٥: ١٢٦) لِلأَلُوسِيِّ.

(٤) فِي «رُوح المَعَانِي» (١٥: ١٢٦): «أَبُو السَّمَالِ، بِاللَّامِ، العَدَوِيُّ، وَأَبُو السَّمَاكِ، بِالكَافِ، الغَنَوِيُّ». وَلَعَلَّ الصَّوَابُ: أَبُو السَّمَاكِ الغَنَوِيُّ، وَاللهُ أَعْلَمُ. انظُر تَرْجُمَةَ أَبِي السَّمَاكِ: «الفهرست» ص ٩٤، وَ«إنباء الرواة» (٤: ١٢٨)، وَلَمْ أَهْتِدِ إِلَى مَوْضِعِهِ فِي «المَوْضِحِ» لِلْمَهْدَوِيِّ، وَلَا فِي «المَوْضِحِ» لِابْنِ أَبِي مَرْيَمٍ، وَقَدْ يَكُونُ «المَوْضِحُ» كِتَابًا آخَرَ غَيْرَهُمَا.

(٥) «مَعَانِي القُرْآنِ وإِعْرَابُهُ» (٥: ٢٤٤).

سُورَةُ الْمُدَّثِرِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتُّ وَخَمْسُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ * قَرَأْنِدْر * وَرَبِّكَ فَكَبِّر * وَيُنَابِكُ فَطَعِر * وَالرُّجْزَ فَأَهْجُر *﴾ ١-٥]

﴿الْمُدَّثِرُ﴾ لابسُ الدُّثَارِ، وهو ما فوقَ الشُّعَارِ: وهو الثوبُ الذي يلي الجَسَدَ. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصارُ شعائرُ والناسُ دثارٌ».

سورة المدثر

ست وخمسون آية، مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نقتي

قوله: (الأنصارُ شعائرُ والناسُ دثار) ^(١)، النهاية: «يعني: أنتم الخاصةُ والناسُ العامةُ». الراغب: «يقال: دَثَرْتُهُ فَدَثَرْتُ، والدُّثَارُ: ما يُتَدَثَرُ به، وتَدَثَّرَ الفحلُ الناقية: تَسَنَّمَهَا، والرجلُ الفرس: وَثَبَ عَلَيْهِ فركبه، ورجلٌ دَثُور: خاملٌ مُسْتَتِرٌ، وسيفٌ داثِر: بعيدُ العهدِ بالصُّقَال. ومنه قيلُ للمنزِلِ الدارس: داثِر، لزوالِ أعلامِهِ، وفلانٌ دَثِرُ المَالِ: حَسَنُ القِيَامِ به» ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٣٠٨.

وقيل: هي أول سورة نزلت؛ روى جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ: «كنت على جبل حراء، فنوديت: يا محمد، إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً، فنظرت فوقي فرأيت شيئاً»، وفي رواية عائشة: «نظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض، يعني الملك الذي ناداه، فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت: «دثروني دثروني»، فنزل جبريل وقال: ﴿يَأْتِيهَا الْمُنذِرُ﴾».

قوله: (روى جابر بن عبد الله) الحديث، روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن. قال: ﴿يَأْتِيهَا الْمُنذِرُ﴾، قلت: يقولون: ﴿أقرأ بأسر ربك﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابراً عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت لي، فقال لي جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواربي هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً، فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا الْمُنذِرُ * قرأ فأنذر * وربك فكبر﴾. وفي رواية: «إذا هو قاعد على العرش بين السماء والأرض»^(١).

قوله: (إذا به قاعد)، قيل: هو مبتدأ وخبر، والضمير في «به» لـ «فوق»، ويمكن أن يُجرى على التجريد، أي: حصل بسببه أو ملتبس به ملك جليل القدر قاعد على العرش. وهو هو. ويجوز أن يكون الباء بمعنى «في»، أي: استقر فيه ملك قاعد كما قال:

أفءات بنو مروان ظلماً دماءنا
وفي الله إن لم يعدلوا حكماً عدل^(٢)

(١) سبق ترجمته في سورة المزمل.

(٢) البيت لأبي الخطار الكلبي، انظر: «الخصائص» (٢: ٤٧٥) لابن جني، و«المحتسب» (١: ٤١، ١٠٥) له،

و«معجم شواهد العربية»، ص ٣٦٠.

وعن الزهري: **أَوَّلُ مَا نَزَلَ سُورَةُ ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا لَرَيْعَمَ﴾، فَحَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ يَغْلُو شَوَاهِقَ الْجِبَالِ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ، فَرَجَعَ إِلَى خَدِيجَةَ وَقَالَ: دَثُرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَدَّثَرُ﴾.**

وقيل: سَمِعَ مِنْ قَرِيشٍ مَا كَرِهَهُ فَاغْتَمَّ، فَتَغَطَّى بِثَوْبِهِ مُفَكِّرًا كَمَا يَفْعَلُ الْمَغْمُومُ، فَأَمَرَ أَنْ لَا يَدْعَ إِذَا رَأَاهُمْ وَإِنْ أَسْمَعُوهُ وَأَذَوْهُ. وَعَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى لَفْظِ اسْمِ الْمَفْعُولِ، مِنْ دُثْرِهِ.....

أي: الله حَكَمٌ عَدْلٌ^(١)؛ فالمعنى مطابق لما روينا عن الأئمة: فإذا هو قاعدٌ على العرش.

قوله: (شَوَاهِقَ الْجِبَالِ)، الجوهري: «شَهَقَ يَشْهَقُ، أَي: ارْتَفَعَ. وَالشَاهِقُ: الْجَبَلُ الْمُرْتَفِعُ». والصحيح أن هذه الحالة إنما ظهرت عند فترة الوحي، على ما روينا عن البخاري، عن عائشة في حديث طويل، قال: «وَفَتَرَ الْوَحْيُ فِتْرَةً، حَتَّى حَزَنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا بَلَّغْنَا حُزْنَ شَدِيدًا، غَدَا مِنْهُ مَرَارًا حَتَّى يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكَلِمًا أَوْ فِي بِيذْرَةِ جَبَلٍ لَكِي يُلْقِي نَفْسَهُ مِنْهُ، تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لَذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ فَيَرْجِعُ» الحديث^(٢). حِرَاءُ: تَمُدُّدٌ، مُنْصَرَفٌ عَلَى التَّذْكِيرِ، غَيْرُ مُنْصَرَفٍ عَلَى التَّأْنِيثِ.

قوله: (عَلَى لَفْظِ اسْمِ الْمَفْعُولِ)، أي: «الْمَدَّثَرُ»، بفتحِ التاء. قال في «المزمل»: «قُرئ: «الْمَزْمَلُ»، بِتَخْفِيفِ^(٣) الزاي وَفَتْحِ الميمِ، مِنْ: زُمَّلَهُ، وَهُوَ الَّذِي زَمَّمَهُ غَيْرُهُ»^(٤). وإليه الإشارة بقوله: كما قال في «المزمل».

(١) قال ابن جني في «المحتسب» (١: ١٠٥): «فجرى اللفظ على أنه جُرد منه شيء يسمى حكماً عدلاً، وهو مع التحصيل على حذف المضاف، أي: وفي عدل الله حَكَمٌ عَدْلٌ».

(٢) أخرجه البخاري في حديث طويل (٦٩٨٢).

(٣) في (ف): «بفتح».

(٤) انظر ما تقدم ص ٧٧.

وقال: دُنُوتَ هَذَا الْأَمْرِ وَعُصِبَ بِكَ، كَمَا قَالَ فِي الْمَزْمَلِ: قُمْ مِنْ مَضْجِعِكَ، أَوْ قُمْ قِيَامَ عَزْمٍ وَتَصْمِيمٍ ﴿فَأَنْذِرْ﴾ فَحَذَرَ قَوْمَكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَعْنَى: فَافْعَلِ الْإِنْذَارَ مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ لَهُ بِأَحَدٍ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وَاخْتَصَّ رَبَّكَ بِالتَّكْبِيرِ، وَهُوَ الْوَصْفُ بِالْكِبْرِيَاءِ؛ وَأَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، فَكَبَّرَتْ خَدِيجَةُ وَفَرِحَتْ، وَأَيَقِنْتُ أَنَّهُ الْوَحْيُ؛ وَقَدْ يُحْمَلُ عَلَى تَكْبِيرِ الصَّلَاةِ، وَدَخَلَتْ الْفَاءُ الْمَعْنَى الشَّرْطَ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا كَانَ فَلَ تَدْعُ تَكْبِيرَهُ. ﴿وَيُنَابِكُ فَطَهَّرْ﴾ أَمْرٌ بِأَنْ تَكُونَ ثِيَابُهُ طَاهِرَةً مِنَ النِّجَاسَاتِ؛ لِأَنَّ طَهَارَةَ الثِّيَابِ شَرْطٌ فِي الصَّلَاةِ لَا تَصَحُّ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ الْأَوْلَى وَالْأَحَبُّ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَقَبِيحٌ بِالسُّؤْمَنِ الطَّيِّبِ أَنْ يَحْمَلَ خَبثًا. وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِتَقْصِيرِهَا، وَمُخَالَفَةِ الْعَرَبِ فِي تَطْوِيلِهِمُ الثِّيَابَ وَجَرِّهِمُ الذُّيُولَ، وَذَلِكَ مَا لَا يُؤْمَنُ مَعَهُ إِصَابَةُ النِّجَاسَاتِ. وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِتَطْهِيرِ النَّفْسِ مِمَّا يُسْتَقْدَرُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَيُسْتَهْجَنُ مِنَ الْعَادَاتِ. يُقَالُ: فَلَانَ طَاهَرُ الثِّيَابِ وَطَاهَرُ الْجَنِّبِ وَالذَّلِيلِ وَالْأَرْدَانَ، إِذَا وَصَفُوهُ بِالنَّقَاءِ مِنَ الْمَعَايِبِ وَمَدَانِسِ الْأَخْلَاقِ.....

قوله: (أَوْ قُمْ قِيَامَ عَزْمٍ وَتَصْمِيمٍ)، نَحْوُهُ قَالَ فِي «الْمَزْمَلِ»: «تَزْمَلْ فِي قَطِيفَتِهِ، وَاسْتَعْدَادِهِ»^(١) لِلْإِسْتِقَالِ فِي النَّوْمِ، كَمَا يُفْعَلُ مَنْ لَا يَهْتَمُّ بِأَمْرٍ وَلَا يَعْنِيهِ شَأْنٌ»^(٢).

قوله: (فَافْعَلِ الْإِنْذَارَ)، أَي: أَنْذِرْ، حُذِفَ مَفْعُولُهُ، وَأُجْرِي بَجَرِي اللَّازِمِ.

قوله: (وَمَا كَانَ فَلَ تَدْعُ تَكْبِيرَهُ)، أَي: أَيُّ شَيْءٍ حَدَثَ وَوَقَعَ فَلَا تَتْرِكُ تَكْبِيرَهُ، وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ: زِيدًا فَاضْرِبْهُ.

قوله: (وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِتَطْهِيرِ النَّفْسِ)، وَأَنْشَدَ الرَّاعِبُ:

(١) عطف على «التزمل في قطيفته»، لكن الطيبي بدأ بالفعل «تزمّل».

(٢) انظر ما تقدم ص ٧٧.

وفلانٌ دَنَسُ الثيابِ للغادر؛ وذلك لأنَّ الثوبَ يَلايِسُ الإنسانَ وَيَشْتَمَلُ عليه، فَكُنِّيَ به عنه، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: أَعَجِبْنِي زَيْدٌ ثَوْبُهُ،

ثيابُ بني عَوفِ طَهَارِي نَقِيَّةٌ^(١)

وقال: «أصلُ الثوبِ^(٢) الرجوعُ إلى الحالةِ الأولى التي كانَ عليها، أو إلى الحالةِ المقدَّرة المقصودةِ بالفكرة، وهي الحالةُ المشارُ إليها بقوله: أوَّلُ الفكرةِ آخِرُ العملِ^(٣)، فمن الرجوعِ إلى الحالةِ الأولى: ثابَ فلانٌ إلى دارِهِ، ومن الرجوعِ إلى الحالةِ المقدَّرةِ المقصودةِ بالفكرةِ الثوبُ، سُمِّيَ بذلك لرجوعِ الغَزَلِ إلى الحالةِ التي قُدِّرَ لها، وكذا ثوبُ العملِ.

والثوابُ: ما يرجعُ إلى الإنسانِ من جزاءِ أعمالِهِ؛ فسُمِّيَ الجزاءُ ثواباً تصوّراً أنه هو هو، أَلَا تَرَى كَيْفَ جَعَلَ الجزاءَ نفسَ الفعلِ في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، ولم يقل: جزاءه. والثوابُ يقالُ في الخيرِ والشرِّ، لكن الأَكثَرُ المتعارفُ في الخيرِ، وكذلك المثوبة^(٤)؛ وعلى طريقِ الاستعارةِ، يقالُ في الشرِّ كاستعارةِ البشارةِ فيه^(٥).

قوله: (فَكُنِّيَ به عنه)، أي: فكُنِّيَ بالثوبِ عمّا يلايِسُ الإنسانَ ممّا يُستقدَّرُ من الأفعالِ.

(١) من قصيدة لامرئ القيس يمدح فيها رجلاً من بني تميم، مطلعها:

أَحْنِظَلْ لَوْ حَامِيْتُمْ وَصَبَرْتُمْ
لَأَنْتَيْتُ خَيْرًا صَالِحًا وَأَرْضَانِي

وعجز البيت:

وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ غُرَانُ

والبيت فيه إقواء. انظر: «ديوانه»، ص ١٦٩.

(٢) في (ف): «الثواب».

(٣) وأوَّلُ العملِ آخِرُ الفكرة... انظر في هذه المسألة: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، ص ٨، و«شرح أدب

الكاتب» للجواليقي، ص ٣٧.

(٤) في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠].

(٥) «مفردات القرآن»، ص ١٨٠.

كما يقولون: أعجبني زيدٌ عقله وخُلُقُه، ويقولون: المجدُّ في ثوبه، والكرمُ تحت حُلَّتِه؛ ولأنَّ الغالبَ أن مَنْ طَهَّرَ باطنه ونَقَّاه، عُنِيَ بتطهير الظاهرِ وتَنَقَّيته، وأبى إلا اجتنابَ الحُبِّ وإيثَارَ الطُّهْرِ في كلِّ شيءٍ. ﴿وَالرُّجْزَ﴾ قُرئ بالكسرِ والضم، وهو العذابُ، ومعناه: اهْجُرْ ما يؤدي إليه من عبادةِ الأوثانِ وغيرِها من المآثم. والمعنى: الثباتُ على هَجْرِهِ؛ لأنه كان بريئاً منه.

[﴿وَلَا تَمَنَّوْنَ تَسْتَكْبِرُ﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٦-٧﴾]

قرأ الحسن: «ولا تمنَّ»، ﴿تَسْتَكْبِرُ﴾ مرفوعٌ منصوبٌ المحلُّ على الحال، أي: ولا تُعْطِ مُسْتَكْبِرًا رَائِيًا لِمَا تُعْطِيهِ كَثِيرًا، أو طالبًا للكثير؛ نهيٌ عن الاستغزَار: وهو أن يَهَبَ شيئاً وهو يَطْمَعُ أن يَتَعَوَّضَ من الموهوبِ له أكثرَ من الموهوب، وهذا جائزٌ. ومنه الحديث: «المستغزِرُ يُثَابُ من هِبته»، وفيه وَجْهانِ، أحدهما: أن يكونَ نهيًا خاصاً برسولِ الله ﷺ؛

قوله: (المجدُّ في ثوبه، والكرمُ تحت حُلَّتِه)، قال صاحبُ «المفتاح»: «قولهم: المجدُّ بين ثوبه، والكرمُ بين بُردِيته: من الكنايةِ المطلوبِ بها تَخْصِيصُ الصفةِ بالموصوف»^(١). أراد القائل^(٢) أن لا يُصْرَحَ بتخصيصِ المجدِّ والكرمِ بالمدوح، فجعلهما بين ثوبيه وبُردِيته، تَنبِيهاً بذلك على أن محلَّهما الثوبانِ والبُردانِ، وهما مُشْتَمَلانِ على المدوح، فتمَّ غرضُه بذلك. قوله: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ قُرئ بالضمِّ والكسر^(٣)، بالضمِّ: حَفْصٌ وحده^(٤).

قوله: (المُستغزِرُ يُثَابُ من هِبته)، النهاية: «رُوي عن بعضِ التابعين: المُستغزِرُ: الذي يَطْلُبُ أكثرَ مِمَّا يُعْطِي، أي: إذا أهدى لك الغريبُ شيئاً، يَطْلُبُ أكثرَ منه، فأعطِه في مُقابَلِه

(١) «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص ٤٠٨ بتصرف.

(٢) في (ح) و(ف): «أراد: ولقائل».

(٣) وفي «الكشاف»: «بالكسر والضم»، والأمر فيه سهل.

(٤) والباقون: والرُّجْزُ، بالكسر بمعنى العذاب، وبالضم بمعنى الصنم. انظر: «حُجَّة القراءات» لابن

لأن الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق، والثاني: أن يكون تهيئته لا تحريم له ولا متهمة. وقرأ الحسن: «تستكثر» بالسكون، وفيه ثلاثة أوجه: الإبدال من تمنن، كأنه قيل: ولا تمنن لا تستكثر؛ على أنه من المن في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَا يْتَعِيمُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٢]؛ لأن من شأن المنان بما يعطي أن يستكثره، أي: يراه كثيراً ويعتد به، وأن يشبهه «ثرو» بـ«عُضد»،

هَدْيَتِهِ. ف «من» في «من هبته»، ك «من» في «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١)، أي: بذلك. قوله: (وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «تَسْتَكْتَرُ»^(٢))، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَسْتَكْتَرُ. فَإِنْ قِيلَ: عِبْرَةُ الْبَدْلِ أَنْ يَصْلَحَ إِقَامَةُ الثَّانِي مَقَامَ الْأَوَّلِ، نَحْوُ: ضَرَبْتُ أَخَاكَ زَيْدًا، أَيْ: ضَرَبْتُ زَيْدًا. وَلَوْ قُلْتَ: لَا تَسْتَكْتَرُ، لَمْ يَدَلَّ إِلَّا عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْاسْتِكْتَارِ مُرْسَلًا. وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: وَلَا تَمَنَّ مِنْ مُسْتَكْتَرٍ، أَيْ: امْنَنْ مَنْ مَنْ لَا يَرِيدُ عِوَضًا، وَلَا يَطْلُبُ الْكَثِيرَ عَنِ الْقَلِيلِ. فَيَقَالُ: قَدْ يَكُونُ الْبَدَلُ عَلَى حَذْفِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى نِيَّةِ إِثْبَاتِهِ، كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ مَرَّرْتُ بِهِ أَبِي مُحَمَّدٍ، فَتَبَدَّلَ أَبُو مُحَمَّدٍ مِنَ الْهَاءِ. وَلَوْ قُلْتَ: زَيْدٌ مَرَّرْتُ بِأَبِي مُحَمَّدٍ، كَانَ قَبِيحًا. فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْتَرُ﴾، مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. وَوَجْهٌ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ: تَسْتَكْتَرُ، فَاسْكَنْ الرَّاءَ لِثِقَلِ الضَّمَّةِ مَعَ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ، كَمَا حَكَى أَبُو زَيْدٍ: ﴿بَلَّ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، بِاسْكَانِ اللَّامِ^(٣).

قوله: (وَأَنْ يُشَبَّهَ «ثُرُو» بِـ«عُضد»)، أي: الخروج من كسر الراء إلى ضممة الراء وإلى فتحة الواو في ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ ثَقِيلٌ؛ فَخَفَّفَ الرَّاءَ. كَمَا أَنَّ «عُضد»^(٤) ثَقِيلٌ، فَخَفَّفَ الضَّادَ.

(١) من حديث معاوية، انظر: «مسند الإمام أحمد» (١٦٨٥٠).
 (٢) بالسكون، انظر: «إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر» (٥٧١: ٢) للدمياطي.
 (٣) «المحتسب» (٢: ٣٣٦-٣٣٧) بتصرف.
 (٤) في قوله تعالى: ﴿... وَمَا كُنْتُمْ تَتَّخِذُونَ الْمُسْلِمِينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]؛ قُرئ في «عَضُدًا»: عَضُدًا، وَعَضُدًا، وَعَضُدًا، وَعَضُدًا. انظر: «مختصر شواذ القراءات» لابن خالويه، ص ٨٠.

فَيْسَكُنْ تُخْفِيَةً، وَأَنْ يُعْتَبَرَ حَالُ الْوَقْفِ. وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ بِالنَّصْبِ بِإِضْمَارِ «أَنْ» كَقَوْلِهِ:

أَلَا أَيُّهَا الرَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الْوَعْيُ

وَتُوَيْدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: «وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَسْتَكْتَرُ»، وَيَجُوزُ فِي الرَّفْعِ أَنْ تُحْذَفَ «أَنْ» وَيُطَّلَعُ عَمَلُهَا، كَمَا رَوَى: «أَحْضَرَ الْوَعْيُ» بِالرَّفْعِ. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وَلَوْ جِهَ اللَّهُ فَاسْتَعْمَلَ الصَّبْرَ، وَقِيلَ: عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَقِيلَ: عَلَى آدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَعَنْ النَّخَعِيِّ: عَلَى عَطِيَّتِكَ، كَأَنَّهُ وَصَلَهُ بِهَا قَبْلَهُ، وَجَعَلَهُ صَبْرًا عَلَى الْعَطَاءِ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْتَارٍ، وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا بِنَفْسِ الْفِعْلِ،

قَوْلُهُ: (وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ بِالنَّصْبِ بِإِضْمَارِ «أَنْ»)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمَنَّ﴾ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: لَا يَكُنْ مِنْكَ مَنْ وَاسْتَكْتَارَ، أَيْ: لَا يَكُنْ مِنْكَ مَنْ أَنْ تَسْتَكْتَرُ، فَتَضْمُرُ «أَنْ» لِتَكُونَ مَعَ الْفِعْلِ الْمَنْصُوبِ بِهَا بَدَلًا مِنَ الْمَنْ فِي الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْفِعْلُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُمْ: لَا تَشْتُمْنِي فَيَشْتُمَكَ، أَيْ: لَا يَكُنْ مِنْكَ شَتْمٌ لِي، وَلَا مِنْهُ أَنْ يَشْتُمَكَ، وَأَنْشَدَ أَبُو زَيْدٍ:

فَقَالُوا: مَا تَشَاءُ؟ فَقُلْتُ: أَهْوُ إِلَى الْإِصْبَاحِ، آثَرَ ذِي أَثِيرِ

فَوَضَعَ «أَهْوُ» مَوْضِعَ (اللَّهُو)»^(١).

قَوْلُهُ: (وَلَوْ جِهَ اللَّهُ، فَاسْتَعْمَلَ الصَّبْرَ)، فِيهِ تَخْصِيصٌ وَمِبَالِغَةٌ؛ فَالتَّخْصِيصُ مُسْتَفَادٌ مِنَ التَّقْدِيمِ، وَالْمِبَالِغَةُ مِنْ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿فَاصْبِرْ﴾ - غَيْرِ^(٢) مُرَادٍ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ: «وَقِيلَ: عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ».

قَوْلُهُ: (وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا بِنَفْسِ الْفِعْلِ)، قِيلَ: هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ، وَليْسَ بِصَوَابٍ؛ لِأَنَّ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ مُطْلَقٌ بَاقٍ عَلَى إِطْلَاقِهِ، وَأُطْلِقَ هَذَا الْوَجْهُ لِتِنَاقُلِ كُلِّ صَبْرٍ عَلَيْهِ وَمَصْبُورٍ عَنْهُ، ثُمَّ كَتَبَ بِهِ عَنِ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ، عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى آذَاهُمْ^(٣)، هُوَ الصَّبْرُ عَلَى كُلِّ

(١) «المحتسب» (٢: ٢٣٧).

(٢) فِي (ف): «عَنْ».

(٣) فِي (ح): «لِيَنْبَهَ عَلَى آذَاهُمْ».

وَأَنْ يَتَنَاوَلَ عَلَى الْعَمُومِ كُلِّ مَصْبُورٍ عَلَيْهِ وَمَصْبُورٍ عَنْهُ، وَيُرَادُ الصَّبْرُ عَلَى أَدْنَى الْكُفَارِ؛
لأنه أحد ما يتناولهُ العام.

[﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ * فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِيسِيرٍ ﴿٨-١٠﴾]

والفاءُ في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ للتسبيب، كأنه قال: اصبرِ على أذاهم فينَ أيديهم يومٌ عسيرٌ يلقون فيه عاقبةَ أذاهم، وتلقى فيه عاقبةَ صبرك عليه. والفاءُ في ﴿فَذَلِكَ﴾ للجزاء.

فإن قلت: بم انتصب «إذا»، وكيف صحَّ أن يقع ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ظرفاً لـ «يومٌ عسيرٌ»؟ قلت: انتصب «إذا» بما دلَّ عليه الجزاء، لأنَّ المعنى: فإذا نُقِرَ في الناقورِ عَسُرَ الأمرُ على الكافرين، والذي أجازَ وقوعَ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ظرفاً لـ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أنَّ المعنى: فذلك وقتَ النقرِ ووقوعِ يومِ عسيرٍ، لأنَّ يومَ القيامةِ يأتي ويقعُ حين يُنقَرُ في الناقورِ، واختلَفَ في أنها النفخةُ الأولى أم الثانية.....

مصبورٍ عليه، على ما سبقَ في قوله تعالى: ﴿أَمْسَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، أي: أنعمت عليهم بالإسلام، فأطلقَ ليتناولَ كلُّ مُنعمٍ عليه^(١)، ثمَّ كنى به عن الإسلام، لأنَّ مَنْ أنعمَ اللهُ تعالى عليه بالإسلام، لم تبقَ نعمةٌ إلا أصابته واشتملت عليه، ولهذه الدقيقة قال: «والوجه» إلى آخره^(٢).

قوله: (والذي أجازَ وقوعَ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ظرفاً لـ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أنَّ المعنى). هذا جوابٌ عن السؤالِ الثاني، يريد: أنَّ المعنى هو الذي يُجيزُ التقدير، لأنَّ النقرَ في الصورِ من أماراتِ يومِ القيامةِ، والقيامةُ إنما تأتي وتقعُ حين يُنقَرُ في الصورِ.

(١) في (ط): «به».
(٢) هذه الفقرة سقطت من (ف).

قال صاحبُ «الفرائد»: «لَمَّا كَانَ الْعَسِيرُ الَّذِي جُعِلَ صِفَةً لِلْيَوْمِ، صِفَةً لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ فِيهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، نَحْوُ^(١): نَهَارُهُ صَائِمٌ، جُعِلَ وَقْتُ النَّقْرِ ظَرْفًا، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْعُسْرُ عَلَى الْكُفَّارِ.

وقيل: لَا يُمَكَّنُ جَعْلُ قَوْلِهِ: «وَقَوْعٌ ﴿يَوْمِيذٍ﴾ [ظَرْفًا لِـ] ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾»، خَبْرًا لِقَوْلِهِ ﴿فَذَلِكَ﴾، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مِضَافٍ، إِذِ الْمَعْنَى: زَمَانُ النَّقْرِ يَوْمِيذٍ زَمَانٌ وَقَوْعٌ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، لِأَنَّهُ لَا يُمَكَّنُ جَعْلُ ﴿يَوْمِيذٍ﴾ ظَرْفًا لِمَا بَعْدَهُ، لِأَنَّهُ يَلْزَمُ^(٢) إِعْمَالَ الْمَصْدَرِ، الَّذِي هُوَ الْمِضَافُ إِلَيْهِ فِيمَا قَبْلَ الْمِضَافِ وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ لَفْظَةَ ﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى نَقْرِ النَّاقُورِ لَا إِلَى زَمَانِ النَّقْرِ، فَيَصِحُّ حِينَئِذٍ وَقَوْعٌ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خَبْرًا لِـ ﴿ذَلِكَ﴾، وَ﴿يَوْمِيذٍ﴾ ظَرْفًا لَهُ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِي وَيَقَعُ حِينَ يُنْقَرُ فِي النَّاقُورِ».

فَإِنْ قِيلَ: نَقَرُ النَّاقُورِ سَبَبٌ لَوْقَوْعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا نَفْسُ وَقَوْعِهِ؟ قُلْتُ: سَبَبِيَّتُهُ لَا تُنَافِي ظَرْفِيَّتَهُ كَمَا قَالَ الْمَصَنِّفُ فِي آخِرِ سُورَةِ «الْأَحْقَافِ»: «لِاسْتِوَاءِ مُؤَدِّيِ التَّعْلِيلِ وَالظَّرْفِ فِي قَوْلِكَ: ضَرْبُهُ لِإِسَاءَتِهِ، وَضَرْبُهُ إِذَا أَسَاءَ»^(٤).

قال صاحبُ «الكشف»: «﴿ذَلِكَ﴾: ابْتِدَاءٌ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصْدَرِ، أَي: فَذَلِكَ النَّقْرُ، وَهُوَ الْعَامِلُ فِي ﴿يَوْمِيذٍ﴾. وَ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خَبْرُ الْمَبْتَدَأِ، وَالْمِضَافُ مُقَدَّرٌ، أَي: فَذَلِكَ النَّقْرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ نَقْرُ يَوْمٍ عَسِيرٍ. وَ﴿عَلَى الْكُفَّرِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿عَسِيرٌ﴾ لَا بِـ ﴿عَسِيرٌ﴾، لِأَنَّ مَا يَعْمَلُ فِيهِ الْمِضَافُ إِلَيْهِ، لَا يَتَقَدَّمُ عَلَى الْمِضَافِ، عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ «غَيْرًا» فِي حُكْمِ حَرْفِ النَّفْيِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ مَا بَعْدَهُ فِيمَا قَبْلَهُ. وَأَجَازُوا: أَنْتَ زَيْدًا غَيْرُ ضَارِبٍ، حَمَلًا عَلَى: أَنْتَ زَيْدًا لَا ضَارِبًا»^(٥).

(١) فِي (ح): «جَعَلَ».

(٢) سَقَطَ مَا بَيْنَ الْمَعْكَوفَتَيْنِ مِنَ الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَالزِّيَادَةُ مِنَ «الْكَشَافِ».

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «لَأَنَّهُ يَلْزَمُ».

(٤) انظُر: (١٤: ٣٠٧)؛ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٢٦) مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ.

(٥) «كَشَفُ الْمَشْكَلاتِ» لِلْبَاقُولِيِّ (٢: ١٣٩٩).

ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مبنياً مرفوعاً المحل بدلا من ﴿ذَلِكَ﴾، و﴿يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ خبر، كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير.

فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿غَيْرِيسِيرٍ﴾، و﴿عَسِيرٍ﴾ مُغْنٍ عنه؟

قلت: لما قال: ﴿عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ فقصر العسر عليهم، قال: ﴿غَيْرِيسِيرٍ﴾ ليؤذن بأن لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً، ليجمع بين وعيد الكافرين.....

وقال أبو البقاء: «إذا: ظرف، والعامل ما دلَّ عليه ﴿فَذٰلِكَ﴾، لأنه إشارة إلى النقر. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من ﴿إِذَا﴾، و﴿ذٰلِكَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿يَوْمَ عَسِيرٍ﴾. العامل فيه ما دلَّ عليه ﴿عَسِيرٍ﴾، أي: تعسير، ولا يعمل فيه نفس ﴿عَسِيرٍ﴾، لأن الصفة لا تعمل فيما قبلها. يخرج على قول الأخصف، وهو أن يكون ﴿إِذَا﴾ مبتدأ، والخبر ﴿فَذٰلِكَ﴾، والفاء زائدة. وأما ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فظرف لـ ﴿ذٰلِكَ﴾»^(١).

وقلت: قد سبق غير مرّة أن الشرط والجزاء إذا اتّحدا معنى، دلَّ على فخامة الجزاء، وكان الجزاء متضمناً للإخبار أو التوبيخ، وهاهنا المشار إليه بقوله: فذلك الذي هو الجزاء، نفس الشرط الذي هو وقت النقر، وانضمّ معه تكرير ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿يَوْمَ عَسِيرٍ﴾، فدلَّ على التنبيه على الخطب الجليل والأمر العظيم.

قوله: (ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مبنياً مرفوعاً المحل)، قال الزجاج: «ولأنما بُني ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على الفتح، لإضافته إلى إذ، لأنها غير متمكّنة»^(٢).

قوله: (فقصر العسر عليهم)، لم يرّد به القصر الاصطلاحي، بل يراد به تخصيص إيقاع ذكر العسر عليهم. وعن بعضهم: نظيره قوله تعالى: ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيْمٌ﴾ [الواقعة: ٤٤]، من

(١) «التيان» (٢: ١٢٤٩) للعكبري.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٤٦).

وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم، ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسر العسر من أمور الدنيا.

﴿ ذَرِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَدْتُ لَهُ مَهْيَدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا * سَأَزِيدُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿ ١١ - ٢٥ ﴾

﴿وَحِيدًا﴾ حال من «الله» عز وجل على معنيين، أحدهما: ذري وحدي معه، فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل مُنتقم، والثاني: خَلَقْتُهُ وَحْدِي لم يشر كني في خلقه أحد. أو حال من المخلوق على معنى: خلقته وهو وحيدٌ فريدٌ لا مال له ولا ولد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يُلقَّبُ في قومه بالوحيد، ولعله لُقِّبَ بذلك بعد نزول الآية؛ فإن كان مُلقباً به قَبْلُ،

حيث إنه تعريضٌ بطل الجنة، وهذا غيظٌ لهم. والفرق أن القرينة الثانية على الأول استُجلبت بإثبات حكم معنى مغاير للمذكور، وعلى الثاني بإرادة استمرار الحكم الثابت تقريباً.

قوله: (أنه عسير لا يرجى)، قال أبو البقاء: ﴿عَلَى﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿عَسِيرٌ﴾، أو هي نعت له، أو حال من الضمير الذي فيه، أو مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿يَسِيرٌ﴾^(١)، أو بما دلَّ عليه^(٢).

قوله: (فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم)، إشارة إلى المعنى الذي سبق في قوله: ﴿ذَرِي وَالْمُكذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ﴾ [الزمل: ١١].

(١) في (ح): «عسير».

(٢) «التبيان» (٢: ١٢٥٠).

فهو تَهَكَّمُ به ويلقبه، وتَغْيِيرٌ له عن الغَرَضِ الذي كانوا يُؤْمِنُونَهُ مِنْ مَدْحِهِ، والثناء عليه بأنه وحيدٌ قومِهِ لرياستِهِ وَيَسَارِهِ وتَقَدُّمِهِ في الدنيا إلى وَجْهِ الذَّمِّ والعَيْبِ، وهو أنه خُلِقَ وحيداً لا مالَ له ولا وُلْدَ، فَآتَاهُ اللهُ ذلكَ، فَكَفَّرَ بنعمةِ الله وأشْرَكَ به واستهزأَ بدينِهِ.

﴿مَمْدُودًا﴾ مَبْسُوطاً كثيراً، أو مُمَدَّاً بالنَّاءِ، مِنْ: مَدَّ النهرُ ومَدَّهُ نَهْرٌ آخرُ، قيل: كانَ له الزَّرْعُ والضَّرْعُ والتَّجَارَةُ. وعن ابنِ عباسٍ: هو ما كانَ له بينَ مكةَ والطائفِ مِنْ صنوفِ الأموالِ، وقيل: كانَ له بستانٌ بالطائفِ لا تَنقَطُعُ ثمارُهُ صيفاً وشتاءً، وقيل: كانَ له ألفُ مثقالِ، وقيل: أربعةُ آلافِ، وقيلَ تسعةُ آلافِ، وقيل: ألفُ ألفِ، وعن ابنِ جُريجٍ: غَلَّةٌ شهرٍ بشهرٍ.

﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكةَ لا يفارِقونهَ للتصريفِ في عملٍ أو تجارةٍ، لأنهم مَكْفُوتُونَ لوفورِ نعمةِ أبيهم واستغنائهم عن التَّكْسِبِ وطلبِ المعاشِ بأنفسِهِم، فهو مستأنسٌ بهم لا يَشْتَغَلُ قلبُهُ بغيبتِهِم، وَخَوْفِ مَعَاظِبِ السَّفَرِ عليهم، ولا يَجْزُنُ لفراقِهِم والاشتياقِ إليهِم. ويجوزُ أن يكونَ معناه: أنهم رجالٌ يَشْهَدُونَ معه المَجَامِعَ والمَحافلِ، أو تُسْمَعُ شهادتُهُم فيما يُتْحَاكَمُ فيه. وعن مجاهدٍ: كانَ له عَشْرَةٌ بنينَ، وقيل: ثلاثةُ عَشَرَ، وقيل: سَبْعَةٌ كلُّهم رجالٌ: الوليدُ بنُ الوليدِ، وَخَالِدٌ، وَعُمارةُ، وهِشامُ، والعاصِ، وقيسُ، وعبدُ شمسٍ؛ أسلمَ منهم ثلاثةٌ: خَالِدٌ، وهِشامُ، وَعُمارةُ.

قوله: (غَلَّةٌ شهرٍ بشهرٍ)، أي: بحلولِ شهرٍ. يَعْنِي: كانَ يأخذُ غَلَّةَ عَقَارِهِ في كلِّ شهرٍ، وقيل: التقديرُ مُسْتَقَرٌّ مع شهرٍ، أو شهرٍ بعد شهرٍ.

قوله: (الوليدُ بنُ الوليدِ، وخالدِ، وعُمارةُ، وهِشامُ، والعاصِ، وقيسُ، وعبدُ شمسٍ: أسلمَ منهم ثلاثةٌ: خالدٌ وهِشامُ وعُمارةُ)، يُفهِمُ منه أنَّ الوليدَ بنَ الوليدِ لم يُسَلِّمْ، والروايةُ بخلافه، قالَ ابنُ عبدِ البرِّ في «الاستيعابِ»: «إنَّ هشاماً مِنَ المَوْلُفَةِ»^(١)، ولم يَذْكَرْ عُمارةَ في

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٤: ١٠٢) لابن عبد البر.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الجاهَ العريضَ والرياسةَ في قومه، فأتممتُ عليه نعمتيَ المالِ والجاهِ؛ واجتماعُهما هو الكمالُ عندَ أهلِ الدنيا. ومنه قولُ الناسِ: آدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون: زيادةَ الجاهِ والحِشمةِ.

كتابه أصلاً، وذَكَرَ أَنَّ الوليدَ بنَ الوليدِ «أسلمَ وشهدَ مع رسولِ الله ﷺ، وخالدٌ كانَ فارساً من مَكَّة، لثلا يرى رسولَ الله ﷺ. وسمِعَ الوليدُ رسولَ الله ﷺ يقول: لو أتانا خالدٌ لأكرمناه، ومثله^(١) سَقَطَ عليه الإسلامُ في عَقَلِهِ، فكتبَ إليه الوليدُ فَوَقَعَ الإسلامُ في قلبِ خالد، وكانَ سَبَبَ هجرته^(٢)».

وذَكَرَ البلاذريُّ في «أنساب الأشراف»، أن أولادَ الوليدِ بنِ المغيرةِ أربعةٌ: خالداً، وهشاماً، وعماراً، ووليداً. وقالَ: وأما الوليدُ بنُ الوليد، فكانَ مِنَ المُستضعفينَ المؤمنين، وهاجَرَ إلى النبيِّ ﷺ ماشياً. وأما هشامُ فأسلمَ وحسُنَ إسلامُهُ، وهو الذي بعثَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنه إلى الكوفة. وأما عمارُ، فكانَ فتىً قريشٍ جالاً، وشَخَصَ مع عمرو بنِ العاصِ إلى الحبشة، فَعَشِقَتْهُ امرأةُ النجاشي، فدَعَتْهُ فَجَعَلَ يَخْتَلِفُ إليها، وحدثَ عمراً بذلك وكانَ بينهما ضِغْنٌ وحِقْدٌ، فقالَ: إنَّ صَدَقْتَنِي فَأَتَيْتِي بذهنٍ من دُهْنِ النجاشي، فجاءَ به ، فأَتَيْتِ عمرو النجاشي، وحدثَهُ الحديثَ، فأخَذَهُ النجاشي وقَطَعَهُ إزباً إزباً، فَعَلِمَ من ذلك أنه قُتِلَ مُشْرِكاً، والله أعلم^(٣).

قوله: (فَأَتَمَمْتُ عَلَيْهِ نِعْمَتِي الْمَالِ وَالْجَاهِ)، يريدُ أن قوله: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾، تكميلٌ، فَعَلِمَ من الأولِ أنه أوتيَ المالَ والولدَ، وقد لا يَحْصُلُ بهما الجاهُ، فتمَّمَ وكَمَّلَ بقوله: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾، وإليه الإشارةُ بقوله: «واجتماعُهما هو الكمالُ عندَ أهلِ الدنيا»، وقوله: «عندَ أهلِ

(١) في الأصول الخطية: «وما مثله»، وليس بصواب.

(٢) «الاستيعاب» (٤: ١١٨، ١١٩) بتصرف.

(٣) انظر: «أنساب الأشراف» (١٠: ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧).

وكان الوليدُ من وجهاءِ قريشٍ وصناديدهم؛ ولذلك لُقِّبَ «الوحيدَ» و«رَيْحَانَةَ قريشٍ». ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ استبعادٌ واستنكارٌ لطمعِهِ وحرصِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ لَا مَزِيدَ عَلَيَّ مَا أُوتِيَ سَعَةً وَكَثْرَةً، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا، فَمَا خُلِقَتِ الْجَنَّةُ إِلَّا لِي.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُ وَقَطْعٌ لِرَجَائِهِ وَطَمَعِهِ ﴿إِنَّهُ كَانَ لِأَيِّنَّا عَنِيدًا﴾ تَعْلِيلٌ لِلرَّدْعِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِنْفِافِ، كَانَ قَائِلًا قَالَ: لِمَ لَا يُزَادُ؟ فَقِيلَ: إِنَّهُ عَائِدٌ آيَاتِ الْمَنَعِ وَكَفَرَ بِذَلِكَ نِعْمَتِهِ، وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَزِيدَ. وَيُرْوَى أَنَّهُ مَا زَالَ بَعْدَ نَزْوِلِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي نُقْصَانِ مِنْ مَالِهِ حَتَّى هَلَكَ. ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سَأُعْشِيهِ عَقَبَةَ شَاقَّةِ الْمُصْعَدِ، وَهُوَ مِثْلُ مَا يُلْقَى مِنْ الْعَذَابِ الشَّاقِّ الصَّعْبِ الَّذِي لَا يُطَاقُ، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «يُكَلِّفُ أَنْ يَصْعَدَ عَقَبَةَ فِي النَّارِ كُلَّمَا وَضَعَ عَلَيْهَا يَدَهُ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ، وَإِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ»، وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ.....»

الدنيا» تَمِيمٌ لِلصِّيَانَةِ، لِأَنَّ عِنْدَ أَهْلِ الْآخِرَةِ نُقْصَانَ^(١) الْفَاءِ مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

التَّمْهِيدُ مَاخُودٌ مِنْ: مَهَّدَ الْفَرَّاشَ^(٢). الْأَسَاسُ: «مَهَّدَ الْمَهْدَ وَالْمُهْدَ وَالْمِهَادَ، وَمَضَّجَعُ تَمْهُودٌ وَمُتْمَهَّدٌ، وَمَهَّدَ الْفَرَّاشَ فَامْتَهَّدَ^(٣) وَتَمْهَّدَ. وَمِنْ الْمَجَازِ: مَهَّدَ الْأَمْرَ: وَطَّأهُ وَسَوَّاهُ، وَمَهَّدَتُ الْعُدْرَةَ تَمْهِيدًا».

قَوْلُهُ: (وَرَيْحَانَةَ قريشٍ)، النِّهَايَةُ: «الرَّيْحَانُ يُطْلَقُ عَلَى الرَّحْمَةِ وَالرَّزْقِ وَالرَّاحَةِ، فَبِالرَّزْقِ سُمِّيَ الْوَلَدُ رَيْحَانًا».

(١) العبارة قلقة؛ فلعل نقصاً اعتورها.

(٢) في (ف): «الفرش»، وسقطت من (ح).

(٣) في الأصول الخطية: فمهده.

يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي فِيهِ كَذَلِكَ أَبَدًا. ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْوَعِيدِ، كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَاجِلُهُ بِالْفَقْرِ بَعْدَ الْغِنَى، وَالذَّلَّ بَعْدَ الْعِزِّ فِي الدُّنْيَا بَعْنَادِهِ، وَيُعَاقَبُ فِي الْآخِرَةِ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ وَأَفْظَعِهِ لِبَلُوغِهِ بِالْعِنَادِ غَايَتَهُ وَأَقْصَاهُ فِي تَفْكِيرِهِ، وَتَسْمِيَتِهِ الْقِرَانَ سِحْرًا. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ الرَّدْعِ مَتْبُوعَةً بِقَوْلِهِ: ﴿سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا﴾ رَدًّا لَزَعِيمِهِ أَنْ الْجَنَّةَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُ؛ وَإِخْبَارًا بِأَنَّهُ مِنْ أَشَدِّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا، وَيُعَلَّلُ ذَلِكَ بَعْنَادِهِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِأَيَّتِنَا عَيْنِدَا﴾ بَيَانًا لِكُنْهَ عِنَادِهِ، وَمَعْنَاهُ: فَكَّرَ مَاذَا يَقُولُ فِي الْقِرَانَ ﴿وَقَدَّرَ﴾ فِي نَفْسِهِ مَا يَقُولُهُ وَهِيَآءُ ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تَعْجِيبٌ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ فِيهِ الْمَحْزَرَّ، وَرَمِيهِ الْغَرَضَ الَّذِي كَانَ تَنْتَحِيهِ قَرِيشَ،

قَوْلُهُ: (سَبْعِينَ خَرِيفًا)، عَنْ بَعْضِهِمْ: سَبْعِينَ عَامًا، لِأَنَّ الْخَرِيفَ آخِرُ السَّنَةِ، لِأَنَّ فِيهِ تُدْرِكُ جَمِيعُ الثَّمَارِ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا بَلَغَ آخِرَ عُمُرِهِ قَدْ يَحْرَفُ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْوَعِيدِ، يُرِيدُ أَنْ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِأَيَّتِنَا عَيْنِدَا﴾، تَعْلِيلٌ لِقَطْعِ الْمَزِيدِ الْمَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، تَعْلِيلٌ لِلْوَعِيدِ الْمَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا﴾، فَجَمَعَ لَهُ عَذَابَ الدَّارَيْنِ.

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ الرَّدْعِ مَتْبُوعَةً بِقَوْلِهِ ﴿سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا﴾)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «تَعْلِيلٌ لِلرَّدْعِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِنَافِ»، أَي: حَقًّا إِنَّهُ كَاذِبٌ فِي [قَوْلِهِ] (١): «إِنَّ الْجَنَّةَ مَا خُلِقَتْ إِلَّا لِي، وَأَتَى ﴿سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا﴾ (٢) لِأَنَّهُ ﴿كَانَ لِأَيَّتِنَا عَيْنِدَا﴾، وَذَلِكَ بِأَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. وَفِي الْكَوَاشِي: «يَقِفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾، إِنْ جُعِلَتْ ﴿كَلَّا﴾ بِمَعْنَى «أَلَا» اسْتِفْتَاحًا. وَبُنِيَ هُنَا إِنْ جَعَلْتَهَا رَدْعًا، وَهُوَ أَوْلَى، وَيَبْتَدِئُ ﴿إِنَّهُ كَانَ لِأَيَّتِنَا عَيْنِدَا﴾» (٣).

(١) زيادة من «الكشاف».

(٢) من قوله: «فَجَمَعَ لَهُ عَذَابَ الدَّارَيْنِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ط).

(٣) لَمْ أَهْتِدِ إِلَى تَفْسِيرِهِ الَّذِي جَوَّدَ فِيهِ الْإِعْرَابَ وَحَرَّرَ أَنْوَاعَ الْوُقُوفِ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ السَّبُوطِيِّ فِي «بَغِيَةِ

الوَعَاة» (١: ٤٠١).

وقال الزجاج: «كَلَّا: رَدْعٌ وَتَنْبِيهٌ، فيقول: كَلَّا، لمن قال لك شيئاً تُنكره، أي: ارتدغ عن هذا وتنبه على الخطأ فيه»^(١).

وقال ابن الحاجب: وقد تكون بمعنى: حقاً، وعليه حُمِلَ مواضع من القرآن^(٢). وفي كتاب «المُرشد»: «قال الخليل وسيبويه والأخفش: كَلَّا: رَدْعٌ وَرَجْرٌ. روى الخليل عن مقاتل ابن سليمان: كلُّ شيءٍ في القرآن من ﴿كَلَّا﴾، فهو رَدٌّ على الكلام الأولِ إلا بعضه. روى ابن الأنباري عن المفسرين، معناها: حقاً، وحكي عن الكسائي أيضاً. وعن الفراء: هي حَرْفٌ رَدٌّ بمنزلةِ «نَعَمْ» و«لا» في الاكتفاء، وإن جعلتها صلةً لما بعدها لم تَقِفْ عليها كقولك: كَلَّا وربُّ الكعبة، لأنها بمنزلة قولك: إني وربُّ الكعبة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]. قال أبو حاتم: وهي على وجهين: أحدهما بمعنى «لا» رَدًّا للأول. والثاني بمعنى آلا، التي هي للتنبيه يُستفتحُ بها الكلام، قال الأعشى:

كَلَّا زَعَمْتُمْ بَأْنَا لَا تُقَاتِلُكُمْ إِنَا لَأَمْثَالِكُمْ - يَا قَوْمَنَا - قُتِلُ^(٣)

كأنه قال: آلا زَعَمْتُمْ. فقيل: يُحْتَمَلُ أَنَّ الشاعِرَ قد رَدَّ بها زَعَمَ القومِ^(٤).

وأجاب صاحب «المُرشد»: «إذا صحَّ لأبي حاتم أن يقول: ﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ﴾ [العلق: ٦] بمعنى: آلا، لم يمتنع أن يُحمَلَ البيتُ عليه. وقيل: ذهب ابن الأنباري أن ﴿كَلَّا﴾ في الآية بمعنى: حقاً. وأجيب: إن هذا أيضاً جائزٌ، على أن كثيراً من أهل العلم^(٥) ياباه، لأن ﴿كَلَّا﴾ حرفٌ، و«حقاً» مصدرٌ.

(١) انظر: «المفصل» للزمخشري، ص ٣٢٥.

(٢) «الإيضاح في شرح المفصل» (٢: ٢٦٧) لابن الحاجب.

(٣) «ديوانه»، ص ٦١.

(٤) «المُرشد في الوقوف على مذاهب القراء السبعة» (١: ١٠٣-١٠٥) للثماني بتصرف. وانظر: «إيضاح

الوقف والابتداء» (١: ٤٢١-٤٢٢) لابن الأنباري.

(٥) في (ف): «البيان».

أو ثناءً عليه على طريقة الاستهزاء به، أو هي حكاية لما كرّره من قولهم: قُتِلَ كَيْفَ قَدْرٌ، تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره، واستعظامهم لقوله. ومعنى قول القائل: قَتَلَهُ اللهُ ما أشجعه، وأخزاه اللهُ ما أشعره: الإشعارُ بأنه قد بَلَغَ المبلغَ الذي هو حقيقٌ بأن يُحْسَدَ وَيَدْعُو عليه حاسدُهُ بذلك.....

وأما الوقفُ عليها، فهي مختلفة الأحوال؛ فمنها ما يوقفُ عليه، ومنها ما يُبتدأُ به، ومنها ما يصلحُ فيه الأمان، ومنها ما لا يحسنُ الوقفُ عليه ولا الابتداءُ به^(١)، تَمَّ كلامُهُ.

وقلتُ: ضَعَفَ قولٌ مَنْ زَعَمَ أَنَّ ﴿كَلَّا﴾ لا يكونُ بمعنى «حَقًّا» لكونه حرفاً وذلك اسمٌ، لأنَّ مَنْ قالَ به، ذهبَ إلى أنها مُعَبَّرَةٌ عن مُتعلِّقٍ معناه، كما تقول: «مِنْ» معناها ابتداءُ الغاية، و«إلى» معناها انتهاءُ الغاية، إلى غيرِ ذلك. وقد سَبَقَ في أولِ «البقرة» عند قوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: (حكاية لما كرّره)، أي: لما كرّره قريشٌ من قولهم: قُتِلَ كَيْفَ قَدْرٌ، في حقِّ الوليدِ تعجبياً، حكاة اللهُ تعالى عنهم. ويجوزُ أن يكونَ من كلامِ الله، دعا عليه، ولا يكونُ تعجبياً ولا تكريراً مجرداً، كما قال الراغب في «عُرَّة التنزيل»^(٢): «كان الوليدُ بنُ المغيرة لما سُئِلَ عن النبي ﷺ: قَدَّرَ ما أتى به مِنَ القرآن. فقال: إن قلنا: شاعرٌ، كَذَبْنَا العَرَبُ إذا قَدَّرْتُ ما أتى به على الشعر، وكانَ يَقصدُ بهذا التقديرِ تكذيبَ الرسولِ ﷺ بِضربٍ من الاحتِيالِ، فلذلك كانَ كُلُّ تقديرٍ مُستَحِقًّا لعقوبة من الله تعالى، هي كالقتلِ إِهْلَاكاً له، أي: هَلَكَ هلاكَ المقتولِ كَيْفَ قَدَّرَ.

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، أي أنه قال: إنه ليس ما أتى به مِنْ كلامِ الكهنة، فإنِ ادَّعينا ذلك عليه، كَذَبْنَا العَرَبُ إِذْ رَأَوْا هذا الكلامَ مخالفاً لكلامِ الكهان، فهو في تقديره له على كلامِ الكهنة، مُستَحِقٌّ مِنَ العقوبةِ لما هو كالقتلِ إِهْلَاكاً له؛ فهو في نَفْيِهِ عن القرآنِ الأقسامَ

(١) «المرشد» (١: ١٠٥-١٠٦) للعباني بتصرف.

(٢) تقدم التعليق على نسبة هذا الكتاب للراغب، وأن الأصح نسبته للخطيب الإسكافي.

رُوي أن الوليدَ قالَ لبني مخزوم: والله لقد سمعتُ من محمدٍ آناً كلاماً ما هو من كلام الإنسِ ولا من كلام الجنِّ، إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أعلاه لمُثمرٌ، وإنَّ أسفله لمغدقٌ، وإنَّه يعلو وما يُعلَى؛

الفاصلة، قاصداً إلى إبطاله، وإلى إثباتِ قِسْمٍ [لا] ^(١) يَصِحُّ إثباته، وهو قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤ - ٢٥]؛ وإذا كان كذلك، لم ^(٢) يكن في إعادة ﴿قَدَرٌ﴾ تكرار ^(٣)، بل علَّقَ به في الثاني مُقَدَّرٌ غيرُ الأوَّل، لفائدةٍ جديدةٍ ^(٤).

قوله: (لقد سمعتُ من محمدٍ آناً كلاماً)، قال محيي السنة: «إنَّ الله تعالى لما أنزلَ على النبي ﷺ: ﴿حَمَّ * نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، إلى قوله: ﴿الْمَصِيدُ﴾ [غافر: ١ - ٣]، قام النبي ﷺ في المسجد، والوليدُ بنُ المغيرةِ قريبٌ منه يسمعُ قراءته، فلما فطنَ النبي ﷺ لاستماعه أعادَ القراءة، فانطلقَ الوليدُ إلى مجلسِ قومه بني مخزوم، وقال: والله لقد سمعتُ من محمدٍ آناً كلاماً» ^(٥)، إلى آخرِ القصة.

قوله: (وإنَّ عليه لطلاوةً)، النهاية: «رَوْنَقاً وَحُسْنًا، وَقَدْ تُفْتَحُ الطَّاءُ». و«الغدقُ، بالغين المعجمة وفتح الدال: المطرُ الكيَّارُ القَطْرُ، والمُغْدِقُ: مُفْعِلٌ منه». الجوهري: «الماءُ الغدقُ: الكثير، وقد غدقتُ عينُ الماءِ بالكسر، أي: غزرتُ».

وقلتُ: لعلَّ هذا التَّشْبِيهُ يُنظَرُ [فيه] ^(٦) إلى قوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

(١) لفظ «لا» سقط في الأصول الخطية، والزيادة من «درة التنزيل» كي يستقيم المعنى.

(٢) في (ح) و(ف): «فلم».

(٣) في (ح): «يكون» بدل «تكرار»، وفي (ف): «بكذا زيد»، وسقط «بل». وأظنها: «تكرار بل»، كما في «درة التنزيل»، فيستقيم الكلام.

(٤) «درة التنزيل وغرة التأويل» للإسكافي، ص ٢٨٩ بتصرف.

(٥) «معالم التنزيل» (٨: ٢٦٨)؛ قاله في تفسير الآية (١٨) من سورة المدثر.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

فَقَالَتْ قَرِيشٌ: صَبَأٌ - وَاللَّهُ - الْوَالِدُ، وَاللَّهُ لَتَصْبَأَنَّ قَرِيشٌ كُلُّهُمْ؛ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ:
أَنَا أَكْفِيكُمْوَهُ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ حَزِينًا وَكَلَّمَهُ بِمَا أَحْمَاهُ، فَقَامَ فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا
مَجْنُونٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُخْنَقُ؟ وَتَقُولُونَ إِنَّهُ كَاهِنٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ قَطُّ يَتَكَهَّنُ؟ وَتَزْعُمُونَ
أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاطَى شِعْرًا قَطُّ؟ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذَّابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ
شَيْئًا مِنَ الْكَذِبِ؟

كَشَجَرٍ فَرَطِيْبَةٍ أَصْلُهَا نَائِبٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُوْقِي أَكْلَهَا كُلَّ حَيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٤﴾ [إبراهيم:
٢٤]؛ استعار الوليد الشجرة للقرآن على التمثيلية أو المكنية، فجعل له الأعلى الذي هو الفرع،
ورسحه بقوله: لثمر، وأبنت له الأسفل الذي هو الأصل، ورسحه بقوله: لمغديق، وكنى بقوله:
«لمغديق» عن كونها ثابتاً أصلها رياناً فرعها. وتمم معنى ترشيح الثمر بقوله: لخلوة، وتمم
ترشيح المغديق بقوله: لطلوة؛ فقوله: «إن له لخلوة، وإن عليه لطلوة» كالتمهيد
للاستعارة وترشيحها، وقوله: «وإنه يعلو وما يعلو» كالحاتمة للمجموع، والزبدة والغاية: ما
أفصح هذا الكلام! ولم يكن كذلك إلا لأنه مدح لأحسن الكلام.

قوله: (صَبَأٌ وَاللَّهُ الْوَالِدُ)، النهاية: «يقال: صَبَأَ فلانٌ إذا خرج من دينٍ إلى دينٍ غيره،
وكانوا يُسَمَّونَ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ: مَضْبُوءًا^(١)، لأنهم كانوا لا يَهْمزون، فأبدلوا من الهمزة
واوًا، ويُسَمَّونَ الْمُسْلِمِينَ الصُّبَاءَ بِغَيْرِ هَمْزٍ، كَأَنَّهُ جَمْعُ الصَّابِيِّ غَيْرِ مَهْمُوزٍ، كَقَاضِيٍّ وَقَضَاءٍ،
وَعَازٍ وَعُزَاةٍ».

قوله: (فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُخْنَقُ)، كانوا يعتقدون أن الجنَّ تخنقُ المجنون وتخبطه. في «المغرب»:
«الخنق، بكسر النون: مصدرٌ «خَنَقَهُ»؛ إِذَا عَصَرَ حَلْقَهُ. يُقَالُ: خَنَقْتَهُ الْعَبْرَةَ، يَعْنِي: غَصَّ
بِالْبَكَاءِ حَتَّى كَأَنَّ الدَّمْعَ أَخَذَتْ بِمُخَنَّقِهِ»^(٢).

(١) في (ح): «مَضْبُوءًا».

(٢) «المغرب في ترتيب المعرب» (١: ٢٧٣) للمطرزي.

فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكَّر فقال: ما هو إلا ساجر؛ أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحرٌ يَأْتِرُهُ عن مُسَيْلِمَةَ وعن أهلِ بابل، فارتجَّ النادي فرحاً،

قوله: (اللهم لا)، قال المطرزي: «اللهم: كلمة تُستعمل في الدعاء، بمعنى: يا الله، والميم فيها عوض من حرف النداء، ولذلك لا يُجمع بينها. وقد يجيء في جواب الاستفهام قبل «لا» و«نعم» كثيراً، من ذلك ما قرأت في حديث عمير بن سعد^(١)، وقد أتاه رسولُ عمر رضي الله عنه، وقال له: كيف تركت أمير المؤمنين؟ فقال: صالحاً، وهو يقرئك السلام. فقال له: ويحك، لعله استأثر نفسه، قال: اللهم لا. فقال: لعله فعَل كذا، قال: اللهم لا في حديث طويل.

وكان المتكلم قَصَدَ إثبات الجواب مشفوعاً بذكر الله، ليكون أبلغ وأوقع، وفي نفس السامع أنجع، وليعلم أنه على يقين من إيراده وبصيرة في إثباته، قد جعل نفسه في معرض من أقبل على الله تعالى ليُجيب فيما سأله مثلاً. ولا شك أن من كانت^(٢) هذه حاله لا يتكلم إلا بما هو صدقٌ ويقينٌ وحقٌ مبين. وقد يؤتى بها قبل «إلا»، إذا كان المستثنى عزيزاً نادراً، وكان قصدهم بذلك الاستظهار بمشيئة الله في إثبات كونه ووجوده، إيذاناً بأنه بلغ في النُدرة حدَّ الشدوذ، وهذا كثيرٌ في كلام الفصحاء^(٣).

قوله: (يأثره)، هو من قولك: «أثرتُ الحديث أثره، إذا ذكرته من غيرك» ذكره الجوهري. قوله: (فارتجج)، أي: اضطرب. المغرب: «ارتجج الظلام إذا تراكب والتبس وقيل: ارتجج: وقع في رجّة^(٤)»، وهي الاختلاط^(٥). الجوهري: «ارتجج البحر^(٦): اضطرب^(٧)».

(١) الأنصاري، والي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على حمص. ينظر في ترجمته: «الاستيعاب» (٣: ٢٦٩)، و«الإصابة» (٤: ٧١٨) لابن حجر.

(٢) في الأصول الخطية: «كان».

(٣) «الإيضاح في شرح مقامات الحريري» للمطرزي، ص (١٦٨-١٧٠) بتصرف.

(٤) في (ف): «زحمة»، ورجّة القوم: اختلاط أصواتهم.

(٥) «المغرب» (١: ٣١٩-٣٢٠) للمطرزي بتصرف.

(٦) في (ف): «الظلام» بدل «البحر».

(٧) «الصحاح» (١: ٣١٧-رجح)؛ وارتجج هنا على وزن: افتعل لا أفعل.

وتفرّقوا مُعجِبين بقوله مُتَعَجِّبِينَ منه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجوه الناس، ثُمَّ قَطَبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ رَحَفَ مُدْبِرًا، وَتَشَاوَسَ مُسْتَكْبِرًا، لَمَّا خَطَرَتْ بِبَالِهِ الكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ، وَهَمَّ بِأَنْ يَرْمِيَ بِهَا، وَصَفَ أَشْكَالَهُ الَّتِي تَشَكَّلَ بِهَا حَتَّى اسْتَنْبَطَ مَا اسْتَنْبَطَ، اسْتَهْزَأَ بِهِ. وَقِيلَ: قَدَّرَ مَا يَقُولُهُ، ثُمَّ نَظَرَ فِيهِ، ثُمَّ عَبَسَ لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الحِيلُ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ. وَقِيلَ: قَطَبَ فِي وَجْهِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عَنِ الحَقِّ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ عَنْهُ فَقَالَ مَا قَالَ. وَ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ عَطَفٌ عَلَى ﴿فَكَرَّ وَدَدَرَ﴾ وَالدَّعَاءُ اعْتِرَاضٌ بَيْنَهُمَا.

قوله: (وتشاوس)، الجوهري: «الشَّوَسُ، بالتحريك: النَّظَرُ بِمَوْخِرِ العَيْنِ تَكْبَرًا أَوْ تَغِيظًا».

قوله: (وصف أشكاله)، أي: وَصَفَ اللهُ تَعَالَى أَشْكَالَ الوَلِيدِ وَهَيَاتِهِ، وَهِيَ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ *.

قوله: (والدعاء: اعتراض)، أي: قوله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ * ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * . وليس هذا الاعتراض من قبيل الاعتراض المتعارف، الذي يتخلل تزيين الكلام.

وتقريره: لأن الفاء مانعة من^(١) ذلك، بل هو من كلام الغير، ووقع الفاء في تضاعيف كلامه، فأدخل بين الكلامين المتصلين على سبيل الحكاية، وهو متعسف، وإنما سلكه لأنه جعل الدعاءين من كلام الغير. وأما إذا جعلنا من كلام الله تعالى استهزاء كما ذكره، أو دعاء عليه كما ذهب إليه الراغب، وعليه تفسير الواحدي على ما قال ونقل عن صاحب النظم^(٢): ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾: «أي: عُدِّبَ وَوُعِنَ كَيْفَ قَدَّرَ، كَمَا يَقَالُ: لِأَصْرِبَنَّهُ كَيْفَ صَنَعَ، أَي: عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ مِنْهُ»^(٣)، لتكون الأفعال كلها متناسقة مرتبة، على التفاوت في التعقيب والتراخي زماناً ورُتْبَةً كَمَا يَقْتَضِيهِ المَقَامُ كَانَ أَحْسَنَ.

(١) في (ف): «بين».

(٢) أي: كتاب «نظم القرآن»، للقاضي أبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني، المتوفى في القرن الرابع الهجري، ولكي القيسي عليه كتاب بعنوان «انتخاب نظم القرآن للجرجاني وإصلاح غلطه». انظر: «مكي وتفسير القرآن» لأحمد حسن فرحات، ص ١٣٣، و«الأنساب» (٣: ٢٨٩) للسمعاني.

(٣) «الوسيط» (٤: ٣٨٣) للواحدى.

فإن قلت: ما معنى ﴿ثُمَّ﴾ الداخلة في تكرير الدعاء؟
قلت: الدلالة على أن الكثرة الثانية أبلغ من الأولى، ونحوه قوله:

أَلَا يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي

وجاء النظم على السنن المألوف من التنزيل، وذلك أنه تعالى لما حَسَمَ^(١) طَمَعَ الوليد بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِأَيْنَانَا عِينِدَا﴾، وبَيَّنَّ عِنَادَهُ بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، دعا عليه بالدعاءين بتقديره مرتين، كما ذكَّره الراغب^(٢): قَدَّرَ أولاً أنه شاعرٌ ثُمَّ نَفَاهُ حِيلَةً، وَقَدَّرَ ثانياً أنه كاهن كذلك، ثُمَّ بعد ذلك نَظَرَ في طَلَبِ ما يَدْفَعُ به وَيَرُدُّه، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ كالمهتَمِّ المُتَفَكِّرِ في شيءٍ، ثم أَدْبَرَ عن الحَقِّ واستكبرَ عن اتباعه، فقال: ما هذا الذي يقرؤه مُحَمَّد، إِلَّا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ. والله أعلم.

قوله: (أَلَا يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي)، عَجْزُه:

ثَلَاثُ نَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلِّمِي^(٣)

وفي بعض النسخ، العجزُ من المتن، أي: تَبَالغِي في السلام، ثُمَّ تَبَالغِي. وقيل: أي كوني سالمة، يُحَاطَبُ الرَّبِّعُ وَالذَّارُ، وَالتَّقْدِيرُ: أَحْيِي ثَلَاثَ نَحِيَّاتٍ. قَبْلُه:

وَمَا لِي مِنْ ذَنْبٍ إِلَيْهِمْ عَلِمْتُهُ سِوَى أَنِّي قَدْ قَلْتُ: يَا سَرْحَةُ، اسْلَمِي

أي: مَالِي مِنْ ذَنْبٍ أَهْتَدِي إِلَيْهِمْ، سِوَى قَوْلِي: يَا سَرْحَةُ، أَدَامَ اللهُ سَلَامَكَ. وَسَرْحَةُ: شَجَرَةٌ، عَرَّضَ بِهَا بِاسْمِ امْرَأَةٍ فِيهِمْ؛ وَإِنَّمَا كَرَّرَ لِيُعَايِظَهُمْ وَيُنَاكِدُهُمْ.

(١) في (ف): «ختم».

(٢) انظر: «درة التنزيل» للإسكافي، ص ٢٨٩. وتقدم الكلام في نسبة هذا الكتاب للراغب، وأن الأصح كونه للإسكافي.

(٣) البيت للشاعر حميد بن ثور، انظر: «ديوانه»، ص ١٣٣، و«شرح ديوان الحماسة» (٣: ٩٦٢) للمرزوقي.

فإن قلت: فما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قلت: الدلالة على أنه قد تآتى في التأملِ ومَهَّل، وكان بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد.

فإن قلت: فلم قيل: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بـ «ثُمَّ»؟ قلت: لأن الكلمة لما خطرَتْ بباله بعد التَّطَلُّبِ، لم يتمالك أن تَطُقَّ بها من غير تَلَبُّثٍ.

فإن قلت: فلم لم يُوسِّطْ حرفُ العطفِ بين الجملتين؟ قلت: لأن الأخرى جَرَتْ من الأولى مجرى التوكيد من المؤكِّد.

[﴿سَأْضَلِيهِ سَقَرٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا بُقِي وَلَا نَذْرٌ * لَوَاحَةٌ لِلْبَشْرِ * عَلَيْنَا نِسْعَةٌ عَشْرٌ * وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلِيحَةً * وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَلْقُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾]

[٢٦-٣١]

﴿سَأْضَلِيهِ سَقَرٌ﴾ بدلٌ من ﴿سَأَرْهَقُهُ، صَعُودًا﴾، ﴿لَا بُقِي﴾ شيئاً يلقي فيها إلا أهلكته؛ وإذا هلك لم تَذَرُه هالكا حتى يُعاد،

قوله: (بين الجملتين)، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ يُذَكِّرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشْرِ﴾، وذلك أن مراده أنه ليس من عند الله، وأنه من عند البشر؛ فكونه سحراً لا يكون من عند الله، بل يكون من عند البشر، فكان قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشْرِ﴾، من هذا الوجه توكيداً لمتبوعه، ولذلك قال: «أجري مجرى التوكيد».

قوله: ﴿سَأْضَلِيهِ سَقَرٌ﴾ بدلٌ من ﴿سَأَرْهَقُهُ، صَعُودًا﴾، هذا إنما يستقيم، إذا جعل مثلاً لما يلقي من العذاب الشاق، وإذا قيل: إنه يكلف أن يضعد عقبة في النار، فلا؛ لقوله: ﴿لَا بُقِي وَلَا نَذْرٌ﴾ [المدر: ٢٨].

أو لا تُبقي على شيء ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يُطرح فيها هالك لا محالة.
﴿لَوَاحَةٌ﴾ من لَوْحِ الهَجِير، قال:

تقول: ما لاحك يا مُسافرٌ؟ يا ابنة عمِّي لاحني الهواجرُ

قيل: تَلْفَحُ الجِلْدَ لِفَحَةٍ فَتَدَعُهُ أَشَدَّ سَوَادًا مِنَ اللَّيْلِ، والبَشْرُ: أعالي الجلود. وعن الحسن: تَلَوْحٌ للناس، كقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]. وقرئ: «لَوَاحَةٌ» نصباً على الاختصاص للتهويل.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكاً، وقيل: صنفاً من الملائكة، وقيل: صنفاً، وقيل: نقيباً. وقرئ: «تِسْعَةَ عَشَرَ» بسكون العين لتوالي الحركات في ما هو في حكم اسم واحد، وقرئ: «تِسْعَةُ عَشْرٍ» جمع عشير، مثل: يمين وأيمن، جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعدبين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة، ولا يستروحوون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له،

قوله: (من لَوْحِ الهَجِير)، أي: تغيّره وتُسويده. الأساس: «لاحتَه النارُ والسَّمومُ ولَوَّحتَه: غَيَّرته وسَفَعته وَجْهه».

قوله: (تَلَوْحٌ للناس، كقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا﴾ [التكاثر: ٧])، الأساس: «لاخ البرق والنجم وغيرهما والأح. ومن المجاز: ألخ بسيفه وبشوبه، ولَوْح به: لمع به».

قوله: (وقرئ: «تِسْعَةَ عَشَرَ» بسكون العين)، قال ابن جني: «وهي قراءة أبي جعفر يزيد وطلحة. وقرأ أنس بن مالك: تِسْعَةُ عَشْرٍ»^(١).

(١) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨: ٢٨٣): «وقرأ أنس أيضاً: «تِسْعَةُ» بالضم، «أعشر» بالفتح».

فَتَوْمَنُ هَوَادِثُهُمْ، ولأنهم أشدُّ الخلقِ بأساً وأقواهم بطشاً. عن عمرو بن دينار: واحدٌ منهم يَدْفَعُ بالدَّفْعَةِ الواحدةِ في جهنَّمَ أكثرَ من ربيعةَ ومُضَرَ، وعن النبي ﷺ: «كَانَ أَعْيُنُهُمُ الْبَرْقُ، وَكَانَ أَقْوَاهُمُ الصَّيَاصِي يَجْرُونَ أَشْعَارَهُمْ، لِأَحْدِهِمْ مِثْلُ قُوَّةِ الثَّقَلَيْنِ، يَسُوقُ أَحَدُهُمُ الْأُمَّةَ وَعَلَى رِقْبَتِهِ جَبَلٌ فَيَرْمِي بِهِمْ فِي النَّارِ وَيَرْمِي بِالْجَبَلِ عَلَيْهِمْ». وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾،

أما القراءةُ بسكونِ العين، فلأجلِ كثرةِ الحركات؛ فإنَّ الاسمَ كإسمِ الواحدِ، فلم يوقفْ على الأوَّلِ فيحتاجُ إلى الابتداءِ بالثاني، فلَمَّا أَمِنَ ذلكَ أُسْكِنَ تخفيفاً، وجُعِلَ ذلكَ أمانةً لقوةِ الاتصالِ، ولا يجوزُ ذلكَ مع اثنا عشرَ. وقال أبو جعفر^(١): تِسْعَةُ أَعْشَرَ لا وَجْهَ لَهُ، إِلَّا أَنْ يُعْنَى تِسْعَةَ أَعْشُرٍ، جَمَعَ الْعَشِيرَ^(٢)، وَهَمُّ الْأَصْدِقَاءِ. وَرُوي عَنِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: «أَي: تِسْعَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشِيرٌ لِتِسْعَةِ^(٣)، فَهَمَّ مَعَ أَتْبَاعِهِمْ تَسْعُونَ، وَالْعَشِيرُ الْعُشْرُ، أَي: التُّقْبَاءُ تِسْعَةَ^(٤)».

قوله: (فَتَوْمَنُ هَوَادِثُهُمْ)، الأساس: «ما في فلانٍ هَوَادَةٌ رَفِيقٌ وَلِينٌ».

قوله: (وَكَانَ أَقْوَاهُمُ الصَّيَاصِي)، أي: أُنْيَابُهُمْ^(٥)، كذا في «المعالم» و«الوسيط»^(٦).

الأساس: «صِنَّصِنَّ الدَّيْكَ: مِخْلَبُهُ فِي سَاقِهِ. وَأَسِنَّةٌ كَصَيَاصِي الْبَقْرِ وَهِيَ قَرُونُهَا، وَالصَّيَاصِي: الْحِصُونُ».

(١) في «المحتسب» (٢: ٣٣٨): أبو حاتم، وصوابه أبو جعفر، قال في «معاني القرآن وإعراجه» (٥: ٢٤٨):

«وَفِيهَا وَجْهٌ آخَرٌ: «تِسْعَةُ أَعْشَرَ» وَهِيَ شَادَةٌ، كَانَتْ عَلَى جَمْعِ فَعِيلٍ وَأَفْعَلٍ، مِثْلُ يَمِينٍ وَأَيْمُنٍ».

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٣٨).

(٣) في (ف): «عَشِيرٌ تِسْعَةَ».

(٤) لم أهتدِ إلى موضعه.

(٥) في (ف): «أَتْبَاعُهُمْ».

(٦) انظر: «الوسيط» (٤: ٣٨٤) للواحد، و«معالم التنزيل» (٨: ٢٧٠).

قال أبو جهل لقريش: نكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يُخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم اللذم، أيعجز كل عشرة منكم أن ينطشوا برجل منهم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدّة الجُمحيّ وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾، أي: ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يُطاقون. فإن قلت: قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سبباً لاستيقان أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين، فما وجه صحة ذلك؟

قلت: ما جعل افتنائهم بالعدة سبباً لذلك، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً، وذلك أن المراد بقوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر، فوضع ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع ﴿تَسْعَةَ عَشَرَ﴾،

قوله: (ابن أبي كبشة)، النهاية: «هو رجل من خزاعة، خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبد الشُعْرَى العَبْرَ (١)، فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان، شبهوه (٢) به».

قوله: (فوضع) ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع ﴿تَسْعَةَ عَشَرَ﴾، وكان أصل الكلام: عليها تسعة عشر، وما جعلنا عدة أصحاب النار، إلا هذا العدد المخصوص الذي هو سبب فتنة الكفار، فوضع المسبب موضع السبب ليؤذن بأن هذا العدد المخصوص ليس إلا، للابتلاء. قال القاضي: «وما جعلنا عدتهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم، وهو التسعة عشر، فعبر بالأثر عن المؤثر، تنبيهاً على أنه لا ينفك منه. وافتنائهم به: استقلالهم له واستهزاؤهم به، واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين».

ولعل المراد بالجعل: القول (٣)؛ ليحسن تعليقه بقوله: ﴿لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. أي: ما قلنا: إن عدتهم كذا، إلا ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد وصدق القرآن، لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم (٤).

(١) في (ف): «العيق»، وذلك تصحيف. انظر: «الأنواء» لابن قتيبة، ص ٤٦.

(٢) في (ف): «شتموه».

(٣) في «الأنوار» للبيضاوي: «ولعل المراد الجعل بالقول»، وليس بصواب.

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٤١٥-٤١٦) للبيضاوي؛ قاله في تفسير الآية (٣١) من سورة المدثر.

لأنَّ حالَ هذه العِدَّةِ الناقِصَةِ واحداً من عقِدِ العِشرين، أن يُفْتِنَ بها مَنْ لا يُؤْمِنُ باللهِ ويحكِمَتِه، ويعترضُ ويستهزِئُ، ولا يذعنَ إذعانَ المؤمنِ، وإن خَفِيَ عليه وَجْهُ الحِكمةِ، كأنه قيل: ولقد جَعَلْنَا عِدَّتَهُم عِدَّةً مِنْ شَأْنِهَا أن يُفْتَنَ بها، لأجلِ استيقانِ المؤمنِينَ وحيرةِ الكافرينَ واستيقانِ أهلِ الكتابِ، لأن عِدَّتَهُم تِسْعَةَ عَشَرَ فِي الكِتَابِينِ، فإذا سَمِعُوا بِمِثْلِهَا فِي القُرْآنِ أيقنوا أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ اللهُ، وازديادُ المؤمنِينَ إيماناً لتصديقِهِم بذلكَ كما صَدَّقُوا سائِرَ ما أنزلَ، ولما رَأَوْا مِنْ تَسْلِيمِ أَهْلِ الكِتَابِ وَتَصْديقِهِم أَنَّهُ كَذَلِكَ. فإن قلت: لم قال: ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، والاستيقانُ وازديادُ الإيِّمانِ دَلالَةً عَلَى انتفاءِ الارتيابِ؟ قلتُ: لأنَّهُ إذا جَمَعَ لَهُم إثباتُ اليقينِ وَنَفْيُ الشكِّ،

وقال صاحبُ «الانْتِصافِ»: «السؤالُ أن الفِتنَةَ التي هي في تَقْدِيرِ الصِّفَةِ؛ إذ معنى الكِلامِ ذاتُ فِتنَةٍ، جُعِلَتْ سَبباً لِمَا بَعْدَها. والمَجِيبُ جَعَلَ العِدَّةَ التي عَرَضَتْ لَهَا هذه الصِّفَةُ، سَبباً لا باعْتِبارِ عُرْوِصِ الصِّفَةِ. ويجوزُ أن يَرْجِعَ قولُهُ: ﴿لَيْسَتَيْنِ﴾ إلى ما قَبْلَ الاستِثناءِ، أي: جَعَلْنَا عِدَّتَهُم سَبباً لِفِتنَةِ الكُفَّارِ وَيَقِينِ المؤمنِينَ، وهو أَقْرَبُ. وما أَلْجَأَ الزمخْشَرِيَّ إلى خِلافِهِ، إلا اعتقادُ أَنَّ اللهُ ما فَتَنَهُمْ»^(١).

وقلتُ: ما أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ إلا أن استيقانَ أهلِ الكتابِ، وازديادَ إيمانِ المؤمنِينَ، واستهزاءِ الكافرينَ والمنافقينَ، ليس مُسَبَّباً عَنِ جَعْلِ العِدَّةِ فِتنَةً، بل نَفْسُ العِدَّةِ هو السَّبَبُ، لأنَّ المَكْتُوبَ فِي الكِتَابِينِ هذا العِدَّةُ المَخْصُوصَ لا جَعَلَهُ فِتنَةً؛ فلموافِقَتِهِ لِمَا فِي الكِتَابِينِ، صارَ سَبباً لاستيقانِ أهلِ الكتابِ، ولَمَّا كانَ مِنْ شَأْنِهِ أن يُفْتَنَ^(٢) بِهِ، صارَ سَبباً لِحيرةِ الكافرينَ، بل الحَقُّ فِي هذا المَقامِ ما قاله القاضِي، لأنَّ نَفْسَ جَعْلِ العِدَّةِ الموصوفةِ^(٣) ليس سَبباً، بل القولُ بِهِ هو السَّبَبُ. قولُهُ: (لأنَّهُ إذا جَمَعَ لَهُم إثباتُ اليقينِ). أرادَ أن الأسلوبَ مِنْ بابِ الطرْدِ والعكسِ، لقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهُ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحرِيم: ٦].

(١) «الانْتِصافِ بحاشية الكشاف» (٤: ٦٥١).

(٢) فِي (ف): «يُتَيْقَنُ».

(٣) فِي (ح) و(ف): «جَعَلَ العِدَّةِ الموصوفِ».

كَانَ أَكْدَ وَأَبْلَغَ لَوْ صِفَهُمْ بِسُكُونِ النَّفْسِ وَتَلَجِّ الصَّدْرِ، وَلَأَنَّ فِيهِ تَعْرِيفًا بِحَالِ مَنْ عَدَاهُمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَلِتَخَالِفَ حَالَهُمْ حَالَ الشَّاكِّينَ الْمُزْتَابِينَ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْكَفْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذُكِرَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ نِفَاقٌ، وَإِنَّمَا نَجَّمَ بِالْمَدِينَةِ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ وَلِيَقُولَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يَنْجُمُونَ فِي مَسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بِمَكَّةَ: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِخْبَارٌ بِمَا سَيَكُونُ كَسَائِرِ الْإِخْبَارَاتِ بِالْغُيُوبِ، وَذَلِكَ لَا يَخَالِفُ كَوْنَ السُّورَةِ مَكِّيَّةً. وَيُجَوِّزُ أَنْ يَرَادَ بِالْمَرَضِ: الشُّكُّ وَالْارْتِيَابُ، لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ شَّاكِّينَ وَبَعْضُهُمْ قَاطِعِينَ بِالْكَذْبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ عَلَّلَ جَعَلَهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ بِالْإِسْتِيقَانِ وَانْتِفَاءِ الْارْتِيَابِ وَقَوْلِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ مَا قَالُوا، فَهَبْ أَنْ الْإِسْتِيقَانَ وَانْتِفَاءَ الْارْتِيَابِ يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ غَرَضِينَ، فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ غَرَضًا؟

قُلْتُ: أَفَادَتِ اللَّامُ مَعْنَى الْعِلَّةِ وَالسَّبَبِ، وَلَا يَجِبُ فِي الْعِلَّةِ أَنْ تَكُونَ غَرَضًا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِكَ: خَرَجْتُ مِنَ الْبَلَدِ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ، فَقَدْ جَعَلْتَ الْمَخَافَةَ عِلَّةً لَخُرُوجِكَ وَمَا هِيَ بِغَرَضِكَ. ﴿مَثَلًا﴾ تَمَيِّزٌ لِهَذَا، أَوْ حَالٌ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [هود: ٦٤].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سَمَّوْهُ مَثَلًا؟

قُلْتُ: هُوَ اسْتِعَارَةٌ مِنَ الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ، لِأَنَّهُ يَمَّا غَرَّبَ مِنَ الْكَلَامِ وَبَدَعَ،

قَوْلُهُ: (يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ غَرَضِينَ)، الْإِتْتِصَافُ: «لَا يُطْلَقُ الْغَرَضُ عَلَى الْإِرَادَةِ مِنَ اللَّهِ وَأَصْلُ السُّؤَالِ عَلَى قَاعِدَتِهِ، فَأَرُخُ فَكَّرَكَ عَنْ سُؤَالِهِ، فَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»^(١).

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٦٥٢).

استغراباً منهم لهذا العددِ واستبداعاً له. والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العددِ العجيب، وأي غرضٍ قصدَ في أن جعلَ الملائكةَ تسعةَ عشرَ لا عشرين سِواء، ومُرَادُهُم إنكارُهُ مِن أصلِهِ، وأنه ليسَ مِن عندِ الله، وأنه لو كانَ مِن عندِ الله لما جاءَ بهذا العددِ الناقصِ.

الكافُ في ﴿كَذَلِكَ﴾ نَصَبٌ، وذلك: إشارةٌ إلى ما قبلَهُ مِن معنى الإضلالِ والهدى، أي: مثلُ ذلك المذكورِ من الإضلالِ والهدى يُضِلُّ الكافرينَ ويَهْدِي المؤمنينَ، يعني: يَفْعَلُ فِعْلاً حَسَنًا مَبْنِيًّا عَلَى الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، فيراه المؤمنونَ حِكْمَةً وَيُدْعِنونَ لَهُ لاعتقادِهِم أَن أفعالَ الله كُلِّها حَسَنَةٌ وَحِكْمَةٌ فيزيدُهُم إيمانًا، وَيُنْكِرُهُ الكافرونَ وَيَشْكُونُ فِيهِ فيزيدُهُم كُفْرًا وَضَلالًا. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ وما عليه كُلُّ جُنْدٍ مِنَ العددِ الخاصِ، مِن كَوْنِ بَعْضِها عَلَى عِقْدٍ كَامِلٍ وَبَعْضِها عَلَى عَدَدٍ ناقصِ، وما في اختصاصِ كُلِّ جندٍ بَعْدَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ،

قوله: (استغراباً)، قيل: هو مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «استعارة»، فكأنه قال: استعاروه مِن المثلِ

لاستغرابِهِم هذا العددِ.

قوله: (وما في اختصاصِ كُلِّ جُنْدٍ)، عطفٌ تفسيريٌّ عَلَى قَوْلِهِ: «وما عليه كُلُّ جندٍ». وأما قَوْلُهُ: «وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ لِفِرطِ كَثَرَتِها إِلَّا هُوَ»، فَعَطْفٌ عَلَى «وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ»، وما عليه كُلُّ جندٍ إلى آخِرِهِ لِمَغايِرَتِهِ لَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وقيل: هو جوابٌ لِقَوْلِ أَبِي جَهْلٍ»، قَالَ مُحِبِّي السُّنَّةِ: «وهو قولٌ مُقاتِلٍ»^(١).

ويمكنُ أن يُقَرَّرَ هذا القولُ بأنَّ يُقالَ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ العَدَدَ الَّذِي اقْتَضَى فِتْنَةَ الكُفْرِ، وَطَعَنَ^(٢) أَبُو جَهْلٍ فِيهِ تارَةً بِقَوْلِهِ: أَمَّا لِرَبِّ مُحَمَّدٍ أَعوانٌ إِلَّا تِسْعَةَ عَشَرَ؟، وَأخْرَى بِقَوْلِهِ لِقُرَيْشٍ: تَكَلَّمْتُمْ أَمهاتِكُمْ، أَسْمِعْ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ حَزَنَةَ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ وَأَنْتُمْ الدَّهْمُ، أَيْعَجِزُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِرَجُلٍ مِنْهُمْ؟ كما سَبَقَ فِي «الكشاف»، فَأُجِيبَ

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٢٧١) للبغوي.

(٢) في (ح): «طعن»، بدون الواو.

كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النُصَبِ والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة، أو: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فلا يعزُّ عليه تميم الحزنة عشرين، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها. وقيل: هو جواب لقول أبي جهل: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض. وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى﴾ متصل بوصف ﴿سَقَر﴾ و﴿هِيَ﴾ ضميرها، أي: وما سَقَر وصفتها إلا تذكرة ﴿لِلْبَشَرِ﴾، أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

[﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ و﴿أَلَيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ و﴿الصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ﴾ * إِنَّمَا لِاحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ * مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقُوا * أَوْ يَتَأَخَّرُوا﴾ ٣٢-٣٧]

﴿كَلَّا﴾ إنكار بعد أن جعلها ذكري، أن تكون لهم ذكري، لأنهم لا يتذكرون، أو رَدْعٌ لمن يُنكر أن تكون إحدى الكُبر نذيراً. و«دَبَّر» بمعنى أَدْبَرَ، كَقَبَلُ بِمَعْنَى أَقْبَلَ، ومنه صاروا كأمس الدَّابِرِ.....

بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ﴾، أي: ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يُطاقون، عَقَبَهُ (١) بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: ما يعلم بقوة بطش الملائكة إلا هو، لأنهم جنود الله يُسلطهم على أعدائه، وجبريل عليه السلام منهم، قَلَعَ مدائن قوم لوط بريشة من جناحه.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض. يعني: قوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾، معطوف على قوله: ﴿سَأُضْلِيهِ سَقَر﴾ وما يتصل بها. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾: استطراد، ردًّا لَطَعْنِ الكفار، اعتراض بين الكلامين المتصلين اهتماماً.

قوله: (كأمس الدَّابِرِ)، أمس: هو عند بعضهم مبنئ، وعند بعضهم غير مُنْصَرَف.

(١) جواب: «إنه تعالى لما ذكر ..» أوَّل الفقرة.

وقيل: هو من دَبَرَ الليلَ النهارَ إذا خَلَفَهُ. وقُرئ: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾.

﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكُبْرَى﴾ جوابُ الْقَسَمِ أو تعليلٌ لـ ﴿كَلَّا﴾، والقَسَمُ معترضٌ للتوكيد. و«الكُبْرَى»: جَمْعُ الكُبْرَى، جُعِلَتْ أَلْفُ التَّأْنِيثِ كَتَائِبِهَا، فَلَمَّا جُمِعَتْ فُعْلَةٌ عَلَى فُعْلٍ، جُمِعَتْ فُعْلَى عَلَيْهَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ: السَّوَابِي فِي جَمْعِ السَّافِيَاءِ،

قوله: ﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكُبْرَى﴾ جوابُ الْقَسَمِ، هذا إذا جُعِلَ ﴿كَلَّا﴾ إنكاراً للكلام السابق، فعلى هذا يقفُ القارئ عند ﴿كَلَّا﴾ وَيَتَدَيُّ بِالْقَسَمِ.

وقوله: (أو تعليلٌ لـ ﴿كَلَّا﴾)، هذا إذا جُعِلَ رَدْعاً لِمَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ﴿لِإِحْدَى الْكُبْرَى﴾ نذيراً. أي: حَقَّقَهَا إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكُبْرَى، والقَسَمُ معترضٌ وجوابه مُخَدَّوْفٌ، فَيَقِفُ الْقَارِئُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾.

قال صاحبُ «المُرْشِدِ»: «هذا وقفٌ تامٌّ، ويُستأنف: كَلَّا والقمر، بمعنى: ألا والقمر. والوقفُ هاهنا على ﴿كَلَّا﴾، ليس بِحَسَنِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَوَّزَهُ بَعْضُهُمْ»^(١).

وقلت: وفيه معنى الترقِّي، كأنه قيل: ما هي ذكْرِي لِلجَاحِدِ أَرْتَدِعُ وَتَنَبَّهَ عَلَى^(٢) الخِطَا، بل هي إِحْدَى^(٣) البَلَايَا والدَوَاهِي والعِظَائِمِ عَلَى الجَاحِدِ مِنْ جِهَةِ الإِنذَارِ.

قوله: (وقُرئ: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾)، نافعٌ وحمزةٌ وحفصٌ: بالهمزِ وَيَسْكَانِ الذَّالَ. والباقون: بلا همزٍ وبفتحِ الذَّالِ^(٤).

قوله: (السَّوَابِي)، الأساس: «الرَّيْحُ تَسْفِي الترابَ، وَسَفَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ، وَلَعِبَتْ بِهِ السَّوَابِي».

(١) «المُرْشِدِ فِي الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ» (٤: ٨٢٠-٨٢١) لِلْعُمَانِيِّ.

(٢) فِي (ح): «عَنْ».

(٣) فِي (ف): «أَخْطَاءٌ».

(٤) دَبَّرَ وَأَدَبَرَ لِعْتَانِ، يُقَالُ: دَبَّرَ اللَّيْلُ وَأَدَبَرَ، وَمِثْلُهُ: قَبَّلَ اللَّيْلُ وَأَقْبَلَ؛ والقراءةُ «إِذَا دَبَّرَ» لِمُوافِقةِ مَا بَعْدَهُ: ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا أَشْفَرَ﴾. انظر: «حِجَةُ الْقَرَاءَاتِ» لابن زَنْجَلَةَ، ص ٧٣٣، ٧٣٤. وهذه الفقرة سقطت من (ط).

والقواصعُ في جمعِ القاصعاء، كأنها جمعُ فاعلة، أي: لإحدى البلايا أو الدواهي الكُبرى، ومعنى كونها إحداهن: أنها من بينهنَّ واحدةٌ في العِظَم لا نظيرة لها. كما تقول: هو أحدُ الرجال، وهي إحدى النساء. و﴿نَذِيرًا﴾ تمييزٌ من إحدى، على معنى: إنها لإحدى الدواهي إنذاراً، كما تقول: هي إحدى النساء عفاً. وقيل: هي حال، وقيل: هو متصلٌ بأولِ السورة، يعني: قُم نذيراً، وهو من بدعِ التفاسير. وفي قراءة أبي: «نذيرٌ» بالرفعِ خبرٌ بعدَ خبرٍ لـ «إن»، أو بحذفِ المبتدأ.

﴿أَنْ يَتَّقَمَ﴾ في موضعِ الرفعِ بالابتداء، و«لمن شاء»: خبرٌ مقدّمٌ عليه، كقولك: لمن تَوْضاً أَنْ يُصَلِّيَ؛ ومعناه مطلقٌ: لمن شاء التقدّم أو التأخرَ أَنْ يَتَّقَمَ أو يتأخرَ، والمرادُ بالتقدّم والتأخر: السَّبْقُ إلى الخَيْرِ والتخلُّفُ عنه، وهو كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]،

قوله: (وقيل: هي حال)، قال القاضي: «هو حالٌ ممّا دلّت عليه الكُبرى، أي: كَثُرَتْ مُنذَرَةٌ»^(١).

قوله: (يعني: قُم نذيراً، وهو من بدعِ التفاسير)، قال محيي السنة: «قيل: ﴿نَذِيرًا﴾ صفةٌ حميدٌ صلواتُ الله عليه، ومعناه: يا أيها المدثر، قُم نذيراً للبشرِ فأنذِر، هذا معنى قولِ ابنِ زيد»^(٢)، ولما لزم منه خرمُ النظم، قال: وهو من بدعِ التفاسير.

قوله: (مطلقٌ لمن شاء التقدّم أو التأخرَ أَنْ يَتَّقَمَ أو يتأخرَ)، يريدُ أَنْ مُتَعَلِّقٌ «أَنْ يَتَّقَمَ ويتأخر»^(٣) غيرُ منويٍّ، ومعناه: أَنْ لا إلهاءٌ ولا قَسْرٌ^(٤)، والمكلفُ مختارٌ في كلِّ ما يريدُ أَنْ يَأْتِيَ وَيَتَّوَعَّلَ.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤١٧).

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٢٧٢).

(٣) في (ح) و(ف): «متعلقٌ تقدّم».

(٤) في (ف): «يسر».

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿لِلْبَشَرِ﴾ عَلَى أَنَّهَا مُنْذِرَةٌ لِلْمُكَلِّفِينَ الْمُمْكِنِينَ: الَّذِينَ إِنْ شَاءُوا تَقَدَّمُوا فَفَازُوا، وَإِنْ شَاءُوا تَأَخَّرُوا فَهَلَكُوا.

[﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ فَأَلْوَا لِرَنكٍ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿وَلَرَنكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿وَكُنَّا نَحْوُضَ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٣٨-٤٨]

﴿رَهِينَةٌ﴾ لَيْسَتْ بِتَأْنِيثٍ «رَهِين» فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، لِتَأْنِيثِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَصِدَتْ الصِّفَةُ لَقِيلَ: رَهِينٌ؛

قَالَ الْإِمَامُ: «اِحْتَجَّتِ الْمُعْتَزَلَةُ بِالْآيَةِ عَلَى كَوْنِ الْعَبْدِ مُتَمَكِّنًا مِنَ الْفِعْلِ غَيْرَ مُجْبِرٍ عَلَيْهِ. وَجَوَابُهُ: أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ مُعَلَّقٌ عَلَى مَشِيئَتِهِ، وَلَكِنْ مَشِيئَةُ الْعَبْدِ مُعَلَّقَةٌ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]»^(١).

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿لِلْبَشَرِ﴾)^(٢) وَهُوَ عَلَى تَكَرُّرِ الْعَامِلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾^(٣) [الأعراف: ٧٥]. فَإِنَّ قَلْتُ: مَفْعُولٌ ﴿شَاءَ﴾ وَ﴿أَرَادَ﴾ يُحذفُ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ^(٤)، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ فِيهِ غَرَابَةٌ، فَأَيُّ غَرَابَةٍ فِيهِ حَتَّى ذُكِرَ فِي هَذَا الْوَجْهِ دُونَ الْأَوَّلِ؟ قَلْتُ: غَرَابَتُهُ أَنْ التَّقْدِيرَ: وَاللَّهُ إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبْرَى، نَذِيرًا لِلْمُكَلِّفِينَ الْمُخْتَارِينَ الْمُتَمَكِّنِينَ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَكُنْتُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أَحْسَنُ انْتِظَامًا بِهَذَا الْوَجْهِ لِأَنَّ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ سَائِبَةٌ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] شَاهِدٌ عَلَيْهِ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٨٤-١٨٥).

(٢) فِي (ح) وَ(ف): «البشر»، وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: «وَهُوَ عَلَى تَكَرُّرِ الْعَامِلِ»، أَيِ حَرْفِ الْجَرِّ.

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ».

(٤) فِي (ف): «الصحيح».

لأنَّ فَعِيلاً بِمَعْنَى مَفْعُولٍ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَالْمَوْثُوثُ، وَإِنَّمَا هِيَ اسْمٌ بِمَعْنَى الرَّهْنِ، كَالشَّيْئَةِ بِمَعْنَى الشَّيْءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهْنٌ، وَمِنْهُ بَيْتُ الْحِمَاسَةِ:

أَبَعْدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ نَعْفٍ كَوَيْكِبٍ رَهِينَةٍ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلٍ

كَأَنَّهُ قَالَ: رَهْنٍ رَمْسٍ. وَالْمَعْنَى: كُلُّ نَفْسٍ رَهْنٌ بِكَسْبِهَا عِنْدَ اللَّهِ غَيْرُ مَفْكُوكٍ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، فَإِنَّهُمْ فَكَّرُوا عَنْهُ رِقَابَهُمْ بِمَا أَطَابُوهُ مِنْ كَسْبِهِمْ، كَمَا يُجَلِّصُ الرَّاهِنُ رَهْنَهُ بِأَدَاءِ الْحَقِّ. وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ فَسَّرَ أَصْحَابَ الْيَمِينِ بِالْأَطْفَالِ، لِأَنَّهُمْ لَا أَعْمَالَ لَهُمْ يُرْتَهِنُونَ بِهَا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ. ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أَي هُمْ فِي جَنَاتٍ لَا يُكْتَنَنُ وَصَفُهَا ﴿يَسَاءَ لُونٌ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنْهُمْ، أَوْ يَتَسَاءَلُونَ غَيْرَهُمْ عَنْهُمْ، كَقَوْلِكَ: دَعَوْتُهُ وَتَدَاعَيْتَاهُ.

قَوْلُهُ: (أَبَعْدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ) الْبَيْتِ، النَّعْفُ: اسْمُ جَبَلٍ، وَقِيلَ: مَكَانٌ مُرْتَفِعٌ. وَرَهِينَةٌ بِمَعْنَى رَهْنٍ، مَجْرُورٌ، بَدَلٌ مِنْ «الَّذِي»، وَالرَّمْسُ: الْقَبْرُ، وَالْفُ الْإِسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، وَبَعْدَهُ:

أَذْكَرُ بِالْبُقْيَا^(١) عَلَى مَنْ أَصَابَنِي وَبُقْيَايَ أَنِّي جَاهِدٌ غَيْرُ مُؤْتَلٍ

وَهَمْزَةُ الْإِنْكَارِ تَتَنَاوَلُ الْفِعْلَ الَّذِي فِي صَدْرِ الْبَيْتِ الثَّانِي، وَالْمَعْنَى: أَبَعْدَ الَّذِي دُفِنَ بِنَعْفٍ أَذْكَرُ بِالْبُقْيَا؟ أَي: أَسَامُ الْإِبْقَاءِ عَلَى مَنْ وَتَرَنِي عَلَيْهِ؟ أَي: أَجْتَهَدُ فِي قَتْلِهِ وَلَا أُقْصِرُ. وَالْبُقْيَا مِنَ الْإِبْقَاءِ. قَائِلُهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ^(٢)، قُتِلَ أَبُوهُ، وَعُرِضَ^(٣) عَلَيْهِ سَبْعُ دِيَّاتٍ، فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهَا، وَقَالَ هَذَا.

قَوْلُهُ: (دَعَوْتُهُ وَتَدَاعَيْتَاهُ)، أَي: دَعَوْتُهُ أَنَا وَتَدَاعَيْتَاهُ نَحْنُ، كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُهُ أَنَا وَتَرَأَيْتَاهُ نَحْنُ، يَعْنِي: إِذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ مُنْفَرِداً بِقَوْلِهِ: دَعَوْتُهُ، وَإِذَا كَانَ جَمَاعَةً يَقُولُ: تَدَاعَيْتَاهُ. وَنظِيرُهُ: رَمَيْتُهُ

(١) فِي (ح) وَ(ف): «بِالْبُقْيَا».

(٢) فِي «الْحِمَاسَةِ» (١: ١٧٩) مَنْسُوبٌ إِلَى مِسُورِ بْنِ زِيَادَةَ الْحَارِثِيِّ.

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «وَعُرِضَ: أَبُوهُ».

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿مَا سَأَلَكُمْ﴾ - وهو سؤال للمُجرمين - قوله: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ *
عَنِ الْمُجْرِمِينَ * وهو سؤال عنهم؟ وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين: ما
سللكم؟

قلت: ﴿مَا سَأَلَكُمْ﴾ ليس بياناً للتساؤل عنهم، وإنما هو حكاية قول المسؤولين
عنهم؛ لأن المسؤولين يُلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين،

وتراميتها، ورأيت الهلال وترأيتها. وهذا التفاعل هنا لا يكون من الجانيين، فعلى هذا: يتساءلون
بمعنى: يسألون.

قوله: (كيف طابق قوله: ﴿مَا سَأَلَكُمْ﴾)، توجيهه: أن قوله: ﴿مَا سَأَلَكُمْ﴾، الظاهر
أنه بيان لقوله: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ *، أي: يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال أصحاب
المجرمين، أو يتساءلون غيرهم عنهم، فحينئذ لا يطابق: ﴿مَا سَأَلَكُمْ﴾، إذ لو قيل: ما
سللكم^(١)؟ أو قيل: يسألون المجرمين، أو يسألونهم عن أحوالهم، فقيل: ﴿مَا سَأَلَكُمْ﴾ في
سَقَرٍ، لصحَّ كونه بياناً له.

قوله: (وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم)، يعني: لما سألو أصحابهم عن أحوال
المجرمين، أجابوا بأننا سألناهم عن أحوالهم، وقلنا لهم: ما سللكم في سَقَرٍ؟ قالوا: لم نك من
المصلين، وجيء بالكلام على الحذف. وقريب منه قوله تعالى حكاية عن جبريل أنه قال:
﴿لَأَهَبَ لِكَ﴾^(٢)، وليس هو الواهب، وإنما الواهب هو الله عز وجل، إلا أن جبريل عليه
السلام قال: لأهب لك، على أن الله تعالى أرسلني إليك، وقال لي: قل لها: إن الله تعالى قال:
أهب لك.

(١) في (ط) و(ف): «ما سللكم».

(٢) من الآية (١٩) من سورة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ عُلْمًا زَكِيًّا﴾؛ وإسناداً أهدى إلى
جبريل عليه السلام مجاز، إذ يمكن أن يتعلق ﴿لَأَهَبَ لِكَ﴾ بقول محذوف، فيكون ضمير ﴿لَأَهَبَ﴾
عائداً على رب العزة سبحانه.

فيقولون: قلنا لهم: ما سَلَكُكُمْ ﴿فِي سَفَرًا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ لَكُنَّا مِنَ الْآخِثِينَ﴾ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار، كما هو تَهَجُّج التنزيل في غَرَابَةِ نَظْمِهِ. الحَوْضُ: الشَّرْعُ في الباطل وما لا ينبغي.

فإن قلت: لم يسألوهم وهم عالمون بذلك؟ قلت: توبيخاً لهم وتَحْسِيرًا، ولتكون حكاية الله ذلك في كتابه تذكرةً للسامعين. وقد عَصَدَ بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال، أنهم إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار.....

قوله: (الحَوْضُ: الشَّرْعُ في الباطل)، عن بعضهم: الحَوْضُ اسمٌ غالبٌ في الشرِّ، كالخلود في إقامة^(١) لا انقطاع لها، وكذلك قولهم: «يَذْكُرُكَ» غالبٌ في الشرِّ، وعليه قوله تعالى: ﴿فَقَى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وهذا من الأسماء الغالبة^(٢)، كـ [الصفات الغالبة والمعاني]^(٣) الغالبة.

قوله: (وقد عَصَدَ بعضهم)، هذا وجهٌ ثالثٌ في الجواب عن السؤال، و«أَتَمُّ» مُتَعَلِّقٌ بـ«عَصَدَ»، أي: بأَتَمُّ. يَعْنِي: بَعْضُ^(٤) مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٩]: [الأطفال]^(٥)، وهو قولٌ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ إِنَّمَا يُحْسَنُ بِمَنْ لَا يَعْرِفُ مُوجِبَ دُخُولِ النَّارِ^(٦).

(١) في (ف): «العامة» بدل «إقامة».

(٢) الغلبة: أن يكون اللفظ في أصل الوضع عامًّا في أشياء، ثم يصير بكثرة الاستعمال في أحدها أشهر، بحيث لا يحتاج ذلك الشيء إلى قرينة؛ فالغلبة في الأسماء، كالبيت على الكعبة، والدابة على الفرس، والمال على الإبل، وفي الصفات كالرحمن غير مضاف، وفي المعاني كالخوض على الشروع في الباطل خاصة. انظر: «الكليات» لأبي البقاء الكفوي، ص ٦٦٧.

(٣) زيادة يقتضيها السياق، لإتمام المعنى.

(٤) أي: عَصَدَ بَعْضُ.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) في (ح): «الباء» بدل «النار».

فإن قلت: أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار، أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً.

فإن قلت: لم أحرر التكذيب وهو أعظمها؟ قلت: أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيماً للتكذيب، كقوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، و﴿الْيَقِينُ﴾ الموت ومقدماته، أي: لو شفع لهم الشافعون جميعاً من الملائكة والنبين وغيرهم؛ لم تنفعهم شفاعتهم؛ لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم، وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ؛ لأنها تزيد في درجات المرتضين.

[﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُّنشَرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُوتِ وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ ٤٩-٥٦]

﴿عَنِ التَّذِكْرِ﴾ عن التذكير وهو العظة، يريد: القرآن أو غيره من المواعظ، و﴿مُعْرِضِينَ﴾ نصب على الحال،

قوله: (يحتمل الأمرين جميعاً)، أي: يدخل بعضهم النار بمجموع ذلك، وهو: ترك الصلاة، وترك الإطعام، والخوض في الباطل مع الخائضين فيه، والتكذيب بيوم القيامة. وبعضهم بمجرد ترك الصلاة، أو ترك الإطعام. الانتصاف: «هذا تحييل منه على أن تارك الصلاة يخلد في النار. والصحيح أن الآية في الكفار، أي: لم يكن من أهل الصلاة، وكذلك إلى آخرها، ولا تصح منهم هذه الطاعات، وإنما يتأسفون^(١) على قوت ما ينفع»^(٢). وقال القاضي: «وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع»^(٣).

(١) في (ف): «يناقشون».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٥٥).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤١٧)؛ قاله في تفسير الآية (٤٤) من سورة المدثر.

كقولك: مالك قائماً؟ والمستنفرةُ الشديدةُ النَّفَارِ كأنها تَطْلُبُ النَّفَارَ من نفوسها في جمعها له وتَحْمِلُها عليه. وقرئ بالفتح: وهي المنفرةُ المحمولةُ على النَّفَارِ. والقسورةُ: جماعةُ الرِّمَاءِ الذين يَتَصَيَّدونها، وقيل: الأسد، يقال: لُيُوثُ قَسَاوِرُ، وهي فَعْوَلَةٌ مِنَ الْقَسْرِ، وهو الْقَهْرُ وَالْعَلْبَةُ، وفي وَزْنِهِ (الحَيْدَرَةُ) من أسماءِ الأسد.

قوله: (كقولك: مالك قائماً)، قال صاحبُ «الكشف»: «﴿مَا﴾ رَفَعُ بِالابتداء، والخبرُ الجارُّ والمجرور، ﴿مُعْرِضِينَ﴾: حالٌ من المجرور، أي: أي شيء ثابت لهم مُعْرِضِينَ عن التذكرة، و﴿كَانَهُمْ حُمُرًا﴾ حال بعد حال، أي: مُشَابِهِينَ حُمُرًا»^(١).

قوله: (في جمعها له وتَحْمِلُها عليه)، أي: جمع النفوسِ لِلنَّفَارِ، وتَحْمِلُها على النَّفَارِ. الأساس: «فلانٌ جَمَاعٌ لِبني فلان، يأوون إليه وَيَجْتَمِعُونَ عنده. ويقال: جَمَعُوا لِبني فلانٍ إذا حَسَدُوا لِقَتَالِهِمْ». وفي كلامِ المصنِّفِ شائبةٌ^(٢) تجريد.

قوله: (وقرئ بالفتح)، أي: «مُستنفرة»، بفتح الفاء: نافعٌ وابنُ عامر، والباقون: بكسرِها^(٣). قال صاحبُ «الكشف»: «القرءانِ مَبْنِيَّانِ على أن ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾، جاءت متعديةً ولازمةً»^(٤).
قوله: (وفي وزنه^(٥)): (الحَيْدَرَةُ)، عن بعضهم: إن ﴿قَسَوْرَةً﴾ فَعْوَلَةٌ، وحَيْدَرَةُ: فِعْلَةٌ^(٦).

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٠٠-١٤٠١).

(٢) في (ف): «شائبة».

(٣) بالفتح بمعنى: مذعورة، أي: فَعِلَ ذلك بها. وبالكسر بمعنى نفرت، فهما بمعنى واحد. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٣٤.

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٠١).

(٥) في (ف): «رواية».

(٦) في (ف): «فَعْلَةٌ». والحَيْدَرَةُ: الأسد، قال ابنُ الأعرابي: الحَيْدَرَةُ في الأسد مثلُ الملك في الناس، لغلظ عُنُقِهِ وقوة ساعديه، وقال الإمام علي بن أبي طالب:

أنا الذي سَمَتْنِي أُمِّي حَيْدَرَةَ

كليث غاباتٍ غليظِ الْقَصْرَةِ

أضربُ بالسيفِ رِقَابَ الكَفْرِ

انظر: «تاج العروس» (١٠/٥٥٧ - حدر).

وعن ابن عباسٍ: رَكَّزَ النَّاسِ وَأَصْوَاتِهِمْ، وَعَنْ عِكْرَمَةَ: ظَلَمَةُ اللَّيْلِ، شَبَّهِمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ وَاسْتِمَاعِ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَشِرَادِهِمْ عَنْهُ، بِحُمْرٍ جَدَّتْ فِي نِفَارِهَا بِمَا أَفْزَعَهَا. وَفِي تَشْبِيهِهِمْ بِالْحُمْرِ مَذْمُومَةٌ ظَاهِرَةٌ وَتَهْجِينٌ لِحَالِهِمْ بَيْنَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَثَلِ الْإِحْمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وَشَهَادَةٌ عَلَيْهِمْ بِالْبَلَاءِ وَقَلَّةِ الْعَقْلِ. وَلَا تَرَى مِثْلَ نِفَارِ حَمِيرِ الْوَحْشِ وَأَطْرَادِهَا فِي الْعَدْوِ إِذَا رَاهَا رَائِبًا؛ وَلِذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ تَشْبِيهِاتِ الْعَرَبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَشِدَّةِ سَيْرِهَا بِالْحُمْرِ، وَعَدْوِهَا إِذَا وَرَدَتْ مَاءً فَأَحْسَتْ عَلَيْهِ بِقَانِصٍ.

﴿صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قِرَاطِيسَ تُنَشَّرُ وَتُقْرَأُ كَالْكِتَابِ الَّتِي يُتَكَاتَبُ بِهَا، أَوْ كُتُبًا كُتِبَتْ فِي السَّمَاءِ وَنَزَلَتْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ سَاعَةً كُتِبَتْ مُنَشَّرَةً عَلَى أَيْدِيهَا غَضَّةٌ رَطْبَةٌ لَمْ تُطَوَّعْ بَعْدُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا الرِّسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَنْ تَتَّبَعَكَ حَتَّى تَأْتِيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ عِنَايَا: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ، تُؤَمَّرُ فِيهَا بِاتِّبَاعِكَ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْتِكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]. وَقِيلَ: قَالُوا إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَلْيُصْبِحْ عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا صَحِيفَةً فِيهَا بَرَاءَتُهُ وَأَمْنُهُ مِنَ النَّارِ. وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ: بَلَّغْنَا أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يُصْبِحُ مَكْتُوبًا عَلَى رَأْسِهِ ذَنْبُهُ وَكُفَارَتُهُ، فَأَتَيْنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ وَهَذَا مِنَ الصُّحُفِ الْمُنَشَّرَةِ بِمَعْزَلٍ؛ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالصُّحُفِ الْمُنَشَّرَةِ الْكِتَابَاتُ الظَّاهِرَةُ الْمَكْشُوفَةُ. وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «صُحُفًا مُنَشَّرَةً» بِتَخْفِيفِهَا، عَلَى أَنَّ «أَنْشَرَ» الصُّحُفَ وَ«نَشَّرَهَا» وَاحِدًا، كَأَنْزَلَهُ وَنَزَّلَهُ.....

إِلَّا أَنَّهَا مُلْحَقَانِ بِ «فَعَلَّلَهُ»، فَهَذَا قَالَ: وَفِي وَزْنِهِ (١).

قَوْلُهُ: (وَهَذَا مِنَ الصُّحُفِ الْمُنَشَّرَةِ بِمَعْزَلٍ)، أَي هَذَا التَّأْوِيلُ الْأَخِيرُ.

(١) فِي (ف): «رَوَاتِهِ».

رَدَّعَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿كَلَّا﴾ عَنْ تِلْكَ الْإِرَادَةِ، وَرَجَّهَمَ عَنْ اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، فَلِذَلِكَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّذْكَرَةِ لِأَمْتِنَاعِ إِيْتَاءِ الصُّحُفِ، ثُمَّ رَدَّعَهُمْ عَنِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ وَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ يَعْنِي: تَذْكِرَةٌ بَلِيغَةٌ كَافِيَةٌ، مُبْهَمٌ أَمْرُهَا فِي الْكُفَايَةِ ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أَنْ يَذْكَرَهُ وَلَا يَنْسَاهُ وَيَجْعَلُهُ نُصْبَ عَيْنِهِ فَعَلَّ، فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِنَّهُمْ﴾ وَ﴿ذِكْرَهُ﴾ لِلتَّذْكَرَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المذثر: ٤٩]؛ وَإِنَّمَا ذُكِّرَ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الذِّكْرِ أَوْ الْقُرْآنِ.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي إِلَّا أَنْ يُقْسِرَهُمْ عَلَى الذِّكْرِ وَيُلْجِئَهُمْ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ مَطْبُوعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ، مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ اخْتِيَارًا. ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغُفْرَةِ﴾ هُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَتَّقِيَهُ عِبَادُهُ، وَيَخَافُوا عِقَابَهُ، فَيُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا، وَحَقِيقٌ بِأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ إِذَا آمَنُوا وَأَطَاعُوا.

قَوْلُهُ: (رَدَّعَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿كَلَّا﴾ عَنْ تِلْكَ الْإِرَادَةِ). فِي الْكُوَاشِي: ﴿صُحُفًا مُنْشَرَّةً﴾، عِنْدَهُ وَقَفْتُ تَامًا إِنْ جَعَلْتِ ﴿كَلَّا﴾ بِمَعْنَى «الَّا»، وَعِنْدَ ﴿كَلَّا﴾ إِنْ جَعَلْتَهَا رَدْعًا، ثُمَّ تَبْتَدِئُ: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، وَتَقْفُ عِنْدَ ﴿الْآخِرَةَ﴾، إِنْ لَمْ تَجْعَلِ ﴿كَلَّا﴾ رَدْعًا، وَعِنْدَ ﴿كَلَّا﴾ إِنْ جَعَلْتَهَا رَدْعًا، وَتَبْتَدِئُ: ﴿إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾. وَالْمَصْتَفُ جَعَلَهَا رَدْعَيْنِ لِلْكَلامَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَابْتَدَأَ بِمَا بَعْدَهُمَا.

قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: إِلَّا أَنْ يُقْسِرَهُمْ عَلَى الذِّكْرِ، قَالَ الْإِمَامُ: «إِنَّهُ تَعَالَى نَفَى الذِّكْرَ مُطْلَقًا، وَاسْتثنَى عَنْهُ حَالَ الْمَشِيئَةِ الْمَطْلُوقَةِ، فَيَلْزِمُ أَنَّهُ مَتَى حَصَلَتِ الْمَشِيئَةُ يَحْصُلُ الذِّكْرُ، فَحَيْثُ لَمْ يَحْصُلِ الذِّكْرُ، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلِ الْمَشِيئَةُ. وَتَحْصِيصُ الْمَشِيئَةِ بِالْمَشِيئَةِ الْقَسْرِيَّةِ، تَرْكٌ لِلظَّاهِرِ»^(١). وَقَالَ الْقَاضِي: «وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِأَنْ فَعَلَ الْعَبْدُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ»^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٨٧-١٨٨) للرازي؛ قاله في الآية (٥٦) من سورة المذثر.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤١٨).

وَرَوَى أَنَسٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُتَّقَى، وَأَهْلٌ أَنْ يُعْفَرَ لِمَنْ اتَّقَاهُ». وَقُرِئَ: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ مُحْفَفًا وَمُشَدَّدًا.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُنْذِرِ، أَعْطَاهُ اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ وَكَذَّبَ بِهِ بِمَكَّةَ».

قَوْلُهُ: (هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُتَّقَى)، رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى؛ فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِيَ إِلَهًا، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَعْفَرَ لَهُ»^(١).

قَوْلُهُ: (وَقُرِئَ: ﴿يَذْكُرُونَ﴾)، نَافِعٌ: بِالتَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَالباقونَ: بِالْيَاءِ مُحْفَفًا^(٢)، وَالتَّشْدِيدُ: شَادٌ^(٣).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِعَوْنِ اللَّهِ حَامِدًا لَهُ

* * *

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٣٢٨)، وَابْنُ مَاجَةَ (٤٢٩٩)، وَالدَّارِمِيُّ (٢٧٢٤).

(٢) أَيْ: «وَمَا تُذَكِّرُونَ» بِالتَّاءِ؛ عَلَى الْخُطَابِ، وَبِالْيَاءِ؛ رَدًّا عَلَى مَا قَبْلَهُ. انظُرْ: «حِجَةُ الْقِرَاءَاتِ»، ص ٧٣٥.

(٣) أَيْ: «يَذْكُرُونَ»؛ قِرَاءَةٌ أَبِي حَنِيفَةَ. وَ«تَذَكَّرُونَ» قِرَاءَةٌ أَبِي جَعْفَرِ الْمَدَنِيِّ. انظُرْ: «الْبَحْرُ الْمُحِيطُ» (٨: ٢٨٧) لِأَبِي حَيَّانِ الْأَنْدَلِسِيِّ.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ
مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[«لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ * أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلْ يَدْرِينِ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ * بَلْ يَرِيْدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ * ١-٦]
إدخال «لا» النافية على فعل القسم مُستفيض في كلامهم وأشعارهم،

سورة القيامة
أربعون آية، مكية إجماعاً
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وبه ثقني

قوله: (إدخال «لا» النافية على فعل القسم مُستفيض)، في «اللباب»: «فيه خمسة أقوال:
الأول: قول الجمهور: إن «لا» صلة كقوله: «إِثْلًا يَعْلَمُ» [الحديد: ٢٩]. الثاني: قول
المبرد: «لا» تأكيد للقسم، وأنشد:

فلا^(١) وأبيك ابنة العامري

البيت

(١) في الأصول الخطية: «لا»، في الموضعين، ورواية «الديوان»: «فلا».

قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

فلا وأبيك ابنة العامري
ي لا يدعي القوم أنني أفر
وقال غوية بن سلمى:
ألا نادت أمامة باحتمال
لتحزُنني فلا بك ما أبالي

الثالث: قولُ الفراء: «لا» ردٌّ لإنكارِ المشركينَ البعث. الرابع: أصله: لأقسم، اعتباراً بقراءة ابن كثير، ثم أشيع فظهر من الإشباع ألف. وهذا اللامُ تُصحبُه نونُ التوكيدِ في الأغلب، وقد تُفارقُه. الخامس: «لا» نفيٌ للإقسام، لأنَّ الناسَ يؤكِّدونَ أخبارَهم بنفيِ القسم، كما يؤكِّدونَها بالقسم؛ فإنَّ ذكرَ تركِ القسمِ، يقومُ مقامَ المقسم^(١).
قوله: (فلا وأبيك ابنة العامري) البيت، بعده:

تميمُ بنُ مُرٍّ وأشياعُها
وكنْدَةُ حوِليَ جميعاً صُبُرُ^(٢)

تميم: بدلٌ من «القوم»، أي: لا يدعي القومُ تميمٌ أني أفرُّ وكنْدَةُ حوِلي. والواوُ للحال، والفاءُ هي التي رِدْفُ القافية مكسورة، مقابلةٌ للباءِ في البيتِ الثاني مضمومة، وهو عيبٌ ويسمى الإجازة^(٣).

قوله: (ألا نادت أمامة باحتمال)^(٤)، قيل: «ما أبالي» جوابُ القسمِ، وقيل: «لا» زائدة، والتقدير: فَبِكِ لا أبالي. أمامة: امرأة، والاحتمالُ: الارتحالُ، ما أبالي: ما أكثرتُ ولا أحتفلُ،

(١) انظر: «لباب التأويل في معاني التنزيل» (٤: ٣٦٩) للخازن بتصرف ملحوظ. وانظر: «معاني القرآن» (٣: ٢٠٧) للفراء.

(٢) البيتان لامرئ القيس، من قصيدة يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد، مطلعها:

أحارِ بنَ عمرو كأتى جحرٌ
ويغدو على المرء ما يأتُمز

انظر: «ديوانه»، ص ١٠٩.

(٣) انظر: «الكافي في العروض والقوافي» للتبريزي، ص ١٥٣، ١٦٧.

(٤) من مقطوعة للشاعر غوية بن سلمى الضبي، انظر: «شرح ديوان الحماسة» (٢: ٧٠٧) نمرزوقي.

وفائدتها توكيد القَسَم، وقالوا: إنها صلّة، مثلها في ﴿ثَلَايَعًا أَهْلُ الْكُتُبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وفي قوله:

في بئرٍ لا حُورٍ سرى وما شعر

واعترضوا عليه بأنها إنما تُزادُ في وَسَطِ الكلام لا في أوّله، وأجابوا بأنّ القرآن في حُكْمِ سورةٍ واحدةٍ مُتَّصِلٌ بَعْضُهُ بَعْضٌ، والاعتراضُ صحيحٌ؛ لأنها لم تقعْ مَزِيدَةٌ إِلَّا فِي وَسَطِ الكلام، ولكنّ الجوابَ غيرُ سديدٍ؛

و«لا» زائدة، أي: فَبِحَقِّكَ ما أبالي. يَعْنِي: أظهرت هذه المرأة من نفسها ارتحالاً عني لتجلب عليّ حزنًا. وفي هذه اليمين تهكّم، وقيل: تَمَثَّلَ بهذا البيت في موت الظالم.

قوله: (في بئرٍ لا حُورٍ سرى وما شعر)^(١)، قال أبو عبيدة^(٢): في بئرٍ حُورٍ. و«لا» زائدة^(٣)، والحُور: الهلّكة.

قوله: (وأجابوا بأنّ القرآن في حُكْمِ سورةٍ واحدةٍ)، قال الإمام^(٤): قالوا: إنّ القرآن كلّهُ في حُكْمِ سورةٍ واحدةٍ؛ بأنّه قد يُذكرُ الشَيءُ في سورةٍ، ويبيحُ جوابُهُ في أُخرى، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) من أرجوزة طويلة للعجاج، مدّح بها عمر بن عبيد الله الذي وجّهه عبد الملك بن مروان لقتال أبي فديك الحروري، ومطلعها:

قَدْ جَبَرَ السَّيْنَ إِلَهُ فَجَبَرَ وَعَوَّرَ الرَّحْمَنُ مَنْ وَلَّى الْعَوَرَ

انظر: «مجموع أشعار العرب - ٢» العجاج، ص ١٥، و«خزانة الأدب» (٤: ٥١) للبغدادي.

(٢) في الأصول الخطية: «أبو عبيدة»، وليس بصواب. انظر: «مجاز القرآن» (١: ٢٥-٢٦) لأبي عبيدة.

(٣) جعل الفراء في «معاني القرآن» (١: ٨) «لا» في قول الشاعر قائمة غير زائدة، لأن المعنى عنده: في بئرٍ

ماءٍ لا يُخَيَّرُ عليه شيئاً، ومثله قالت العرب: طحنت الطاحنة فما أحرقت شيئاً؛ أي: لم يتبين لها أثر عمل.

واشترط زيادتها إذا اتصلت بجحد قبلها، كقول جرير:

ما كان يرضى رسول الله دينهم والطَّيَّبان أبو بكرٍ ولا عمرُ

انظر: «ديوانه»، ص ١٥٩.

(٤) سقط قوله: «قال الإمام» من (ح) و(ف).

الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿ [الحجر: ٦]، وجوابه في سورة أخرى، وهو قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٢]. والجواب أن المراد بقولهم: إن القرآن كالسورة الواحدة، في عدم التناقض؛ فأما أن يُقرن بكل آية ما يُقرن بالأخرى، فذلك غير جائز، لأنه يلزم جواز أن يُقرن بكل إثبات حرف النفي الوارد في سائر الآيات، فينقلب كل إثبات نفيًا، وعكسه^(١).
وقلت: قال حمزة وسعيد بن المسيب: إن البسملة آية من الفاتحة ليس إلا، والقرآن جميعه بمنزلة سورة واحدة، كذا في «الشُّعْلة»^(٢).

وليس فيه جواز ضرب بعض السور ببعض، وتخليط ألفاظ سورة بسورة، كما يفعلُه بعضُ وعَاظِ زماننا^(٣). نعم، فيه جواز القول بتعلُّق صدرِ السورة التالية بخاتمة السابقة لفظًا، وجواز القول بتعلُّق بعض السور ببعض معني، كما جاء ﴿لَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١].

وفي الكواشي: «لَمَّا خَتَمَ سُورَةَ النِّسَاءِ أَمْرًا بِالتَّوْحِيدِ وَالعَدْلِ بَيْنَ العِبَادِ، أَكَدَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]».

وفي الحديث الذي جاء عن عثمان في اتصال «الأنفال» بـ «براءة»^(٤)، شاهدٌ صدقٍ على ذلك^(٥). ومن قال باتصال النفي بما قبل السورة، لعله ذهب إلى أنه ردُّ لقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٨٩، ١٩٠) بتصرف.

(٢) أي: «شرح شُعْلة على الشاطبية»، المسمى «كثرة المعاني شرح جزأ الأمانى»، وشُعْلة هو أبو عبد الله محمد ابن أحمد الموصلي، المتوفى سنة (٦٥٦ هـ). انظر: شرحه، ص ٤٤.

(٣) في (ف): كما يعظه وعَاظِ زمانه.

(٤) في (ح): «بالمبرئة». ولسورة «التوبة» أسماء كثيرة، منها: براءة والفاضحة، والمبعثرة، والمشرّدة وسورة العذاب، والمقشقة أي: المبرئة من النفاق، من تَقَشَّقَتْ قروحه، إذا تَقَشَّرَتْ للبرء. انظر: «نظم الدرر» (٣: ٢٥٥) للبقاعي.

(٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد (٣٩٩) والترمذي (٣٠٨٦) وأبو داود (٧٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مُستهل قصيدته؟ والوجه أن يقال: هي للنفي، والمعنى في ذلك أنه لا يُقسَم بالشيء إلا إعظاماً له، يدُلُّك عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]، فكانه بإدخال حَرْفِ النفي يقول: إنَّ إعظامي له بإقسامي به كَلَا إعظام؛ يعني أنه يَسْتَأْهِلُ فوق ذلك. وقيل: إنَّ ﴿لَا﴾ نفي لكلام وردَّ له قبل القَسَم، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا، أي ليس الأمر كما ذكرتم، ثم قيل: أقسَمُ بيوم القيامة.

يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُؤْفَى صُحُفًا مُنْشَرَةً ﴿ [المدر: ٥٢]، كما أن قوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدر: ٥٣] رَدُّعٌ له، كأنه قيل: ليس كما أراد، أقسَمُ بيوم القيامة، إنه لا يصلُ إلى مُرادِه. وقوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ﴾، لقوله^(١): ﴿لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، أي: لا يعتقدون الآخرة فيخافوا عقابها، والله أعلم.

قوله: (والوجه أن يُقال: هي للنفي)، قال الإمام: «وعلى هذا القولِ وَقَعَ اختيارُ أبي مسلم، وهو الأصح. ويمكنُ تقديرُه بأن يُقال: كأنه تعالى يقول: لا أقسَمُ بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوب، فإنه أعظمُ وأجلُّ من أن يُقسَمَ عليه بهذه الأشياء^(٢)، والغرضُ تعظيمُ المقسمِ عليه. أو يُقال: لا أقسَمُ بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوب، فإنه أظهرُ وأجلى أن تحاولِ إثباته بمثلِ هذا القَسَم»، وهذان القولان أحسنُ من قولِ المصنّف.

قوله: (إنَّ ﴿لَا﴾ نفي لكلام وردَّ له). قال أبو البقاء: «﴿لَا﴾: رَدُّ لكلام مُقدِّرٍ، لأنهم قالوا: أنت مُفْتَرٍ على الله في قولك: بُعِثت، فقال: ﴿لَا﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿أقسَمُ﴾، وهذا كثيرٌ في الشعر؛ فإنَّ وَاو العطفِ تأتي في مبادئ القصائد كثيرًا، يُقدِّرُ هناك كلامٌ يُعطفُ عليه»^(٣).

(١) أي: قوله: ﴿يَحْسَبُ﴾ رَدُّ لقوله: ﴿لَا يَخَافُونَ﴾.

(٢) من قوله: «على إثبات» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) «التيبان» (٢: ١٢٥٣) للعكبري.

فإن قلت: قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] والآيات التي أنشدتها، المقسم عليه فيها منفي، فهلاً زعمت أن «لا» التي قبل القسم زيدت مؤطّئة للنفي بعده ومؤكّدة له، وقدّرت المقسم عليه المحذوف هاهنا منفيًا، كقولك: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، لا تُتركون سدى؟

قلت: لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات، لكان لهذا القول مساع، ولكنه لم يقصر، ألا ترى كيف لقي ﴿لَا أَقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [التين: ٤]، وكذلك ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ الشُّجُورِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]؟

وقال الإمام: «وفيه إشكال، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَةِ﴾، يقدح فيه»^(١).

قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، قال في تفسيره: «معناه: فوربك، و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في ﴿لَيْسَ لَكَ بِعَالَمٍ﴾ [الحديد: ٢٩] لتأكيد وجود^(٢) العلم. و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم.

فإن قلت: هلاً زعمت أنها زيدت لتظاهر ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ قلت: يابى ذلك استواء النفي والإثبات فيه، وذلك قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِرُونَ * وَمَا لَا بُصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٩-٤٠]^(٣)، وإليه الإشارة هاهنا بقوله: «لو قصر والأمر على النفي^(٤) دون الإثبات، لكان لهذا القول مساع». وقد ذكرنا نظراً صاحب «التقريب» فيه، حيث قال: «إنه تأكيد النفي في المنفي فقط» إلى آخره. وذكرنا كلام صاحب «الانتصاف» عليه، فليُنظر هناك^(٥).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٩٠).

(٢) في (ح) و(ف): «وجوب».

(٣) انظر: «الكشاف» (٤٨: ٥) بتصرف.

(٤) في (ح): «قصروا النفي على الأمر»، وليس بصواب.

(٥) انظر: «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (١: ٥٢٨)؛ قاله في تفسير الآية (٦٥) من سورة النساء.

وَقُرِي: «لَأُقْسِمُ»، على أَنَّ اللامَ للابتداء، وأُقْسِمُ خبرٌ مبتدأٌ محذوف، معناه: لأننا أُقسِم. قالوا: وَيَعُضُّدُهُ أَنَّهُ فِي الإِمَامِ بِغَيْرِ أَلْفٍ ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ بِالنَّفْسِ الْمُتَقِيَةِ الَّتِي تَلُومُ النَّفُوسَ فِيهِ، أَي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَلَى تَقْصِيرِهِنَّ فِي التَّقْوَى،

قوله: (وقري: «لَأُقْسِمُ»)، قَرَأَهَا قُنْبُلٌ، وَرَوَاهَا^(١) النَّقَاشُ عَنِ أَبِي رِبِيعَةَ عَنِ الْبَرِّيِّ، وَالباقونَ: بِالألفِ^(٢). قَالَ الإِمَامُ: «تَقْدِيرُهُ: إِنِّي لأُقْسِمُ^(٣) بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِشَرَفِهَا، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ لِخَسَّتِهَا»^(٤). وَقَالَ ابنُ جَنِّي: «وَهِيَ قِرَاءَةُ الحَسَنِ، وَرُوِيَ عَنْهُ بِغَيْرِ أَلْفٍ فِيهَا أَيْضاً. وَهَذِهِ اللامُ لِأَمِّ الإِبْتِدَاءِ، أَي: لِأَنَّ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَحُذِفَ المَبْتَدَأُ لِلعَلْمِ بِهِ»^(٥).
قَالَ الإِمَامُ: «وَطَعَنَ أَبُو عبيدَةَ فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ، وَقَالَ: لَوْ كَانَ المَرادُ هَذَا، لَقَالَ: لأُقْسِمَنَّ، لَا يُقَالُ: لأَفْعَلُ كَذَا، بَلْ لأَفْعَلَنَّ. وَرَوَى الوَاحِدِيُّ جَوازَهُ عَنِ سَيُوبَةَ»^(٦).

وقال أبو البقاء: «وَلَمْ تَصْحُبْهَا النونُ»^(٧) اعْتِماداً عَلَى المَعْنَى، وَلأنَّ خَبَرَ اللَّهِ صَدَقَ، فَجازَ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ غَيْرِ توكِيدٍ. وَقِيلَ: شُبِّهَتِ الجُمْلَةُ الفِعْلِيَّةُ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ^(٨)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَنَّاكَ إِنْهُمْ لَنْي سَكْرَتِهِمْ﴾ [الحجر: ٧٢]. أَوْ اللامُ لِأَمِّ توكِيدٍ لِأَنَّ قَسَمَ، دَخَلَتْ عَلَى الفِعْلِ المَضارعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٦٤]»^(٩).

قوله: (بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه)، الراغب: «اللومُ: عَدْلُ الإِنسانِ بِنَسبَتِهِ إِلَى ما

- (١) فِي (ط) وَ(ح): «وَرَوَى»، وَفِي (ف): «وَقَرَأَ». وَلَعَلَّ صوابه ما أثبتناه لثلاثي يلبس النص بقرأة أخرى.
- (٢) قَالَ الحَسَنُ فِي القِرَاءَةِ بِغَيْرِ أَلْفٍ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يَقْسَمِ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ». انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٣٥.
- (٣) فِي (ح) وَ(ف): «لَا أُقْسِمُ»، وَلَيْسَ بِصوابٍ.
- (٤) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٩٠) للرازي.
- (٥) «المحتسب» (٢: ٣٤٠) بتصرف.
- (٦) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٩٠)، وانظر: «الكتاب» (٣: ١٠٤-١٠٥)، و«البيضا» (٢٢: ٤٧٤) للواحدى.
- (٧) فِي (ح): «النور».
- (٨) فِي (ح): «القسمية».
- (٩) «التبيان» (٢: ١٢٥٣) بتصرف.

أو بالتي لا تَزَالُ تَلُومُ نَفْسَهَا وَإِنْ اجْتَهَدْتَ فِي الْإِحْسَانِ. وعن الحسن: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا لَانْهَاءَ نَفْسِهِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ يَمْضِي قُدُمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ. وقيل: هي التي تَتَلَوُّمُ يَوْمِنِذٍ عَلَى تَرْكِ الْإِزْدِيَادِ إِنْ كَانَتْ مُحْسِنَةً، وَعَلَى التَّفْرِيطِ إِنْ كَانَتْ مُسِيئَةً. وقيل: هي نَفْسُ آدَمَ، لَمْ تَزَلْ تَتَلَوُّمُ عَلَى فِعْلِهَا الَّذِي خَرَجَتْ بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ. وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿أَجْحَسِبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وَهُوَ: لَتُبْعَثُنَّ.

فيه لَوْمٌ (١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، فَقَدْ قِيلَ: هِيَ النَّفْسُ الَّتِي اكْتَسَبَتْ بَعْضَ الْفَضِيلَةِ، فَلَوْمْ صَاحِبِهَا إِذَا ارْتَكَبَ مَكْرُوهًا، فَهِيَ دُونَ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، وَقِيلَ: بَلْ هِيَ النَّفْسُ الَّتِي اطْمَأَنَّتْ فِي ذَاتِهَا، وَتَرَشَّحَتْ لِتَأْدِيبِ غَيْرِهَا؛ فَهِيَ فَوْقَ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ (٢).

قَوْلُهُ: (وَإِنَّ الْكَافِرَ يَمْضِي قُدُمًا)، النِّهَايَةُ: «وَمَضَى قُدُمًا، أَي: لَمْ يُعْرَجْ. وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ: نَظَرَ قُدُمًا أَمَامَهُ، أَي: لَمْ يُعْرَجْ وَلَمْ يَنْتَهِ. وَقَدْ تُسَكَّنُ الدَّالُّ، يُقَالُ: قَدَّمَ بِالْفَتْحِ يَقْدُمُ قُدُمًا: أَي: تَقَدَّمَ». وَعَنْ بَعْضِهِمْ: قُدُمًا: أَي: قُدُمًا، كَمَا يُقَالُ: مَضَى أُخْرًا؛ أَي: مُسْتَأْخِرًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَمْتَنَعُ وَيَقِفُ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ لِيَفْجَرَ أَمَامَهُ.

قَوْلُهُ: (عَلَى التَّفْرِيطِ إِنْ كَانَتْ مُسِيئَةً)، رَوَى السُّلَمِيُّ عَنْ سَهْلِ: «النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ: هِيَ النَّفْسُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ، وَهِيَ قَرِينَةُ الْحَرِصِ وَالْأَمَلِ. وَعَنْ أَبِي بَكْرِ الْوَرَّاقِ: النَّفْسُ كَافِرَةٌ فِي وَقْتٍ، مُنَافِقَةٌ فِي وَقْتٍ، مَرَائِيَّةٌ فِي وَقْتٍ (٣)، وَعَلَى الْأَحْوَالِ كُلِّهَا هِيَ كَافِرَةٌ، لِأَنَّهَا لَا تَأْلَفُ الْحَقَّ أَبَدًا، وَهِيَ مُنَافِقَةٌ لِأَنَّهَا لَا تَقْفِي بِالْوَعْدِ، وَهِيَ مُرَائِيَّةٌ لِأَنَّهَا لَا تَحِبُّ أَنْ تَعْمَلَ عَمَلًا، وَلَا تَخْطُو خَطْوَةً إِلَّا لِرُؤْيَةِ الْخَلْقِ (٤)؛ فَمَنْ كَانَ هَذِهِ صِفَاتِهِ، فَهِيَ حَقِيقَةٌ بِدَوَامِ الْمَلَامَةِ لَهَا» (٥).

(١) فِي (ط) وَ(ف): «عَيْبٌ».

(٢) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ»، ص ٧٥١.

(٣) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «كَافِرَةٌ فِي وَقْتٍ نِفَاقِهَا، وَفِي وَقْتٍ مُرَائِيَّتِهَا»، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ «تَفْسِيرِ السُّلَمِيِّ» نَفْسَهُ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ آخِرُ الْكَلَامِ مَعَ أَوَّلِهِ.

(٤) فِي «تَفْسِيرِ السُّلَمِيِّ»: «الْحَقُّ».

(٥) «حَقَائِقُ التَّفْسِيرِ» (٢: ٣٦١) لِلْسُّلَمِيِّ.

وقرأ قتادة: «أن لن تُجمَعَ عظامه» على البناء للمفعول، والمعنى: نَجْمَعُها بعد تَفَرَّقِها ورجوعها رمياً ورُفَاتاً مُخْتَلِطاً بالتراب، وبعدهما سَفَتْها الرياحُ وطَيَّرَها في أَبَاعِدِ الأرض. وقيل: إنَّ عَدِيَّ بنَ أبي ربيعةَ خَتَنَ الأَخْضَسَ بنَ شَرِيْق، وهما اللذان كان رسولُ الله ﷺ يقولُ فيهما: «اللهم اكْفِنِي جَارِي السُّوء»، قالَ لرسولِ الله ﷺ: يا محمدُ، حَدَّثَنِي عن يومِ القيامةِ متى يكونُ وكيفَ أمرُه؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ؛ فقال: لو عاينتُ ذلكَ اليومَ لم أصدقك يا محمدُ ولم أومنْ به، أو يَجْمَعُ اللهُ العظامَ؟ فنزلت.

﴿بَلَى﴾ أَوْجِبَتْ ما بعد النفي وهو الجمع، فكأنه قيل: ﴿بَلَى﴾ نَجْمَعُها، و﴿قَدِيرِينَ﴾ حالٌ مِنَ الضميرِ في ﴿يَجْمَعُ﴾، أي: نَجْمَعُ العظامَ قَادِرِينَ على تَأْلِيفِ جَمِيعِها وإعادتها إلى التركيبِ الأولِ إلى أن نُسَوِّيَ بِنانِها، أي: أَصَابِعَها التي هي أَطْرَافُها، وآخِرُ ما يَتَمُّ به خَلْقُها، أو على أن نُسَوِّيَ بِنانِها، ونَضَمَّ سُلَامِيانِها على صِغَرِها وأَطافِتها بَعْضُها إلى بعض، كما كانتُ أولاً مِن غيرِ نُقْصانٍ ولا تَفاوتٍ، فكيفَ بَكبارِ العِظامِ؟

قوله: ﴿بَلَى﴾: أَوْجِبَتْ ما بعد النفي، وهو الجمع، لأنَّ ﴿بَلَى﴾ وقعت موقعَ الفعل المحذوف.

قوله: ﴿وَقَدِيرِينَ﴾: حالٌ مِنَ الضميرِ في ﴿يَجْمَعُ﴾، وهي حالٌ مُقَرَّرَةٌ لما أوجِبَ بعد النفي: إِمَّا مُكَمَّلَةٌ له على سبيلِ الترقِي كما قال: (قَادِرِينَ على تَأْلِيفِ جَمِيعِها)، إلى قوله: «على أن نُسَوِّيَ بِنانِها»، أو وارِدَةٌ مُبالِغَةٌ كما قال: «فكيفَ بَكبارِ العِظامِ؟»، أو مُؤَبِّخَةٌ كما قال: «أي نَجْعَلُها مُستَوِيَةً كخُفِّ البَعيرِ وحافرِ الحِمارِ»، على أسلوبِ قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ ذَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، في جوابِ قوله: ﴿أَوِ ذَا مِنَّا وَكُنَّا نُزُأًا﴾ [الصافات: ١٦] الآية.

قوله: (سُلَامِيانِها)، النِّهاية: «السُّلامِي»^(١): هي الأُنْمَلَةُ، مِن أناملِ الأصابع. وقيل: واحِدُهُ وجمَعُهُ سِواء، ويَجْمَعُ على: سُلَامِياتٍ، وهي التي بين كلِّ مِفْصَلينِ مِن أصابعِ الإنسان.

(١) في الأصول الخطية: «السُّلامَة»، والسُّلامِي: جمعُ سُلَامِيَة.

وقيل: معناه: بلى نَجْمُهَا ونحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه، أي نجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار لا تفرق بينها، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال، والبسط والقبض، والتأني لما يريد من الحوائج. وقري: «قادرون»، أي: نحن قادرون. ﴿بَلْ يَرِيدُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾، فيجوز أن يكون مثله استفهاماً، وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر. أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب ﴿لَيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه.

قوله: ﴿بَلْ يَرِيدُ﴾، عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾. قيل: يجوز أن يكون عطفاً: إما على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بالهمزة، فلا يكون استفهاماً على سبيل التقرير، بل يكون إيجاباً. أو على «يَحْسَبُ» بدون الهمزة، فيكون مثله استفهاماً. وقلت: معنى قوله: «وأن يكون إيجاباً»، أي: لا يكون استفهاماً مثله، للإنكار المفيد للنفي؛ وهو إما أن يكون استفهاماً على سبيل التقرير فيكون موجباً، أو لا يكون استفهاماً، بل يكون جملة خبرية موجبة.

والمعنى على الأول: ليس الأمر كما ظن وحسب، بل ليس كما أراد واشتهى. وعلى الثاني: أحسب ذلك؟ بل يريد هذا. أي: يدع ذلك الحُشبان^(١) الباطل، بل ارتكب أمراً أعظم من ذلك. يعني: ليست إرادته في ذلك الحُشبان مجرد إنكار البعث، بل غرضه الاشتغال بالشهوات والانهماك في الخلاعة والفجور دائماً. وفيه آفة عالم بوقوع الحشر لكنه متغاب. وسنبين إن شاء الله تعالى أن هذا هو الوجه في الآية.

قوله: ﴿لَيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾: ليدوم على فجوره، وإفادة ﴿لَيَفْجُرَ﴾، وهو مستقبل، لمعنى الدوام والاستمرار: لاقتراجه مع الإنسان، وأنه للجنس يعني: من شأنه ذلك وجبلته يقتضي حُب الشهوات إلا من عصمه الله، لقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية؛ ولذلك كرر لفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ وصرح به.

(١) في (ف): «الحساب»، في الموضعين.

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: يُقدَّم الذنب ويؤخرُ التوبة، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على شرِّ أحواله وأسوأ أعماله. ﴿يَسْتَلْ﴾ سؤال مُتَعَنِّتٌ مُسْتَبْعِدٌ لقيام الساعة في قوله ﴿أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ونحوه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨].

[﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ﴾ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْمَغْرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [٧-١٥]

﴿بَرِقَ الْبَصْرُ﴾ تَحْيَرٌ فَزَعَاءٌ؛ وَأَصْلُهُ مِنْ بَرَقَ الرَّجُلُ إِذَا نَظَرَ إِلَى الْبَرَقِ فَدَهَشَ بَصْرُهُ. وَقُرئ: «بَرَقَ» مِنَ الْبَرِيقِ، أَي لَمَعَ مِنْ شِدَّةِ شُخُوصِهِ. وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ: «بَلَقَ» إِذَا انْفَتَحَ وَانْفَرَجَ. يُقَالُ: بَلَقَ الْبَابُ وَأَبْلَقْتُهُ وَبَلَقْتُهُ: فَتَحْتُهُ ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ وَذَهَبَ ضَوْؤُهُ، أَوْ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ. وَقُرئ: «وُخْسِفَ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ حَيْثُ يُطْلَعُهَا اللَّهُ مِنَ الْمَغْرَبِ.

قوله: (وقرئ: «بَرَقَ»، من البريق)، قرأ نافع: بفتح الراء، والباقون: بكسرِها^(١).
قوله: (برق الرجل: إذا نظَّر إلى البرق)، نظيره: قَمَرَ الرجل، إذا نظَّر إلى القمرِ فَدَهَشَ بَصْرُهُ وكذلك: ذَهَبَ وَيَقَرَّ، إِذَا نَظَرَ إِلَى الذَّهَبِ وَالْبَقَرِ.

الراغب: «الْبَرِيقُ»: لَمَعَانِ السَّحَابِ، وَيُقَالُ: بَرِقَ وَأَبْرَقَ، وَبَرَقَ: يُقَالُ فِي كُلِّ مَا يَلْمَعُ كَسَيْفِ بَارِقٍ، وَبَرِقَ: يُقَالُ فِي الْعَيْنِ إِذَا اضْطَرَبَتْ وَجَالَتْ مِنْ خَوْفٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ﴾، وَقُرئ: بَرَقَ، وَتُصَوَّرُ مِنْهُ تَارَةٌ: اخْتِلَافُ اللَّوْنِ فَقِيلَ: الْبُرْقَةُ، لِأَرْضٍ ذَاتِ أَحْجَارٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ. وَأُخْرَى: مَا يَظْهَرُ مِنْ تَجْوِيفِهِ، فَقِيلَ: بَرَقَ فَلَانٌ وَأَبْرَقَ، إِذَا تَهَدَّدَ^(٢).

(١) بالفتح بمعنى: شَخَّصَ، إِذَا فَتَحَ عَيْنَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ. وَبِالْكَسْرِ بِمَعْنَى: تَحْيَرٌ وَفَزَعٌ. انظر: «حجَّة القراءات»، ص ٧٣٦.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ١١٨، ١١٩.

وقيل: وجمعا في ذهاب الضوء، وقيل: يُجمعانِ أسودينِ مُكَوَّرينِ كأنهما ثورانِ عقيرانِ في النار. وقيل: يُجمعانِ ثم يُقذفانِ في البحر، فيكونُ نارَ الله الكُبرى ﴿الْمُفْرُ﴾ بالفتح: المَصْدَر؛ وبالكسر: المكان. ويجوزُ أن يكونَ مصدراً كالمَرْجِع، وقُرى بها.....

قوله: (كأنتها ثورانِ عقيرانِ)، النهاية: «وفي حديثِ كَعْبٍ: أَنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ ثورانِ^(١) عقيرانِ في النار. قيل: لَمَّا وَصَفَهَا اللهُ تَعَالَى بِالسَّبَاحَةِ في قولهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣، يس: ٤٠]، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَجْعَلُهَا في النارِ يُعَذِّبُ بِهَا أَهْلَهَا، بحيث لا يَبْرَحُهَا، صاراً^(٢) كأنتها زَمَانِ^(٣) عقيران». وقيل: إِنَّمَا شَبَّهَا بِالثَّورِ لِلذَّل، ثُمَّ إِذَا عَقَرَ ازداد الذَّل.

قوله: (فيكونُ نارَ الله الكبرى)، أي: البَحْر، قَالَ في قوله: ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ [الطور: ٦]: «رُوي أَنَّ اللهُ تَعَالَى يَجْعَلُ في يومِ القِيَامَةِ البَحَارَ كُلَّهَا ناراً^(٤) تُسْجَرُ بِهَا نارُ جَهَنَّمَ^(٥)».

قوله: (﴿الْمُفْرُ﴾ بالفتح المصدر، وبالكسر المكان)، قَالَ ابنُ جَنِّي: «بالكسرِ قراءةُ ابنِ عباسٍ وعكرمةَ والحسن^(٦)». وَقَالَ الزَّجَّاجُ: «المَفْعَل، مِن مِثْلِ جَلَسْتُ بفتح العين: المصدر؛ يُقَالُ: جَلَسْتُ مَجْلَساً بفتح اللام، بمعنى جَلوساً. فإذا قلتَ: جَلَسْتُ مَجْلَساً، فأنتَ تريدُ به المكان^(٧)». فَمَنْ فَتَحَ فهو بمعنى: أينَ الفِرَار؟ وَمَنْ كَسَرَ فعلى: أينَ مكانَ الفِرَار.

(١) في النهاية: ثوران، وليس بصواب؛ جاء في «مُسند الطيالسي» (٢٢١٧)، عن أنسٍ مرفوعاً إلى النبي ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ ثورانِ عقيرانِ في النار». وانظر: «مسند أبي يعلى» (٤١١٦)، و«شرح مشكل الآثار» (١٨٣، ١٨٤) للطحاري.

(٢) سقط لفظ «صاراً» من الأصول الخطية.

(٣) الزَّمن: وصفٌ مِنَ الزَّمانَةِ، بمعنى الضعف والفتور. وعقيران: معقوران، أي: مذبحان.

(٤) انظر: (١٥: ٤٣)؛ في تفسير الآية (٦) من سورة الطور.

(٥) «المحتسب» (٢: ٣٤٠)، والقراءة بالكسر: المُفْر، أي: موضع الفِرار. وثَمَّة: المُفْر، قراءة الحسن الثانية والزهرى، بمعنى: الجيّد الفِرار، ونظيره قول امرئ القيس في المعلقة: مَكْرٌ مِفْر. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٩٠) لأبي حيان.

(٦) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٢).

(٧) «التبيان» (٢: ١٢٥٤).

﴿كَلَّا﴾ رَدَعٌ عَنْ طَلَبِ الْمَفَرِّ ﴿لَا وَرَزَّ﴾ لَا مَلْجَأَ، وَكُلُّ مَا التَّجَأَتْ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَوْ غَيْرِهِ وَتَخَلَّصَتْ بِهِ فَهُوَ وَرَزُّكَ ﴿إِلَىٰ رَيْكَ﴾ خَاصَّةً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مُسْتَقَرُّ الْعِبَادِ، أَيِ اسْتِقْرَارِهِمْ. يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَقَرُّوا إِلَىٰ غَيْرِهِ وَيَنْصَبُوا إِلَيْهِ، أَوْ إِلَىٰ حُكْمِهِ تَرْجِعُ أُمُورَ الْعِبَادِ، لَا يَحْكُمُ فِيهَا غَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، أَوْ إِلَىٰ رَيْكَ مُسْتَقَرُّهُمْ، أَيِ: مَوْضِعُ قَرَارِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، أَيِ: مَقْوُصٌ ذَلِكَ إِلَىٰ مَشِيئَتِهِ، مَنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ النَّارَ ﴿بِمَا قَدَّمْ﴾ مِنْ عَمَلٍ عَمَلَهُ ﴿و﴾ بِمَا ﴿أَخَّرَ﴾ مِنْهُ لَمْ يَعْمَلْهُ، أَوْ بِمَا قَدَّمَ مِنْ مَالِهِ فَتَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ بِمَا أَخَّرَهُ فَخَلَّفَهُ. أَوْ بِمَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبِمَا أَخَّرَ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ فَعَمَلَهَا بَعْدَهُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَأَخْرَهُ، وَنَحْوَهُ: ﴿فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ﴾. ﴿بَصِيرَةٌ﴾ حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ، وَصِفَتْ بِالْبَصَارَةِ عَلَى الْمَجَازِ، كَمَا وَصِفَتِ الْآيَاتُ بِالْإِبْصَارِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: ١٣]، أَوْ عَيْنٌ بَصِيرَةٌ.....

قوله: (وُصِفَتْ بِالْبَصَارَةِ عَلَى الْمَجَازِ)، هَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، أَوْ اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، كَمَا فِي الْآيَةِ الْمُسْتَشْهَدِ بِهَا. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «﴿الْإِنْسَانُ﴾: مُبْتَدَأٌ، وَ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خَبْرُهُ، وَ﴿عَلَى﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْخَبْرِ. وَالتَّائِيثُ لِلْمِبَالِغَةِ، أَيِ: بَصِيرٌ عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ عَلَى الْمَعْنَى، أَيِ: حُجَّةٌ بَصِيرَةٌ عَلَى نَفْسِهِ، وَنُسِبَ الْإِبْصَارُ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّهَا دَالَةٌ. وَقِيلَ: بَصِيرَةٌ هُنَا مَصْدَرٌ، أَيِ: ذُو بَصِيرَةٍ، وَلَا يَصِحُّ إِلَّا عَلَى التَّبْيِينِ»^(١).

قوله: (أَوْ عَيْنٌ بَصِيرَةٌ)، وَفِي الْأَوَّلِ: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خَبْرٌ عَنِ ﴿الْإِنْسَانِ﴾، وَعَلَى الثَّانِي: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾، وَالْجُمْلَةُ خَبْرٌ، كَقَوْلِهِ: زَيْدٌ عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ. وَالبَصِيرَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ، أَوْ جَوَارِحُهُ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ «عَيْنٌ بَصِيرَةٌ» خَبْرًا، وَيَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ: «وَالْمَعْنَى» بِالْوَجْهِينِ. وَفِي قَوْلِهِ: «عَيْنٌ بَصِيرَةٌ» تَحْرِيدٌ؛ جُرْدٌ مِنَ الْإِنْسَانِ عَيْنٌ، أَيِ: جَاسُوسٌ ذُو بَصِيرَةٍ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَفِيهِ مَا يُجْزَى عَنِ الْإِنْبَاءِ». وَالضَّمِيرُ فِي «عَلَيْهَا» لِلنَّفْسِ وَإِنْ لَمْ يُجْرَ لَهَا ذِكْرٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «بِمَا عَمَلْتُ».

(١) «التبیین فی إعراب القرآن» (٢: ١٢٥٤) للعكبري.

والمعنى أنه يُنبأ بأعماله وإن لم يُنبأ، ففيه ما يُجزىء عن الإنباء؛ لأنه شاهدٌ عليها بما عمِلت؛ لأن جوارحه تنطقُ بذلك ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرُهُ﴾ ولو جاء بكلِّ معذرةٍ يعتذرُ بها عن نفسه ويُجادلُ عنها. وعن الضَّحَّاك: ولو أرخى سُتورَه، وقال: المعاذيرُ: السُّتور، واحداً معذار، فإنَّ صَحَّ فلأنه يمنعُ رؤيةَ المحتجِب، كما تمنعُ المعذرةُ عقوبةَ المذنب.

فإن قلت: أليسَ قياسُ المعذرةِ أن تُجمعَ معاذِرَ لا معاذيرَ؟ قلت: المعاذيرُ ليسَ بجمعِ معذرة، إنما هو اسمُ جمعٍ لها، ونحوه: المناكيرُ في المنكر.

[﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ * تَطُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ١٦-٢٥]

والضميرُ في ﴿به﴾ للقرآن. وكان رسولُ الله ﷺ إذا لقنَ الوحيَ نازعَ جبريلَ القراءة، ولم يصبرَ إلى أن يُتمَّها، مسارعةً إلى الحفظِ وخوفاً من أن يتفلَّت منه،

قوله: (فإنَّ صَحَّ، فلأنه يمنعُ رؤيةَ المحتجِب)، قال محيي السنَّة: «هو قولُ الضَّحَّاكِ والسُّديِّ. وأهلُ اليمنِ يُسمَوْنَ السُّتَرَ معذاراً، أي: إن أسبلَ السُّتَرَ وأغلقَ البابَ ليُخفيَ ما يعمل، فإنَّ نفسه شاهدةٌ عليه»^(١).

قوله: (المعاذيرُ ليسَ بجمعِ معذرة)، قال صاحبُ «الفرائد»: «يمكنُ أن يقالَ: الأصلُ فيه معاذِر، فَحصلتِ الياءُ بإشباعِ الكسر، وكذا المناكير».

قوله: (إذا لقنَ الوحيَ نازعَ جبريلَ)، رويَنا عن البخاريِّ ومسلمٍ والتِّرْمِذِيِّ والنَّسائي، عن ابنِ عباسٍ، في الآية، قال: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعالِجُ من التنزيلِ شِدَّةً، وكانَ مما يُحرِّكُ به شفتيه، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ». قال: جُمعَ في صدرك،

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٢٨٣)؛ قاله في تفسير الآية (١٥) من سورة المدثر.

فَأَمَرَ بِأَنْ يَسْتَنْصِتَ لَهُ مُلْقِيًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ وَسَمِعِهِ، حَتَّى يَقْضِيَ إِلَيْهِ وَحْيَهُ، ثُمَّ يُقْفِيهِ بِالدراسةِ إِلَى أَنْ يَرَسَّخَ فِيهِ. والمعنى: لا تَحْرُكْ لِسَانَكَ بِقِرَاءَةِ الْوَحْيِ مَا دَامَ جَبْرِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقْرَأُ. ﴿لَتَعَجَّلَ بِهِ﴾ لتأخذه على عَجَلَةٍ، وَلَيْثًا يَتَقَلَّتْ مِنْكَ. ثُمَّ عَلَّلَ النَّهْيَ عَنِ الْعَجَلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ فِي صَدْرِكَ، وَإِثْبَاتَ قِرَاءَتِهِ فِي لِسَانِكَ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ جَعَلَ قِرَاءَةَ جَبْرِيلَ قِرَاءَتَهُ؛ وَالْقُرْآنُ: الْقِرَاءَةُ، ﴿فَالْتَبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فَكُنْ مُقْفِيًا لَهُ فِيهِ وَلَا تُرَاسِلْهُ،

ثُمَّ تَقْرُؤُهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾. قَالَ: فَاسْتَمِعْ وَأَنْصِتْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا أَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ قَرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَهُ^(١). وَفِي رِوَايَةٍ: كَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ: (وَالْقُرْآنُ: الْقِرَاءَةُ)، الرَّاعِبُ: «الْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ مُصَدَّرٌ كَرُجْحَانٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»^(٢)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَثْبَتْنَاهُ فِي صَدْرِكَ فَاعْمَلْ بِهِ. وَقَدْ خُصَّ بِالْكِتَابِ الْمُنزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَصَارَ لَهُ كَالْعَلَمِ. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكِتَابِ قُرْآنًا مِنْ بَيْنِ كُتُبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِكَوْنِهِ جَامِعًا لَشَمْرَةِ كُتُبِهِ، بَلْ لَجَمْعِهِ ثَمَرَةٌ جَمِيعِ الْعُلُومِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يُوسُف: ١١]، وَقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]^(٣).

قَوْلُهُ: (وَلَا تُرَاسِلْهُ)، أَي: لَا تَكُنْ رَسِيلاً لَهُ. الْأَسَاسُ: «هُوَ رَسِيْلُهُ فِي الْغِنَاءِ، أَي: يُبَارِيهِ فِي إِرْسَالِهِ. قِيلَ: رَسِيْلُ الرَّجُلِ: الَّذِي يُرَاسِلُهُ فِي نِضَالٍ أَوْ غَيْرِهِ».

(١) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨)، والترمذي (٣٣٢٩)، والنسائي (٩٣٥).

(٢) الآيتان (١٧-١٨) من سورة القيامة، وبعدهما في (ف): «قال: فاستمع وأنصت، ثم إن علينا أن نقرأه»، وليس في «مفردات القرآن».

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٦٦٨، ٦٦٩.

وَطَأَمِنَ نَفْسَكَ أَنَّهُ لَا يَبْقَىٰ غَيْرَ مَحْفُوظٍ، فَنَحْنُ فِي ضَمَانٍ تَحْفِيزِهِ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ، كَأَنَّهُ كَانَ يَعْجَلُ فِي الْحِفْظِ وَالسُّؤَالِ عَنِ الْمَعْنَىٰ جَمِيعاً، كَمَا تَرَىٰ بَعْضَ الْحَرَاصِ عَلَى الْعِلْمِ؛ وَنَحْوَهُ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، ﴿كَلَّا﴾ رَدَعٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ عَادَةِ الْعَجَلَةِ وَإِنْكَارٌ لَهَا عَلَيْهِ، وَحَثٌّ عَلَى الْأَنَاءِ وَالتَّوَدُّةِ، وَقَدْ بَالَعٌ فِي ذَلِكَ بِإِتْبَاعِهِ قَوْلَهُ: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَا بَنِي آدَمَ، لِأَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ عَجَلٍ وَطُبِعْتُمْ عَلَيْهِ تَعْجَلُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ نَمِّ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، وَقُرِّئَ بِالْيَاءِ وَهُوَ أَبْلَغُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦] إِلَى آخِرِهِ، بِذِكْرِ الْقِيَامَةِ؟

قُلْتُ: اتَّصَلَهُ بِهِ مِنْ جِهَةٍ هَذَا لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ إِلَى التَّوْبِيخِ بِحُبِّ الْعَاجِلَةِ، وَتَرْكِ الْإِهْتِمَامِ بِالْآخِرَةِ. الْوَجْهُ: عِبَارَةٌ عَنِ الْجُمْلَةِ، وَالنَّاصِرَةُ: مِنْ نَصْرَةِ النِّعِيمِ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا خَاصَّةً لَا تَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا مَعْنَى تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ،

قَوْلُهُ: (وَطَأَمِنَ نَفْسَكَ)، الْجَوْهَرِيُّ: «طَأَمَنْتُ مِنْهُ: سَكَنْتُ».

قَوْلُهُ: (وَقُرِّئَ بِالْيَاءِ)، نَافِعٌ وَالْكَوْفِيُّونَ: تُحِبُّونَ وَتَذَرُونَ، فِيهِمَا بِالتَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَالْبَاقُونَ بِالْيَاءِ. وَكَوْنُهُ أَبْلَغُ، لِلتَّلَاقِ بَعْدَ تَعْمِيمِ الْخِطَابِ؛ قَالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، ثُمَّ عَمَّ وَقَالَ: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، وَعَلَى الْغَيْبَةِ: يُغْنِي مِنْ شَأْنِ بَنِي آدَمَ الْعَجَلَةَ.

قَوْلُهُ: (اتَّصَلَهُ بِهِ مِنْ جِهَةٍ هَذَا لِلتَّخْلِصِ^(١) مِنْهُ، إِلَى التَّوْبِيخِ بِحُبِّ الْعَاجِلَةِ وَتَرْكِ الْإِهْتِمَامِ بِالْآخِرَةِ)، فَإِنْ قُلْتَ: جَوَابُهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِّلسُّؤَالِ: سَأَلَ عَنِ كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ بِذِكْرِ الْقِيَامَةِ، وَأَجَابَ عَنِ سَبَبِ اتِّصَالِهَا حَيْثُ قَالَ: اتَّصَلَهُ بِهِ مِنْ جِهَةٍ هَذَا لِلتَّخْلِصِ^(٢) مِنْهُ.

(١) فِي (ح) وَ(ف): «التَّخْلِصُ»، وَسَقَطَ مِنْ (ط).

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «التَّخْلِصُ».

قلت: الجواب من بليغ الكلام وفصيحه، لأنه مُنطبق على الجواب مع فوائد أخرى، وهو على أسلوب سؤال الكفرة لؤمني قوم صالح عليه السلام: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَرَّسَلًا مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. أي: إرساله أمر معلوم مكشوف لا كلام فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به. يعني: اتصاله به أمر ظاهر، إنما السؤال عن اتصال هذا التوبيخ، وهو ﴿كَلَّابٌ مُّجِبُونَ الْعَاجِلَةَ﴾، بحديث يوم القيامة.

وخلاصة الجواب، أن اتصال الثاني بالأول من جهة أن يتخلص منه إلى الكلام الثالث. والتخلص هو الانتقال من نوع كلام إلى آخر برابطة مناسبة لهما، ولو لم تكن الرابطة مشتملة على معنى الكلامين لم تصلح للربط. والذي يشتمل عليه الكلام الأول والثاني والثالث من المعنى، هو الاهتمام بعاجل الأمر دون الآجل منه، وهذا المعنى في الكلام الثالث ظاهر.

أما في الأول^(١)، فكما سبق في تفسير قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾، على أن يكون إضراباً لما سبق إلى موجب؛ لأن من اشتغل بِلذات هذا الأدنى، لا يريد الآجل ولا يؤثره عليها^(٢)، كأنه قيل: انظر إلى هؤلاء وعظيم ما ارتكبهوه، حيث آثروا الحياة الدنيا على نعيم العقبى، واعتبر من حالهم، ولا تقف^(٣) آثارهم، بأن تهتم بعاجل الحال، وتستهجل في أخذ القرآن، وتنازع جبريل في القراءة خوفاً من قوائمه، ولا تنظر إلى آجلها، لأننا صمنا أن نحفظه عليك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وتكلفنا جمعه وقرآته، ثم عم الخطاب بقوله: ﴿كَلَّابٌ مُّجِبُونَ الْعَاجِلَةَ﴾، أي: بل أنتم يا بني آدم، لأنكم خلقت من عجل تعجلون في كل شيء، ومن ثم مجبون العاجلة وتدرون الآخرة.

(١) في (ف): «الأول والثاني والثالث».

(٢) الضمير يعود على «الذات».

(٣) في (ح): «ولا تقف».

وأما كيفية التخلص، فهو آتة عز وجل، لما ساق حديث القيامة، وكان حديثاً متضمناً للمعنى المذكور، عن بجنايه الأقدس^(١) حديث آخر لنبينا صلوات الله عليه، وهو عادته من العجلة، فأراد أن يزدعه ويُنكر على وجه لا يوحشه ولا ينفره، قال: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، وإليه الإشارة بقوله: ﴿كَلَّا﴾ رَدُّعٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَادَةِ^(٢) الْعَجَلَةِ، وإنكار لها عليه. ولا يبعد ذلك، لأن تنزيل الآيات مؤزراً على الأوقات، لِقَمْعِ صِفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ عَنْهَا حَالاً غِيبٌ حَالٍ، تأديبٌ مِنَ اللَّهِ لِحَبِيبِهِ، رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ لَهُ وَعَامَّةٌ لِأُمَّتِهِ، لِيَكُونَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؛ فَوَسَطَ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ حَدِيثَ عَجَلَتِهِ، وَقَلَّةَ أَنَاتِهِ عِنْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، لِيَكُونَ كَالْتَهْمِيدِ^(٣) لِهَذَا الرَّدُّعِ الْفُطَيْعِ وَالْإِنْكَارِ الْهَائِلِ؛ اللَّهُ ذَرُّ الْمَصْنُفِ وَلَطِيفُ عِبَارَاتِهِ وَدَقِيقُ إِشَارَاتِهِ!

وقريب مما ذكرنا قول الإمام: «إِنَّهُ تَعَالَى تَقَلَّ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ السَّعَادَةَ الْعَاجِلَةَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَهْدِي الْإِنْسَانَ لِفَتْحٍ آمَانَةٍ﴾، وَيَبَيِّنُ أَنَّ التَّعَجُّلَ مَذْمُومٌ مُطْلَقاً، حَتَّى التَّعَجُّلُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، وَقَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾»^(٤).

أقول قولاً إن أصاب فمن لطف الله تعالى وفيض كرمه، وإلا فأنا أستغفر الله من ذلك: إن قوله: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، متصل بقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾، أي: يقال للإنسان عند إلقاء معاذيره: كَلَّا، إن أعذارك غير مسموعة، لأنك فجرت وفسقت، وظننت أنك تدوم على فجورك، وأن لا حشر ولا عقاب، وذلك من حبك العاجلة والإعراض عن الآخرة، وكان من عادته صلوات الله عليه، إذا لقن الوحي، أن ينازع جبريل القراءة ويتعجل فيها، وقد اتفق عند التلقين بالآيات السابقة، ما جرت به عادته من العجلة، فلما وصل إلى قوله: ﴿أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام، بتأديبه في أخذ القراءة، وألقى إليه تلك

(١) في (ح) و(ف): «عن الجناب الأقدس».

(٢) في (ح) و(ف): «عادته».

(٣) في (ف): «كالتهديد».

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٩٦، ١٩٧)؛ قاله في تفسير الآية (١٦) من سورة القيامة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، ﴿إِلَىٰ اللَّهِ نَصِيرٌ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، ﴿وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، كيف دَلَّ فيها التقديم على معنى الاختصاص؟! ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يُحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في تحشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حملُه على معنى يصحُّ معه الاختصاص،

الكلمات، ثم عاد إلى إتمام ما بدأ به بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾. مثاله الشيخ إذا لقن درساً تلميذه وألقى فصلاً، وراه (١) في أثناء ذلك يستعجل ويضطرب، فيقول له: لا تعجل، فإني إذا فرغت إن كان لك إشكال أزيله، أو تخاف فوتاً فإني أكرر لك حتى أحفظك، ثم يأخذ الشيخ في كلامه ويتمه. وقراءة «يحبون» بالياء، صريح في أن الكلام مع الإنسان، ولا يتعدى إلى غيره (٢).

وقال القاضي: «قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ اعتراض، بما يؤكد التوبيخ على حُبِّ العاجلة، لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيها (٣) هو أهمُّ الأمور وأصل الدين، فكيف بها في غيره؟ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي: بيان ما أشكل عليك من معانيه، دليل على جواز تأخير البيان من وقت الخطاب» (٤).

قوله: (محال). خبر لقوله: «اختصاصه بنظرهم إليه»، وقوله: «لو كان منظوراً إليه» جملة معترضة، وقوله: «فوجب حملُه» جزاء شرط محذوف، يعني أنا لو فرضنا أنه تعالى منظور إليه مع أن العقل بأباه، فإن اللفظ أيضاً لا يساعد عليه. يعني: دَلَّ تقديم قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ على

(١) في (ط): «يرى»، ولعل صوابه ما أثبتناه.

(٢) من قوله: «أقول قولاً لأن أصاب فمن لطف الله» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٣) في (ف): «فيها».

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٢٢) للبيضاوي.

قوله: ﴿نَاطِرَةٌ﴾ على الاختصاص، ولا بُدَّ مِنْ حَمَلِهِ عَلَى مَعْنَى يَصِحُّ مَعَهُ الْاِخْتِصَاصُ، فَإِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَهِيَ النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ، لَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمَنْظُورَ إِلَيْهِ حَيْثُذُ أَشْيَاءٌ لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْمَجَازِ، وَهُوَ التَّوَقُّعُ وَالرَّجَاءُ وَهُوَ صَحِيحٌ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ النِّعْمَةَ وَالْكَرَامَةَ حَيْثُذُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَأَجَابَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: «إِنَّمَا حُصِّصَ بِهِ^(١) مَعَ أَنَّهُمْ نَازِرُونَ إِلَى أَشْيَاءٍ، لِأَنَّ نَظَرَهُمْ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ يُبَيِّنُ النَّظْرَ، فَذَلِكَ النَّظْرُ يَخْتَصُّ بِهِ».

وَقَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»^(٢): «اسْتِدْلَالُهُ ضَعِيفٌ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: أَنْ رُؤْيَتِكَ نِعْمَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى النِّعْمَةِ مِنْكَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْاِخْتِصَاصِ اللَّازِمِ مِنَ التَّقْدِيمِ، أَنْ لَا يَنْظُرُوا يَوْمَئِذٍ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، بَلْ يَلْزَمُ أَنْ لَا يَنْظُرُوا يَوْمَئِذٍ إِذَا رَأَوْا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِهِ، وَلِأَنَّ التَّوَقُّعَ الَّذِي ذُكِرَ لَا يَخْتَصُّ^(٣) بِذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ الْوَعْدِ^(٤) وَالْجِزَاءِ الْحَسَنِ، فَلَا يَلِيقُ مَا ذَكَرَ. وَكَيْفَ وَقَدْ نُقِلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ»^(٥).

وَقُلْتُ: الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ صَهْبٍ. وَكَيْفَ يُسْتَبَعَدُ هَذَا، وَالْعَارِفُونَ^(٦) فِي الدُّنْيَا رُبَّمَا اسْتَغْرَقُوا فِي بَحَارِ الْحَبِّ، بِحَيْثُ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى الْكُونَ؟ وَذَلِكَ فِي مَقَامِ^(٧) الْعَرَقِ،

(١) فِي (ف): «حَصَلَ» بَدَلَ «حُصِّصَ بِهِ».

(٢) فِي (ح): «التَّقْرِيبِ».

(٣) فِي (ط): «يَخْتَصُّ».

(٤) فِي (ف): «الْوَعْدِ».

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٨١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥٥٢).

(٦) فِي (ح): «وَالْعَارِفُونَ».

(٧) فِي (ف): «مَكَانِ».

وهو أنسداد مسالك الالتفات من القلب، باستيلاء أنوار الكشف عليه قد شغفها حُبًا، قال:

فلما استبان الصبح أدرج ضوءه
بإسفاره أنوار ضوء الكواكب
تجرّعهم كأساً لو ابتلي اللظى
بتجربيعه، طارت كأسرع ذاهب

أنشدَهما صاحب «الرسالة»^(١).

وقال الإمام: «لا يمكن حمل النظر على الانتظار، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع حاصله في الدنيا، ولا بُد أن يحصل في الآخرة شيءٌ أزيد منه في معرض الترغيب في الآخرة، وليس ذلك إلا النظر إلى وجهه الكريم»^(٢).

وقلت: استدلاله بالتقديم ضعيف، إذ ليس كل تقديم مفيداً للاختصاص، بل يكون لمجرد الاهتمام، مع أن الحديث الذي روينا مؤذن به، وهو قوله: «فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»، وحديث جابر «فنظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم»، رواه ابن ماجه^(٣)، أو لرعاية الفواصل، والفاصلة: ناضرة، باسرة، فاقرة، مع أن النظم لا يساعده إلا على الرؤية. قال أبو البقاء: ﴿وجوه﴾: مبتدأ، و﴿ناضرة﴾ خبره. وجاز الابتداء بالكرة لحصول الفائدة، و﴿يَوْمِز﴾ ظرفٌ للخبر. ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً، أي: ثم وجوه، و﴿ناضرة﴾ صفة^(٤). يعني: كيف يلد العيش في الدنيا، وثم ما ذكر.

وتحريه: أنه تعالى لما ذكر رذعهم بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾، عقب ذلك بيان حُسن عاقبة حُب الآخرة، وسوء مغبّة حُب العاجلة. يعني: كيف يذر العاقل مثل تلك

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» للقشيري، ص ٧٦. ولم أهد إلى قائلها.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٢٠٢، ٢٠٣)؛ قاله في تفسير الآية (٢٣) من سورة القيامة.

(٣) في السنن (١٨٤)، ومن قوله «وحديث جابر» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح)، (ف).

(٤) «التيان» (٢: ١٢٥٤).

والذي يَصْحُ معه أن يكونَ من قولِ الناس: أنا إلى فلانٍ ناظرٌ ما يصنعُ بي، تريدُ معنى التوقعِ والرَّجاءِ، ومنه قولُ القائل:

وإذا نظرتُ إليكِ مِنْ مَلِكٍ
والبحرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نَعَمًا

المسرة التي ليس دونها شيءٌ، بدلاً من هذه اللذة الخسيسة الدنيئة؟ أم كيف يُنْصَرُّ وَجْهَهُ بهذا السرور، ووراء ذلك البُسر؟ وأما الانتظارُ الذي ذَكَرَهُ، فهو معدودٌ مِنْ جُمْلَةِ قولِهِم: الانتظارُ موتٌ أحمَر.

ومما يَنْصَرُّ مذهبُ أهلِ السِّتَةِ تفسيرُ أعلمِ البرية، على ما روينا عن الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ والترمذي، عن ابنِ عمرَ رضي اللهُ عنه، أن رسولَ اللهِ ﷺ، قال: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ، لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جَنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَتَعْيِمِهِ وَخَدْمِهِ وَسُرُورِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿رُجُوعٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾»^(١).

وروي أنه سُئِلَ مالكٌ عن مَنْ قال: إلى ثوابِ رَبِّهَا ناظرة؟ فقال: كَذَبَ^(٢)، لو كانَ هذا صحيحاً لما أعاظَ الكفارَ بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وروى السُّلَمِيُّ عن أبي سليمانَ الداراني: «لو لم يكنْ لأهلِ المعرفةِ^(٣) سُرورٌ، إلا قوله تعالى: ﴿رُجُوعٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، لاكتفوا به. وأيُّ سُرورٍ أتمُّ مِنْ وصولِ المحبِّ إلى حَبِيبِهِ، والعارفِ إلى معروفِهِ؟»^(٤).

قوله: (وإذا نظرتُ إليكِ) البيت^(٥)، «مِنْ» - في قوله: «مِنْ مَلِكٍ» -: تجریدیة. قوله: «والبحرُ دُونَكَ»: مُعْتَرِضَةٌ، يَحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أحدهما: البحرُ بيني وبينك، وثانيهما: أن البحرَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥٣١٧)، والترمذي (٢٥٥٣).

(٢) انظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (٥٦٦٣ - ١١ / ٣٥٨٤ - ٣٥٨٥) للإمام الطيبي.

(٣) في (ط): «المغفرة».

(٤) «حقائق التفسير» (٢: ٣٦٢) للسُّلَمِيِّ.

(٥) ينسب إلى جميل بن معمر، ولم أقف عليه في «ديوانه».

وَسَمِعْتُ سَرَوِيَّةً مُسْتَجِدِيَّةً بِمَكَّةَ وَقَتَ الظَّهِيرِ حِينَ يُغْلِقُ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ، وَيَأْوُونَ إِلَى مَقَائِلِهِمْ، تَقُولُ: عَيْنِي تُؤَيِّظِرُهُ إِلَى اللَّهِ وَالْيَكْمِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ النُّعْمَةَ وَالْكَرَامَةَ إِلَّا مِنْ رَبِّهِمْ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَخْشَوْنَ وَلَا يَرْجُونَ إِلَّا إِيَّاهُ. وَالْبَاسِرُ: الشَّدِيدُ الْعُبُوسُ، وَالْبَاسِلُ: أَشَدُّ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ غَلَبَ فِي الشُّجَاعِ إِذَا اشْتَدَّ كَلُوحُهُ. ﴿تَنْظُرُ﴾ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فِعْلًا هُوَ فِي شِدَّتِهِ وَقَطَاعَتِهِ ﴿فَاقِرَةٌ﴾ دَاهِيَةٌ تَقْصُمُ فَقَارَ الظَّهْرَ، كَمَا تَوَقَّعَتِ الْوَجُوهَ النَّاصِرَةَ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا كُلَّ خَيْرٍ.

[﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَ﴾ * وَقِيلَ مَنْ رَاقِيَ﴾ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ * وَاللَّقَمَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ * إِلَى رَبِّكَ

يَوْمَئِذٍ السَّاقُ﴾ ٢٦-٣٠]

أَقْلُ مِنْكَ فِي الْجُودِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَصْلُحُ لِلْإِسْتِشْهَادِ، وَهَذَا أَرْجَحُ، قَالَ السَّجَاوَنْدِيُّ: «وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي الشَّعْرِ، لِأَنَّ النَّظَرَ بِمَعْنَى التَّأَمُّلِ، لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ: زِدْتَنِي نِعَمًا».

وَقَالَ الْقَاضِي: «النَّظَرُ فِي الْبَيْتِ بِمَعْنَى السُّؤَالِ، فَإِنَّ الْإِنْتِظَارَ لَا يَسْتَوْجِبُ الْعَطَاءَ، وَلِأَنَّ النَّظَرَ بِمَعْنَى الْإِنْتِظَارِ لَا يُعْدَى بِ «إِلَى»، عَلَى أَنَّ الْإِنْتِظَارَ لَا يُسْنَدُ إِلَى الْوَجْهِ»^(١).

قَوْلُهُ: (سَمِعْتُ سَرَوِيَّةً)^(٢)، النِّهَايَةَ: «السَّرْوُ مُحَلَّةٌ فِي جَمِيرٍ». مُسْتَجِدِيَّةٌ: مُسْتَعْتَبَةٌ، سَائِلَةٌ.

قَوْلُهُ: (كَمَا تَوَقَّعَتِ الْوَجُوهَ النَّاصِرَةَ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا كُلَّ خَيْرٍ)، يُرِيدُ: دَلَّ مَعْنَى التَّقَابُلِ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ، يَعْنِي: نَاطِرَةٌ وَتَنْظُنْ، عَلَى مَعْنَى التَّوَقُّعِ، وَحُجْلُ النَّظَرِ عَلَيْهِ. وَقَلْتُ: الظَّنُّ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْيَقِينِ، لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يَتَوَقَّعُ الشَّرَّ حِينَئِذٍ، بَلْ يَتَيَقَّنُهُ عَيْنَ الْيَقِينِ، وَلِأَنَّ الْفَاقِرَةَ هِيَ الدَّاهِيَةَ، فَلَا تُقَابَلُ إِلَّا بِمَا يَنْتَهِي غَايَةَ النُّعْمَةِ، وَلَيْسَ وِرَاءَ النَّظَرِ نِعْمَةٌ، رَزَقْنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَرَجَّوهُ الْآنَ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٢٣) بتصرف.

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «وَسَمِعْتُ»، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَابِ الْإِخْتِصَارِ.

(٣) فِي (ح): «سَرُورٍ»، وَفِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي: «السَّرُورِ».

﴿كَلَّا﴾ رَدَعٌ عن إثَارِ الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: اذتدعوا عن ذلك، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تَنْقَطِعُ العاجلةُ عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة التي تَبْقُونَ فيها مُخْلِدين. والضميرُ في ﴿بَلَّغَتْ﴾ للنفسِ وإن لم يَجْر لها ذِكْر، لأنَّ الكلامَ الذي وَقَعَتْ فيه يَدُلُّ عليها، كما قال حاتم:

أماويٍّ ما يُغني الشَّرَّاءُ عنِ الفَتَى
إذا حَشَرَ جَتَ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

وتقولُ العربُ: أرسَلْتُ، يُريدون: جاءَ المطرُ، ولا تكادُ تسمِعُهُم يذكرون السَّماءَ. ﴿الترَّاقِي﴾ العظامُ المكتنفةُ لثغرةِ النَّحْرِ عن يمينٍ وشمالٍ؛ ذكَّروهم صعوبةَ الموتِ الذي هو أولُ مراحلِ الآخرةِ حينَ تَبْلُغُ الرُّوحُ التَّرَاقِي، ودنا زُهوقُها، وقالَ حاضرٌ وصاحبُها وهو المَحْتَضِرُ بعضهم لبعضٍ: ﴿مَنْ رَاقِي﴾ أيكم يَرِيقُه بما به؟

قوله: (أماويٍّ ما يُغني) البيت^(١)، ماوي: اسمُ امرأةٍ، شَبَّهت بالماءِ لصفاتها، والنسبةُ إلى الماءِ: ماويٍّ ومايٍّ، كما يُقال: كساويٍّ وكساوي. وهي ماويَّة بنتُ عَفْزَرَ، وكانت ملكةً وهي تحت حاتم. الحَشْرَجَة: الغرغرةُ عند الموت، والشَّرَّاءُ^(٢): الغنى والثروة، والضميرُ في «حَشَرَ جت» للنفسِ.

قوله: (لثغرة النَّحْرِ)، الجوهري: «الثغرة بالضم: ثغرة^(٣) النَّحْرِ التي بين التَّرْقُوتين». قوله: (وقال حاضرٌ وصاحبُها)، تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقِي﴾، أي: القائلون هم الذين حَضَرُوا صاحبَ الرُّوحِ التي تُزْهَقُ، يقولُ بعضهم لبعضٍ: مَنْ رَاقِي؟ أي: أيكم يَرِيقُه رُقيَّةً بما به؟ فقوله: «بعضُهم لبعضٍ» بدلٌ من «حاضرٌ وصاحبُها»، وقوله: «وهو المَحْتَضِرُ» اعتراضٌ بين البَدَلِ والمُبْدَلِ، تفسيرٌ لـ «صاحبُها»، و﴿مَنْ رَاقِي﴾ مَقُولٌ لقوله «قال».

(١) من قصيدة للشاعر حاتم الطائي مطلعها:

أماويٍّ قد طالَ التَّجَنُّبُ والهَجْرُ
وقد عَدَّرتني من طلابكم العُدْرُ

انظر: «ديوانه»، ص ٥٠.

(٢) في (ف): «والثري».

(٣) في (ف): «ثغرة».

وقيل: هو من كلام ملائكة الموت: أَيُكْم يَرْقَى بروحه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ ﴿وَلَنْ﴾ المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة ﴿وَالْفَتَى﴾ ساقه بساقه والتوت عليها عند عكز الموت. وعن قتادة: أي: ماتت رجلاه فلا تحملاه، وقد كان عليها جوالاً. وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن الساق مثل في الشدة. وعن سعيد بن المسيب: هما ساقاه حين تُلغان في أكفانه ﴿الْمَسَاقُ﴾ أي: يُسَاقُ إلى الله وإلى حُكْمِهِ.

[﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ * وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَنَطَّقُ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [٣١-٣٥]

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ يعني: الإنسان في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعَّ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣]، ألا ترى إلى قوله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن يُنْفِكَ سُدَى﴾ [القيامة: ٣٦]،

قوله: (عكز الموت)، الجوهري: «العكز: قلقٌ وخِفةٌ وهَلَعٌ يُصِيبُ الإنسان».

قوله: (على أن الساق مثل في الشدة)، أي: قيل هذا القول بناءً على أن الساق عبارة عن الشدة.

الراغب: «قيل: أراد التفاف البلية بالبليّة، نحو: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، من قَوْلِهِمْ: كَشَفَتِ الحربُ عن سَاقِهَا. وقال بعضهم: هو إشارة إلى الشدة، وهو أن يموت الولد في بطن الناقة، فيدخل المذمّر^(١) يده في رجمها، فيأخذ بساقه، فيخرجه. ثم جعل لكل أمير فظيع^(٢)».

قوله: ﴿فَلَا صَدَقَ﴾، يعني: الإنسان، يريد أن فاعل ﴿فَلَا صَدَقَ﴾، هو الإنسان المذكور

(١) التذمير: أن يدخل الرجل يده في حياء الناقة لينظر أذكر جنينها أم أنثى. انظر: «الصحاح» (٢: ٦٦٥/ ذمر).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٤٣٦.

وهو معطوفٌ على ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦]، أي: لا يُؤمنُ بالبعث، فلا صدقُ بالرسول والقرآن ولا صَلَّى، ويجوزُ أن يُراد: فلا صدقُ ماله، بمعنى: فلا زكاه. وقيل: نزلت في أبي جهلٍ ﴿يَنْعَطِي﴾ يتبختر، وأصله: يَتَمَطَّط، أي: يَتَمَدَّد، لأنَّ المُتَبَخِّرَ يَمُدُّ خُطَاهُ. وقيل: هُوَ مِنَ الْمَطَا وهو الظَّهْر، لأنه يَلْوِيهِ. وفي الحديث: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءُ وَخَدَمَتُهُمْ فَارِسَ وَالرُّومَ، فَقَدْ جُعِلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ» يعني: كَذَبَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَوَلَّى عَنْهُ وَأَعْرَضَ،

في أوَّلِ السُّورَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ﴾، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، لِأَنَّهُ تَكْرِيرٌ لِّلْمَعْنَى بَعْدَ طَوِيلِ الْكَلَامِ. فَعَلَى هَذَا، الْفَاءُ عَطَفَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةَ عَلَى جُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، تَعَجُّبًا مِنْ حَالِ الْإِنْسَانِ. يَعْنِي: سَأَلَ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾، أَي: يَسْأَلُ، وَمَا اسْتَعَدَّ لَهُ إِلَّا مَا يَوْجِبُ دَمَارَهُ وَهَلَاكَهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا رَآهُ الْبَصَرُ﴾، فَجَوَابٌ عَنِ السُّؤَالِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانُكَ﴾ يَخْلُصُ إِلَى مَا اسْتَطَرَدَ مِنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَقْحَمَ الْجَوَابَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ لِشِدَّةِ الْاهْتِمَامِ.

قَوْلُهُ: (إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءُ) الْحَدِيثُ، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَفِي آخِرِهِ: «سُلِّطَ شِرَاؤُهَا عَلَى خِيَارِهَا»^(١).

النهاية: «المُطَيْطَاءُ، بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ: مِثْلُهَا فِيهَا تَبَخَّرَتْ وَمَدَّ الْيَدَيْنِ، يُقَالُ: مَطَوْتُ وَمَطَطْتُ بِمَعْنَى مَدَدْتُ، وَهِيَ مِنَ الْمَصْغَرَاتِ الَّتِي لَمْ يُسْتَعْمَلْ لَهَا مُكَبَّرٌ».

وقيل: هذا الحديثُ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ بِالْغَيْبِ وَقَدْ وَافَقَ الْوَاقِعَ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا فَتَحُوا بِلَادَ فَارِسَ وَالرُّومَ، أَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ وَسَبَّوْا دَرَارِيهِمْ فَاسْتُخْدِمُوا، فَسَلَّطَ اللَّهُ قَتْلَةَ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قَتَلُوهُ، ثُمَّ سَلَّطَ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ.

(١) روى الترمذي عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي بِالْمُطَيْطَاءِ، وَخَدَمَهَا أَبْنَاءُ الْمَلِكِ، أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّومِ، سُلِّطَ شِرَاؤُهَا عَلَى خِيَارِهَا». انظر: «سنن الترمذي» (٢٢٦١)، وثمة تمامٌ تخريجه.

ثم ذهب إلى قومه يتبخرت افتخاراً بذلك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: وَيَلُّ لَكَ، وهو دُعاءٌ عليه بأن يليه ما يكره.

[﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ * أَلَرَبُّكَ تُطْفَعُ مِنْ مَنِّي يَمِينٌ * ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَمَخْلَقَ فَسَوَىٰ * جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَىٰ﴾ ٤٠-٣٦]

قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾، بمعنى: وَيَلُّ لَكَ)، وقال القاضي: «قيل: هو أفعل، من الويل بعد القلب كادني من أدون. وقيل: أصله: أولاك الله ما تكرهه، واللأم مزيدة كما في ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]»^(١). قال الواحدي: «هذا تهديد من الله لأبي جهل، والمعنى: وليك المكروه يا أبا جهل وقرب منك»^(٢). وقال محيي السنة: «وقيل: معناه أنك أجدر بهذا العذاب وأحق وأولى به، وقيل: هو أفعل، من الولي وهو القرب»^(٣). قال الأصمعي: معناه: قاربه ما يهلكه، قال ثعلب: «لم يقل أحد في ﴿أَوْلَىٰ﴾ أحسن وأصح مما قاله الأصمعي».

الراغب: «﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: كلمة تهديد وتخويف»^(٤)، يُخاطَبُ بها^(٥) من أشرف على هلاك، فيحثُّ بها على التحرز، أو يُخاطَبُ بها من نجا ذليلاً منه فينهى عن مثله ثانياً، وأكثر ما يُستعمل مُكرراً، وكأته حثُّ على تأمل ما يؤول إليه أمره^(٦)، لِيَسْتَبَهَّ لِلتَّحَرُّزِ مِنْهُ»^(٧). وقال في «غرة التنزيل»: «اللفظة مُستقاة من: وَيَلِي يَلِي، إذا قُرِبَ مِنْهُ قُرْبٌ مُجَاوِرٌ، فكأته قال^(٨): الْهَلَاكُ

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٢٤) للبيضاوي.

(٢) «الوسيط» (٤: ٣٩٦) للواحدي.

(٣) «معالم التنزيل» (٨: ٢٨٦) للبيغوي.

(٤) في (ح) و(ف): «تخوِّف»، وفي (ط): «تهتد وتخوِّف».

(٥) في الأصول الخطية: «به»، في المواضع الثلاثة.

(٦) سقط لفظ «أمره» في (ح) و(ف).

(٧) «مفردات القرآن»، ص ١٠٠.

(٨) في (ح): «على»، وفي (ط) و(ف): «قيل».

﴿فَخَلَقَ﴾ ﴿فَقَدَّرَ﴾ ﴿فَسَوَّى﴾ ﴿فَعَدَّلَ﴾ ﴿مِنْهُ﴾ ﴿مِنَ الْإِنْسَانِ﴾ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ ﴿الصَّنْفَيْنِ﴾ ﴿أَلَيْسَ﴾
ذَلِكَ﴾ الذي أنشأ هذا الإنشاء ﴿بِقَدْرٍ﴾ على الإعادة. وزُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا
قرأها قال: «سبحانك بلى».

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سُورَةَ الْقِيَامَةِ، شَهِدْتُ لَهُ أَنَا وَجَبْرِيْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ
كَانَ مُؤْمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قريبٌ منك قُرْبٌ مُجَاوِرٌ^(١) لك، بَلْ هو أَوْلَى وأقرب. وأما تَكَرُّرُ اللَّفْظِ^(٢)، فالأوَّلُ يُرَادُ بِهِ
الهِلَاكُ فِي الدُّنْيَا، والثاني في الأخرى، وعلى هذا يُخْرَجُ عن التَّكْرِيْرَاتِ [المَعْبِيَةِ]^(٣)، فاعرفه^(٤).

قوله: (كان إذا قرأها قال: «سُبْحَانَكَ بِلَى»)، عن أبي داود، عن موسى بن أبي عائشة،
عن^(٥) رسول الله ﷺ^(٦).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

* * *

(١) في (ح) و(ف): «مجاير».

(٢) سقط لفظ «المعبية» من الأصول الخطية وزيادتها ضرورية لإيضاح المعنى.

(٣) فهو غيرٌ معيب إذا لم يتكرَّر لمعنى.

(٤) «درة التنزيل وغمرة التأويل» للإسكافي، ص ٢٩١. وتقدم الكلام في نسبة هذا الكتاب للراغب.

(٥) في (ح): «أن».

(٦) انظر: «سنن أبي داود» (٨٨٤).

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مَدْنِيَّةٌ، وَهِيَ إِحْدَى ثَلَاثُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾]

﴿هَلْ﴾ بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة، والأصل: أَهْلٌ،

سورة الإنسان^(١)

إحدى وثلاثون آية، مكية، وقيل: مدنية^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقني

قوله: ﴿هَلْ﴾ بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة، أي: «هل» تُستعمل في الاستفهام خاصة، وهو بمعنى «قد»، قال في «المفصل»: «عند سيبويه أن «هل» بمعنى «قد»، إلا أنهم قد تركوا الألف قبلها، لأنها لا تقع إلا في الاستفهام»^(٣). قال في «الإقليد»: «هَلْ: ضعيفة في الاستفهام، ألا تراها تجيء بمعنى «قد» كقوله:

أهل رأونا

(١) في (ط): «سورة الدهر».

(٢) قوله: «وقيل مدنية» سقط من (ط).

(٣) «المفصل» للزحشري، ص ٣١٩، وانظر: «الكتاب» (٣: ١٨٩) لسيبويه.

بدليل قوله:

أَهْلٌ رَأَوْنا بَسْفَحِ القاعِ ذِي الأَكمِ

فالمعنى: 'أقد أتى؟ على التقرير والتقريب جميعاً، أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب ﴿حِينَ مِنَ اللّٰهِ لَمْ يَكُنْ﴾ فيه ﴿شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾،

فلو كان للاستفهام، لَلزِمَ الجمعُ بين حرفين، وهما الهمزة وهَلْ، وهو مُمتنعٌ.

وقال ابنُ الحاجب: «أصلها أن يكونَ بمعنى «قد»، فاقترضت وَقوعَ الفعل؛ فكما لا يُقال: قَدْ زِيداً ضَرَبت، لا يُقال: هَلْ زِيداً ضَرَبت؟»^(١).

قوله: (أَهْلٌ رَأَوْنا بَسْفَحِ القاعِ ذِي الأَكمِ)، أوله:

سائل فوارس يربوع بِشَدَّتِنَا^(٢)

يُقال: سأل بشيءٍ وعن شيءٍ بمعنى، وهما من صلاته. بِشَدَّتِنَا، بفتح الشين: بِحَمَلَتِنَا، والأولى بكسرِها، أي: بقوتنا. يقول: سائل هذه القبيلة حين جُرْنَا^(٣) بجانبِ القاعِ ذي الروابي، أي: هل رأوا مِنَّا جُبناً^(٤) وضعفاً؟ البيتُ شاذٌّ^(٥).

قوله: (أَقْدَ أتى؟ على التقرير)، قال الواحدي: ﴿هَلْ﴾ هاهنا خبرٌ وليس باستفهام^(٦)،

(١) «الإيضاح في شرح المفصل» (٢: ٢٣٩) لابن الحاجب.

(٢) البيت لزيد الخليل الطائي، من مقطوعة يُذكر فيها وقائعُه في بني تميم. انظر: «شعر زيد الخليل الطائي»، ص ١٥٥، و«الكشاف» (١١: ٤٤١) للزخشي.

(٣) في (ح): «حَرَبْنَا».

(٤) في (ف): «خَنَأَ».

(٥) قال ابن هشام: «الحرف لا يدخل على مثله في المعنى، وقد رأيتُ عن السيرافي أن الرواية الصحيحة: أم هل، وأم هذه منقطعة بمعنى «بل»؛ فلا دليل، وتقدير ثبوت تلك الرواية فالبيتُ شاذٌّ. «معني اللبيب» ص ٤٦٢، وانظر: «شرح كتاب سيويه» (٣: ٤٥٣) للسيرافي.

(٦) «الوسيط» (٤: ٣٩٨) للواحدي.

أي: كان شيئاً منسياً غيرَ مذكورٍ نُطْفَةٌ في الأصلاب، والمرادُ بالإنسان: جنسُ بني آدم،
بدليلِ قوله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢٢]؟

قال أبو عبيدة: «مجازُها: «قد أتى على الإنسان» وليس باستفهام^(١).

قوله: (بدليلِ قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾)، يعني: تَقَرَّرَ أَنَّ الاسمَ المعروفَ
باللام، إذا أُعيدَ كانَ الثاني عَيْنَ الأول، فَحِينَ أُعيدَ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ وَيَبَيَّنُ أَنَّ المرادَ بالإنسانِ
الجنس^(٢)، لقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، عُلِمَ أَنَّ السابقَ كذلك. وإِنَّمَا أرادَ بذلك
الردَّ عَلَى مَنْ ذهبَ إِلَى أَنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ عليه السلام، كالواحدي وغيره^(٣). ولعلَّ
نَظَرَهُم إِلَى قوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾؛ فَإِنَّ آدمَ لم يُخلَقْ منها.

والجوابُ أَنَّهُ مِنْ بابِ التغليب، أو هو مِنْ قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرِجُ
حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَنَرِيكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧]. قال: «فإن قلت:
لم جازت^(٤) إرادة الأناسي كُلِّهم، وكُلُّهم غيرُ قائلين ذلك؟ قلت: لما كانت هذه المقالةُ موجودةً
فيمن هو مِنْ جنسِهِم، صَحَّ إسنادُهُ إِلَى جميعِهِم»^(٥). وعليه النِّظْمُ؛ فَإِنَّ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ الثاني مُظهِرٌ
وُضِعَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ لإفادَةِ الترقِي، أي كان كالشيءِ المنسيِّ الذي لا يُلتَفَتُ إِلَيْهِ ولا يُذكَرُ،
فإنَّا قَلْبِنَاهُ فِي الأطوارِ المتباينةِ والأحوالِ المتخالفةِ، وجعلناه مِمَّا يُذكَرُ فِيهِ وَيُعْتَبَرُ، حيثُ

(١) «مجاز القرآن» (٢: ٢٧٩) لأبي عبيدة.

(٢) أي: جنس بني آدم، وفي (ف): «آدم عليه السلام الجنس».

(٣) قال بذلك: جماعة من المفسرين، منهم: قتادة، وسفيان الثوري، والسدي، وعكرمة، انظر: «الجامع

لأحكام القرآن» (١٩: ١١٩) للقرطبي، و«معالم التنزيل» (٨: ٢٨٩) للبغوي، و«زاد المسير» (٤:

٣٧٤) لابن الجوزي، و«الكشف والبيان» (١٠: ٩٣) للثعلبي.

(٤) في (ف): «جاوزت».

(٥) في تفسير الآيتين (٦٦، ٦٧) من سورة مريم، انظر: «الكشاف» (١٠: ٦٣).

﴿حِينَ مِنَ الدَّهْرِ﴾ طائفة من الزمن الطويل الممتد.

فإن قلت: ما محلُّ ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾؟ قلت: محله النصب على الحال من الإنسان، كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور. أو الرفع على الوصف لـ ﴿حِينَ﴾، كقوله: ﴿يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣]،

جعلناه محلاً للمعرفة والعبادة، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. ثم فصله بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ويبين افتراقهم بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ﴾، ففيه جمع وتقسيم وتفريق.

قوله: ﴿حِينَ مِنَ الدَّهْرِ﴾: طائفة من الزمن الطويل الممتد، الراغب: الدهر في الأصل اسمٌ لمدّة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾، ثم يُعَبَّرُ به عن كلِّ مدّة، وهو خلاف الزمان، فإنه يَقَعُ على [المدّة] (١) القليلة والكثيرة. ودهر فلان: مدّة حياته. وما روي في الحديث: «لا تَسْبُوا الدهرَ فإن الله هو الدهر» (٢)، قيل: معناه أن الله فاعل ما يُضاف إلى الدهر، فإذا سببتم الذي تعتقدون أنه فاعل ذلك فقد سببتموه. وقيل: الدهر الثاني في الخير غير (٣) الأول، وإنما هو مصدرٌ بمعنى الفاعل، أي أن الله هو الدهر، أي المصرف المدبر والمقيض لما يحدث، والأول أظهر (٤).

قوله: (أو الرفع على الوصف لـ ﴿حِينَ﴾)، والراجع محذوف، أي: لم يكن فيه شيئاً، كما أن تقدير الآية (٥): لا يجزي فيه.

(١) لفظ «المدّة» سقط في (ح) و(ف).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) بهذا اللفظ عن أبي هريرة، وانظر: «صحيح البخاري» (٦١٨١).

(٣) في (ف): «خبر»، وهو تحريف.

(٤) «مفردات القرآن»، ص ٣١٩، ٣٢٠.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَرًا رَبِّكُمْ وَأَخْسَرُوا يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣].

وعن بعضهم: أنها تُليّت عنده فقال: ليتها تَمّت، أراد: لبت تلك الحالة تَمّت، وهي كونه شيئاً غيرَ مذكور، ولم يُخلَق ولم يُكلّف.

[﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [٢]

﴿نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ كَبْرُمةٌ أَعْشَارٍ، وَبُرْدٌ أَكْيَاشٍ، وهي ألفاظٌ مفردةٌ غيرُ جمع، ولذلك وَقَعَتْ صفاتٌ للأفراد. ويُقال أيضاً: نُطْفَةٌ مَشِجٌّ، قال الشماخ:

طَوْتُ أَحْشَاءَ مُرْتَجِمَةٍ لَوْ قَتِ عَلَى مَسْجِحٍ سُلَالَتُهُ مَهِينِ

قوله: (وعن بعضهم: أنها تُليّت عنده، فقال: ليتها تَمّت)، قيل: هو أبو بكرٍ رضي الله عنه. وفي «الوسيط»: «سَمِعَ عمرُ بن الخطاب (١) رضي الله تعالى عنه رجلاً يقرأ هذه الآية، فقال: لبت ذلك تَمَّ (٢)، يعني: كَيْتَه بَقِيَ على ما كان، فكان لا يلدُ، ولا يُيْتَلَى أولاده» (٣).

قوله: (كَبْرُمةٌ أَعْشَارٍ)، الجوهرية: «البُرْمَةُ: القَدْرُ، وَبُرْمَةٌ أَعْشَارٌ: إذا انكسرت قطعاً».

قوله: (وَبُرْدٌ أَكْيَاشٍ)، في الحاشية: الأكياش: ثوبٌ يُغزَلُ غَزْلُهُ مرتين، وهو من بُرود اليمن.

قوله: (طَوْتُ أَحْشَاءَ مُرْتَجِمَةٍ البيت (٤))، أَرْجَحَتِ الناقة: إذا أغلقت رَحِمَهَا على الماء، يُقال: أَرْجَحَ عليه، إذا استغلقَ عليه الكلام. والمُرْتَجِمَةُ المُطْبَقَةُ، أي: أحشاء ناقةٍ مُرتجِمة، أي: طَوْتُ أحشاءَ نفسها.

(١) قوله «عمرُ بن الخطاب» سقط من الأصول الخطية.

(٢) في الأصول الخطية: «لم يتم»، وليس بصواب، انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٢٨٩) للبعوي.

(٣) «الوسيط» (٤: ٣٩٨) للواحدي. وقال أبو بكر لما قرأ هذه الآية: «ليتها تَمّت فلا يُبتلى»، أي: لبت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مذكوراً، تمت على ذلك. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٩: ١٢٠) للقرطبي.

(٤) البيت للشماخ بن ضرار الذبياني، مطلعها:

كَيْلا يَوْمِي طُوَالَةٌ وَضُلُّ أَرَوِي
ظَنُونُ أَنْ مَطَّرَحَ الظَّنُونِ

انظر: «ديوانه»، ص ٣٢٨.

ولا يصح ﴿أَمْشَاجٌ﴾ أن يكون تكسيراً له، بل هما مثلاً في الأفراد، لوصف المفرد بهما. وَمَشَجَهُ وَمَزَجَهُ بمعنى. والمعنى: من نطفة قد امتزج فيها الماءان. وعن ابن مسعود: هي عُرُوقُ النطفة. وعن قتادة: «أَمْشَاجٌ»: ألوانٌ وأطوار، يريد: أنها تكون نطفةً، ثم علقةً، ثم مُضْغَةً ﴿بِتَّبِيلِهِ﴾ في موضع الحال، أي: خَلَقْنَاهُ مُبْتَلِينَ لَهُ، بمعنى: مُرِيدِينَ ابْتِلَاءَهُ، كقولك: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً، تريد: قاصداً به الصيْدَ غداً.

«سُلَالَتُهُ» مرفوعٌ بـ «مُرْتَجَّةٌ»، أي: مُرْتَجَّةٌ سُلَالَتُهُ. «على مَشَجٍ»: المَشَجُ: المختلطُ حُمرةً في بياض، وكلُّ لونٍ من ذلك مَشَجٌ، والجمعُ أمشاج، وهو سَبُهُ ماءِ الرجلِ في بياضه، وماءِ المرأةِ في رِقَّتِهِ واصْفَرَارِهِ. والسُّلَالَةُ: ما يَنْسَلُ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ مِنَ الطِّينِ، وَمِنِ النَّطْفَةِ مَا يَنْسَلُ وَيَنْدَفِقُ مِنْهَا. مهين: [حقير] ^(١) يَصِفُ أَثَى قَبِلْتُ ^(٢) ماءَ الْفَحْلِ وَحَمَلْتُ مِنْهُ، يقول: طَوْتُ أَحْشَاءَ أَمْعَاءِ كَأَثْوَابِ مُرْتَجَّةٍ لَوْقَتِ الْوِلَادَةِ، عَلَى نُطْفَةٍ مُخْتَلِطَةٍ حَقِيرَةٍ. على مَشَجٍ: صِلَةٌ «طَوْتُ»، أو صِلَةٌ: «مُرْتَجَّةٌ»، أي أغلقتِ الناقةُ الرَّحِمَ بِالْوَلَدِ. ويُروى: «مُرْتَجَّةٌ»، على لفظِ الْفَاعِلِ، و«مَهِينٌ» بِالرَّفْعِ؛ فَعَلَى هَذَا: «سُلَالَتُهُ» مَبْتَدَأٌ، و«مَهِينٌ» خَبْرُهُ.

قوله: (هي عُرُوقُ النَّطْفَةِ) في «المطلع»، عن ابن مسعود: «عُرُوقُ الْعَلَقِ تَبْدُو فِي النَّطْفَةِ».

قوله: (مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً)، اعلم أن قوله: ﴿بِتَّبِيلِهِ﴾ هو حالٌ من فاعلِ ﴿خَلَقْنَا﴾، وهو على ظاهره مُشْكِلٌ، لأنَّ قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقْنَا﴾ بالفاء.

والابتلاءُ إنما يَسْتَقِيمُ إِذَا حَصَلَ لِلْمَكْلُوفِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَتَأْوِيلُهُ عَلَى وَجْهِ:

أحدها: أنه من الحالِ المقدرة، أي خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مُقَدَّرِينَ لَهُ الْإِبْتِلَاءَ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً، لِيَتَرْتَبَ عَلَيْهِ مَا قَدَّرْنَا لَهُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ، وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ قَوْلُ الْقَاضِي: «بِتَّبِيلِهِ» فِي مَوْضِعِ

(١) زياده بقتضيتها السياق.

(٢) في (ح): «قتلت ماء الفحل وسلمت منه».

وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ: نَاقِلِينَ لَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَسَمِّيَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَضْرَفُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ نَظْفَةً ثُمَّ عَلَّقَهُ. وَقِيلَ: هُوَ فِي تَقْدِيرِ التَّأخِيرِ، يَعْنِي: فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً لِنَبْتَلِيَهُ، وَهُوَ مِنَ التَّعَسَّفِ.

الحال، أي: خلقنا الإنسان مُبْتَلِينَ لَهُ، بِمَعْنَى: مُرِيدِينَ اخْتِبَارَهُ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً، لِيَتِمَّكَنَ مِنْ مُشَاهَدَةِ الدَّلَائِلِ وَاسْتِمَاعِ الآيَاتِ، فَهُوَ كَالْمَسْبَبِ مِنْ إِرَادَةِ الْإِبْتِلَاءِ. وَلِذَلِكَ، عَظِفَ بِالْفَاءِ عَلَى الْفِعْلِ الْمُقَيَّدِ بِهِ، وَرُتِبَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾، بِنَصْبِ الدَّلَائِلِ وَإِنزَالِ الآيَاتِ^(١).

وثانيها: أَنْ يَكُونَ الْإِبْتِلَاءُ اسْتِعَارَةً لِلانْتِقَالِ، اسْتِعَارَةً الْجَحْفَلَةِ وَهِيَ لِلْفَرَسِ لَشَفَةِ الْإِنْسَانِ^(٢)، عَلَى مَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]؛ اسْتِعَارَ الْإِبْتِلَاءَ لِلنَّقْلِ لِاسْتِزْمَامِ كُلِّ مِنْهَا ظَهُورَ حَالٍ غِيبَ حَالٍ، ثُمَّ سَرَى مِنْهُ إِلَى الْفِعْلِ عَلَى التَّبَعِيَّةِ، فَحِينْتِذُ يُحَسَّنُ تَرْتِيبُ مَا بَعْدَ الْفَاءِ عَلَى «نَبْتَلِيَهُ». الْمَعْنَى: خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَاقِلِينَ لَهُ مِنَ النُّظْفَةِ إِلَى الْعَلَقَةِ ثُمَّ إِلَى الْمُضْغَةِ، وَهَلَمْ جَرَّأً، إِلَى أَنْ جَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً. وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، أَي: خَلَقْنَاهُ مِنْ نُظْفَةٍ أَمْشَاجٍ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً لِنَبْتَلِيَهُ.

قَوْلُهُ: (هُوَ فِي تَقْدِيرِ التَّأخِيرِ)، رَوَى الْوَاحِدِيُّ عَنِ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَعْنَى: جَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً لِنَبْتَلِيَهُ. ذَكَرَ أَنَّهُ أَعْطَاهُ مَا يَصْحُحُ مَعَهُ الْإِبْتِلَاءُ، وَهُوَ السَّمْعُ وَالبَصَرُ»^(٣). وَعَلَى هَذَا

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٢٥-٤٢٦) بتصرف.

(٢) وعلى ذلك قولُ النابغة يهجو لبيد بن ربيعة:

أَبَا الدَّرْدَاءِ جَحْفَلَةَ الْآتَانِ أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي لِيَسْدَأَ
بِمَنْطِقِ جَاهِلٍ خَطِلِ اللِّسَانِ فَقَدْ أَرْجَى مَطِيئَتَهُ إِلَيْنَا

انظر: «ديوانه»، ص ١٢٠.

وقال الجوهري: «الجحفلة للحافر، كالشفة للإنسان». انظر: «الصحاح» (٤: ١٦٥٢) / مادة «جحفل».

(٣) «الوسيط» (٤: ٣٩٨) للواحدى، وانظر: «معاني القرآن» (٣: ٢١٤) للفراء.

[إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾]

شَاكِرًا وَكَفُورًا: حالانِ من الهاءِ فِي هَدَيْنَاهُ، أَي: مَكَّنَاهُ وَأَقْدَرْنَاهُ فِي حَالَتَيْهِ جَمِيعًا. أَوْ دَعَوْنَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِأَدْلَةِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ: كَانَ مَعْلُومًا مِنْهُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ أَوْ يَكْفُرُ لِإِلْزَامِ الْحُجَّةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالِيْنِ مِنَ السَّبِيلِ، أَي: عَرَّفْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا سَبِيلًا شَاكِرًا وَإِمَّا سَبِيلًا كَفُورًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وَوَصَفُ السَّبِيلِ بِالشُّكْرِ وَالْكَفْرِ مَجَازٌ. وَقَرَأَ أَبُو السَّمَالِ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ فِي ﴿إِمَّا﴾، وَهِيَ قِرَاءَةٌ حَسَنَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَمَّا شَاكِرًا فَبِتَوْفِيقِنَا، وَأَمَّا كَفُورًا فَبِسُوءِ اخْتِيَارِهِ.

يَكُونُ فِيهِ قَلْبٌ وَكَثْرَةٌ حَذْفٌ، لِأَنَّ الْأَصْلَ: لِأَنَّ تَبْتَلِيَهُ، فَحُذِفَ حَرْفُ الْجَرِّ، ثُمَّ حُذِفَ «أَنَّ» وَرُفِعَ الْفِعْلُ؛ فَلِلزُومِ كَثْرَةِ الْحَذْفِ وَالْقَلْبِ، قَالَ: «وَهُوَ مِنَ التَّعَسُّفِ».

قَوْلُهُ: (أَي: مَكَّنَاهُ وَأَقْدَرْنَاهُ فِي حَالَتَيْهِ جَمِيعًا)، فَعَلَى هَذَا، اهُدَى هُوَ الدَّلَالَةُ الْمُوصِلَةُ إِلَى الْبُعْيَةِ. قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْتِصَافِ»: «هَذَا مِنْ تَحْرِيفِهِ، وَالآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا»^(١).

قَوْلُهُ: (أَوْ دَعَوْنَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِأَدْلَةِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ)، فَعَلَى هَذَا: اهُدَى: مُجَرَّدُ الدَّلَالَةِ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «﴿إِمَّا﴾ هَاهُنَا لِتَفْصِيلِ الْأَحْوَالِ، أَي: بَيَّنَّا لَهُ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ»^(٢).

قَوْلُهُ: (وَالْمَعْنَى: أَمَّا شَاكِرًا فَبِتَوْفِيقِنَا، وَأَمَّا كَفُورًا فَبِسُوءِ اخْتِيَارِهِ)، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: هَذَا الْوَجْهَ أَقْرَبُ إِلَى التَّعَسُّفِ مِمَّا ذَكَرَهُ قُبَيْلَ هَذَا فِي ﴿تَبْتَلِيَهُ﴾، لِأَنَّ ذَلِكَ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْكَلَامِ. وَفِي هَذَا حَذْفُ ذِي الْحَالِ وَالْعَامِلِ وَخَبَرِ الْمَبْتَدَأِ وَالْفَاءِ، إِنَّ قُدِّرَ: أَمَّا إِقْدَارُنَا إِيَّاهُ فَبِتَوْفِيقِنَا، وَهُوَ الظَّاهِرُ فِي إِعْرَابِهِ. وَتَعَدَّدُ الْمَحذُوفَاتِ سَبَبٌ ظَاهِرٌ فِي التَّعَسُّفِ.

الْإِنْتِصَافِ: «اخْتِيَارُهُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ»^(٣) لِأَجْلِ التَّقْسِيمِ لَا يُفِيدُهُ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: أَمَّا

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٦٦).

(٢) «التيان» (٢: ١٢٥٧) للعكبري.

(٣) أي: قراءة أبي السمال، بفتح همزة «أما» في الموضعين.

[إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكَنًا وَأَغْلَلْنَا وَسْعِيرًا ﴿٤﴾]

ولما ذكرَ الفريقينِ أتبعهما الوعيدَ والوعد. وقرئ: ﴿سَكَنًا﴾ غير مُنون. «وسلاسلًا»، بالتنوين،

شاكراً فمثاب، وأما كفوراً فمعاقب»^(١). وقال الإمام: «هذه القراءة تُقوي تأويلَ أهلِ السُّنة. المعنى: إنا هديناه السبيل، ثم جعلناه تارة شاكراً وتارة كفوراً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَدِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]»^(٢).

وقلتُ: الآية كما سبق، من بابِ الجمعِ مع التقسيمِ مع والتفريق، فمعنى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾: إِنَّا دَلَلْنَاهُ عَلَى طَرِيقِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، بِإِرْسَالِ الرَّسْلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ وَنَضْبِ الْأَدَلَّةِ، لِيَمْتَازَ السَّعِيدُ مِنَ الشَّقِيِّ وَالشَّاكِرُ مِنَ الْكَافِرِ: أَمَا شَاكِرًا، فَبِمَا خَلَقْنَاهُ سَعِيدًا، وَأَمَا كُفُورًا، فَبِمَا قَدَرْنَا إِيَّاهُ شَقِيًّا. ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكَنًا وَأَغْلَلْنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّا الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾.

قوله: (وقرئ: ﴿سَكَنًا﴾ غير مُنون، و«سلاسلًا»، بالتنوين)، نافعٌ والكسائيُّ وهشامٌ وأبو بكرٍ، والباقون: بغيرِ تنوين. قال الزجاج: «الأجودُ أن لا يُصرف، ولكن لما جعلتُ رأسَ آيةٍ صُرفت، ليكونَ آخرُ الآيِ على لفظٍ واحد»^(٣).

وفي الكواشي: «القراءة: «سلاسلًا» مُنوناً مصروفاً وإن كان جمعاً ليس على وزانه مُفرد، لأن الأصلَ الصِّرف. ولذلك طائفةٌ من العربِ يَصرفونَ كلَّ ما لا يَنصرف، إلَّا أفعَلَ منك،

(١) «الانتصاف» (٤: ٦٦٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٢١١).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٨)، ولم يعد الفراءُ صرفَ الممنوع من الصرف خطأً، لأن العرب تُجرى ما لا يُجرى في الشعر، فلو كان خطأ ما أدخلوه في أشعارهم. انظر: «معاني القرآن» (٣: ٢١٨)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٣٧، ٧٣٨.

وفيه وَجْهَان: أحدهما أن تكونَ هذه النونُ بدلاً من حرفِ الإِطلاق، ويَجْرِي الوصلُ مجرى الوقف، والثاني: أن يكونَ صاحبُ القراءةِ بهِ مِمَّنْ ضَرِي بِروايةِ الشعرِ ومَرَنَ لسانه على صَرفِ غيرِ المنصَرف.

وطائفةٌ يَصرفونه أيضاً. وقد يُجمَعُ في الحديث: «إنكَنَ أنتَنَ صواحبُ يوسف»^(١)، وقد جاء: مَواليات. وَقَوْلُ مَنْ قال: إنها صُرفت ليكونَ أوْخِرُ الآيِ على لفظٍ واحدٍ فاسدٌ، لأن ذلك إنما يجوزُ في مَحَلِّ الضَّرورات، وكذلك قولُ مَنْ قال: إن النونَ بدلٌ من حرفِ الإِطلاق، فجرى الوصلُ مجرى الوقف.

وقال صاحبُ «المطلع»: «إن هذا الجمعَ أشبه الآحادَ حتى جُمِعَ مرَّةً فقليل: صواحبُ يوسف، ومَوالياتُ فلان، في جمعِ الصَّواحبِ والمَوالِي؛ فمن حيثَ جَمَعوه جَمَعَ الآحادِ المنصرفة، جَعَلوه في حُكْمِها فَصَرَفوه»^(٢).

قولُه: (بدلاً من حرفِ الإِطلاق)، عن بعضهم: حرفُ الإِطلاقِ هو أَلِفٌ ﴿سَلَسِلًا﴾ يُطلَقُ لسانه، فإذا زيدتِ النونُ عند الوصلِ، صارتِ النونُ كالإِطلاقِ عند الوقف. قيل: قولُه: «أن يكونَ صاحبُ القراءة» إلى آخره، هُذا تعليلُ أبي علي^(٣)، وهذا دليلٌ على أنه كان يرى الإِطلاقَ لهم زيادةً غيرَ موقوفةٍ على النقلِ المتواتر، وجعل التواترَ من جملةِ غلطِ اللسان، أي: في^(٤) القراءة، والأولُ هو الصَّحيح.

قولُه: (أن يكونَ صاحبُ القراءةِ بهِ مِمَّنْ ضَرِي بِروايةِ الشعرِ)، الانتصافُ: «هو يرى أن القراءاتِ المُستفيضةَ غيرَ موقوفةٍ على النقلِ المتواتر، وجعل التواترَ من جملةِ غلطِ اللسان.

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٣٦٧٢)، وفيه حديث عائشة رضي الله عنها: «مروا أبا بكرٍ فليصل بالناس».

(٢) لم أقف على كتاب «مطلع المعاني» للسمرقندي، ومثل هذا مقيّدٌ في «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٤٩).

لأبي علي الفارسي.

(٣) في كتابه «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٤٩ وما بعدها).

(٤) من قوله «زيادة غير موقوفة» إلى هنا، سقط من (ط).

وقيل: مُخَلِّقُ فِهَا رَائِحَةَ الْكَافُورِ وَيَبَايُضُهُ وَبَرْدُهُ، فَكَأَنَّمَا مُزِجَتْ بِالْكَافُورِ. ﴿وَعَيْنَا﴾ عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ: بَدَلٌ مِنْ مَحَلٍّ ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ مُضَافٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَشْرَبُونَ فِيهَا خَمْرًا خَمْرَ عَيْنٍ، أَوْ نَصَبٌ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ وُصِّلَ فِعْلُ الشَّرْبِ بِحَرْفِ الْاِبْتِدَاءِ أَوَّلًا، وَبِحَرْفِ الْإِلْصَاقِ آخِرًا؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الْكَأْسَ مَبْدَأُ شُرْبِهِمْ وَأَوَّلُ غَايَتِهِ؛ وَأَمَّا الْعَيْنُ فَبِهَا يَمْزُجُونَ شَرَابَهُمْ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى: يَشْرَبُ عِبَادُ اللَّهِ بِهَا الْخَمْرَ، كَمَا تَقُولُ: شَرِبْتُ الْمَاءَ بِالْعَسَلِ. ﴿يَفْجَرُونَهَا﴾ يُجْرَوْنَهَا حَيْثُ شَاؤُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ ﴿تَفْجِيرًا﴾ سَهْلًا لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ. ﴿بُؤُوفُونَ﴾ جَوَابُ مَنْ عَسَى يَقُولُ: مَا لَهُمْ يُرْزَقُونَ ذَلِكَ؟

الراغب: «الكأس: الإناء بما فيه من الشراب، يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِانْفِرَادِهِ: كَأَسًا. يُقَالُ: كَأَسُ خَالٍ، وَيُقَالُ: شَرِبْتُ كَأَسًا، وَكَأَسٌ طَيِّبَةٌ يَعْنِي بِهَا الشَّرَابُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ [الرَّاقِعَةُ: ١٨]»^(١).

قوله: ﴿وَعَيْنَا﴾ عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ، أَي: عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ ﴿كَافُورًا﴾ اسْمَ عَيْنٍ، بَلْ تَكُونُ الْخَمْرُ قَدْ مُزِجَتْ بِالْكَافُورِ، أَوْ خُلِقَتْ فِي الْخَمْرِ رَائِحَتُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِبْدَالَيْنِ؟ قُلْتُ: عَلَى الْأَوَّلِ: ﴿كَافُورًا﴾ عَلَّمَ لِلْعَيْنِ، فَلَا يُعْتَبَرُ فِيهِ مَعْنَى هَذَا الطَّيِّبِ الْمَخْصُوصِ، فَيَصِحُّ إِبْدَالُ ﴿عَيْنَا﴾ مِنْ ﴿كَافُورًا﴾. وَعَلَى الثَّانِي: هَذَا الطَّيِّبُ مَنْظُورٌ فِيهِ، فَلَا يَصِحُّ إِبْدَالُهُ مِنْهُ، بَلْ مِنْ مَحَلٍّ ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾، وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ بِالْكَأْسِ الْخَمْرَ، وَجَبَ أَنْ يُقَدَّرَ فِي الْبَدَلِ مُضَافٌ، بَأَنَّ يُقَالُ: خَمْرَ عَيْنٍ، لِيَصِحَّ الْإِبْدَالُ.

قوله: ﴿لِأَنَّ الْكَأْسَ مَبْدَأُ شُرْبِهِمْ﴾، الْاِتْتِصَافُ: «هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مُسْتَقِيمٌ. أَمَّا عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ بَدَلٌ مِنَ الْكَأْسِ، إِذَا لَاشْتَاهَا عَلَى أَوْصَافِهِ، وَهُوَ الْكَافُورُ الْمَعْهُودُ، فَلَا يَتِمُّ الْجَوَابُ بِذَلِكَ»^(٢). يَرِيدُ أَنْ «كَأَسًا» ﴿عَيْنَا﴾ هُمَا مُتَّحِدَانِ حِينَئِذٍ، فَلَا يَصَدُقُ قَوْلُهُ: «لِأَنَّ الْكَأْسَ مَبْدَأُ

(١) «مفردات القرآن»، ص ٧٢٩.

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٦٨).

والوفاء بالنذرِ مبالغةً في وَصْفِهِم بالتوفّرِ على أداء الواجبات؛ لأنّ مَنْ وفى بها أَوْجِبَهُ هو على نفسه لوجه الله، كان بها أَوْجِبَهُ اللهُ عليه أَوْفَى. ﴿مُسْتَطِرّاً﴾ فاشياً منتشرأ بالغا أقصى المبالغ، مِنْ اسْتَطَارَ الحريق، واستطارَ الفجر. وهو مِنْ: طَارَ، بمنزلةِ «استنفر» مِنْ: نَفَرَ، ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ الضميرُ للطعام، أي: مع اشتهائه والحاجةِ إليه، ونحوه ﴿وَمَا آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿لَنْ نُنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وعن الفضيل بن عياض: على حُبِّ الله.

شُرِبِهِمْ، وأما العينُ فيها يَمْرُجون، لأنّ هذه العبارةُ مُشعِرةٌ بالتغاييرِ بين الكأسِ والعين. «بل الجواب: أنه لما ذَكَرَ الشُّرْبَ أولاً باعتبارِ الوقوعِ في الوجود، ذكره ثانياً مُضمّناً للاستدامة، كأنه قال: يَشْرَبُونَ منها فيلتذون بها، كذا قال أبو عبيدة»^(١).

قال أبو البقاء: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ حالٌ مِنْ ﴿يَشْرَبُونَ﴾؛ أي: يَشْرَبُونَ ممزوجاً بها. والأولى أن يكونَ محمولاً على المعنى؛ أي: يَلْتَذُونَ بها^(٢). وقال صاحبُ «الكشف»: «الباءُ زائدةٌ، أي: يَشْرَبُهَا، أي: ماءها»^(٣).

قوله: (وهو مِنْ: طَارَ، بمنزلةِ «استنفر» مِنْ: نَفَرَ)، أي: اسْتَطَارَ مِنْ^(٤) طَارَ، لكن في «استطار» مبالغة، واستنفرَ ونَفَرَ كذلك، لقوله تعالى: ﴿حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٠].

قوله: (مع اشتهائه والحاجةِ إليه)، فيكونُ مِنْ بابِ التعميم^(٥)، وقوله: «على حُبِّ الله» هو مِنْ بابِ التكميل، وَصَفَهُمْ أولاً بالجودِ والبذل، وكمّله بأن ذلك عن إخلاصٍ لا رياءٍ فيه.

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٦٨).

(٢) «التيبان» (٢: ١٢٥٨) للعكبري.

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤١٢).

(٤) في (ط) و(ف): «بمعنى»، بدلاً من «مِنْ»، وليس بصواب.

(٥) في (ح): «التّميم».

﴿وَأَسِيرًا﴾ عن الحسن: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلّم يُرْتَى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: أحسن إليه؛ فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه. وعند عامة العلماء: يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تُصرف إليهم الواجبات. وعن قتادة: كان أسيرهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحق أن تُطعمه. وعن سعيد بن جبيرة وعطاء: هو الأسير من أهل القبلة، وعن أبي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون. وسمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلّم الغريم أسيراً، فقال: «غريمك أسيرك فأحسب إلى أسيرك». ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُ أَحَقُّ الْقَوْلِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلًا بِاللِّسَانِ مِنْعًا لَهُمْ عَنِ الْمُجَازَاةِ بِمِثْلِهِ أَوْ بِالشُّكْرِ؛ لِأَنَّ إِحْسَانَهُمْ مَفْعُولٌ لَوْجِهَةِ اللَّهِ؛ فَلَا مَعْنَى لِمُكَافَاةِ الْخَلْقِ. وَأَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ لَهُمْ لَطْفًا وَتَفْقِيهَا وَتَنْبِيهَا، عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تبتعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل الرسول: ما قالوا؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليقبوا ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله.....

قوله: (وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار)، قال الزجاج: «الأسير في ذلك الوقت كان من الكفار. وقد مدح الله من يطعم الأسير، وهذا يدل على أن في إطعام أهل الحبوس ثواباً جزيلاً. وأهل الحبوس: الأسراء»^(١). روى محيي السنة عن مجاهد وسعيد بن جبيرة وعطاء: «هو المسجون من أهل القبلة، وقال الحسن وفتادة: وفيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حسن، ويرجى ثوابه»^(٢).

قوله: (هو الأسير من أهل القبلة)، هذا إنما يستقيم إذا أتق الإطعام^(٣) في دار الحرب من السلم لأسير في أيديهم.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٩)، وفي (ف): «الأسرى».

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٢٩٤-٢٩٥) بتصرف.

(٣) في (ف): «الطعام».

ويجوز أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً. وعن مجاهد: أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله منهم فأثنى عليهم. والشكور والكفور: مَصْدَرَانِ كَالشُّكْرِ وَالكُفْرِ. ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ يَحْتَمِلُ: إِنَّ إِحْسَانَنَا إِلَيْكُمْ لِلخَوْفِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَا لِإِرَادَةِ مُكَافَأَتِكُمْ؛ وَإِنَّا لَا نَرِيدُ مِنْكُمْ الْمَكَافَأَةَ لِخَوْفِ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَلَبِ الْمَكَافَأَةِ بِالصَّدَقَةِ. وَوَصَفُ الْيَوْمِ بِالْعَبُوسِ مَجَازٌ عَلَى طَرِيقَيْنِ: أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةِ أَهْلِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، كَقَوْلِهِمْ: نَهَارُكَ صَائِمٌ؛ رُوي أَنَّ الْكَافِرَ يَعْبُسُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقَطِرَانِ، وَأَنْ يُشَبَّهَ فِي شِدَّتِهِ وَضَرَرِهِ بِالْأَسَدِ الْعَبُوسِ أَوْ بِالشَّجَاعِ الْبَاسِلِ. وَالْقَمَطَرِيُّ: الشَّدِيدُ الْعَبُوسِ الَّذِي يَجْمَعُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ،

قوله: (ويجوز أن يكون بياناً وكشفاً عن اعتقادهم)، عطف على قوله: «ويجوز أن يكون قولاً باللسان»، يعني: قوله: ﴿إِنَّمَا نَطْمَعُكُمْ﴾ واردة على إرادة القول، وهذا القول يجوز أن يكون بلسان القول، وأن يكون بلسان الحال، والأول على وجهين: أحدهما: يقولون ذلك لثلاث مجازيهم المستجدي بالشكر أو بمثله. وثانيهما: يقولون ليُبْتَهُوهم على ما ينبغي من الإخلاص، قال الزجاج: «وجائز أن يكونوا^(١) يطعمون ولا ينطقون بهذا، ولكن قصدهم في إطعامهم هذا، فترجم عما في قلوبهم، وكذلك: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾^(٢). روى محيي السنة عن مجاهد وسعيد بن جبير: «إنهم لم يتكلموا به، ولكن علم الله ذلك من قلوبهم فأثنى عليهم»^(٣). وقلت: دل هذا على إثبات الكلام النفسي.

قوله: (وأن يشبهه في شدته وضرره بالأسد العبوس)، وعلى الأول من الإسناد المجازي، وعلى هذا من الاستعارة المكنية.

(١) في الأصول الخطية: «يكون».

(٢) «معالم القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٩).

(٣) «معالم التنزيل» (٨: ٢٩٥)؛ قاله في تفسير الآية (٩) من سورة الإنسان.

قال الزجاج: يُقال: اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت فطريها وزمت بأنفها؛ فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدة، قال أسد بن ناعصة:

واصطليت الحروب في كل يوم
باسل الشر فمطير الصباح

[﴿فوقهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقنهم نضرة وسرورا﴾ * وجزئهم بما صبروا جنةً وحريرا﴾ * متكبين
فيها على الأراك لا يرون فيها شمسا ولا زمهيرا﴾ * ودانية عليهم ظلتها وذللت فطوقها نذيلًا﴾ * ويطاف
عليهم بانيب من فضة وأكواب كانت قواريرا﴾ * قواريرا من فضة فذروها نقيدا﴾ * وتسقون فيها كأسا كان مزاجها
زنجبيلًا﴾ * عينا فيها تسمى سلسيلا﴾ * * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا﴾ * وإذا
رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا﴾ * عليهم ياب سدين خضر ولأستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم
رؤبهم شرابا طهورا﴾ * إن هذا كان لكر جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾ * [١١-٢٢]

قوله: (وجمعت فطريها)، الأساس: «يُقال: جمع فلان فطريه إذا تعبر مغضبا، وأصله في الناقة إذا لقيحت فرمت برأسها وشالت بذنبها كبرا. يقال: رم بأفنه: رفع رأسه كبرا، ورأيت زامنا: شامحا لا يتكلم».

قوله: (واصطليت الحروب) البيت^(١)، اصطلى بهذا الأمر: إذا قاسى حره وشدته، يوم باسل^(٢): شديد، ويوم قماطر وقمطير: شديد، واقمطر يومنا: أي: اشتد، والباسل: الشجاع الذي اشتد كلوحه، وقوله: باسل الشر، كقول الحماسي^(٣):

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

(١) للشاعر الجاهلي أسد بن ناعصة التنوخي، له ترجمة في «المؤتلف والمختلف» للأمدي، ص ٢٥٦-٢٥٧، و«الأعلام» (١: ٢٩٨) للزركلي.

(٢) في (ف): «بأسه».

(٣) لم يعينه المرزوقي في «شرحه»، وفي «شرح التبريزي»: الحماسي هو الشاعر الجاهلي قريظ بن أنيف. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١: ٢٠) للمرزوقي، و(١: ٥) للتبريزي.

﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجّار وحزنيهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب، وهذا يدلّ على أنّ اليوم موصوفٌ بعبوسٍ أهله ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيثار. وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه: أنّ الحسن والحسين مريضاً، فعادهما رسول الله ﷺ في ناسٍ معه؛ فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولدك، فنذر عليٌّ وفاطمةُ وفضةُ جاريةً لهما إن برّأ بما بهما، أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض عليٌّ من شمعون الخبيري اليهودي ثلاثة أصوعٍ من شعير، فطحنن فاطمةُ صاعاً واختبرت خمسة أقراصٍ على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائلٌ فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكينٌ من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً؛ فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيمٌ، فأثروه؛ ووقف عليهم أسيرٌ في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك؛ فلما أصبحوا أخذ عليٌّ رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم! وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها، فساء ذلك، فنزل جبريلُ وقال: خذها يا محمد، هنّاك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

قوله: (أي: أعطاهم بدل عبوس الفجّار نضرة في الوجوه)، الراغب: «يُقال: لقيته بكذا إذا استقبلته به، قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾، وُلِقَاهُ كذا، ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٦]، ﴿وَنُلَقَّاهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]»^(١).

(١) «مفردات القرآن»، ص ٧٤٥.

فإن قلت: ما معنى ذُكِرَ الحرير مع الجنة؟ قلت: المعنى: وجزأهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعُري بُستاناً فيه مأكُلٌ هنيءٌ، وحريراً فيه ملبسٌ بهيئ. يعني: أن هواءها معتدلٌ، لا حرٌّ شمسٍ يَحْمِي ولا شدةٌ بردٍ تُؤْذِي. وفي الحديث: هواءُ الجنةِ سَجَسَجٌ، لا حرٌّ فيه ولا قَرٌّ. وقيل: الزمهريرُ القمر، وعن ثعلب: أنه في لغة طيء، وأنشد:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدِ اعْتَكَرَ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ

والمعنى: أن الجنة ضياءٌ فلا يُحتاج فيها إلى شمسٍ وقمر.

فإن قلت: ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾، علامَ عطفْتَ؟ قلت: على الجملة التي قبلها؛ لأنها في موضع الحال من المجزيين؛ وهذه حالٌ مثلها عنهم، لرجوع الضمير منها إليهم في «عليهم»، إلا أنها اسمٌ مفرد، وتلك جملةٌ في حكم مفرد، تقديره: غير راثين فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانيةٌ عليهم ظلالها؛ ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزأهم جنةً جامعين فيها بين البعد عن الحرِّ والقرِّ ودنو الظلالِ عليهم. وقرئ: «ودانية» بالرفع، على أن «ظلالها» مُبتدأٌ، و«دانية» خبره، والجملة في موضع الحال؛ والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، والحال أن ظلالها دانيةٌ عليهم؛

قوله: (وليلةٌ ظلامها) البيت^(١)، اعتكَرَ الظلام: اختلط كأنه تراكم بعضه على بعض من بطنٍ انجلاته، وزهرت النار زهوراً: أضاءت، وأزهرتها أنا. يقول: رُبَّ ليلةٍ شديدةِ الظلمةِ قَطَعْتُهَا بالسُّرَى، والحال أن القمر ما طلعَ وما أضاء.

قوله: (والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، والحال أن ظلالها دانيةٌ)، يُريد: أن «دانية»، إذا قرئت بالنصب^(٢) يكونُ الحالُ مُفرداً؛ فالواو للعطفِ على الحالِ المتقدمة. وإذا

(١) لم أهد إلى قائله.

(٢) وهي قراءة الجمهور.

ويجوزُ أن تُجْعَلَ ﴿مُتَّكِبِينَ﴾ و﴿لَا يَرَوْنَ﴾ و﴿وَدَانِيَةً﴾ كُلُّهَا صفاتٍ لِـ ﴿جَنَّةٍ﴾. ويجوزُ أن يكونَ ﴿وَدَانِيَةً﴾ معطوفةً على ﴿جَنَّةٍ﴾، أي: وجَنَّةٌ أُخْرَى دَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَّالُهَا، على أَنهم وُعدوا جَنَّتَيْنِ، كقولهِ ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، لأنَّهم وُصفوا بالخوف: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ [الإنسان: ١٠].

فإن قلت: فعلامُ عُطفِ ﴿وَدَانِيَةً﴾؟ قلتُ: هي، إذا رَفَعْتَ ﴿وَدَانِيَةً﴾، جملةً فعليةً معطوفةً على جملةٍ ابتدائية، وإذا نَصَبْتَهَا على الحال، فهي حالٌ من «دانية»، أي: تَدُنُو ظِلَّالُهَا عَلَيْهِمْ في حالِ تَدَلُّيلِ قَطوفِهَا لهم، أو معطوفةٌ عليها على: ودانيةٌ عليهم ظِلَّالُهَا، ومُتَدَلِّلةٌ قَطوفُهَا؛ وإذا نَصَبْتَ ﴿وَدَانِيَةً﴾ على الوَصْفِ، فهي صفةٌ مثلها؛ ألا ترى أنك لو قلتُ: جَنَّةٌ ذُلَّتْ قَطوفُهَا كان صحيحاً.....

فُرت بالرفع^(١) تكونُ الجملةُ الاسميةُ حالاً؛ فالواو للحالِ لا للعطفِ، وذو الحالِ الضميرُ في ﴿لَا يَرَوْنَ﴾، والحالُ متداخلةٌ لأنَّ ﴿مُتَّكِبِينَ﴾ قيل: حالٌ من مفعولِ ﴿وَجَزَّهَمَ﴾، و﴿لَا يَرَوْنَ﴾ من ضميرِ ﴿مُتَّكِبِينَ﴾^(٢). وإنا قيل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾، ولم يُقَل: منهم، لأنَّ الظلالَ عاليةٌ عليهم. قوله: (أن تُجْعَلَ ﴿مُتَّكِبِينَ﴾ و﴿لَا يَرَوْنَ﴾)، قيل: في جَعَلِ ﴿مُتَّكِبِينَ﴾ صفةً ضعفاً، لأنه حيثُ جارٍ على غيرِ مَنْ هُوَ له، فكانَ يجبُ إبرازُ الضميرِ.

قوله: (جملةٌ فعليةٌ معطوفةٌ على جملةٍ ابتدائية)، فيه لطيفةٌ، وهي أن استدامةَ الظلِّ مطلوبةٌ هناك. وأما التذليلُ^(٣) للقطفِ، فهو على التجددِ شيئاً غيبَ شيء^(٤)، قال الزجاج: «كلما أرادوا أن يَقْطَعُوا شيئاً منها ذُلَّلَ لهم ودنا منهم، فعوداً كانوا أو مُضْطَجِعِينَ أو قِياماً»^(٥).

(١) وهي قراءة أبي حيوة، كذا في «البحر المحيط» (٨: ٢٩٨) لأبي حيان.

(٢) انظر: «التيبان» (٢: ١٢٥٩) للعكبري.

(٣) في (ف): «التذليل»، وهو تحريف.

(٤) في (ط): «شيئاً بعد شيء»، وفي (ف): «شيئاً فشيئاً».

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦٠).

وتذليل القطوف: أن تجعل ذللاً لا تمنع على قطافها كيف شاؤوا! أو تجعل ذليلة هم خاضعة متقاصرة، من قولهم: حائطٌ ذليلٌ، إذا كان قصيراً. ﴿قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا﴾: قرنا غير منونين، وبتنوين الأول، وبتنوينها. وهذا التنوين بدلٌ من ألف الإطلاق، لأنه فاصلة؛ وفي الثاني لإتباعه الأول، ومعنى ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ أنها مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها.

قوله: (أو تجعل ذليلة)، قال: الأول: من الذلِّ، والثاني: من الذلِّ؛ بالضم. قال ابن جنِّي في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤] بالضمِّ والكسر في «الذلِّ»: «الذلُّ بالكسر: في الدابة؛ ضدُّ الصعوبة، وبالضمُّ: للإنسان وهو ضدُّ العزِّ؛ كأنهم فرَّقوا، لأن ما يلحق الإنسان أكبرُ قدرًا مما يلحق الدابة، فاختراروا الضمة لقوتها للإنسان، والكسرة لضعفها للدابة، ولا تستنكر مثل هذا»^(١).

قوله: (قرنا غير منونين، وبتنوين الأول، وبتنوينهما)، «نافع والكسائي وأبو بكر: بتنوينها، ووقفوا عليهما بالألف. وابن كثير: في الأول بالتنوين ووقف عليه بالألف، والثاني بغير تنوين ووقف عليه بغير ألف، والباقون: بغير تنوين فيها، ووقف حمزة عليها بغير ألف، ووقف هشامٌ عليهما بالألف صلة للفتحة، ووقف الباقون - وهم أبو عمرو وحفص وابن ذكوان - على الأول بالألف، وعلى الثاني بغير ألف»، قاله صاحب «التيشير»^(٢).

وقال الزجاج: «من صرف الأول فلائته رأسُ آية، ومن صرف الثاني أتبع اللفظ اللفظ، لأن العرب رُبما قلبت إعراب الشيء ليتبع اللفظ اللفظ، فيقولون: هذا جحرٌ صبَّ خرب؛ وإنما الخربُ من نعت الجحر»^(٣).

(١) «المحتسب» (٢: ١٧) لابن جنِّي.

(٢) انظر: «التيشير في القراءات السبع» للداني، ص ٢١٧-٢١٨.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦٠).

فإن قلت: ما معنى «كانت»؟ قلت: هو من «يكون» في قوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي: تكونت قوارير، بتكوين الله تفضيلاً لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين. ومنه «كان» في قوله: ﴿كَانَ مَرَاغِمًا زَمَجِيلاً﴾، وقرئ «قوارير» من فضة» بالرفع على: هي قوارير ﴿قَدَّرُوهَا﴾: صفة لـ «قوارير» من فضة؛ ومعنى تقديرهم لها: أنهم قَدَّرُوهَا في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم، فجاءت كما قَدَّرُوا. وقيل: الضمير للطائفتين بها، دل على ذلك قوله ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِنَّ﴾ [الإنسان: ١٥]، على أنهم قَدَّرُوا شرايتها على قَدْرِ الرِّي، وهو الدُّلُّ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز. وعن مجاهد: لا تفيض ولا تغيض. وقرئ: «قُدَّرُوهَا» على البناء للمفعول، ووجهه أن يكون من: قُدِّرَ، منقولاً من: قُدِّرَ، تقول: قَدَّرْتُ الشيءَ وقَدَّرنيه فلان؛ إذا جعلك قادراً له. ومعناه: جعلوا قادرين لها كما شاؤوا.

قوله: (أي: تكونت^(١) قوارير)، «قوارير»: حال، كما يُقال: خُلِقَتْ قوارير^(٢).

قوله: (وقيل: الضمير للطائفتين)، أي: الواو في ﴿قَدَّرُوهَا﴾^(٣)، وفي معناه أنشد المصنف لأبي تمام:

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ^(٤)

قوله: (ووجهه أن يكون من قُدِّرَ، منقولاً من قَدِّرَ)، قال صاحب «الكشف»: «أو هو من المقلوب، على تقدير: قَدَّرْتُ عليهم، أي: على ربهم، كما قالوا: إذا طَلَعَتِ الْجُوزَاءُ انتصب العودُ على الحِزْبِ، أي: انتصب الحِزْبُ على العود»^(٥).

(١) في (ف): «تَكَرَّرَتْ».

(٢) وهو إشارة إلى أن «كان» تامة.

(٣) في الأصول الخطية: «وقدروا».

(٤) «ديوان أبي تمام بشرح التبريزي» (٢: ٩٢).

(٥) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤١٠).

وأطلق لهم أن يُقدِّروا على حَسَبِ ما اشتَهَوْا، سُمِّيَتِ العَيْنُ زنجبيلًا لَطْعَمِ الزَّنجبيلِ فيها، والعَرَبُ تَسْتَلْذُهُ وَتَسْتَطِيبُهُ. قَالَ الأَعشى:

كَأَنَّ القَرْنُفَلَ وَ الزَّنجبيلَ ————— لَ باتا بفيها وَأزياً مَشُورا

وقال المسيَّبُ بنُ عَلس:

وَكَأَنَّ طَعَمَ الزَّنجبيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتُهُ وَسُلافةَ الحَمْرِ

﴿سَلَسَيْلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساعها، يعني أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة.

قوله: (وَأزياً مَشُورا)، أي: عَسلاً مُسْتَخْرَجاً مِنْ بَيْتِ النحل.

قوله: (وقال المسيَّبُ بنُ عَلس)، قيل: اسمه عمرو^(١)؛ وإِنَّمَا لُقِّبَ بالمسيَّبِ، لأنَّ أباه أعطاه إِبلاً يَزَعَاها، فَأَبْهَلَ أَصْرَتَها، فقال له: أَحَقُّ أَسائِكَ المِسيَّبِ. الأَصْرَةُ: جَمْعُ صِرار، وهو ما يُصَرُّ به الضَّرْعُ، ومعنى أَبْهَلَ أَصْرَتَها: عَطَّلَ الحَبالَ التي يُصَرُّ بها ضَرْعُ الناقة. والضميرُ في «به» في قوله:

وَكَأَنَّ طَعَمَ الزَّنجبيلِ بِهِ

للغم، يَصِفُ فَمَ امْرَأة.

قوله: (وسُلافةَ الحَمْرِ)، السُّلافُ: السائلُ مِنْ عَصيرِ العنبِ قَبْلَ أَنْ يُعَصَّر. وقيل: السُّلافةُ أَوَّلُ ولكلِّ شيءٍ عَصْرَتُهُ^(٢).

قوله: (وليس فيها لُدْعة)، اللُدْعُ - بالذالِ المعجمةِ والعينِ المهملة - : هو الإحراق.

(١) وقيل: اسمه زهير، شاعر جاهلي، كان أحد المقلِّين المفضَّلين في الجاهلية. انظر: «الأعلام» (٧: ٢٢٥) للزركلي.

(٢) انظر: «الصحاح» (٤: ١٣٧٧ - مادة سلف) للجوهري.

يقال: شراب سَلْسَلٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَبِيلٌ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة مُحاسية، ودلت على غاية السَّلَاسَة، قال الزَّجَاج: السَّلْسَبِيلُ في النِّعَةِ صِفَةٌ لِـ كَانِ فِي غَايَةِ السَّلَاسَةِ. وقُرئ: «سَلْسَبِيلٌ» على منع الصَّرْف، لاجتماع العَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيثِ. وقد عَزَّوْا إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ مَعْنَاهُ: سَلٌّ سَبِيلًا إِلَيْهَا، وَهَذَا غَيْرُ مَسْتَقِيمٍ عَلَى ظَاهِرِهِ، إِلَّا أَنْ يَرَادَ أَنْ جُمَلَةَ قَوْلِ الْقَائِلِ: سَلٌّ سَبِيلًا، جُعِلَتْ عَلَمًا لِلْعَيْنِ، كَمَا قِيلَ: تَأْبَطُ شَرَاءُ؛ وَذَرَى حَبًّا؛ وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَشْرَبُ مِنْهَا.....

قوله: (وقد عَزَّوْا إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ) إِلَى آخِرِهِ، رَوَى مُحْيِي السُّنَّةِ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ: «سُمِّيَتْ سَلْسَبِيلًا لِأَنَّهَا تَسِيلُ عَلَيْهِمْ فِي الطَّرِيقِ وَفِي مَنَازِلِهِمْ، تَنْبَعُ مِنْ أَصْلِ الْعَرْشِ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ إِلَى أَهْلِ الْجَنَانِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تُسَمَّى﴾. وَأَمَّا إِذَا جُعِلَتْ صِفَةً كَمَا قَالَ الزَّجَاجُ، فَمَعْنَى ﴿تُسَمَّى﴾: تُوصَفُ»^(١). الرَّاعِبُ: «سَلُّ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ نَزْعُهُ، كَسَلِّ السَّيْفِ مِنَ الْغِمْدِ. وَتَسَلَّسَلَ الشَّيْءُ: اضْطَرَبَ، كَأَنَّهُ تُصَوَّرَ مِنْهُ تَسَلُّلٌ مُتَرَدِّدٌ، فَرَدَّدَ لَفْظَهُ تَنْبِيهًا عَلَى تَرَدُّدِ مَعْنَاهُ، وَمِنْهُ السَّلْسِلَةُ. وَمَاءٌ سَلْسَلٌ: مُتَرَدِّدٌ فِي مَقَرِّهِ»^(٢) حَتَّى صَفَا، قَالَ:

أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٣)

وقوله: ﴿سَلْسَبِيلًا﴾، أَي: سَهْلًا لَدَيْدًا سَلِسًا، وَقِيلَ: هُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ سَلٍّ سَبِيلًا كَالْبَسْمَلَةِ، وَقِيلَ: اسْمٌ لِكُلِّ عَيْنٍ سَرِيعِ الْجَزْيَةِ. وَأَسَلَّهُ اللِّسَانَ: طَرَفُهُ»^(٤).

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٢٩٧) للبعوي، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦١).

(٢) في (ف): «مَقْرُوه».

(٣) عجز بيت لأبي كبير الهذلي، وصدرة:

أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ، وَذَكَرُهُ

انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣: ١٠٦٩).

(٤) «مفردات القرآن»، ص ٤١٨، ٤١٩.

إِلَّا مَنْ سَأَلَ إِلَيْهَا سَبِيلًا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ مَعَ اسْتِقَامَتِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ تَكَلَّفَ وَابْتَدَعَ؛ وَعَزُوهُ إِلَى مِثْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبَدَعَ، وَفِي شِعْرِ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ:

سَلْ سَبِيلًا فِيهَا إِلَى رَاحَةِ النَّفْسِ بِرَاحِ كَأَنَّهَا سَلَسَبِيلُ

و﴿عَيْنًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿زَنْجَبِيلًا﴾، وَقِيلَ: تُمَزَّجُ كَأُسْهُمَ بِالزَنْجَبِيلِ بَعِينَهُ. أَوْ يَخْلُقُ اللَّهُ طَعْمَهُ فِيهَا، وَ﴿عَيْنًا﴾ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ مَبْدَلَةٌ مِنْ ﴿كَأَسًا﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأَسًا كَأَسَ عَيْنٍ، أَوْ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ؛ شَبَّهُوا فِي حُسْنِهِمْ وَصَفَاءِ أَلْوَانِهِمْ وَانْبِثَائِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ بِاللُّؤْلُؤِ الْمُنْثُورِ. وَعَنْ الْمَأْمُونِ: أَنَّهُ لَيْلَةَ زُفْتٍ إِلَيْهِ بُورَانُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلِ وَهُوَ عَلَى بَسَاطٍ مَنْسُوجٍ مِنْ ذَهَبٍ وَقَدْ نَثَرَتْ عَلَيْهِ نِسَاءُ دَارِ الْخِلَافَةِ اللَّوْلُؤُ، فَنظَرَ إِلَيْهِ مَثُورًا عَلَى ذَلِكَ الْبِسَاطِ، فَاسْتَحْسَنَ الْمَنْظَرَ وَقَالَ: اللَّهُ دَرَّ أَبِي نُوَّاسَ، كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ:

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

قَوْلُهُ: (وَفِي شِعْرِ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ)، ذَكَرَ فِي «الْيَتِيمَةِ» أَنَّهُ لِحَسَنِ^(١) بْنِ مَطْرَانَ الشَّاشِيِّ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَ﴿عَيْنًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿زَنْجَبِيلًا﴾)، وَقَدْ مَضَى مِثْلُ هَذَا الْإِبْدَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ

كَأَيِّنْ كَانَتْ نِزَاجُهَا كَأَفُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

قَوْلُهُ: (كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا^(٣))، «فَوَاقِعُهَا»: جَمْعُ فَاقِعَةٍ، وَهِيَ الْحُبَابَةُ عَلَى وَجْهِ الْخَمْرِ وَالْمَاءِ، وَالضَّمِيرُ فِي «فَوَاقِعِهَا» يَعُودُ إِلَى الْحَمْرِ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: «صُغْرَى وَكُبْرَى غَيْرُ جَانِزٍ؛ فَإِنَّ «فُعْلَى» أَفْعَلٌ لَا يَجُوزُ نَزْعُ اللَّامِ مِنْهَا، وَإِنَّمَا يَجُوزُ مِنْ «فُعْلَى» الَّتِي لَا «أَفْعَلٌ» لَهَا

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «لِحَسَنِ».

(٢) انظر: «يتيمة الذهر في محاسن أهل العصر» (٤: ١٣٤) للشعالي.

(٣) البيت لأبي نواس، انظر: «ديوانه»، ص ٢٤٣.

نحو حُبْلَى، إِلَّا أَنْ تَكُونَ «فُعْلَى» أَفْعَل مضافةً، وهاهنا قد عَرِيَتْ عن اللامِ والإضافة»^(١).
وأجابَ صاحبُ «الفلك الدائر»: «إِنَّا وَجَدْنَا «فُعْلَى» أَفْعَل فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَارِدَةٌ بِغَيْرِ لَامٍ
وَلَا إِضَافَةٍ، قَالَ الرَّاجِزُ:

فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مُدَّتِ^(٢)

وقال الآخر:

لَا تَبْخَلْنَ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبَلَةٌ^(٣)

والآخر:

وَإِنْ دَعَوْتَ إِلَى جُلَى وَمَكْرُمَةٍ^(٤)

(١) «المثل السائر» (٤٧: ١) لابن الأثير.

(٢) الراجز العجاج، وقبله:

مِنْ تُرِّلِ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتِ

انظر: «ديوانه»، ص ٥. وقد استشهد به الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ﴾ [طه: ٦٩].

انظر: «الكشاف» (١٠: ٢٠٧).

(٣) عجزه:

فَلَيْسَ يُنْقِصُهَا التَّبَذِيرُ وَالسَّرْفُ

وبعده:

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أُذْبِرَتْ خَلْفُ

لم أهتمد إلى قائلها، وقد أنشدهما حجة الإسلام في «الإحياء» (٣: ٣٣٧) في حديث له عن فضيلة
السَّخَاءِ، وَفِي مَعْنَاهُمَا قَوْلُ الْإِمَامِ عَلِيِّ: «إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَانْفِقْ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تَفْنَى، وَإِذَا أُذْبِرَتْ
عَنْكَ فَانْفِقْ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى»، وَكَأَنَّ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ وَحْيِ كَلِمَةِ الْإِمَامِ كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ.

(٤) عجزه:

يَوْمًا سَرَاةً كَرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا

وقيل: شُبِّهوا باللؤلؤِ الرَّطْبِ إذا نُثرَ مِنْ صَدْفِهِ، لأنه أَحْسَنُ وَأَكْثَرُ ماءً ﴿رَأَيْتَ﴾ ليس له مفعولٌ ظاهرٌ ولا مقدّرٌ ليشيعَ ويَعَم، كأنه قيل: وإذا أوجدتَ الرؤيةَ ثَمَّ، ومعناه: أنْ بَصَرَ الرَّائِي أَيْنَمَا وَقَعَ لم يتعلّقْ إدراكُهُ إلا بنعيمٍ كثيرٍ ومُلْكٍ كبيرٍ، و﴿ثُمَّ﴾ في موضعِ النَّصْبِ على الظرفِ، معناه: في الجنة. ومَنْ قَالَ: معناه: «ما ثَمَّ» فقد أخطأ، لأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ صلةٌ لـ «ما»، ولا يجوزُ إسقاطُ الموصولِ وتركُ الصّلةِ.....

وقالوا: طُوبَى لكَ. وفي البيتِ وَجْهٌ آخَرٌ، وهو أن يُجْعَلَ «مِنْ» في قوله: مِنْ فَوَاقِعِهَا، زائدةٌ على مذهبِ الأَخْفَشِ في الواجبِ، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ [النور: ٤٣]، فعلى هذا هي مضافةٌ في البيتِ^(١).

قوله: (وقيل: شُبِّهوا باللؤلؤِ الرَّطْبِ إذا نُثرَ مِنْ صَدْفِهِ)، وعلى هذا: التشبيهُ في حكمِ المفردِ لأنهم شُبِّهوا باللؤلؤِ، المخصوصِ^(٢). روى مُحَبِّي السُّنَّةِ عَن عَطَاءٍ: «يُرِيدُ في بياضِ اللؤلؤِ وَحُسْنِهِ، واللؤلؤُ إذا نُثِرَ مِنَ الخَيْطِ على البساطِ، كَانَ أَحْسَنَ مِنْهُ منظوماً»^(٣). وعلى الأوّلِ مُرَكَّبٌ، والوجهُ مُتَعَدِّدٌ؛ لأنَّ الأَنْثَاثَ^(٤) على الثاني غيرُ مَنْظُورٍ إليه. ويجوزُ أن يكونَ مُرَكَّباً لِتَصَوُّرِ النَّثْرِ مِنَ الصَّدْفِ مَعَ تَصَوُّرِهِ، ومنه قولُ البُحْتَرِيِّ:

إِذَا نَصَّوْنَ شُفُوفَ الرِّيطِ آوِنَةً قَشَّرْنَ عَن لؤلؤِ البَحْرَيْنِ أَصْدَافاً^(٥)

شَبَّهَ أَجْسَادَهُنَّ إِذَا خَلَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ، بِلؤلؤِ قُشَّرَ عَنْهُ الصَّدْفُ.

= من قصيدة لبعض بني قيس بن ثعلبة، مطلعها:

إنّا مُحْيِوِكُ يَا سَلْمَى فحِينَا وَإِنْ سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا

انظر: «شرح الحماسة» (١: ٧٥) للمرزوقي.

(١) «الفلک الدائر علی المثل السائر» (٤: ٤٣) لابن أبي الحديد، ضميمة «المثل السائر».

(٢) في (ح) و(ف): «باللؤلؤ هذا هي مضافة في البيت المخصوص»، وفيه خلل ظاهر.

(٣) «معالم التنزيل» (٨: ٢٩٧).

(٤) في (ف): «الانتثار».

(٥) «ديوانه» (٣: ١٣٨٠).

﴿كَبِيرًا﴾ واسعاً وهنيئاً.

يروى: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً ينظرُ في مُلكه مسيرةَ ألفِ عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه». وقيل: لا زوالَ له، وقيل: إذا أرادوا شيئاً كان. وقيل: تُسَلَّمُ عليهم الملائكةُ ويستأذنونَ عليهم. قرئ: «عاليهم» بالسكون، على أنه مبتدأٌ خبره ﴿ثِيَابٌ سُندِسٌ﴾، أي: ما يعلوهم من لباسهم ثيابُ سندسٍ. و«عاليهم» بالنصب، على أنه حالٌ من الضميرِ في ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أو في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾.....

قوله: ﴿كَبِيرًا﴾: واسعاً وهنيئاً، قيل: المرادُ بالواسعِ امتدادهُ في الطولِ والعرضِ، وبالهنيءِ سلامتهُ عما يُنغص. ثم حَقَّقَ الأوَّلَ بقوله: «يُروى: أن أدنى» إلى آخره، والثاني بقوله: «لا زوالَ له»؛ وذلك أن التعمَّةَ إذا كانت في معرضِ الزوالِ، لا يتلذَّذُ به صاحبُه، ولا يستبشِرُ به الاستبشارُ التام، قال:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ
تيقنَ عنه صاحبُه أنيقالاً^(١)

وإنما فُسِّرَ الكبيرُ بالواسعِ الهنيءِ لإطلاقه، فأعتربه من جهة اللفظِ والمعنى. وأما روايةُ قوله: «إن أدنى أهلِ الجنةِ منزلةٌ»، [فقد]^(٢) مضى تحريمُه في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، قال القاضي: «وللعارفِ أكبرُ من ذلك، وهو أن تنتقشَ نفسه بجلايا الملوكِ وحفايا الملكوتِ، فيستضيءُ بأنوارِ قُدسِ الجبروتِ»^(٣).

قوله: ﴿قُرِئَ: «عاليهم» بالسكون﴾، نافعٌ وحمزةٌ: «عاليهم»، بإسكانِ الياءِ وكسرِ الهاءِ، والباقون: بفتحِ الياءِ وضمِّ الهاءِ^(٤).

(١) البيت للمتنبي، انظر: «العرف الطيب» (١: ٢٩١).

(٢) زيادة يقتضيهما السياق.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٢٩)؛ قاله في تفسير الآية (٢٠) من سورة الإنسان.

(٤) بإسكانِ الياءِ، على الابتداءِ وخبره ﴿ثِيَابٌ سُندِسٌ﴾، وفتحِ الياءِ على الحال. انظر: «حجة القراءات»

لابن زنجلة، ص ٧٤٠.

أي: يطوف عليهم ولدانٌ عالياً للمطوفِ عليهم ثيابٌ، أو حَسَبْتَهُمْ لَوْلَوْأَ عالياً لهم ثياب سُندس. ويجوزُ أن يراد: رأيتَ أهلَ نعيمٍ ومُلِكٍ عليهم ثيابٌ. و«عاليَتَهُمْ»: بالرفعِ والنصبِ على ذلك. و«عَلَيْهِمْ». و﴿خُضِرُواِِسْتَبْرَقًا﴾ بالرفعِ، حملاً على الثيابِ، بالجرِ على السُّندسِ. وقُرئ: «وَاسْتَبْرَقًا» نصباً في موضعِ الجرِ على مَنعِ الصرفِ لأنه أعجمي، وهو غلطٌ لأنه نكرةٌ يدخله حرفُ التعريف؛ تقول: الإِسْتَبْرَقُ، إلا أن يَزْعَمَ ابنُ محيصن أنه قد يُجعلُ عَلماً لهذا الصُّرْبِ من الثيابِ.

قوله: (أَوْ حَسَبْتَهُمْ لَوْلَوْأَ عالياً لهم ثيابٌ)، عَطَفَ على ﴿يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ﴾، وَهَذَا لَفٌ وَنَشْرٌ لِمَا لَفَّ أَوَّلًا فِي الْحَالِيْنَ. والفرقُ أنه إذا كَانَ حَالاً مِنْ ضَمِيرِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وَهَمَّ الْمُؤْمِنُونَ، كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ ثِيَابٌ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «لِلْمَطُوفِ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ». وإذا كَانَ مِنْ ضَمِيرِ ﴿حَسَبْتَهُمْ﴾، كَانَ عَلَى الْغِلْمَانِ ثِيَابٌ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: «لَهُمْ ثِيَابٌ»، عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ. «الانْتِصَافُ»: «فِي هَذَا نَظَرٌ، لِأَنَّهُ جَعَلَهُ دَاخِلًا فِي مَضْمُونِ الْحِسَابِ، وَكَيْفَ هَذَا وَهَمَّ لِابْسُونَ السُّنْدَسِ حَقِيقَةً، بِخِلَافِ كَوْنِهِمْ لَوْلَوْأَ، فَإِنَّهُ تَشْبِيهٌُ وَتَمَثِيلٌ»^(١).

قوله: (و«عاليَتَهُمْ»: بالرفعِ والنصبِ على ذلك)، أي: على المذكورِ مِنْ وَجْهِ الرَّفْعِ^(٢) وَالنَّصْبِ^(٣).

قوله: (و«عليهِمْ»)، أي: وقُرئ: «عليهِمْ»^(٤)، مكان: «عاليهِمْ». قوله: (و﴿خُضِرُواِِسْتَبْرَقًا﴾، بالرفعِ)، حَفِصٌ: بَرَفِعَهُمَا، وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو بَكْرٍ: بِخَفْضِ

- (١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٧٣).
 (٢) بالرفع قراءة ابن مسعود، قال الفراء: «وهي حجة لمن أرسل الباء وسكنها» «معاني القرآن» (٣: ٢١٩)، وانظر: «إعراب القرآن» (٥: ٦٧) لابن النحاس.
 (٣) بالنصب قراءة الأعمش، وهي بمنزلة قراءة من قرأ: ﴿خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ و﴿خَيْمَةً أَصْرُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣، المعارج: ٤٤]. انظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٥٥) لأبي علي الفارسي.
 (٤) قراءة مجاهد وابن سيرين، انظر: «إعراب النحاس» (٥: ٦٧) لابن النحاس، و«البحر المحيط» (٨: ٣٠٠) لأبي حيان.

وَقُرِي «وَاسْتَبْرَقَ»، بوصولِ الهمزةِ والفتح، على أنه مسمًى باستفعلٍ من البريق، وليس بصحيح أيضاً، لأنه مُعَرَّبٌ مشهورٌ تعريبه، وأنَّ أصله: استَبْرَه. ﴿وَحَلَّوْا﴾ عطف على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الإنسان: ١٥].

فإن قلت: ذَكَرَ هاهنا أن أساورَهم من فضة، وفي موضعٍ آخر أنها من ذهب.

قلت: هَبْ أنه قيل وحلَّوا أساورَ من ذهبٍ ومن فضة، وهذا صحيحٌ لا إشكال فيه، على أنهم يُسَوِّرون بالجنسين: إما على المعاقبة، وإما على الجمع، كما تُزَوجُ نساءُ الدنيا بين أنواعِ الحليِّ وتُجمع بينها، وما أحسنَ بالمعصم أن يكونَ فيه سواران: سوارٌ من ذهب، وسوارٌ من فضة! ﴿بَشْرًا بَاطِنًا﴾ ليس برجسٍ كخمرِ الدنيا؛ لأنَّ كونها رجساً بالشرع لا بالعقل، وليستِ الدارُ دارَ تكليفٍ.....

الأولُ وَرَفَعَ الثاني، وابنُ عامرٍ وأبو عمرو: برفعِ الأولِ وَخَفَضِ الثاني، وحمزةٌ والكسائيُّ: بِخَفَضِهَا^(١).

قوله: (كما تُزَوجُ)، بالتاءِ والزَّايِ والجيم، ويُروى: «تُزَوجُ»، بالراءِ والحاء.

الجوهري: «المُزَوجَةُ في العملين: أن يعملَ هذا مَرَّةً وهذا مَرَّةً». «كما تُزَوجُ» نَشَرُ لقوله: «على المعاقبة»، وتُجْمِعُ لقوله: «على الجمع».

قوله: (بالشرع لا بالعقل)، خبرٌ لـ «أن»، يُريدُ أن كَوْنَ الخمرِ رجساً ثابتٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ ابتلاءً، لأنَّ^(٢) فيها ما يُنَجِّسُهُ العَقْلُ مِنَ القاذورات. والآخرةُ ليست دارَ ابتلاءٍ واختبار، بل فيها ما تُشْتَهِي الأَنْفُسُ وتَلدُّ الأَعْيُنُ، فعلى هذا: معنى ﴿طَهُورًا﴾ رَفَعَ المانعِ الشَّرْعِيِّ.

(١) انظر حجَّتْهم في هذه الوجوه: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٤٠-٧٤١، و«الحجة للقراء السبعة»

(٦: ٣٥٧-٣٦١) لأبي علي الفارسي.

(٢) في (ح): «لا أن»، وليس بصواب.

أو لأنه لم يُعصِرَ فتمسَّه الأيدي الوَضْرَةَ، وتدوَّسه الأقدامُ الدَّنِسَةَ، ولم يُجْعَلْ في الدَّنَانِ والأباريقِ التي لم يُعْنِ بتنظيفِها. أو لأنه لا يُؤوَلُ إلى النجاسةِ لأنه يرشُّ عرقاً من أبدانهم له ريحٌ كريح المسك. أي: يقالُ لأهل الجنة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ وهذا إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من عطاءِ الله لهم: ما جُوزيتُم به على أعمالكم وشكر به سعيكم، والشكرُ مجاز.

[﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ * فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا *
وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ ٢٣-٢٦]

تكريرُ الضميرِ بعد إيقاعه اسماً لـ «إِنَّ»: تأكيدٌ على تأكيدٍ لمعنى اختصاصِ الله بالتنزيل، ليتقررَ في نفسِ رسولِ الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزَّلُ.....

قال القاضي: «شرباً طهوراً: يريدُ به نوعاً آخرَ تفوقَ على النوعين المتقدمين، ولذلك أسندَ سقَّيه إلى الله سبحانه وتعالى، ووصَّفه بالطهورية؛ فإنه يطهِّرُ شاربه عن الميلِ إلى اللذاتِ الحسية^(١)، والركونِ إلى ما سوى الحق، فيتجرَّدُ لطلعةِ جماله، مُلتدداً ببقائه، باقياً ببقائه، وهي مُنتهى درجاتِ الصديقين، ولذلك حَتَمَ به على ثوابِ الأبرار^(٢)».

قوله: (الأيدي الوَضْرَةَ)^(٣)، الجوهري: «الْوَضْرُ: الدَّرَنُ والدَّسَمُ»، قال:

أباريقُ لم يعلِّقْ بها وَضْرُ الزُّبَيْدِ^(٤)

(١) في (ح) و(ف): «الحسنة».

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٣٠) للبيضاوي؛ قاله في تفسير الآية (٢١) من سورة الإنسان.

(٣) في (ف): الناضرة.

(٤) البيت للشاعر أبي الهندي، وصدره:

سَيُغْنِي أَبَا الْهِنْدِيِّ عَنِ وَطْبِ سَالِمٍ

انظر بعضاً من أبيات القصيدة، ونتاجاً من أخباره: «طبقات الشعراء» لابن المعتز، ص ١٣٦-١٤٣.

لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمة و صواباً، كأنه قيل: ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً منجماً إلا أنا لا غيري، وقد عرفنتي حكيماً فاعلاً لكل ما أفعله بدواعي الحكمة؛ ولقد دعنتي حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمكافاة والمصابرة، وسأنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح، وتأخير نصرته على أعدائك من أهل مكة؛ ولا تطع منهم أحداً قلة صبر منك على أذاهم ووضجرهم من تأخر الظفر، وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونته إلى أن يرجع عن أمره، ويبدلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم إن أجابهم.

قوله: (ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً منجماً إلا أنا لا غيري)، هو نحو قولك: ما يقوم إلا زيداً لا (١) عمرو، وقد منعه صاحب «الفتاح» (٢).

قوله: (وقد عرفنتي حكيماً)، حال من فاعل «نزل»، وإنما اعتبرت في الآية معنى الحكمة، ليرتب عليه قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

قوله: (بالمكافاة)، أي: كفت الحرب من الطرفين. الأساس: «صافوهم ولاؤهم ثم كافوهم، أي: حاجروهم، وتكافؤوا: تحاجروا».

قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الصادر عن الحكمة)، أي: نحن نزلنا الأمر بالمكافاة والمصابرة، فلا تطلب وجه حكمة في ترك القتال (٣).

قوله: (ويبدلون له أموالهم)، روى محيي السنة عن مقاتل: أراد بـ «الائتم» عتبة بن ربيعة، وبـ «الكفور» الوليد بن المغيرة، قال للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال،

(١) في (ف): «إلا».

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص ٢٩٣.

(٣) من قوله «قوله: بالمكافاة» إلى هنا سقط من (ف).

فإن قلت: كانوا كلهم كفرة، فما معنى القسمة في قوله ﴿إِنَّمَا أَوْكَفَرُوا﴾؟

قلت: معناه ولا تطع منهم ركباً لما هو إثمٌ داعياً لك إليه، أو فاعلاً لما هو كُفْرٌ داعياً لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثمٌ أو كُفْرٌ، أو غيرُ إثمٍ ولا كُفْرٍ، فنهى أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث. وقيل: الإثمُ عُتْبَةٌ؛ والكُفْرُ: الوليد؛ لأنَّ عتْبَةً كان ركاباً للمآثم، مُتَعاطِياً لأنواعِ الفُسُوقِ؛ وكان الوليدُ غالباً في الكُفْرِ شديدَ الشَّكِيمَةِ في العتْوِ.

فإن قلت: معنى «أو»: ولا تطع أحدهما، فهلّا جيء بالواو ليكون نهياً عن طاعتها جميعاً؟

قلت: لو قيل: ولا تطعها، لجاز أن يطع أحدهما؛ وإذا قيل: لا تطع أحدهما، علم أنّ الناهي عن طاعة أحدهما، عن طاعتها جميعاً انتهى.....

فارجع عن هذا الأمر؛ قال عتبة: فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله^(١) هذه الآية^(٢).

قوله: (معناه: ولا تطع منهم ركباً لما هو إثمٌ داعياً لك إليه، أو فاعلاً لما هو كُفْرٌ داعياً لك إليه)، قال القاضي: «التقسيم باعتبار ما يدعونه إليه؛ فإن ترتب النهي على الوصفين مُشعرٌ بأنه لأجلهما، وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإثم والكفر محظوراً^(٣)؛ فإن مطاوعتهما فيما ليس بإثم ولا كُفْرٍ غيرُ محظور»^(٤).

قوله: (وإذا قيل: لا تطع أحدهما، علم أنّ الناهي عن طاعة أحدهما: عن طاعتها جميعاً انتهى)، قيل: جوابه فاسدٌ، لاحتمال أن يكون المطلوب ترك واحدٍ منهما، أي واحدٍ كان، لا

(١) سقط لفظ الجلالة «الله» من الأصول الخطية.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٢٩٩)؛ قاله في تفسير الآية (٢٤) من سورة الإنسان.

(٣) سقط لفظ «محظوراً» من تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل».

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٣٠).

تَرَكَ كُلَّ وَاحِدٍ. وَيَجُوزُ لَهُ الْإِثْبَانُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا، أَيُّ وَاحِدٍ كَانَ، بِشَرَطِ تَرْكِ الْآخَرِ. أَيُّ خَيْرٍ كَانَ. وَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ أَنَّ «أَوْ» فِي الْإِثْبَاتِ تُفِيدُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ، وَفِي النَّهْيِ تُفِيدُ نَهْيَ كِلَا الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

وَقُلْتُ: هَذَا السُّؤَالُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ «أَوْ» لِلتَّخْيِيرِ، وَهُوَ عَيْنُ السُّؤَالِ الَّذِي أوردَهُ الْمَصْنُفُ، حَيْثُ قَالَ: «مَعْنَى ﴿أَوْ﴾: وَلَا تُطْعَ أَحَدَهُمَا، فَهَلَّا جِيءَ بِالْوَاوِ إِلَى آخِرِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ جَوَابَ الْمَصْنُفِ إِنَّمَا يَتِمُّ إِذَا حَقَّقْنَا الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّؤَالَ الْأَوَّلَ وَارِدٌ عَلَى إِرَادَةِ الْعُمُومِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيُّمَا أَوْ كَفُورًا﴾، لِقَوْلِهِ: «كَانُوا كُلُّهُمْ كَفَرًا». وَ﴿أَوْ﴾ لِلتَّنْوِيعِ لِقَوْلِهِ: «فَمَا مَعْنَى الْقِسْمَةِ؟»، وَكَانَ الْوَصْفُ بِالْكَفُورِ وَالْإِيمِ عِلَّةً لِلنَّهْيِ كَمَا سَبَقَ.

وَالسُّؤَالُ الثَّانِي وَارِدٌ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِيمِ عُتْبَةٌ بِعَيْنِهِ، وَبِالْكَفُورِ الْوَلِيدُ نَفْسُهُ. وَالْمَرَادُ بِالْوَصْفَيْنِ الذَّمُّ، فَيُرَدُّ حَيْثُ نَزَّ السُّؤَالُ الَّذِي أوردَهُ، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ «أَوْ» يُؤْهِمُ أَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ طَاعَةُ أَحَدِهِمَا لَا عَلَى التَّعْيِينِ، وَالْحَالُ أَنَّ كِلَيْهِمَا مُسْتَحَقَّانِ لِأَنَّ لَا يُطَاعَا لِمَا عَلِمَ مِنْ حَالِهِمَا، وَلَوْ جِيءَ بِالْوَاوِ لِأَزِيلَ الْوَهْمِ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ السُّؤَالَ يُتَفَرَّعُ عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْفَاسِدَيْنِ^(١) فِيهِمَا.

وَتَقْرِيرُ هَذَا الْجَوَابِ: أَنَّ «أَوْ» حَيْثُ لَا يَسْتَلِيزُ لِلتَّخْيِيرِ حَتَّى يَلْزَمَنَا ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلإِبَاحَةِ، لِمَا عَلِمَ أَنَّ طَاعَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُخْتَرَزٌ عَنْهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ تَعَاطِي الْإِيمِ الْمُبَالِغِ وَالْكَفْرِ الْغَالِي. وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي الْمُبَالِغَةَ فِي النَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِمَا^(٢) مُنْفَرِدَيْنِ وَمُجْتَمِعَيْنِ، وَلَوْ قِيلَ: لَا تُطْعِمُهُمَا، لَدَلَّ الْمَنْطُوقُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِمَا مُجْتَمِعَيْنِ، وَأَوْهَمَ الْمَفْهُومُ جَوَازَ طَاعَةِ أَحَدِهِمَا فَقِيلَ: لَا تُطْعَ أَحَدَهُمَا، لِيَدُلَّ الْمَنْطُوقُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ طَاعَةِ أَحَدِهِمَا لَا عَلَى التَّعْيِينِ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُسْتَحَقَّانِ لِأَنَّ لَا يُطَاعَا لِمَا عَلِمَ مِنْ حَالِهِمَا، وَلَوْ جِيءَ بِالْوَاوِ لِأَزِيلَ الْوَهْمِ وَدَلَّ عَلَى الْفَخْوَى بِمُسَاعَدَةِ مُقْتَضَى الْمَقَامِ عَلَى النَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِمَا جَمِيعًا بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَى.

(١) فِي (ط) وَ(ح): «الْفَاسِدَانِ»، وَسَاقَطَ فِي (ف).

(٢) فِي (ح): «تَعَاطِيَهُمَا».

قَالَ الرَّجَاجُ: ﴿أَوْ﴾ هَاهُنَا أَوْ كَذِّ مِنَ الْوَاوِ، لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: لَا تُطْعِمُ زَيْدًا وَعَمْرًا، فَأَطَاعَ أَحَدُهُمَا كَانَ غَيْرَ عَاصِيٍّ. فَإِذَا أَبَدَلْتَهَا بِـ «أَوْ»، فَقَدْ دَلَّكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَهْلٌ لِأَنَّ يُعْصَى»^(١). وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ أَنَّ «أَوْ» الَّتِي لِلإِبَاحَةِ، إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الإِثْبَاتِ، كَانَ سَبِيلُهَا هَذَا السَّبِيلَ. فَإِذَا قُلْتَ: جَالِسِ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سَيْرِينَ، عَلِمَ أَنَّ الأَمْرَ وَارِدٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْمَجَالِسَةَ، لِمَا فِيهِمَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْمِزْيَةِ.

وَدَلَّ عَلَى الْفَحْوَى عَلَى اسْتِحْقَاقِهَا الْمَجَالِسَةَ مَجْتَمِعِينَ بِالطَّرِيقِ الأَوَّلِي؛ فَالإِبَاحَةُ إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنْ أَمْرِ خَارِجٍ لَا مِنَ اللَّفْظِ، كَمَا أَنَّ حَظَرَ^(٢) الإِبَاحَةَ عَنْ طَاعَةِ عُبَّةَ وَالْوَلِيدِ، إِنَّمَا نَشَأَ مِنْ أَمْرِ خَارِجٍ، وَهُوَ مَا فِيهِمَا مِنَ الإِثْمِ وَالْكَفْرِ الْغَالِي. وَيُؤَافِقُهُ قَوْلُ ابْنِ الْحَاجِبِ: «إِنَّ وَضَعَ «أَوْ» لِإِثْبَاتِ الْحُكْمِ لِأَحَدِ الأَمْرَيْنِ، إِلَّا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَتْ قَرِينَةٌ يُفْهَمُ مَعَهَا أَنَّ الأَمْرَ غَيْرُ حَاجِزٍ عَنِ الأَخْرَى، مِثْلَ قَوْلِكَ: جَالِسِ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سَيْرِينَ، سُمِّيَ إِبَاحَةً، وَإِنْ حَاجَزَ فَهُوَ لِأَحَدِ الأَمْرَيْنِ، وَإِنَّمَا أُخِذَ نَفْيُ الْحَاجِزِ عَنِ الأَخْرَى مِنْ أَمْرِ خَارِجٍ»^(٣).

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَعْضُهُمْ وَقَوْعَ ﴿أَوْ﴾ فِي النَّهْيِ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُطْعِمُ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفْرًا﴾، وَهَاهُنَا لَوْ انْتَهَى عَنْ أَحَدِهِمَا لَمْ يَمْتَثِلْ، وَلَا يُعَدُّ مُمْتَثِلًا إِلَّا بِالانْتِهَاءِ عَنْهُمَا جَمِيعًا، وَمِنْ ثَمَّ حَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّهَا بِمَعْنَى الْوَاوِ، وَالأَوَّلَى أَنْ تَبْقَى عَلَى بَابِهَا. وَإِنَّمَا جَاءَ التَّعْمِيمُ فِيهِمَا مِنْ أَمْرِ وَرَاءَ ذَلِكَ، وَهُوَ النَّهْيُ الَّذِي فِيهِ مَعْنَى النَّهْيِ، لِأَنَّ المَعْنَى قَبْلَ وُجُودِ النَّهْيِ: تُطْعِمُ إِثْمًا أَوْ كُفْرًا، أَي: وَاحِدًا مِنْهُمَا. فَإِذَا جَاءَ النَّهْيُ، وَرَدَّ عَلَى مَا كَانَ ثَابِتًا فِي المَعْنَى، فَيَصِيرُ المَعْنَى: وَلَا تُطْعِمُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَيَجِيءُ التَّعْمِيمُ فِيهِمَا مِنْ جِهَةِ النَّهْيِ، وَهِيَ عَلَى بَابِهَا فِيمَا

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦٣).

(٢) فِي (ف): «حظر».

(٣) «الإيضاح فِي شرح المِفْصَلِ» (٢: ٢١١) لابن الْحَاجِبِ.

كما إذا نهى أن يقول لأبويه: أف، عُلِمَ أنه منتهي عن ضربهما على طريق الأولى. ﴿وَأَذْكُرْ أُمَّ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وُدُّمْ عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ ﴿وَمِنْ أَيْلٍ فَأَسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصل له، يعني: صلاة المغرب والعشاء، وأدخل «من» على الظرف للتبعض، كما

ذُكرناه، لأنه لا يحصل الانتهاء عن^(١) أحدهما حتى ينتهي عنهما بخلاف الإثبات، فإنه قد يفعل أحدهما دون الآخر^(٢)، فليس بطائل^(٣)، والقول ما قالت حذام^(٤).

وتلخيصه: أن ﴿إِنَّمَا﴾ أو ﴿كَقَوْلَا﴾، إذا أريدَ بهما الجنس كان الوصفُ علةً للنهي، من حيث هو هو لا من حيث الذات، ولذلك جازت الإطاعة إذا فقدت. وإذا عُنيَ بهما العهد، كان النهي عن إطاعة الشخصين المعيّنين لما فيهما من الخلال^(٥) الذميمة، فلا يُعمل بالمفهوم؛ ولا يجوز طاعتها على أي حال كان؛ فإذا لا مدخل للنهي في العموم.

قوله: (ودُّمْ عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، ﴿وَمِنْ أَيْلٍ﴾ وبعض الليل فصل له، يعني صلاة المغرب والعشاء)، قيل: الليل اسمٌ لسوادٍ مُمتد، والليلة اسم لكل الليل، وأتى بصلاتي النهار وصلاتي الليل^(٦) ولم يظفر بصلاة^(٧) الظهر. والأقرب من حيث النظم: أنه تعالى لئلا نهى

(١) في (ف): «على»، وفي «الإيضاح»: من.

(٢) «الإيضاح في شرح المفصل» (٢: ٢١١-٢١٢).

(٣) جواب: وأما قوله، وفي (ح): «طائل»، وفي (ف): «وطاء لك»، وقوله: «فليس بطائل» سقط من (ط).

(٤) فيه إشارة إلى بيت الشاعر الجاهلي:

إذا قالت حذام فصددقوها
فإن القول ما قالت حذام

وجرى هذا البيت مجرى المثل، وصار يُضرب لكل مُتعدِّد بكلامه.

(٥) في (ف): «الخصال».

(٦) في (ح): «أتى بصلاتي الليل»، و(ف): «أتى بصلاة النهار وصلاة الليل». وصلاتا النهار هما: الفجر والعصر، وصلاتا الليل هما: المغرب والعشاء.

(٧) في (ف): «يظهر لصلاة».

دَخَلَ عَلَى الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤]. ﴿وَسَيِّحُهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾
وتَهَجِدْ لَهُ هَزِيعًا طَوِيلًا مِنَ اللَّيْلِ: ثُلثِيهِ، أَوْ نَصْفَهُ، أَوْ ثَلَاثَةَ.

[إِنِّ هَؤُلَاءِ يَجْتَنُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا
أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا] ﴿٢٧-٢٨﴾

﴿إِنِّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة ﴿يَجْتَنُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يُؤْتِرُونَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ
تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]. ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ قَدَامَهُمْ أَوْ خَلْفَ ظَهْرِهِمْ لَا يَعْبُونَ
بِهِ ﴿يَوْمًا نَقِيلًا﴾ اسْتَعِيرَ الثَّقِيلَ لَشِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ، مِنَ الشَّيْءِ الثَّقِيلِ الْبَاهِظِ الْحَامِلِ. وَنَحْوُهُ:
﴿نَقَلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. الْأَسْرُ: الرِّبْطُ وَالتَّوْتِيقُ، وَمِنْهُ: أُسِرَ
الرَّجُلُ إِذَا أُوتِقَ بِالْقَدِّ وَهُوَ الْإِسَارُ، وَفَرَسٌ مَّأْسُورٌ الْخَلْقُ، وَثَرَسٌ مَّأْسُورٌ بِالْعَقَبِ.
وَالْمَعْنَى: شَدَدْنَا تَوْصِيلَ عِظَامِهِمْ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَتَوْتِيقَ مَفَاصِلِهِمْ بِالْأَعْيَابِ، وَمِثْلَهُ
قَوْلُهُمْ: جَارِيَةٌ مَعْصُوبَةٌ الْخَلْقُ، وَتَجْدُولَتُهُ.

حَبِيْبِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، عَنْ طَاعَةِ الْإِثْمِ وَالْكَفُورِ، وَحَثَّ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى (١) أَذَاهُمْ وَإِفْرَاطِهِمْ فِي
الْعِدَاوَةِ، وَأَرَادَ أَنْ يُرْشِدَهُ إِلَى مُشَارَكَتِهِمْ، عَقَّبَ ذَلِكَ الْأَمْرَ بِاسْتِغْرَاقِ أَوْقَاتِهِ بِالِاسْتِغْرَالِ بِالْعِبَادَةِ
لَيْلًا وَنَهَارًا، بِالصَّلَوَاتِ كُلِّهَا مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ، وَبِالتَّسْبِيحِ لِمَا يُطَبَّقُ عَلَيْهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
تَعَلَّمْنَاكَ بِصَبْرٍ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨].

قَوْلُهُ: (هَزِيْعًا طَوِيلًا)، الْجَوْهَرِيُّ: «مَضَى هَزِيْعٌ مِنَ اللَّيْلِ، أَي: طَائِفَةٌ، وَهُوَ نَحْوٌ مِنْ ثُلَاثَةِ أَوْ رُبْعِهِ».

قَوْلُهُ: (وَتَجْدُولَتُهُ)، الْجَوْهَرِيُّ: «جَدَلْتُ الْحَبْلَ أَجْدَلُهُ جَدَلًا: فَتَلْتُهُ فَتَلًّا مُحْكَمًا، وَمِنْهُ:
جَارِيَةٌ تَجْدُولَةُ الْخَلْقِ: حَسَنَةُ الْجَدْلِ» (٢).

(١) فِي (ح): «عَنْ».

(٢) فِي (ح): «الْخَلْقُ» بَدَلَ «الْجَدْلِ».

﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ أهلكتناهم و﴿بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ﴾ في شِدَّةِ الْأَسْرِ، يعني: النشأة الأخرى. وقيل: معناه: بدلنا غيرهم بمن يُطِيع. وحقُّه أن يجيء بـ «إِنْ» لا بـ «إِذَا»، كقوله: ﴿وَبَرَّاتٍ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣].

قوله: (وَحَقُّهُ أَنْ يَجِيءَ بِـ «إِنْ» لَا بِـ «إِذَا»)، قَالَ الْمَصْنُفُ: «إِذَا: تَدْخُلُ عَلَى الْكَائِنِ (١) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَلْتَمَسُ كُورَتَ﴾ [التكوير: ١]، و«إِنْ» تَدْخُلُ (٢) عَلَى الْمَقْدَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]» (٣).

هَذَا رَدٌّ لِلْوَجْهِ الْآخِرِ، لِأَنَّ تَبْدِيلَ أَمْثَلِهِمُ الْعَاصِينَ بِالْمُطِيعِينَ فِي الدُّنْيَا مَشْكُوكٌ فِيهِ، فَحَقُّهُ أَنْ يُجَاءَ بِـ «إِنْ»، لِیُفْرَضَ كَمَا يُفْرَضُ مَا لَا يَحْقُقُ لَهُ.

وَأَمَّا التَّبْدِيلُ بِالْمَعْنَى السَّابِقِ، وَهُوَ تَبْدِيلُ أَمْثَلِهِمْ فِي شِدَّةِ الْأَسْرِ فِي النِّشْأَةِ الْآخِرَى فَمُحَقَّقٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَحَقُّهُ أَنْ يُجَاءَ بِـ «إِذَا».

والتبديل على الوجه الأول التغيير في الصفات، ولذا قال: في شِدَّةِ الْأَسْرِ، لِأَنَّ الذَّاتَ الْمَحْشُورَةَ هِيَ هَذِهِ الذَّاتُ.

وعلى الوجه الثاني بمعنى التغيير في الذات، ولذلك بدل (٤) قوله: «غَيْرِهِمْ» بقوله: «مَنْ يَطِيعُ».

(١) في (ح): «الكافرين»، وهو تحريف.

(٢) في (ف): «تصدر».

(٣) لم أتهتد إلى موضعه. وقال أبو بكر الحدادي اليميني في «الجوهرة النيرة» (١: ٣): «إِذَا: تَدْخُلُ عَلَى أَمْرِ كَائِنٍ أَوْ مُتَنظَّرٍ لَا عَمَالَةَ، وَ«إِنْ»: تَدْخُلُ عَلَى أَمْرِ رَيْبَا كَانَ وَرَيْبَا لَا يَكُونُ»، قَالَ فِي كِتَابِ الطَّهَارَةِ فِي مَعْرُضِ حَدِيثِهِ عَنِ الْآيَةِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ [المائدة: ٦].

(٤) في الأصول الخطية: «بين» بدل «بَدَل»، وليس بصواب.

[إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٩-٣١﴾]

﴿هَذِهِ﴾ إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ فمن اختار الخير لنفسه؛ وحسن العاقبة. واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة (وما يشاؤون) الطاعة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بقسرهم عليها

والوجه هو الأول، لأن الآية واردة عقب قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. أنكر عليهم ركونهم إلى هذه العاجلة التي هي لا طائل تحتها، بحيث بلغ إلى المحبة الذاتية، وذوهم عما هو مصيرهم إليه من الأمر المهول، بحيث بلغ إلى أن جعلوه كالشيء المتروك المنسي، ثم قال: نحن خلقناهم وشددنا توصيل أعصابهم^(١)، ليستغلوا بعبادتنا عن الالتفات إلى الغير وتشكروا تلك النعمة. ولا بُدَّ أن يفكك^(٢) هذا التركيب^(٣)، ويحلل هذا التوثيق، ثم يعيده كما هو الآن في شدة الأثر، للمجازاة على ذلك، وحقق ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

قوله: («وما يشاؤون») الطاعة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بقسرهم عليها، الإنصاف^(٤): «حرف النص، والآية حاضرة بالنفي والإثبات، ككلمة^(٥) لا إله إلا الله، وما ذكره مُضَادًّا للآية بزعمه، فالمعنى عنده أن مشيئة العبد الفعل، لا يكون إلا إذا قسره الله عليه، والقسر ينافي المشيئة، فحاصله أن مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت، فأراد إثبات المشيئة مطلقاً، فنفاها

(١) في (ف): «أعصابهم».

(٢) في (ح): «يشكك».

(٣) في (ف): «الترتيب».

(٤) في (ط) و(ف): «الانصاف»، وساقطة في (ح)، والنقل عن «الإنصاف».

(٥) في (ف): «كلمة».

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم وما يكون منهم ﴿حَكِيمًا﴾ حيث خلقهم مع علمه بهم.
وَقُرِي: ﴿تَشَاءُونَ﴾ بالتاء.

رأساً^(١). وَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ، الَّتِي تَلَاطَمَتْ فِيهَا أَمْوَاجُ الْقَدَرِ وَالْجَبْرِ؛ فَالْقَدَرِيُّ يَتَمَسَّكُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٢) خَاتِمَةً لِلسُّورَةِ، وَالْجَبْرِيُّ يَقُولُ: مَنْ ضَمَّ مَعَهَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، خَرَجَ مِنْهُ صَرِيحٌ مَذْهَبِنَا»^(٣).

وَقُلْتُ: وَفِي إِيقَاعِ ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٤) خَاتِمَةً لِلسُّورَةِ، إِذْ بَانَ بِإثْبَاتِ الْكَسْبِ لِلْمُكَلَّفِينَ، وَأَتَمَّ بِهِ يَسْلُكُونَ سُبُلَ النِّجَاةِ، وَبِهِ يَتَذَكَّرُونَ، وَيَتَفَعَّلُونَ بِإِزَالِ الْكُتُبِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ. ثُمَّ فِي تَعْقِيبِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، إِعْلَامٌ^(٥) بِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَقْلِلِينَ فِيهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْكَسْبَ أَيْضًا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، لِيَكُونَ اعْتِمَادُهُمْ عَلَيْهِ، وَتَفْوِضُهُمْ لِلْأُمُورِ إِلَيْهِ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. وَالِاسْتِنَاءُ مُفْرَعٌ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا وَقْتُ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ إِلَّا فِي حَالِ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٦).

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: ﴿تَشَاءُونَ﴾)، نَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَحَمَزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ: بِالتَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَالْبَاقُونَ: بِالْيَاءِ^(٧).

(١) «الإنتصاف من الانتصاف» (ق ١٤٥) لعلم الدين العراقي، وانظر: «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٧٦).

(٢) من قوله: «وما تشاءون الطاعة» إلى هنا سقط من (ح)، وقوله «خاتمة للسورة» سقط من (ط).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٢٣٠)، قاله في تفسير الآيتين (٢٩-٣٠) من سورة الإنسان.

(٤) من قوله: «وما يشاءون الطاعة» إلى هنا سقط من (ح).

(٥) في (ف): «إعلامهم».

(٦) «التيبان» (٢: ١٢٦١) للعكبري.

(٧) بالياء ردأ على قوله: ﴿وَيَذَرُونَ وراءَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٧]، و﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨].

وبالتاء على الخطاب، لأنه يدخل فيه معنى الخبر. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٤١، ٧٤٢.

فإن قلت: ما محل ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؟ قلت: النصبُ على الظرف، وأصله: إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: إلا ما يشاء الله؛ لأنَّ «ما» مع الفعل كـ «أَنْ» معه. ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هم المؤمنون، ونصبُ «الظَّالِمِينَ» بفعلٍ يُفسَّرُه. أعدَّ لهم، نحو: أوعدَّ وكافأً، وما أشبه ذلك. قرأ ابن مسعود: و«لِلظَّالِمِينَ»، على: وأعدَّ للظالمين، وقرأ ابن الزبير: و«الظَّالِمُونَ»، على الابتداء، وغيرها أولى لذهابِ الطباقِ بين الجملةِ المعطوفةِ والمعطوفِ عليها فيها، مع مخالفتها للمُصحف.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ ﴿هَذَا آتَى﴾ كَانَ جزاؤه على الله جنَّةً وحريراً».

قوله: (وغيرها أولى لذهابِ الطباقِ)، يعني: النَّصبُ والجرُّ أولى من الرَّفع، لما يلزمُ من الرَّفعِ المخالفةُ بين الجملتين، فإنَّ قوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فعليةٌ، و«الظالمون»^(٢) اسميةٌ، قال الزجاج: «الاختيارُ النَّصبِ، لأنَّهم يقولون: أعطيتُ زيداً وعمراً أعددتُ له بُراً، فيختارون النَّصبَ على معنى: وبررتُ عمراً: أعددتُ له بُراً، فلا يُختارون للقرآنِ إلا أجودَ الوجوه مع موافقةِ المصحف»^(٣).

ومن دعاءِ المصنِّف: «اللهم ارزقنا جنَّةً وحريراً، وحرِّزنا من النارِ تحريراً تحريراً».

تمَّت السُّورة

بحمدِ الله وعونه

وحُسنِ توفيقه

* * *

(١) في (ح): «لا».

(٢) «والظالمون أعدُّ...» قراءة ابن الزبير، وأبان بن عثمان، قال الفراء: «ولو كانت رفعاً كان صواباً». انظر: «معاني

القرآن» (٣: ٢٢٠)، و«البحر المحيط» (٨: ٣٠١) لأبي حيان، و«مغني اللبيب» لابن هشام، ص ٥٨٢.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦٤).

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَأَلْعَصْفَتِ عَصْفًا * وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا * فَأَلْفَرَقَتِ فَرَقًا * فَأَلْمَلَقَتِ
ذِكْرًا * عُدْرًا أَوْ نُذْرًا *] [١-٦]

أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِطَوَائِفَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَرْسَلَهُنَّ بِأَمْرِهِ فَعَصَفْنَ فِي مُضِيِّهِنَّ

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ خَمْسُونَ آيَةً، مَكِّيَّةٌ إِجْمَاعًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ ثِقَتِي

قَوْلُهُ: (أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِطَوَائِفَ)، قِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: بِطَوَائِفَ دُونَ طَائِفَةٍ، لِيُؤْذَنَ بِأَنَّ
«الْمُرْسَلَاتِ» جَمْعُ الْمُرْسَلَةِ، نَحْوُ: الْمَلَائِكَةُ الْمُرْسَلَةُ.

قَوْلُهُ: (فَعَصَفْنَ فِي مُضِيِّهِنَّ)، جَعَلَ الْفَاءَ عَاطِفَةً دَاخِلَةً بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ، نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَا لَهْفَ زَيَابَةَ لِلْحَارِثِ الصُّدِّ صَاحِبِ الْغَانِمِ فَالْأَيْبِ^(١)

(١) البيت لابن زبابة سلمة بن ذهل الجاهلي، انظر: «معجم الشعراء» للمرزباني، ضميمته «المؤتلف والمختلف»

كما تَعْصِفُ الرِّيحُ، تَخَفِّفًا فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَبَطَوَائِفَ مِنْهُمْ نَشْرَنَ أَجْنَحَتَهُنَّ فِي الْجَوِّ عِنْدَ انْحِطَاطِهِنَّ بِالْوَحْيِ، أَوْ نَشْرَنَ الشَّرَائِعَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ نَشْرَنَ النُّفُوسَ الْمَوْتَى بِالْكَفْرِ وَالْجَهْلِ بِمَا أَوْحَيْنَ، فَفَرَّقَنَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَالْقَيْنَ ذِكْرًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ﴿عَذْرًا﴾ لِلْمُحَقِّينَ ﴿أَوْ نَذْرًا﴾ لِلْمُبْطِلِينَ.

أَوْ أَقْسَمَ بِرِيَّاحِ عَذَابٍ أُرْسِلَهُنَّ فَعَصَفْنَ، وَبِرِيَّاحِ رَحْمَةٍ نَشْرَنَ السَّحَابَ فِي الْجَوِّ فَفَرَّقَنَ بَيْنَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَهُ كَسَفًا﴾ [الروم: ٤٨]،

أي: الذي صَبَحَ فغَنِمَ فَأَبَ، والفَاءُ تَدُلُّ عَلَى تَرْتِيبِ مَعَانِيهَا فِي الْوُجُودِ.

قَوْلُهُ: (بِمَا أَوْحَيْنَ)، تَنَازَعُ فِيهِ الْفِعْلَانِ، وَكَانَ التَّرْتِيبُ: فَالْقَيْنَ ذِكْرًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَفَرَّقَنَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، لَكِنَّهُ عَلَى مَنَوَالٍ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أَي: أُرِدْنَ أَنْ يُفَرَّقَنَّ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَالْقَيْنَ ذِكْرًا. وَفِي قَوْلِهِ: بَطَوَائِفَ مِنْهُمْ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الطَّوَائِفَ، غَيْرُ تِلْكَ الطَّوَائِفِ، وَالْوَاوُ عَطَفَتْ هَذِهِ الطَّوَائِفَ عَلَى تِلْكَ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «الْوَاوُ الْأُولَى لِلْقَسَمِ وَمَا بَعْدَهَا لِلْعَطْفِ، وَلِذَلِكَ جَاءَتْ الْفَاءُ»^(١).

وَقَالَ الْقَاضِي: «أَوْ أَقْسَمَ بِالنُّفُوسِ الْكَامِلَةِ الْمُرْسَلَةِ إِلَى الْأَبْدَانِ»^(٢) لِاسْتِكْمَالِهَا، فَعَصَفْنَ مَا سِوَى الْحَقِّ، وَنَشْرَنَ أَثَرَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ، فَفَرَّقَنَ بَيْنَ الْحَقِّ بِذَاتِهِ وَالْبَاطِلِ فِي نَفْسِهِ، قَرَأُوا كُلَّ شَيْءٍ هَالِكًا إِلَّا وَجْهَهُ، وَالْقَيْنَ ذِكْرًا بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَلْسِنَةِ إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ»^(٣).

قَوْلُهُ: (فَفَرَّقَنَ بَيْنَهُ)، الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى السَّحَابِ، أَي: الرِّيحُ الْفَارِقَاتِ نَشْرَنَ السَّحَابَ الْوَاحِدَ فِي الْجَوِّ، فَجَعَلَتْهُ قَزَعَةً قَزَعَةً، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَهُ كَسَفًا﴾ [الروم: ٤٨].

(١) «التيان» (٢: ١٢٦٢) للعكبري.

(٢) في (ف): «الإنذار».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٣٢)؛ قاله في تفسير الآيات (١-٥) من سورة المرسلات.

أو بسحائب نَشْرَنَ المَوَاتِ، ففَرَّقَنَ بَيْنَ مَنْ يَشْكُرُ اللهُ تَعَالَى وَبَيْنَ مَنْ يَكْفُرُ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦]، فَالْقَيْنَ ذِكْرًا: إِمَّا عُدْرًا لِلَّذِينَ يَعْتَذِرُونَ إِلَى اللهِ بِتَوْبَتِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ إِذَا رَأَوْا نِعْمَةَ اللهِ فِي الْغَيْثِ وَيَشْكُرُونَهَا، وَإِمَّا إِنْذَارًا لِلَّذِينَ يُغْفَلُونَ الشُّكْرَ لِقَوْلِهِ وَيَنْسَبُونَ ذَلِكَ إِلَى الْإِتْوَاءِ، وَجُعِلْنَ مَلَقِيَاتٍ لِلذِّكْرِ لِكَوْنِهِنَّ سَبَبًا فِي حَصُولِهِ إِذَا شُكِرَتِ النِّعْمَةُ فِيهِنَّ أَوْ كُفِّرَتْ.

قوله: (نَشْرَنَ المَوَاتِ)، الموات: الأرض. الراغب: «المَوَاتَانُ»^(١) بإزاء الحيوان، وهي الأرض التي لم تحمي للزرع، وأرض موات^(٢)»^(٣).

قوله: (إِمَّا عُدْرًا لِلَّذِينَ يَعْتَذِرُونَ) إلى قوله: (وَإِمَّا إِنْذَارًا لِلَّذِينَ يُغْفَلُونَ)، يُشْعِرُ بَأَنَّ «أَوْ» للتنويع، ومن ثم قال الدينوري في «مشكل القرآن»: «إِنْ «أَوْ» بمعنى الواو»^(٤).

قوله: (لِلَّذِينَ يُغْفَلُونَ)، أي: يتركون، يُقَالُ: أَغْفَلْتُ الشَّيْءَ، أَي: تَرَكْتُهُ عَلَى ذِكْرِ مَنْكَ.

قوله: (وَجُعِلْنَ مَلَقِيَاتٍ لِلذِّكْرِ)، أي: وجُعِلَتِ السَّحَابُ مَلَقِيَاتٍ لِلذِّكْرِ. وَالدُّكْرُ: التَّذْكِيرُ، أَي: سَبَبًا لِلتَّذْكِيرِ مِنْ حَيْثُ إِثْنَاهَا كَانَتْ سَبَبًا لِلنِّعْمَةِ، وَالنِّعْمَةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلشُّكْرِ وَالْكَفْرَانِ، فَكَأَنَّهَا أُلْقِيَتْ لِلتَّذْكِيرِ، وَقَالَتْ لِلْمَكْلَفِ: إِنَّ عَرَفْتَ شُكْرَ الْمُتَعَمِّمِ بِي، فَأَنْتَ مَعْدُورٌ، وَإِنْ أَنْكَرْتَهُ فَأَنْتَ مُعَذَّبٌ. وَحَاصِلُ الْوَجْهِ أَنْ الصِّفَاتِ الْخَمْسِ، إِمَّا مُجْرَاةٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، أَوْ عَلَى الرِّيَّاحِ أَوْ السَّحَابِ.

(١) في «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٢٨٢٦): «مَنْ أَحْيَا شَيْئًا مِنْ مَوَاتَانِ الْأَرْضِ فَلَهُ رَقَبَتَاهَا»، وانظر: «السنن الكبرى» (١٤٣: ٦) للبيهقي.

والمواتان فيه لغتان: سكون الواو وفتحها مع فتح الميم: مَوَاتَانِ وَمَوَاتَانِ. انظر: «النهاية» (٤: ٣٧٠-٣٧١) لابن الأثير.

(٢) الأرض الموات: التي لم تُزرع ولم تُعمر، وفي الحديث: «مَنْ أَحْيَا مَوَاتًا مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ»، انظر: «السنن الكبرى» (١٤٧: ٦) للبيهقي.

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٧٨٢.

(٤) «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، ص ٥٤٣.

فإن قلت: ما معنى عُرْفًا؟

قلت: متتابعة كَشَعْرِ العُرْفِ، يُقال: جاؤوا عُرْفًا واحداً؛ وَهُمْ عَلَيْهِ كَعُرْفِ الضَّبْعِ إذا تَأَلَّبُوا عَلَيْهِ، ويكونُ بِمعْنَى العُرْفِ الذي هو نَقِيضُ النُّكْرِ؛ وانتصابُهُ على أَنه مفعولٌ له، أَي: أُرْسِلْنَ لِلإِحْسَانِ والمعروف؛ والأوَّلُ على الحال. وقُرِي: «عُرْفًا» على التثْقيل، نَحْوُ «نُكْرًا» في «نُكْر».

فإن قلت: قد فَسِّرَتِ «المرسلات» بملائكة العذاب،

ومعْنَى «وَأَلْتَشْرَبَتْ» على الأول: إمَّا نَشْرُ الجَنَاحَ، أو الشَّرَائِعَ، أو النفوس. ومعْنَى «فَأَلْفَرَقَتْ»، مُزاوَلَةُ التَّمْيِيزِ بين الحَقِّ والباطل، ويكونُ إِسْنَادُ الذِّكْرِ إِسْنَاداً إلى الفاعلِ الحَقِيقِي. وعلى الثاني، إمَّا نَشْرُ الرِّيحِ السَّحَابِ، ومعْنَى الفارقاتِ مُحَاوَلَةُ الافتراقِ بين أجزاءِ السَّحَابِ، أو نَشْرُ السَّحَابِ الأَرْضِ^(١)، والفارقاتُ إظهارُ الفرقِ بين الشاكرِ وغيرِ الشاكرِ. وأما إلقاءَ الذِّكْرِ على التَّقْدِيرِينِ الأخيرينِ، فعلى الإِسْنَادِ المجازي، والله أعلم.

قوله: (مُتتَابِعَةٌ كَشَعْرِ العُرْفِ)، قيل: أصله: متتابعةٌ كَتَّابِعِ شَعْرِ العُرْفِ، فَحُذِفَ «متتابعة»، فبقي^(٢) «كَتَّابِعِ»، ثُمَّ حُذِفَ المثلُ، فبقي: تَتَابِعِ شَعْرِ العُرْفِ، ثُمَّ حُذِفَ «التتابع»، ثُمَّ «الشَّعْرُ»، فبقي «عُرْفًا».

قوله: (والأوَّلُ على الحال)، قال القاضي: «عُرْفًا: إمَّا نَقِيضُ النُّكْرِ، وانتصابُهُ على العِلَّةِ، أَي: أُرْسِلْنَ لِلإِحْسَانِ والمعروف. أو بِمعْنَى: المتتابعة، وانتصابُهُ على الحال»^(٣).

قوله: (قَدْ فَسِّرَتِ «المرسلات» بملائكة العذاب)، ولو قال: بريحِ عذابٍ أُرْسِلْنَ كانَ أصوبَ، لأنه ما سَبَقَ وَجْهٌ^(٤) يَدُلُّ على هذا التفسيرِ صريحاً.

(١) أَي: إحياءُها بعد موتها.

(٢) في الأصول الخطية: «بقي»، وكذا «بقي» بعدها.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٣٢).

(٤) في (ط): «لأن ما سبقَ وجهٌ»، ف «ما» بِمعْنَى «الذي»، وبذلك يَحْتَلِ المعنى.

فكيف يكون إرساھم معروفاً؟ قلت: إن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروفٌ للأنبياءِ
والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم.

فإن قلت: ما «العذر» و«النذر»، وبها انتصبا؟

قلت: هما مصدران: من: عذَرَ؛ إذا سخا الإساءة، ومن: أنذَرَ؛ إذا خَوْفَ على فعل،
كالكُفْرِ والشُّكْرِ، ويجوز أن يكون جمع عذير، بمعنى المَعْدرة؛ وجمع نذير بمعنى الإنذار،
أو بمعنى العاذِرِ والمُنذِرِ. وأما انتصابها فعلى البدلِ من «ذِكْرًا» على الوجهين الأولين،
أو على المفعولِ له. وأما على الوجه الثالث، فعلى الحالِ بمعنى عاذرين أو مُنذرين.
وقرنا: مُحَفِّفِينَ ومُثَقِّلِينَ.

[إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ لَوْعَةٍ * فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ * وَإِذَا
أُرْسِلُ أَقْنَتٌ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا آذَنَّاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * ٧ -

[١٥]

قوله: (وأما على الوجه الثالث فعلى الحال)، أي: على أن يكوناً^(١) بمعنى العاذِرِ والمُنذِرِ،
قال أبو اليقَاء: «على أن يكونا جمع عذير ونذير، حالان من الضمير في ﴿فَالْمُؤَلَّفِينَ﴾؛ أي
مُعذرين ومُنذرين»^(٢).

قوله: (وقرنا مُحَفِّفِينَ ومُثَقِّلِينَ)، ﴿عُذْرًا﴾، بالتخفيف: هي المشهورة، وبالتثقيـل: شاذة.
وأما ﴿نُذْرًا﴾ فبالتخفيف: ابنُ كثير وأبو عمرو وحمة والكسائي وهشامٌ وحفص، والباقون:
بالتثقيـل^(٣).

(١) في (ح)، (ف): «يكون»، ولعل الطيبي أعاد الضمير في «يكون» على الوجه الثالث.

(٢) «التيسان» (٢: ١٢٦٢) للعكبري.

(٣) قال الزجاج: «قرئت: «عُذْرًا أو نُذْرًا»، فمعناها المصدر، والعُذْرُ والعُذْرُ بمعنى واحد». انظر: «معاني

القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦٦)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٤٢.

إِنَّ الَّذِي تُوَعَدُونَهُ مِنْ مَجِيءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَكَائِنٌ نَازِلٌ لَا رَبَّ فِيهِ، وَهُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْمَعْنَى: وَرَبُّ الْمُرْسَلَاتِ ﴿طُمِسَتْ﴾ مُجِيتٌ وَمُحَقَّتٌ، وَقِيلَ: ذُهِبَ بِنُورِهَا وَمُحَقِّقٌ ذَوَاتُهَا، مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ ﴿أَنْثَرْتُ﴾ و﴿أَنْكَدَرْتُ﴾. وَيَجُوزُ أَنْ يُمَحَقَّ نُورُهَا ثُمَّ تُنْتَشِرَ مَحْوَقَةٌ النُّورِ ﴿فُرِجَتْ﴾ فَتُحْتَفِكُنَّ أَبُوَابًا، قَالَ:

الفارحي باب الأمر المبهم

﴿نُسِفَتْ﴾ كَالْحَبِّ إِذَا نُسِفَ بِالْمُنْسَفِ؛

قَوْلُهُ: (وَهُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ)، أَي: قَوْلُهُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾. قَالَ مُحَمَّدِي السُّنَّةِ: «إِلَى هُنَا أَقْسَامٌ، وَذَكَرَهَا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾، أَي: مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ وَالْبَعْثِ، ﴿لَوْفِعٌ﴾: لَكَائِنٌ، ثُمَّ ذَكَرَ مَتَى يَقَعُ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ﴾»^(١).

قَوْلُهُ: (وَمُحَقِّقٌ ذَوَاتُهَا)، الرَّاعِبُ: «الْمَحَقُّ التَّقْصَانُ، وَمِنْهُ الْمَحَاقُّ فِي آخِرِ الشَّهْرِ إِذَا مَحَقَّ الْهَلَالَ، يُقَالُ: يُحَقُّ إِذَا نَقَصَهُ وَأَذْهَبَ بَرَكَّتَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الْعَصَدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وَقَالَ: ﴿وَيَمْحَقُ الْكُفْرِيْنَ﴾ [آل عمران: ١٤١]»^(٢).

قَوْلُهُ: (الْفَارِحِيُّ بَابِ الْأَمْرِ الْمُبْهَمِ)، ذَكَرَ فِي «الْأَسَاسِ» أَنَّ سَبِيوِيَهَ أَنْشَدَهُ^(٣). فَرَجَّحَ الْبَابَ: أَي: فَتَحَهُ. هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُعْصِي الصَّلَاةِ﴾ [الحج: ٣٥]، وَوَقَعَتِ النُّونُ لِلْإِضَافَةِ. يَصِفُ الْقَوْمَ بِالْخَطَرِ وَالْجَاهِ، وَأَنْهَمُ إِذَا أَتَوْا بَابَ الْأَمْرِ يُفْتَحُ لَهُمْ، وَأَنْهَمْتُ الْبَابَ: أَغْلَقْتُهُ، وَأَمْرٌ مَبْهَمٌ: لَا مَاتِي لَهُ.

قَوْلُهُ: (بِالْمُنْسَفِ)، الْجَوْهَرِيُّ: «هُوَ مَا نُسِفَ بِهِ الطَّعَامُ، وَهُوَ شَيْءٌ طَوِيلٌ مَنْصُوبٌ الصَّدْرِ، أَعْلَاهُ مُرْتَفِعٌ».

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٣٠٤)؛ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٧) مِنْ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ.

(٢) «مفردات القرآن» للرَّاعِبِ، ص ٧٦١.

(٣) لِرَجَلٍ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ، انظُر: «الكتاب» (١: ١٨٥) لِسَبِيوِيَهَ. وَصَدْرَهُ:

العَاكِفِينَ عَلَى مُنِيفِ جَنَابِهِ

انظُر: «تنزيل الآيات على الشواهد من الآيات» - شرح شواهد الكشاف لمحب الدين أفتندي، ص ١٤٢.

وَنَحْوُهُ ﴿ وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ [الواقعة: ٥]، ﴿ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً ﴾ [الزمل: ١٤]. وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها، من: انشفت الشيء إذا اختطفته، وقُرئت: «طُمست» و«فُرجت» و«نُسفت» مشددة.

قُرئ: ﴿ أَفَنَتَّ ﴾ و«وُقُتت»، بالتشديد والتخفيف فيها. والأصل: الواو، ومعنى تَوْقِيَتِ الرُّسُلُ: تَبَيَّنُ وَقْتِهَا الَّذِي يَخْضَرُونَ فِيهِ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أُمَّهِمْ. والتأجيلُ: مِنَ الْأَجْلِ، كالتوقيت: مِنَ الْوَقْتِ. ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ تَعْظِيمٌ لِلْيَوْمِ، وَتَعْجِيبٌ مِنْ هَوَلِهِ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ بَيَانٌ لِيَوْمِ التَّأْجِيلِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ. وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى (وُقُتت): بُلِّغَتْ مِيقَاتِهَا الَّذِي كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأُجِّلَتْ: أُخِّرَتْ.

قوله: (قُرئ: ﴿ أَفَنَتَّ ﴾، و«وُقُتت»)، أبو عمرو: بالواو، والباقون: بالهمز. قَالَ الرَّجَاجُ: «فَمَنْ قَرَأَ بِالْهَمْزِ، فَإِنَّهُ أَبْدَلَهَا مِنَ الْوَاوِ لِأَنْضِإِهَا، وَكُلُّ وَاٍ انضَمَّتْ وَكَانَتْ صَمْتًا لَازِمَةً، جَاؤَ بِدَلَالِهَا بِالْهَمْزَةِ»^(١).

قوله: (ومعنى تَوْقِيَتِ الرُّسُلُ: تَبَيَّنَ وَقْتُهَا)^(٢)، قَالَ الْقَاضِي: «مَعْنَاهُ: عَيَّنَ لَهَا وَقْتُهَا الَّذِي^(٣) يَخْضَرُونَ فِيهِ لِلشَّهَادَةِ عَلَى الْأُمَّمِ بِحُصُولِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَيَّنُ لَهُمْ قَبْلَهُ»^(٤). قوله: (والوجه أن يكون معنى «وُقُتت»: بُلِّغَتْ)، أي: بُلِّغَتْ الرُّسُلُ مِيقَاتِهَا، قَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: «شَيْءٌ مَوْقُوتٌ وَمَوْقُتٌ: مَحْدُودٌ، وَجَاؤُوا لِلْمِيقَاتِ وَبَلَّغُوا الْمِيقَاتِ». وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ الْوَجْهُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٍ ﴾ مُجْمَلٌ يَشْتَمِلُ عَلَى أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَأَمَارَاتِهَا؛ فَقَوْلُهُ: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾، تَفْصِيلُهُ، وَيَنْصُرُهُ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ مُحْيِي السَّنَةِ: «ثُمَّ ذَكَرَ مَتَى يَقَعُ؟ فَقَالَ: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾»^(٥).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦٦)، وانظر: «حجّة القراءات»، ص ٧٤٢، ٧٤٣.

(٢) في (ح): «أمرها».

(٣) في (ح)، (ف): «الذين».

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٣٣).

(٥) «معالم التنزيل» (٨: ٣٠٤).

فإن قلت: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؟ قلت: هو في أصله مصدرٌ منصوبٌ ساءٌ مسدّدٌ فعله، ولكنه عدلٌ به إلى الرفعِ للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه، ونحوه ﴿سَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ويجوز: وَيَلَّا، بالنَّصْب؛ ولكنه لم يُقرأ به، يُقال: وَيَلَّا له وَيَلَّا كَيْلًا.

[﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ﴾ * ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ١٦-١٩]

قرأ قتادة: «تهلك»، بفتح النون، من هلكه بمعنى أهلكه، قال العجاج:

وَمَهْمَهُ هَالِكٍ مَنْ تَعَرَّجَا

ولا ارتياب أنه سبحانه وتعالى مخبرٌ عن وقوعها ويبلغ ميقاتها، وحضور الرسلِ والشهداء حينئذٍ فيها، وليس الكلام في تعيين وقتها للرسل، وإنما فسّر ﴿أَهْلَتْ﴾ في هذا الوجه بأخرت ليناسب بلوغ الميقات، وذكر في الأول أن التأجيل من الأجل كالتأقيت من الوقت، ليناسب ﴿أَفْنَتْ﴾ في كونها لبيان الوقت، قال الجوهري: «التوقيتُ تحديدُ الأوقات، يُقال: وَقَّتْه لِيَوْمٍ كَذَا، مَثَلُ أَجَلْتُهُ»، واللام للتأريخ^(١).

قوله: (وَيَلَّا كَيْلًا)، أي: يُكَالُ له الهلاكُ كَيْلًا.

قوله: (وَمَهْمَهُ هَالِكٍ مَنْ تَعَرَّجَا)^(٢)، إن روي: «هالك» مرفوعاً، فهو خبرٌ مبتدأٌ محذوف، والجملة صفةٌ «مهمه»، وقيل: تعرّج: مأل. وفي «ديوان الأدب»: «تعرّج عليه: أي تحبّس»^(٣)، وقيل: «التعريجُ على الشيء: الإقامة عليه»^(٤).

(١) كما تقول: كتبتُ ثلاثَ خَلَوْنٍ، انظر: «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٤: ١٣٧) لنظام الدين النيسابوري.

(٢) للعجاج، انظر: «ديوانه»، ص ١٠.

(٣) «الصحاح» (١: ٣٢٨ - عرج) للجوهري.

(٤) «ديوان الأدب» (٢: ٤٤٠) للفارابي.

﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمْ﴾ بالرفع على الاستئناف، وهو وعيد لأهل مكة، يريد: ثم نفعُ بامثله من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم. ويُقويها قراءة ابن مسعود: «ثُمَّ سَتَّبِعُهُمْ»، وقرئ بالجزم عطفاً على ﴿ثُمَّ لِي﴾.....

قوله: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمْ﴾ بالرفع على الاستئناف، أي: هو معطوفٌ من حيث احمية كم مر في قوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، أي هم يُسلمون^(١). قال أبو البقاء: «أي: ثم نحن نَتَّبِعُهُمْ، وليس بمعطوف؛ لأنَّ العطفَ يوجبُ أن يكونَ المعنى: أهلكنا المجرمينَ ثمَّ أتبعناهم الآخرين في الهلاك، وليس كذلك؛ لأنَّ إهلاك الآخرين لم يقع بعد»^(٢). ولهذا قال المصنّف: «ثُمَّ أَتَبَعَهُمُ الْآخِرِينَ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ».

قوله: (ويُقويها قراءة ابن مسعود)، أي: يُقوي هذه القراءة، لأنَّ معناها التهديدُ والوعيدُ لأهل مكة، بخلافِ القراءةِ بالجزم، لأنَّه إخبارٌ عن أتباع قوم لوطٍ وشُعَيْبٍ وموسى قوم نوحٍ وعادٍ وثمودٍ في الإهلاك، و﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ تذييل.

قوله: (وقرئ بالجزم للعطف^(٣) على ﴿ثُمَّ لِي﴾)، قال ابنُ جنِّي: «وهي قراءة الأعرج وتحتملُ أمرين: أحدهما: أن يرادَ بها معنى قراءة الجماعة «ثُمَّ لِي» بالرفع، فأسكن العين استقلاً لتوالي الحركات. والآخر: أن يُجزم عطفاً على «ثُمَّ لِي»، فيجري مجرى قولك: ألم تَرزني ثمَّ أعطك؟ كقولك: فأعطك؛ يريدُ أن قوماً أهلكهم اللهُ عزَّ وجلَّ بعد قوم قبلهم، على اختلاف أوقات المرسلين إليهم^(٤) شيئاً بعد شيء، ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾؛ المجرمون من يهلكهم من بعد، ويجوزُ من مضى^(٥)».

(١) من قوله: «أي هو معطوف إلى هنا، سقط من (ح)، (ف).

(٢) «البيان» (٢: ١٢٦٣-١٢٦٤).

(٣) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «عطفاً»، والمعنى واحد.

(٤) سقط لفظ «إليهم» من (ح)، (ف).

(٥) «المحتسب» (٢: ٣٤٥) لابن جنِّي.

ومعناه: أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاذ وثمود، ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نَفَعْلٌ﴾ بكل من أجرم إنذاراً وتحذيراً من عاقبة الجرم وسوء أثره.

[﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ * وَيَلْبُؤْ بِؤْمُرِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ * ٢٠-٢٤]

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى مقدارٍ من الوقت معلومٍ قد علمه الله وحكم به، وهو تسعة أشهر، أو ما دونها، أو ما فوقها ﴿فَقَدَرْنَا﴾ فقدّرنا ذلك تقديراً ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ فنعم المُقدِّرون له نحن، أو فقدّرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن؛ والأول أولى لقراءة مَنْ قرأ «فقدّرنا» بالتشديد، ولقوله ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٩].

قوله: (والأول أولى)، أي: تفسيرُ «قدّرنا» بـ «قدّرنا» بمعنى التقدير، أولى من تفسيره بقدرنا من القدرة، بدليل قراءة مَنْ قرأ بالتشديد، وبمجيئه في آية أخرى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٩].

وقلتُ: يُمكنُ أن يقال: إن معنى القدرة لازمٌ لمعنى التقدير، وإبرازُه في معرض المدح ظاهرٌ، أو لم يضطرَّ إلى تأويل ﴿قَدِيرُونَ﴾ بـ «المقدرون»، ولأن إثبات القدرة أولى، لأن الكلام مع المنكرين بخلاف ذلك. قال أبو البقاء: «قدّرنا، بالتخفيف، أجود؛ لقوله: ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾، ولم يقل: المقدرون. ومن شدّد تبه على التكثير واستغنى عن التكثير بتشديد الاسم، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فنعم القادرون نحن»^(١).

قوله: (مَنْ قرأ: «فقدّرنا» بالتشديد). نافع والكسائي، والباقون: بالتخفيف^(٢).

(١) «البيان» (٢: ١٢٦٤).

(٢) مَنْ خَفَّفَ أجرى على لفظ ما جاوره، ومن شَدَّدَ أجرى على معنيين كل واحدٍ منهما بخلاف الآخر. انظر: «حجّة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٤٣.

[﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَهِقَتِ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً
فُرَاتًا * وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلشَّكَّادِينَ﴾ [٢٥-٢٨]

الكِفَاتُ: مِنْ كَفَتَ الشَّيْءَ إِذَا ضَمَّهُ وَجَمَعَهُ، وَهُوَ اسْمٌ مَا يُكْفَتُ، كَقَوْلِهِمْ: الضَّمَامُ
وَالْجَمَاعُ لَمَا يُضْمُّ وَيُجْمَعُ، يُقَالُ: هَذَا الْبَابُ جَمَاعُ الْأَبْوَابِ، وَبِهِ انْتَصَبَ ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾
كَأَنَّهُ قِيلَ: كَافَّةً أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا. أَوْ بِفَعْلِ مُضْمَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهُوَ: تَكْفَيْتَ. وَالْمَعْنَى: تَكْفَيْتُ
أَحْيَاءً عَلَى ظَهْرِهَا، وَأَمْوَاتًا فِي بَطْنِهَا. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ
عَلَى قَطْعِ النَّبَاشِ، بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْأَرْضَ كِفَاتًا لِلْأَمْوَاتِ، فَكَانَ بَطْنُهَا حِرْزًا لَهُمْ؛
فَالنَّبَاشُ سَارِقٌ مِنَ الْحِرْزِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا عَلَى التَّنْكِيرِ، وَهِيَ كِفَاتُ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ جَمِيعًا؟

قُلْتُ: هُوَ مِنْ تَنْكِيرِ التَّفْخِيمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: تَكْفَيْتُ أَحْيَاءً لَا يُعَدُونَ وَأَمْوَاتًا لَا
يُخْصَرُونَ، عَلَى أَنَّ أَحْيَاءَ الْإِنْسِ وَأَمْوَاتَهُمْ لَيْسُوا بِجَمِيعِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ. وَيَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ الْمَعْنَى: تَكْفَيْتُمْ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا، فَيَنْتَصِبُ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهَا
كِفَاتُ الْإِنْسِ.

قَوْلُهُ: (تَكْفَيْتُ أَحْيَاءً عَلَى ظَهْرِهَا)، رَوَى الْوَاحِدِيُّ عَنِ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ قَالَ: «تَكْفَيْتُمْ أَحْيَاءً
عَلَى ظَهْرِهَا فِي دَوْرِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، وَتَكْفَيْتُمْ أَمْوَاتًا: تُحْوزُهُمْ»^(١)، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةِ الْمَفْسَّرِينَ.
قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: تَكْفَيْتُمْ^(٢))، قِيلَ: هُوَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَبِهِ انْتَصَبَ
﴿أَحْيَاءَ﴾»، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ عَطْفٌ [عَلَى]^(٣) قَوْلِهِ: «كَافَّةً أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا»، لِأَنَّهُ عَلَى الْأَوَّلِ

(١) «معاني القرآن» (٣: ٢٢٤) للفراء، وانظر: «الوسيط» (٤: ٤٠٨) للواحدى.

(٢) فِي (ف): «تَكْفَيْتُمْ».

(٣) زِيَادَةُ لَفْظِ «عَلَى» يَقْتَضِيهَا السِّيَاقُ.

فإن قلت: فالتنكير في ﴿رَوَيْ سِي سَمِيحَتِ﴾ و﴿مَاءَ فُرَاتًا﴾؟

قلت: يحتمل إفادة التبعية؛ لأن في السماء جبالاً، قال الله تعالى: ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا مِثْرًا﴾ [النور: ٤٣]، وفيها ماء فُرَاتٌ أيضاً، بل هي معدنه ومصبه، وأن يكون للتفخيم.

[﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلَدٍ شُعْبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفْرٌ * وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [٢٩-٣٧]

أي يقال لهم: انطلقوا إلى ما كذبتكم به من العذاب، و«انطلقوا» الثاني تكرير.

مُنْتَصَبٌ به على المفعولية، وعلى الثاني على الحالية من «كُم» في «تَكْفُتُكُمْ»؛ وإنما لم يذكر لأن ﴿كِفَاتًا﴾ دالٌّ عليه، وإليه الإشارة بقوله: «لأنه قد عَلِمَ أَنَّهُا، أي: الأرض، كِفَاتُ الْإِنْسِ». وعلى هذا، لا يُرَادُ السُّؤَالُ وهو قوله: لِمَ قِيلَ: أحياء؟ لأن المراد بالتنكير بعض الأحياء وهم الإنس، ومن ثم قَرَبَهُ (١) بقوله: «على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء».

قال أبو البقاء: ﴿أَحْيَاءٌ﴾: مفعول ﴿كِفَاتًا﴾، أو المفعول الثاني لـ «جَعَلَ»، أي: جَعَلْنَا بعض الأرض أحياءً بالنبات، و«كِفَاتًا» على هذا: حال (٢)، قال القاضي: «المعنى بالأحياء: ما يُنْبَت، وبالأموات: ما لا يُنْبَت» (٣)، وقال صاحب «الكشف»: «جاز أن يكون ﴿أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا﴾، بَدَلِينَ مِنْ ﴿كِفَاتًا﴾» (٤).

قوله: (فالتنكير)، الفاء مُتَفَرِّعٌ على الجواب عن السؤال الأول، أي: عَلِمَ معنى التنكير فيهما بما ذَكَرَ (٥)، فما معنى التنكير في هذين؟

(١) في (ح)، (ف): «قَرَنَهُ».

(٢) «البيان» (٢: ١٢٦٤).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٣٤).

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤١٩).

(٥) في (ط): «بها ذكرت».

وَقُرِي: «انطَلَقُوا» على لفظ الماضي إخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه، لأنهم مُضْطَرُونَ إليه لا يَسْتَطِيعُونَ امتناعاً منه ﴿إِلَى ظِلِّ﴾ يعني دُخَانَ جَهَنَّمَ، كقولهِ: ﴿وَوَيْلٌ مِّن يَّحْمُورٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]. ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يَتَشَعَّبُ لِعَظْمِهِ ثَلَاثُ شُعَبٍ، وهكذا الدُّخَانُ العَظِيمُ تَرْدٌ يَتَفَرَّقُ ذَوَائِبُ. وقيل: يَخْرُجُ لِسَانٌ مِنَ النَّارِ فيحيطُ بالكفارِ كالسُّرَادِقِ، وَيَتَشَعَّبُ مِنْ دُخَانِهِ ثَلَاثُ شُعَبٍ، فَتُظَلُّهُمْ حَتَّى يُفْرَغَ مِنْ حَسَابِهِمْ؛ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي ظِلِّ العَرْشِ ﴿لَا ظِلِّيلٍ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ وَتَعْرِيفٌ بِأَنَّ ظِلَّهُمْ غَيْرُ ظِلِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا يَقِينٍ﴾ فِي مَحَلِّ الجِرِّ، أَي: وَغَيْرِ مُغْنٍ عَنْهُمْ مِنْ حَرِّ اللَّهَبِ شَيْئاً. ﴿بِشَكْرٍ﴾، وَقُرِي: «بِشَرَارٍ» ﴿كَالقَصْرِ﴾ أَي: كُلِّ شَرِّرةٍ كَالقَصْرِ مِنَ القُصُورِ فِي عَظْمِهَا. وقيل: هُوَ العَليظُ مِنَ الشَّجَرِ، الواحِدَةُ قُصْرَةٌ، نَحْوُ: جَمْرَةٌ وَجَمْرٌ. وَقُرِي: «كَالقَصْرِ» بفتحين: وهى أعناقُ الإبلِ، أو أعناقُ النَّخْلِ،

قوله: (تهكّم بهم وتعريف بأن ظلهم غير ظل المؤمنين)، يعني: أدمج في معنى ﴿لَا ظِلِّيلٍ﴾ معنيين: أحدهما: التهكّم بهم، لأنّ مفهوم الظلّ للاستِرواح وهاهنا عكسه، كما في قوله: ﴿وَوَيْلٌ مِّن يَّحْمُورٍ﴾ * لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿ [الواقعة: ٤٣-٤٤]. وثانيهما: تعريف بأن للمؤمنين ظلّاً على خلافه، ليزيد في تحسّرهم وتشويرهم، ومن ثمّ قال: «فتظلمهم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظلّ العرش».

قوله: (أي: وغير مُغْنٍ عنهم)، قيل: هو من قولهم: أغنى عني وجهك، أي: أبعدته، ويُقال: ما يُغني عنك هذا، أي: ما يُجزي عنك ولا يَنفَعُكَ، لأنّ الغنيَّ عن الشيء يُباعده، كما أن المحتاج إليه يُقاربه؛ وإنا عُدِّي بـ «عن» ليضمّنه معنى «مُبْعِد».

قوله: (وهي أعناقُ الإبلِ، أو أعناقُ النَّخْلِ)، وإنما كرّر الأعناق، ليؤدّن بأنّ الأوّل غير الثاني. الأساس: «ومن المجاز: أتاني عنق من الناس، وأقبلت أعناق الرّجال^(١)»، قال العجاج^(٢):

حَتَّى بَدَتْ أَعْنَاقُ صَبِيحٍ أَبْلَجًا^(٣)

(١) في (ف): «أعناق الرّياح».

(٢) في (ف): «الزجاج».

(٣) انظر: «ديوانه»، ص ٩. ومن قوله: «قوله: وهي أعناقُ الإبلِ» إلى هنا، سقط من (ح).

نَحْوُ: شَجَرَةٌ وَشَجَرٍ. وقرأ ابن مسعود: ك «القَصْر» بمعنى القُصور، كَرَهْنٍ وَرُهْنٍ. وقرأ سعيد بن جبير: «كالقَصْر» في جمع قَصْرَةٍ، كحاجَةٍ وَحِوَجٍ ﴿جَمَلْتُ﴾ جمع جمال، أو جمالة جمع جمل؛ شُبِّهَتْ بالقُصورِ، ثُمَّ بِالْجَمَالِ لبيان التشبيه؛

قوله: (كحاجَةٍ وَحِوَجٍ)، وفيه بحثٌ، لأنه لا يجيء مثل هذا الجمع إلا وتُقلَّبُ واؤه ياءً، قَالَ في «المفصل» في إعلالِ العين: «قالوا: تَبَيَّرَ وَدِيمَ لإعلالِ الواحدِ والكسرة»^(١). وجاء في «الصَّحاح»: «الحاجَةُ تُجمعُ على حاجٍ وحاجاتٍ وَحِوَجٍ وَحِوَجٍ». وقيل: لا يُبَعَدُ أن يقال: هذا الإعلالُ مشروطٌ بأن يكونَ هذا الألفُ في الجمعِ وإن لم يُذكر في «المفصل»، يدلُّ عليه قولُ الجوهري: «أصلُ تَبَيَّرَ: تَبَيَّرَ»^(٢).

قوله: (ثُمَّ بِالْجَمَالِ لبيان التشبيه)، فالضميرُ في ﴿كَأَنَّهُ﴾ راجعٌ إلى الشَّرِّ^(٣) باعتبارِ اللفظ، وكذا عن محيي السُّنة^(٤). أي: شُبِّهَتِ الشَّرُّ بالقُصورِ، ثُمَّ شُبِّهَتِ بِالْجَمَالِ، ليبيِّنَ أن المرادَ من التشبيهِ الأوَّلِ هو العِظَمُ مع اللون؛ فالجمالُ والقَصْرُ سَيانٍ باعتبارِ العِظَمِ، ثُمَّ صَمَّ معه ﴿صُفْرًا﴾، فيكونُ التشبيهُ الثاني مع الأوَّلِ، كَبَدَلِ الاشتغالِ في نحو: أعجبني زيدٌ كرمُه. وعن بعضهم: المرادُ بقوله لبيان التشبيهِ تَعْيِينُ التشبيهِ وتأكيدُه، وقال أيضاً: ﴿كَأَنَّهُ جَمَلْتُ صُفْرًا﴾ بيانٌ للتشبيهِ الأوَّلِ، ولو لم يكن بياناً لكانَ بَدَلاً^(٥)، وهو لا يجوز.

(١) «المفصل» للزخشي، ص ٣٨١، وقال الخوارزمي في «التخدير» (٤: ٤٠٥): «تَبَيَّرَ: جمعُ تارة، والعين فيها واوٌ لقولهم: تاورثه، من المتاوره، وهما يتاوران، وكذلك «ديم» واوي، لأنه جمع ديمة، وهي المطر يدوم أياماً».

(٢) «الصَّحاح» (٢: ٦٠٣ (تبر))، قال: «فعل ذلك تارة بعد تارة، أي: مرَّةً بعد مرَّةً، والجمع: تاراتٌ وتير، وهو مقصورٌ من تيار، كما قالوا: قاماتٌ وقيم».

(٣) في (ح): «الشَّر».

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٣٠٧) للبعوي.

(٥) في (ح): «بَدَاءً».

أَلَا تَرَاهُمْ يُشْبِهُونَ الْإِبِلَ بِالْأَفْدَانِ

قوله: (أَلَا تَرَاهُمْ يُشْبِهُونَ الْإِبِلَ بِالْأَفْدَانِ)، تَعْلِيلٌ لَدَعَاءِ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ الْجَمَلِ وَالْقَصْرِ^(٢)؛ فَإِنَّ الْجَمَلَ مَثَلٌ فِي الْعِظَمِ، قَالَ:

جِسْمُ الْجَمَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ^(٣)

ولَمَّا أَنَّ التَّشْبِيهَ الْأَوَّلَ كالتَّوْطِئَةِ وَالتَّمْهِيدِ لِلثَّانِي، قَالَ: «وَقَدْ عَمِيَ^(٤)» عَنْ قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفْرٌ﴾؛ فَإِنَّهُ^(٥) بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: كَبَيْتِ أَحْمَرَ، يَعْنِي: كَطِرَافٍ. يَعْنِي: نَظَرَ أَبُو الْعَلَاءِ إِلَى التَّشْبِيهِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ كالتَّوْطِئَةِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ تَشْبِيهَهُ^(٦) أَجْمَعٌ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْبِيهِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ. قَالَ الْإِمَامُ: «سَبَبُ الشَّرَرِ فِي الْعِظَمِ بِالْقَصْرِ، وَفِي اللَّوْنِ وَالكَثْرَةِ وَالتَّابِعِ وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ بِالْجِمَالِ الصُّفْرِ»^(٧)، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوْلَى مِنْ قَوْلِ أَبِي الْعَلَاءِ، لِأَنَّ الْقَصْرَ فِي الْمَقْدَارِ أَعْظَمُ مِنَ «الطَّرَافِ»، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ النَّارَ الَّتِي شَرَارُهَا الْقَصْرُ، لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَا لَا يُوصَفُ كُنْهَهَا، وَالْجِمَالُ أَكْثَرُ فِي الْعِدَدِ مِنْهُ، وَفِيهَا تَصْوِيرُ الْحَرَكَةِ أَيْضاً»^(٨).

وَقُلْتُ: مُرَادُهُمْ أَنَّ مَا فِي التَّنْزِيلِ مِنَ التَّشْبِيهِ، أَكْثَرُ تَفْصِيلاً بِمَا فِي بَيْتِ أَبِي الْعَلَاءِ، فَيَكُونُ أَدْخَلَ فِي الْقَبُولِ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»^(٩). وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي

(١) فِي (ف): «تَرَوْنَهُمْ».

(٢) فِي (ف): «وَالصُّفْر».

(٣) الشَّاعِرُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، مِنْ قَصِيدَةٍ يَهْجُو بِهَا الْحَارِثَ بْنَ كَعْبِ الْمَجَاشِعِيِّ، وَصَدَرَ الْبَيْتُ:

لَا عَيْبَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَلَا عِظَمٍ

انظُر: «دِيوانه»، (١: ٢١٩).

(٤) أَي: أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ.

(٥) فِي (ح) وَ(ف): «وَإِنَّهُ».

(٦) فِي (ح) وَ(ف): «يُشْبِه»، وَلَعَلَّ مَا أَتَيْتَاهُ هُوَ الصَّوَابُ.

(٧) «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» (٣٠: ٢٤٣)؛ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٣٢) مِنْ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ.

(٨) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (٣٠: ٢٤٤) بِتَصْرِفٍ.

(٩) انظُر: «مِفْتَاحِ الْعُلُومِ» لِلْسَّكَاكِيِّ، ص ٣٩.

والمجادل؟ وقرئ: «جُمالات» بالضم، وهي قُلُوسُ الجُسُور، وقيل: قُلُوسُ سُفُنِ النَّبْحِ،
الواحدة جُمالة، وقرئ: ﴿جَمَلَتْ﴾ بالكسر، بمعنى: جَمالٌ، و«جُمالة» بالضم: وهي
القُلُوس. وقيل: ﴿صُفْرٌ﴾ لإرادة الجنس، وقيل: ﴿صُفْرٌ﴾: سود تَضْرِبُ إلى الصُّفْرة،

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جَمَلَتْ﴾ عائدٌ إلى «القَصْر»، فيذهبُ به إلى تصويرٍ عجيبٍ وتخييلٍ غريبٍ؛
شُبِّهَتِ الشَّرارةُ حينَ تَنْقُصُ مِنَ النارِ في عِظَمِها^(١) بالقَصْرِ. ثُمَّ شُبِّهَ القَصْرُ المُشْبَهُ به حينَ
يأخُذُ في الارتفاعِ والانسِاطِ، فإنه حينئذٍ يَنْشُقُّ عن أعدادٍ لا نهايةَ لها، بالجَمالاتِ المتكاثرةِ،
فَيَتَصَوَّرُ منها حينئذٍ العِظَمَ أوْلاً، والاتساقَ^(٢) مع الكثرةِ والصُّفْرةِ والحركةِ المخصوصةِ ثانياً،
فيلغُ بالتشبيهِ إلى الذَّرورةِ العليا.

قوله: (بالأفدانِ والمجادلِ)، الفَدَنُ والمِجدَلُ: القَصْرُ، وليس منه مِجدَلٌ بالفتح.

قوله: (قُلُوس^(٣))، هو جمعُ قَلَسٍ، وهو حَبْلٌ تُسَدُّ به الجسورُ أو سُفُنُ البحارِ.

قوله: (وقرئ: ﴿جَمَلَتْ﴾)، بالكسر والتَّوْحِيدِ: حَفْصٌ وحمزةٌ والكسائي، والباقونَ:
بالألِفِ على الجمعِ^(٤).

قوله: (وقيل: ﴿صُفْرٌ﴾)، يريدُ على القراءةِ بضمِّ الجيمِ، فإنَّها لَمَّا كانت مُفردة^(٥) كانَ
المناسبُ: صَفْراءُ، لكن جُمعَ بالنَّظَرِ إلى إرادةِ الجنسِ.

(١) في الأصول الخطية: «عظمه».

(٢) في (ج): «والإنسان»، وفي (ف): «والانشقاق».

(٣) في (ف): «قيوس»، وهو تحريف.

(٤) جمالة: جمع جمَل، تقول: جمَلٌ وجمالٌ وجمالة، وإنما تدخل التاء توكيداً لتأنيث الجمع. وجمالات جمع الجمع.

انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٤٤.

(٥) على قراءة من قرأ: «جمالة صُفْرٌ»، بالضم والإفراد، وهي قراءة رُؤيس عن يعقوب الحضرمي. انظر:

«النشر في القراءات العشر» (٢: ٣٩٧) لابن الجزري.

وفي شعرِ عمرانِ بنِ حَطَّانِ الخارجيِّ:

دَعَتُهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَرَمَتُهُمْ
بِمِثْلِ الْجِهَالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةَ الشَّوَى

وقال أبو العلاء:

حَمْرَاءُ سَاطِعَةَ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجَى
تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ

فَشَبَّهَهَا بِالطَّرَافِ وَهُوَ بَيْتُ الْأَدَمِ فِي الْعِظَمِ وَالْحُمْرَةَ، وَكَأَنَّهُ قَصَدَ بِخُبْنِهِ أَنْ يَزِيدَ
عَلَى تَشْبِيهِ الْقُرْآنِ،

قوله: (دَعَتُهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا) البيت، يَصِفُ جَهَنَّمَ ودُعَاءَهَا الكِفَارَ إِلَى نَفْسِهَا، مُقْتَبِسٌ
مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى * نَزَاعَةَ لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: ١٥-١٧]، قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ: تَدْعُو الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ، وَتَقُولُ: إِلَيَّ إِلَيَّ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ كَمَا
يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الحَبَّ.

الشَّوَى: الأَطْرَافُ، وَهِيَ القَوَائِمُ وَالجُلُودُ. وَقِيلَ: الشَّوَى: جَمْعُ شَوَاةٍ، وَهِيَ مِنْ جَوَارِحِ
الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَكُنْ مَقْتَلًا، يُقَالُ: رَمَاهُ فَأَشَوَاهُ إِذَا لَمْ يُصَبِّ مَقْتَلًا، أَيْ: دَعَتُهُمْ نَزَاعَةَ الشَّوَى،
وَهِيَ لَطْفٌ، بِأَعْلَى صَوْتِهَا، وَرَمَتُهُمْ بِشَرِّ كَالْقَضْرِ، كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ.

قوله: (حَمْرَاءُ سَاطِعَةَ) البيت، قَبْلَهُ:

الموقدي نَارَ القِرَى الْأَصَالَ وَالْ
أَسْحَارَ بِالْأَهْضَامِ وَالْأَشْعَافِ^(١)

الْهَضْمُ، بِالكَسْرِ: المُطْمَنُّ مِنَ الْأَرْضِ، وَالجَمْعُ أَهْضَامٌ وَهَضُومٌ، وَالشَّعْفَةُ، بِالتَّحْرِيكِ: رَأْسُ
الجَبَلِ، وَالجَمْعُ شَعْفٌ وَشِعَافٌ. وَقَوْلُهُ «حَمْرَاءُ»: بَدَلٌ مِنْ «نَارِ القِرَى»، وَالطَّرَافُ فِيهَا مِنَ الْأَدَمِ.
وَالمَعْنَى: أَنَّهُمْ يوقِدُونَ لِلْأَضْيَافِ^(٢) نيراناً عَظِيمَةً شَرَارُهَا، مِقْدَارُ عِظَمِهَا مِقْدَارُ عِظَمِ «الطَّرَافِ».

قوله: (قَصَدَ بِخُبْنِهِ أَنْ يَزِيدَ عَلَى تَشْبِيهِ الْقُرْآنِ)، رَعَمَ أَنَّهُ طَغَى بِتَشْبِيهِهِ عَلَى اللَوْنِ وَالْعِظَمِ،

(١) انظر: «ديوان سقط الزند»، ص ٨٤.

(٢) في (ف): «للإنسان».

وَلِتَبْجُحَ بِهَا سُؤْلَ لَه مِنْ تَوْهَمِ الزِّيَادَةِ، جَاءَ فِي صَدْرِ بَيْتِهِ بِقَوْلِهِ (حَمْرَاءُ)، تَوَطَّأَتْ لَهَا وَمَنَادَاةً عَلَيْهَا، وَتَسْبِيحًا لِلْسَامِعِينَ عَلَى مَكَانِهَا، وَلَقَدْ عَمِيَ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ عَمَى الدَّارَيْنِ، عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَعَلَى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرًا﴾؛ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: كَيْبِتِ أَحْمَرٌ؛ وَعَلَى أَنْ فِي التَّشْبِيهِ بِالْقَصْرِ وَهُوَ الْحِصْنُ تُشْبِيهَا مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ الْعِظَمِ، وَمِنْ جِهَةِ الطُّوْلِ فِي الْهَوَاءِ، وَفِي التَّشْبِيهِ بِالْجِمَالَاتِ وَهِيَ الْقُلُوسُ، تُشْبِيهِ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ: مِنْ جِهَةِ الْعِظَمِ وَالطُّوْلِ وَالصُّفْرَةِ، فَأَبْعَدَ اللَّهُ إِغْرَابَهُ فِي طِرَافِهِ، وَمَا نَفَخَ شِدْقِيهِ مِنْ اسْتِطْرَافِهِ.

قُرئ بِنِصْبِ «الْيَوْمِ»، وَنَصَبَهُ الْأَعْمَشُ، أَي: هَذَا الَّذِي قُصَّ عَلَيْكُمْ وَاقِعٌ يَوْمَئِذٍ، وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ طَوِيلٌ ذُو مَوَاطِنَ وَمَوَاقِيتٍ: يَنْطِقُونَ فِي وَقْتٍ وَلَا يَنْطِقُونَ فِي وَقْتٍ؛ وَلِذَلِكَ وَرَدَ الْأَمْرَانِ فِي الْقُرْآنِ. أَوْ جُعِلَ نَطْقُهُمْ كَلَا نُطْقٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَسْمَعُ. ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عَطَفٌ عَلَى ﴿يُؤْذَنُ﴾ مُنْخَرَطٌ فِي سِلْكِ النَّفْيِ، وَالْمَعْنَى: وَلَا يَكُونُ لَهُمْ إِذْنٌ وَاعْتِذَارٌ مُتَعَقِّبٌ لَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجْعَلَ الْاعْتِذَارُ مُسَبِّبًا عَنِ الْإِذْنِ؛ وَلَوْ نُصِبَ لَكَانَ مُسَبِّبًا عَنْهُ لَا مَحَالَةَ.

وَزَادَ عَلَى مَا فِي التَّنْزِيلِ وَلَيْسَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى مَثَلِ الْمُعَرِّي أَنَّ الْكَلَامَ بآخِرِهِ^(١)، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَبَّ الشَّرَارَةَ أَوْلَا حِينَ تُنْقَضُ مِنَ النَّارِ بِالْقَصْرِ فِي الْعِظَمِ، وَثَانِيًا حِينَ تَأْخُذُ بِالِارْتِفَاعِ وَالْانْبِسَاطِ فَتَنْشَقُّ عَنْ أَعْدَادٍ لَا نِهَآيَةَ لَهَا، بِالْجِمَالَاتِ فِي التَّفْرِيقِ وَاللَّوْنِ وَالْعِظَمِ وَالثَّقَلِ، وَنَظَرَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْحَيَوَانِ وَأَنَّ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ اخْتِيَارِيَّةٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَفْقُودٌ^(٢) فِي نَبِيِّهِ، قَالَ الْإِمَامُ: «كَانَ الْأَوَّلِيُّ لِصَاحِبِ «الْكَشَافِ» أَنْ لَا يَذْكَرَ أَنَّهُ ذَكَرَهُ مَعَارِضَةً لِلْقُرْآنِ»^(٣).

قَوْلُهُ: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عَطَفٌ عَلَى ﴿يُؤْذَنُ﴾ مُنْخَرَطٌ فِي سِلْكِ النَّفْيِ، قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غَافِرٌ: ٥٢]: «يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِمَعْذِرَةٍ وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُ لِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهُمْ لَوْ جَاؤُوا بِمَعْذِرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَقْبُولَةً، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾»^(٤).

(١) فِي (ف): «بِالْآخِرَةِ».

(٢) فِي (ف): «مَقْصُودٌ».

(٣) «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ» (٣٠: ٢٤٣)؛ قَالَهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٣٣) مِنْ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ.

(٤) انْظُرْ: (١٣: ٥٢٦)؛ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٥٢) مِنْ سُورَةِ غَافِرٍ.

[هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَى * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا * وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ * إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُمٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَازِكِهِمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُّوْا وَأَشْرُوا هِنْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ *] [٤٥-٣٨]

﴿جَمَعْتُمْ وَالْأُولَى﴾ كلامٌ موضحٌ لقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، لأنه إذا كان يومُ الفصلِ بين السُّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَعْمِهِمْ، فلا بدَّ من جَمْعِ الْأُولَى وَالْآخِرِينَ، حتَّى يَقَعَ ذَلِكَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ تَفْرِيعٌ لَهُمْ عَلَى كَيْدِهِمْ لِإِدِينِ اللَّهِ وَذَوِيهِ، وَتَسْجِيلٌ عَلَيْهِم بِالْعِزِّ وَالِاسْتِكَانَةِ ﴿كُلُّوْا وَأَشْرُوا﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ «الْمُنْفِقِينَ»، فِي الظَّرْفِ الَّذِي هُوَ فِي ظُلَامٍ، أَي: هُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي ظُلَامٍ، مَقُولًا لَهُمْ ذَلِكَ. [﴿كُلُّوْا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *] [٤٦-٥٠]

﴿كُلُّوْا وَتَمَنَّعُوا﴾ حَالٌ مِنَ الْمَكْذِبِينَ؛ أَي: الْوَيْلُ ثَابِتٌ لَهُمْ فِي حَالٍ مَا يَقَالُ لَهُمْ: كُلُّوْا وَتَمَنَّعُوا. فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ؟

قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: «التقدير: هذا يومٌ^(١) لا يَنْطِقُونَ بِنُطْقٍ يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يَعْتَدِرُونَ بِعَدْرِ يَنْفَعُهُمْ، فَ«يَعْتَدِرُونَ» دَاخِلٌ فِي النِّفْيِ، وَلَوْ حَمَلْتَهُ عَلَى الظَّاهِرِ نَاقِضٌ، لِأَنَّهُ يَصِيرُ: هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ فَيَعْتَدِرُونَ، لِأَنَّ الْإِعْتِدَارَ نُطْقٌ أَيْضًا»^(٢).

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا، أَي: فَهَمْ يَعْتَدِرُونَ، أَي: أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ، وَيَنْطِقُونَ فِي بَعْضِهَا، وَلَيْسَ بِجَوَابِ النَّفْيِ، إِذْ لَوْ كَانَ جَوَابًا لِحُذْفِ النُّونِ»^(٣).

قَوْلُهُ: (كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ؟)، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿كُلُّوْا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا﴾، بِمَا يَقَالُ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا لَا فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ مُتَمَتِّعُونَ فِيهَا أَيَّامًا قَلِيلًا^(٤).

(١) فِي (ف): «لَا يَنْفَعُ».

(٢) «كشَفُ الْمَشْكَلاتِ» لِلْباقُولِي (٢: ١٤٢١).

(٣) «التبيان» (٢: ١٢٦٥).

(٤) فِي (ف): «فلا بد»، وَهُوَ ظَاهِرُ التَّحْرِيفِ.

قُلْتُ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ إِيدَانًا بِأَتَمِّهِمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَحْقَاءَ بِأَنْ يُقَالَ لَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِهِ تَذْكَيرًا بِحَالِهِمْ السَّمِجَّةِ، وَبِمَا جَنَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ إِثَارِ الْمَتَاعِ الْقَلِيلِ عَلَى النِّعِيمِ وَالْمُلْكِ الْخَالِدِ. وَفِي طَرِيقَتِهِ قَوْلُهُ:

إِخْوَتِي لَا تَبْعُدُوا أَبَدًا وَبَلَىٰ وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا

وَتَلْخِيصُ الْجَوَابِ، أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَالْوَسْمِ عَلَيْهِمْ، وَأَيُّهَا سَاعَةٌ وَأَيُّهَا شَخْصٌ وَقَعَ نَظْرُهُ إِلَيْهِمْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِمْ، لِتَهَالِكِهِمْ فِي مُسْتَهْيَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالذَّهْوِلِ عَنْ تَبْعَاتِهَا فِي الْآجِلَةِ. وَفَائِدَةُ ذِكْرِهِ فِي الْآخِرَةِ، تَذْكَيرٌ^(١) سَوْءِ اخْتِيَارِهِمْ، وَهُوَ إِثَارُ الْمَتَاعِ الْقَلِيلِ عَلَى النِّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

رُوِيَ عَنِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: «اتَّصَالَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿لِلْمُكذِّبِينَ﴾، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَنَيْلُ يَوْمِنَا لِلْمُكذِّبِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اارْكَعُوا، لَا يَرْكَعُونَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اتَّصَالُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنكُرُوا مُجْرِمُونَ﴾ عَلَى طَرِيقَةِ الِاتِّفَاتِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هُمْ أَحْقَاءُ بِأَنْ يُقَالَ لَهُمْ: كُلُوا وَتَمَتَّعُوا، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِكَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ، وَبِكَوْنِهِمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: صَلُّوا، لَا يُصَلُّونَ»^(٢).
قَوْلُهُ: (إِخْوَتِي لَا تَبْعُدُوا)، لَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ وَلَا طَلْبٌ، لِأَنَّهُمْ هَلَكُوا وَبَعِدُوا وَأَبَادُوا. ثُمَّ قَوْلُهُ:

وَبَلَىٰ وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا^(٣)

تَنَاهَى تَحْسُرًا وَتَوَجُّعًا، يَعْني: أَحْقَاءُ^(٤) بِأَنْ يُقَالَ لَكُمْ فِي أَيَّامِ حَيَاتِكُمْ: لَا تَبْعُدُوا أَبَدًا،

(١) فِي (ف): «بذكر».

(٢) لَمْ أَهْتَدِ إِلَى مَوْضِعِهِ.

(٣) الْبَيْتُ لِفَاعِطَةِ الْخَزَاعِيَّةِ، وَاسْتَشْهَدَ بِهِ الزُّخْمَشَرِيُّ كَذَلِكَ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٦٠) مِنْ سُورَةِ هُودٍ. انظُر:

(١١٦:٨).

(٤) فِي (ف): «أحياء».

يُرِيد: كُنتُمْ أَحْقَاءَ فِي حَيَاتِكُمْ بِأَنْ يُدْعَى لَكُمْ بِذَلِكَ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِكُونِهِمْ مُجْرِمِينَ دَلَالَةً عَلَى أَنْ كُلُّ مُجْرِمٍ مَا لَهُ إِلَّا الْأَكْلُ وَالتَّمَتُّعُ أَيَّاماً قَلِيلاً، ثُمَّ الْبَقَاءُ فِي الْهَلَاكِ أَيْضاً. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿كُلُّوا وَتَمَتُّعُوا﴾ [المرسلات: ٤٦] كَلَاماً مُسْتَأْنَفًا خَطَاباً لِلْمُكَذِّبِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿أَرْكَبُوا﴾ اخشعوا لله وَتَوَاضَعُوا لَهُ بِقَبُولِ وَحْيِهِ وَاتِّبَاعِ دِينِهِ، وَاطَّرَحُوا هَذَا الْاِسْتِكْبَارَ وَالتَّخَوُّةَ، لَا يَخْشَعُونَ وَلَا يَقْبَلُونَ ذَلِكَ، وَيُصِرُّونَ عَلَى اسْتِكْبَارِهِمْ. وَقِيلَ: مَا كَانَ عَلَى الْعَرَبِ أَشَدُّ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي ثَقِيفٍ.

وَقَدْ وَقَعَ خِلَافٌ مَا كُنتُمْ تَسْتَحِقُّونَهُ. وَكَذَا مَعْنَى الْآيَةِ: كُنتُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَتَمَتَّعْتُمْ بِمَلَائِكَةِهَا، بِحَيْثُ وَجَبَ لِكُلِّ نَاطِقٍ أَنْ يَقُولَ فِي حَقِّكُمْ: كُلُّوا وَتَمَتُّعُوا قَلِيلاً، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعْتُمْ فِيهِ مُنْقَضٌ، وَتَبِعْتُهُ لِحَقَّةٍ بِكُمْ^(١)، وَالْآنَ وَقَعَ مَا كُنتُمْ تَسْتَحِقُّونَهُ.

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿كُلُّوا وَتَمَتُّعُوا﴾ كَلَاماً مُسْتَأْنَفًا)، هَذَا يَعِدُّ مِنَ التَّعَسُّفِ وَأَوْفَقُ لِتَأْلِيفِ النَّظْمِ، لِأَنَّهُ مَذْكَورٌ بَعْدَ ذِكْرِ التَّرْجِيحِ^(٢)، وَبَعْدَهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ﴾.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: مَا كَانَ عَلَى الْعَرَبِ أَشَدُّ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، قَالَ الْقَاضِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ﴾: «وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ لِلْجُودِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ مُحَاطَبُونَ بِالْفِرْعَانِ»^(٣).

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي ثَقِيفٍ) إِلَى آخِرِهِ، مَضَى بَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكَنَ إِلَىٰ هَيْهَاتَ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤].

النِّهَايَةُ: «أَصْلُ التَّجْبِيَةِ»^(٤) أَنْ يَقُومَ الْإِنْسَانُ قِيَامَ الرَّكَّاعِ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ.

(١) فِي (ح): «لِإِحْوَانِكُمْ» بَدَلُ «لِحَقَّةٍ بِكُمْ».

(٢) وَهُوَ الْآيَةُ ﴿وَيُنزِلُ مِزَانًا لِلْمُكْذِبِينَ﴾، إِذْ وَرَدَ تَكَرَّرُهَا فِي السُّورَةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ.

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٥: ٤٣٧).

(٤) فِي (ح)، (ف): «التَّحِيَّةُ».

حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة، فقالوا: لا نجبي فإنها مَسْبَةٌ علينا. فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوعٌ ولا سُجودٌ» ﴿بَعْدَهُمْ﴾ بعد القرآن. يعني أن القرآن من بين الكتب المنزلة آيةٌ مبصرةٌ ومعجزةٌ باهرة، فحين لم يؤمنوا به فبأي كتابٍ بعده ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقُرئ: «تؤمنون» بالتاء.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة ﴿وَأَلْمَسَلَتْ﴾ كُتِبَ له أنه ليس من المشركين».

قوله: (يعني أن القرآن من بين سائر^(١) الكتب المنزلة آيةٌ مبصرة)، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيْرٌ﴾ [القلم: ١٣]، أن لفظة^(٢) «بعد» مثل «ثم» في إعطاء معنى التراخي في الرتبة. ولما قرّر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة من الآيات، ولم يكن في سائر الكتب المنزلة مثل هذه البيانات الشافية، حتمها هذه الخاتمة مُصدّرةً بالفاء، مُفيدةً ما قرّره المصنّف.

وقال في أختها في «الأعراف»^(٣): «كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم^(٤) لا يُبادرون [إلى]»^(٥) الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟ وماذا ينتظرون^(٦) بعد وُضوح الحق؟ وبأي حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا^(٧)؛ لأن ما قبلها من حديث الأجل، وها هنا الحديث بالوعْد والوعيد الذي يُليّ عليهم في هذه الآيات.

تمت السورة بعون الله تعالى

* * *

(١) لفظة «سائر» ليست في «الكشاف».

(٢) في (ف): «قوله».

(٣) قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(٤) في (ف): «فهم» بدلاً من «فما لهم».

(٥) زيادة من «الكشاف».

(٦) في (ح): «ينظرون».

(٧) انظر: (٦: ٦٨٧).

سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾

مكية، وتسمى سورة النبا

وهي أربعون آية أو إحدى وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ * عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُرِّفَ فِيهِ مُخَلِّفُونَ ﴿١-٣﴾].

﴿عَمَّ﴾ أصله عمّا، على أنه حرفٌ جرٌّ دخل على ما الاستفهامية وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر. قال حسان رضي الله عنه:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَيْمٍ كَخَنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادٍ

سورة النبا

مكية، وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر)، قال ابن جني: «إثبات الألف أضعف اللغتين»^(١)، قال الجرجاني: «(ما) الاستفهامية تُحذف ألفها تفرقةً بينها وبين كونها خبراً، وقيل: حذفت الألف بحرف الجرِّ لتؤذن بشدة الاتصال، وقيل: حذفت لكثرة الدوران»^(٢).
قوله: (تمرَّغ في رماد)^(٣)، مرَّغته في التراب: قلبته فيه، وتمرَّغ، ومرَّغ الدابة: ممرَّغها.

(١) «المحتسب» (٢: ٣٤٧).

(٢) انظر: «البيسط» (٢٣: ١٠٩) للواحدي. ولم أفد على كتاب «النظم» للجرجاني.

(٣) انظر: «ديوان حسان» (١: ٢٥٨).

والاستعمال الكثير على الحذف، والأصل: قليل. ومعنى هذا الاستفهام: تخفيه الشأن، كأنه قال: عن أي شأن يتساءلون؟ ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد؟ جعلته - لانقطاع قرينه وعدم نظيره - كأنه شيء خفي عليك جنسه، فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره، كما تقول: ما الغول وما العنقاء؟ تريد: أي شيء هو من الأشياء هذا أصله؟ ثم جرد العبارة عن التفضيم، حتى وقع في كلام من لا تحفى عليه خافية. ﴿بَسَاءَ لُونٍ﴾ يسأل بعضهم بعضاً. أو يتساءلون غيرهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين نحو: يتداعونهم ويتراءونهم. والضمير لأهل مكة: كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء. ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ بيان للشأن المفخم. وعن ابن كثير قرأ (عمّة) بهاء السكت، ولا يخلو: إما أن يجري الوصل مجرى الوقف، وإما أن يقف ويتدىء ﴿بَسَاءَ لُونٍ﴾ على أن يضمّر ﴿بَسَاءَ لُونٍ﴾ لأن ما بعده يفسره، كشيء يبيهم ثم يفسر.

قوله: («ما» في قولك: زيد ما زيد؟ جعلته، لانقطاع قرينه وعدم نظيره، كأنه شيء خفي عليك جنسه، فأنت تسأل عن جنسه)، ومنه حديث عائشة، رواه البخاري في «صحيحه»: قالت الحادية عشرة: «زوجي أبو زرع فما أبو زرع؟ أناس من حلي أذني، وملا من شحم عضدي. أم أبي زرع فما أم أبي زرع؟ عكومها رذاح، وبيتها فساح. ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسل شطبة، ويشبعه ذراع الجفرة. بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها، وطوع أمها، وملاء كسانها، وغنظ جاريتها»^(١). النّوس: تحرك الشيء متدياً، أي: أناس أذني مما حلاهما من الشنوف والقرطة، والعكوم: جمع عكم، وهو العذل إذا كان فيه متاع، والرذاح: العظيمة الثقيلة، والمسّل: مصدر بمعنى السّل، والشطبة: السيف، أي: كما سلّ السيف من غمده، والجفرة: الأنتى من ولد المعز.

قوله: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾: بيان للشأن المفخم، يريد أن قوله: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ليس

(١) «صحيح البخاري» (٥١٨٩) في حديث طويل.

فإن قلت: قد زعمت أن الضمير في يتساءلون للكفار. فما تصنع بقوله ﴿تَنبِيهُهُ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾؟

قلت: كان فيهم من يقطع القوم بإنكار البعث، ومنهم من يشك. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً، وكانوا جميعاً يسألون عنه. أما المسلم فليرزق خشية واستعداداً، وأما الكافر فليرزق استهزاء. وقيل: المتساءل عنه القرآن. وقيل: نبوة محمد ﷺ. وقرئ: (يتساءلون) بالإدغام، وستعلمون بالتاء.

[﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ * ﴿تَوَكَّلْ سَيَعْلَمُونَ﴾ ٤-٥].

﴿كَلَّا﴾ ردع للمتسائلين هزواً. و﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق؛ لأنه واقع لا ريب فيه. وتكرير الردع مع الوعيد تشديداً في ذلك، ومعنى ﴿تَوَكَّلْ﴾ الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول وأشد.

[﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ ٦-١٦]

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

بصلة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ لأنه أخذ صلته وهي ﴿عَمَّ﴾، بل هو صلة محذوف، على طريقة الاستئناف، للبيان، فإنه لما قيل: عن أي شيء عظيم يتساءلون وما ذلك الشيء العظيم الذي يتساءلون عنه؟ فقيل: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾، الذي هو البعث، وإذا وقف على «عَمَّهُ» يكون صلة للمذكور، ويقدر مثله: لعَمَّهُ، قال صاحب «الكشف»: ﴿عَنِ النَّبِيِّ﴾ لا يجوز أن يكون بدلاً من قوله: لعَمَّهُ بَتَّةً، لأنه لو كان بدلاً لوجب تكرار حرف الاستفهام؛ لأن الجازء المتصل بحرف الاستفهام إذا أعيد أعيد مع الحرف المستفهم به، كقولك: بكم ثوبك؟ أبعشرين أم بثلاثين؟ ولا يجوز: بعشرين، بغير همزة، فيكون متعلقاً بفعل آخر دون هذا الظاهر^(١). وقال أبو البقاء: «يجوز

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (١: ١٤٢٢).

قلتُ: لَمَا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ قِيلَ لَهُمْ: أَلَمْ يَخْلُقْ مَنْ يَضَافُ إِلَيْهِ الْبَعْثُ هَذِهِ الْخَلَائِقَ الْعَجِيبَةَ الدَّالَّةَ عَلَى كِمَالِ الْقُدْرَةِ، فَمَا وَجْهُ إِنْكَارِ قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، وَمَا هُوَ إِلَّا اخْتِرَاعُ كَهَذِهِ الْاِخْتِرَاعَاتِ؟ أَوْ قِيلَ لَهُمْ: أَلَمْ يَفْعَلْ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الْمُتَكَاثِرَةَ. وَالْحَكِيمُ لَا يَفْعَلُ فِعْلاً عَبَثًا، وَمَا تَنْكَرُونَهُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ مُؤَدِّ إِلَى أَنَّهُ عَابَثُ فِي كُلِّ مَا فَعَلَ؟ ﴿مَهْدًا﴾ فَرَأْسًا. وَقُرئ: (مهْدًا) ومعناه: أَنهَا لَهُمُ كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ: وَهُوَ مَا يُمَهَّدُ لَهُ فَيَنْوُمُ عَلَيْهِ، تَسْمِيَةً لِلْمَهْمُودِ بِالْمَصْدَرِ، كَضْرِبِ الْأَمِيرِ أَوْ وُصِفَتْ بِالْمَصْدَرِ. أَوْ بِمَعْنَى: ذَاتَ مَهْدٍ، أَي أَرْضِيهَا: بِالْجِبَالِ كَمَا يُرْسِي الْبَيْتَ بِالْأَوْتَادِ. ﴿سُبَّانًا﴾ مَوْتًا. وَالْمَسْبُوتُ: الْمَيْتُ، مِنَ السَّبْتِ وَهُوَ الْقَطْعُ؛ لِأَنَّهُ مَقْطُوعٌ عَنِ الْحَرَكَةِ. وَالنَّوْمُ: أَحَدُ التَّوْفِيئِينَ،

أَنْ يَكُونَ بَدَلًا، وَأَلْفُ الْاِسْتِفْهَامِ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُعَادَ، مَحذُوفَةٌ^(١).

الرَّاعِبُ: «عَظَّمَ الشَّيْءُ»: أَصْلُهُ كَبَّرَ عَظْمَهُ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِكُلِّ كَبِيرٍ، فَأَجْرِي مَجْرَاهُ، مُحْسُوسًا كَانَ أَوْ مَعْقُولًا^(٢)، عَيْنًا كَانَ أَوْ مَعْنَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾، وَالْعَظِيمُ إِذَا اسْتَعْمَلَ فِي الْأَعْيَانِ فَأَصْلُهُ أَنْ يُقَالَ فِي الْأَجْزَاءِ الْمُتَّصِلَةِ، وَالْكَبِيرُ يُقَالَ فِي الْمُنْفَصِلَةِ، ثُمَّ قَدْ يُقَالَ فِي الْمُنْفَصِلِ: عَظِيمٌ، نَحْوَ: جَيْشٍ عَظِيمٍ وَمَالٍ عَظِيمٍ، وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْكَبِيرِ. وَالْعَظِيمَةُ: النَّازِلَةُ^(٣).

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: الضَّمِيرُ فِي ﴿هُزِّي فِيهِ مُخَلِّفُونَ﴾ تَأْكِيدٌ، وَفِيهِ مَعْنَى الْاِخْتِصَاصِ، وَلَمْ يَكُنْ لِقَرِيضِ اِخْتِصَاصٍ بِالْاِخْتِلَافِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ حَوْضُهُمْ فِيهِ أَكْثَرَ وَتَعَتَّتْهُمْ لَهُ أَظْهَرَ، جُعِلُوا كَأَتَمِّهِمْ مَخْصُوصُونَ بِهِ.

قَوْلُهُ: (وَالنَّوْمُ أَحَدُ التَّوْفِيئِينَ)، مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٦٦).

(٢) في (ح)، (ف): «مفعولاً»، وليس بصواب.

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٥٧٣.

وهو على بناءِ الأدواء. ولَمَّا جَعَلَ النَّوْمَ مَوْتًا، جَعَلَ اليَقْظَةَ مَعَاشًا، أي: حياةً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: وقتَ معاشٍ تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسِبِكُمْ. وقيل: السَّباتُ الراحةُ.

قوله: (على بناءِ الأدواء)، يعني: كالسُّعالِ والزُّكامِ والجُدَامِ.

قوله: (ولَمَّا جُعِلَ النَّوْمُ مَوْتًا، جُعِلَ اليَقْظَةُ مَعَاشًا، أي: حياةً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾)، راعى المطابقةَ بَيْنَ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ وبينَ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، والمطابقةُ الحَقِيقِيَّةُ: وجعلنا يقظتكم حياةً، فَوَضَعَ موضعَ اليَقْظَةِ النَّهَارَ؛ لِأَنَّهَا تَقَعُ فيه غالباً، وموضعَ حياةٍ: معاشاً، فبقِيَ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا﴾ جُمْلَةً مُسْتَطَرَّةً بَيْنَ الْقَرِيبَتَيْنِ لِذِكْرِ النَّوْمِ فِي الْقَرِينَةِ الْأُولَى. هذا إِذَا جُعِلَ السُّبَاتُ بِمَعْنَى الْمَوْتِ، وَأما إِذَا جُعِلَ بِمَعْنَى الرَّاحَةِ، وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ: السُّبَاتُ: «أَنْ تَنْقَطِعَ الْحَرَكَةُ مِنْ بَدَنِهِ بِالنَّوْمِ»^(١)، أي: جعلنا نومكم راحةً، يَكُونُ قوله: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، قَرِينَةً لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، فَيَصْحُحُ الطَّبَاقُ بَيْنَ الْقَرِيبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ؛ لِأَنَّ جُلَّ الاستمتاعِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي حَالَةِ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ.

وقال في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]: «المَقِيلُ: المكانُ الذي يَأْوِنُ إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهم وملاستهم»^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿مُمْزَجًا فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَكُونًا﴾ [يس: ٥٦]، وبينَ الْقَرِيبَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ، وهما: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا﴾ * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا؛ لِأَنَّهَا نَحْوُ قوله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]، ويؤيِّدُهُ قَوْلُ الزَّجَّاجِ: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا﴾ أي: لتسكنوا فيه^(٣).

قوله: (أي وقتَ معاشٍ)، قيل: المَعاشُ: مصدر، يقال: «عاشَ يعيشُ عَيْشًا وَمَعاشًا ومعيشةً وعَيْشَةً»^(٤).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٢).

(٢) انظر: (١١: ٢١٥) في تفسير الآية (٢٤) من سورة الفرقان.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٢).

(٤) كذا نقلًا عن «البيسط» (٢٣: ١١٧) للواحدي.

﴿لِبَاسًا﴾ يَسْتَرُكُمْ عَنِ الْعْيُونِ إِذَا أَرَدْتُمْ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ بِيَاتًا لَهُ. أَوْ إِخْفَاءَ مَا لَا تَحِبُّونَ الْإِطْلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ.

وَكَمْ لِظْلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تَحْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

﴿سَبْعًا﴾ سَبَعِ سَمَوَاتٍ ﴿شِدَادًا﴾ جَمْعُ شَدِيدَةٍ، يَعْنِي: مُحْكَمَةٌ قَوِيَّةُ الْخَلْقِ لَا يُؤَثِّرُ فِيهَا مَرُورُ الْأَزْمَانِ. ﴿وَهَاجًا﴾ مِتْلَالًا وَقَادًا، يَعْنِي: الشَّمْسُ: وَتَوَهَّجَتِ النَّارُ: إِذَا تَلَمَّظَتْ فَتَوَهَّجَتْ بِضَوْئِهَا وَحَرَّهَا. «المعصرات»: السَّحَابُ إِذَا أُعْصِرَتْ، أَي: شَارَفَتْ أَنْ تَعْصِرَهَا الرِّيحُ فْتَمَطِرُ، كَقَوْلِكَ: أَجَزِ الزَّرْعَ،

قوله: (وكم لظلام الليل عندك من يد) البيت^(١)، قال الواحدي: المانوية: أصحاب ماني، وهو يقول بالنور والظلمة، يقولون: الخير كله في النور، والشر كله في الظلمة. ورد عليهم المنتبي فقال: كم من نعمة في الظلام تبين أن هؤلاء الذين نسبوا إليه الشر كله كاذبون، ثم بين تلك النعمة بقوله:

وفاك ردئ الأعداء تسري عليهم وزارك فيهم ذو الدلال المحجب

وذكر سر النور بقوله:

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب^(٢)

قوله: ﴿وَهَاجًا﴾: مِتْلَالًا، الرَّاغِبُ: «الوهج»: حصول الضوء والحرق من النار، والوهجان كذلك، وقوله تعالى: ﴿سِرَاجًا وَهَاجًا﴾، أَي: مضيئًا. وقد وهجت النار توهج، ووهج يهيج، وتوهج اللؤلؤ: تلالا^(٣).

(١) لأبي الطيب من قصيدته الشهيرة في مدح كافور، ومطلعها:

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجرِ والوصلِ أعجبُ

(٢) انظر: «العرف الطيب» (٢: ٣٣٦)، و«شرح ديوان المنتبي» (١: ٣٢٨) للواحدي.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب، ص ٨٨٥.

إذا حان له أن يُجَزَّ. ومنه: أَعْصَرَتِ الجارية إذا دَنَتْ أن تَحِيضَ. وقرأ عكرمة: (بالمُعْصِرَاتِ)، وفيه وجهان: أن تراد الرياحُ التي حانَ لها أن تعصرَ السحابَ، وأن ترادَ السحابُ؛ لأنه إذا كان الإنزالُ منها فهو بها، كما تقول: أعطى من يده درهماً، وأعطى بيده، وعن مجاهد: المعصراتُ الرياحُ ذواتُ الأعاصيرِ. وعن الحسنِ وقادة: هي السَّمَوَاتُ. وتأويلُه: أن الماءَ ينزلُ من السماءِ إلى السحابِ، فكأنَّ السَّمَوَاتِ يُعْصِرْنَ، أي: يُحْمَلْنَ على العَصْرِ ويُمَكَّنَ منه.

فإن قلت: فما وجهُ من قرأ: ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ وفسرها بالرياحِ ذواتِ الأعاصيرِ، والمطرُ لا ينزل من الرياحِ؟

قوله: (وقرأ عكرمة: «بالمُعْصِرَاتِ»)، قال ابنُ جني: «وهي قراءةُ ابنِ الزَّيْبِرِ وابنِ عباسٍ وغيرهما، ولم يذكرْ عكرمةَ، وقال: إذا نَزَلَ الماءُ منها فقد أنزَلَ بها، كقولهم: أعطيتُه من يدي درهماً وبيدي درهماً، المعنى: واحدٌ، وليس «من» هاهنا مثلها في قولهم: أعطيتُه من الدَّراهمِ؛ لأنَّ «من» فيه تبعيضيَّةٌ، وليس المرادُ أنَّ الدراهمَ بعضُ اليدِ، لكنَّ المرادُ أنَّ ابتداءَ العطيَّةِ من اليدِ»^(١)، فقولُ المصنِّف: «إذا كان الإنزالُ منها فهو بها»، إيدانٌ بأنَّ «من» الابتدائيَّةُ فيها معنى السَّبَبِيَّةِ، كما مرَّ في قوله: ﴿أَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] أي: من أجله وبسببه، فإذا نَزَلَ هي والباءُ من وادٍ واحد.

قوله: (أي: يُحْمَلْنَ على العَصْرِ)، يعني: أنَّ المُعْصِرَاتِ على الحقيقةِ هي الرِّياحُ؛ لأنها تَعْصِرُ السَّحابَ لثَمَطِطِ، وسُمِّيَتِ السَّماءُ بالمُعْصِرَاتِ، لِمَا أنَّ الماءَ إنما ينزلُ منها إلى السَّحابِ، فيتمكَّنُ الرِّياحُ حينئذٍ من العَصْرِ، ولولاها لم يتمكَّنْ منه، فأسندَ إليه، فالهمزةُ في الإِعْصَارِ: للتَّعْدِيَّةِ. قوله: (ذَوَاتِ الأعاصيرِ)، الجوهري: «الإِعْصَارُ: ريحٌ تُثِيرُ الغبارَ، فيرتفعُ إلى السماءِ كأنه عَمُودٌ، ويقال: هي ريحٌ تُثِيرُ سَحَاباً ذاتُ رَعْدٍ وَبَرَقٍ وَتَعْصِرُ»^(٢).

(١) «المحتسب» (٢: ٣٤٧).

(٢) قوله: وَتَعْصِرُ، هي كما في «الصحاح» (٢: ٧٥٠): «ويعصرُ وأعصرُ: اسم رجلٍ لا ينصرف»، لكن لِمَا كان العَصْرُ من صفةِ الرِّياحِ، قال: وَتَعْصِرُ، كما في الفقرة السابقة.

قلت: الرياح هي التي تنشىء السحاب وتدرّ أخلافه فصَحَّ أن تجعلَ مبدأً للإنزال؛ وقد جاء أن الله تعالى يبعثُ الرياحَ فتحملُ الماءَ من السماء إلى السحاب، فإن صحَّ ذلك فالإنزالُ منها ظاهر.

فإن قلت: ذكر ابنُ كيسانَ أنه جعلَ المعصراتِ بمعنى المغيثات، والعاصرُ هو المغيثُ لا المعصر. يقال: عَصَرَهُ فاعتصره.

قلت: وجهه أن يريدَ اللاتي أَعَصَرْنَ، أي حانَ أن تُعَصِرَ، أي: تُغِيثَ، ﴿نَجَّاجًا﴾ منصباً بكثرة يقال: نَجَّه وَنَجَّ نفسه، وفي الحديث: (أفضلُ الحج: العَجُّ والشَّج) أي رَفَعُ الصوتِ بالتلبية، وَصَبُّ دَمَاءِ الْهَدْيِ. وكان ابنُ عباسٍ مَثَجًا يسيلُ غرباً، يعني يشجُّ الكلامَ ثَجًا في خطبته. وقرأ الأعرج: (ثَجَّاحًا)^(١)، ومثاجحُ الماء: مَصَابُهُ، والماءُ يشججُ في الوادي.

قوله: (بمعنى المغيثات)، الراغب: «الغَيْثُ: يقالُ في المطر، والغوثُ: في النُّصرة، واستغثته: طلبتُ الغَيْثَ منه والغوثُ، فأغاثني: من الغوثِ، وغاثني: من الغَيْثِ»^(٢).

قوله: (اللاتي أَعَصَرْنَ)، فيكونُ «أَعَصَرَ» على هذا غيرَ الأول، إذ «المعصراتُ» يراذُها الرياحُ التي حانَ لها أن تعصرَ السحابَ، فالهمزةُ للحَيُّونة لا للتعدية^(٣)، وعن بعضهم: القَبُولُ والصَّبَا بمعنى واحد، وهي من المشرق، وهي تجمَعُ السحابَ، والجَنُوبُ تعصرُها وتحلبُها، وهي من القِبلة، والدَّبُورُ من المغرب، وهي مُعاونةُ القَبُولِ، والشَّمالُ تُفرِّقُها. والعصرُ والحلبُ ها هنا: الاعتماد.

(١) في الأصل الخطي، وفي نصِّ «الكشاف» من (ط)، وفيها وقفتُ عليه من النسخ المطبوعة: «نَجَّاجًا»، وهو خطأ. انظر: «البحر المحيط» (٨ : ٣٠٩)، و«الدر المصون» (١٠ : ٦٥٢). ووقع مثل هذا التحريف أيضاً في المخطوط والمطبوع - في كلمتي: «ومثاجح» و«يشجج» الآتيتين بعده.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٦١٧.

(٣) في (ف): «فالهمزة مؤذنة للتعدية».

﴿جَبًا وَبَنَاتًا﴾ يريد ما يُتَقَوَّتُ من الحنطة والشعير وما يُعَلَفُ من التبن والحشيش، كما قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]، و﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢].
﴿أَلْفَاقًا﴾ ملتفة ولا واحد له، كالأوزاع والأخفاف. وقيل: الواحد لِفٌ. وقال صاحب الإقليد: أنشدني الحسن بن علي الطوسي:

جَنَّةٌ لِفٌ وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمُ بِيضٌ زُهْرٌ

وزعم ابن قتيبة أنه لَفَاءٌ وَلِفٌ، ثم أَلْفَافٌ: وما أظنه واجداً له نظيراً من نحو خُضِرٍ وأخضارٍ ومُحِرٍّ وأحمار، ولو قيل: هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد، لكان قولاً وجيهاً.
[﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا * يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ١٧-٢٠].

﴿كَانَ مِيقَتًا﴾ كان: في تقدير الله وحكمه حداً توقفت به الدنيا وتنتهي عنده....

قوله: ﴿وَبَنَاتًا﴾ يريد ما يُتَقَوَّتُ، النَّبَاتُ: مصدرٌ أريد به النبات. روي عن المصنف: الاستعارة على ضربين: تارة لمعنى وتارة لغير معنى، فلا يُطلَبُ هاهنا معنى في النبات.
قوله: (كالأوزاع والأخفاف)، الجوهري: «الأوزاع من الناس: الجماعات، والأخفاف: المختلف من الناس، وإخوة أخفاف: إذا كانت أمهم واحدة والآباء سُتَى».

قوله: (جَنَّةٌ لِفٌ)، البيت^(١)، لِفٌ: واحد الألفاف، وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ أي: ناعم. والغدق: الماء الكثير، والندامى: جمع الندمان، يقال: نادمني فلان فهو نديمي وندماني. وبيض: حسان، ورجلٌ أزهري أي: أبيض مشرق الوجه؛ يصف طيب الزمان والمكان وكرم الإخوان.
قوله: (حداً توقفت به الدنيا وتنتهي عنده)، الراغب: «الوقت: نهاية الزمان المفروض للعمل، ولهذا لا يكاد يقال إلا مُقَيِّداً، كقولهم: وقتٌ كذا: جعلتُ له وقتاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) لم أهد إلى قائله، وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» عن الحسن بن علي هذا الذي أنشد البيت

(٢٨: ٣٠): «لعله الوزير الملقب بنظام الملك».

أَوْ حَادًا لِلخَلَائِقِ يَتَهَوَّنُ إِلَيْهِ. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بَدَلٌ مِنْ يَوْمِ الْفَصْلِ، أَوْ عَطْفٌ بَيَانٍ، ﴿فَنَأْتُونَ
 أَقْوَابًا﴾ مِنَ الْقُبُورِ إِلَى الْمَوْقِفِ أَعْمَاءَ، كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ إِمَامِهِمْ. وَقِيلَ: جَمَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَعَنْ مَعَاذِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مَعَاذِ، سَأَلْتِ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأُمُورِ،
 ثُمَّ أَرْسَلْتُ عَيْنِيهِ وَقَالَ: تُحْشَرُ عَشْرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي: بَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ،
 وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ، وَبَعْضُهُمْ مُنْكَسُونَ: أَرْجُلُهُمْ فَوْقَ وَجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ
 عَلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ عُمِيَاءٌ، وَبَعْضُهُمْ صُمًا بُكْمًا، وَبَعْضُهُمْ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فِيهِمْ مُدْلَاةً
 عَلَى صُدُورِهِمْ: يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ يَتَقَدَّرُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ، وَبَعْضُهُمْ مَقْطَعَةٌ أَيْدِيهِمْ
 وَأَرْجُلُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ مُصْلَبُونَ عَلَى جَذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجِيْفِ،
 وَبَعْضُهُمْ مَلْبَسُونَ جَبَابًا سَابِغَةً مِنْ قَطْرَانٍ لِازِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ
 الْقِرَدَةِ فَالْقَتَاتُ مِنَ النَّاسِ. وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ: فَأَهْلُ السُّحْتِ. وَأَمَّا
 الْمُنْكَسُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ فَأَكَلَةُ الرِّبَا، وَأَمَّا الْعُمِيُّ فَالَّذِينَ يَجُورُونَ فِي الْحُكْمِ، وَأَمَّا الصُّمُّ
 الْبُكْمُ فَالْمَعْجَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَالْعُلَمَاءُ وَالْقُصَاصُ الَّذِينَ
 خَالَفَ قَوْلَهُمْ أَعْمَالُهُمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَهَمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ،
 وَأَمَّا الْمُصْلَبُونَ عَلَى جَذُوعٍ مِنْ نَارٍ، فَالسُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ
 نَتْنًا مِنَ الْجِيْفِ فَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَمَنَعُوا حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَأَمَّا
 الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجَبَابَ فَأَهْلُ الْكِبْرِ وَالْفَخْرِ وَالْحَيْلَاءِ.....

الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿[النساء: ١٠٣]، وَالْمِيقَاتُ: الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ
 لِلشَّيْءِ، وَالْوَعْدُ الَّذِي جُعِلَ لَهُ وَقْتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾، وَقَدْ يُقَالُ:
 الْمِيقَاتُ: لِلْمَكَانِ الَّذِي يُجْعَلُ وَقْتُاً لِلشَّيْءِ، كَمِيقَاتِ الْحَجِّ^(١)، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: الْمِيقَاتُ: عِلْمٌ
 لِلْحَدِّ، كَالْمِيعَادِ: عِلْمٌ لِلْوَعْدِ، وَالْمِيلَادُ: عِلْمٌ وَقْتُ الْوِلَادَةِ.

قَوْلُهُ: (أَرْسَلَ عَيْنِيهِ)، أَي: أَرْسَلَ دَمْعَ عَيْنِيهِ.

وقرى: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالتخفيف والتشديد، والمعنى: كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة، كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة، كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، كأن كلها عيونٌ تتفجر. وقيل: الأبوابُ الطرُقُ والمسالك، أي: تُكسَطُ فينفتحُ مكانها وتصيرُ طرُقاً يسدها شيء. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، كقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة: ٦]. يعني أنها تصيرُ شيئاً كلا شيء، لتفرقُ أجزائها وانبثاثِ جواهرها.

[﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلظَّالِمِينَ مَأَابًا * لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا أَحْمِيمًا وَعَسَاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ٢١-٣٠]

المرصاد: الحدُّ الذي يكون فيه الرَّصْدُ.....

قوله: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، بالتخفيف والتشديد، حمزةً والكسائيُّ وعاصمٌ، والباقون: بالتشديد^(١). وعن بعضهم ﴿وَفُتِحَتْ﴾ معطوفٌ على ﴿فَأَتُونَ﴾، وليس بشرط أن يتوافقا في الزمان كما يظنُّ من ليس واقفاً على هذا النوع. وقلتُ: هما متوافقان معنى عند مَنْ تدرَّبَ في هذا النوع، فإنَّ كلاً من المعطوفين يكتسبُ من معنى الآخر؛ فإنَّ في عطفِ الماضي على المضارع، الدلالةُ على أنها واقعان البتَّة؛ لأنَّ المخبرَ صادق، وكونُ المعطوفِ عليه مضارعاً، مُشعرٌ بأنَّها حكايَتانٍ للحال الآتية، تصويراً لتينك الحاليتين الفطيعتين في مشاهدة السامع، كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] والله أعلم.

قوله: (الرَّصْدُ)، جمعُ راصد، وهم الحُرَّاسُ. الجوهري: «الرَّصْدُ: القومُ يرصدون كالحرَّس، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ».

(١) حجةٌ من قرأ بالتشديد قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾، ويُقويه قوله: ﴿مُفْتَحَةً لِّمَنَ الْأَبْوَابِ﴾ [ص: ٥٠]، والتشديدُ للتكثير. ومن قرأ بالتخفيف، فلكونه يَصْلُحُ للقليل والكثير. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة،

والمعنى: أن جهنم هي حدّ الطاغين الذي يُرصدون فيه للعذاب وهي مآبهم. وهي مرصادٌ لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها، لأن مجازة عيب. وهي مآبٌ للطاغين. وعن الحسن وقناة نحوه، قالوا: طريقاً وممراً لأهل الجنة. وقوله يُعمر (أن جهنم) بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصداً للطاغين، كأنه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء. قرئ: ﴿لَيْثِينَ﴾ و﴿لَيْثِينَ﴾، واللَّيْثُ أقوى. لأن اللَّابِثَ من وُجِدَ منه اللَّبِثُ، ولا يقال: لَيْثٌ؛ إلا لمن شأنه اللَّبِثُ، كالذي يجثمُ بالمكان لا يكادُ ينفكُ منه، ﴿أَحْقَابًا﴾ حُقْبًا بعد حُقْبٍ، كلما مضى حُقْبٌ تبعه آخرٌ إلى غيرِ نهاية، ولا يكادُ يُستعملُ الحُقْبُ والحُقْبَةُ إلا حيثُ يرادُ تتابعُ الأزمنةِ وتواليها، والاشتقاقُ يشهدُ لذلك.....

قوله: (يُرْصَدُونَ فِيهِ لِلْعَذَابِ)، الجوهري: «الراصدُ للشيء: الراقبُ له، والمرصدُ: موضعُ الرصد. الأصمعي: رصَدته أُرصدُهُ: ترقبته، وأرصدتُ له: أعددتُ له، والمرصادُ: الطريق».

قوله: (قُرئ: ﴿لَيْثِينَ﴾ و﴿لَيْثِينَ﴾، «لَيْثِينَ»: حمزةٌ وحده، قال الزجاج: «لَيْثُ الرَّجُلِ فهو لا يث، ويقال: هو لَيْثٌ بمكان كذا، أي: صار اللَّبِثُ شأنه»^(١). قال صاحبُ «الكشف»: فيه جوازٌ أن يُقال: حذرًا أمورًا، ألا تراه قال: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾؟^(٢).

قوله: (كَلِمًا مَضَى حُقْبٌ تَبِعَهُ آخِرٌ)، قال صاحبُ «الكشف»: «ذَكَرَ أَحْقَابًا» للكثرة لا لتحديد اللَّبِثِ، ألا تراك تقول: لبثتُ فيها سنين وأعوامًا، وأنت لا تريدُ أنك لم تُقِم غيرَها؟^(٣).

الراغب: «أَحْقَابًا» قيل: جَمَعَ الحُقْبُ، أي: الدهر، والحِقْبَةُ: ثمانونَ عامًا، وجمَعها حِقْبٌ، والصَّحِيحُ أَنَّ الحِقْبَةَ: مَدَّةٌ مِنَ الزَّمَانِ مُبْهَمَةٌ، والاحتقَابُ: شَدُّ الحَقِيْبَةِ مِنْ خَلْفِ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٣). وحجّة حمزة أن جعل اسمَ الفاعل (فعلًا)، وله نظائر كقولهم: رجلٌ طامعٌ وطَمِعَ، وأثَمٌ وأثَمَ، ومثلها: لابتٌ ولبث. انظر: «حجّة القراءات»، ص ٧٤٦.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٢٣).

(٣) المصدر السابق (٢: ١٤٢٤).

ألا ترى إلى حقيبة الراكب، والحَقَب الذي وراء التصدير، وقيل: احْتَبُّ ثَمَنُونَ سنة، ويجوزُ أن يراد: لاثنين فيها أحقاباً غيرَ ذائقين فيها برداً ولا شراباً إلا حمياً وغساقاً، ثم يُبدلون بعدَ الأحقابِ غيرَ الحميمِ والغساقِ من جنسِ آخرٍ من العذاب. وفيه وجهٌ آخر: وهو أن يكونَ من: حَقَبَ عامناً؛ إذا قَلَّ مطرُه وخيرُه، وحَقَبَ فلان: إذا أخطأه الرزق. فهو حَقَب، وجمعه أحقاب، فيتصبُّ حالاً عنهم، يعني لاثنين فيها حقيبتين جَحْدِين.

الراكب، وقيل: احْتَقَبَهُ واستَحَقَبَهُ^(١)، وقال غيره: ﴿لَيْثِينَ﴾: حالٌ مقدرة، أي: عاملين اللَّبَثَ معتقدين له، و﴿لَا يَذُوقُونَ﴾: حالٌ أخرى مترادفةٌ أو مُتداخلة، أو استثناء^(٢).

قوله: (والْحَقَبُ الذي وراء التصدير)، الجوهري: «الحَقَبُ، بالتحريك: حَبْلٌ يُشَدُّ به الرَّحْلُ إلى بطنِ البعيرِ كيلا يجتذبه التصدير، وهو الحَبْلُ الذي يكونُ على الصُّدر».

قوله: (أحقاباً: غيرَ ذائقين)، قيل: على هذا قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿لَيْثِينَ﴾، ولا يجوزُ أن يكونَ صفةً ﴿أحقاباً﴾؛ لأنه جارٍ على غيرِ مَنْ هُوَ له، فكان يجبُ إبرازُ الضَّميرِ. وعن بعضهم: ﴿لَيْثِينَ﴾: حالٌ مقدرة، أي: عاملين اللَّبَثَ مقدِّرينَ له، كقوله: ﴿حَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقدِّرينَ الخلودَ.

قوله: (ثم يُبدلون)، عطفٌ من حيثِ المعنى على قوله: «لاثنين» إلى آخره. والحاصلُ أنهم يُعذَّبونَ في تلكِ الأحقابِ بالحميمِ والغساقِ، ثم يُعذَّبونَ بعدَ تلكِ الأحقابِ بأنواعِ آخرٍ مِنَ العذاب. قال القاضي: «وإن كان من قبيلِ المفهومِ يَدُلُّ على التَّنَاهي، فلا يُعارضُ المنطوقُ الدالُّ على خلودِ الكُفَّارِ»^(٣)، وفي هذا الاستثناءُ تَهَكُّمٌ.

قوله: (جَحْدِين)، الجوهري: «الجَحْدُ، بفتح الجيم وضمُّها وسكونِ الحاءِ، ويفتحُ الجيم والحاءُ أيضاً: قلةُ الخيرِ، وجَحَدَ الرَّجُلُ، بالكسر، جَحْدًا فهو جَحِدٌ: إذا كان ضيقاً قليلاً الخير».

(١) «مفردات القرآن»، ص ٢٤٨.

(٢) من قوله: «وقال غيره» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٤١).

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ تفسيراً له، والاستثناء منقطع، يعني: لا يذوقون فيها برداً وروحاً يُنفسُ عنهم حرَّ النار، ولا شراباً يُسكنُ من عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً وقيل: البردُ: النوم، وأنشد:

فَلَوْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتِ لَمْ أَطْعَمْ نِقَاحًا وَلَا بَرْدًا

وعن بعض العرب: منع البردُ البردَ. وقرئ: (غساقاً) بالتخفيف والتشديد؛ وهو ما يغسقُ، أي: يسيلُ من صديدهم. ﴿وَفَاقًا﴾ وصفٌ بالمصدر، أو ذا وفاق. وقرأ أبو حيوة: (وَفَاقًا) فِعَالٌ مِنْ وَفَّقَهُ كَذَا. ﴿كِدَابًا﴾ تكذيباً؛ و(فِعَالٌ) في باب (فَعَّلَ) كُلُّهُ فَاشٍ.....

قوله: (سواكم) نزلها منزلة الجماعة تعظيماً لها واحتراماً^(١)، «نَقَاحًا»: النَّقَاحُ: الماء العذب.
قوله: (وَقُرئ: «غَسَاقًا»)، بالتشديد: حمزةٌ وحفصٌ والكسائي، والباقون: بالتخفيف^(٢).
قوله: (﴿وَفَاقًا﴾: وَصَفٌ بِالمصدر)، أي: جُزُوا جزاءً وَفَاقًا في عمل. الراجب: «الْوَفْقُ»: المطابقةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، قال تعالى: ﴿جَرَآءٌ وَفَاقًا﴾، يقال: وَافَقْتُ فلاناً وَوَأَفَقْتُ الأَمْرَ: صادفته، والاتفاقُ: مطابقةُ فعلِ الإنسانِ القدر، ويقالُ ذلك في الخيرِ والشرِّ، والتوفيقُ نحوه لكنه مختصٌ في التعارفِ بالخيرِ دونَ الشرِّ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]^(٣).
قوله: (و«فِعَالٌ» في بابِ «فَعَّلَ» كُلُّهُ فَاشٍ)، قال الزجاجُ: «و﴿كِدَابًا﴾ بالتشديد أكثر، وهي في مصادرِ فَعَّلْتُ أجودُ من: فِعَالٌ، ومثُلُ «كِدَابًا» بالتخفيفِ قولُ الأعشى:
فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِدَابُهُ»^(٤)

وقال ابنُ جني: «قال قُطْرُبٌ: قالوا: رجلٌ كِدَابٌ: صاحبُ كِذِبٍ»^(٥).

(١) والبيت للعرجي، واستشهد به الزمخشري قبل عند تفسيره الآية (٢٤٩) من سورة البقرة. انظر: «الكشاف» (١: ٢٩٤).

(٢) حجة من قرأ بالتخفيف، أنه اسمٌ موضوعٌ على هذا الوزن، مثل: عذاب، وشراب، وفي التفسير: الشديد البرد. انظر: «حجة القراءات»، ص ٦١٥.

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٨٧٨.

(٤) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٤)، و«ديوان الأعشى»، ص ٢٨٥.

(٥) «المحتسب» (٢: ٣٤٧).

في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره؛ وسمعني بعضهم أفسر آية، فقال: لقد
فَسَّرْتَهَا فِسَارًا مَا سُمِعَ بِمِثْلِهِ. وقرئ: بالتخفيف، وهو مصدرُ كَذَبَ، بدليل قوله:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

وهو مثل قوله: ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] يعني: وكذبوا بآياتنا
فكذبوا كِذَابًا. أو تنصبه بكذبوا، لأنه يتضمن معنى كذبوا؛ لأن كل مكذب بالحق
كاذب، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بآياتنا، فكاذبوا مكاذبة. أو كذبوا
بها مكاذبين؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين
فبينهم مكاذبة، أو لأنهم يتكلمون بها هو إفراط في الكذب فعل من يُغالب في أمر،
فيبلغ فيه أقصى جهده. وقرئ: (كُذَابًا) وهو جمع كاذب،

قوله: (أو تنصبه بـ«كذبوا»)، أي: يكون مفعولاً مطلقاً من غير تقدير، لكن يُجعل
المثقل بمعنى المخفف بطريق اللزوم. قال أبو البقاء: «(كِذَابًا) بالتخفيف: مصدرُ «كَذَبَ»
بالتشديد: إذا تكرر منه الكذب، وهو في المعنى قريب من: كَذَبَ»^(١).

قوله: (وإن جعلته بمعنى المكاذبة)، أي: إن جعلت كِذَابًا من باب المفاعلة نحو: مارَيْتُهُ
مِرَاءً وقَاتَلْتُهُ قِتَالًا، ثم المفاعلة إما على حقيقته وهو المراد من قوله: «فكاذبوا مكاذبة»، وتفسيره
أنهم كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مكاذبة، وإما على
المجاز والمبالغة، وهو المراد من قوله: أو كذبوا بها مكاذبين، وتفسيره أنهم يتكلمون بها هو
إفراط في الكذب، ففي الكلام لَفٌ ونَشْرٌ.

قوله: (فِعْلٌ مَنْ يُغَالِبُ فِي أَمْرٍ): مفعول مطلق معنى يتكلمون بها هو إفراط في الكذب.

قوله: (وَقُرِّي: «كُذَابًا»)، قال ابن جنِّي: «قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كُذَابًا»

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٦٧).

أي: كَذَّبُوا بآياتنا كاذبين؛ وقد يكون الكُذَّابُ بمعنى الواحدِ البليغِ في الكذب. يقال: رجل كُذَّابٌ، كقولك: حُسان، وبُخَال؛ فيجعلُ صفةً لمصدرٍ كَذَّبُوا، أي: تكذيباً كُذَّبَ مُفْرَطاً كَذِبُهُ، وقرأ أبو السَّمال: وكلُّ شيءٍ أَحْصِينَاهُ، بالرفعِ على الابتداء. ﴿كِتَابٌ﴾ مصدرٌ في موضعِ إحصاءٍ، وأحْصِينَا في معنى كَتَبْنَا، لالتقاء الإحصاء، والكتبة في معنى الضَّبِطِ والتحصيل. أو يكون حالاً في معنى: مكتوباً في اللوح وفي صُحُفِ الحَفَظَةِ. والمعنى: إحصاءُ معاصيهم، كقوله: ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وهو اعتراض. وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ مسبَّبٌ عن كفرهم بالحسابِ وتكذيبهم بالآيات، وهي آيةٌ في غاية الشدَّة، وناهيك بـ«لن نزيدكم»، وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصَّحة. وبمجيئها على طريقة الالتفاتِ شاهداً على أن الغضبَ قد تَبَالَغَ، وعن النبي ﷺ: «هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار».

بضم الكاف وتشديد الدال؛ جمع كاذبٍ، منصوبٌ على الحال، أي: كَذَّبُوا بآياتنا في حال كذبهم، وقال طرفه:

إذا جاء ما لا بُدَّ منه، فمرحباً به حين يأتي لا كِذَابٌ ولا عِلَلٌ^(١)

وقد يجوز أن يكونَ وَضْفاً للمصدر، أي: كَذَّبُوا بآياتنا كِذَاباً كُذَّاباً، أي: كِذَاباً مُتْنَاهِياً في معناه، فكُذَّاباً حينئذٍ واحدٌ لا يجمعُ كرجلٍ حُسانٍ ووُضَاءٍ. ويجوزُ أن يكونَ جمعَ كِذْبٍ؛ لأنه جعله نوعاً ووصفه بالكذب، أي: كِذْباً كاذباً، فصار كِذَاباً كُذَّاباً، فافهم ذلك^(٢).

قوله: (وبمجيئها على طريقة الالتفاتِ شاهداً على أن الغضبَ قد تَبَالَغَ)، وذلك أنه تعالى لما حكى مآبَ الطَّاغِيْنَ واستمرارَ لَيْثِهِمْ في جهنم، وأن لا ذوقَ لهم فيها سوى الحميم والغساق، وعَلَّلَ ذلك على سبيل الشكاية إلى الغير بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾،

(١) انظر: «ديوانه»؛ تحقيق المصطاوي، ص ٧٠.

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٤٧، ٣٤٨) بتصرف.

[إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا * وَكَأَسَادٍ هَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا * جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا] ﴿٣١-٣٦﴾.

﴿مَفَازًا﴾ فوزاً وظَفراً بالبُغية. أو موضع فوز. وقيل: نَجاةٌ مما فيه أولئك. أو موضع نِجاة. وفسَّر المَفَازُ بما بعده. و«الحدائق»: البساتينُ فيها أنواعُ الشجرِ المثمر. و«الأعْنَابُ»: الكروم. و«الكوَاعِبُ»: اللاتي فَلَكَتُ بُدْيُهُنَّ، وهُنَّ النَّوَاهد. و«الأترابُ»: اللدات. «الدهاق»: المترعة. وأدهق الحوضُ: مَلأه حتى قال: قَطَنِي.....

أي: لا يخافون أن يُحاسبوا، كناية عن أنهم كانوا يُنكرون البعثَ إنكاراً بليغاً، ثم عَظَمَ شأنَ تكذيبِهِم رُسلَ الله ووَخِيَه بصيغة التعظيم وأكَّدهُ بقوله: كِذَابًا، التَّقَتَ (١) إليهم قائلاً: فذوقوا أيها الجاحدون المُكذِّبونَ ذلكمُ الغَساقِ والحَمِيمِ، وليس لكم عندي سوى المزيد من أنواع العذاب، هذا كما تشكو إلى الناس جانباً، ثم تُقبِلُ عليهم إذا حَمِيَتْ في الشُّكَايةِ مُواجِهاً بالتوبيخ والذم والزام الحُجَّة. وأما فائدة الاعتراض بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَتْهُ كِتَابًا﴾ فلإشعارٍ بأن تكذيبَهُم البعثَ والرَّسلَ والكتُبَ، إنَّما نَشَأَ منَ اعتقادِهِم أَنَّهُ تعالى لا يَعْلَمُ جُزْئِيَّاتِ أَعْمَالِهِم وأَعْمَالِ الرَّسلِ، فلا حسابَ ولا بَعْثَةَ ولا كتابَ.

قوله: (فَلَكَتُ بُدْيُهُنَّ)، الجوهري: «فَلَكَتُ تُذِي الجارية تفلِكاً، وتَمَلَّكَ: استدار».

قوله: (والأترابُ: اللدات)، الجوهري: «لِدَةُ الرَّجُلُ: تِرْبُهُ، والهَاءُ عَوْضٌ مِنَ الوَاوِ

الذاهبة من أوله؛ لأنه من الولادة».

قوله: (حتى قال: قَطَنِي)، أنشد الزجاجُ:

امتلاً الحوضُ وقال قَطَنِي مهلاً رُوَيْدًا قد ملأت بَطَنِي (٢)

فَطَنَ هذا الشيء، أي: حَسَبُكَ، وقَطَنِي وقَطَنِي، وإنَّما دَخَلَتِ النَّونُ لِيَسْلَمَ السَّكُونُ الَّذِي بُني الاسمُ عليه، وهذه النَّونُ إنَّما تَدْخُلُ الفِعْلَ المَاضِي إذا دَخَلَتِ ياءُ المِثْلَمِ، نحو: صَرَبَنِي،

(١) جوابُ «لَمَّا» بداية الفقرة.

(٢) لم أهدئ إلى قائله، قال ابن عاشور في «التحرير» (٢٥: ٢١): «الراجز الذي لا يعرف تعيينه».

وقرى: ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ بالتشديد والتخفيف، أي: لا يكذبُ بعضه بعضاً ولا يكذبه. أو لا يكاذبه. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين. ﴿جَزَاءً﴾ مصدرٌ مؤكَّد منصوبٌ بمعنى قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ كأنه قال: جازى المتقين بمفاز. و﴿عَطَاءً﴾ نُصِبَ بـ ﴿جَزَاءً﴾ نَصَبَ المفعولِ به. أي: جَزَاهم عطاء. و﴿حِسَابًا﴾ صفةٌ بمعنى: كافياً،

لِتَسَلَّمَ فَتَحَةُ البَاءِ وَلِوَقَايَةِ الفِعْلِ مِنَ الجُرِّ، وقد أدخلوها في أسماءٍ مخصوصةٍ نحو: قَدَنِي وَقَطْنِي وَعَنِّي وَلَدُنِّي، ولا يُقَاسُ عليها في الصَّحاح.

قوله: (وقرى: ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ بالتشديد والتخفيف)، الكسائي: بالتخفيف، والباقون: بالتشديد، قيل: ذُكِرَ للتشديد معنى، وللتخفيف معنيان، أحدهما: أن يكون مصدرٌ ﴿فَعَلَّ﴾، وثانيهما: مصدرٌ ﴿فَاعَلَّ﴾.

قوله: (بتخفيف الآيتين)، أي: بتخفيف: «كذبوا» و«كذابا»، وفي نسخة: «الاثنين»، أي: ﴿كِذَّابًا﴾ في الآيتين.

قوله: (﴿جَزَاءً﴾: مصدرٌ مؤكَّد)، إلى قوله: (﴿عَطَاءً﴾ نُصِبَ بـ ﴿جَزَاءً﴾ نُصِبَ المفعولِ به). قال الزجاج: ﴿جَزَاءً﴾: منصوبٌ بمعنى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾، أي: جازاهم بذلك جزاء، وكذلك ﴿عَطَاءً﴾؛ لأنَّ معنى أعطاهم وجازاهم واحدٌ^(١). وبينه أبو البقاء حيث قال: ﴿عَطَاءً﴾: اسمٌ للمصدر، وهو بدلٌ من ﴿جَزَاءً﴾^(٢).

وأوردَ صاحبُ «الفرائد» على قولِ المصنِّف: المصدرُ إِنَّمَا يَعْمَلُ إِذَا كَانَ مُتَزَلًّا مُتَزَلَّةً «أنَّ» مع الفعل، والمنصوب على المصدر لم يكن واقعاً موقعه، وكذا في «اللباب»، قال: «ويعملُ عملُ فعله ماضياً كان أو غيره إذا لم يكن مفعولاً مطلقاً». وقال شارحُه: «لأنه إذا كان مفعولاً نحو: صَرَبْتَ صَرَبًا زَيْدًا، فَإِنَّ العَمَلَ للفعلِ لا للمصدرِ لوجهين، أحدهما: أنَّ الفَعْلَ هُوَ الأَصْلُ، فلا يُعَدَّلُ عنه إلى الفِرْعِ بلا موجب، والثاني: أنَّ المصدرَ إِنَّمَا يَعْمَلُ لكونه مصدرًا

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٥).

(٢) انظر: «التيبان» (٢: ١٢٦٧) للعكبري.

من: أَحْسَبه الشيء؛ إذا كَفاه حتى قال: حَسْبِي. وقيل: على حسبِ أعمالهم. وقرأ ابنُ قُطَيْبٍ (حَسَاباً) بالتشديد، على أَنَّ الحِسَابَ بمعنى المُحْسِبِ، كالدَّرَكِ بمعنى المُدْرِكِ.

[رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٧-٣٩﴾].

قريء: (ربُّ السموات) و(الرحمنُ) بالرفع، على: هو ربُّ السمواتِ الرحمنُ. أو (ربُّ السمواتِ) مبتدأ، و(الرحمنُ) صفة، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾: خبرٌ، أو هما خبران. وبالجرِّ على البدلِ من ﴿رَبِّكَ﴾، بجرِّ الأوَّلِ ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو هو الرحمنُ لا يملكون، والضمير في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأهلِ السمواتِ والأرضِ، أي: ليس في أيديهم مما يخاطبُ به اللهُ ويأمرُ به في أمرِ الثوابِ والعقابِ خطابٌ واحدٌ،

بمعنى «أن» والفعل نحو: أعجبتني صرَبُ زيدٍ عمراً، أي: أن صرَبَ زيدٍ عمراً، ولا يمكنُ إذا وقعَ مفعولاً مطلقاً ذلك، إذ لا يُقال: صرَبْتُ أن صرَبَ زيدٍ عمراً، إذ لا يؤكِّدُ الفعلُ بأنَّ بل بالمصدرِ صريحاً، وإنما يُقدَّرُ بالمصدرِ بـ«أن» والفعل؛ لأنَّ الاسمَ حقه أن لا يعملَ، وأصلُ العملِ للفعلِ»، والعجبُ أن الشارحَ تبعَ صاحبَ «الكشاف» في التقريبِ مع قوله هذا.

قوله: (حتى قال: حَسْبِي)، في «الكواشي»: أعطاني فأحسبني، أي: أكثرَ عليّ، أي: أكثرَ عليَّ حتى قلت: حَسْبِي.

قوله: (قريء: «ربُّ السماوات» و«الرحمنُ» بالرفع)، الكوفيون وابنُ عامرٍ: ﴿رَبِّ﴾ بالتحفُّضِ، وعاصمٌ وابنُ عامرٍ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ بالتحفُّضِ أيضاً، والباقون: برفعِ الاسمَيْنِ.

قوله: (ليس في أيديهم مما يخاطبُ به اللهُ) إلى قوله: (خطابٌ واحد)، يريدُ أن التنكيرَ في ﴿خِطَاباً﴾ للتقليلِ، ومن: بيانٌ، والظرفُ: حالٌ من ﴿خِطَاباً﴾. المعنى: ليس في أيديهم خطابٌ كائنٌ من عندِ الله في أمرِ الشفاعةِ قطُّ، أي: ليس لهم تمسكٌ ونصٌّ يتصرَّفونَ به في أمرِ الشفاعةِ.

يتصرفون فيه تصرفَ الملاك، فيزيدون فيه أو ينقصون منه. أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيءٍ من نقصِ العذابِ أو زيادةٍ في الثواب، إلا أن يهبَ لهم ذلك ويأذنَ لهم فيه. ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ متعلقٌ بلا يملكون، أو بلا يتكلمون. والمعنى: إن الذين هم أفضلُ الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعةً وأقربهم منه، وهم الروحُ والملائكةُ لا يملكون التكلمَ بين يديه، فما ظنك بمن عداهم من أهلِ السموات والأرض؟ والروحُ: أعظمُ خلقاً من الملائكةِ، وأشرفُ منهم، وأقربُ من ربِّ العالمين. وقيل: هو ملكٌ عظيمٌ ما خلقَ الله بعد العرشِ خلقاً أعظمَ منه. وقيل: ليسوا بالملائكة، وهم يأكلون. وقيل: جبريل. هما شريطان: أن يكون المتكلم مأذوناً له في الكلام. وأن يتكلم بالصواب فلا يشفعُ لغير مرتضى، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [٤٠].

قوله: (أو لا يملكون أن يخاطبوه)، فالتكثيرُ على هذا للنوع؛ ولأنَّ قوله: «أن يخاطبوه بشيءٍ من نقصِ العذابِ أو زيادةٍ في الثواب» عبارةٌ عن الشفاعة، ومن: ابتدائيةٌ صلةٌ «لا يملكون»، أي: لا يقدرُونَ أن يخاطبوا الله في الشفاعة، إذ ليس لهم من جهته إذنٌ فيها. رَوَى الواحدِيُّ عن مقاتلٍ: «المعنى: لا يقدرُ الخلقُ على أن يكلموا الربَّ إلا بإذنه»^(١).

قوله: (فلا يشفعُ لغيرِ مرتضى)، الانتصاف: هو تعريضُ أن الشفاعة لا تكون لأربابِ الكبائر. والجوابُ أن المؤمنينَ مُرتضونَ، لقوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] فجعلَ الشكرَ بمعنى الإيمانِ المقابلَ للكفر. وقلت: المرتضى هاهنا كالمصطفى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال الإمام: فإن قيل لما أذن له الرحمنُ في التكلم، علم أنه حقٌ وصواب، فما الفائدةُ في قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟ الجوابُ من وجهين، أحدهما: أن التقديرَ: لا ينطقون إلا بعد

(١) «الوسيط» (٤: ٤١٧) للواحدِي.

﴿الْمَرْءُ﴾ هو الكافر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، والكافر: ظاهرٌ وضع موضع الضمير لزيادة الدم، ويعني ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشر، كقوله: ﴿وَذُو قُوَا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١]، ﴿وَنَذِيقُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ٩-١٠]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]، و(ما) يجوزُ أن تكون استفهامية منصوبةً بقدمت، أي ينظرُ أي شيءٍ قدَّمت يدها، وموصولةً منصوبةً بـ«ينظر»، يقال: نَظَرْتُهُ بمعنى نظرتُ إليه، والراجعُ من الصلَّةِ محذوف، وقيل: المرءُ عام، وخصَّص منه الكافر.

ورود الإذن ثم يجتهدون في أن لا يتكلموا إلا بالحق والصواب، هذا مبالغة في وصفهم بالطاعة، وثانيهما: أن التقدير: لا يتكلمون إلا في شخصٍ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ فِي شَفَاعَتِهِ، والمشفوعُ لَهُ يَمُنُ قال صواباً، وهو قولٌ من قال: لا إلهَ إلا اللهُ؛ لأنَّ قوله: ﴿صَوَابًا﴾ يكفي في صدقه أن يتكلم بالصواب الواحد، فكيف بمن تكلم طولَ عمره بأشرف الكلمات؟^(١).

قوله: (وخصَّص منه الكافر)، يحتمل وجهين، أحدهما: أن المرءَ عامٌ وخصَّص منه الكافر بقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾، أو عامٌ متناولٌ للمؤمن والكافر، وخصَّص منه بالذكر الكافر، وعلى هذا الاحتمالِ وَرَدَ عن الواحديِّ ومُحمي السُّنَّةِ قالا: «ومعنى ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أن كلَّ واحدٍ يرى عمَلَه في ذلك اليوم، ما قدَّم من خيرٍ وشرٍّ مُثَبَّتاً عليه في صحيفته، فيرجو ثوابَ الله على صالحِ عملِهِ، ويخافُ العقابَ على سوءِ عملِهِ»^(٢). وقلتُ: النَّظْمُ يساعدُ العمومَ، وذلك أنه تعالى ذَكَرَ في فاتحةِ هذه السُّورَةِ، أن الميقاتَ المضروبَ هو يومُ الفِضْلِ، وَوَصَفَ اليَوْمَ بصفاتٍ متعدِّدة، وَمِنْ أوصافِهِ قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِيْنَ مَنَابًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِيْنَ مَفَارًا﴾. ولَمَّا فَرَّغَ من بيانِ جزاءِ الفريقينِ، أراد أن يرجعَ إلى ذَكَرِ ذلك اليَوْمِ وَيَصِفَهُ بصفاتٍ أُخرى، فَجَعَلَ التَّخَلُّصَ إلى ذَكَرِهَا إيدالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٢٣).

(٢) «الوسيط» (٤: ٤١٧)، و«معالم التنزيل» (٨: ٣١٨)، واللفظ للواحد في البسيط.

وعن قتادة: هو المؤمن. ﴿يَلْبِغُنِي كُتُّ رَبِّبًا﴾ في الدنيا؛ فلم أخلق ولم أكلّف. أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أبعث.

من ربك، ووصف ذاته بالخبوت والكبرياء، وأن أحداً لا يملك منه خطاباً، وجعله ذريعة إلى ذكر اليوم، وأن الملائكة والروح لا يشفعون فيه للمرئى إلا بالإذن، ثم ذكر أنه يوم الحق، أي الكائن الواقع، أو يحكم الله فيه بين عباده بالحق، كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، وهذا أولى لما سبق من ذكر المتقين والطاغين، وبيان مفاز أولئك ومآب هؤلاء، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، أي: بينا السبيلين للفريقين، فمن سلك سبيل المتقين واتخذ إلى ربه مآباً، فاز وأفلح، ومن اختار سبيل الطاغين خاب وخسر، فقد أرحنا العليل لأننا أنذرناكم عذاباً قريباً، وجعل تخلصاً إلى ذكر الاختتام بها افتتحت السورة به؛ لأن الظرف صفة لـ «عذاباً»، أي: أنذرناكم عذاباً كائناً هذا شأنه، وهو «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه»، مثله في الاختتام: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وقال الإمام: «الأظهر أن المرء عام؛ لأن المكلف إن اتقى الله فليس له إلا الثواب، وإن كفر بالله فليس له إلا العذاب، فلا حال للمكلفين حينئذ سوى هذين؛ فطوبى له إن قدم عمل الأبرار، وويل له إن قدم عمل الفجار»^(١).

فإن قلت: لم خص قول الكافرين دون المؤمنين؟ قلت: دل قول الكافرين على غاية الحقيية ونهاية التحسر، ودل حذف قول المؤمن على غاية التبجع ونهاية الفرح مما لا يحيط به الوصف.

قوله: (وعن قتادة: هو المؤمن)، قال الامام: «دل عليه قول الكافر: ﴿يَلْبِغُنِي كُتُّ رَبِّبًا﴾، فلما كان هذا بياناً لحال الكافر وجب أن يكون بياناً لحال المؤمن»^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٢٤)

(٢) المصدر السابق (٣١: ٢٤).

وقيل: يحشر الله الحيوانَ غيرَ المكلفِ حتى يَقْتَصَّ للجَآنِ من القَرْناءِ، ثم يَرُدُّه تراباً، فيودُّ الكافرُ حاله وقيل: الكافرُ إبليس، يرى آدمَ وولده وثوابهم، فيتمنى أن يكونَ الشيءَ الذي احتقره حين قال ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، سَقاه اللهُ بردَ الشرابِ يومَ القيامةِ».

قولُه: (حتى يَقْتَصَّ للجَآنِ من القَرْناءِ)، رَوَّنا عن مسلم والترمذِي، عن أبي هريرة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْوَحُوشٌ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] قال: قال النبي ﷺ: «لَتُؤَدَّنَ الحَقُوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ، حتى يُقَادَ للشاةِ الجَلْحاءِ من الشاةِ القَرْناءِ»^(١). الجَلْحاءُ: التي لا قَرْنَ لها.

تَمَّتِ السُّورَةُ



(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٧٨)، والترمذِي (٢٤٢٠).

سورة النازعات

مكية، وهي خمسٌ أو ستٌ وأربعون آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[وَالنَّازِعَاتِ غُرُقًا * وَالشَّيْطَانِ نَسْطًا * وَالسَّيِّحَاتِ سَبًا * فَالَسَّيِّغَاتِ سَبًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيمَةُ * تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَيْنَا لَمْرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا مَّخْرَجَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١-١٤﴾] .

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد،

سورة النازعات

مكية، وهي خمسٌ وأربعون آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (التي تنزع الأرواح من الأجساد)، الراغب: «نزع الشيء: جذبته عن مقره، كتنزع القوس عن كبده، ويستخدم ذلك في الأعراض، ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب، ونزع فلان كذا، أي: سلب، قال تعالى: ﴿وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مَعَنُ نَسَاءَهُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. والتنازع والمنازعة: المجادبة، ويعبرُ بها عن المخاصمة والمجادلة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

وبالطوائف التي تنشطها؛ أي: تخرجها؛ من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيئها، أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبرُ أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم، ﴿غَرَقًا﴾ إغراقاً في النزاع،

فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿[النساء: ٥٩]. والنزُعُ عن الشيء: الكفُّ عنه، والنزوعُ: الاشتياق، وذلك هو المعبرُ عنه بارتحال النفس مع الحبيب﴾^(١).

قوله: (تنشطها؛ أي: تخرجها، من: نشط الدلو من البئر)، الأساس: «بئرُ أنشاط: يخرج دلوها بجذبة واحدة»، وفي «الصحاح»: «نشط الدلو من البئر: نزعها من غير بكرة». قال محيي السنة: «الناشطات: الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي: تحلُّ حلاً رقيقاً فتقبضها كما ينشط العقال من البعير، أي: يحلُّ برفق»^(٢). حكى هذا القول الفراء، ثم قال: «والذي سمعت من العرب أن يقولوا: أنشطت العقال: إذا حللته، ونشطته: إذا عقدته بأنشطة»^(٣)، وفي الحديث: «كأنما نشط من عقال»^(٤).

قال الإمام: «وهي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها. فلما نسب أن يخصص هذا بالمؤمن، والأول بالكافر، لما بين النزاع والنشط من الفرق، فإن النزاع: جذب بشدة، والنشط: جذب برفق ولين»^(٥).

قوله: (كما رسم لهم)، الجوهري: «رسمت له كذا فازتسمه، أي: امتثلته».

قوله: ﴿غَرَقًا﴾ إغراقاً في النزاع، قيل: ﴿غَرَقًا﴾: اسمٌ موضوعٌ للإغراق، كالسلام للتسليم. وعن بعضهم: الإغراق نوعٌ من النزاع، والنزاع جنسٌ^(٦). الأساس: «ومن المجاز: أغرق

(١) «مفردات القرآن»، ص ٧٩٨ بتصرف.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٣٢٤).

(٣) «معاني القرآن» (٣: ٢٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري، في السيد الذي لدغ فرقي.

(٥) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٢٦).

(٦) من قوله: «وعن بعضهم: الإغراق» إلى هنا أثبتته من (ط).

أي: تنزَعُها من أقاصي الأجسادِ من أناملها وأظفارها، أو أقسمَ بخيلِ الغزاةِ التي تنزَعُ في أعنتها نزعاً تغرقُ فيه الأعنةَ لطولِ أعناقها؛ لأنها عراب. والتي تخرجُ من دارِ الإسلامِ

الرامي التنزَع، ومنه الإغراقُ في القولِ وغيره، وهو المبالغةُ والإطناب، وأغرقَ الكأسَ: ملأها، وإلى المبالغةِ أشار بقوله: «ينزَعُها من أقاصي الأجسادِ من أناملها وأظفارها»، أي: موضعِ أظفارها.

قوله: (نزعاً تغرقُ فيه الأعنة)، الأساس: نَزَعَ الدَّلْوَ مِنَ البئرِ، ونَزَعَ في قوسه، والخيلُ تنزَعُ في أعنتها، قال:

والخيلُ تنزَعُ غرقاً في أعنتها كالطيرِ ينجو من الشُّوبِ ذي البردِ^(١)

الشُّوبُوبُ: الدَّفْعَةُ مِنَ المطرِ وغيره، وجمعه: الشَّابِبُ، وفي «في أعنتها» مثلها في قوله:

يخرُجُ في عراقِيبها نَضلي^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ جَعَلَ النَزَعَ بمنزلةِ اللَازِمِ، ثُمَّ عَدَّاهُ بـ«في» مبالغةً، تنبيهاً على أَنَّ الأعنةَ: مكانٌ وظرفٌ للنَزَعَ، وبهذا الاعتبارِ كانَ غَرَقاً: مفعولاً مطلقاً بمعنى نَزَعَ تغرقُ فيه الأعنةُ، قال أبو البقاء: «غَرَقاً: مصدرٌ على المعنى؛ لأنَّ النازِعَ هو المُغْرَقُ في نَزَعَ السَّهْمِ، وهو مصدرٌ محذوفٌ الزيادة، أي: إغراقاً»^(٣).

(١) البيت للنابغة الذبياني، من قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

يا دارَ مِيَّةَ بالعِلياءِ فالسَّنَدِ أقوتُ، وطالَ عليها سالفُ الأيدِ

انظر: «ديوانه»، ص ٣٦.

(٢) البيت لذي الرِّمَّة، وتمامه:

وإنَّ تمتدُّزَ بالمخْلِ عن ذي ضروعِها إلى الضيفِ، يخرُجُ في عراقِيبها نَضلي

انظر: «ديوانه»، ص ٢١٩، بتحقيق المصطاوي.

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٦٩) للعكبري.

إلى دار الحرب؛ من قولك: (ثورٌ ناشط) إذا خرج من بلدٍ إلى بلد، والتي تسبح في جريها فتسبِقُ إلى الغاية فتدبِّرُ أمرَ الغلبة والظفر، وإسناد التدبير إليها؛ لأنها من أسبابه. أو أقسمَ بالنجوم التي تنزَعُ من المشرق إلى المغرب. وإغراقها في النزع: أن تقطعَ الفلكَ كلَّه حتى تنحطَّ في أقصى الغرب، والتي تخرج من بُرج إلى برج، والتي تسبحُ

قوله: (حتَّى تَنحَطَّ في أقصى الغرب)، الأساس: «ومن المجاز: ناقةٌ حَطُوطٌ: سريعةُ السير، وحطَّت في سيرِها وانحطَّت، وحطَّ في عرضِ فلان: إذا اندفع في شتمِه وانحطَّ فيه».

قوله: (والتي تخرجُ من بُرج إلى بُرج)، وهو تفسيرٌ لقوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾، وهو مأخوذٌ من قوله: ثورٌ ناشطٌ: إذا خرجَ من بلدٍ إلى بلد. قال الإمام: «دَلَّ قوله: ﴿وَالنَّزِعَاتِ غَرَقًا﴾ على حركتها المخصوصة بها في أفلاكها الخاصة، وهو مناسبٌ؛ لأنَّ حركاتها اليومية قسريَّة، فيُناسبُ النَّزْعُ، وحركاتها من بُرج إلى بُرج إرادية، فيُناسبُ النَّشْطُ»^(١).

وقلت: فمدخولُ الفاءِ في ﴿فَالسَّيِّقَاتِ﴾ مسبَّبٌ عن كونها سابقات، وفي ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ﴾ عن كونها سابقات؛ لأنَّ السَّيْحَ في الفلكِ: لما كان سيراً مخصوصاً، والسيارة معلومة الاختلاف في السير بتقدير العزيز العليم، فيحصلُ وجودُ سيرٍ بطيءٍ وآخر سريع، وذلك هو السَّيْقُ، وبحسبِ السَّيْقِ يتفاوتُ التدبير، فمن سيرِ الشمسِ يُعلمُ حسابُ السنة، وتَحْصُلُ الفصولُ الأربعة، ومن سيرِ القمرِ يُعلمُ حسابُ الشهرِ والأيام، وهو المرادُ من قوله: «وتدبِّرُ أمراً من علم الحساب»، والوجهُ رواها محيي السنة في «المعالم»، وليس في كلامه أنَّ المُدْبِرَاتِ هي النجوم^(٢).

وقال الزجاجُ: ﴿وَالنَّزِعَاتِ غَرَقًا﴾: النجومُ، إلى قوله: ﴿فَالسَّيِّقَاتِ سَبْقًا﴾ * فَاَلْمُدْبِرَاتِ أمراً: الملائكة^(٣).

وقال الإمام: «اعلم أنَّ الوجوهَ المنقولةَ من المفسرين، ليست نصّاً عن سيّد المرسلين صلواتُ الله عليه حتى لا يُمكنُ الزيادةُ عليها، وما ذكروها إنما ذكروها لكونِ اللَّفْظِ محتملاً لها،

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٢٨-٢٩) بتصرف.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٣٢٥).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٧).

في الفلك من السَّيَّارَةِ فتسبقُ فتدبرُ أمراً من علم الحساب.....

فنحن إن وجدنا بين المعاني مفهوماً مشتركاً، حملنا اللفظ على ما يندرج تحته، ولكن لا نقول: إن مراد الله هذا على الجزم، فيمكن حمل هذه الآيات على المراتب الواقعة في رجوع القلب من غير الله إلى الله، أقسم بالأرواح التي تنزع إلى اعتلاقي العروة الوثقى، وتنزع غرقاً من تعلقت هذا الأدنى، ثم تنشط وتأخذ في السلوك في الأحوال والمقامات إلى مستقره الأصلي: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، ثم تسبح في بحار الصفات، فتتمحو فيها من صفاتها وتفتنى في التوحيد، ثم تسبق بعد الفناء إلى البقاء بالله، ثم تعزم على الرجوع إلى تكميل الغير، فتدبر أمر الدعوة، إلى الله^(١).

وقال القاضي: «هذه صفات النفوس وحال سلوكها، فإنها تنزع من الشهوات، فتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكلمات حتى تصير من المكملات»^(٢).

قوله: (فتدبرُ أمراً من علم الحساب)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ﴾ [يونس: ٥]، وإبطال لزعم المنجمين أنها مدبرة هذا العالم بالكون والفساد، ويعضده ما روى البخاري، عن قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأولها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم»^(٣). وزاد رزين: «وما لا علم له به، وما عجز عن علمه الأنبياء والملائكة». وعن الربيع مثله، وزاد: والله، ما جعل الله في نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته، وإنما يفترون على الله الكذب ويتعللون بالنجوم. ذكره صاحب «جامع الأصول»^(٤).

واعلم أن الشيخ أبا القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله، عقّد باباً في كتابه المسمى بـ«مفاتيح الحجج» في إبطال مذاهب المنجمين وأطنب فيه، وذكر أقوالهم، قال: «وأقربها

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٣٠).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٤٥).

(٣) «صحيح البخاري»، كتاب بدء الخلق، باب في النجوم، ص ٣٦١.

(٤) انظر: «جامع الأصول» (٢٠٠٤)، (٤: ٢٩).

قول من قال: هذه الحوادث يُحدثها الله تعالى ابتداءً بقدرته واختياره، ولكن أجرى العادة بأنه إنَّما يخلِّقها عند كون هذه الكواكب في البروج المخصوصة، وتختلف باختلاف سيرها واتصالها ومطارح أشعتها، على جهة العادة من الله سبحانه وتعالى، كما أجرى العادة بخلق الولد عقيب الوطء، وخلق الشبع عقيب الطعام، ثم قال: هذا في القدرة جائز لكن ليس عليه دليل ولا إلى القطع سبيل؛ لأن ما كان على جهة العادة يجب أن يكون الطريق فيه مستمرًا، وأقل ما فيه أن يحصل التكرار، وعندهم لا يحصل وقت في العالم مكرّر على وجه واحد؛ لأنه إذا كان في سنة الشمس مثلاً في درجة من برج، فإذا عادت إليها في السنة الأخرى، فالكواكب لا يتفق كونها في بروجها كما كانت في السنة الماضية، والأحكام تختلف بالقرانات والمقالات ونظر الكواكب بعضها إلى بعض، فلا يحصل شيء من ذلك مكرراً. واتفقوا على أنه لا سبيل إلى الوقوف على الأحكام، ولا يجوز القطع على البت لتعذر الإحاطة بها على التفصيل. ومما يدل على أنه لا حجة في قولهم أنهم اختلفوا فيما بينهم في حكم الزنج، فلاهله السندي والهندي طريق تخالف طريق أرباب الزنج الممتحن.

وفصل الشيخ في الاختلافات بينهم تفصيلاً ثم قال: «ومما يدل على فساد قولهم أن يقال لهم: أخبرونا عن مولودين وُلدا في وقت واحد، ليس يجب تساويهما في كل وجه، لا تميز بينهما في الصورة والقَد والمنظر، وحتى لا تُصيب أحدهما نكبة إلا أصاب الآخر، وحتى لا يفعل هذا شيئاً إلا والآخر يفعل مثله، وليس في العالم اثنان هذه صفتها؟ قالوا: ومن المحال أن يوجد مولودان في العالم في وقت واحد، ولا بد أن يتقدم أحدهما على الآخر، فيقال: أمثال ذلك في العقل والتقدير أم في الوجود؟ فإن قالوا بالأول: بأن فساد قولهم، وإن قالوا بالثاني، قيل: وما يؤمنكم منه؟ فإن قالوا: ليس أمر الكسوفين بصدق، قلنا: ليس أمر الكسوفين من الأحكام، وإنما هو من طريق الحساب، وذلك غير منكّر، ويجوز أن يكون أمر سير الكواكب على ما قالوه. وقد ورد في الشريعة في أمر الكسوفين

بأنه آية من آيات الله تعالى. فإن قالوا: فما قولكم في المنجمين أتهم مُحَطُّونَ في جميع ما يحكُمونَ مكابرونَ للعقول؟ قلنا: إنا نقول: إتهم مُحَطُّونَ في أصولهم عن شئيه وَقَعَت لهم، فلا يعرفونَ بطلانَ قولهم مُكابرةً للعقول، ولا بالضرورة، بل جَرَّبوا على مُقتضى قواعد بنوها على أصولِ فاسدةٍ وَقَعَت الشُّبهُ لسلفهم في أصولِ قواعدهم، فربما يُصَيَّبونَ في تركيبِ الفروعِ على تلكِ الأصولِ، فمَنزِلَتهم في الأحكامِ كمنزلةِ أصحابِ الحُدسِ والتخمينِ، وأصحابِ الرُّوجِ والفردِ، فربما يُصَيَّبونَ اتفاقاً لا عن ضرورة، وربما يُحَطُّونَ. وكثيراً ما نجدُ منَ الحَرَّاثينَ والملاحينَ، يَعْتَبِرُونَ نوعَ ما اعتادوا من توقُّعِ المطرِ وهبوبِ الرِّيحِ في أوقاتِ راعوها بدلالاتٍ ادَّعوا أتهم جَرَّبوها في السماءِ والهواءِ وغيرِ ذلك، فتحصلُ بعضُ أحكامهم اتفاقاً لا تحقيقاً.

وقلت: ومنه ما رَوَى ابنُ جِنِّي في «المحتسب»، أن ابنةَ مُعَفَّرِ بنِ حمادِ البارقي شامتَ بَرَقاً فقالت: يا أبة، جاءك السَّاءُ، فقال: كيف تَرينَها؟ فقالت: كأنها عَيْنُ جَمَلٍ طريف، فقال: ارعي عُنيَّاتك، فَرَعَت مَلِيًّا ثُمَّ جاءته فقالت: يا أبة، جاءك السَّاءُ، فقال: كيف تَرينَها؟ فقالت: كأنها فَرَسٌ دَهْمَاءٌ تَجُرُّ جلاها، فقال: ارعي عُنيَّاتك، فَرَعَت مَلِيًّا، ثُمَّ جاءته فقالت: يا أبة، جاءك السَّاءُ، فقال: كيف تَرينَها؟ قالت: سَطَّحَتْ وَايَضَّتْ، فقال: ادخلي عُنيَّاتك، فجاءتِ السَّاءُ بشيءٍ شَطَّأَ لَهُ الزَّرْعُ^(١). والشَّطُّ: فراخُ الزَّرْعِ.

وصنَّفَ ابنُ دُرَيْدٍ كتاباً في هذا المعنى^(٢) وفيه هذه القصةُ، وروايته: كان أعرابيٌّ ضريزاً^(٣) تقوده ابنته وهي ترعى عُنيَّاتِ لها، فرأت سحاباً فقالت: يا أبة، إلخ، وفيه قال: أخبرنا أبو حاتم، عن أبي عبيدة، قلت لأعرابي: ما أسخُّ الغيث؟ فقال: ما لقمته الجُتوبُ ومَرَّته

(١) انظر: «المحتسب» (٢: ٢٧٦).

(٢) وهو كتاب «وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع» وهو مطبوع، والقول كذلك في «مجالس ثعلب» وفيها: «ما يرى».

(٣) في (ط): «كان أعرابيٌّ ضريزاً»، وليس بصواب، لأن «كان» ههنا تامة.

وقيل: النازعات أيدي الغزاة، أو أنفسهم تنزعُ القسيَّ بإغراقِ السَّهام، والتي تنشطُ الأوهاقَ والمقسمُ عليه محذوف، وهو (لتبعثنَ) لدلالة ما بعده عليه من ذكرِ القيامة. و﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منصوبٌ بها المضمرة. و﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الواقعةُ التي ترجفُ عندها الأرضُ والجبال، وهي النفخةُ الأولى: وصفت بما يحدث بحدوثها.

الصَّبَا وَتَجْتَهُ الشَّمَالُ^(١)، ثُمَّ قَالَ: أَهْلَكَ وَاللَّيْلُ، وَمَا تَرَى إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَخَذَهُ الْمَطَرُ.

ولنختِم الكلامَ بما رَوَيْنَا عن أبي داودَ، عن ابنِ عباسَ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «من اقتبسَ باباً من علمِ النجومِ لغيرِ ما ذكرَ اللهُ، فقد اقتبسَ شُعبَةً من السَّحَرِ، المُنجَّمُ كاهنٌ، والكاهنُ ساحرٌ، والساحرُ كافرٌ»، وفي رواية: «من اقتبسَ علماً من النجومِ اقتبسَ شُعبَةً من السَّحَرِ زادَ ما زاد». أخرَجَ الثانيةُ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ، والأولى ذَكَرَهَا رَزِينُ^(٢).

قوله: (الأوهاق)، الجوهري: «الوَهَقُ بالتحريك: حَبْلٌ كَالطُّوْلِ، وَقَدْ يُسَكَّنُ نَحْوَ: نَهْرٌ». وقوله: والتي تنشطُ، معناه أيدي الغزاة التي تنشطُ، وأنفسهم التي تنشطُ، أي: تعقدُ الحَبْلَ الذي يَطْوُلُ لِلخَيْلِ ترعى فيه.

قوله: (ووصفت بما يحدث بحدوثها)، أي: أسندَ ﴿تَرْجُفُ﴾ إلى ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ وهو يحدث بحدوثها، فالإسنادُ مجازيٌّ نحو: جدَّ جدُّه، والأصلُ، تَرْجُفُ الأرضُ بسببِ حدوثِ الرَّاجِفَةِ، أي: الواقعةِ الهائلة، فأسندَ إلى السببِ مبالغةً. قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٥-٦]: «مفعولٌ به، وقد وَصَفَ الرَّحْمَةَ بالإرسال كما وَصَفَهَا به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢٢]»^(٣)، عَبَّرَ عَنِ النَّسْبَةِ وَعَنِ التَّعَلُّقِ بِالْوَصْفِ.

(١) في (ط): «ألحقته الجنوب وممرته الصبا ومحتة الشمال».

(٢) انظر: «جامع الأصول» (٩١٩٧) (١١: ٥٧٦) لابن الأثير، و«سنن أبي داود» (٣٩٠٥)، و«مسند الإمام أحمد» (٢٨٤٠).

(٣) انظر: (١٤: ١٩٦-١٩٧).

﴿تَبَّعَهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردفُ الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوزُ أن تكون الرادفة من قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، أي: القيامة التي يستعجلها الكفرةُ استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقترابها. وقيل ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الأرض والسجبال، من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] و«الرادفة»: السماء والكواكب؛ لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك.

فإن قلت: ما محلُّ تتبعها؟

قلت: الحال، أي: ترجفُ تابعتها الرادفة.

فإن قلت: كيف جعلت ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفاً للمضمَر الذي هو لتبعثن، ولا

يبعثون عند النفخة الأولى؟

قلت: المعنى لتبعثن في الوقتِ الواسع الذي يقع فيه النفختان، وهم يُبعثون في بعض ذلك الوقتِ الواسع، وهو وقتُ النفخة الأخرى. ودلَّ على ذلك أن قوله: ﴿تَبَّعَهَا الرَّادِفَةُ﴾ جعلَ حالاً عن الراجفة. ويجوزُ أن يتصبَّ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ بما دلَّ عليه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، أي: يومَ ترجفُ وجفت القلوب ﴿وَاجِفَةٌ﴾ شديدة الاضطراب، والوجيبُ والوجيفُ: أخوان. ﴿خَنْشَعَةٌ﴾ ذليلة.

قوله: (أي: تَرْجُفُ تابعتها الرادفة)، تابعتها، بنصبِ التاءِ وضمِّها في الرادفة، وهي فاعلُ «تابعتها»، والإضافة غيرُ مَحْضَة، والأصل: تابعة لها الرادفة، أي: تَرْجُفُ الأرض والجبالُ، أي حالُ كونِ السماءِ والكواكبِ تابعتها في الانشقاق والانتثار، وهي الرادفة، وأما تقديره على الوجهِ الأوَّلِ فأنَّ يقال: يومَ تحدُثُ الحادثةُ الكبرى، أي: النفخة الأولى حالُ كونِ النفخةِ الثانيةِ تابعتها، وهي الرادفة.

قوله: (ودلَّ على ذلك)، أي: على أن المراد باليوم: الوقتِ الواسع الذي تقعُ فيه النفختان،

أنَّ فعلَ الراجفة مقيَّدٌ بفعلِ النفخة الثانية.

فإن قلت: كيف جازَ الابتداءَ بالنكرة؟

قلت: ﴿قُلُوبٌ﴾ مرفوعةٌ بالابتداءِ و﴿وَاجِفَةٌ﴾ صفتُها، و﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً﴾ خبرُها فهو كقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فإن قلت: كيف صحَّ إضافةُ الأبصارِ إلى القلوب؟

قلت: معناه أبصارُ أصحابها، بدليلِ قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿فِي الْحَاوِرَةِ﴾ في الحالةِ الأولى، يعنون: الحياةَ بعد الموت.

فإن قلت: ما حقيقةُ هذه الكلمة؟

قلت: يقال: رجعَ فلانٌ في حافرتِه، أي: في طريقه التي جاءَ فيها فحفرَها، أي: أثرٌ فيها بمشيه فيها: جعلَ أثرَ قدميه حفراً، كما قيل: حُفرتُ أسنانهُ حفراً: إذا أثرَ الأكال في أسنانيها. والخطُ المحفورُ في الصخر. وقيل: حافرة، كما قيل: عيشةٌ راضية، أي: منسوبةٌ إلى الحُفْر والرضا، أو كقولهم: نهارك صائم، ثم قيل لمن كان في أمرٍ فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرتِه، أي: طريقته وحالته الأولى.

قوله: ﴿قُلُوبٌ﴾ مرفوعةٌ بالابتداءِ، و﴿وَاجِفَةٌ﴾ صفتُها، وعن بعضهم: لا يجوزُ أن يكونَ ﴿يَوْمِيذٍ﴾ صفةً مخصّصةً للقلوب؛ لأنه جُئته، كما لا يجوزُ أن يكونَ خبراً عن الجئته.

قوله: (في أسنانيها)، الجوهري: «أسناني الأسنان: أضولها». قال ابنُ جنِّي: «قالوا: حُفرتُ أسنانيها»^(١): إذا ركبها الوسخُ من ظاهرها ومن باطنها»^(٢).

قوله: (والخطُّ المحفورُ)، عطفٌ على «حُفرتُ أسنانه».

قوله: (وقيل: حافرة، كما قيل: عيشةٌ راضية)، ردُّ إلى قوله: «رجعَ فلانٌ في حافرتِه، أي: في طريقته»، أي: قيل: حافرة، وأريدَ طريقةً منسوبةً إلى الحُفْر، أو طريقةً حافرة، أي: صاحبها حافرٌ مؤثّرٌ في طريقته، فأسندَ إليها مجازاً.

(١) في (ط)، (ف): «أسنانيها».

(٢) لم أهدئ إلى موضعه.

قال:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ؟ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفْوِهِ وَعَارٍ

يريد: أرجوعاً إلى حافرة. وقيل: النَّقْدُ عند الحافرة، يريدون عند الحالة الأولى: وهي الصفقة. وقرأ أبو حيوة (في الحِفْرَةِ) والحِفْرَةُ بمعنى: المَحْفُورَةُ. يقال: حَفَرْتُ أَسْنَانَهُ فَحَفَرْتُ حَفْرًا، وهي حَفْرَةٌ؛ وهذه القراءة دليلٌ على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المَحْفُورَةُ. يقال: (نَخَرَ) العَظْمُ فهو نَخْرٌ وناخر، كقولك طَمِعَ فهو طَمِيعٌ وطامع؛ وَفَعَلٌ أبلغ من فاعل؛ وقد قُرئَ بهما: وهو البالي الأجوف الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخير....

قوله: (أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ) البيت^(١)، أي: أرجعُ إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغزل والصبَّا بعد أن شَبْتُ وَصَلَعْتُ؟ ثم قال: معاذَ الله، هذا سَفْوَةٌ طائر^(٢) وعارٌ شديد.

قوله: (النَّقْدُ عند الحافرة)، رَوَى المِيدَانِيُّ عن ابن الأنباري: قال ثَعْلَبٌ: «معناه: النَّقْدُ عند السَّبِقِ، وذلك أن الفرسَ إذا سَبَقَ أخذَ الرَّهْنَ، والحافرةُ: الأرضُ التي حَفَرَهَا الفرسُ بقوائمه، فاعلةٌ بمعنى مفعولة، وقال الفراءُ: سَمِعْتُ بعضَ العربِ يقولُ: النَّقْدُ عند الحافرِ معناه: حافرِ الفرسِ، وأصلُ المثلِ في الحَيْلِ ثم استعملَ في غيرها، وقال غيره: النَّقْدُ عند الحافرةِ معناه: عند أولِ كلمة، يقال: رَجَعَ فلانٌ في حافرتِه أي: في أولِ الأمرِ»^(٣)، الراغبُ: النَّقْدُ عند الحافرةِ: يقالُ لما يُباعُ نَقْدًا، وأصلُه في الفرسِ فيقالُ: لا يَزُولُ حافرُه أو يُنْقَدَ ثَمَنُهُ»^(٤).

قوله: (وقد قُرئَ بهما)، أبو بكرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «ناخِرَةٌ» بالألف، والباقونُ: بغيرِ

(١) لم أهنئ إلى قائله، وقال ابنُ عاشور: «الشاعر هو عمران بنُ حطان حسيبا ظنَّ ابنُ السيّد البطلبوسي في شرح «أدب الكتاب»». انظر: «التحرير والتنوير» (٣٠: ٦٣)، و«الاقطصاب في شرح أدب الكتاب» (٣: ٢٥٧)، ولم أقف على «ديوان» لابن حطان.

(٢) في (ح)، (ف): «زائد».

(٣) «مجمع الأمثال» (٢: ٣٣٧).

(٤) «مفردات القرآن»، ص ٢٤٤.

و(إِذَا) منصوبٌ بمحذوف، تقديره: أئذا كنا عظاماً نردُّ ونُبعث ﴿كِرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ منسوبةٌ إلى الخسران، أو خاسرٌ أصحابها. والمعنى: أنها إن صَحَّتْ فنحن إذا خاسرون لتكدينا بها، وهذا استهزاءٌ منهم.

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾؟

قلت: بمحذوف، معناه: لا تستصعبوها، فإنما هي زجرةٌ واحدة؛ يعني: لا تحسبوا تلك الكرة صعبةً على الله عز وجل، فإنها سهلةٌ هينةٌ في قدرته، ما هي إلا صيحةٌ واحدة، يريد النفخة الثانية. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياءٌ على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها؛ من قولهم: زَجَرَ البعير، إذا صاح عليه. و﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾: الأرض البيضاء المستوية، سُميت بذلك لأنَّ السرابَ يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ جاريةٌ الماء، وفي ضدّها: نائمة. قال الأشعثُ بن قيس:

وَسَاهِرَةٌ يُضْحِي السَّرَابُ مُجَلَّلًا
لَأَفْطَارِهَا قَدْ جُبَّتْهَا مُتَلَثَّمًا

ألف. قال الزجاج: «(ناخرة) أجودٌ وأكثرُ شُبهاً للفواصل، و﴿نَخْرَةٌ﴾ جيدٌ أيضاً، يقال: نَخَرَ العَظْمُ يَنْخَرُ فَهُوَ نَخْرٌ، مثل: عَفْنٌ يَعْفَنُ فَهُوَ عَفْنٌ، و«ناخرة» معناه: عظاماً يجيء فيها من هبوبِ الرِّيحِ كالنَّخِيرِ، ويجوزُ ناخرةٌ نحو: بَلِيَّتِ العِظَامِ [فهي] ^(١) بالية» ^(٢).

قوله: ﴿كِرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: منسوبةٌ إلى الخسران، قيل: كِرَّةٌ: خَبْرٌ لـ ﴿تِلْكَ﴾، وهو مُبِينٌ لاسم الإشارة كما أن الصِّفَةَ مَبِينَةٌ، ولا بدَّ في الترجمة من ذكر الصِّفَةِ، المعنى: تلك الكِرَّةُ كِرَّةٌ خاسرة.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا سَهْلَةٌ هَيِّنَةٌ فِي قُدْرَتِهِ﴾، الانتصاف: «ما أَحْسَنَ تَسْهِيلَ أَمْرِ الإِعَادَةِ بقوله: ﴿زَجْرَةٌ﴾ فهي أخفُّ من صَيْحَةٍ، ويقول: ﴿وَاحِدَةٌ﴾ أي: غير محتاجة إلى مثنوية» ^(٣).

قوله: (وساهرةٌ يُضْحِي السَّرَابُ) البيت، مُجَلَّلًا: مُعْطِيًا وساتراً، لأفطارها: لجوانبها،

(١) سقط اللفظ «فهي» من الأصول الخطية.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٩٤).

أو لأنّ سالكها لا ينام خوف الهلكة. وعن قتادة: فإذا هم في جهنم.

[هَلْ أُنْذِرُكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهَ إِلَّا أَن تَزُكَّ * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْتِ * فَآرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى] [١٥-٢٦].

﴿أَذْهَبَ﴾ على إرادة القول. وفي قراءة عبد الله: (أن اذهب)؛ لأنّ في النداء معنى القول: هل لك في كذا، وهل لك إلى كذا؛ كما تقول: هل ترغب فيه، وهل ترغب إليه.

قَطَعْتُهَا مُتَلِثًا: مُشَدَّدًا لِلثَّامِ مِنْ خَوْفِ هُبُوبِ السَّمُومِ وَالْحَرِّ الْقَاتِلِ. وَقِيلَ: مُتَلِثًا: وَاطْنَا الْأَرْضَ بِخُفِّ الْبَعِيرِ.

قوله: (هل لك في كذا، وهل لك إلى كذا؟)، قال ابن جني: «متى كان فعل من الأفعال في معنى فعل آخر، فكثيراً ما يُجرى أحدهما مجرى صاحبه، فيُعدّل في الاستعمال إليه، ويُحدّثي به في تصريفه حدّو صاحبه، وإن كان طريق الاستعمال والعرف ضدّ مأخذه، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهَ إِلَّا أَن تَزُكَّ﴾ وأنت إنما تقول: هل لك في كذا؟ لكنه لما دَخَلَهُ معنى: أَجْذَبُكَ إِلَى كَذَا، أو أَدْعُوكَ إِلَيْهِ، قال: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهَ إِلَّا أَن تَزُكَّ﴾، وعليه قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، في معنى الإفضاء إلى نسائكم؛ لا يقال: رَفَثْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ، وَإِنَّمَا: رَفَثْتُ بِهَا، وَمَعَهَا، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ الرَّفَثُ بِمَعْنَى الْإِفْضَاءِ عُدِّي بِـ«إِلَى»، وَهَذَا مِنْ أَسَدِّ مَذَاهِبِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعٌ يَمْلِكُ فِيهِ الْمَعْنَى عِنَانَ الْكَلَامِ فَيَأْخُذُهُ إِلَيْهِ»^(١).

وقلت: الظاهر أنّ هذا ليس من باب التضمين، بل من باب المجاز والقرينة الحادة. وقال صاحب «الكشف»: هل لك في كذا؟ محمول على: أَدْعُوكَ، فكأنّه قال أَدْعُوكَ إِلَى التَّرَكِّي فهل ترغب فيه^(٢)؟ وقال الواحدي: المبتدأ محذوف، أي: هل لك إلى أن تَزُكَّ

(١) «المحتسب» (١: ٥١).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٢٧).

﴿إِنَّكَ أَنْ تَزَكَّى﴾ إلى أن تتطهر من الشرك، وقرأ أهل المدينة: (تَزَكَّى) بالإدغام. ﴿وَتَهَيَّكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله أنبهك عليه فتعرفه، ﴿فَنَخِّنِي﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي النعماء به: وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، مَنْ خشي الله: أتى منه كل خير.....

حاجة أو أَرَبٌ؟^(١) وعن بعضهم: يقال: هل لك في كذا؟ فتقول في الجواب: أشدُّ أهلًا. وأوحى، أي: أسرع^(٢).

قوله: (وقرأ أهل المدينة: «تَزَكَّى»)، الحَرَمِيَّانِ: «أَنْ تَزَكَّى» بتشديد الزاي، والباقون: بتخفيفها^(٣).

قوله: (لأنَّ الخَشْيَةَ لا تكونُ إلا بالمعرفة)، روى السلمي عن ابن عطاء: الخشية أتم من الخوف؛ لأنها صفة العلماء، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]^(٤). وعن الواسطي: «أوائل العلم الخشية، ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء»^(٥). وعن بعضهم: مَنْ خافَ مقامَ ربِّه عَلِمَ قيامَ الله بأسبابه في دارِ الدنيا، وخافَ من وقوفه في القيامة بين يديه، وقال: من تحقَّق الخوفَ ألهاهُ خوفُه عن كلِّ مفروح به، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له الأمنُ من خوفه. وروى عن بُزُرْجَمِهَر: اعرفوا الله، فمن عرفه لم يقدر أن يعصيه طرفه عين.

قوله: (لأنها ملاك الأمر)، الأساس: ومن المجاز: هذا ملاك الأمر، أي: قوامه وما يملك به، والقلب ملاك الجسد، وركب ملاك الطريق: وسطه.

(١) «البيسط» (٢٣: ١٨٦).

(٢) وفيه جاء المثل: «أوحى من عقوبة الفجاءة»، أي: أسرع وأعجل. انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٣٨٠).

(٣) وأصل التشديد: تَزَكَّى، فأدغمت التاء في الزاء. ومن خفَّف حذف إحدى التاءين. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٤٩.

(٤) «حقائق التفسير» (٢: ١٦٠) للسلمي؛ قاله في تفسير الآية (٢٨) من سورة فاطر.

(٥) لم أهد إلى موضعه.

ومن آمن: اجترأ على كل شر. ومنه قوله عليه السلام: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل». بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرَض، كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا، وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول، ويستنزه بالمداراة من عتوه، كما أمر بذلك في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، ﴿الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ قلب العصا حية؛ لأنها كانت المقدمة والأصل، والأخرى كالتبع لها؛ لأنه كان يتقيها بيده، فقيل له: أدخل يدك في جيبيك، أو أرادهما جميعاً،

قوله: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ)، الحديث من رواية الترمذي، عن أبي هريرة، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ»^(١)، النَّهْيَاة: «الإدلاج مخففاً: السير من أول الليل، ومثقلاً: السير من آخره»^(٢)، والمرادها هنا: التشمير في أول الليل، فإن من سار من أول الليل كان جديراً ببلوغ المنزل، والسَّلْعَة: المتاع. قوله: (يَسْتَنْزِلُهُ بِالْمَدَارَاةِ) عن بعضهم: المداراة، بغير الهمز: من الدَّري، وهو الحنظل، وبالهمز: من الدُّرء، وهو الدَّفْعُ.

قوله: (أَوْ أَرَادَهُمَا جَمِيعًا)، يريد: أن الآية الكبرى هي قلب العصا حية، فالصغرى يرادُ بها اليد البيضاء لأنها متممة لها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لما قصَدَ أن تبقى الحية بيده قيل له: ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢] سبق بيانه في «القصص». أو أن كليهما آية واحدة لتلك العلة، والصغرى غيرها. قال بعضهم: قوله: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ معطوف على فعل محذوف، يدلُّ عليه قوله: ﴿أَذْهَبَ﴾، أي: فذهب فأراه؛ لأنه إذا كان الأمر هو الله تعالى والمأمور موسى، وجد القور، وهذا مما يعضد

(١) سنن الترمذي (٢٤٥٠).

(٢) مثقلاً، أي: أدلج.

إلا أنه جعلها واحدة؛ لأن الثانية كأنها من جملة الأولى لكونها تابعة لها. ﴿وَكَدَّ •
 بموسى والآية الكبرى، وسأهما ساحراً وسحراً ﴿وَعَصَى﴾ الله تعالى بعد م عمة
 صحة الأمر، وأن الطاعة قد وَجِبَتْ عليه. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ أي: لما رأى الشعبان دبير
 مرعوباً، يسعى: يسرع في مشيته. قال الحسن: كان رجلاً طياشاً خفيفاً. أو تولى عن
 موسى يسعى ويجتهد في مكائده، وأريد: ثم أقبل يسعى، كما تقول: أقبل فلان يفعل
 كذا، بمعنى: أنشأ يفعل، فوضع ﴿أَدْبَرَ﴾ موضع: أقبل؛ لثلاث يوصف بالإقبال.
 ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة، كقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣].
 ﴿فَنَادَى﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو أمر منادياً في الناس بذلك. وقيل قام
 فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة. وعن ابن عباس: كلمته الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] والآخرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٣٤]. ﴿نَكَالَ﴾
 هو مصدر مؤكد، كَوَعَدَ اللهُ، وَصَبَغَةَ اللهُ؛ كأنه قيل: نكال الله به نكال الآخرة والأولى،
 والنكال بمعنى التنكيل، كالسلام بمعنى التسليم.

مذهب أبي حنيفة رحمه الله، أن الأمر للفور^(١)، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ
 الْحَاجِرَ فَأَنْبَجَسْتَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وأنشد للمتنبّي:

إِنْ تَدْعُ يَا سَيْفُ لَتَسْتَعِينَهُ يُجِبُّكَ قَبْلَ أَنْ تُتَمَّ سِينَهُ^(٢)

قوله: (فَوَضَعَ ﴿أَدْبَرَ﴾ موضع «أقبل»؟)، الانتصاف: «وهو وجه حسن، وأدبر على هذا
 من أفعال المقاربة»^(٣). وقلت: ويمكن أن يُقال: إن ﴿أَدْبَرَ﴾ استعير لأقبل على التلميح؛ لأن
 سعيه كان دبيراً عليه.

(١) انظر: «شرح مختصر الروضة» (٢: ٣٨٧) للطوفي.

(٢) «العرف الطيب» (٢: ١٧٨) لليازجي.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٩٦).

يعني: الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة. وعن ابن عباس: نكأ كَلَمْتِيهِ: الآخرة وهي قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، والأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، وقيل: كان بين الكلمتين أربعون سنة، وقيل عشرون.

[﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّيْنَاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُفْنِكُكُمْ﴾ ٢٧-٣٣]

الخطاب لمنكري البعث، يعني: ﴿أَنْتُمْ﴾ أصعب ﴿خَلْقًا﴾ وإنشاء ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ ثم يبيِّن كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا﴾ ثم بيَّن البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَعْتَهَا﴾

قوله: (يعني: الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة)، فيكون التقدير: أخذَهُ اللهُ نكأ الدار الآخرة ونكأ الدار الأولى، أو التقدير: أخذَهُ اللهُ نكأ الكلمة الآخرة ونكأ الكلمة الأولى، وفي تقدير المصنّف تكرير؛ لأنه كرّر الرواية عن ابن عباس.

قوله: (الخطاب لمنكري البعث)، إشارة إلى أن قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ مردودٌ إلى فاتحة السورة، وذلك أنه تعالى لما أقسم على إثبات الحشر بما أقسم وبالع فيه، وكان خطاباً لمنكري البعث، ومن ثمّ قدّر جواب القسم: «لتبعثن» لقرينة قوله: ﴿أَوَلَمْ نَكْمَلْكُمْ الْخَلْقَ﴾ إنكاراً، وقولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استهزاء، وأجابهم الله بقوله: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجْدَةٌ﴾، أي: لا تستصعبوها فلإنها هي سهلة هيئة في قدرته، بيّن السهولة بقوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾، وحين كان الجواب تسلياً لرسول الله ﷺ من استهزائهم، وتهديداً للكافرين لإنكارهم، أوقع (١) قصة موسى وفرعون مجملًا في البين ومزيداً للتهديد، ومن ثمّ وسّطت القصة بحديث الحشبية، حيث قيل: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْ﴾ وختمت به قائلاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

قوله: (ثم يبيِّن كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا﴾)، أي: استئناف على سبيل البيان، قال الكسائي

(١) لعل الصواب: أن «بيّن السهولة» هو جواب قوله: «لما أقسم». أمّا «أوقع» فهو جواب: «وحيث كان الجواب».

أي: جعل مقدارَ ذهابها في سَمْتِ العلوِّ مديداً رفيعاً مسيرةً خمسَ مئةَ عامٍ ﴿مَتَوَّهَ﴾: فعَدَلُها مستويةً ملساء، ليس فيها تفاوتٌ ولا فُطور. أو فتممها بما عَلم أنها تتمُّ به ونصحها. من قولك: سَوَى فلانٌ أمرَ فلان. غَطَشَ الليلَ وأغطشه اللهُ، كقولك: ظَلَمَ وأظلمه. ويقال أيضاً: أغطشَ الليلَ، كما يقال أظلمَ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ وأبرزَ ضوءَ شمسها، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، يريد: وضوئها. وقولهم: وقتُ الضحى، للوقتِ الذي تشرقُ فيه الشمسُ ويقوم سلطانها؛ وأضيفَ الليلَ والشمسُ إلى السماء،

والفراء: تَمَّ الكلامُ عندَ قوله: ﴿هَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾، وابتدأ من قوله: ﴿بَنَّتْهَا﴾، الكواشي: ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: أم السماء أشدُّ؟ وعنده وقفٌ تامٌّ إن استأنفتَ ولم تنصبْ ﴿بَنَّتْهَا﴾ حالاً من الخبر المحذوف. وقلتُ: إذا قطعَ ﴿بَنَّتْهَا﴾ تكونُ «أم» متصلةً، وإذا وصلَ تكونُ مُنقطعةً، ويكونُ في الكلامِ ترقُّقٌ من الأهونِ إلى الأغلظ.

قوله: (أو فتممها بما عَلم أنها تتمُّ به)، فعلى الأول: التسويةُ عبارةٌ عن تعديلِ ذواتِ السماوات، وعلى الثاني: عبارةٌ عن إصلاحها بزوائدٍ خارجيةٍ، من كونها جعلت مقراً للملائكةِ المقربينِ المُسَبِّحِينَ، ومسارحَ نظيرِ المعتبرين، وجعلت مزينةً بزينةِ الكواكبِ ومُترلاً منها البركاتُ في الأرضِ وأحكامُ الدين، لقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

قوله: (وأضيفَ الليلَ والضحى - ويروى: الليلَ والشمسُ - إلى السماء)، يريدُ أن السماءَ جعلت كالقبةِ المضروبةِ والزواجِ الممدود، وكالبيتِ المظلمِ ليس فيه سراجٌ، والشمسُ هي السراجُ المثقُبُ في جَوْها، فإن قيل: إن الليلَ ظلُّ الأرضِ، فيجاب: كم لمراي الناظرِ من اعتبار؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملك: ٥] أي: مُزينةً في مَرَأى النَّظَرِ بالكواكبِ المضئية، وبه فُسِّرَ قولُ المعري:

صِغَارُ الشُّهْبِ أَسْرَعُهَا انْتِقَالاً^(١)

(١) صدره:

فَقَدْ أَكْثَرَتْ نُقُلَتْنَا، وَكَانَتْ

انظر: «ديوان سقط الزند»، ص ٩٩.

لأن الليل ظلُّها والشمسُ هي السراجُ المثقُبُ في جوِّها. ﴿مَاءَهَا﴾ عيونُها انتفجرةُ بالماء، ﴿وَمَرَعْنَهَا﴾ ورغبتها، وهو في الأصلِ موضعُ الرَّعْيِ. ونصبُ الأرضِ واجبٌ بإضمارِ (دحا) و(أرسي)، وهو الإضمارُ على شريطةِ التفسير. وقرأهما الحسنُ مرفوعينِ على الابتداء.

فإن قلت: هلا أدخل حرفَ العطفِ على أخرج؟

قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكونَ معنى ﴿دَحْنَهَا﴾ ﴿بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا لِلسُّكْنَى﴾. ثم فسّر التمهيدَ بما لا بدُّ منه في تأتّي سُكْنِها، من تسويةِ أمرِ المأكَلِ والمشربِ؛ وإمكانِ القرارِ عليها، والسُّكُونِ بإخراجِ الماءِ والمرعى، وإرساءِ الجبالِ وإثباتِها أوتاداً لها حتى تستقرَّ ويُسْتَقَرَّ عليها.

وقال الإمام: «إنما أضافَ اللَّيْلَ والنهارَ، لأنَّ اللَّيْلَ والنهارَ إنَّما يحدثانِ بسببِ غروبِ الشمسِ وطلوعِها، وهما إنَّما يَحْضُلانِ بسببِ حركةِ الفلكِ»^(١).

قولُه: (ورغبتها)، الجوهري: «الرَّعْيُ بالكسرِ: الكلاءُ، وبالفتحِ: المصدرُ، والمَرَعَى: الرَّعْيُ والموضع».

قولُه: (وَقَرَأَهُمَا الحَسَنُ مرفوعينِ)، أي: الأرضُ والجبالُ. قال الزجاج: «القراءةُ بِنَصْبِ الأرضِ على معنى: وَدَحَا الأرضَ بعدَ ذلك، وفسَّرَ هذا المضمَرَ فقال: ﴿دَحْنَهَا﴾، وهو أجودُ من الرَّفْعِ؛ لأنَّك أن تعطفَ بفعلٍ على فعلٍ أحسن»^(٢).

قولُه: (ثُمَّ فَسَّرَ التمهيدَ بما لا بدُّ منه في تأتّي سُكْنِها)، وفي تفسيره لفٌ ونشرٌ، الانتصاف: «هذا الجوابُ أحسنُ من الثاني؛ لأنه مناسبٌ لقوله: ﴿أَرِ السَّمَاءُ بِنَبْهَا﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا».

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٤٤).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٨٠).

والثاني: أن يكون ﴿أَخْرَجَ﴾ حالاً ياضهار (قد) كقوله: ﴿أَوْجَاءُكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠] وأراد به ﴿وَمَرَعَهَا﴾: ما يأكل الناس والأنعام. واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرَّعُفُ في قوله: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢]. والظاهر أنه تغليب، لأن قوته ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَا تَنْعِيكُمْ﴾ واردة عليه، ومن حقه أن يغلب ذوي العقول على الأنعام، فعكس تجهيلاً^(١)؛ وقرئ: (ترتع)، من الرَّعِي؛ ولهذا قيل: دلَّ اللهُ سبحانه بذكرِ الماءِ والمرعى على عامة ما يُرتفقُ به ويُتمتعُ مما يخرجُ من الأرضِ حتى الملح؛ لأنه من الماء. ﴿مَنْعًا لَكُمْ﴾ فَعَلْ ذلك تمتيعاً لكم، ﴿وَلَا تَنْعِيكُمْ﴾؛ لأن منفعة ذلك التمهيديداً واصلةً إليهم وإلى أنعامهم. [فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى *]

[٣٦-٣٤].

﴿الطَّامَةُ﴾ الداهية التي تطمُّ على الدواهي، أي: تَعْلُو وتَغْلِب. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطمَّ على القرِي، وهي القيامة لطمومها على كلِّ هائلة.....

قوله: (واستعير الرعي للإنسان)، يعني: استعير الرعي والرَّعُفُ لتناول الإنسان الطعام، كما يُستعارُ المرسنُ للأنف، والمشفَّرُ للشَّفة. عن بعضهم: ﴿مَاءَهَا وَمَرَعَهَا﴾ عبارة عن الأرزاق، جمع الله تعالى جميع ما يُتمتعُ به في هاتين الكلمتين. ويجوز أن يكون استعارةً معنويةً. لأنَّ الكلامَ مع مُنكري الحشر بشهادة قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ كما مرَّ قبلُ أيها المُعانِدون الداخلون في زُمرَةِ البهائم الملزوزون في قرنها في تمتعكم بالدنيا، وذُهلِكُم عن الأخرى.

قوله: (وقرئ: «ترتع»)، أي: بكسر العين، من الارتعاء، افتعال من الرعي.

قوله: (جرى الوادي فطمَّ على القرِي)، قال الميّداني: «أي: جرى سبيل الوادي فطمَّ، أي: دَفَن، يُقال: طَمَّ السبيلُ الرَكِيَّةَ، أي: دَفَنها. والقرِي: مجرى الماءِ في الروضة والجمع: أقرِيَّة، وقرِيان، يعني: أتى على القرِي أي: أهلكه بأن دَفَنه، يُضربُ عند تجاوزِ الشرِّ حدَّه»^(٢).

(١) من قوله: «والظاهر أنه» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح)، (ف).

(٢) «جمع الأمثال» (١: ١٥٩).

وقيل: هي النفخة الثانية. وقيل: الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ بدلٌ من إذا جاءت، يعني: إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تَذَكَّرَهَا وكان قد نَسِيَهَا، كقوله: ﴿أَخَصَّ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، و «مَا» في ﴿مَا سَعَى﴾ موصولة، أو مصدرية. ﴿وَبُرِّزَتْ﴾: أظهرت. وقرأ أبو نهبك: (وَبُرِّزَتْ). ﴿وَلَمَن يَرَى﴾ للرائين جميعاً، أي: لكل أحد، يعني: أنها تَظْهَرُ إظهاراً بيناً مكشوفاً، يراها أهل الساهرة كلهم، كقوله:

قد بيّن الصبحُ لذي عينين

يريد: لكل من له بَصَرٌ؛ وهو مثلٌ في الأمرِ المنكشفِ الذي لا يخفى على أحد. وقرأ ابن مسعود: (لمن رأى)، وقرأ عكرمة: (لمن ترى) والضميرُ للجهيم، كقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢] وقيل: لمن ترى يا محمد.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثُرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [٣٧-٣٩]

﴿فَأَمَّا﴾ جواب ﴿فَإِذَا﴾ أي: فإذا جاءت الطامةُ فإنَّ الأمرَ كذلك

عن بعضهم: يقال: طَمَّ شعره، أي: جَزَّه، ويقال: جاء السبيلُ فطَمَّ الرَكِيَّةَ، أي: دَفَنَهَا فسَوَّاهَا، وكلُّ شيءٍ كَثُرَ حَتَّى يعلوَ فقد طَمَّ؛ ذَكَرَهُ في بابِ فَعَلَ يَفْعَلُ بفتح العين، وَذُكِرَ في بابِ فَعَلَ يَفْعَلُ بِكسرِها يَطْمُ طمياً، أي: يعدو عدواً سهلاً.

قوله: ﴿وَلَمَن يَرَى﴾: للرائينَ جميعاً، الانتصاف: «أي: هو أمرٌ ظاهرٌ لا يتوقَّفُ إلا على وجودِ الحاسةِ لا غيرٍ، ولا مانعٍ من الرؤيةِ ولا حاجبٍ عنها»^(١).

قوله: (قد بيّن الصُّبْحُ لذي عينين)، قال الميِّداني: «بيّن هاهنا بمعنى: تَبَيَّنَ، يُضْرَبُ للأمرِ الذي يَظْهَرُ كُلُّ الظُّهورِ»^(٢).

قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ جوابٌ ﴿فَإِذَا﴾، وفي «المطلع»: المقَدَّرُ شيءٌ آخر، أي: فإذا جاءتِ الطامةُ، وَقَعَ ما لا يَدْخُلُ تحتِ الوَصْفِ، وقوله: ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيلٌ لذلك المقَدَّر.

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٩٨).

(٢) «مجمع الأمثال» (٢: ٩٩).

والمعنى: فإنَّ الجحيم مأواه، كما تقول للرجل: غَضَّ الطَّرْفَ، تريد: طَرَفَكَ، وليس الألفُ واللامُ بدلاً من الإضافة، ولكن لما عَلِمَ أَنَّ الطاغِيَّ هو صاحبُ المأوى، وأنه لا يغضُّ الرجلُ طرفَ غيره: تُرَكِبُ الإضافة؛ ودخولُ حرفِ التعريفِ في المأوى والطرفِ: للتعريف؛ لأنها معروفان، و﴿هِيَ﴾ فَضَّلُ أو مبتدأ.

[﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٠ - ٤١﴾]

﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ الأمانة بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ المُرْدِي، وهو اتباعُ الشهواتِ، وَزَجَّرَهَا عنه وَضَبَطَهَا بالصبرِ والتوطينِ على إيثارِ الخيرِ.

قوله: (وليس الألفُ واللامُ بدلاً من الإضافة)، قال صاحبُ «الكشف»: قال الكوفيُّ: بل التقديرُ: مأواه، فقامَ الألفُ مقامَ الضميرِ^(١).

قوله: (ودخولُ حرفِ التعريفِ في المأوى والطرفِ: للتعريف؛ لأنها معروفان)، قال الزجاجُ: ليس الألفُ واللامُ بدلاً من الكافِ في الطَّرْفِ وإن كان المعنى: غَضَّ طَرَفَكَ؛ لأنَّ المخاطَبَ يَعْلَمُ أنك لا تَأْمُرُهُ بِغَضِّ طَرْفِ غَيْرِهِ^(٢)، قال:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغت ولا كيلاباً^(٣)

قوله: (وَزَجَّرَهَا عَنْهُ)، عطفٌ تفسيريٌّ على ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾، وقوله: «وَضَبَطَهَا بِالصَّبْرِ»، تفسيرٌ هكذا لـ «زَجَّرَهَا». الراغب: «النَّهْيُ: الزَّجْرُ عَنِ الشَّيْءِ، وَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ بِالْقَوْلِ أَوْ بِغَيْرِهِ، وَمَا كَانَ بِالْقَوْلِ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ بِلَفْظِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ، وَاجْتِنِبَ كَذَا، وَبِلَفْظِهِ لَا تَفَعَّلَ، وَمِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ هُوَ قَوْلُهُمْ: لَا تَفَعَّلْ كَذَا، فَإِذَا قِيلَ: لَا تَفَعَّلْ فَهُوَ نَهْيٌ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى جَمِيعاً، نَحْوُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ لم يَعْزِ به أن يقولَ لِنَفْسِهِ: لَا تَفَعَّلْ، بل أَرَادَ قَمْعَهَا عَنْ شَهْوَتِهَا،

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٢٨)

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٨١).

(٣) البيت لجريز، من قصيدة طويلة يهجو بها الراعي النميري وقبيلته. انظر: «ديوانه»، ص ٨٢١.

وقيل: الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد، ووقى رسول الله ﷺ بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه.

[يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشِنَهَا * كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُونَهَا لَفِزًّا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا *] [٤٢ - ٤٦].

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها، أي إقامتها، أرادوا: متى يقيمها الله ويثبتها ويكرّمها؟ وقيل أيان منتهاها ومستقرّها، كما أنّ مرسى السفينة مُستقرّها، حيث تنتهي إليه.....

ودفعها عما تزعت إليه وهمت به، وكذا النهي عن المنكر يكون تارة باليد وتارة باللسان وتارة بالقلب. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النحل: ٩٠] أي: يحث على فعل الخير ويذّب عن الشر، وذلك بعضه بالعقل الذي ركّبه فينا، وبعضه بالشرع الذي شرّعه لنا. والإيناء في الأصل: إبلاغ النهي، ثم صار متعارفاً في كل إبلاغ، فقيل: أنهيت إلى فلان خبر كذا، أي: بلغت به النهاية، ورجل ناهيك كقولك: حسبك، ومعناه أنه غاية فيما تطلبه، وينهاك عن تطلب غيره، وناقّة نهيّة: تناهت سمنًا^(١).

قوله: (في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير)، أما أبو عزيز بضم العين، مُصغّر «عزيز»، فليس له ذكر في «الجامع»، وأما مصعب بن عمير، فذكر أنه مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي، من أجلة الصحابة وفضلائهم، قتل يوم أحد، وفيه نزل: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]^(٢). وعن بعضهم: صحّ «أبو عزيز» بفتح العين وتكرير الزاي، ذكره المصنّف في كتاب «متشابه الأسماء».

قوله: (المشاقص)، الجوهري: «المشقص من النصال: ما طال وعرض».

قوله: (كما أنّ مرسى السفينة: مستقرّها)، الانتصاف: «فيه إشعار بثقل اليوم، كقوله

(١) «مفردات القرآن»، ص ٨٢٦-٨٢٧.

(٢) «جامع الأصول» (١٢: ٨٥١) لابن الأثير.

﴿فِيمَ أَنْتَ﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به، يعني: ما أنت من ذكرها لهم وتبين وقتها في شيء. وعن عائشة رضي الله عنها: لم يزل رسول الله ﷺ يذكر نساء يسأل عنها حتى نزلت، فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها. والمعنى: أنهم يسألونك عنها، فنحصر صحت على جوابهم لا تزال تذكرها وتساءل عنها، ثم قال: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَى﴾ أي: منتهى علمها؛ لم يؤت علمها أحداً من خلقه. وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السؤال، ثم قيل: ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾، أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة، ذكر من ذكرها وعلامة من علاماتها،

تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]؛ فلم يُطَلَقِ الإرساء إلا على ما فيه ثقل كالجبال والسفينة^(١).

قوله: (تعجب من كثرة ذكره لها، أي: في أي شغل أنت من ذكرها^(٢))، الانتصاف: «وفيه ضعف؛ لأن قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَقِيٌّ عَنَّا﴾ [الأعراف: ١٨٧] يرده^(٣).

قلت: صدق، قال المصنف: ﴿كَأَنَّكَ حَقِيٌّ عَنَّا﴾: كأنك بليغ في السؤال عنها^(٤)، يعني: يسألونك عنها، لأنهم يزعمون أنك بليغ في السؤال عنها، وليس كما يزعمون.

قوله: (ثم قيل: ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾)، الانتصاف: «فعلى هذا يوقف على قوله: ﴿فِيمَ﴾ لِيُفْصَلَ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ»^(٥).

قوله: (في نسم الساعة)، الجوهري: «نَسَمُ السَّاعَةِ: حِينَ ابْتَدَأَتْ وَأَقْبَلَتْ أَوَائِلَهَا، وَنَسِيمُ الرِّيحِ: أَوَّلُهَا حِينَ تُقْبَلُ».

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٩٩).

(٢) كذا في (ط)، وفي (ح) و(ف): «أي: في شغل أنت من الاهتمام بالسؤال عنها»، وكلاهما فيه مخالفة لما في «الكشاف»، ولعله من باب الاختصار.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٩٩).

(٤) انظر: (٦: ٦٩٤).

(٥) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٩٩).

فكفاهم بذلك دليلاً على دُنُوها ومُشارفتِها ووجوب الاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّحْشَاهَا﴾ أي: لم تُبعث لتُعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه، وإنما بُعثت لتُنذِرَ من أهوالها من يكون من إنذارك لطفاً له في الخشية منها. وقرئ: (منذِرٌ) بالتنوين، وهو الأصل؛ والإضافة تخفيفٌ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال؛ فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة؛ كقولك: هو منذرٌ زيدٍ أمسٍ، أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، وقيل: في القبور ﴿لَا عَشِيَّةٌ أَوْ ضُحَاهَا﴾.

فإن قلت: كيف صحّت إضافة الضحى إلى العشية؟

قلت: لما بينهما من الملابس لاجتماعيهما في نهارٍ واحد.

فإن قلت: فهلا قيل: إلا عشيّة أو ضحى وما فائدة الإضافة؟

قلت: الدلالة على أن مدّة لبثهم كأنها لم تبلغ يوماً كاملاً، ولكن ساعة منه عشية أو ضحاه؛ فلما ترك اليوم أضافه إلى عشية، فهو كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ كان مِمَّنْ حَبَسَهُ اللهُ فِي الْقَبْرِ وَالْقِيَامَةِ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ قَدَرِ صَلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ».

قوله: (وَقُرئ: «مُنذِرٌ» بالتنوين)، وهي شاذة. قال الزجاج: «المعنى: إنما أنت في حال إنذارٍ من يَحْشَاهَا وفيما يُسْتَقْبَلُ أيضاً، ومُفْعِلٌ وفاعلٌ إذا كانا بمعنى الحال والاستقبال تُونا؛ لأنه حيثُ بُدِّلَ مِنَ الْفِعْلِ، وَالْفِعْلُ نَكْرَةٌ، وَقَدْ يَجُوزُ حَذْفُ التَّنْوِينِ عَلَى اسْتِخْفَافِ، وَالْمَعْنَى عَلَى ثُبُوتِ التَّنْوِينِ، فَإِذَا كَانَ لِمَا مَضَى فَهُوَ غَيْرُ مَتَوَيْنٍ أَلْبَتَّةَ» (١).

قوله: (فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥])، رُوي عن المصنّف أنه قال: لهذا الكلام أصلٌ، وهو قوله: لم يلبثوا إلا ساعة من نهارٍ عشية أو ضحاه، فَوَضَعَ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٨٢).

هذا المختصر مكانه^(١). وقلت: الظاهر أن نسبة «مِن تَهَارِبِ» إلى «سَاعَةً»، وإضافة «صَحَى» إلى «عَشِيَّة»: للبيان، ولكن المراد التوكيد، وتحقيقها، نحو: أخذتُ بيدي ورأيتُ بعيني؛ لأنه من الإمكان أن يُرادَ بـصَحَى وساعة: النهارُ كُلُّه مجازاً، وإليه الإشارةُ بقوله: «كَانَ مَا يَبْلُغُ يَوْمًا كَامِلًا وَلَكِنْ سَاعَةً مِنْهُ».

تَمَّتِ السُّورَةُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ

* * *

(١) لم أهتم إلى موضعه.

سورة عبس

مكية، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى * أَمَامِنِ اسْتَفْتَى * فَآتَ لَهُ نَصَدَى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي * وَأَمَامِنِ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَن تَعْنَهُ اللَّهُ * ﴿ ١ - ١٠ ﴾] .
 أتى رسول الله ﷺ ابنُ أمِّ مكتوم؛ وأمُّ مكتوم أمُّ أبيه،

سورة عبس

مكية، وهي أربعون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (أتى رسول الله ﷺ ابنُ أمِّ مكتوم)، الحديث عن مالك بن أنس في «الموطأ»، والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: نزلت ﴿ عَبَسَ ﴾ في ابنِ أمِّ مكتومِ الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرضُ عنه ويُقبلُ على الآخرِ ويقول: «أتري بما أقول بأساً؟» فيقول: لا، ففيه أنزل هذا^(٢). والضميرُ في «تري»: لابنِ أمِّ مكتوم.

(١) في (ف): «اثنان وأربعون»، ولا شيء في (ح). وهي في عدِّ الشاميين أربعون آية، وفي عدِّ البصريين

إحدى وأربعون، وفي عدِّ غيرهم: اثنان وأربعون. انظر: «البيان» للداني ص ٢٦٤.

(٢) «سنن الترمذي» (٣٣٣١) واللفظ له، و«الموطأ» (٤٧٦).

واسمُه عبدُ الله بنُ شريحِ بنِ مالكِ بنِ ربيعةِ الفهري، من بني عامرِ بنِ لؤي، وعنده صناديدُ قريش: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهل بنُ هشام، والعباسُ بنُ عبد المطلب، وأميهُ بنُ خلف، والوليدُ بنُ المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام رجاءً أن يسلمَ بإسلامهم غيرُهم. فقال: يا رسولَ الله، أفرئتني وعلمتني مما علمك الله، وكررت ذلك وهو لا يعلمُ تشاغله بالقوم، ففكرَ رسولُ الله ﷺ قطعَه لكلامه، وعبسَ وأعرضَ عنه، فنزلت. فكان رسولُ الله ﷺ يُكرمه ويقولُ إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، ويقولُ له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين؛ وقال أنس: رأيتُه يومَ القادسيةِ وعليه درعٌ وله رايةٌ سوداء. وقرئ: (عبسَ) بالتشديد للمبالغة؛ ونحوه: **كَلَحَ فِي كَلَحٍ**. ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ منصوبٌ بتولَّى، أو بعبسَ، على اختلافِ المذهبيين.....

قوله: (واسمُه: عبدُ الله بنُ شريح)، وفي «جامع الأصول»: «هو عمرو بنُ قيس بن زائدة ابن الأصمِّ، والأصمُّ هو جندبُ بنُ هريم بن رَوَاحَةَ بنِ حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي». وقيل: اسمُه عبدُ الله بن عمرو، والأوَّلُ أكثرُ وأشهر. وهو ابنُ أمِّ مكتوم، واسمُها: عاتكة بنتُ عبد الله المخزوميَّة، أسلمت قديماً بمكة، استخلفه رسولُ الله ﷺ ثلاث عشرة مرةً في غزواته على المدينة، وكان ضريراً، مات بالمدينة، وقيل: قُتِلَ شهيداً بالقادسية»^(١)، يومَ فتح المدائن أيامَ عمر. والقادسية: موضعٌ بينه وبين الكوفة خمسة عشر ميلاً. وأما قولُ المصنِّف: وأمِّ مكتوم أم أبيه، أي: جدُّته، فهو وهمٌ، كما سبق. ونصَّ ابنُ عبد البرِّ في «الاستيعاب»^(٢): أمُّها أمه^(٣).

قوله: (على اختلافِ المذهبيين)، أي: في تنازعِ الفعلين، وحذفُ الأمرِ من ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ للقياسِ المستمرِّ، لا لكونه مفعولاً له؛ لأنه ليس فعلاً لفاعلِ الفعلِ المعلَّل.

قوله: (نحوه كَلَحَ وكَلَحَ)، وفي نسخة: «كَلَحَ فِي كَلَحٍ».

(١) «جامع الأصول» (٢: ٦١٧) لابن الأثير.

(٢) «الاستيعاب» (٣: ١١٩) لابن عبد البر.

(٣) من قوله: «وأما قولُ المصنِّف» إلى هنا، سقط من (ف).

ومعناه: عبس؛ لأن جاءه الأعمى. أو أعرض لذلك. وقرئ: (أأن جاءه) بهمزتين وبألف بينهما، ووقف على ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ثم ابتدئ، على معنى: أأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكاراً عليه؟ ورؤي أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط، ولا تصدنى لغني. وفي الإخبار عما فرط منه، ثم الإقبال عليه بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة. وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك،

قوله: (وقرئ: «أأن جاءه»)، بهمزتين وألف بينهما)، قال ابن جني: «قرأها الحسن: وأن، مُعلّقة بمحذوف دل عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، أي أن جاءه الأعمى أعرض عنه وتولّى بوجهه؟ فالوقف إذن على تولّى، والاستئناف بالاستفهام للإنكار. وأما ﴿أأن﴾ على القراءة العامة فمنصوبة بتولّى؛ لأنه الأقرب، ومن أعمل الأول نصّبها بعبس وقال: عبس أن جاءه الأعمى وتولّى لذلك، والوجه: إعمال الثاني لقربه. وأما أن تنصبه بمجموع الفعلين فلا»^(١).

وقلت: المصنّف ذهب إلى إعمال الأول بناء على مذهب الكوفيين، حيث قال: عبس لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك؛ لأن لطف المعنى معه، فإن الواو إن لم تدل على الترتيب لكنّ النظم يقتضيه، فلا يئاسب أن يقال: تولّى لأن جاءه الأعمى وعبس لذلك؛ لأنّ التولّى بعد العبوس كما يشهد له الحال.

قوله: (وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك)، يعني: العدول من اسم العلم إلى الوصف مزيداً للإنكار وإلزام الحجة، مثل ما في العدول من الغيبة إلى الخطاب، وبيانه: قوله: كأنه يقول: قد استحقّ عنده العبوس، إلى آخره، أي: أهذا حقّ الأعمى أهذا حقّ الضعيف؟ [إلى] (٢) آخره؟ وتحريره: أن في إسناد عبس وتولّى إلى ضمير الرسول ﷺ في حال الغيبة، إشعاراً بأن ذلك بما لا يليق بمنزلة من في صدو الرسالة، لا سيما أنه ما أرسل إلا رحمة

(١) «المحتسب» (٢: ٣٥١).

(٢) زيادة يقتضيهما السياق.

كأنه يقول: قد استحوّٰ عنده العبوسُ والإعراضُ لأنه أعمى، وكان يجبُ أن يزيدَه نعماءه تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً، ولقد تأدّب الناسُ بأدبِ الله في هذا تأدّباً حسناً؛ فقد روي عن سفيان الثوري رحمه الله أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأيُّ شيءٍ يجعلُك دارياً بحالِ هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُ يَزَنُّ﴾ أي يتطهّرُ بما يتلقنُ من الشرائع من بعض أوضارِ الإثم. ﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ أو يتعظُّ، ﴿فَنَنْفَعُهُ﴾ ذكراك، أي: موعظتُك؛ وتكونُ له لطفاً في بعض الطاعات. والمعنى: أنك لا تدري ما هو مترقّب منه، من ترك أو تذكّر، ولو دَرَيْتَ لما فرطَ ذلك منك. وقيل: الضميرُ في ﴿لَعَلَّهُ﴾ للكافر،

للعالمين، وأنه لعلّى خلُقٍ عظيم؛ فكانَ العابسُ والمتوّيُّ غيره، ثم التمتَّتْ مُحاطبُهُ قائلاً: وما يُدريك؟ تائباً، أي: مثلك بتلك المنزلة لا ينبغي أن يتصدّى لغيري ويتلهّى عن فقير. وكذلك في صفة الأعمى؛ من حيث اعتبارُ الجيلةِ النفسانيةِ منقصةً توجبُ الإعراضَ والتويُّ عَمَن هو متصفٌ بها، ومن حيثُ مرتبتك من الخلقِ العظيم، قمع النفس، والعملُ بمقتضى الخلقِ العظيم لا بمقتضى شهوةِ النفس، أو في تلك الصفةِ إشعارٌ باستعمالِ التعطفِ والترؤفِ، والتقريبِ والترحيبِ، لا سيما من مثلك، وقد وَصَفَكَ اللهُ بالخلقِ العظيم، أو في تلك الصفةِ من تمهيدِ العُدْر، وأنه أعمى لم يهتدِ إلى عدم الإقدام بينَ يديك، وقَطَعَ كلامك عن كلام القوم، اعتذارٌ عندَ الكرام، خصوصاً عندَ مثلك وكنْتَ للعالمين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وهذه الآياتُ أيضاً من خُلُقِهِ صَلَواتُ اللهُ عليه؛ لأنّها تأديبٌ له، وكان خُلُقُهُ القرآن، ثم في معنى الترجي الذي يُعطيه ﴿لَعَلَّهُ﴾ تمهيدُ عُدْرٍ له صَلَواتُ اللهُ عليه، جَبراً لذلك الخطابِ المشتمل على التوبيخ، يعني: أعدزناك لأنك حريصٌ على إسلام القوم، فأدبى اجتهادك إلى أن تُقبِلَ عليهم وتُعرضَ عن الأعمى، ولو دَرَيْتَ ذلك ما فرطت ذلك، أي: وإن كان حَقِيقاً عليك يا رسولَ اللهُ، كأنَّ اللهُ تعالى يعتذرُ من رُسُولِهِ ﷺ. اللهُ دَرَّ المصنّف ودَرْكُهُ أمثالُ هذه الرُموزِ الجليلة!

قوله: (الضميرُ في ﴿لَعَلَّهُ﴾ للكافر)، فعلى هذا ﴿لَعَلَّ﴾ راجعٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ،

يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام، أو يتذكر فتقربته الذكرى إلى قبول الحق؛ وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن. وقرئ: (فتنفعه) بالرفع عطفاً على ﴿بَذُرْ﴾، وبالنصب جواباً لـ «لعل»، كقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧]، ﴿تَصَدَّى﴾ تتعرض بالإقبال عليه،

ولذلك قال: «طِمَعَتَ فِي أَنْ يَتَزَكَّى»، وإنَّ ما طِمَعَتَ فِيهِ كائِنٌ، وعلى الأَوَّلِ راجِعٌ إلى الله تعالى، إِمَّا مجازاً على سبيل الرمز للقطع؛ لأنَّ ﴿لَعَلَّ﴾ مِنْ مِثْلِ كَلَامِ الجبَابِرَةِ قَطَعٌ فِي حُصُولِ المَطْمُوعِ فِيهِ، أو تَمْثِلاً وَأَنَّهُ تَعَالَى يُعَامَلُ مَعَامِلَةً مَن يَطْمَعُ وَيَرْجُو، وإلى الأَخِيرِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾، أَي: يَتَطَهَّرُ بِهَا يَتَلَقَّنُ مِنَ الشَّرَائِعِ مِنْ بَعْضِ أَوْصَارِ الإِثْمِ، وإدخال لفظ «بعض» في الموضعين، للهضم من حقه، والإيدانِ بِأَنَّ المَطْلُوبَ التَطَهُّرُ أو الطاعة وإن حَصَلَ البَعْضُ مِنْهُمَا، والتفادي عن قَوَاتِمِهَا وإن كان عن البَعْضِ، والله أعلم.

قوله: (وَقُرِءَ: «فَتَنْفَعُهُ» بِالرَّفْعِ)، عاصمٌ: بالنَّصْبِ، والباقونَ: بِرَفْعِهَا^(١).

قوله: (﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾)، قال صاحبُ «المفتاح»: «وسببُ توليدِ ﴿لَعَلَّ﴾ معنى التمني في قولهم: لعلي سأحج فأزورك بالنصب، هو بُعد المَرْجُوِّ عن الحُصُولِ»^(٢). وهذه القراءة تُقَوِّي مذهبَ مَنْ قال: إنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿لَعَلَّهُ﴾ لِلْكَافِرِ؛ لأنَّ المعنى: ما يُدْرِيكَ أَنَّ ما طِمَعْتَ فِيهِ وَتَمَنَيْتَ مِنْ إِسْلَامِ القَوْمِ^(٤) كائِنٌ؟ لأنَّهُ مِمَّا لا يُمْكِنُ حُصُولُهُ، وِليسَ ذلكَ إِلا طَمَعٌ فارغٌ، وَيَنْصُرُهُ التَّفْصِيلُ بَعْدَهُ، وَهُوَ: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَعْتَى﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْتَعِي﴾؛ لأنَّهُ يُقْتَضَى أَنْ يَكُونَ لِلْكَافِرِ أَيْضاً ذِكْرٌ فِي المَجْمَلِ.

قوله: (﴿تَصَدَّى﴾: تتعرض بالإقبال)، في «المطلع»: أي: تقبل عليه بوجهك وتميل إليه.

(١) بالنصب على جواب «لعل»، بالرفع عطفاً على «يَزَكَّى». انظر: «حجة القراءات» ص ٧٤٩.

(٢) في (ف): «توكيد»، وليس بصواب.

(٣) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٤) في (ط): «إعلام القوم»، وفي (ف): «إسلام القلوب».

والمصاداة: المعارضة؛ وقرئ: (تَصَدَّى) بالتشديد، بإدغام التاء في الصاد. وقرأ أبو جعفر: (تُصَدَّى)، بضم التاء، أي: تُعَرَّض. ومعناه: يدعوك داع إلى التصدي له، من الحرص والتهالك على إسلامه، وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿يَسَعُ﴾ يسرع في طلب الخير ﴿وَهُوَ يَحْشَى﴾ الله أو يخشى الكفار، وأذاهم في إتيانك. وقيل: جاء وليس معه قائد، فهو يخشى الكبوة. ﴿لَلَّهَى﴾ تتشاغل، من: لهُى عنه،

قوله: (والمصاداة: المعارضة)، الراغب: الصَدَّى: صوت يَرَجُعُ من مكانٍ صَقِيلٍ. والتصدية: كل صوت يجري مجرى الصدى في أن لا غناء فيه. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي: غناء، ما يُوردونه غناءً التصدى ومكاء الطير. والتصدى: أن يُقابِل الشيءُ مقابلة الصدى، أي: الصوتِ الراجعِ من الجبل، قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَقَى * فَأَتَى لَهُ تَصَدَّى﴾ (١).

قوله: (وقرئ: «تَصَدَّى»)، بالتشديد، الحرَمِيَان، والباقون: بالتخفيف. قال الزجاج: «الأصل في التخفيف: تَصَدَّى، حُدِثَ الثانية لاجتماع تاءين. وفي التشديد أيضاً: تَصَدَّى، فالتاء أيضاً أدغمت في الصاد لُقْبِ المَخْرَجِينَ» (٢).

قوله: (وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام)، وجعل ما نافية، والجملة: حالٌ مُقرَّرةٌ لجهة الإشكال، وجعلها الزجاج استفهامية، أي: أي شيء عليك في أن لا يُسلمَ من تدعوه إلى الإسلام؟ (٣).

قوله: ﴿لَلَّهَى﴾: تتشاغل، من: لهُى عنه، الراغب: «اللَّهُوُ: ما يشغل الإنسانَ عَمَ يعنيه ويهمه، يقال: لهوتُ بكذا وهيتُ عن كذا: اشتغلتُ عنه بلهُو، ويُعبَّرُ عن كلِّ ما به استمتع: باللَّهُو» (٤).

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٨١.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٨٣-٢٨٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٨٤).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٧٤٨.

والتلّهي، وتلّهي. وقرأ طلحة بن مصرف: (تتلّهي)، وقرأ أبو جعفر: (تلّهي) أي: يلّهيك شأن الصناديد.

فإن قلت: قوله: ﴿فَأَنْتَ لَهُ، تَصَدَّى﴾، ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ نَلَّهَى﴾ كان فيه اختصاصاً.

قلت: نعم، ومعناه: إنكارُ التصدّي والتلّهي عليه، أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدّى للغني ويتلّهي عن الفقير.

[﴿كَلَّا إِنَّهَا نَذْكِرَةٌ﴾ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ

بِرِّزْقٍ﴾ [١١-١٦].

قوله: (وقرأ أبو جعفر: «تلّهي»)، قال ابن جنّي: «وكذلك قرأ: «تصدّي» بضمّ التاء وفتح الصاد. المعنى: يدعوك داع من زينة الدنيا وشارتها إلى التصدّي له والإقبال عليه، وعلى ذلك تلّهي، أي: تُصرف عنه ويُزوي وجهك دونه؛ لأنه لا غنى عنده ولا ظاهر معه، فخرج مخرَج التنبيه للنبي ﷺ»^(١).

وفي «المطلع»: «تلّهي على بناء المفعول من التلّهي. الجوهري: «هنا به تلّهي، أي: علّنه كما يتعلّل الصبيّ بشيء من الطعام يُتجزى به عن اللبن».

قوله: (نعم، ومعناه: إنكارُ التصدّي)، اعلم أنّ نحو: «أنا عرفت» يحتمل التخصيص وتقوي الحكم، وإذا أريد التخصيص يُقدّر تقديم الفاعل المعنوي على عامله، ولا بدّ من قيام قرينة تُرجح أحد الاحتمالين. وقرينة الاختصاص هاهنا إضمار حرف الإنكار قبل الضمير المؤذن بأن الكلام في الفاعل لا في الفعل، وإليه الإشارة بقوله: إنكارُ التصدّي والتلّهي عليه، ولما بينَ لفظة «أنت» و«مثل» في مثل هذا التركيب من الملازمة، جعل «أنت» كناية عن المثل في قوله: «مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدّى للغني ويتلّهي عن الفقير».

(١) «المحتسب» (٢: ٣٥١-٣٥٢).

﴿كَلَّا﴾ ردع عن المعائبِ عليه، وعن معاودة مثله، ﴿إِنَّمَا نَذِكْرَةٌ﴾ أي: موعظةٌ يجب الاتعاظُ والعملُ بموجبها. ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكْرُهُ﴾ أي: كان حافظاً له غيرِ ناسٍ، وذكر الضمير؛ لأنَّ التذكرةَ في معنى الذِّكْرِ والوَعظِ. ﴿فِي صُحُفٍ﴾ صفةٌ لتذكرة، يعني: أنها مُثبتةٌ في صحفٍ مُتسخةٍ من اللوح، ﴿مُكْرَمَةٌ﴾ عند الله ﴿تَرْفُوعَةٌ﴾ في السماء. أو مرفوعة المقدار، ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ منزَّهة عن أيدي الشياطين، لا يمسُّها إلا أيدي ملائكةٍ مُطَهَّرِينَ. ﴿سَفَرَةٌ﴾ كُتِبَتْ يَتَسَخَّرُونَ الكُتُبَ من اللوح. ﴿بِرُزْوٍ﴾ أُنقياء. وقيل: هي صحفُ الأنبياءِ كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: ١٨] وقيل السَّفَرَةُ: القراء، وقيل: أصحابُ رسولِ الله ﷺ.

قوله: ﴿فِي صُحُفٍ﴾: صفةٌ لتذكرة، قيل للمصنّف: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكْرُهُ﴾ اعتراض؟ قال: لا؛ لأنَّ من شرطِ الاعتراضِ أن يكونَ بواوٍ وبدونِ واوٍ، فأما بالفاءِ فلا، ولكنه حثُّ على الذِّكْرِ والتذكرة، أي: فتذكِّرها، وعلى كلِّ مسلمٍ أيضاً يجبُ ذلك.

وقلتُ: أرادَ أنه استطرادٌ، وبيانه: أنه لما خوطبَ النبي ﷺ بذلك الخطابِ الهائلِ قيل: ﴿كَلَّا إِنَّمَا نَذِكْرَةٌ﴾، أي: أن تلك المعاتبة موعظةٌ للسامعين؛ فإنَّ النبي ﷺ بجلالته إذا عوتبَ بذلك الخطابِ الفظيعِ لذلك التصدّي والتلهي، فما بالٌ غيره؟ وإذا كان كذلك، فتذكِّرها أيها السامع. وكان من الظاهر أن يؤخَّرَ قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكْرُهُ﴾ عن وصفِ التذكرة، فقدّمَ لشدة العناية بها، ولِعظمِ الحادثةِ عِظَمِ الكُتُبِ ووصفِها بتلك الأوصافِ العظيمة، ثم قيل: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾، فجمع في الفاظٍ قليلة معاني كثيرة، ثم فصلَ بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ﴾، إلى آخره (١).

قوله: ﴿بِرُزْوٍ﴾: أُنقياء، وعن بعضهم: قيل: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، لأنه لو لم يكن لهم من الكرمِ إلا هذه الواحدة لكفّت به، وهي أنهم مع عُنتيهم وأنتهم في أعلى عِلِّيِّينَ، يستغفرون للمؤمنين ويزكرونها خيراً لهم، وأنت لا تذكرُ أخاك إلا بالسوءِ والقُبْحِ.

(١) من قوله: «أي: أن تلك المعاتبة موعظةٌ للسامعين» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

[﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ * ثُمَّ أَنَا لَهُ فَاقِرُهُ * ثُمَّ إِذَا سَأَلَ أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يُفْصِحُ مَا أَمَرُهُ﴾ ١٧ - ٢٣]

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾ دعاءٌ عليه، وهي من أشنع دَعَوَاتِهِمْ؛ لأنَّ القتلَ قُصَارَى شِدَائِدِ الدنيا وَقَطَائِعِهَا. و﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ تعجبٌ من إفراطِهِ في كُفْرَانِ نِعْمَةِ الله، ولا ترى أسلوباً أغلظَ منه، ولا أحسنَ مَسَاءً، ولا أدلَّ على سَخَطِ، ولا أبعدَ شوطاً في المذمة، مع تقاربِ طَرَفِيهِ، ولا أجمعَ لِللَّائِمَةِ على قِصْرِ مَتْنِهِ، ثم أخذَ في وَصْفِ حالِهِ من ابتداءِ حُدُوثِهِ إلى أن انتهى، وما هو مغمورٌ فيه من أصولِ النعمِ وفروعِهَا، وما هو غارِزٌ فيه رأسُهُ من الكُفْرَانِ والعَمَطِ، وقلةِ الالتفاتِ، إلى ما يتقلبُ فيه وإلى ما يجبُ عليه من القيامِ بالشكرِ. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ من أيِّ شيءٍ حقيرٍ مهينٍ خلقه؟ ثم بيَّن ذلك الشيءَ بقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ فهيأه لما يصلحُ له ويختصُّ به. ونحو ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

قوله: (ولا أجمع لللائمة على قصر متنه)، اللائمة: الملامة. قال الإمام: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾: تنبيهٌ على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب عرفاً، وقوله: ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾: تنبيهٌ على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً^(١).

قوله: (غارزٌ فيه رأسه)، كنايةٌ عن الانهماك في الشيء والذهاب عمًا عليه. الأساس: «فلان غارزٌ رأسه في سنة^(٢)»، وما طلع السماك إلا غارزاً ذنبه في برد، وهو الأعزل، يطلع لحمس خلقت من تشرين الأول.

قوله: (ونحوه): ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾، يعني: مثله في عطف ﴿فَقَدَرَهُ﴾ على ﴿وَخَلَقَ﴾، والحلق والتقدير شيء واحد، لكن المراد من التقدير هاهنا التهيؤ والاستعداد، قال: المعنى: أنه أحدث كل شيء إحدائاً مُراعياً فيه التقدير والتسوية، فَقَدَرَهُ وهيأه لما

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ٥٥).

(٢) في (ط): «شره»، وفي (ح): «سرّه»، وفي (ف): «كشفه». والمثبت من «أساس البلاغة».

نصب «السبيل» بإضمار (يسر)، وفسره بـ(يسر)، والمعنى: ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه، أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريقي الخير والشر بإقداره وتمكينه، كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين له سبيل الخير والشر. ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ فجعله ذا قبر يُورى فيه تكرمه له، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض جزراً للسباع والطير كسائر الحيوان. يقال: قَبَرَ الميت إذا دَفَنَهُ، وأقبره الميت: إذا أمره أن يقبره ومكّنه منه. ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحاً، ﴿أَنْشَأَهُ النِّشَاءَ الأُخْرَى، وَقُرَى: (نَشَرَهُ).﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه، ﴿لَمَّا يَقْضِ بَعْدَ، مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية،.....

يصلح له، مثاله: أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المستوي الذي ترأه، فقدّره للتكليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا. وينطبق على هذا قوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾، على تأويل ابن عباس: ثم بين له سبيل الخير والشر، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ويشكل إذا قيل: السبيل: مخرجه من بطن أمه من حيث النظم.

قوله: (جَزراً للسباع)، الجوهري: «جَزَرُ السَّبَاعِ: اللَّحْمُ الذي تَأْكُلُهُ، يقال: تَرَكَوهُم جَزراً، بالتحريك: إذا قَتَلوهم».

قوله: (أَقْبَرْنَا صَالِحاً)، الجوهري: «أَقْبَرْتُهُ، أي: أَمَرْتُ بِأَنْ يُقْبَرَ. قال تميمٌ للحجاج: أَقْبَرْنَا صَالِحاً، وكان قد قَتَلَهُ وَصَلَبَهُ، أي: ائذَنْ لَنَا فِي أَنْ نَقْبِرَهُ، فقال لهم: دُونَكُمْوهُ. قال ابن السكيت: أَقْبَرْتُهُ، أي: صَيَّرْتُ لَهُ قَبْرًا يُدْفَنُ فِيهِ». وقيل: هُوَ القَابِرُ، وَأَنْشَدَ للأعشى:

لو أَسَدْتِ مَيْتاً إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ^(١)

قوله: (وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية)، هذا معنى التوقع في لفظ «لما»؛ رَوَيْنَاهُ

﴿مَا أَمْرُهُ﴾ اللهُ حتى يخرج عن جميع أوامره، يعني: أن إنساناً لم يخلُ من تقصيرٍ قطّ.
 [﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا *
 وَعَبْنًا وَقَضْبًا * وَرَبَوْنَا وَنَحْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفِكَهْمَ وَأَبًّا * مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَعْيُنِكُمْ﴾ ٢٤-٣٢].

﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى مَطْعِمِهِ الذي يعيشُ به كيف دَبَّرْنَا أَمْرَهُ، ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾ يعني ابنُ علي رضي الله عنهما: (أنى صببنا) بالإمالة على معنى: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء. و﴿شَقَقْنَا﴾: من شقَّ الأرض بالنبات، ويجوزُ أن يكونَ من شَقَّهَا بِالْكَرَابِ على البقر؛ وأَسَدَ الشَّقِّ إلى نفسه إسنادَ الفعل إلى السَّبَبِ.....

في «صحيح البخاري» عن مجاهد: «لا يقضي أحدٌ ما أمر به»^(١)، أي: لم يقضِ أحدٌ جميع ما كان مفروضاً عليه؛ لأنَّ الإنسان لا ينفكُ عن التقصير.

قوله: ﴿مَا أَمْرُهُ﴾ اللهُ، قال صاحبُ «الكشاف»: «الأصل: ما أمره اللهُ فحذفَ الباءَ ثم حذفَ الهاءَ الأولى، فصار: ما أمره، فالهاءُ الباقيةُ للموصولة، والمحدوفةُ للإنسان»^(٢).
 قوله: ﴿قُرِءَ بِالْكَسْرِ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ﴾، الكوفيون: ﴿أَنَا صَبَبْنَا﴾ بفتح الهمزة^(٣)، والباقيون: بكسرها.

قوله: ﴿وَأَسَدَ الشَّقِّ إِلَى نَفْسِهِ إِسْنَادَ الْفِعْلِ إِلَى السَّبَبِ﴾، الانتصاف: ما رأيتُ كالיום عبداً يُنازعُ ربَّه بقوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا﴾ حقيقةً، يجعلُه مجازاً! ويُضيفها^(٤) إلى الحرَّاتِ حقيقةً.

(١) «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، سورة «عبس» ص ٥٧٥.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٣٠).

(٣) وجهُ قراءةِ الفتح أنها على البدلِ من الطعام، و«أنا» في موضعِ الجرِّ، والمعنى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. وقوله: ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ هو موضعُ الاعتبار، بمعنى: على كونه وحدوثه. انظر: «حجّة القراءات» ص ٧٥٠.

(٤) أي: إضافة الشَّقِّ.

و«الحَبُّ»: كُلُّ مَا حُصِدَ مِنْ نَحْوِ الحِنْطَةِ والشَّعِيرِ وغيرهما. و«القَضْبُ»: الرِّطْبَةُ، والمُقْضَابُ: أَرْضُهُ، سُمِّيَ بِمَصْدَرٍ قَضَبَهُ إِذَا قَطَعَهُ؛ لِأَنَّهُ يَقْضَبُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ حَديقَةٍ غُلْبَاءً، فَيُرِيدُ تَكَاثُفَهَا وَكَثْرَةَ أَشجارِهَا وَعِظَمَهَا، كما تقول: حَديقَةٌ ضَخْمَةٌ، وَأَنْ يَجْعَلَ شَجَرُهَا غُلْبًا، أَي: عِظَامًا غِلاظًا. والأصل في الوصف بالغُلْبِ: الرِّقَابُ؛ فاستعير؛ قال عمرو بن معد يكرب:

يَمْشِي بِهَا غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَثَمِهِمْ بُزْلُ كُسَيْنٍ مِنَ الكُحَيْلِ جِلالًا

والأَبُّ: المرعى؛ لأنه يُوْبُّ أَي يُوْمُّ ويتنجع.

قوله: (من نحو الحِنْطَةِ والشَّعِيرِ)، الراغِبُ: «الحَبُّ والحَبَّةُ: في الحِنْطَةِ والشَّعِيرِ ونحوهما من المطعومات، والحَبُّ والحَبَّةُ: في بُزورِ الرِّياحِينِ»^(١).

قوله: (والأصل في الوصف بالغُلْبِ: الرِّقَابُ، فاستعير)، وهو من استعارة المُرْسَنِ لأنفِ الإنسان.

قوله: (يمشي بها غُلْبُ الرِّقَابِ) البيت^(٢)، الضَّميرُ في «بها»: عائدٌ إلى الحَيْلِ أو الكَنْبِيَّةِ غُلْبُ الرِّقَابِ، أَي غِلاظُ الأعناقِ. والبُزْلُ: جمعُ البازلِ، وهو يُطلَقُ على الذَّكُورِ والإناثِ مِنَ الإِبِلِ إِذَا فُطِرَ نَابُهُ، إِذَا جُعِلَ الضَّميرُ للكَنْبِيَّةِ كانتِ الباءُ تَجْريدِيَّةً، وقيل: يَصِفُ أَرْضاً مَأْسَدَةً، يقول: يَمْشِي بِهذه الأَرْضِ أَسودَّ غِلاظُ العُنُقِ، كَأَثَمِ نُوقِ كُسَيْنِ جِلالًا مِنَ القَطِرانِ.

قوله: (والأَبُّ: المرعى)، الراغِبُ: «الأَبُّ: المرعى المُتَهَيَّءُ للرَّعي، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَبُّ لكذا: إِذَا تَهَيَّأَ، وَأَبُّ إِلَى وَطَنِه: إِذَا نَزَعَ إِلَيْهِ نُزوعاً: تَهَيَّأَ لِقُصْدِهِ. وإبانُ ذلك: فِعْلانٌ مِنْهُ، وَهُوَ الزَّمانُ المُهَيَّأُ لِفِعْلِهِ ومَجِيئِهِ»^(٣).

(١) «مفردات القرآن» ص ٢١٤.

(٢) لعمرو بن معد يكرب، انظر: «ديوانه» ص ١٥٣.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٥٩.

والأبّ والأُمّ أخوان قال:

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا وَلَنَا الْأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ

وعن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأبّ فقال: أيّ سماءٍ تُظَلِّني، وأيُّ أرضٍ تُقَلِّني إذا قلتُ في كتابِ الله ما لا علمَ لي به. وعن عمر رضي الله عنه: أنه قرأ هذه الآية فقال: كلُّ هذا قد عرفنا، فما الأبُّ؟ ثم رفض عصاً كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلّف، وما عليك يا ابنَ أمِّ عمر أن لا تدري ما الأبُّ، ثم قال: اتّبعوا ما تبيّنَ لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه.

فإن قلتَ: فهذا يشبهُ النَّهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته.

قوله: (والأبّ والأُمّ) بفتح الهمزة فيهما (أخوان)، أي: مثلاً في معنى القصد.

قوله: (جِذْمُنَا قَيْسٌ) البيت^(١)، الجِذْمُ: الأصل، والمَكْرَعُ: المنهل. يُقال: كَرَعُوا فيها أي: تناولوا الماء بأفواههم، روي عن المصنّف: كَرَعَتِ الإبل: غيّت أكارعها، يقول: أصلنا من قبيلة قيس، ومنهلنا ومرعانا نجد.

قوله: (وعن عمر رضي الله عنه، أنه قرأ هذه الآية)، رَوَيْنَا في «صحيح البخاري»، عن أنس أن عمر قرأ: ﴿وَفَكِهَةٌ وَأَبٌ﴾، قال: فما الأبُّ؟ ثم قال: ما كلّفنا - أو قال: ما أمرنا - بهذا^(٢).

قوله: (كلُّ هذا)، أي: من الحبِّ والعنبِ والقضبِ والزيتونِ والنخلِ، ثم رَفَضَ^(٣) عَصَاهُ، أشار برَفَضَ عَصَاهُ إلى: أن ارفضوا هذا.

(١) بما ينسب إلى الأعشى، ولم اهتد إليه في «ديوانه». وله قوله شاهداً على «الأبّ»:

صَرَمْتُ ولم أصرمكُم وكصارمٍ أخٌ قد طوى كشحاً وأبٌ ليذها

أبٌ بمعنى: تبيهاً. انظر: «ديوانه» ص ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٣) عن أنس قال: «كنا عند عمر فقال: نهبنا عن التكلّف». والحاكم في

«المستدرک» (٣٨٩٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه».

(٣) في «المستدرک»: «ثم نَقَضَ عَصَاهُ كانت في يده».

قلت: لم يُذْهَبَ إلى ذلك، ولكنَّ القومَ كانت أكبرُ هَمَّتِهِمْ عَكْفَةُ عِي نَعْمٍ. وكان التشاغلُ بشيءٍ من العلمِ لا يُعْمَلُ به تكلفاً عندهم؛ فأراد أن الآيةَ مسوقةً في الامتنانِ على الإنسانِ بِمَطْعَمِهِ واستدعاءِ شُكْرِهِ، وقد عَلِمَ من فحوى الآيةِ أن الأَبَّ بعضُ ما أنبته اللهُ للإنسانِ متاعاً له أو لأنعامه؛ فعليك بها هو أهمُّ من شُهوَصِ بالشكرِ لله على ما تَبَيَّنَ لك ولم يشكُلْ مما عدَّدَ من نِعَمِهِ، ولا تَشَاغَلَ عنه بصبِ معنى الأَبِّ ومعرفةِ النباتِ الخاصِّ الذي هو اسمٌ له، واكْتَفَى بالمعرفةِ الجميلةِ إلى أن يَتَبَيَّنَ لك في غيرِ هذا الوقتِ، ثم وصَّى الناسَ بأن يَجْرُوا على هذا السَّنَنِ فيما أشبه ذلك من مُشكلاتِ القرآن.

[﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِيهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَجُوهٌ يَوْمِئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمِئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ ٣٣-٤٢].

يقال: صَخَّ لحدِيثِهِ، مثلُ: أصاخَ له، فوُصِفَتِ النَّفْحَةُ بِالصَّاحَّةِ مجازاً؛.....

قوله: (فوصفت^(١) النَّفْحَةُ بِالصَّاحَّةِ مجازاً)، الراغب: «الصَّاحَّةُ: شِدَّةُ صَوْتِ ذِي النَّطْقِ، يُقَالُ: صَخَّ يَصِخُّ فَهُوَ صَاخٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾: عبارةٌ عن القيامة»^(٢)، وقال الزَّجَّاجُ: «الصَّاحَّةُ هِيَ الصَّخَّةُ»^(٣) التي تكونُ عندها القيامةُ، تُصِخُّ الأَسَاعُ، أَي: تُصَمِّمُهَا فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا مَا تُدْعَى بِهِ لِأَحْيَائِهَا. ثم فُسرَ في أيِّ وقتٍ تَجيءُ فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾، ثم وَصَفَ أَحْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمِئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ الآية^(٤). وقال أبو البقاء: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ﴾: العاملُ فيها جوابُها، وهو معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾^(٥)، وقال المصنّفُ في

(١) في (ح) و(ف): «فوصف».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٤٧٦.

(٣) في (ف): «الصبيحة»، وهي ساقطة عند الزجاج.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٨٧).

(٥) انظر: «البيان» (٢: ١٢٧٠، ١٢٧٢).

لأن الناس يَصْخُون لها، يَفْرُّ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه، ولعلمه أنهم لا يُغنون عنه شيئاً؛ وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنها أقرب منه، ثم بالصَّاحِبَةِ والبنين؛ لأنهم أقرب وأحبُّ؛ كأنه قال: يَفْرُّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبه وبنيه. وقيل: يَفْرُّ منهم حَدَرًا من مُطالبتهم بالتبعات. يقول الأخ: لم تُواسني ببالك، والأبوان: قَصَرْتَ في بَرِّنا، والصَّاحِبَةُ: أَطْمَعْتَنِي الحرامَ وفعلتَ وصنعتَ، والبنون: لم تعلمنا ولم تُرشدنا، وقيل: أول من يَفْرُّ من أخيه: هابيل؛ ومن أبويه: إبراهيم، ومن صاحبه: نوح ووط؛ ومن ابنه نوح، ﴿يُنْفِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به. وقرئ: (يعنيه)، أي: يَهْمُهُ، ﴿تُسْفِرُهُ﴾ مضيئة متهللة، من أسفر الصُّبْح: إذا أضاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قيام الليل؛ لما روي في الحديث: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار»، وعن الضَّحَّاك: من آثار الوضوء، وقيل: من طول ما اغبرَّت في سبيل الله ﴿غَبْرَةٌ﴾ غبارٌ يعلوها، ﴿قَرَّةٌ﴾ سوادٌ كالدُّخان؛ ولا ترى أوحس من اجتماع الغبرة والسَّوادِ في الوجه، كما ترى من وجوه الزُّنوج إذا اغبرَّت؛ وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يجمع إلى سوادِ وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكُفْر.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، جاء يوم القيامة ووجهه ضاحكٌ

مُسْتَبْشِرٌ».

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكَبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ [النازعات: ٣٤]: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾^(١): بدل من «إذا جاءت»، يعني: إذا رأى أعماله مُدَوَّنة في كتابه تذكَّرها وكان قد نسيها^(٢)، فالمعنى: فإذا جاءت الصَّاحَةُ يَفْرُّ المرء من أخيه.

قوله: (بما هو مدفوع إليه)، أي: من الأمور القادحة التي تُثقله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. الأساس: دُفِعْتُ إلى أمر كذا، وأنا مدفوع إليه: مضطر.

تمت السورة

(١) زيادة ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ للإيضاح.

(٢) انظر ما تقدم ص ٢٨٣.

سورة التكوير

مكية، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١-١٤﴾].

في التكوير وجهان: أن يكون من كَوَّرْتُ العِمامة إذا لَفَفْتَهَا، أي: يلفُ ضوؤها لفاً فيذهبُ انبساطُها وانتشارُها في الآفاق، وهو عبارةٌ عن إزالتها والذهابِ بها؛ لأنها ما دامت باقيةً كان ضياؤها منبسطةً غيرَ ملفوفٍ. أو يكونُ لَفَفْتُها عبارةً عن رَفَعِها وَسَتَرِها؛

سورة التكوير^(١)

مكية، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (أو يكونُ لَفَفْتُها)، عطفٌ على قولِه: أي: يلفُ ضوؤها لفاً، وقولُه: «وأن يكونَ مِنْ: طَعَنَهُ»، عطفٌ على قولِه: «أن يكونَ مِنْ كُوِّرَتْ العِمامةُ»، وهو الوجهُ الثاني، وكلا

(١) في (ط): «سورة ﴿كُوِّرَتْ﴾».

لأنَّ الثَّوْبَ إِذَا أُرِيدَ رَفَعُهُ لُفٌّ وَطَوِيٌّ؛ وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَأَنْ يَكُونَ مِنْ طَعَنَتَهُ فَجَوَّرَهُ وَكَوَّرَهُ: إِذَا أَلْقَاهُ، أَي: تُلْقَى وَتُطْرَحُ عَنْ فَلَكَهَا، كَمَا وَصَفَتِ النُّجُومُ بِالْإِنْكَدَارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ارْتِفَاعُ الشَّمْسِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ أَوْ الْفَاعِلِيَّةِ؟

قُلْتَ: بَلْ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، رَافِعُهَا فَعَلٌ مُضْمَرٌ يَفْسِّرُهُ كَوَّرَتْ؛ لِأَنَّ (إِذَا) يَطْلُبُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ ﴿أَنْكَدَّرَتْ﴾ انْقَضَتْ، قَالَ:
أَبْصَرَ خِرْبَانَ فِضَاءً فَانْكَدَرَ

الوجهين كناية. الراغب: «كَوَّرَ الشيء: إدارته وضمَّ بعضه إلى بعض، ككوار العمامة. وطعنه فكوَّره: إذا ألقاه مجتمعاً»^(١).

قوله: (فَجَوَّرَهُ)، بالجيم، الجوهري: «صَرَبَهُ فَجَوَّرَهُ، أَي: صَرَعَهُ، مَثَل: كَوَّرَهُ، فَتَجَوَّرَ». قوله: ﴿أَنْكَدَّرَتْ﴾: انْقَضَتْ، الراغب: «الْكَدْرُ: ضِدُّ الصَّفَاءِ، يُقَالُ: عَيْشٌ كَدِرٌ، وَالْكَدْرَةُ: فِي اللَّوْنِ خَاصَّةً، وَالْكَدُورَةُ فِي الْمَاءِ وَالْعَيْشِ، وَالْإِنْكَدَارُ: تَغْيِيرٌ مِنْ انْتِشَارِ الشَّيْءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ أَنْكَدَّرَتْ﴾. وَانْكَدَرَ الْقَوْمُ عَلَى كَذَا: إِذَا قَصَدُوا مُتَنَائِرِينَ عَلَيْهِ»^(٢). قوله: (أَبْصَرَ خِرْبَانَ فِضَاءً فَانْكَدَرَ)، قبله في «المطلع»:

تَقْضَى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ
دَانِي جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرَّ^(٣)

انْقَضَتْ: هَوَتْ. خِرْبَانٌ: جَمْعُ خَرْبٍ، وَهُوَ ذَكَرُ الْحُبَّارِيِّ، فَانْكَدَرَ، أَي أَبْصَرَ الْبَازِي الْحُبَّارِي فَانْقَضَ وَسَقَطَ عَلَيْهِ. وَالشَّعْرُ لِلْعَجَاجِ يَمْدَحُ عَمْرَ بْنَ مَعْمَرٍ.

(١) «مفردات القرآن»، ص ٧٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠٤.

(٣) انظر: «مجمع أشعار العرب»، ص ١٧.

ويروى في الشمس والنجوم: أنها تُطرحُ في جهنم ليراها من عبدها كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿سِيرَتْ﴾ أي على وجه الأرض وأبعدت، أو سِيرَتْ في الجوّ تسيير السحاب كقوله ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. والعشارُ في جمع عُشراء، كالنقاس في جمع نُقساء: وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتنام السنة، وهي أنفُس ما تكون عند أهلها وأعزها. ﴿عُطِلَتْ﴾ تُرَكْتُ مُسَيِّئَةً مُهْمَلَةٌ. وقيل: عطّلها أهلها عن الحلب والصر، لاشتغالهم بأنفسهم. وقرئ: (عُطِلَتْ) بالتخفيف. ﴿حُخِرَتْ﴾ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؛ قَالَ قَتَادَةُ: يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذَّبَابُ لِلْقِصَاصِ. وقيل: إذا قُضِيَ بَيْنَهَا رُدَّتْ تَرَابًا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا مَا فِيهِ سُرُورٌ لِبَنِي آدَمَ وَإِعْجَابٌ بِصُورَتِهِ، كَالطَّاوُوسِ وَنَحْوِهِ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حَشَرُهَا مَوْتَهَا. يقال: إذا أَجْحَفَتِ السَّنَةُ بِالنَّاسِ وَأَمْوَالِهِمْ حَشَرْتَهُمُ السَّنَةُ.

قوله: ﴿عُطِلَتْ﴾: تُرَكْتُ مُسَيِّئَةً، الراغب: «العطل: فقدان الزينة والشغل، يقال: عطلت المرأة فهي عطل وعاطل، وعطلته من الحلي ومن العمل فتعطل، قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِمُعْطَلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]، ويقال لمن يجعل العالم بجهله وبزعجه فارغاً عن صنيع أتعنه وزينه: معطل، وعطل الدار عن ساكنيها والإبل عن راعيها»^(١).

قوله: ﴿يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذَّبَابُ﴾، عن مسلم والترمذي، عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُخِرَتْ﴾ قال: قال النبي ﷺ: «لَتَوَدُّنَّ الْحَقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» وزاد أحمد بن حنبل: «وحتى الدرّة من الدرّة»^(٢).
قوله: ﴿إِذَا أَجْحَفَتِ السَّنَةُ﴾، بالجيم والحاء المهمله. الأساس: «أجحف بهم الدهر: استأصلهم، وأجحفهم فلان: كلفهم ما لا يُطاق، وسنة مجحفة».

(١) «مفردات القرآن»، ص ٥٧٢.

(٢) سبق تخريجه في «النبأ»، ومن قوله «يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ» إلى قوله: «من الدرّة» سقط من (ف).

وقرئ (حُثِرَتْ) بالتشديد. ﴿سُجِرَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، من سَجَرَ التنور: إذا ملأه ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً. وقيل: ملئت نيراناً تضطرم لتعذيب أهل النار. وعن الحسن: يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة. ﴿زُوجَتْ﴾ قرئت كل نفس بشكْلِها، وقيل: قرئت الأرواح بالأجساد. وقيل بكتِّبها وأعمالها. وعن الحسن هو كقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] وقيل: نفوس المؤمنين بالحقور، ونفوس الكافرين بالشياطين. وأد يند مقلوب من آد يؤود: إذا أثقل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأنه إثقال بالتراب: كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها: ألبسها جبّة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية؛ وإن أراد قتلها تركها، حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها: طيبيها وزينها، حتى أذهب بها إلى أمائها،

قوله: ﴿سُجِرَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، ابن كثير وأبو عمرو: بالتخفيف، والباقون: بالتشديد^(١).

قوله: ﴿قرئت كل نفس بشكْلِها﴾، في «الكواشي»: يُقرن الصالح بالصالح في الجنة، ويُقرن الطالح بالطالح في النار.

قوله: (وعن الحسن: هو كقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾)، فالأزواج على هذا: الأصناف، قال: يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو يُذكر بعضها مع بعض: أزواج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ [طه: ١٣١].

قوله: (فأراد أن يستحييها)، هو من قوله تعالى: ﴿وَرِيسَتَيْنِ نِسَاءَ كَم﴾ [البقرة: ٤٩].

قوله: (سداسية)، أي: بلغت قامتها ستة أشبار، وعمرها ست سنين.

الأساس: «إزار سديس وسداسي: ست أذرع، وأسدس البعير: ألقى سديسه».

(١) حجة من قرأ بالتشديد قوله: ﴿وَإِذَا أَلْبَسَ﴾، ولو كان واحداً لكان تحقيقاً لقوله: ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُور﴾ [الطور: ٦]، والعرب تقول: سَجِرَتْ التنور، وسَجِرَتْ التانير. وأما القراءة بالتخفيف، فتقع على القليل والكثير كقوله: ﴿قِيلَ الْفَرَصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]. انظر: «حجة القراءات»، لابن زنجلة، ص ٧٥٠، ٧٥١.

وقد حَفَرَ لها بئراً في الصحراء فيبلغُ بها البئرُ فيقول لها: انظري فيها، ثم يَدْفَعُها من خلفها ويَهْبِلُ عليها التراب، حتى تستوي البئرُ بالأرض. وقيل: كانتِ الحاملُ إذا أقربت حَفَرَتْ حُفْرَةً فتمخَّضَتْ على رأسِ الحفرة؛ فإذا وُلِدَتْ بتناً رَمَتْ بها في الحفرة، وإن وُلِدَتْ ابناً حَبَسَتْه.

فإن قلت: ما حَمَلَهُم على وَاَدِ البناتِ؟

قلت: الخوفُ من حُوقِ العارِ بهم من أَجْلِهِنَّ، أو الخوفُ من الإِمْلاقِ، كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وكانوا يقولون: إن الملائكةَ بناتُ الله، فألحقوا البناتِ به، فهو أَحَقُّ بهنَّ. وصَغَصَعَةٌ بِنُ ناجيةٌ يَمْنَعُ الوأد؛ فيه افتخَرَ الفرزدقُ في قوله:

ومِنَّا الذي مَنَعَ الوائِداتِ فَأَخيا الوئيدَ فلم تُؤادِ

قوله: (ومنا الذي) البيت^(١)، وفي رواية:

وجَدِّي الذي

الوئيدُ: فَعِيلٌ بمعنى مفعول، فلذا لم يُوَثِّقْ. رُوِيَ أَنَّ صَغَصَعَةَ جَدَّ الفرزدقِ قَدِمَ على رَسُولِ الله ﷺ، فَعَرَّضَ عليه الإسلامَ، فقال له: يا رَسُولَ الله، عَمِلْتُ أَعْمالاً في الجاهليَّةِ، فهل لي فيها أَجرٌ؟ أَحْيَيْتُ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مِنَ الموءودةِ، واشترَيْتُ كُلَّ واحدةٍ منها بِنائِئَتَيْنِ عَشْرًا وِئِينَ وَجَمَلٍ، قال رَسُولُ الله ﷺ: «هذا بابٌ مِنَ البرِّ ولك أَجرُه إِذْ مَنْ اللهُ عَلَيْكَ بِالإِسْلامِ»^(٢)، وبه افتخَرَ الفرزدقُ، واللهُ أَعْلَمُ بِصَحَّتِهِ.

وعَدَّ صاحبُ «الاستيعاب» صَغَصَعَةَ جَدَّ الفرزدقِ في الصحابةِ، وقال: رَوَى عنه

(١) للفرزدق، انظر: «ديوانه»، ص ١٥٥.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٦٥٦٢)، والطبراني في «الكبير» (٧٢٨٢).

فإن قلت: فما معنى سؤال الموءودة عن ذنبها الذي قُتِلَ به؛ وهَلَّا سُئِلَ الوائِدُ عن موجب قتلها؟

قلت: سؤالها وجوابها تبيكت لقاتلها، نحو التبيكت في قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقرئ: (سألت)، أي: خاصمت عن نفسها، وسألت الله أوقاتلها؛ وإنما قيل (قُتِلَتْ) بناءً على أن الكلام إخبارٌ عنها؛ ولو حكى ما خوطبت به حين سُئِلَتْ. فقيل: قتل أو كلاهما حين سئلت لقتل: قتل. وقرأ ابن عباس رضي عنهما: (قُتِلَتْ)، على الحكاية، وقرئ: (قُتِلَتْ) بالتشديد،

طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وابْنُهُ عِقَالُ بْنُ صَعْصَعَةَ، وَرَوَى عَنْهُ الْحَسَنُ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ بَنِي تَمِيمٍ وَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يفتدي الموءودات من بني تميم^(١)، وقال الفرزدق فيهِ:

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَحْيَا الْوَيْدَ فَلَمْ تُؤَادِ

قوله: (فما معنى سؤال الموءودة؟) الفاء دللت على إنكار على كلامه السابق، أي: ذكرت أن موجب الواد؛ إما خوف العار أو الإملاق، لا من ذنب صدر عنها، فما معنى سؤال الموءودة، إلى آخره؟

قوله: (تبيكت لقاتلها)، الأساس: «بَكَتَهُ بِالْحُجَّةِ وَبَكَتَهُ: غَلَبَهُ، يُقَالُ: بَكَتَهُ حَتَّى أَسَكَّتَهُ». وتقريره أن المجنبي عليه إذا سُئِلَ بمحض من الجاني ونُسِبَ إليه الجناية دون الجاني، كان ذلك بعثاً للجاني على التفكير في حال نفسه وحال المجنبي عليه، فيعثر على براءة ساحة صاحبه، وعلى أنه هو المستحق لكل نكال فيفحم، وهذا نوع من الاستدراج وإقاع على طريق التعريض^(٢).

(١) انظر: «الاستيعاب» ترجمة (١٢١٨) (٢: ٢٧٤).

(٢) من قونه: «قوله: فما معنى سؤال الموءودة؟» إلى هنا، سقط من (ف).

وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أن أطفالَ المشركين لا يُعذَّبون، وعلى أن التعذيبَ لا يُستحقُّ إلا بالذنب، وإذا بَكَتَ اللهُ الكافرَ براءةَ المؤودة من الذنب: فما أقبَحَ به، وهو الذي لا يَظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ، أن يكرَّ عليها بعد هذا التبيكيتِ فيفعلُ بها ما تنسى عنده فعلُ المبيكيتِ من العذابِ الشديدِ السَّرمداً! وعن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما أنه سُئِلَ عن ذلك، فاحتجَّ بهذه الآية. ﴿نُشِرَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، يريد: صُحِفَ الأعمال؛ تُطوى صحيفةُ الإنسانِ عند موتِهِ، ثم تُنشرُ إذا حُوسِبَ. عن قتادة: صحيفتك يا ابنَ آدم تُطوى على عملك، ثم تُنشرُ يومَ القيامة،

قوله: (وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أن أطفالَ المشركين لا يُعذَّبون)، ودليلُهُ أنه إذا بَكَتَ اللهُ الكافرينَ براءةَ المؤودة من الذنب، فما أقبَحَ به، وهو الذي لا يَظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ، أن يكرَّ عليها بعد ذلك هذا التبيكيتِ! وهو مَبْنِيٌّ على مسألةِ الحسنِ والقبحِ العقليِّ. ورؤينا خلافةً عن البخاريِّ ومسلمٍ وأبي داودَ والنسائيِّ، عن ابنِ عباسٍ قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن أولادِ المشركين، فقال: «اللهُ إذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بما كانوا عاملين»^(١). تفسيرُهُ ما رَوَى أبو داودَ، عن عائشةَ رضي اللهُ عنها، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ذراري المؤمنين؟ فقال: «من آبائهم»، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، بلا عمل؟ قال: الله أعلمُ بما كانوا عاملين. قلتُ: يا رسولَ اللهِ، فذراري المشركين؟ فقال: «من آبائهم»^(٢)، أي: متصلينَ بهم، كقوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٦٨]. وفي «مسند» الإمام أحمدَ بن حنبلٍ: سألتُ خديجةً عن ولدَيْنِ ماتا لها في الجاهليَّة، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هما في النار»^(٣).

قوله: (﴿نُشِرَتْ﴾ قرئ بالتخفيف)، نافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامرٍ، والباقون: بتشديدها^(٤).

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).

(٢) انظر: «سنن أبي داود» (٤٧١٢).

(٣) انظر: «مسند الإمام أحمد» (١١٣١) عن علي رضي الله عنه.

(٤) حجةٌ من قرأ بالتخفيف قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مُنْشُورٍ﴾ [الطور: ٣]، وحجة القراءة بالتشديد قوله تعالى:

﴿صُحُفًا مُنْشَرَّةً﴾ [المدثر: ٥٢]، ولم يقل: منشورة. انظر: «حجّة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٥١.

فليَنظُرْ رجلٌ ما يُملي في صحيفته. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم. وعن النبي ﷺ أنه قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ عِراءَ حَفَاةٍ»، فقالت أم سلمة: كيف بالنساء؟ فقال: شُغِلَ النَّاسُ يا أم سلمة. قالت: وما شُغِلُهم؟ قال: «نَشَرُ الصَّحْفِ فِيهَا مِثاقِيلُ الذَّرِّ ومِثاقِيلُ الحَرْدَلِ». ويجوز أن يراد: نُشِرَتْ بين أصحابها، أي فُرِقت بينهم. وعن مرثد بن وداعة: إذا كان يومُ القِيامةِ تَطَّيرتِ الصُّحُفُ من تحتِ العَرْشِ، فتقعُ صحيفَةُ المؤمنِ في يده في جنَّةٍ عالية، وتقعُ صحيفَةُ الكافرِ في يده في سَمومٍ وحميم، أي مكتوبٌ فيها ذلك، وهي صحفٌ غيرُ صحفِ الأعمال. ﴿كُشِطَتْ﴾ كُشِفَتْ وأزيلت، كما يُكشِطُ الإهابُ عن الذبيحة، والغطاءُ عن الشيء. وقرأ ابن مسعود ﴿قُشِطَتْ﴾ واعتقَابُ الكافِ والقافِ كثير. يقال: لَبِكتُ الشريدَ ولَبِقتُهُ، والكافور والقافور. ﴿سُعِرَتْ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً، وقرئ: ﴿سُعِرَتْ﴾ بالتشديد للمبالغة.

قوله: ﴿يُحْشَرُ النَّاسُ عِراءَ﴾، الحديثُ من رواية الترمذي، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُونَ حَفَاةَ عِراءَ غُرَلاً». فقالت امرأة: أيبصرُ أو يرى بعضنا عورةَ بعض؟ قال: «يا فلانة، لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه»^(١). وعن البخاري ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قلت: الرجال والنساء جميعاً ينظرون بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمرُ أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك»^(٢).

قوله: ﴿لَبِكتُ الشريدَ ولَبِقتُهُ﴾، الأساس: «لَبِقَ طعامَهُ ولَبِقَهُ، يَلْبِقُهُ، مِثْلُ: لَبِكَه: إذا خَلَطَهُ ولَبِنَهُ، ومنه: رجلٌ لَبِقٌ ولَبِيقٌ: [لَبِنٌ]»^(٣) الأخلاقِ لطيفٌ ظريفٌ».

قوله: ﴿وَقُرئَ﴾ ﴿سُعِرَتْ﴾ بالتشديد، نافعٌ وحَفُصٌ وابنُ ذَكوان، والباقون: بالتخفيف^(٤).

(١) «سنن الترمذي» (٣١٦٧) وغُرَلاً: غيرُ محتونين، والغُرْلَةُ: القُلْفَةُ..

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩).

(٣) سقط لفظ «لَبِنٌ» من الأصول الخطية.

(٤) حجة من قرأ بالتشديد قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ خَتَّ بِيَمِينِهِمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وحجة القراءة بالتخفيف

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ بِيَمِينِهِمْ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥]. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٥١.

قيل: سَعَّرَهَا غَضِبُ اللَّهِ تَعَالَى وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ، ﴿أَزَلَفَتْ﴾ أَذْنَيْتِ مِنَ الْمُتَقِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، قيل: هذه اثنتا عشرة خَصْلَةً؛ سِتٌّ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، وَسِتٌّ فِي الْآخِرَةِ.

و﴿عَلِمَتْ﴾ هُوَ عَامِلُ النَّصْبِ فِي ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وَفِيهَا عَطَفَ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كُلُّ نَفْسٍ تَعْلَمُ مَا أَحْضَرَتْ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْمَسِرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]

قَوْلُهُ: (سِتٌّ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا)، وَهِيَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، (وَسِتٌّ فِي الْآخِرَةِ)، وَهِيَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾.

قَوْلُهُ: (و﴿عَلِمَتْ﴾ هُوَ عَامِلُ النَّصْبِ فِي ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾)، قَالَ الزَّجَّاجُ: «التَّقْدِيرُ: إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ، عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَحْضَرَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تُجْزَى بِهِ»^(١). وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: «هَذِهِ اثْنَا عَشْرَةَ خِصَالًا: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾ إِلَى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ﴾، كُلُّهَا مِضَافَةٌ إِلَى الْجَمَلِ، لَمْ يَتِمَّ بِهَا الْكَلَامُ، وَإِنَّمَا إِتِمَامُهُ بِمَا عَمِلَ فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾، فَهِيَ جُمْلَةٌ مِنْ فِعْلٍ وَفَاعِلٍ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَأَقْسَمَ، فَقَالَ: ﴿فَلَا أُقِيمُ﴾، وَتِمَامُهُ آخِرُ السُّورَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ»^(٢).

قَوْلُهُ: (كَقَوْلِهِ: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْمَسِرًا﴾ [آل عمران: ٣٠])، الرَّاعِبُ: «الْحَضَرُ: خِلَافُ الْبَدْوِ، وَالْحِضَارَةُ وَالْحِضَارَةُ: السُّكُونُ بِالْحَضَرِ، كَالْبِدَاوَةِ وَالْبِدَاوَةُ، ثُمَّ جُعِلَ ذَلِكَ [اسْمًا] ^(٣) لَشَهَادَةِ مَكَانٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ غَيْرِهِ. ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨]، كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴿[البقرة: ١٨٠]، نَحْوًا: جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ، ﴿وَأَعُوذُ بِكَ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩١).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٣٢).

(٣) سقط لفظ «اسمًا» من الأصول الخطية.

لا نفس واحدة، فما معنى قوله: (عَلِمَتْ نَفْسٌ)؟

قلت: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يُعكس عنه.....

رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴿ [المؤمنون: ٩٨]، فذلك من باب الكناية، أي: أن يحضرنى الجن^(١)، وكُنِيَ عن المجنون بالمتحضر وعن حصره الموت بذلك^(٢).

قوله: ﴿مَا عَلِمَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَضِّرًا﴾، أي: مُشَاهِدًا مُعَايِنًا عِنْدَهُ.

قوله: (لا نفس واحدة)، يعني: نفس في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ نكرة في سياق الإثبات، فلا يُفيد العموم والمقام يقتضيه. وأجاب الإمام بجوابين، أحدهما: ما ذكره المصنف ثم قال: «وهذا كمن يسأل عالماً عن مسألة ظاهرة ويقول له: هل عندك شيء فيها؟ فيقول ربها حصر شيء، وعرضه الإشارة إلى أن ما عنده في تلك المسألة، ما لا يقوم به غيره، وثانيهما: لعل الكفار كانوا يتعجبون أنفسهم في الدنيا فيما يعتقدونه طاعات، ثم بدا لهم يوم القيامة خلاف ذلك^(٣).

وقلت: والتنوين في ﴿نَفْسٌ﴾ إذن: للنوع، أي: عَلِمَتْ نَفْسٌ كافرة أن ما حسبته طاعة كان وبالاً عليها، ويؤيده قوله: ﴿وَإِذَا أَلْمُوءَدَةُ سِئَلَتْ﴾. وأما الواحدي ومحمي السنة فقد قالوا: «عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَحْضَرَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ»^(٤)، وقال القاضي: «نفس في معنى العموم، كقولهم: تمرة خير من جردة»^(٥).

قوله: (يقصدون به الإفراط فيما يُعكس عنه)، أي: يقصدون الإفراط في الشيء الذي يجعل الكلام معكوساً عنه، مثاله: ﴿نَفْسٌ﴾ فيما نحن بصدده، فإنها تُفيد القلة وضعت موضع الكثرة تعكيساً، لإرادة الإفراط في الكثرة^(٦).

(١) في (ط): يحضرونى الجن، على لغة «أكلوني البراغيث».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٤١.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٦٥).

(٤) انظر: «الوسيط» (٤: ٤٣٠) للواحدى، و«معالم التنزيل» (٨: ٣٤٩) للبغوي.

(٥) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٥٧) للبيضاوي.

(٦) من قوله: «قوله: يقصدون به» إلى هنا، سقط من (ح).

ومنه قوله عز وجل: ﴿رُبِمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] ومعناه: معنى كَمْ، وأبلغ منه قول القائل:

قد أترك القرن مُصَفَّرًا أَنَامَلُهُ

وتقول لبعض قوادِ العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رَبَّ فارسٍ عندي. أو لا تعدم عندي فارساً، وعنده المقانِبُ: وقصده بذلك التهادي في تكثيرِ فُرسَانِهِ. ولكنه أراد إظهارَ براءتِهِ من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده، فضلاً أن يتزيد، فجاء بلفظِ التقليل، ففهم منه معنى الكثرة على الصَّحَةِ واليقين.

قوله: (قد أترك القرن مُصَفَّرًا أَنَامَلُهُ)، تمامه:

كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مَجَّتْ بِفِرْصَادٍ^(١)

القرن: مثلك في الشجاعة. مُصَفَّرًا أَنَامَلُهُ: كناية عن القتل. وَمَجَّ المَاءُ مِنْ فِيهِ: رمى به، الفِرْصَادُ: التُّوت. يقول: أترك قرني في المعركة مقتولاً مُلَطَّخَ الثَّوبِ بالدم. أراد بالتقليل في قوله: «قد أترك القرن»، التكثير لمقام المدح.

قوله: (المقانِب)، الجوهري: «المِقْنَبُ: ما بينَ الثلاثينَ إلى الأربعينَ من الخيل».

قوله: (ففهم منه معنى الكثرة على الصَّحَةِ واليقين)، وذلك أن العكس في الكلام إنما يُصارُ إليه للمبالغة، والمتكلم إنما يتمكن منه إذا لم يُنازَعْ فيها عكس فيه، وأنه كالمجموع عليه بقرائن الأحوال، ولذلك قال: وتقول لبعض قوادِ العساكر، وعليه قوله تعالى: ﴿رُبِمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

(١) البيت لعبيد بن الأبرص، انظر: «ديوانه»، ص ٥٦. وقد استشهد به الزمخشري قبل، عند تفسيره الآية (١٤٤) من سورة البقرة. انظر: «الكشاف» (٣: ١٤١). والفِرْصَادُ: صبغة حمراء تشبه الدَّم القاني، لذلك قال في معناه: التُّوت.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أنّ قارئاً قرأها عنده، فلما بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ قال: وانقطع ظهرياه!

[﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحُنَيْسِ * الْجَوَارِ الْكُنَيْسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ ١٥-١٨].

﴿بِالْحُنَيْسِ﴾ الرَّوَاجِعُ، بينما ترى النجم في آخر البرج إذ كَرَّ راجعاً إلى أوله، و﴿الْجَوَارِ﴾ السَّيَّارَةُ. و﴿الْكُنَيْسِ﴾ الْعَيْبُ، مَنْ كَنَّسَ الْوَحْشِيَّ: إِذَا دَخَلَ كِنَاسَهُ. قيل: هي الدَّرَارِيُّ الخُمسة: بهرام، وَرُحْلٌ، وَعُطَّارِدٌ، وَالزُّهْرَةُ، وَالْمَشْتَرِيُّ، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تحفَى تحت ضوء الشمس؛ فخنوسها: رجوعها، وكُنُوسُهَا: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب، تَحْنُسُ بالنهار فتغيبُ عن العيون، وتكنسُ بالليل: أي تطلعُ في أماكنها، كالوَحْشِ فِي كُنُوسِهَا، عَسْعَسَ اللَّيْلُ وَسَعَسَعٌ: إِذَا أَدْبَرَ. قال العجاج:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وانجَابَ عنها لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

وقيل: ﴿عَسْعَسَ﴾: إِذَا أَقْبَلَ ظِلَامُهُ.

قوله: (وَعُطَّارِدٌ وَالزُّهْرَةُ)، عن بعضهم: صَحَّ الزُّهْرَةُ، بفتح الهاء.

قوله: (حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا) البيت، الضميرُ في «عنها» و«لها» و«ليلها»: للمفازة.

وانجَابَ: انكشَفَ، وانجَابَتِ السَّحَابَةُ: انكشَفَتْ.

قوله: (وقيل: ﴿عَسْعَسَ﴾: إِذَا أَقْبَلَ ظِلَامُهُ)، قال الواحدي: ﴿عَسْعَسَ﴾: أَدْبَرَ وَذَهَبَ،

وقال الحسن: أَقْبَلَ بِظِلَامِهِ، وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ هَاهُنَا أَدْبَرَ قَوْلُهُ: ﴿وَالصُّبْحِ

إِذَا نَفَسَ﴾، أي: امتدَّ ضَوْؤُهُ حَتَّى يَصِيرَ نَهَاراً^(١)، ولمن يقولُ بالأول أن يقول: إِنَّ التَّقَابِلَ لَا

يَحْصُلُ إِلَّا إِذَا فُسِّرَ بِأَقْبَلَ. وعن بعضهم: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وذلك في مبدأ اللَّيْلِ

وَمَتَّهَا، فَالْعَسْعَسَةُ وَالْعَسَّاسُ: رِقَّةُ الظَّلَامِ، وذلك في طرفي اللَّيْلِ، والعَسُّ والعَسَسُ: نَقْضُ

اللَّيْلِ عَنِ أَهْلِ الرِّيَّةِ، فَجُعِلَ ذَلِكَ نَفْسًا^(٢) لَهُ عَلَى الْمَجَازِ بِأَدْنَى مَلَابِسَةٍ. وقال الإمام: «ويجوزُ

(١) «الوسيط» (٤: ٤٣٠، ٤٣١).

(٢) في (ح) و(ف): «نفس»، وليس بصواب.

فإن قلت: ما معنى تنفس الصُّبح؟

قلت: إذا أقبل الصُّبح: أقبل بإقباله روحٌ ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز وقيل: تنفس الصُّبح.

[وَإِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٩-٢١﴾].

وَإِنَّهُ ﴿ الضمير للقرآن، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ هو جبريل صلواتُ الله عليه، ذِي قُوَّةٍ ﴿ كقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥-٦]؛ لَمَا كَانَتْ حَالُ الْمَكَانَةِ عَلَى حَسَبِ حَالِ الْمُمَكَّنِ، قال: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴿ ليدلُّ على عِظَمِ مَنْزِلَتِهِ ومَكَانَتِهِ ﴿ثَمَّ ﴿ إشارة إلى الظرف المذكور، أعني: عند ذي العرش، على أنه عند الله مطاعٌ في ملائكتِهِ الْمُقَرَّبِينَ يُصَدَّرُونَ عن أمرِهِ وَيَرْجِعُونَ إلى رأيه. وقرئ: ﴿ثَمَّ﴾ تعظيماً للأمانة، وبياناَ لأنها أَفْضَلُ صِفَاتِهِ المَعْدُودَةِ.

أن يُشَبَّهَ النَّهَارُ الَّذِي غَشِيَهُ اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ بِالْمَكْرُوبِ الْمَحْزُونِ الَّذِي يَخْتَسُ، وَإِذَا تَنَفَّسَ بِجِدِّ رَاحَةٍ، فَالصُّبْحُ لَمَّا تَخَلَّصَ مِنَ الظَّلَامِ، كَأَنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ كَرْبِهِ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ لَطِيفَةٌ^(١).

قوله: (لَمَا كَانَتْ حَالُ الْمَكَانَةِ عَلَى حَسَبِ حَالِ الْمُمَكَّنِ)، يعني: وَصَفَ جَبْرِيْلَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَكِينٍ﴾، وَخَصَّ مِنْ أَوْصَافِ اللَّهِ ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾، لِيَدُلَّ عَلَى عِظَمِ مَنْزِلَةِ جَبْرِيْلَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَكَانَتِهِ؛ لِأَنَّ حَالَ الشَّخْصِ يَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ حَالِ مَنْ لَهُ عِنْدَهُ الْمَنْزَلَةُ، فَمَرْتَبَةٌ مَنْ يُلَازِمُ السُّلْطَانَ عِنْدَ سَرِيرِ الْمَلِكِ، مُبَايِنٌ لِمَرْتَبَةِ مَنْ يُلَازِمُهُ عِنْدَ الْوَضُوءِ. قال القاضي: «معنى قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾: عِنْدَ اللَّهِ ذِي مَكَانَةٍ»^(٢).

قال الإمام: معنى ﴿مَكِينٍ﴾: ذِي الْجَاهِ الَّذِي يُعْطَى مَا سَأَلَ، يُقَالُ: مَكَّنَ فُلَانٌ، بِالضَّمِّ، عِنْدَ فُلَانٍ، مَكَانَةً^(٣).

قوله: (بياناَ لأَمتها أَفْضَلُ صِفَاتِهِ)؛ لِأَنَّ ثَمَّ لِلتَّرَاخِي فِي الْمَرْتَبَةِ هَاهُنَا.

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٦٧) بتصرف.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٥٨).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ٦٨).

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [٢٢]

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تَبَهَّتْهُ الكَفْرَةَ، وناهيك بهذا دليلاً على جلالته مكان جبريل عليه السَّلَامُ وفضله على الملائكة، ومُبايَنة منزلته أفضل الإنسِ محمد ﷺ، إذا وازنت بين الذَّكْرَيْنِ حين قُرِنَ بينهما، وقايست بين قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

قوله: (وناهيك بهذا دليلاً على جلالته مكان جبريل... ومُبايَنة منزلته لمنزلة أفضل الإنس)، الانتصاف: «ما يَرْضَى لَهُ جَبْرِيْلُ هَذَا التَّفْسِيرَ الْمُقْتَضِيَّ لِتَنَقِيصِ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ، السَّرَاجِ الْمُنِيرِ، وَقَدْ قِيلَ: الرُّسُولُ الْكَرِيمُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ جَبْرِيْلُ، وَقِيلَ بِتَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ مَثَلًا، لَمَا جَازَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَنَقِيصُ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِتَعْيِينِ مَنْ يَفْضَلُ عَلَيْهِ بَعِيْنُهُ، وَفِي مَعْنَاهُ: «لَا تُفْضَلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(١)، فَلَوْ قُلْت: زَيْدٌ أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِهِ لَمَا شَقَّ [عَلَى أَحَدٍ، بِخِلَافِ]^(٢) مَا إِذَا قُلْت: هُوَ أَفْضَلُ مِنْكَ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ إِذَا سُلِّمَتْ لِجَبْرِيْلٍ فَقَدْ جَاءَتْ فِي حَقِّ نَبِيِّنَا فِي آخِرِ الْحَاقَّةِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الآية: ٤٠].

وإن قيل: هو جبريل: رُدَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤١]. والزخشي وأفق هناك^(٣). وقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، لا نزاع أن جبريل أقوى، وقوله: ﴿مُطَاعٌ﴾، فطاعة الملائكة لنبينا ظاهرة، فقال له ملك الجبال: إن الله أمرني أن أطيعك، فإن أمرتني أن أطبق عليهم الأحشيتين فعلت. وله الشفاعة العامة والخاصة. وأما أنه أمينٌ فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنِّي أَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

(١) «معاني الأخبار» للكلاباذي، ص ٨٠. وفي البخاري (٣٤١٦) بلفظ: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى»، عن أبي هريرة. ويدخل هذا في باب تواضعه ﷺ، ومنه قوله ﷺ، كما في البخاري (٤٥٣٧): «أنا أحقُّ بالشك من إبراهيم».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصول الخطية، وأثبتته من «الإنصاف» (ق ١٤٧) للعراقي.

(٣) انظر: «الكشاف» (١٥: ٦٣١).

(٤) «الإنصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧١١-٧١٢) بتصرف. وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٧). والحديث

أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٤٠٩١) عن زيد بن أسلم.

وقال الإمام ما معناه: «كما أنه سبحانه وتعالى أجرى على جبريل هذه الصفات هاهنا، أجرى على نبينا صلوات الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، فإفراد أحد الشخصين بالذكر وإجراء صفاته عليه، لا يدل على انتفاء تلك الصفات عن الآخر»^(١).

وقال القاضي: «استدلالة ضعيف، إذ المقصود من ذلك رد قولهم: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبا: ٨]، لا تعداد فضلهما والموازنة بينهما»^(٢).

وقلت: سيقت الآيات لبيان شأن الكتاب، حيث جعل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ مقسماً عليه بالأقسام السابقة، فذكر محمد صلوات الله عليه، وجبريل عليه السلام تابع لذكره، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ * وَمَا لَا بُصِّرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا نُؤْمِنُونَ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ * نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٣]؛ لأنهم كانوا يقولون تارة: إنه مجنون، وأخرى: إنه كاهن، وشاعر، فرد الله عليهم بهذه الآيات، يعني: أنه صلوات الله عليه يتلقى هذا القرآن من لدن حكيم عليم، بواسطة ملك مقرب، ومن صفاته أنه كيت وكيت، لا من جنني متمرد رجيم كما يفترونه، ولذا فالموازنة إذن بين الجنني والملك، لا بين محمد صلوات الله عليه والملك.

وأما تسميته مجنوناً في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، فعلى المشاكلة وإطباق الجواب على ما سُمع منهم، ويؤيده قول الزجاج: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسم، أي: أقسم بهذه الأشياء أن القرآن نزل به جبريل وأن صاحبكم ليس بمجنون؛ لأنهم قالوا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. تم كلامه^(٣).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢: ٢٠٨)؛ قاله في تفسير الآية (٢٨٥) من سورة البقرة.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٥٨)، ويقصد بالاستدلال هنا، الاستدلال على فضل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٢، ٢٩٣).

[وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٣-٢٥﴾].

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل، ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس الأعلى، ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمدٌ على ما يُخبرُ به من الغيب، من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك، (بظنين) بمتهم من الظنَّة وهي التُّهْمَة. وقرئ: ﴿بِضَنِينٍ﴾، من الضَّنِّ وهو البُخْلُ أي: لا يَبْخُلُ بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه؛ أو يسأل تعليمه فلا يعلمه؛ وهو في مُصحفِ عبد الله بالظاء، وفي مُصحفِ أبي بالضاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأُ بهما. وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب، ومعرفة مخرجيهما مما لا بدَّ منه للقارئ؛ فإنَّ أكثرَ العجم لا يُفرِّقون بين الحرفين، وإن فرقوا ففرقاً غيرَ صواب، وبينهما بونٌ بعيد؛ فإنَّ مخرج الضاد من أصل حافة اللسان،

ثم إنك إن أمعنت النظر، وقفت على أن في إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام إدماجاً لتعظيم الرسول ﷺ، وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذي العرش، بأن جعل السفير بينه وبينه، مثل هذا الملك المقرب المطاع الأمين، فالقول في هذه الصفات بالنسبة إلى رسول الله ﷺ رفعة منزلته، كالقول في قوله: ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ بالنسبة إلى رفعة منزلة جبريل كما سبق والله أعلم^(١).

قوله: (هو في مصحف عبد الله بالظاء)، ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: بالظاء، والباقون: بالضاد^(٢).

(١) كُتِبَ بحاشية النسخة الخطية (ح)، بخط مغاير بإزاء هذه الفقرة، ما نصّه: «ومن البراهين الساطعة الدالة على أن الله سبحانه وتعالى، لم يرد الموازنة بين [النبي] ﷺ وبين جبريل عليه السلام، أنه تعالى ذكر شيئاً ليس فيه ما يدلُّ على صفات الفضيلة، حيث قال: «وما صاحبكم بمجنون»، وتلك الصفات التي ذكرها في جبريل عليه السلام، كلُّها صفات الملائكة».

(٢) بالظاء، من التهمة، أي: ما هو بمتهم على الوحي أنه من الله. وبالضاد، من البخل، أي: لا يبخل محمد ﷺ بما آتاه الله من العلم والقرآن، بل يرشد ويعلم ويؤدّي عن الله تعالى. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٥٢.

وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه أضبطاً، يعملُ بكلتا يديه، وكان يُخرجُ الضادَ من جانبي لسانه، وهي أحدُ الأحرفِ الشجرية أختُ الجيمِ والشين. وأما الظاءُ فمخرجُها من طَرَفِ اللسانِ وأصولُ الشينِ العليا، وهي أحدُ الأحرفِ الذُولقية أختُ الدالِ والثاء. ولو استوى الحرفانِ لما تَبَتَّتْ في هذه الكلمة قراءتان اثنتان، واختلافٌ بين جبلين من جبالِ العلمِ والقراءة، ولما اختلفَ المعنى والاشتقاقُ والتركيب.

فإن قلتَ: فإن وَضَعَ المصليُّ أحدَ الحرفين مكانَ صاحبه؟

قلتُ: هو كواضعِ الدالِ مكانَ الجيمِ،.....

قولُه: (أحدُ الأحرفِ الشجرية)، الجوهرِي: الشجرُ: ما بينَ اللَّحَيْنِ، وذُلُقُ اللسانِ: طَرَفُه. وقال الخليلُ: إنَّ الدَّلَاقَةَ في المنطقِ إنما هي بطَرَفِ أَسَلَةِ اللسانِ، وهي مُسْتَدَقَّة.

قولُه: (واختلافٌ بينَ جبلَينِ من جبالِ العلمِ والقراءة)، يعني: عبدُ الله بن مسعود وأبي ابنِ كعب. تشبيهُهما بجبلَينِ، إشارةٌ إلى رسوخِهما في العلمِ، قال تعالى: ﴿وَأَلْرَاسِحُونَ فِي أَلْعَلِمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قولُه: (والاشتقاقُ والتركيبُ)، التركيبُ من حيثُ إنَّ الظنَّينِ: فَعِيلٌ بمعنى مفعول، والظنَّينِ: اسمُ فاعلٍ. نسبتهما بجبلَينِ، إشارةٌ إلى رسوخِهما في العلمِ، قال تعالى: ﴿وَأَلْرَاسِحُونَ فِي أَلْعَلِمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قولُه: (هو كواضعِ الدالِ مكانَ الجيمِ)، كَتَبَ بهذا بطلانَ صَلَاةٍ مَنْ بَدَّلَ الظَّاءَ بِالضَّادِ، وهو الظاهرُ من مذهبِ الشافعي^(١)، وجاءَ في كتابِ «الرَّوْضَةِ» جوازُ الإبدالِ^(٢)، وقال الإمامُ: «والمختارُ الجوازُ لِعُسْرِ التَّمييزِ وَشِدَّةِ الاِشْتِبَاهِ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْمَجْهُورَةِ وَمِنَ الرَّخْوَةِ وَمِنَ

(١) انظر: «منهاج الطالبين وعمدة المفتين» للنووي، ص ١٣.

(٢) انظر: «روضة الطالبين» (١: ٢٤٢) للنووي.

والثاء مكانَ الشين، لأن التفاوتَ بين الضادِ والطاءِ كالتفاوتِ بين أخواتهما. ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن، ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ نَجِيمٍ﴾ أي: بقولِ بعضِ المُسترقَةِ للسمعِ، وبوحيتهم إلى أوليائهم من الكهنة.

[﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٦-٢٩].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلالٌ لهم كما يقالُ لتاركِ الجادةِ اعتسافاً أو ذهاباً في بُنياتِ الطريق: أين تذهب؟ مثلتُ حالهم بحاله في تركهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الباطل ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدّلُ من ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾،

المُطبَّقة، ولأنَّ التَّنْقِطَ بالضادِ مخصوصٌ بالعرب، لما روي: «أنا أفصحُ مَنْ نَطَقَ بالضاد»^(١)، فلو اعتبرَ الفرقُ بينهما لوقعَ السؤالُ عنه في زمنِ الرسولِ ﷺ وزمنِ الصحابة، لا سيما عندَ دخولِ العجمِ في الإسلام، ولو وقعَ لثقل، فلما لم يُنقلْ عَلِمَ أنَّ التمييزَ ليس في محلِّ التكليف»^(٢).

قوله: (كالتفاوتِ بين أخواتهما)، قال: ذكَّرتِ العَرَبُ ثلاثَ لغاتٍ في حُفظِ بظاءين، وحُضْضَ بضادَّين، وحُضْضَ بضادٍ بعدها ظاءٌ^(٣)، فلو اتَّحدَ الحرفانِ لما كان لروايتهم فيها ثلاثُ لغاتٍ معنى، ويُنادى عليه: الحَوْلانِ الحَوْلانِ؛ لأنه يُجلبُ من بلادِ حَوْلان، وهو دواءٌ للعَيْنِ تُطلى به الأجفانُ ولا يُدخلُ في العَيْنِ.

قوله: (في بُنياتِ الطريق)، الجوهرى: «هي الطرقُ الصَّغارُ تَشعَّبُ مِنَ الجادةِ».

(١) الحديث معناه صحيح، ولا أصل له في مبناه. انظر: «الموضوعات الكبرى» لملا علي القاري، ص ١١٦، ١١٧.

(٢) «مفاتيح الغيب» (١: ٦٠) بتصرف.

(٣) الكلمات الثلاثُ بضمِّ الحاءِ وفتح ما بعد الحاءِ وضمِّها: لغاتٌ في كلمة ذاتِ معنى واحدٍ، هو اسمُ صمغٍ يقال له: حَوْلان، أو هو الكُحْلُ الذي يقال له حَوْلان، قال الرَّاجز:

أزقشَ ظمَّانَ إذا عُضِرَ لَفْظُ أَمَرَ مِنْ صَبْرٍ وَمَقْرٍ وَحُظْظُ

انظر: «لسان العرب» (حضض) لابن منظور، و«التحرير والتوير» (٣٠: ١٤٣) لابن عاشور.

وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعاً ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة يا مَنْ يشاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه. أو: وما تشاؤونها أنتم يا مَنْ لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه. عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، أعاده الله أن يفضحه حين تُنشر صحيفته».

قوله: (أو: وما تشاءونها أنتم)، وإنما غيرَ العبارة، بأن زاد في الثاني كلمة النفي في (مَنْ لا يشاؤها)، ولفظة ﴿أَنْتُمْ﴾؛ لأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ إماماً عامّاً وعليه الوجه الأول، وإما خاصّ والمخاطبون هم المارّ ذكرهم في قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، وعليه الوجه الثاني، ولذلك سجّل على عنادهم بقوله: «يا مَنْ لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه».

قال الإمام: «إن مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله؛ لأن مشيئة العبد محدثة، فلا بد لحدوثها من مشيئة أخرى، فأفعال العباد في طريقي ثبوتها وانتفائها موقوفة على مشيئة الله، وقول المعتزلة: إن هذه المشيئة مخصوصة بمشيئة القسر والإلجاء ضعيف؛ لأننا بيننا أن المشيئة الاختيارية حادثة، ولا بد من محدثٍ يُحدثها والله أعلم»^(١).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بعون الله وحسن توفيقه

وصلى الله على محمد

* * *

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٦٩) بتصرف.

سورة ﴿انْفَطَرَتْ﴾

مكية، وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ١ - ٥].

﴿انْفَطَرَتْ﴾ انشقت، ﴿الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ فتَحَّ بعضُها إلى بعض، فاختلط العذبُ بالمالح، وزال البرزخُ الذي بينهما، وصارت البحارُ بحراً واحداً. وروي أن الأرض تُنْشَفُ الماءَ بعد امتلاء البحار، فتصيرُ مستوية، وهو معنى التسجيرِ عند الحسن. وقرئ: (فُجِرَتْ) بالتخفيف، وقرأ مجاهد: فُجِرَتْ على البناء للفاعل والتخفيف، بمعنى: بَعَثَ لزوال البرزخِ نظراً إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّبِعَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] لأنَّ البغيَ والفجورَ أخوان. بُعِثَ وبُحِثَ بمعنى، وهما مركبان من البعثِ والبَحْثِ مع راءٍ مضمومةٍ إليهما. والمعنى: بُحِثَتْ وأُخْرِجَ موتاهما. وقيل: لبراءة المبعثرة؛ لأنها بَعِثَتْ أسرارَ المنافقين.

[﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا سَاءَ رُكْبَكَ﴾ ٦ - ٨].

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ وكيف طابق الوصفُ

بالكرم إنكارَ الاغترارِ به،

سورة ﴿انْفَطَرَتْ﴾

مكية، وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وكيف طابق الوصفُ بالكرم إنكارَ الاغترارِ به؟)، يعني: أن قوله: ﴿مَا غَرَّكَ﴾: إنكارُ

الغرور، ووجودُ الغرورِ حُكْمٌ يَصْحُحُ تَرْتِبُهُ عَلَى وَصْفِ الْكِرْمِ؛ لِأَنَّهُ مَنَاسِبٌ، فَكَيْفَ أَنْكَرَهُ؟ يَدُلُّ عَلَى الْمَنَاسِبَةِ حَدِيثُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ غَلَامِهِ. وَأَجَابَ أَنَّ وَصْفَ الْكِرْمِ فِي الْآيَةِ مُقَيَّدٌ مَقْرُونٌ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ﴾، ومعناه: أَنَّهُ تَكَرَّمَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ أَوَّلًا، ثُمَّ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ ثَانِيًا بِأَنْ مَكَّنَهُ مِنَ الْعَمَلِ، وَعَرَّضَهُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، لِيَعْرِفَ حَقَّ تِلْكَ النِّعْمَةِ وَيَشْكُرَ رَبَّهُ، فَلَمَّا قَصَرَ فِيهِ وَعَفَلَ عَنْهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ﴾، يَعْنِي: مِنْ حَقِّ الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَغْتَرَّ بِهَذَا الْكِرْمِ، بَلْ يَجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ وَيُقَابِلُ تِلْكَ النِّعْمَةَ بِالشُّكْرِ وَلَا يَقُولُ: قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيَّ حَيْثُ أَوْجَدَنِي مِنَ الْعَدَمِ، كَذَلِكَ يُحْسِنُ إِلَيَّ إِذَا أَنَا مِتُّ فَيَغْفِرُ لِي، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «اغْتَرَارًا بِالْفَضْلِ الْأَوَّلِ».

وحاصله: أَنَّهُ تَعْيِيرٌ وَتَوْبِيخٌ، وَلَيْسَ بِإِطْمَاعٍ، فَقَوْلُهُ: «وَيَفْضِلُهُ» عَطْفٌ عَلَى «بِتَكْرُمِ اللَّهِ»، وَ«حَتَّى»: غَايَةٌ «أَنْ لَا يَغْتَرَّ». وَقَوْلُهُ: «أَنْ يَفْضَلَ»: مَفْعُولٌ «يَطْمَعُ»، وَ«اغْتَرَارًا»: عَلَةٌ لِقَوْلِهِ: «حَتَّى يَطْمَعُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْهِ بِالثَّوَابِ». وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ مُنْكَرٌ»، مَسْبَبٌ عَنْ قَوْلِهِ: «إِنْ حَقَّ الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَغْتَرَّ»، إِلَى آخِرِهِ. وَقَوْلُهُ: «وَقِيلَ: لِلْفُضَيْلِ» جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مَقْدَرٍ، يَعْنِي: إِذَا كَانَ الْقَيْدُ مَا ذَكَرْتُمْ، فَكَيْفَ قَيْدُهُ فَضَيْلٌ بِالسُّتُورِ الْمُرْخَاةِ. وَأَجَابَ: أَنَّ كَلَامَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْقُصُورِ لَا عَلَى الْإِعْتِدَارِ؛ لِأَنَّ فَضَيْلًا كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ، وَأَنْشَدَ صَاحِبُ «المطلع» لِمُحَمَّدِ بْنِ السَّمَاكِ فِي الْمَعْنَى:

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحْيِ
عَسْرَكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ
[و] (١) اللَّهُ فِي الْحَلْوَةِ ثَانِيكَا (٢)
وَيَسْتَرُهُ طُولَ مَسَاوِيكَا

قال صاحبُ «الانتصاف»: «هذه جمعجةٌ فارغة، فالآيةُ في الكفَّارِ لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا بَلَّ

(١) سقط حرف «الواو» من الأصول الخطية.

(٢) في (ح): «يأتيك».

تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿﴾، وتخليدُهم حقٌّ ولكن ليس واجباً على الله، ويجوزُ عقلاً أن لا يُخلدَ الكافر وأن يُدخِله الجنة لولا ورودُ السَّمع، فاللهُ يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ ما يريد ﴿١﴾.

وقلتُ: الحقُّ العمومُ في الآية كما ذهبَ إليه المصنّف. وقال الإمام: «في الإنسان قولان، أحدهما: أنه الكافر، لقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿﴾، والثاني: أنه متناولٌ لجميع العُصاة، وهو الأقرب؛ لأنَّ خصوصَ السببِ لا يقدحُ في عموم اللفظ» ﴿٢﴾.

وقلتُ: والنظمُ يساعِدُ عليه، وذلك أنَّ قوله: ﴿يَتَأْتِيَا الْإِنْسَانَ ﴿﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿﴾، كالاتراضِ بينَ قريتي الجمع والتقسيم. فإنَّ قوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿﴾، عامٌّ اشتملُ على الفُجَّارِ والأبرار، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿﴾، تقسيمٌ تضمّنُ معنى التفريق، فإنه تعالى لَمَّا بَيَّنَّ أحوالَ القيامةِ بانفطارِ السَّماءِ وانتشارِ الكواكبِ وانفجارِ الأبحرِ والبعثِ عن القبور، ثم إطلاعَ كلِّ نفسٍ: برّها وفاجرِها ﴿٣﴾ على عملِها، خيرِها وشرِّها، نبّهَ جنسَ الإنسانِ عن رَقْدَةِ الغفلةِ وسِنَةِ الجهالةِ بقوله: ﴿يَتَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّكَ ﴿﴾، يعني: أيُّها الغافلُ، ورائك هذا الحطُّبُ الجسيمُ والحطُّرُ العظيم، وأنت قد اغتررتَ بها تكرّمَ عليك ربُّك حيث خلَقك فسوّاك فعدلك، في أيِّ صورةٍ ما شاء ربُّك، فاشتغلتَ بذلك عن التزوّدِ لدارِ القرار، وأخلدتَ إلى دارِ الغرور، ولَمَّا كانَ مؤدّى هذه الغفلةِ، الاغترارَ إلى الدُّهولِ عن المستقرِّ الأصلي، نزلَه منزلةَ التكذيبِ بيومِ الدين، حتّى أضربَ عنه بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿﴾، وهذا كما ترى من حالِ المتهاذي في أمورِ الدنيا من التسمينِ بالإسلام، إذا سمعَ شيئاً من أمرِ الآخرةِ تقبّصَ واشمأزَ لغايةِ انهاكه في لذاتِ العاجلة. ونظيرهُ في تهديدِ المُطَفِّينَ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿﴾ [المطففين: ٤]، جعلهم

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧١٥)، وانظر: «الإنصاف» (ق: ١٤٧) للمراعي.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٧٢، ٧٣).

(٣) في (ف): «برّاها فاجرِها».

وإنما يُغْتَرُّ بالكريم، كما يُروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: ما لك لم تجبني؟ قال: لثقتي بجحلمك وأمني من عقوبتك، فاستحسن جوابه وأعتقه. وقالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه.

قلت: معناه أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكريم الله عليه، حيث خلقه حياً لينفعه، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما مكّنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها، أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب، اغتراراً بالتفضل الأول، فإنه منكر خارج من حد الحكمة، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما تلاها: «غره جهله»، وقال عمر رضي الله عنه: غره حمقه وجهله، وقال الحسن: غره والله شيطانه الخبيث، أي: زين له المعاصي وقال له: افعَل ما شئت، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولاً وهو متفضل عليك آخراً حتى ورطه، وقيل للفضيل بن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: «ما غرك ربك الكريم» ماذا تقول؟ قال أقول: غرتني ستورك المرخاة. وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر، وليس باعتذار كما يظنه الطماع،

أسوأ حالاً من الكفار؛ لأنه تعالى أثبت للكفار ظناً في قوله: ﴿إِن تَطُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] ونفاه عنهم. قال القاضي: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ أي: أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه؟ وذكر ﴿الْكَبِيرِ﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم^(١)، وتسوية الموالى والمُعادي والمطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام؟ وعن الاشتغال بما به يغره الشيطان، ويقول: افعَل ما شئت، فربك كريم لا يُعذَّب أحداً ولا يُعاجل بالعقوبة. وللدلالة على أن كثرة كرمه، تستدعي الحد في الطاعة لا الانهاك في المعصية اغتراراً بكرمه. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾، صفة ثانية مقررة للربوبية، مبينة للكرم، مُنبهة على أن من قدر على ذلك أولاً، قدر عليه ثانياً^(٢).

قوله: (كما يظنه الطماع)، قيل: «ما»: مصدرية، والضمير في «يظنه» يعود إلى الظن،

(١) في (ف): «إمهال».

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٥٩، ٤٦٠).

ويظن به قُصاصُ الحشوية ويروون عن أئمتهم: إنما قال: ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ دون سائر صفاته، ليلقن عبده الجواب حتى يقول: غزني كرمُ الكريم. وقرأ سعيد بن جبير: (ما أغرك) إما على التعجب، وإما على الاستفهام؛ من قولك: غرَّ الرجلُ فهو غارٌ: إذا غفل، من قولك: بيَّتَهُمُ العدوُّ وهم غارون، وأغرّه غيره: جعله غاراً. ﴿فَسَوْنَكَ﴾ فجعلك سويّاً سالمَ الأعضاء، ﴿فَعَدَلْكَ﴾ فصيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوتٍ فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر. أو جعلك معتدلاً الخلق تمشي قائماً لا كالبهائم. وقرئ: ﴿فَعَدَلْكَ﴾ بالتخفيف، وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون بمعنى المشدّد، أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت. والثاني: (فَعَدَلْكَ) فصرك؛ يقال: عدل عن الطريق يعني: فَعَدَلْكَ عن خِلقه غيرك وخلقك خِلقه حسنة مفارقة لسائر الخلق. أو فَعَدَلْكَ إلى بعض الأشكال والهيئات.....

أي: ليس باعتذارٍ مثل ظن الطماع ذلك الظن، كما في قولك: عبد الله أظنه منطلق، أي: أظنُّ الظنَّ، منطلق. ولا يجوز أن تكون موصولة، والعاثد الضمير؛ لأنه يلزم اقتصار الظن على أحد مفعوليه، وهو غير جائز. وأمّا ما ذكر في مواضع من هذا الكتاب أن أحد مفعولي حسب محذوف، فهو فيما إذا كان الفاعل والمفعول شيئاً واحداً في المعنى، كقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ [النور: ٥٧]، وقد صرح بهذا الشرط في كتابه، حيث قال: «الأصل: لا تحسبهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول، وكان الذي سوغ ذلك، أن الفاعل^(١) والمفعولين لما كانت لشيء واحد، اقتنع بذكر الاثنين عن ذكر الثالث^(٢)».

قوله: (وقرئ: ﴿فَعَدَلْكَ﴾ بالتخفيف)، الكوفيون، والباقون: بالتشديد^(٣).

(١) قوله: «المفعول الأول وكان الذي سوغ ذلك أن الفاعل» سقط من (ح) و(ف).

(٢) انظر: (١١: ١٣٩).

(٣) قراءة التشديد بمعنى: قَوْمُكَ، وحجبتهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، أو

بمعنى حسنك وجملك. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٥٣.

(مَا) فِي ﴿مَا شَاءَ﴾ مَزِيدَةٌ، أَي: رَكَّبْتُ فِي أَيِّ صُورَةٍ اقْتَضَتْهَا مَشِيئَتُهُ وَحِكْمَتُهُ مِنَ الصُّورِ الْمُخْتَلِقَةِ فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَالطُّوْلِ وَالْقَصْرِ، وَالذَّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ، وَالشَّبْهِ بِبَعْضِ الْأَقَارِبِ وَخِلَافِ الشَّبْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا عَطِفْتَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ كَمَا عَطِفَ مَا قَبْلَهَا؟

قُلْتَ: لِأَنَّهَا بَيَانٌ لِعَدْلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمِ يَتَعَلَّقُ الْجَارُ؟

قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِرَكَّبِكَ عَلَى مَعْنَى: وَضَعْتُكَ فِي بَعْضِ الصُّورِ وَمَكَّنْتُكَ فِيهِ، وَبِمَحذُوفٍ أَي: رَكَّبْتُكَ حَاصِلًا فِي بَعْضِ الصُّورِ؛ وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ إِنْ عُلِقَ بِمَحذُوفٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِعَدْلِكَ، وَيَكُونُ فِي (أَيِّ) مَعْنَى التَّعْجَبِ، أَي: فَعَدَلْتُكَ فِي صُورَةٍ عَجِيبَةٍ، ثُمَّ قَالَ: مَا شَاءَ رَكَّبِكَ. أَي رَكَّبْتُكَ مَا شَاءَ مِنَ التَّرَاكِبِ، يَعْنِي تَرْكِيبًا حَسَنًا.

قَوْلُهُ: (هَلَّا عَطِفْتَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ؟)، أَي: قَوْلُهُ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبْتُكَ﴾، أَي: لِمَ لَمْ يَقُلْ: فَنِي أَيِّ صُورَةٍ، أَوْ: فَرَكَّبْتُكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ؟ كَمَا عَطِفَ مَا قَبْلَهَا، أَي: قَوْلُهُ: ﴿فَسَوَدَكَ فَعَدَلْتُكَ﴾.

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِعَدْلِكَ)، عَطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: «يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِرَكَّبِكَ»، وَعَلَى الْأَوَّلِ إِمَّا صِلَةٌ لَهُ وَضَمَّنَ «رَكَّبَ» مَعْنَى «وَضَعَ»، أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَنْصُوبِ فِيهِ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ الْجُمْلَةُ بَيَانٌ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى، وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي «مَا شَاءَ رَكَّبْتُكَ» بَيَانٌ، فَإِنَّهُ لَمَّا قِيلَ: ﴿فَعَدَلْتُكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ عَلَى التَّعْجَبِ، وَالتَّنْكِيرِ لِلتَّفْخِيمِ، قِيلَ: مَا ذَلِكَ التَّعْدِيلُ الْمَفْحَمُ الْعَجِيبُ الشَّانُ؟ وَأَجِيبْ: لَا يَحِيطُ الْوَصْفُ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ كَمَا شَاءَ اللَّهُ رَكَّبَكَ، وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ.

قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: ﴿مَا﴾ صِلَةٌ زَائِدَةٌ، وَ﴿شَاءَ﴾: فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ صِفَةٌ لـ ﴿صُورَةٍ﴾، وَ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾: صِلَةٌ ﴿رَكَّبْتُكَ﴾، أَي: عَدَلْتُكَ وَرَكَّبْتُكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَ، فَحَذِفَ لِكَوْنِ

[﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَغَامُونَ مَاتَفَعَلُونَ ﴿٩-١٢﴾].

﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتسلق به، وهو موجب الشكر والطاعة، إلى عكسها الذي هو الكفر والمعصية. ثم قال: (بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ) أصلاً وهو الجزاء، أو دين الإسلام. فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً وهو شرٌّ من الطمع المنكر.....

الجملة الثانية بياناً للأولى. وقال: وقيل: ما: شَرْطِيَّة، وشاء: في موضع الجزم، وركَّبك: جوابُ الشَّرط، ولا يكونُ الجارُّ على هذا صلة ﴿رَكَّبَكَ﴾؛ لأنه يُقال: إن تَضَرَّبَ زيداً أُضْرِبَ عمراً، لا يجوزُ تقديمُ «عمراً» على إن، فوجب أن تكون ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾: صلةٌ مُضمرة، ولا تكونُ من صلةِ «عَدَلَك»؛ لأنه استفهامٌ، والاستفهام لا يَعْمَلُ فيه ما قبله^(١). فعلى هذا، في كلام المصنِّف إشكالٌ؛ لأنه جعله من صلةِ عَدَلَك في الوجه الأخير. والجوابُ: التقديرُ: فَعَدَلَك فيما يُقالُ في حَقِّه: أي صورةٌ ما شاءَ رَكَّبَكَ.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله، يعني: ﴿كَلَّا﴾: رَدِّعْ، لما دَلَّ عليه قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. وقوله: إلى عكسها، متعلِّق بقوله: «والتسلق به». وقوله: «وهو موجبُ الشكر والطاعة»، حال، أي: انتهوا عن الاغترار بكرم الله والتسلق به إلى الكُفْرانِ والمعصية، والحالُ أن التسلق بكرم الله عزَّ وجلَّ موجبُ الشكر والطاعة. قوله: (وهو شرٌّ من الطمع المنكر)، يعني: في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ كما سَبَّ، ففيه تَرَقُّ من الأهون إلى الأغلظ. قال القاضي: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾: «إضرابٌ إلى بيان ما هو السببُ الأصليُّ في اغترارهم»^(٢).

الراغبُ: «بل هاهنا لتصحيح الثاني وإبطال الأول، كأنه قيل: ليس هنا ما يقتضي أن يعرَّهم به تعالى، ولكن تكذيبهم هو الذي حملهم على ما ارتكبه»^(٣).

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٣٥).

(٢) في (ط): «إنها يكتبون».

(٣) «مفردات القرآن» ص ١٤١، ١٤٢ بتصرف.

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَفَظِينَ﴾ تحقيقاً لما يكذبون به من الجزاء، يعني أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتُجازوا بها. وفي تعظيم الكتّبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور؛ ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه، ويجازي به الملائكة الكرام الحفظة الكتّبة. وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين. وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين!

[﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾]

[١٦-١٣].

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيكِ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، ويجوز أن

يراد: يصلون النار يوم الدين وما يُغيّبون عنها قبل ذلك،

قوله: (تحقيقاً لما يكذبون به من الجزاء)، بيان «ما»، أي أن قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَفَظِينَ﴾، يقرّر أن المراد بالدين هو الجزاء لا دين الإسلام، لأن الحفظة لا يكتبون الجزاء، فيكون قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَفَظِينَ﴾: حالاً مُقرّرة لجهة الإشكال، وإليه الإشارة بقوله: إنكم تكذبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم.

قوله: (وتشوير للعصاة)، الجوهرى: «شوّرت الرجل فتشوّر، أي: أخرجته فخرجته».

قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيكِ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، قال في تفسيره: «﴿هُمْ﴾ دلّت على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم، لا على الاختصاص»^(١) بناءً على مذهبه. والوجهان اللذان ذكّرهما هاهنا، ذكّرهما فراراً من معنى الاختصاص الذي يؤدي إليه مذهب أهل الحق ولا محيد له عنه؛ لأن إيلاء الضمير حرف التني يدلّ على أن الكلام في الفاعل، لا في الفعل، والمسألة متفق عليها، وقد استقصيناها في البقرة.

(١) انظر: (٣: ١٨٦-١٨٧)؛ في تفسير الآية (١٦٧) من سورة البقرة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيكِ

مِنَ النَّارِ﴾، مع أن استدلال الزمخشري كان بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيكِ مِنْهَا﴾ في المائدة.

يعني: في قبورهم، وقيل: أخبر الله في هذه السورة أن لابن آدم ثلاث حالات: حال الحياة التي يحفظ فيها عمله، وحال الآخرة التي يُجازى فيها، وحال البرزخ وهو قونه: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾.

[﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٧-١٩].

يعني أن أمر يوم الدين بحيث لا تُدرِكُ درايةً دارِ كُنْهَهُ في الهولِ والشدة، وكيفما تصوَّرته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه، والتكريرُ لزيادة التهويل، ثم أجمل القول في وصفه فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تستطيعُ دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه، ولا أمر إلا لله وحده. من رفع فعلى البدل من ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾،

قوله: (يعني: في قبورهم)، والواو على هذا: للعطف، فيقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: إنهم الآن ليسوا بغائبين عن الجحيم، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وعلى الأول: للحال.

قوله: (إن أمر يوم الدين بحيث لا تُدرِكُ درايةً دارِ)، وعن بعضهم: ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا للاستبعاد، والاستفهام في «ما» للاستنكار، وجعل ذلك مُستبعداً مُستنكراً.

قوله: (ولا أمر إلا لله وحده)، الأمر: واحدُ الأمور، لا واحدُ الأوامر، قال الواحدي عن قتادة: «ليس أحدٌ يقضي شيئاً أو يضع شيئاً إلا الله رب العالمين»^(١)، ولذلك عقب المصنّف قوله: ولا أمر إلا لله وحده، قوله: أي: لا يستطيعُ دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه. قوله: (من رفع فعلى البدل)، ابن كثير وأبو عمرو، والباقون: بنصبها^(٢).

(١) «الوسيط» (٤: ٤٣٩) للواحدي.

(٢) «يوم» بالرفع: إما صفة لقوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف. وبالنصب، على معنى: هذه الأشياء المذكورة تكون ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٥٣، ٧٥٤.

أو على: هو يومٌ لا تملك. ومَن نصبَ فياضاً يدانون؛ لأنَّ الدَّينَ يدُلُّ عليه، أو بياضاً اذكر. ويجوزُ أن يفتحَ لإضافته إلى غيرِ متمكِّنٍ وهو في محلِّ الرفع.

عن رسول الله ﷺ: «مَن قرأ «إذا السماء انفطرت»، كتبَ اللهُ له بعددِ كلِّ قطرةٍ من السماءِ حسنةً وبعددِ كلِّ قبرٍ حسنةً».

قوله: (لإضافته إلى غيرِ متمكِّنٍ)، قال الزجاجُ: «هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ لِإِضَافَتِهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾؛ لِأَنَّ مَا يُضَافُ إِلَى غَيْرِ الْمُتَمَكِّنِ قَدْ يُبْنَى عَلَى الْفَتْحِ وَإِنْ كَانَ فِي مَوْضِعِ رَفَعٍ أَوْ جَرٍّ»^(١)، واللهُ تعالى أعلم.

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَامِلِينَ

* * *

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٦).

سورة المطففين

مختلف فيها، وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَتِلْ لِلْمُطْفِفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١-٦].
التطفيف: البخس في الكيل والوزن، لأن ما يُبخسُ شيءٌ طفيفٌ حقير.....

سورة المطففين

ست وثلاثون آية، مكية بخلاف (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (لأن ما يُبخسُ شيءٌ طفيفٌ حقير)، تعليلٌ للتسمية، وكان من الظاهر أن يقال: لأن كل ما يُطفَّفُ يُبخس، قال الزجاج: «إنما قيل للفاعل: مُطفَّفٌ لأنه لا يكاد يُسرفُ (٢) في الكيال والميزان إلا الشيء الحقير الطفيف، وأخذ من طَف الشيء، وهو جانبه» (٣).

(١) في (ط): «سورة التطفيف، مدنية، وهي تسع عشرة آية»، وكونها ١٩ آية خطأ، فهي ٣٦ آية بلا خلاف، كما في «البيان» للداني، ص ٢٦٧.

(٢) في (ح)، (ف): «يسرق».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٧).

وروي أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة وكانوا من أخبثِ الناسِ كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل. وقيل: قَدِمَهَا وبها رجلٌ يعرفُ بأبي جهينة ومعه صاعان: يكيلُ بأحدهما ويكتالُ بالآخر. وقيل: كان أهلُ المدينة تجاراً يُطَقِّفون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت. فخرج رسولُ الله ﷺ فقرأها عليهم، وقال: «خمسٌ بخمسٍ» قيل: يا رسولَ الله، وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: «ما نقض قومُ العهدَ إلا سلَّطَ اللهُ عليهم عدوَّهم، وما حكّموا بغير ما أنزلَ اللهُ إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشةُ إلا فشا فيهم الموت، ولا طَفَّفوا الكيلَ إلا مُنِعوا النباتَ وأخذوا بالسَّنين،

الراغب: «الطيف: الشيءُ النزر، ومنه الطفافة: لما لا يُعتدُّ به، وطفَّفَ الكيلَ: قلَّل نصيبَ الكيلِ له في إيفائه واستيفائه»^(١).

قوله: (وكانوا من أخبثِ الناسِ كيلاً)، روى ابنُ ماجه، عن ابنِ عباس، أن رسولَ الله ﷺ لما قَدِمَ المدينة كانوا من أخبثِ الناسِ كيلاً، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأحسنوا الكيلَ بعد ذلك^(٢).

قوله: (المنابذة والملامسة والمخاطرة)، النهاية: المنابذة في البيع هو أن يقول الرجل لصاحبه: انبذ إلي الثوب، أو أنبذه إليك، ليجب البيع. وقيل: هو أن يقول: إذا انتبذت إليك الحصاة وجب البيع، فيكون البيع معاطاة من غير عقد، ولا يصح أن يقال: نبذت الشيء أنبذه نبذاً فهو منبوذ: إذا رميته. وبيع الملامسة هو أن يقول: إذا لمست ثوبي أو لمست ثوبك^(٣) فقد وجب البيع. وقال: والخطر، بالتحريك، في الأصل: الرهن، وما مخاطر عليه، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدرٌ ومنزلة. وقيل: المخاطرة: بيع الغرر، مثل بيع الطير في الهواء والسّمك في الماء.

(١) «مفردات القرآن»، ص ٥٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٣).

(٣) سقط قوله: «أو لمست ثوبك»، من (ح)، (ف).

ولا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حَسِبَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ». وعن علي رضي الله عنه: أنه مرَّ برجلٍ يَزِنُ الزُّعْفَرَانَ وقد أَرْجَحَ فقال له: أقمِ الوزنَ بِالْقِسْطِ، ثم أَرْجِحْ بعد ذلك ما شِئْتَ. كأنه أَمَرَهُ بالتسويةِ أولاً ليعتادَها ويفصلَ الواجبَ من النَّفْلِ. وعن ابن عباس: إنكم معشرَ الأعاجمِ وُلِّيتُم أمرين، بهما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم: المِكيَالُ والمِيزانُ؛ وَخُصَّ الأعاجمُ؛ لأنهم يَجْمَعُونَ الكيلَ والوزنَ جميعاً، وكانا مفرَّقَيْنِ في الحرمَيْنِ: كان أهلُ مكة يزنون وأهلُ المدينة يكيلون، وعن ابنِ عمرَ أنه كان يَمُرُّ بالبائعِ فيقول له: اتقِ اللهَ وأوفِ الكيلَ، فإنَّ المطففينَ يوقفون يومَ القيامةِ لعظمةِ الرحمنِ حتى إنَّ العرقَ ليلجِمُهُم. وعن عكرمة: أشهدُ أن كلَّ كَيْالٍ ووزانٍ في النارِ. فقيل له: إن ابنك كَيْالٌ أو وزانٌ؛ فقال: أشهدُ أنه في النارِ. وعن أبي رضي الله عنه: لا تُلمَسُ الحوائجُ من رِزْقِهِ في رؤوسِ المكايلِ وألسنِ الموازينِ، لما كان اكتيائُهُم من الناسِ اكتيالاً يضرُّهم ويُتَحامَلُ فيه عليهم: أبدلَ (على) مكانَ (من) للدلالةِ على ذلك. ويجوز أن يتعلَّقَ (على) بـ (يستوفون)، ويُقدِّم المفعولُ على الفعلِ لإفادةِ الخصوصيةِ، أي: يَسْتوفون على الناسِ خاصةً؛ فأما أنفُسُهُم فيستوفون لها؛ وقال الفراء (من) و(على) يَعتَقبان في هذا الموضع؛

قوله: (ويُفصلُ الواجبَ من النَّفْلِ)، أي: يُميِّزه منه، ويُفرِّق بينهما.

قوله: (يلجِمُهُم)، النهاية: «يَبْلُغُ العَرَقُ منهم ما يُلجِمُهُم، أي: يصلُ إلى أفواهِهِم، فيصيرُهُم بمنزلةِ اللَّجَامِ يَمْنَعُهُم عن الكلام».

قوله: (ويَتَحامَلُ فيه عليهم)، الأساس: «تَحامَلْتُ الشيءَ: حَمَلْتُهُ^(١) على مَشَقَّةٍ، وَتَحامَلَ عليَّ فلانٌ: لم يَعدِلْ»، يريدُ أن ﴿أَكْأَلُوا﴾ مما يُعَدِّي بِيمينِ، فلَمَّا ضَمَّنَ معنى التحاملِ، كقولك: تَحامَلَ عليَّ فلانٌ، عُدِّي بَعَلَى. وفي «المطلع»: كانوا متمكِّنينَ من الاحتِمالِ في الأخذِ مُستوفينَ في الكيلِ بزِعةِ المِكيَالِ ومِيلِهِ بِقوَّةٍ وَضَغْطٍ.

(١) في «أساس البلاغة»، مادة (حمل): «احتملته».

لأنه حق عليه؛ فإذا قال اكتلتُ عليك، فكأنه قال: أخذت ما عليك؛ وإذا قل: كسبتُ منك، فكقوله: استوفيتُ منك. والضمير في ﴿كَالْوَهْمِ أَوْ وَزَوَّهْمِ﴾ ضميرٌ منصوبٌ راجعٌ إلى الناس، وفيه وجهان: أن يرادَ كالواهم أو وزنوا لهم؛ فحذف الجارَ ووَصَرَ الفعل، كما قال:

ولقد جَئْتِكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلًا ولقد مَهَيْتَكَ عن بَنَاتِ الأُوبِرِ

والحريصُ يصيدُك لا الجواد،

قوله: (أَنْ يُرَادَ: كالواهم)، يقال: كِلْتُ الطعامَ، ويقال: كَالَكُ أَي: كَالُ لَكَ، وَكَرَرَ المُعْطَى وَاكْتَالَ الأَخِذَ.

قوله: (ولقد جَئْتِكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلًا)، البيت^(١). أَكْمُؤًا: جمعُ كَمَاءٍ على غير قياس^(٢)، وفي «المُجَمَّل»: العساقِلُ: ضَرْبٌ مِنَ الكَمَاءِ، الواحدُ عُسْقُولٌ^(٣)، وبناتُ الأُوبِرِ: كَمَاءٌ صَعَاظٌ على لونِ الترابِ رديءٍ، قيل: يُضْرَبُ المثلُ بها، فيقال: إن بني فلانٍ [مثل] ^(٤) بناتِ أُوبِرٍ، يُظَنُّ أَنْ فِيهِمْ خيراً ولا خيراً فيهم.

قوله: (والحريصُ يصيدُك لا الجوادُ)، قيل: المعنى: الحريصُ يصيدُكَ لا الفَرَسُ الجوادُ، أَي: إِنَّمَا تَحْصُلُ الأَشْيَاءُ بِالْحَرِصِ والجِدِّ لا بِمَجْرَدِ الاستعداد. وقال الميداني: «أرادَ أَنْ الذي له هوىٌ وحرصٌ على شأنِكَ هو الذي يقومُ به، لا القويُّ عليه ولا هوىٌ له فيكَ، يُضْرَبُ لَمَنْ يَسْتَغْنِي عن الوصيةِ لشدةِ عنايتهِ بك»^(٥).

(١) لم أهدت إلى قائله.

(٢) عَرَضَ الشَيْخُ المحققُ محمدُ محيي الدين عبد الحميد لهذا البيت، قال: أَكْمُؤًا: جمعُ كَمَاءٍ، بزنةِ «فَلَسٍ»، ويجمعُ الكَمَاءُ على كَمَاءٍ أيضاً، فيكون المفردُ خالياً من التاء وهي في جمعه، على عكسِ تمرَّةٍ وتمر، وهذا من نوادر اللغة. انظر: حاشيته على «شرح ابن عقيل» (١: ١٨١).

(٣) «مجمَل اللغة» لابن فارس، ص ٦٧٦.

(٤) زيادة يقتضيها السياق، انظر: «لسان العرب» (وير).

(٥) «مجمع الأمثال» (١: ٢٠٧).

بمعنى: جنيتُ لك، ويصيدُ لك، وأن يكونَ على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه، والمضافُ هو المكيَلُ أو الموزون، ولا يصحُّ أن يكونَ ضميراً مرفوعاً للمطففين؛ لأنَّ الكلامَ يخرجُ به إلى نَظْمٍ فاسد؛ وذلك أنَّ المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإذا أعطوهم أخسروا؛ وإن جعلتَ الضميرَ للمطففين انقلبَ إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإذا تَوَلَّوْا الكيَلَ أو الوزنَ هم على الخصوص أخسروا، وهو كلامٌ متنافرٌ، لأنَّ الحديثَ واقعٌ في الفعلِ لا في المباشر،

قوله: (والمضافُ هو المكيَلُ أو الموزون)، أي: كالوا مكيَلَهُم أو وَرَنوا موزونَهُم.

قوله: (وهو كلامٌ متنافرٌ؛ لأنَّ الحديثَ واقعٌ في الفعلِ لا في المباشر)، أي: الحديثُ في أنَّ هذا الفعلَ، وهو الإخسار^(١)، يصدُرُ منهم، لا أنَّ غيرَهُم لا يُخسِرُونَ.

الانتصاف: «لا تنافرَ فيه، ولا يُجَعَلُ هذا العاملُ في الضميرِ ليكونَ^(٢) دالاً على المباشرة، بل المعنى: إذا كان الكيَلُ من جهةٍ غيرِهِم استوفوه، وإذا كان من جهتهم خاصةً أخسروه، سواءً باشروه أم لا. ويدلُّ على أنَّ الضميرَ لا يُعطي المباشرةَ أنك تقول: الأمراءُ هم الذين يُقيمونَ الحدودَ لا السوقَ، وإن كانوا لا يباشرونه».

قلت: هذا بمعزلٍ عن مقصدِ المصنِّف؛ لأنه يريدُ أنَّ الضميرَ إذا جُعِلَ للمطففين أفاد التركيبُ معنى الحُضْر، لما يؤدِّي تقديمُ الفاعلِ المعنويِّ على عاملِهِ في قوله: هم يُخسِرُونَ إلى معنى الاختصاصِ وأنَّ الحُضْرانَ واقعٌ، وإنَّا الكلامُ في فاعلِهِ ومباشِرِهِ أنه: هم أو غيرُهُم، فقيل: «يُخسِرُونَ» ليفيدَ ما قال: هم على الخصوص أخسروا دونَ غيرِهِم، وليسَ الكلامُ إلا في الإخبارِ عنهم أنَّهم يُخسِرُونَ، فلو أريدَ ذلك لخرَجَ الكلامُ عن مقابلةِ ما قبله، إذ المقصودُ بيانُ اختلافِ حالِهِم في الأخذِ والدفعِ لا في الاختصاصِ، هذا هو المرادُ، فظنَّ صاحبُ

(١) في (ط): «الاختيار».

(٢) من قوله: «أو وزنوا موزونهم» إلى هنا، سقط من (ف).

والتعلُّقُ في إبطاله بخط المصحف، وأنَّ الألفَ التي تُكتَبُ بعدَ واوِ الجمعِ غيرُ ثابتةٍ فيه: ركيكٌ؛ لأنَّ خطَّ المصحفِ لم يراعَ في كثيرٍ منه حدَّ المصطلحِ عليه في عِلْمِ الخط، على أني رأيتُ في الكتبِ المخطوطةِ بأيدي الأئمةِ المتقنين هذه الألفَ مرفوضةً لكونها غيرَ ثابتةٍ في اللفظِ والمعنى جميعاً؛ لأنَّ الواوَ وحدها معطيةٌ معنى الجمع، وإنما كُتبتْ هذه الألفُ تفرقةً بين واوِ الجمعِ وغيرها في نحو قولك: هم لم يدعوا، وهو يدعوا؛

«الانتصاف» أن غرَّصَ المصنِّفُ أنَّ الإثيانَ بالضميرِ حيثُ لَدَفَعَ الإسنادِ المجازي، وإسنادِ الفعلِ إلى غيرِ المباشر. لكنَّ الجواب: أن ليس بواجبٍ حيثُ أن يُجَعَلَ التركيبُ من بابِ التقديمِ لِيُقَيَّدَ التخصيصُ، لاحتمالِ أن يكونَ من بابِ تقويِّ الحُكْم، والتقديرُ أنهم إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا البتة، فأفادَ أنَّ اهتمامهم بالإخسارِ بالدفعِ أتمُّ من اهتمامهم في الاستيفاءِ عندَ الأخذ؛ لأنَّ به يظهرُ أثرُ الرِّيح، وعليه قوله تعالى: ﴿وَجَالًا لَا لِيَهُمِمْ تَحِزَّةً وَلَا يَبِيعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، حيثُ خَصَّ البيعَ دونَ الشراءِ على أحدِ الوجوه. ثم يقال: إنَّ معنى التخصيصِ من قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦] في السُّورَةِ السابقةِ قَطْعِي، لإيلاءِ حرفِ النَّفْيِ الفاعلَ المعنوي، ولما كان مُخَالَفًا لمذهبه ذهبَ إلى أنه مثلُ ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾، في قوَّةِ أمرهم فيها أسندٌ إليهم، لا في الاختصاص، وهاهنا احتَمَلَ الأمرين، فقام مقامَ قرينةٍ إرادةٍ تقويِّ الحُكْم، فينبغي أن يُرَجَّحَ جانبُها.

قوله: (والتعلُّقُ في إبطاله) وهو مبتدأ، وقوله: «ركيك» خبره، أي: التعلُّقُ في إبطالِ كونِ الضميرِ منصوباً عائداً إلى الناسِ بخطِّ المصحفِ ركيكٌ، والجملةُ عطفٌ من حيثِ المعنى على جملةِ قوله: «لأنَّ الكلامَ يُخْرُجُ به إلى نُظْمِ فاسد»، إلى آخره، عنى به قولَ الرَّجَاحِ حيثُ قال: «الاحتيازُ أن يكونَ ﴿هَمْ﴾ في مَوْضِعِ نَصْبٍ، بمعنى: كالواهم^(١)، ولو كانت على معنى كالوا، ثم جاءت ﴿هَمْ﴾ تأكيداً، لكان في المصحفِ الألفُ مُثَبِّتَةً»^(٢).

(١) في الأصول الخطية: «كالوهم».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٨).

فمن لم يُثبِتْهَا قال: المعنى كافٍ في التفرقة بينهما. وعن عيسى بن عمرٍ وحمزة: نَسِمَ كَانَا يَرْتَكِبَانِ ذَلِكَ، أَي يَجْعَلَانِ الضَّمِيرَيْنِ لِلْمُطَفِّفَيْنِ، وَيَقْفَانِ عِنْدَ الْوَاوَيْنِ وَقِيْفَةً يَبِينَانِ بِهَا مَا أَرَادَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا قِيلَ: أَوْ اتَّرَنُوا، كَمَا قِيلَ: ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾؟

قوله: (الضَّمِيرَيْنِ لِلْمُطَفِّفَيْنِ وَيَقْفَانِ عِنْدَ الْوَاوَيْنِ وَقِيْفَةً)، هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا جَعَلَاهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ مَبْتَدَأً، فَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ الْخَبْرُ مِنْ أَحَدِهِمَا عَدْوْفًا، أَي: إِذَا كَالُوهُمْ يُجْحِسُونَ. وَإِذَا وَزَنُوهُمْ يُجْحِسُونَ. قَالَ الزَّجَّاجُ: «مَنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ ﴿هُمْ﴾ تَأْكِيدًا لِمَا فِي كَالُوا، فَيَجُوزُ أَنْ يَقِفَ عَلَى: كَالُوا»^(١)، وَكَذَا فِي «الْكُوَاشِي». وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «إِنَّهُ ضَمِيرٌ مُنْفَصِلٌ مُؤَكَّدٌ لَضَمِيرِ الْفَاعِلِ، فَعَلِيَ هَذَا يُكْتَبَانِ بِالْأَلْفِ»^(٢).

قوله: (هَلَا قِيلَ: أَوْ اتَّرَنُوا، كَمَا قِيلَ: ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾؟)، أَي لِمَ لَمْ يُوَازِنَ بَيْنَ الْقَرِيْبَتَيْنِ؟ بَأَنَّ يُقَالُ: إِذَا اِكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ، أَوْ اتَّرَنُوا عَلَيْهِمْ يَسْتَوْفُونَ، لِمَكَانِ قَوْلِهِ: وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُجْحِسُونَ؟ أَجَابَ: أَنَّهُ أَتَى عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَتُعْرَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَأْخُذُونَ مَا يُكَالُ وَيُوزَنُ إِلَّا بِالْمَكَايِيلِ دُونَ الْمَوَازِينِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: «الْمَعْنَى: إِذَا اِكْتَالُوا مَنْ النَّاسِ اسْتَوْفُوا عَلَيْهِمُ الْكَيْلَ، وَكَذَلِكَ إِذَا اتَّرَنُوا اسْتَوْفُوا الْوَزْنَ، وَلَمْ يَذْكُرْ إِذَا اتَّرَنُوا، لِأَنَّ الْكَيْلَ وَالْوَزْنَ بِهَا الشَّرَاءُ وَالْبَيْعُ فِيمَا يُكَالُ وَيُوزَنُ»^(٣).

يُرِيدُ أَنَّهُ اسْتَعْنَى عَنْ ذِكْرِ إِحْدَى الْقَرِيْبَتَيْنِ بِالْأُخْرَى بِدَلَالَةِ الْقَرِيْبَةِ الْآتِيَةِ عَلَيْهَا. وَقُلْتُ: الَّذِينَ إِذَا اِكْتَالُوا إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِفَةً مَخْصُصَةً أَوْ كَاشِفَةً أَوْ جَارِيَةً عَلَى الدَّمِّ، فَعَلِيَ الْأَوَّلُ لَا يَنْبَغِي ذِكْرُ الْوَزْنِ؛ لِأَنَّ سَبَبَ التَّرْوَلِ - كَمَا سَبَقَ - فِي قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ وَفِي فَعَلٍ مَخْصُوصٍ وَهُوَ الْكَيْلُ، وَعَلَى الثَّانِي: كَلَامُ الزَّجَّاجِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى التَّطْفِيفِ: الْبَخْسُ فِي الْكَيْلِ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٧-٢٩٨).

(٢) «التبيان» (٢: ١٢٧٦).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٧).

قلت: كَانَ المطففين كانوا لا يأخذون ما يُكَالُ ويوزنُ إلا بالمكاييسِ دونَ الموازينِ لتمكُّنهم بالاكتيالِ من الاستيفاءِ والسَّرقة؛ لأنهم يُدْعِدِعُونَ ويختالون في الشَّرِّ. وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكُّنهم من البَخْسِ في النوعين جميعاً. ﴿مُخْسِرُونَ﴾ يُنْقَصُونَ. يقال: خَسَرَ الميزانَ وأخسره، ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ إنكارٌ وتعجيبٌ عظيمٌ من حِفْهِ في الاجتراءِ على التطفيف، كأنهم لا يخطرُون ببالهم ولا يَحْتَمِنون تخميناً ﴿أَنَّهُمْ مَعْتَوُونَ﴾ ومحاسبون على مقدارِ الذرَّةِ والخرْدلة. وعن قتادة: أوفِ يا ابنَ آدمَ كما تحبُّ أن يوفى بك. واعدلْ كما تحبُّ أن يعدلَ لك. وعن الفضيل: بَخْسُ الميزانِ سوادُ الوجهِ يومَ القيامة. وعن عبد الملكِ بنِ مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعتَ ما قالَ اللهُ في المطففين: أراد بذلك أن المطففَ قد توجَّهَ عليه الوعيدُ العظيمُ الذي سمعتَ به، فما ظنُّكَ بنفسِكَ وأنت تأخذُ أموالَ المسلمين بلا كيلٍ ولا وَزْن. وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةُ الظن، ووصفِ اليومِ بالعَظْم، وقيامِ الناسِ فيه اللهُ خاضعين،

والوَزْن، فيدخلُ في هذا العامِّ مَنْ نزلتَ فيهمُ الآيةُ دخولاً أولياً، وعلى الثالث: يكونُ ذكْرُ الوزنِ لمزيدِ الدَّم، يعني: إذا اتَّفَقَ أحياناً لهم وَزْنٌ بما هو قانونُ العَدْلِ، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾، مُخْسِرُونَ أيضاً.

قوله: (وَيُزَعِرُونَ)، ويُرَوَى: وَيُدْعِدِعُونَ. الجوهري: «الدَّعْدَعَةُ: تحريكُ المِكْيَالِ ونحوه لِيَسَعَةَ الشَّيْءِ، ودَعْدَعْتُ الشَّيْءَ: مَلَأْتُهُ».

قوله: (وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ)، يعني: الهمزةُ الداخلةُ على النَّافيةِ: لِلإِنكَارِ والتعجيبِ. قال أبو البقاء: ﴿أَلَا﴾ ليست للتنبية؛ لأنَّ ما بعدَ حرفِ التنبيةِ مُثَبَّتٌ، وهانِنا نَمِّي^(١)، فدَلَّ كلمةُ الظَّنِّ على التَّجْهِيلِ، واسمُ الإشارةِ على التبعيدِ، ووصفُ القيامةِ بيومٍ عظيمٍ، ثم إبداله بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِبِينَ﴾ على استعظامِ ما يَسْتَحْقِرُونَهُ وأنَّ الحِكْمَةَ اقْتَضَتْ أَنْ لا يَهْمَلُ ذَرَّةٌ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ

(١) «التبيان» (٢: ١٢٧٦).

ووصفه ذاته برب العالمين: بيانٌ بليغٌ لعظمِ الذنبِ وتفاقمِ الإثمِ في التطفيف، وفيما كان في مثلِ حاله من الحيفِ وتركِ القيامِ بالقسط، والعملِ على السويةِ والعدلِ في كلِّ أخذٍ وإعطاء، بل في كلِّ قولٍ وعملٍ، وقيل: الظنُّ بمعنى اليقين، والوجهُ ما ذُكِر؛

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٧﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وفي تخصيصِ ربِّ العالمين من بين سائرِ الصِّفاتِ إشعاراً بالمالكيةِ والتربيةِ^(١)، فلا يمتنعُ عليه الظالمُ القويُّ، ولا يتركُ حقَّ المظلومِ الضَّعيفِ. وليس ذلك كله لأجلِ التطفيف من حيث هو التطفيف، بل من حيث إن الميزانَ قانونَ العدلِ والاستقامة، وهو الحكمةُ في الخلقِ والتكليفِ والحشرِ والنشرِ، ومن تطفَّفَ حاولَ إبطالَ حكمةِ الله في الدارين. قال الإمام: «اعلم أن أمرَ المكيالِ والميزانِ عظيم، وبه قامتِ السمواتُ والأرضُ، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]، وقال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكُتُبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]^(٢)».

وعن بعضهم: الغرضُ من هذه التعظيياتِ كلها، تعظيمُ التطفيف من حيث إن الميزانَ قانونَ العدلِ، كما إذا قال الخالفُ: والله الطالبُ الغالبُ الحيُّ القيومُ الذي لا يخفى عليه شيءٌ لا أفعُل. هذا تعظيمٌ للمقسَم عليه لا تعظيمٌ للمقسَم به.

قوله: (وقيل: الظنُّ بمعنى اليقين، والوجهُ ما ذكر)، من أن المرادَ الإنكارُ والتعجبُ، وأن المعنى أتهم لا يُحطرونَ بياهم ولا يُحْمَنُونَ تخميناً أتهم مبعوثونَ ومحاسبونَ على مقدارِ الذرة، فإذا لا يدخلُ اليقينُ في المعنى. وعن بعضهم: أُلْحِقَ باحْسُ حقوقِ الناسِ بالكفارِ بقوله: ﴿أَلَّا يَظُنُّ﴾، كقوله تعالى حكايةً عن ظنهم: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجنابة: ٣٢]، بل جعلهم أسوأ حالاً من الكفار؛ لأنه أثبتَ للكفارَ ظناً ولم يُثبتْ لهؤلاء. وفي اسم الإشارةِ إشارةً إلى الشتيمة.

(١) لعل الصواب: الرئية.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٨٢).

وُنُصِبَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ بـ ﴿مَبْعُوثُونَ﴾. وقرئ: بالجِرِّ بدلاً من (يوم عظيم). وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. بكى حزناً وامتنع من قراءة ما بعده.

[﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ٧-٩].

﴿كَلَّا﴾ رَدَّعَهُمْ عما كانوا عليه من التطفيفِ والغفلةِ عن ذكرِ البعثِ واحسابِ. وَنَبَّهَهُمْ على أنه مما يجب أن يُتَابَ عنه ويندمَ عليه، ثم أتبعه وعيدَ الفجارِ على انعمومِ. وكتابُ الفجارِ: ما يكتبُ من أعمالهم.

فإن قلت: قد أخبر الله عن كتابِ الفجارِ بأنه في سِجِّين، وفُسِّرَ سِجِّيناً بكتابِ مرقوم؛ فكأنه قيل: إن كتابهم في كتابِ مرقوم. فما معناه؟

قلت: ﴿سِجِّين﴾ كتابٌ جامعٌ هو ديوانُ الشرِّ،

قوله: ﴿سِجِّين﴾: كتابٌ جامع، تلخيصُه ما قال الإمام: «وأيُّ استبعادٍ في كونِ أحدِ الكتائبِ في الآخر، إما بأن يوضعَ كتابُ الفُجَارِ في الكتابِ الذي هو الأصلُ المرجوعُ إليه في تفصيلِ أحوالِ الأشقياء، أو بأن يُنقلَ ما في كتابِ الفُجَارِ إلى ذلك الكتابِ المسمَّى بالسِّجِّين، قال القفال: «كتابٌ مرقوم»: ليسَ غيرَ السِّجِّين، والتقدير: كتابُ الفجارِ لفي سِجِّين، وإن كتابَ الفجارِ كتابٌ مرقوم، وقد وَصَفَ كتابَ الفُجَارِ بوصفَيْن، ويكونُ قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ اعتراضاً»^(١).

وقال الإمام: «وفيه وَجْهٌ آخرٌ، وهو أن يكونَ المرادُ من الكتابِ الكتابةَ، والمعنى: أن كتابَ الفُجَارِ، أي، كتابةَ أعمالهم في سِجِّين، ثم وَصَفَ السِّجِّينَ بأنه كتابٌ مرقومٌ فيه»^(٢) جميعُ أعمالِ الفُجَارِ»^(٣).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٨٥).

(٢) سقط قوله: «مرقوم فيه» من (ح)، (ف).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٨٥). وقوله: «بوصفين، ويكون»، إلى «جميع أعمال الفجار»، سقط من (ط).

دَوْنَ اللَّهِ فِيهِ أَعْمَالُ الشَّيَاطِينِ وَأَعْمَالُ الْكُفْرَةِ وَالْفُسْقَةِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَهُوَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ مَسْطُورٌ بَيْنَ الْكِتَابَةِ، أَوْ مَعْلَمٌ يَعْلَمُ مَنْ رَأَاهُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ مَا كُتِبَ مِنْ أَعْمَالِ الْفَجَّارِ مَثَبٌ فِي ذَلِكَ الدِّيْوَانِ، وَسُمِّيَ سَجِينًا: فِعْمَلًا مِنَ السَّجْنِ، وَهُوَ الْحَبْسُ وَالتَّضْيِيقُ، لِأَنَّهُ سَبَبُ الْحَبْسِ وَالتَّضْيِيقِ فِي جَهَنَّمَ، أَوْ لِأَنَّهُ مَطْرُوحٌ

وَرَوَى صَاحِبُ «الْكَشْفِ» عَنْ أَبِي عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَكْتَبُ مَرْتُومٌ﴾: خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مُضْمَرٌ، أَي: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ؟ كِتَابٌ، أَي: هُوَ كِتَابٌ، أَي: مَوْضِعُ كِتَابٍ، وَكَذَا «عَلِيُونَ»، هُوَ مَوْضِعُ كِتَابٍ، فَحُذِفَ الْمُبْتَدَأُ وَالْمُضَافُ جَمِيعًا، وَلَا بَدَأَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ ثَبَّتَ بِالذَّلِيلِ أَنَّ «عَلِيِينَ» مَكَانٌ.

رَوَيْنَا عَنِ التِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ مِنْ أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا»^(١). وَفِي لَفْظِ أَبِي دَاوُدَ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ عَلِيٍّ لَيُشْرَفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَتَضِيءُ الْجَنَّةُ بِوَجْهِهِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ»^(٢).

قَالَ صَاحِبُ «الْجَامِعِ»: «أَنْعَمَ فَلَانَ النَّظَرَ فِي الْأَمْرِ: إِذَا بَالِغٌ فِي تَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَزَادَ فِيهِ، وَأَحْسَنَ فَلَانَ إِلَيَّ وَأَنْعَمَ، أَي: أَفْضَلَ وَزَادَ فِي الْإِحْسَانِ، أَي: هُمَا مِنْهُمْ وَزَادَا فِي هَذَا الْأَمْرِ وَتَنَاهَيَا فِيهِ إِلَى غَايَتِهِ. وَالْكَوْكَبُ الدَّرِّيُّ هُوَ الْكَبِيرُ الْمُضِيءُ، كَأَنَّهُ نُسِبَ إِلَى الدَّرِّ تَشْبِيهًا»^(٣).

قَوْلُهُ: (أَوْ لِأَنَّهُ مَطْرُوحٌ)، وَجْهٌ آخَرٌ فِي تَعْلِيلِ التَّسْمِيَةِ، يَعْنِي: سُمِّيَ كِتَابُ الْفَجَّارِ سَجِينًا تَسْمِيَةً لِلْسَّبَبِ بِاسْمِ الْمَسَبِّبِ، أَوْ تَسْمِيَةً لِلْحَالِ بِاسْمِ الْمَحَلِّ. رَوَى الْوَاحِدِيُّ بِإِسْنَادِهِ، أَنَّ الْفَلَقَ: جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ مُغَطَّى، وَسَجِينٌ: جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ مَفْتُوحٌ^(٤).

(١) «سنن الترمذي» (٣٦٥٨)، وانظر: «جامع الأصول» (٦٤٥٦).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٣٩)، والحديث في «سنن أبي داود» (٣٩٨٧)، وانظر: «جامع الأصول» (٦٤٥٦).

(٣) «جامع الأصول» (٦٤٥٦) (٨: ٦٢٧).

(٤) انظر: «البيضاوي» (٢٣: ٣١٦، ٢٤: ٤٥٦) للواحدي.

كما روي تحت الأرض السابعة في مكانٍ وحشٍ مظلم، وهو مسكنُ إبليس وذريته استهانةً به وإذالة، وليشهدَه الشياطينُ المدحورون، كما يشهدُ ديوانُ الخيرِ الملائكةُ المقربون.

فإن قلت: فما «سجّين»، أصفةٌ هو أم اسم؟

قلت: بل هو اسمٌ عَلمٌ منقولٌ من وصفٍ كحاتم. وهو منصرفٌ لأنه ليس فيه إلا سببٌ واحدٌ وهو التعريف.

[﴿وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولَى * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ﴾ ١٠-١٧]

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ مما وصف به للذم لا للبيان،

قوله: (استهانةً به وإذالةً وليشهدَه الشياطينُ)، كلها مفعولٌ له لقوله: مطروحٌ، أتى باللام في الثالث^(١)، لأنه ليس فعلاً لفاعل الفعل المعلن. وقوله: «كما روي» مُعترِضٌ بين الظرفِ وعامله، وهو قوله: «تحت الأرض». والإذالة: الإهانة، وفي الحديث: نَهَى عن إذالةِ الحَيْلِ^(٢)، وهي امتهاؤها بالعملِ والحملُ عليها.

قوله: (المدحورون)، أي: المَبْعَدُونَ والمطرودون. الجوهري: «الدَّحُورُ: الطَّرْدُ والإبعاد».

قوله: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ مما وُصِفَ به للذم لا للبيان، يعني: ليس قوله: ﴿الذين يكذبون﴾ صفةٌ كاشفةٌ للمكذِّبين لكونهم معلومين، ولا هي فارقةٌ؛ لأنه لم يُرد تَمييزهم عن غيرهم. بل هو مرفوعٌ أو منصوبٌ على الذم. ويجوزُ أن يُبدَلَ لِنِطَاطٍ به قوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾، أي: متجاوزٍ عن النَّظَرِ. قال في «التقليد»: حينَ اسْتَفْصَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ فَأَعْلَمَهُ، فاستحالَ الإعادة. أَيْمٌ: مُنْهَمِكٌ في الشَّهَوَاتِ الخادعة، بحيثُ أشغَلَتْه عمَّا وراءها وحَمَلَتْه على الارتكابِ لما عداها. و﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولَى﴾: من قَرَطَ جَهْلُهُ وإِعْرَاضَهُ عن الحقِّ، فلا تنفَعُهُ شواهدُ النَّقْلِ كما لا تنفَعُهُ دلائلُ العقل.

(١) وهو قوله: «وليشهدَه».

(٢) انظر: «الموطأ» (١٣٤٤) للإمام مالك.

كقولك: فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث. ﴿كَلَّا﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن قوله: ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ رَكِبَهَا كما يَرَكِبُ الصَّدَأُ وغلَبَ عليها: وهو أن يُصِرَّ على الكبائرِ ويسوِّفَ التوبةَ حتى يطبعَ على قلبه، فلا يقبلُ الخيرَ ولا يميلُ إليه. وعن الحسن: الذنبُ بعد الذنبِ حتى يسودَّ القلب. يقال: رَانَ عليه الذنبُ وغانَ عليه، ريناً وغيناً، والغينُ: الغيم، ويقال: رَانَ فيه النومُ رسخ فيه، ورانتُ به الخمرُ: ذهبَتْ به. وقرئ: بإدغام اللامِ في الراءِ وبالإظهار، والإدغامُ أجود، وأميلت الألفَ وفُخِّمت. ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الكسبِ الرائنِ على قلوبِهِمْ. وكونُهُم محجوبين عنه: تمثيلٌ للاستخفافِ بهم وإهانتِهِمْ،

قوله: (رَدِعْ للمعتدي الأثيم عن قوله)، أي: قوله: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، قال الإمام: «ليس الأمر كما يقول من أن ذلك أساطير الأولين، بل أفعالهم الماضية صارت سبباً لحصول الدين في قلوبهم»^(١).

قوله: (الذنبُ بعد الذنبِ حتى يسودَّ القلب)، رَوينا عن الإمام أحمد بن حنبلٍ والترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ العبدَ إِذَا أخطأَ خطيئةً نُكِبَتْ فِي قلبِهِ نُكْبَةٌ سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستغفَرَ وتابَ صُقِلَ قلبُهُ، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلقَ قلبُهُ، وهو الرَانَ الذي ذكرَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾»^(٢).

قوله: (وقرئ بإدغام اللام في الراءِ)، أبو بكرٍ وحمزةٌ والكسائيُّ: ﴿بَلْ رَانَ﴾، بإمالة فتحِ الراءِ، والباقون: بتفخيمها، وحفصٌ: يَسْكُتُ على اللامِ من ﴿بَلْ﴾. قال الزجاج: «والإدغام في الراءِ أجودُ، لقُرب مَخْرَجِ اللامِ من الراءِ، ولغلبةِ الراءِ على اللامِ، وإظهارُ اللامِ جائزٌ؛ لأنَّ اللامَ مِن كلمةِ الراءِ مِن أُخرى»^(٣).

قوله: (وكونُهُم محجوبين عن ربِّهم)^(٤): تمثيلٌ للاستخفافِ بهم، أي: مُثِّلَتْ حالُهُم في إهانتِهِمْ

(١) «مفاتيح الغيب» (١٦: ٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والإمام أحمد (٧٩٥٢).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٢٩٩).

(٤) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «عنه».

لأنه لا يُؤدَّن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يُحجَّب عنهم إلا الأدياء المهانون عندهم. قال:

إِذَا اعْتَرَوْا بَابَ ذِي عُبَيْيَّةٍ رُجِبُوا
وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَرْجُوبٍ وَمَحْجُوبٍ

عند الله وإنزال الشُّخْط عليهم بحالٍ من يُحجَّب عن بعض السُّلاطين لذلك. «الانتصاف»: «هي عند أهل السنة على حقيقتها، وهي من أدلة الرؤية. لما خصَّ الله الكفار بالحجاب، دلَّ على أنه مرفوع عن الأبرار، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراك، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟^(١).

وقلت - والعلم عند الله - : وساعده النظم؛ لأن قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ﴾، مقابل لقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، والسَّجِينُ - كما فسره المصنَّف، وعليه أكثر المُفسِّرين - هو تحت الأرض السابعة، وهو مسكن إبليس ودُرِّيَّتِه، ولذلك قبل بقوله: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُفْرَبُونَ﴾، فيكون قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ على الأَرَاكِ يَنْظُرُونَ مقابلاً لقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ثم إنهم لصالوا الجحيم. وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ مطلق، ليس فيه أنهم يَنْظُرُونَ إلى ماذا، فدلَّ قوله: محجوبون عن ربهم، على أنهم غير محجوبين عنه. ويؤيده قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾؛ لأنه في معنى قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ﴿وَجْوهُهُمْ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ. وقوله: ﴿يُسْفُونَ مِنْ رَجِيحٍ مَخْحُومٍ﴾ إلى قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُفْرَبُونَ﴾؛ لأنه في معنى قوله: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. ورَوَى مُحِبِّي السَّنة أَنَّهُ سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: «لَمَّا حُجِبَ أَعْدَاؤُهُ فَلَمْ يَرَوْهُ تَحَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ حَتَّى رَأَوْهُ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: فِيهَا دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَرَوْنَ اللَّهَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: لَوْ عَلِمَ الزَّاهِدُونَ وَالْعَابِدُونَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْمَعَادِ لَزَهَقَتْ أَنْفُسُهُمْ فِي الدُّنْيَا»^(٢).

قوله: (إذا اعترؤا باب ذي عبية) البيت^(٣)، ذي عبية، أي: ذي كبر ونحوه، فعلية من

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٢٢)، و«الإنصاف» (ق ١٤٧) للعراقي.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٣٦٦).

(٣) لم أهد إلى قائله.

عن ابن عباسٍ وقتادةَ وابنِ أبي مليكة: محجوبين عن رحمته، وعن ابن كيسان: عن كرامته.

[﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ١٨-٢١]

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن التكذيب. وكتابُ الأبرار: ما كتبَ من أعمالهم. وعلِّيون: علمٌ لديوانِ الخيرِ الذي دُونَ فيه كُلُّ ما عملته الملائكةُ وصلاحُ الثقلين، منقولٌ من جمعِ (عليٍّ) فِعْعِلٌ من العلوِّ، كسجّين من السّجن، سُمي بذلك إمّا لأنه سببُ الارتفاعِ إلى أعالي الدرجاتِ في الجنة، وإمّا لأنه مرفوعٌ في السماءِ السابعةِ حيث يسكنُ الكروبيُّون، تكريمًا له وتعظيمًا. روي: «إن الملائكةَ لتصعدُ بعملِ العبدِ فيستقلُّونه، فإذا انتهوا به إلى ما شاء اللهُ من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفظةُ على عبدي وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وأنه أخلصَ عمله فاجعلوه في عليين،.....»

العُباب، وهو الارتفاع، أي: ذي تكبر، من قوله: صَلَوَاتُ اللهُ عَلَيْهِ: «يا أيُّها الناس، إن الله قد أذهبَ عنكم عبيةَ الجاهليةِ وتعاظمها». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عن ابنِ عمر^(١)، يقال: فلانٌ تعرُّوه الأضيافُ وتعتريه، أي: تغشاه، ويقال: رَجِبْتُهُ، بالكسر، أي: هبته وعظمتُه فهو مرجوبٌ بالجيم، وبه سُمِّي رَجِبٌ؛ لأنهم كانوا يُعظموه. ومعنى قوله: «الناسُ من بينِ مرجوبٍ ومحبوبٍ»، أي: يُؤدَّنُ على الملوكِ الوجهاءِ المكرمونَ، ويُحجَّبُ عنهم الأذنياءُ المهائون.

قوله: (وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة)، الراغب: «قيل: عِلِّيُّونَ: اسمُ أشرفِ الجنان، كما أن سَجِّينَ: اسمُ شرِّ النيران. وقيل: بل ذلك في الحقيقة اسمُ سُكَّانها، وهذا أقربُ في العربيةِ إذ كان هذا الجمعُ يَخْتَصُّ بالناطقين. قال: والواحدُ عليٌّ نحو بطيخ، ومعناه: فإن الأبرارَ في جملةِ هؤلاء، فيكونُ ذلك كقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩]»^(٢).

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٣٩٥٥).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٥٨٣، ٥٨٤.

فقد غفرتُ له؛ وإنما لتصعدُ بعمل العبد فيزكو به، فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظةُ على عبادي وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين».

[إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ * خَتَمَهُمْ مَسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمَرْاجِعُهُمْ مِنَ التَّسْنِيمِ * عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ] ﴿٢٢-٢٨﴾.

﴿الْأَرَائِكِ﴾ الأسيرةُ في الحجال، ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما شاؤوا مدَّ أعينهم إليه من مناظر الجنة، وإلى ما أولاهمُ الله من النعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يُعذبون في النار، وما تحجبُ الحجالُ أبصارهم عن الإدراك، ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التنعيم وماءه ورواقه،

قوله: (الأسيرة^(١) في الحجال)، الجوهري: «الحجالة، بالتحريك: واحدٌ حجال العروس، وهو بيتٌ يُزَيَّنُ بالثياب والأسيرة والستور». وعن بعضهم: لا يقال: أريكةٌ إلا للسري الذي يكون في الكيلة، أو شيءٌ يكون في الكيلة، والكيلة: الستر الرقيق.

قوله: (وما تحجبُ الحجالُ أبصارهم)، يُنظرُ إلى معنى ما سبق في من يصادهم: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فيقال: إذا لم يمنع الحجالُ أبصارهم عما يُستبعدُ في المشاهد بل يستحيل، وهو أن ينظروا إلى جميع ما أولاهمُ الله من النعمة والكرامة من مسافة في غاية البعد مع مانع الحجاب، وإلى أعدائهم يُعذبون في النار، فأبيُّ بعد في أن ينظروا إلى ما هو المقصدُ الأسنى؟

روينا عن الإمام أحمد بن حنبلٍ والثرمذي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً لمن ينظرُ إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمته وسريره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظرُ إلى وجهه غدوةً وعشيّةً»^(٢)، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَجْهًا يُؤْمَرُ نَاضِرًا * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرًا﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

(١) في (ف): «الاسترة».

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٣٣٣٠)، و«مسند الإمام أحمد» (٥٣١٧).

كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه، وقرئ: (تُعرف) على البناء للمفعول، (ونَضْرُهُ النعيم) بالرفع. «الرحيق»: الشراب الخالص الذي لا غش فيه ﴿مَخْتُومٌ﴾ تَخْتُمُ أوانيه من الأكوابِ والأباريقِ بمسكٍ مكان الطينة. وقيل ﴿خِتْمُهُ مِسْكٌ﴾ مقطعه رائحة مسكٍ إذا شرب. وقيل: يمزج بالكافور، ويختم مزاجه بالمسك. وقرئ: (خاتمه)،

ورَوَى السَّلْمِيُّ عن ابنِ عطاء: «على أرائكِ المعرفة ينظرون إلى المعروف، وعلى أرائكِ القربة ينظرون إلى الرءوف. وقال جعفر في قوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾: تبقى لذة النظر تتلألأ مثل الشمس في وجوههم. وقال الجريري في ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُعْرِثُونَ﴾: يشربون صرْفاً على بساطِ القربِ في مجلس الأُنس، وفي رياضِ القُدس، بكأسِ الرضا على مُشاهدةِ الحق»^(١).

قوله: (وقرئ: «خاتمه»)، الكسائي، والباقون: ﴿خِتْمُهُ﴾، وقراءة الكسائي تؤيد تفسير القفال على ما رواه الإمام عنه، أنه قال: «يحتمل أن هؤلاء يسقون من شراب مختوم، قد ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرث به العادة من ختم ما يكرّم ويصان. ويفهم منه أن هناك خمراً تجري منها أنهار كما قال: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، إلا أن هذا المختوم أشرف من الجاري»^(٢).

وقلت: ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَسَقَمُهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، وأن الساقى إذا كان ملكاً كان الشراب مصوناً مختوماً، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾. ويمكن أن يقال: إن قوله: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِينٍ﴾، عطف على قوله: ﴿خِتْمُهُ مِسْكٌ﴾. والتسنيم هو المعنى بالشراب الذي هو أرفع شراب في الجنة. وقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ في حكم المتأخر، قدّم لكان العناية بشأنه. قال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]: مستثنى من قوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ

(١) انظر: «حقائق التفسير» (٢: ٣٨١-٣٨٢) بتصرف.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٩٠).

بفتح التاء وكسرهما، أي: ما يُحْتَمُّ به ويُقَطَع ﴿فَلَيْتَنَافِسَ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليرتغبِ المرغبون. ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عَلَّمَ لَعَيْنٍ بعينها: سُمِّيت بالتسنيمة الذي هو مصدرٌ سَنَمَهُ إذا رَفَعَهُ: إمّا لأنها أرفعُ شرابٍ في الجنة، وإمّا لأنها تأتيهم من فوق، على ما رُوِيَ أنها تجري في الهواء مُتَسَنِمَةً فتَنصَّبُ في أوانيهم. و﴿عَيْنًا﴾ نُصِبَ على المدح. وقال الزجاج: نُصِبَ على الحال، وقيل: هي للمقرئين، يَشْرَبونها صِرْفًا، وتُزجُّ لسائر أهل الجنة.

وَمِنْهُ فَلَيْسَ مِثِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِثِّي، والجملَةُ الثانيةُ في حُكْمِ المتأخِّرةِ، إلا أنها قُدِّمَتْ للعناية، كما قُدِّمَ ﴿وَالصَّادِقُونَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقُونَ وَالصَّادِقُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] (١)، وإمّا قلنا: إنه في حُكْمِ المتأخِّرةِ لأنَّ المشارَ إليه بذلك جميعُ ما سَبَقَ من قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ ﴿إِلَى آخِرِهِ﴾.

وفائدةُ التقديمِ: الترغيبُ والحثُّ على التَّحَرِّيِ والاجتهادِ وإثارةِ (٢) ذلك على طلبِ العاجلةِ والمسابقةِ فيه، ولذلك قُدِّمَ الظرفُ، أي: وفي ذلك وحُصِّصَ التنافسُ مع بناءِ التفاعلِ. النِّهايةُ: «التنافسُ من المنافسة، وهي الرِّغبةُ في الشيء والانفرادُ به، وهو من الشيء النَّفِيسِ الجيِّدِ في نفسه، ونافستَ في الشيء منافسةً ونفاساً: إذا رَغِبْتَ فيه». وقال بعضهم: ارتغَبَ وتراعَبَ بمعنى إلا أن ارتغَبَ أكثر. وقلتُ: الفاءُ في ﴿فَلَيْتَنَافِسَ﴾ جوابُ شرطٍ محذوف، أي: وما كان فليتنافسِ المتنافسونَ في ذلك، فُقِّدَ الظرفُ للاهتمام، ويجوزُ أن يُقدَّرَ: وفي ذلك: ليتنافسِ فليتنافسَ، وعلى الأولِ وَرَدَ قوله: ﴿إِلَّا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ * إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فليعبُدُوا ﴿[قريش: ١-٣]، وعلى الثاني قوله: ﴿فِي ذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

قوله: (نصب على الحال)، أي: جارياً، وذو الحال: تسنيمة، وهو عَلَّمَ للماء. وقيل: يَشْرَبُ بها، الباءُ زائدةٌ، وقيل: ظرفٌ، وقيل: بمعنى «من».

(١) انظر: (٣: ٤٦٧)؛ في تفسير الآية (٢٤٩) من سورة البقرة.

(٢) في (ف): «وليتان».

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ * وَإِذَا أَنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [٢٩-٣٣].

هم مشركو مكة: أبو جهل والوليدُ بنُ المغيرة والعاصُ بنُ وائلٍ وأشياعهم، كانوا يضحكون من عمارٍ وصهيبٍ وخَبَّابٍ وبلالٍ وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزؤون بهم. وقيل: جاء عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في نفرٍ من المسلمين فسخرَ منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رَجَعُوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليومَ الأصلعَ فضحكوا منه، فنزلت قبل أن يصلَ عليُّ إلى رسولِ الله ﷺ. ﴿يَتَغَامِرُونَ﴾ يغمزُ بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. ﴿فَكِهِينَ﴾ ملتذين بذكرهم والسخرية منهم، أي: ينسبون المسلمين إلى الضلال. ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ على المسلمين،

قوله: (رأينا اليومَ الأصلعَ)، وفي النسخ المعتمدة: رأينا اليومَ، أي: رأينا^(١) اليومَ الأصلعَ، مرفوعاً.

قوله: ﴿فَكِهِينَ﴾ قراءةٌ حَفْصَ، والباقون: فاكهين^(٢).

قوله: (أي: ينسبونَ المسلمينَ إلى الضلالِ)، قال الإمامُ: «أي: هم على ضلالٍ في تركِ التَّعَمُّ الحاضرِ بسببِ طلبِ ثوابٍ لا يُدرى هل له وجودٌ أم لا. ومعنى ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾: أن الله لم يبعثِ الكفارَ رُقباءَ على المؤمنينَ يحفظونَ عملهمَ عليهم، ويتفقدون ما يصنعونه فيعيون عليهم ما يعتقدونه ويُسمونهم. ضاللاً. ويعضده قوله تعالى: ﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَآئِكِ يُنظُرُونَ﴾، أي: ينظرون إلى جميع ما أولاهمُ اللهُ مَنْ

(١) في (ط)، (ف): «بأسنا»، و«رئنا» - كما في «روح المعاني» (١٥: ٢٨٤) - بمعنى: سيدنا؛ يعنون علينا كرم الله وجهه؛ وإنما قالوه استهزاءً.

(٢) هما لغتان مثل: طامعين وطمعين، وباخلين وبخلين. ومعنى «فاكهين»: معجبين بها هم فيه، يتفكحون بذكر أصحابِ محمد ﷺ. انظر «حجة القراءات»، ص ٧٥٥.

﴿حَافِظِينَ﴾ موكِّلين بهم يَحْفَظُونَ عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم، ويشهدون برشدِهِم وضلالِهِم؛ وهذا تهكم بهم. أو هو من جملة قول الكفار، وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا: إن هؤلاء لضالون؛ وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدِّهم إياهم عن الشرك، ودعائهم إلى الإسلام وجدِّهم في ذلك.

[﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ * هَلْ تُؤَبَّ الْأَكْفَارُ مَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٣٤ - ٣٦]

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ﴾ حال من ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: يَضْحَكُونَ منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوانِ والصَّغارِ بعد العِزَّةِ والكِبَرِ، ومن ألوانِ العذابِ بعد النعيمِ والترُّفِّهِم وهم على الأرائكِ آمنون. وقيل: يُفْتَحُ للكفارِ بابٌ إلى الجنةِ فيقال لهم: اخرجوا إليها؛ فإذا وصلوا إليها أُغْلِقَ دوائِبُهُم، يُفْعَلُ ذلك بهم مراراً، فيضحكُ المؤمنون منهم. (توبه) و(أثابه) بمعنى،

النَّعْمَةِ وَالْكَرَامَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى أَعْدَائِهِمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ، وَإِلَى مَا أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ التَّرْفَةَ^(١) وَالتَّنَعَّمَ بِتِلْكَ النَّعْمِ مِنَ الْعِقَابِ السَّرْمَدِيَّةِ، وَيُقَالُ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَلْ جَازَيْنَا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ عَلَى عَمَلِهِمْ، لَا سِيَّامَا عَلَى مَا كَانُوا يَضْحَكُونَ مِنْكُمْ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِطَرِيقَتِكُمْ، كَمَا جَازَيْنَاكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةَ مَزِيداً لِسُرُورِهِمْ وَتَبَجُّحِهِمْ، وَتَشْوِيرَ لَأَعْدَائِهِمْ وَتَشْمِيتاً بِهِمْ؟^(٢)

قوله: «(توبه) و(أثابه) بمعنى»، عن المبرِّد: تَوَبَّ: فَعَّلَ، مِنَ الثَّوَابِ، أَي: رَجَعَ إِلَى فَاعِلِهِ جِزَاءً مَا عَمِلَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَالثَّوَابُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمُكَافَأَةِ مُطْلَقاً. قَالَ الْإِمَامُ: وَالْأَوَّلَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى التَّهْكُمِ^(٣).

(١) في (ط): «الشرف».

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٩٢-٩٣) بتصرف.

(٣) المصدر السابق (٣١: ٩٣).

إذا جازاه قال أوس:

سَأَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مُثَوِّبٌ وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكَ وَتُحَمِّدِي
وقرئ بإدغام اللام في الثاء.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «المطففين» سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتومِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله: (سَأَجْزِيكَ) البيت^(١)، يُخَاطَبُ الشاعِرُ محبوبته، وهي سليمة بنتُ فضالة.
قوله: (بإدغام اللام في الثاء)، حمزة والكسائي وهشام^(٢).

تَمَّتِ السُّورَةُ



(١) لأوس بن حجر، انظر: «ديوانه»، ص ٢٧.

(٢) قال أبو علي: إدغام اللام في الثاء في الآية: «هَلْ تُؤَبِّ» حَسَنٌ، وإن كان دون إدغام اللام في الراء في الحُسْنِ لتقاربهما؛ وإنما جاز إدغامها فيها، لأنها قد أدغمت في الشين في قول الشاعر: «هَثْيِي بِكْفَيْتِ لَاتِي»، والشين أشدُّ تراخيًّا عنها من الثاء. انظر: «الحجّة للقراء السبعة» (٦: ٣٨٩)، و«الكتاب» (٤: ٤٥٩) لسيبويه.

سورة ﴿أَنْشَقَّتْ﴾

مكية، وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَخَلَتْ * وَأَذِنَتْ

لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ١-٥]

حُذِفَ جَوَابُ (إِذَا) لِيَذْهَبَ الْمَقْدَرُ كُلُّ مَذْهَبٍ، أَوْ اِكْتِفَاءً بِمَا عَلِمَ فِي مِثْلِهَا مِنْ
سُورَتِي التَّكْوِينِ وَالْإِنْفِطَارِ. وَقِيلَ: جَوَابُهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿فَمُلْقِيهِ﴾.....

سورة الانشقاق

خمس وعشرون آية، مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (جوابها ما دلَّ عليه ﴿فَمُلْقِيهِ﴾)، قال الإمام: «فعلى هذا قوله: ﴿يَأْتِيهَا
الْإِنْسَانُ﴾ مُعْتَرِضٌ، وَهُوَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: إِذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، تَرَى عِنْدَ ذَلِكَ
مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، أَي: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِقَى الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ»^(٢).

(١) في (ط): «سورة ﴿أَنْشَقَّتْ﴾، مكية، وهي ثلاث وعشرون آية»، والأول على عدِّ المكيين والمدنيين
والكوفيين، وهذا على عدِّ البصريين والشاميين. انظر: «البيان» للداني ص ٢٦٨.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٩٥).

أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كذحه. ومعناه: إذا انشقت بالغمام، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وعن علي رضي الله عنه: تنشق من المجرة. أذن له: استمع له. ومنه قوله عليه السلام: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبى يتغنى بالقرآن»، وقول حجاج بن حكيم:

أَذْنْتُ لَكُمْ لَمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ

والمعنى: أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع،

قوله: (ومعناه: إذا انشقت بالغمام)، عن بعضهم: نظيره: انشق الأرض بالنبات، والباء للدلالة، ويكون في ذلك الغمام ملائكة العذاب، وكان ذلك أشد وأقطع، حيث جاء العذاب من موضع الخير، وقلت: والأظهر أن يراد أن الملائكة ينزلون وبأيديهم صحائف الأعمال، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ بِرَيْبِهِ﴾.

قوله: (تنشق من المجرة)، الجوهري: «المجرة: التي في السماء، سُميت بذلك لأنها كائِر المجر». قال ابن قتيبة في كتاب «الأنواء»: «المجرة: شرج السماء كشرح القبة، وهي: ما يرى في الشتاء أول الليل في ناحية السماء، وفي الصيف في أول الليل في وسط السماء، تنتقل في آخر الليل في غير موضعها، ويقال إن النجوم تقاربت في المجرة فطمس بعضهم فصارت كأنها سحائب»^(١).

قوله: (ما أذن الله لنبى^(٢))، الحديث. رواه الشيخان وأبو داود والدارمي والنسائي^(٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. ومعناه: ما استمع إلى شيء كاستماعه إلى صوت نبى قرأ الكتاب المنزل عليه، أي: لا يعتد لشيء كاعتداده إلى هذا.

قوله: (والمعنى: أنها فعلت في انقيادها)، يريد: أن إذن السماء للانشقاق تمثيل، على

(١) «الأنواء» لابن قتيبة، ص ١٢٣، ١٢٤ بتصرف.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي الحديث: «لشيء»، وكذا هو في «الكشاف».

(٣) البخاري (٧٤٨٢) ومسلم (٧٩٢). وانظر: «سنن النسائي» (١٠١٧)، وأبي داود (١٤٧٣)، والدارمي (٣٤٩٧).

الذي إذا وردَ عليه الأمرُ من جهةِ المطاعِ أنصتَ له وأذعنَ ولم يَأبَ ولم يَمْتنع، كقوله: ﴿أَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. ﴿وَحَقَّتْ﴾ من قولك هو محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، يعني: وهي حقيقةٌ بأن تنقادَ ولا تَمتنع، ومعناه الإيدانُ بأنَّ القادرَ الذاتِ يجبُ أن يتأتى له كلُّ مقدورٍ ويحقُّ ذلك. ﴿مُدَّتْ﴾ من مَدَّ الشيءَ فامتدَّ: وهو أن تزالَ جبالها وأكامها وكلُّ أمتٍ فيها، حتى تمتدَّ وتنسبطَ ويستويَ ظهرها، كما قال تعالى: ﴿فَاعَاصَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]، وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: مُدَّتْ مَدَّ الأديمِ العكاظي؛ لأنَّ الأديمَ إذا مُدَّ زالَ انثناءُ فيه وأمَّتْ واستوى، أو من مَدَّه بمعنى أمده، أي: زيدتُ سعةً وبَسطةً. ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ورَمَتْ بها في جوفِها مما دُفِنَ فيها من الموتى والكنوز، ﴿وَمَحَلَّتْ﴾ وخلتُ غايةَ الخلوِّ حتى لم يبقَ شيءٌ في باطنِها،

منوالِ قوله: ﴿قَالَتَا أَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. قال الإمامُ: «المعنى: لم يوجد في جِزْمِ السماءِ ما يَمنعُ من تأثيرِ قُدرةِ الله في شَقِّها وتفريقِ أجزائها، فكانت في قبُولِ ذلك التأثيرِ كالعبدِ الطائعِ؛ إذا وَرَدَ عليه الأمرُ من جهةِ مالكِه أذعنَ ولم يمتنع لذلك»^(١). قوله: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾، يدلُّ على نفوذِ القُدرةِ في التفريقِ والإعدامِ والإفناءِ من غيرِ ممانعةٍ أصلاً.

قوله: (بأنَّ القادرَ الذاتِ)، الانتصاف: «ما باله لا يقول: الذي عمَّت قُدْرته الكائنات، فثبتُ لله تعالى صفةُ الكمالِ؟ وإنما قوله: القادرُ الذاتُ مَبْلٌ إلى البدعة»^(٢).

قوله: (وكلُّ أمتٍ)، الجوهرية: «الأمتُ: المكانُ المرتفع. والأمتُ التَّلألُ الصُّغار».

قوله: (العكاظي)، النّهاية: «العكاظ»^(٣): موضعٌ بقُربِ مكّةَ كانت تُقامُ بها في الجاهليّةِ سُوقٌ يُقيمونَ فيها أياماً».

(١) «مفاتيح الغيب» (٣: ٩٤).

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٢٥)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٧) للعراقي، وفيه كذلك:

«مبلى إلى البدعة والمعتزلة والاعتزال».

(٣) سقط لفظ «العكاظ» من (ح)، (ف).

كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرمّ الكريم، وترحمّ الرحيم: إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة، وتكلّفا فوق ما في طبيعتهما. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخليها.

[﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِيهِ﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، بِبَيْمِينِهِ، * فَسَوْفَ يَحْسَابُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ، مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ، * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ، كَانَ فِي أَهْلِهِ، مَسْرُورًا * إِنَّهُ، ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ، كَانَ بِهِ، بَصِيرًا﴾ [١٥-٦]

الكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلدته: إذا خدشه ومعنى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ جاهد إلى لقاء ربك، وهو الموت وما بعده من الحال المثلثة باللقاء ﴿فَمُلْئِقِيهِ﴾ فملاق له لا محالة لا مفرّ لك منه، وقيل: الضمير في (ملاقية) للكدح (يسيراً)، سهلاً هيناً لا يناقش فيه ولا يعترض بها يسوؤه ويشق عليه،

قوله: (الكدح: جهد النفس في العمل)، الراغب: «الكدح: السعي والعناء»^(١)، قد يستعمل استعمال الكدح في الأسنان. قال الخليل: الكدح دون الكدم»^(٢).

قوله: (من الحال المثلثة باللقاء)، قال في العنكبوت: «لقاء الله مثل للوصول إلى العاقبة، من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء. مثلت تلك الحال، بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد اطلع مولاة على ما كان يأتي ويدّر، فإما أن يلقاه بشير وترحيب لما رضي من أفعاله، أو بضد ذلك لما سخط منها»^(٣).

قوله: (وقيل: الضمير في «ملاقية» للكدح)، وهو على تقدير حذف مضاف، أي: فملاق جزاء كدحك من خير وشر، وعلى هذا قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ﴾ إلى آخره تفصيلاً له،

(١) في (ط): «الفناء».

(٢) «مفردات القرآن» للراغب، ص ٧٠٤.

(٣) انظر: (١٢: ١٣٦-١٣٧)؛ في تفسير الآية (٥) من سورة العنكبوت.

كما يُناقش أصحابُ الشمال. وعن عائشة رضي الله عنها: هو أن يُعرَفَ ذنوبه، ثم يُتجاوزَ عنه. وعن النبي ﷺ أنه قال: «من يُحاسبُ يعذبُ، فقليلٌ يا رسولَ الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾. قال ذلكم العَرَضُ، مَنْ نوقشَ في الحِسابِ عُدْبٌ. ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو إلى فريقِ المؤمنين، أو إلى أهله في الجنة من الحُورِ العين. ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تُغلُّ يمناه إلى عُنُقِهِ، وتجعلُ شماله وراءَ ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. وقيل تُخلعُ يده اليسرى من وراء ظهره، ﴿يَدْعُوا بُورًا﴾ يقول: يا بُوراه. والْبُورُ: الهلاك.

كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا تَبِيتُكُمْ مَنِ هُدَىٰ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨] إلى آخره. وعلى الأول الضمير: لله عزَّ وجل، أي: إئتِكَ عاملٌ باجتهادٍ إلى وقتِ الموتِ فمُلاقٍ ربِّكَ. قال الإمام: «وفي الآية نُكتةٌ لطيفة، وهي أنها تدلُّ على وجوبِ انتهاءِ الكدحِ والتعبِ للمؤمنِ بانتهاءِ هذه الحياةِ الدنيوية، ويحصلُ بعد ذلك مُحضُّ سعادةِ الأبدية» (١).

وقلت: ومن ثم قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

قوله: (من يحاسبُ يُعذبُ)، الحديث من رواية الشيخين والترمذي وأبي داود، عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «ليس أحدٌ يُحاسبُ إلا هلك»، قلت: يا رسولَ الله، جعلني الله فداءك، أليس الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَرَ كَنَبَهُ، بِمِيزَانِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ذلك العَرَضُ يُعَرِّضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسابَ هَلَكَ» (٢).

النهاية: «نوقشَ»، أي: من استقصيَ في محاسبته وحوقوق. وأصلُ المناقشةِ من نقشِ الشوكة إذا استخرَجَها من جسمه، وقد نقشها وانتقشها.

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)، والترمذي (٣٣٣٧)، وأبو داود (٣٠٩٣).

وقرى: (وَيُصَلِّي سَعِيرًا)، كقوله: ﴿وَتَصَلِّيَةٌ جَمِيمٌ﴾ [الواقعة: ٩٤]، وَيُصَلِّي: بضم الياء والتخفيف، كقوله: ﴿وَتُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿فِي أَهْلِهِ﴾ فيما بين ظهرانيهم، أو معهم، على أنهم كانوا جميعاً مسرورين، يعني: أنه كان في الدنيا مترفاً بطراً مستبشراً كعادة الفجار الذين لا يهتمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب. ولم يكن كثيراً حزيناً متفكراً كعادة الصالحاء والمتقين وحكاية الله عنهم ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]. ﴿ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحْمُورَ﴾ لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً بالمعاد. يقال: لا يحور ولا يحول، أي: لا يرجع ولا يتغير. قال لبيد:

يَحْمُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

قوله: (وقرى: «وَيُصَلِّي سَعِيرًا»)، أبو عمرو وعاصمٌ وحزمة: بفتح الياء وإسكان الصاد مخففاً، والباقون: بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام^(١).

قوله: (مترفاً)، الجوهري: «أترفته النعمة: أطعته».

قوله: (وحكاية الله)، بالجر: عطف على عادة الصالحاء، أي: ولم يكن كثيراً حزيناً كما حكى الله عنهم، أي^(٢): عن المتقين.

قوله: (يحور رماداً بعد إذ هو ساطع)، أوله:

وما المرء إلا كالشهابِ وضمونه^(٣)

(١) حجة من قرأ بالتخفيف، إجماعهم على قوله: ﴿يُصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الاعلى: ٢١]، و﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَمِيمِ﴾ [الصفات: ١٦٣]؛ فرد ما اختلفوا فيه على ما أجمعوا عليه أولى. وحجة القراءة بالتشديد، قوله: ﴿تُرْجَى الْجَمِيمِ﴾ [الحاقة: ٣١]. ومعنى: «يُصَلِّي»: يصير إلى النار، ومعنى «يُصَلِّي»: الملائكة يصلونه بحر النار.

انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٥٥، ٧٥٦.

(٢) من قوله: «وحكاية الله بالجر» إلى هنا، سقط (ف).

(٣) البيت للبيد من قصيدة مطلعها:

بليتنا وما تبلى النجوم الطوالعُ وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ

انظر: «ديوانه» ص ١٦٩.

وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنيها: حوري، أي: ارجعي. ﴿بَلَّغْ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿لَنْ يَحُورَ﴾ أي: بلى ليحورن، ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه، فلا بد أن يرجعه ويحازه عليها. وقيل: نزلت الآيتان في أبي سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد.

[﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

[١٩-١٦]

الشَّفَق: الحمرة التي تُرى في المغرب بعد سقوط الشمس، وسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه في إحدى الروايتين: أنه البياض. وروى أسد بن عمرو: أنه رجع عنه، سُمي لرقته، ومنه الشفقة على الإنسان: رقة القلب عليه، ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمع وضم،

يقال: شهاب ساطع، أي: مرتفع مُلتهب.

قوله: (في أبي سلمة بن عبد الأشد)، في «الكشاف»: الأشد بالشين المعجمة. وفي «جامع الأصول»: بالشين المهملة. «هو أبو سلمة عبد الله بن [عبد] (١) الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي، ابن عمّة النبي ﷺ، وكان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ» (٢).

قوله: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾، وما جمع، الراغب: «الوسق: جمع المتفرق، وسُمي قدر معلوم من الحمل كخول البعير: وسقا، وقيل: هو ستون صاعاً. قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، قيل: وما جمع من الظلام، وقيل: عبارة عن طوارق الليل. والوسيقة: الإبل المجموعة، والاتساق: الاجتماع والاطراد» (٣).

(١) سقط لفظ «عبد» من (ح)، (ف).

(٢) «جامع الأصول» (١٢: ٥٧٨).

(٣) «مفردات القرآن» للراغب، ص ٨٧١.

يقال: وَسَقَهُ فَاتَّسَقَ واستوسق. قال:

مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَّ سَائِقًا

ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين: اتسع واستوسع. ومعناه: وما جمعه
وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها. ﴿إِذَا أَسَقَ﴾ إذا اجتمع واستوى ليلة أربع
عشرة. قرئ: (لَتَرْكَبَنَّ) على خطاب الإنسان في ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾، و﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾،
بالضم على خطاب الجنس،

قوله: (مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَّ سَائِقًا)، أول الرجز في «المطلع»:
إِنَّ لَنَا فَلَائِصًا نَقَانِيقًا^(١)

النَّقِيقُ: الظَّلِيمُ، وَهُوَ ذَكَرُ النَّعَامِ.

قوله: (و﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾، بالضم: على خطاب الجنس)، الكسائي وابن كثير وحمزة: على الخطاب،
والباقون: بضم الباء الموحدة، وبكسر الباء: شاذ، قال محيي السنة: «لَتَرْكَبَنَّ بفتح الباء: خطاب
لرسول الله ﷺ. قال الشعبي رحمه الله ومجاهد: سماء بعد سماء. قال الكلبي: يعني تصعد
فيها ويحور درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله والرفعة»^(٢). وقال صاحب
«الكشف»: «عن» بمعنى «بعد»، كقولهم: سادوك كابرأ عن كابر، أي: بعد كابر، قال الذبياني:

بِقِيَّةٍ قَدِيرٍ مِّنْ قَدِيرٍ تُورَثُ لَأَلِ الْجَلَّاحِ كَابِرًا بَعْدَ كَابِرٍ^{(٣)(٤)}

(١) البيت من الرجز، وهو مما ينسب إلى العجاج، انظر: «مجموع أشعار العرب» (٢: ٨٤)، و«لسان العرب»
(مادة: وسق).

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٣٧٥).

(٣) انظر: «ديوانه»، بشرح عباس عبد الساتر، ص ٤٣.

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٤٤).

لأن النداء للجنس؛ ولتركيب بالكسر على خطاب النفس، ولتركيب بالياء على: ليركب الإنسان. والطبق: ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا، أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء الطبق. وإطباق الثرى: ما تطابق منه، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها: طبق.

وفي «التيسير»: عن ابن عباس وابن مسعود: أي: لتركيب يا محمد أطباق السماء ليلة الإسراء، وهي إشارة بالمعراج. وقال الإمام: وذلك بشارة لرسول الله ﷺ بصعوده إلى السموات لمشاهدة ملكوتها وإجلال الملائكة إياه فيها، قال الله تعالى: ﴿سَمِعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾ [الملك: ٣، نوح: ١٥]، وهو مروى عن ابن عباس وابن مسعود؛ فقولُه: «عن طبق»، أي: «بعد طبق»^(١)، قال:

ما زلتُ أقطع منهلًا عن منهلٍ حتى أنختُ بيبابِ عبد الواحدِ^(٢)

وقلت: ويؤيد هذا الوجه التوكيد بالجملة القسمية، والتعقيب بالإنكارية بقوله ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟، وقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾.

قوله: (والطبق: ما طابق غيره)، الراغب: «المطابقة من الأسماء المتضافية، وهو أن تجعل الشيء فوق آخر بقدره، ومنه: طابقت النعل. ثم يستعمل الطباق فيما يكون فوق الآخر تارة، وفيما يوافق غيره تارة، كسائر الأشياء الموضوعية لمعنيين، ثم يستعمل لأحدهما بدون الآخر كالكأس والزاوية ونحوهما، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، و^(٣) قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾، أي: يترقى منزلاً عن منزل، وذلك إشارة إلى أحوال الإنسان من ترقيه في أحوال شتى في الدنيا، نحو ما أشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [فاطر: ١١]، وأحوال شتى في الآخرة من النشور والبعث والحساب وجواز الصراط، إلى حين المستقر إلى أحد الدارين».

(١) «مفاتيح الغيب» (١٠١: ٣١) بتصرف.

(٢) لم أهتم إلى قائله.

(٣) من قوله «ثم يستعمل لأحدهما» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح)، (ف).

ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي حالاً بعد حال: كلُّ واحدةٍ مطابقةٌ لأختِها في الشدّةِ والهولِ، ويجوزُ أن يكونَ جمعَ طبقَةٍ وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقاتٍ، ومنه: طَبَّقَ الظهْرَ لفقاره. الواحدة: طبّقة، على معنى: لتركبنَّ أحوالاً بعد أحوالٍ، هي طبقاتٌ في الشدّةِ بعضُها أرفعُ من بعضٍ، وهي الموتُ وما بعده من موطنِ القيامةِ وأهوالِها. فإن قلتَ: ما محلُّ عن طبقٍ؟

قلتُ: النصبُ على أنه صفةٌ لـ (طبقاً)، أي: طبقاً مجاوزاً لطبقٍ، أو حالٌ من الضميرِ في لتركبنَّ، أي: لتركبنَّ طبقاً مجاوزين لطبقٍ أو مجاوزاً أو مجاوزة، على حسبِ القراءة. وعن مكحول: كلُّ عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه.

[﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٢٥-٢٠]

قوله: (وهي الموتُ وما بعده)، هذا هو الذي يقتضيه النظمُ وترتّبُ الفاءِ في ﴿فَلَا أُقْسِدُ﴾ على قوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ رُبِّهَ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥].

قوله: (على حسبِ القراءة)، يعني في ﴿لَتَرْكِبْنَ﴾ من الضمِّ والفتحِ والكسْرِ، فقوله: ﴿مُجَاوِزِينَ﴾ على قراءةِ الضمِّ، والخطابُ للجنسِ، وقوله: «مُجَاوِزًا» على قراءةِ الباءِ بالفتحِ؛ على أن الخطابَ للرّسولِ ﷺ، و﴿لَتَرْكِبْنَ﴾ بالياءِ كذلك، وقوله: (مُجَاوِزَةً) بكسرِ الواوِ، على أن ﴿لَتَرْكِبْنَ﴾ بكسرِ الباءِ، والخطابُ للنفسِ^(١).

قوله: (تجدون أمراً لم تكونوا عليه)، يجدون: بفتحِ الباءِ وكسرِ الجيمِ والدالِّ مخففةً، ويُروى: «مُجِدُونَ»، بضمِّ التاءِ الفوقانيةِ وكسرِ الجيمِ والدالِّ مُشدّدةً، من: أجده، أي: جعله جديداً. الجوهري: «تجدد الشيء صارَ جديداً، وأجده وجدده واستجدّه: صيّرهُ جديداً».

(١) «مفردات القرآن»، ص ٥١٦.

﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يَسْتَكِينُونَ ولا يُخْضَعُونَ. وقيل: قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تُصَفُّوْا فوق رؤوسهم وتُصَفَّرُ، فنزلت. وبه احتج أبو حنيفة رضي الله عنه على وجوب السجدة. وعن ابن عباس: ليس في المفصل سجدة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سجد فيها وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. وعن أنس: صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا. وعن الحسن: هي غير واجبة. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إلى المذكورين. ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغى والبغضاء، أو بما يجمعون في صُحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.....

قوله: (ليس في المفصل)، عن بعضهم: قيل اسمٌ للسابع^(١) في أكثر الأحوال، وقيل: من: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ [عمد: ١].

قوله: (وعن أبي هريرة أنه سجد فيها)، روي عن الشيخين وأبي داود والنسائي، عن أبي سلمة: «رأيت أبا هريرة قرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد فيها، وقال: لو لم أر النبي ﷺ، سجد، لم أسجد»^(٢).

وفي رواية: سجد أبو بكر وعمر في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، و ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ومَنْ هو خيرٌ منهما^(٣). وهو سنة عند الشافعي في المفصل، على الجديد^(٤).

(١) يقسم القرآن بحسب سوره أربعة أقسام: الطوال، والمتون، والمثاني، والمفصل. وفي أول «المفصل» اثنا عشر قولاً، منها القول السابع الذي يبدأ فيه المفصل من سورة (تبارك)، والقول الثاني الذي يبدأ فيه من سورة محمد ﷺ، وهما القولان اللذان أشار إليهما الطيبي؛ قال الزركشي: «والصحيح عند أهل الأثر أن أوله (ق)»، وهو القول الرابع. انظر: «البرهان في علوم القرآن» (١: ٢٤٤-٢٤٦)، بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧٤) ومسلم (٥٧٨).

(٣) أخرجه النسائي (٩٦٦)، وانظر: «سنن أبي داود» (١٤٠٧).

(٤) انظر: «المجموع» (٥٩: ٤) للإمام النووي.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استثناءً منقطع.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «انشقت» أعاذه الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: استثناءً مُنْقَطِعًا، وقال أبو البقاء: «ويجوزُ أن يكونَ متصلًا، وأن يكونَ منقطعًا»^(١). وقيل: التقديرُ: فَبَشِّرِ النَّاسَ. وقلتُ: ليس بذلك، لأنَّ الضميرَ راجعٌ إلى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وُضِعَ موضعَ المُظْهِرِ، للإشعارِ بأنَّهم لا يؤمنون ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم، لأنَّهم كافرون مكذبون.

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا لِلَّهِ وَمُصَلِّيًا

* * *

(١) «التبيان» (٢: ١٢٧٩) للعكبري.

سورة البروج

مكية، وهي ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [٣-١]

هي البروجُ الاثنا عشر، وهي قصورُ السماء على التشبيه.

سورة البروج

مكية، وهي ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (على التشبيه)، أي: تشبيه السماء بسور المدينة؛ فإنه ذو أبراج، الأساس: «لها وجهٌ مُسَرَّجٌ، وعليها ثوبٌ مُبَرَّجٌ، وهو الذي عليه تصاويرُ كبروج السور».

الراغب: «البروجُ: القصور. وسُمِّيَ بروجُ النجومِ بها لمنازلها المختصَّة بها، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، وثوبٌ مُبَرَّجٌ: صُورٌ عليه بروجٌ، واعتبر حُسْنُهُ، فقيل: تَبَرَّجَتِ المرأَةُ، أي: تشبَّهت به في إظهارِ المحاسن. وقيل: ظهرت من بُرجها، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]»^(١).

(١) «مفردات القرآن» ص ١١٥ بتصرف.

وقيل: البروجُ: النجومُ التي هي منازلُ القمر. وقيل: عِظامُ الكواكب، سميت بروجاً لظهورها. وقيل: أبوابُ السماء. ﴿وَالْيَوْمِ آتَوْعُودٌ﴾ يومُ القيامة. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ يعني: وشاهدٍ في ذلك اليومِ ومشهودٍ فيه. والمرادُ بالشاهد: مَنْ يشهدُ فيه من الخلائقِ كلِّهم؛ وبالمشهود: ما في ذلك اليومِ من عجائبه. وطريقُ تنكيرِهما: إما ما ذكرتهُ في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] كأنه قيل: وما أفرطتُ كثرتُه من شاهدٍ ومشهودٍ. وإما الإبهامُ في الوصف، كأنه قيل: وشاهدٍ ومشهودٍ لا يُكنَّه وصفُها. وقد اضطربتُ أقاويلُ المفسرينَ فيهما؛ فقيل: الشاهدُ والمشهودُ: محمدٌ ﷺ، ويومُ القيامة. وقيل: عيسى وأُمَّته، لقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقيل: أُمَّةُ محمد، وسائرُ الأمم. وقيل: يومُ التروية، ويومُ عرفة، وقيل: يومُ عرفة، ويومُ الجمعة. وقيل: الحجرُ الأسودُ والحجيج، وقيل: الأيامُ اللَّيالي وبنو آدم. وعن الحسن: ما منَ يومٍ إلا وينادي: إني يومٌ جديدٌ وإني على ما يُعملُ في شهيدٍ؛ فاغتنمني، فلو غابتُ شمسٌ لم تدركني إلى يومِ القيامة؛ وقيل: الحفظةُ وبنو آدم. وقيل: الأنبياءُ ومحمدٌ عليه السلام.

قال الإمامُ وصاحبُ «التيسير» والقاضي: «وهي البروجُ الاثنا عشر، تسيرُ الشمسُ فيها في سنَّة، والقمرُ في شهر، وقد تعلقتُ بها مصالحُ ومنافع، فأقسمَ بها إظهاراً لِقَدْرِهَا»^(١). وأما قوله: (البروجُ: النجومُ التي هي منازلُ القمر)، فيرجعُ إلى المعنى الأول، لأنَّ البروجَ الاثني عشرَ مُنْقَسَمَةً إلى ثمانٍ وعشرينَ منزَلاً. وقال الواحدي: «البروجُ: النجومُ، أو منازلُها»^(٢). قوله: (سُميت بروجاً لظهورها)، مأخوذٌ من التبرج، وهو إظهارُ المرأةِ زينتها ومحاسنها للرجال.

قوله: (وقد اضطربتُ أقاويلُ المفسرينَ فيهما)، والضابطُ أنَّ الشاهدَ قد يُحملُ على الذي يشهدُ للمدَّعي على المدَّعي عليه، أو على الحاضرِ نحو: فلانٌ شاهدٌ مجلسِ فلان، ضدُّ غائب.

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٠٤) للرازي، و«أنوار التنزيل» (٥: ٤٧٢) لليضاوي، ولم أتف على كتاب «التيسير».

(٢) «الوسيط» (٤: ٤٥٧) للواحدى.

والمشهدُ أيضًا قد يُحملُ على المشهدِ عليه، أو على المشهدِ فيه. وكلُّ واحدٍ منهما إما حقيقيٌّ أو مجازي، وفيه وجوه:

أ - أن الشاهدَ محمدٌ ﷺ، والمشهدُ يومُ القيامة. روى محيي السنة عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: الشاهدُ محمدٌ ﷺ، والمشهدُ يومُ القيامة^(١)، ثم تلا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

ب - الشاهدُ عيسى عليه السلام، والمشهدُ أمته، وهو من قوله: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

ج - الشاهدُ أمه محمدٌ ﷺ، والمشهدُ سائرُ الأمم، وهو من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

د - الشاهدُ يومُ التروية، والمشهدُ يومُ عرفة، رواه محيي السنة عن سعيد بن المسيب^(٢). وعن بعضهم: وُصفَ يومُ التروية بصفةِ أهله، لأنه مشهدٌ فيه.

هـ - الشاهدُ يومُ عرفة، والمشهدُ يومُ الجمعة، رواه الإمام عن سعيد بن المسيب مرسلاً^(٣).

و - الشاهدُ الحجرُ والمشهدُ الحجيج^(٤)، لعله أُخذ مما رُوِيَ أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ يَشْهَدُ لِمَنِ اسْتَلَمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٥).

ز - الشاهدُ الأيامُ والليالي، والمشهدُ بنو آدم، وهو من قولِ الحسن كما رواه^(٦).

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٣٨٢) للبغوي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٠٥).

(٤) في (ف): «الحجر».

(٥) انظر: «المسند» (٢٢١٥) للإمام أحمد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصرُ بهما، ولسانٌ يتنطقُ به، يشهدُ لمن استلمه بحق».

(٦) أي: رواه الزمخشري.

﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ ﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿ اذْهَبْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ ٤-٩ ﴾

فإن قلت: أين جواب القسم؟

قلت: محذوف يدل عليه قوله: ﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ ﴾ كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون، يعني كفار قريش كما لُعن أصحاب الأخدود؛ وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصييرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان، وإلحاق أنواع الأذى، وصيرهم وثباتهم، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعديين المحرّقين بالنار، ملعونون أحقأ بأن يقال فيهم: قُتلت قريش، كما قيل: قُتلت أصحاب الأخدود، وقُتِل: دعاء عليهم، كقوله: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧]، وقرئ: (قُتِل) بالتشديد.

قوله: (محذوف)، أي: جواب القسم أنهم ملعونون. فعلى هذا، ﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ ﴾ لا يكون دعاء عليهم، بل هي كلمة تعجب، يُعجِبُ النَّاسَ مِنْ عِنَادِهِمْ وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ ومبالغتهم في تعذيب المؤمنين، فيكون كناية عن كونهم ملعونين، كما يقول قائله: الله ما أشجع! يدل عليه قوله: ﴿ وَ ﴾ قُتِلَ ﴾: دعاء عليه. قال الإمام: «كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الأخبار عن مبالغتهم في إيذاء عمّار وبلال»^(١).

وروى الإمام عن الزجاج والأخفش، «أن جواب القسم: ﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ ﴾، واللام مضمرة كما قال: ﴿ وَالشَّمْسُ وَنُجُومُهَا... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّهَا ﴾ [الشمس: ١، ٩]، أي: لقد أفلح. وقيل: الجواب: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾، وقيل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقيل: الجواب محذوف، والتقدير: إن الأمر حق في الجزاء»^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٠٨).

(٢) المصدر السابق (٣١: ١٠٧)، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٠٧) للزجاج، و«معاني القرآن» (٢: ٥٣٥) للأخفش.

والأخدود: الخدُّ في الأرض وهو الشق، ونحوهما بناءً ومعنى: الحقُّ والأخفوق. ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جُرذان. روي عن النبي ﷺ أنه قال: كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبرَ صَمَّ إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب. فسمع منه، فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: انهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر فاقتلها؛ فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمة والأبرص، ويشفي من الأدواء، وعمي جليسٌ للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأته فقال: من ردَّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، فغضب فعذَّبه، فدلَّ على الغلام فعذَّبه، فدلَّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فُقِّد بالمنشار وأبى الغلام، فذهَب به إلى جبل ليُطرح من ذروته، فدعا فرجفَ بالقوم، فطاحوا ونجا، فذهَب به إلى قُرُقور فلججوا به ليغرقيه، فدعا فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا ونجا،

قوله: (فساخت قوائمه في أخاقيق جُرذان)، عن بعضهم: أي: غابت ودخلت قوائمه

فرس سُرَاقَةَ بنِ جَعْشَم، حين تَبَعَ رسولَ الله ﷺ حين خرج من الغار.

النهاية: «وفي حديث المُحَرَّم: «فوقصت به ناقته في أخاقيق جُرذان فمات». الوَقْص: كَسَرُ العُنُق، والبَاءُ في «به» كقولك: خُذِ الخِطَامَ وخُذْ بالخِطَام. ولا يقال: وَقَصَتِ العُنُقَ نفسُها، ولكن: وَقَصَ الرجلُ فهو مَوْقُوص. والأخاقيق: شقوقُ في الأرض كالأخاديد، وأحدها أخقوق، يقال: خَقَّ في الأرض، صَحَّحَهُ الأزهرى»^(١).

قوله: (عن النبي ﷺ: كان لبعض الملوك)، هذا حديثٌ طويلٌ، أخرجه الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ، ومسلمٌ، والترمذي عن صُهَيْبٍ، مع زياداتٍ واختلافاتٍ، يطولُ ذكرُه^(٢).

قوله: (إلى قُرُقور فلججوه^(٣))، النهاية: «القُرُقور: هو السفينةُ العظيمةُ وجمعها قَراير».

(١) «النهاية» (٢: ٥٧، ٥: ٢١٤) لابن الأثير.

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (٣٠٠٥) و«مسند الإمام أحمد» (٢٣٩٣١).

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «فلججوا به».

فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجعل الناس في صعيدي وتصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله ربّ الغلام، ثم ترميني به، فرماه فوق في صدغه فوضع يده عليه ومات؛ فقال الناس: آما برّب الغلام؛ فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر؛ فأمر بأخايد في أفواه السكك وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرّحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أماه، اصبري فإنك على الحق؛ فافتحمت. وقيل: قال لها: قعي ولا تنافقي. وقيل: قال لها: ما هي إلا غميضة فصبرت.

وعن عليّ رضي الله عنه: إنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أحلت لهم، فتناولها بعض ملوكهم فسكروا، فوقع عليّ أخيه فلما صحا ندم وطلب المخرج، فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: يا أيها الناس، إن الله أحلّ نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول: إن الله حرّمه؛ فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له: ابسط فيهم السوط؛

فلججوه: أي أدخلوه في بطن البحر. وزوي عن المصنف أنه قال: هو سفينة صغيرة، وأهل جدّة يقولون: سنّبوك، وجمعه سنّايك^(١).

قولُه: (فافتحمت)، أي: رمّت نفسها من غير رويّة.

قولُه: (قفي)، ويروى: «قعي».

قولُه: (وما^(٢) هي إلا غميضة)، يقال: أغمض عينها وغمضها: إذا أطبق أجبانها، والضمير أي: هي، قيل: يعود إلى النار، يعني: ليس العذاب بتلك النار إلا زماناً قليلاً قدّر إطباق أجبان العين، ويمكن أن يقال: إن الضمير للقصة، أي: ليس الأمر إلا قدّر إطباق العين.

(١) لم أهد إلى موضعه.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «ما» دون واو.

فلم يقبلوا؛ فقالت له: ابسط فيهم السيف، فلم يقبلوا؛ فأمرته بالأخاديد وإيقاد نيران وطرح من أبي فيها؛ فهم الذين أرادهم الله بقوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودَ﴾.

وقيل: وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام، فدعاهم فاجبوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من خير، فخيرهم بين النار واليهودية فبئوا. فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد، وقيل: سبعين ألفاً؛ وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً. وعن النبي ﷺ: أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ من جهد البلاء. ﴿النَّارِ﴾ بدل اشتغال من الأخدود، ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لها من الحطب الكثير وأبدان الناس، وقرئ: (الوقود) بالضم (إذ) ظرف لقتل، أي لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها. ومعنى ﴿عَلَيْهَا﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود، كقوله:

وبات على النار الندى والمحلّق

وكما تقول: مرّت عليه، تريد: مستعلياً لمكان يدنو منه، ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين: أنهم وُكِّلوا بذلك وجعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب.....

قوله: (من جهد البلاء)، أي: من شدة البلاء والتكليف فوق الطاقة.

قوله: (وبات على النار الندى والمحلّق)، أوله:

تُشَبُّ لِقُرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا^(١)

تُشَبُّ: تُوقَد، المقرور: من أصابه البرد، والمحلّق: اسم رجل مضى شرحه غير مرة^(٢).

(١) البيت للأعشى من قصيدة طويلة مدح فيها المحلّق بن خنثم أبا البنات العشر، ومطلعها:

أرقت وما هذا الشهاد المؤرّق
وما بي من سقم وما بي معشّق

انظر: «ديوانه»، ص ٢٢٥.

(٢) واستشهد بهذا البيت الزمخشري عند تفسيره الآية (١٠) من سورة طه. انظر «الكشاف» (١٠: ١٣٧).

ويجوز أن يراد: أنهم شهودٌ على ما يفعلون بالمؤمنين، يؤدون شهادتهم يوم القيمة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ وما عابوا منهم، وما أنكروا إلا الإيمان كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ

قال ابن الرقيات:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَخْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

وقرأ أبو حيو: (نقموا) بالكسر، والفصيح هو الفتح. وذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويُعبد، وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً يُخشى عقابه حميداً منعباً، يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكل من فيها تحق عليه عبادته والخشوع له تقريراً؛ لأن ﴿مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾

قوله: (ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم)، تمامه:

بَيْنَ فُلُوقٍ مِّنْ قَرَاعِ الْكُتَابِ^(١)

مضى شرحه.

قوله: (ما نقموا) البيت^(٢)، أي: ما أنكروا من بني أمية إلا ما هو أصل الشرف والسيادة، وهو الحِلْمُ عند الغضب، وكظم الغيظ.

قوله: (تقريراً، لأن ﴿ما نقموا﴾)، «لأن» صلة «تقريراً»، وهو مفعول له، لقوله: «وذكر

(١) البيت للناطقة اللذياني، من قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

كليني لهم يا أمية، ناصبٍ وليل أفاقيه بطيء الكواكب

انظر: «ديوانه»، ص ١٣. واستشهد به الزمخشري عند تفسير الآية (١٢٦) من سورة الأعراف.

انظر: (٦: ٥١٥).

(٢) لابن قيس الرقيات، انظر: «ديوانه»، ص ٤.

هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطلٌ منهمك في الغي، وإن الناقلين أهلٌ لانتقام الله منهم بعذابٍ لا يعدله عذاب، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيدٌ لهم، يعني أنه عليه ما فعلوا، وهو مجازيهم عليه.

[إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَعَنُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾]

ويجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنهم عذبوهم بالنار وأحرقوهم، ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ وهي نارٌ أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين. أولهم عذاب جهنم في الآخرة،

الأوصاف، يعني: إنما لم يكتف بقوله ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾، وذكر اسم الله وأجرى عليه تلك الأوصاف العظيمة، ليقرر أن وصف الإيثار الذي عابوا منهم، وصفٌ عظيمٌ له جلاله، وأن من قصد صاحبه بالانتقام والعيب كان مبطلاً مبالغاً في الغي، فإن من يضاد الحق الأبلج، يستحق أن يُنتقم منه بعذابٍ لا يعدله عذاب.

قوله: ﴿كَمَا يَتَسَّعُ الْحَرِيقُ بِإِحْرَاقِهِمْ﴾، الأساس: «أحرقه بالنار وحرقه، واحترق ووقع الحريق في داره».

يريد أن عطف ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ على ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ يقتضي المغايرة، فيحمل الأول على أنهم استحقوه لكفرهم، والثاني على أنهم كما أحرقوا المؤمنين يُحرقون بنارٍ تشبه الحريق المشاهد في الاتساع، وأخر عذاب الدنيا^(١) عن عذاب الآخرة مراعاةً للفواصل؛ قال الإمام في الوجه الأول: «لَمَّا كَانَ عَذَابُ جَهَنَّمَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَذَابِ الْحَرِيقِ كَلَّا عَذَابٌ، لَأَنَّهُ قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ أَنْوَاعُ الْإِحْرَاقِ، قِيلَ لَهُ: عَذَابُ الْحَرِيقِ»^(٢).

(١) في (ف): «النار»، وعذاب الدنيا هو المقصود من قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١١١) بتصرف.

ولهم عذابٌ الحريق في الدنيا، لما رُوي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين، أي: بلّوهم بالأذى على العموم؛ والمؤمنين: المفتونين؛ وأن للفاتنين عذابين في الآخرة: لكفرهم، ولفتنهم.

[إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالَ

لِمَا يُرِيدُ ﴿١٢-١٦﴾]

البطش: الأخذ بالعنف؛ فإذا وُصف بالشدة فقد تَصَاعَفَ وتَفَاقَمَ: وهو بطشه بالجبابرة والظلمة، وأخذهم بالعذاب والانتقام، ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾ أي يبدئ البطش ويعيده. يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دَلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم،

قوله: (ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين، أي: بلّوهم بالأذى على العموم)، معنى الآية تدبيل للكلام السابق، وتوكيد لمعنى قوله: ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودِ﴾. وعلى الوجه السابق وهو أن يراد: بـ ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ أصحاب الأخدود خاصة، وبـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المطروحين، يكون ترميماً لمجرد معنى ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودِ﴾، من باب المظهر الذي وضع أقيم موضع المضمّر.

قوله: (أو دَلَّ باقتداره على الإبداء)، يريد أن قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾، استئناف على بيان موجب شدة البطش، ولما كان ﴿يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾ مُطلقين، تركهما في هذا الوجه على إطلاقهما، لإفادة أنه يبدئ المخلوقات كلها ويعيدها بأسرها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يُبَدِّدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤]. فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وكان بطشه شديداً لاقتداره العظيم. وصرح بالمفعول في الوجهين: أما في الأول، فالمفعول البطش للدلالة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾، وأما في الثاني^(١) فمضمير الكفرة المار ذكرهم، ليؤذن بضرب من الوعيد كما قال.

(١) في الأصول الخطية: «الثالث»، ولعل صوابه ما أثبتناه.

إذ لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالإعادة، وقرئ: (يبدأ). ﴿الْوَدُودُ﴾ الفاعلُ بأهلِ طاعته ما يفعلُه الودود: من إعطائهم ما أرادوا. وقرئ: (ذي العرش) صفة لربك. وقرئ: (المجيد) بالجرِّ صفة للعرش. ومجدُّ الله عَظَمَتُهُ ومجدُّ العرش: عُلُوُّه وعَظَمَتُهُ. ﴿فَعَالٌ﴾ خبرٌ مبتدأ محذوف. وإنما قيل: فعَال؛ لأنَّ ما يريدُ ويفعلُ في غاية الكثرة.

قوله: (الفاعلُ بأهلِ طاعته ما يفعلُه الودود)، أي: استعارَ لذاته صفةَ الودادةِ على سبيلِ التمثيل، قال الإمام: «الودودُ: المحبُّ، وهو قولُ أكثرِ المفسرين، قال الكليبي: الودودُ: المتودِّدُ إلى أوليائه بالمغفرة والجزاء. وقال الأزهري: يجوزُ أن يكونَ الودودُ فعولاً بمعنى مفعولاً، كركوبٍ وحلوب، يعني أنَّ عبادة الصالحين يُحبُّونه لما عرفوا من كماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وكلتا الصفتين مدحٌ، لأنه تعالى إذا أحبَّ عباده المخلصين فلا فضاله، وإنَّ أحبَّه فلجزيل إحسانه»^(١).
قوله: (وقرئ: «المجيد» بالجرِّ)، حمزة والكسائي، والباقون: بالرفع^(٢).

قوله: (خبرٌ مبتدأ محذوف)، وعن بعضهم: كأنه فصله لفصلِ المجرورين والتنكير، وقلت: إنَّما فصله لأنه كالفذلكة للأوصاف السابقة والخاتمة لها، وتكررت لضربٍ من التعظيم، يتلاشى عنده الأوهام والعقول.

قوله: (وإنما قيل: فعَال، لأن ما يريدُ ويفعلُ في غاية الكثرة)، «الانْتِصَافُ»: «لا فاعلُ إلا هو، وبهذا تنتظم الآية، فإن أكثرَ ما أرادَ اللهُ تعالى عند المعتزلة لم يكنُ تعالى اللهُ عن ذلك، وهبُ أنا أعرضنا عن أدلِّتنا، أليس قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾ يقتضي العموم، وأنه تعالى يفعلُ ما يريدُ؟»^(٣).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١١٢)، وانظر: «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» للأزهري، ص ٣٦.
(٢) من رفع أسند المجد إلى الله، إذ كان أولى أن يكون من أوصافه. ومن خفض جعله صفة للعرش، كقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].
(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٣٣)، وانظر: «الانتصاف» (ق ١٤٨) للعراقي.

[هَلْ أُنثِقُ الْجُنُودَ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿١٧-٢٢﴾]

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدلٌ من الجنود، وأراد بفرعون إياه وآله، كما في قوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]، والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود الرُّسُل وما نزل بهم لتكذبيهم. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: تكذيب واستيجاب للعذاب، والله عالمٌ بأحوالهم وقادرٌ عليهم وهم لا يُعجزونه.....

إن اقتضاء مذهبه يخالف تفسيره؛ فإنهم يقولون: الله يريد من العباد الإيمان والطاعة، ولا يريد الكفر والمعصية، ولا شك أن الثاني أكثر وقوعاً. وأيضاً إن العباد إذا كانوا فاعلين لأفعالهم مستقلين في خلقها، فكان الكثرة فيها.

وقال الإمام: «احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة خلق الأعمال، قالوا: لا خلاف في أنه يريد الإيمان من المكلف، فوجب أن يكون فاعلاً له، وإذا كان فاعلاً للإيمان، وجب أن يكون فاعلاً للكفر ضرورة، لأنه لا قائل بالفرق. وقال القفال: الفاعل لما يريد: يفعل ما يريد على ما يراه، ولا اعتراض عليه، ولا يغلبه غالب، فيدخل من يشاء الجنة لا يمنعه مانع، ويدخل أعداءه النار لا ينصرون منه ناصر»^(١).

قوله: (قد عرفت تكذيب تلك الجنود)، تفسير لقوله ﴿هَلْ أُنثِقُ﴾، وفيه أن ﴿هَلْ﴾ هاهنا بمعنى ﴿قَدْ﴾، وضمن معنى التعجب بدلالة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾، ليفيد الترتيبي من التعجب إلى التعجب في الإضراب الأول، والترقي من التكذيب إلى التكذيب في الإضراب الثاني. بيان ذلك قوله: «إن أمرهم أعجب من أمر أولئك، لأنهم سمعوا بقصصهم»، إلى قوله: «وكذبوا أشد من تكذبيهم».

والمبالغة في الثاني تفهم من التنكير في قوله ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، ثم ترقي وقال: دغ تكذبيهم بذلك، فإن هاهنا ما هو أطم منه، وهو تكذبيهم بهذا القرآن المجيد المثبت في اللوح المحفوظ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١١٣).

والإحاطة بهم من ورائهم: مثل لأنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به. ومعنى الإضراب: أن أمرهم أعجب من أمر أولئك؛ لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم، ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا، وكذبوا أشد من تكذيبهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: بل هذا الذي كذبوا به ﴿قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ شريفٌ عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه. وقرئ: (قرآن مجيد) بالإضافة، أي: قرآن رب مجيد. وقرأ يحيى بن يعمر: (في لُوح) واللُّوح: الهواء، يعني: اللُّوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللُّوح ﴿مَحْفُوظٌ﴾ من وصول الشياطين إليه، وقرئ: (محفوظ) بالرفع صفة القرآن.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «البروج»، أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات».

قوله: (لأنهم لا يفوتونه)، اللام صلة «مثل»، وليست للتعليل، أي: مثل لعدم القوات.

قوله: (وقرئ: «محفوظ» بالرفع)، قرأها نافع^(١).

قوله: (وكل يوم عرفة)، عرفة: علم للموقف. عن بعضهم: إنما صُرفت هاهنا لأنه أراد تنكير اليوم، ولا طريق إليه إلا بتنكير المضاف إليه.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) وتوجيه القراءة أنه جعله نعتاً للقرآن، فيكون معنى حفظ القرآن: أنه يؤمن من تحريفه وتبديله وتغييره، فلا يلحقه شيء من ذلك. انظر: «حجّة القراءات»، ص ٧٥٧.

سورة الطارق

مكية، وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿١ - ٣﴾]

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ المضيء، كأنه يثقبُ الظلامَ بضوئه فينفذُ فيه، كما قيل: دريء؛ لأنه يدرؤه، أي: يدفعه. ووصفَ بالطارق؛ لأنه يئدو بالليل، كما يقال للآتي ليلاً: طارق؛ أو لأنه يطرقُ الجنّي، أي يصكُّه. والمراد: جنسُ النجوم، أو جنسُ الشُّهبِ التي يُرجمُ بها.

سورة الطارق

سبع عشرة آية، مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (للآتي ليلاً)، أي: كما يقال لمن يأتي في الليل: طارق، كذلك يقال للنجم الطالع في الليل: طارق.

قوله: (أو لأنه يطرق الجنّي، أي: يصكُّه)، أي: يضرُّه. الراغب: «الطَّرَقُ في الأصل الضَّرْبُ، إلا أنه أخص، لأنه ضَرَبُ توقُّعِ كطرق الحديد بالمطرقة، ويتوسَّعُ فيه توسَّعهم في

(١) في (ط): «مكية، وهي ست عشر آية»، وهو موافق لعدّد المدنيين، والمثبت موافق لعدّد غيرهم. انظر:

فإن قلت: ما يشبه قوله: ﴿وَمَا آذْرَكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ إلا ترجمة كلمة بأخرى،
فبين لي أي فائدة تحته؟

قلت: أراد الله عزَّ من قائل: أن يُقسَمَ بالنجم الثاقبِ تعظيماً له، لما عُرفَ فيه من
عجيبِ القدرة ولطيفِ الحكمة، وأن ينبه على ذلك فجاء بما هو صفةٌ مشتركةٌ بينه
وبين غيره، وهو الطارق، ثم قال: ﴿وَمَا آذْرَكَ مَا الطَّارِقُ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾
كلُّ هذا إظهارٌ لفخامة شأنه، كما قال: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ التُّجُورِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦] روي: أن أبا طالب كان عند رسول الله ﷺ، فانهبطَ
نجم، فامتلاً ماءً ثم نورا، فجزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال عليه السلام:
«هذا نجمٌ رُمي به، وهو آيةٌ من آياتِ الله»، فعجب أبو طالب، فنزلت.

[﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ٤]

فإن قلت: ما جوابُ القسم؟

قلت: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛ لأنَّ ﴿إِنْ﴾ لا تخلو فيمن قرأ: ﴿لَمَّا﴾ مشددة،
بمعنى: إلا أن تكون نافية. وفيمن قرأها مخففة - على أن (ما) صلة - تكون مخففة من الثقيلة،

الضرب. وسمي الماء الكدر طرُقاً لطرقة الدواب بالرجل، والطارق السالك للطريق، لكن
في المعارف حُصَّ بالآتي ليلاً، وعُبر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل، وعن
الحوادث التي تأتي بالليل بالطوارق^(١).

قوله: (فانهبط نجم)، الأساس: «ناقة حطوط: سريعة السير، وحطت في سيرها وانحطت».

قوله: (لا تخلو فيمن قرأ: ﴿لَمَّا﴾ مشددة)، قرأ عاصم وابن عامر وحمزة: مشددة، والباقون:
مخففة؛ فإذا قرئ ﴿لَمَّا﴾ مشددة، يكون «إِنْ» في قوله ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ نافية على تقدير: ما كل نفس

(١) «مفردات القرآن»، ص ٥١٨.

وَأَيَّتْهَا كَانَتْ فَهِيَ مِمَّا يُتْلَقُ بِهِ الْقَسَمُ، حَافِظٌ مَهِيْمٌ عَلَيْهَا رَقِيبٌ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ [النساء: ٨٥]، وقيل: ملكٌ يحفظُ عملها ويحصي عليها ما تكسبُ من خيرٍ وشرٍ. ورُوي عن النبي ﷺ: ﴿وُكِّلَ بِالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسِتُونَ مَلَكًا يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يَذُبُّ عَنْ قِصْعَةِ الْعَسَلِ الذُّبَابُ، وَلَوْ وُكِّلَ الْعَبْدُ إِلَىٰ نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَاصْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾.

[﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ٥-٧]

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ بما قبله؟

قلت: وجه اتصاله به، أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظاً،

إلا عليها حافظ. وإذا قرئ مخففة تكون «إن» مخففة من الثقيلة، و«ما» في «لما» صلة، أي: إن كل نفس لعلها حافظ، وأيتهما كانت، فهي مما يتلقى به القسم. قال الزجاج: «استعملت «لما» في موضع «إلا» في موضعين، أحدهما هذا، والآخر في باب القسم، تقول: سألتك لما فعلت، بمعنى: إلا فعلت»^(١).

قوله: (وجه اتصاله [به] أنه لما ذكر)، وتحريره أنه تعالى لما أثبت أن على كل نفس حافظاً، يكتب أفعالها دقيقها وجليلها، خيرها وشرها على التوكيد القسمي، علم أنه تعالى ما خلق الخلق سُدىً وعبثاً، بل خلقهم لأمرٍ خطيرٍ وخطبٍ عظيمٍ، وما ذاك إلا ليعرفوا مالكتهم وخالقهم، ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وعلم منه أنه لا بد من ثواب المطيع وعقاب العاصي، ومن الرجوع إلى الملك العادل للوصول إلى ما لكل منهما، قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

فمن أنكّر ذلك، فليُنظر إلى نفسه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّهُ عَلَيَّ رَجِيمٌ لَقَائِدٍ﴾، وهو المراد من قوله: «أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره»، إلى قوله «ولا يُملي على حافظه من الأعمال إلا ما يسره في عاقبته».

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣١١).

أَتَبَعَهُ تَوْصِيَةَ الْإِنْسَانِ بِالنَّظْرِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَنَشَأَتِهِ الْأُولَى، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَنْشَاءِ قَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ وَجَزَائِهِ، فَيَعْمَلُ لِيَوْمِ الْإِعَادَةِ وَالْجِزَاءِ، وَلَا يَمِيلِي عَلَى حَافِظِهِ إِلَّا مَا يَسْرُهُ فِي عَاقِبَتِهِ؛ وَ﴿يَمْ خَلَقُ﴾ اسْتَفْهَامُ جَوَابِهِ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وَالذَّفْقُ: صَبٌّ فِيهِ دَفْعٌ. وَمَعْنَى دَافِقٌ: النَّسْبَةُ إِلَى الذَّفْقِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ دَفَقَ، كَاللَّابِنِ وَالتَّامِرِ، أَوْ الْإِسْنَادُ الْمُجَازِي. وَالذَّفْقُ فِي الْحَقِيقَةِ لِمُصَاحِبِهِ، وَلَمْ يَقُلْ مَاءَيْنِ لِامْتِزَاجِهِمَا فِي الرَّحِمِ، وَاتِّحَادِهِمَا حِينَ ابْتَدَأَ فِي خَلْقِهِ، ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَائِبِ الْمَرَأَةِ، وَهِيَ عِظَامُ الصُّدْرِ حَيْثُ تَكُونُ الْقِلَادَةُ.

فَظَهَرَ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ أَنَّ الْفَاءَ فِي ﴿فَيَنْظُرُ﴾ فَصِيحَةٌ تُفَصِّحُ عَنْ هَذِهِ الْمَقْدَرَاتِ، مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ قَوْلَنَا عِدَابَ النَّارِ﴾، بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

قَوْلُهُ: (الذَّفْقُ: صَبٌّ فِيهِ دَفْعٌ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: ﴿مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾، أَي: سَائِلٍ بِسُرْعَةٍ، وَمِنْهُ اسْتَعِيرَ: جَاءُوا وَدُفِقَتْ، وَبَعِيرٌ أَدْفَقَ، أَي: سَرِيعٌ^(١).

قَوْلُهُ^(٢): (وَتَرَائِبُ الْمَرَأَةِ، وَهِيَ عِظَامُ الصُّدْرِ)، قَالَ الْإِمَامُ: «طَعَنَ [فِي هَذِهِ الْآيَةِ]^(٣) الْمُلْحَدَةُ، خَذَلَهُمُ اللَّهُ وَأَبَادَهُمْ، وَقَالُوا: إِنَّ الْمَنِيَّ إِنَّمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ فَضْلَةِ الْهَضْمِ الرَّابِعِ^(٤)، وَيَنْفَصِلُ مِنْ جَمِيعِ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ، فَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ عَضْوٍ طَبِيعَتَهُ وَخَاصِيَّتَهُ، مُسْتَعِدًّا لِأَنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِثْلُ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ. فَإِنَّ كَانَ الْمُرَادُ أَنَّ مَعْظَمَ أَجْزَاءِ الْمَنِيِّ يَتَوَلَّدُ هُنَاكَ فَهُوَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ مَعْظَمَهُ

(١) انظر: «مفردات القرآن»، ص ٣١٦.

(٢) هذه الفقرة إلى آخرها - أي: إلى قوله: «ولا من خلفه» - سقطت من (ف).

(٣) سقط ما بين المعكوفتين من الأصول الخطئية.

(٤) تمر عملية الهضم بأربع مراحل: هضم أول ويجري في المعدة، وهضم ثانٍ يجري في الكبد، وهضم ثالث يجري في المعى الغليظة (القولون)، وهضم رابعٍ يجري في الأعضاء، فيرشح منه المنى. انظر: «مفاتيح الغيب» (١٩: ١٧٩)، عند تفسيره الآية (٤) من سورة النحل.

وقرئ: (الصَّلْب) بفتحين، و(الصُّلْب) بضمين. وفيه أربع لغات: صُلْب، وِصْلَب، وِصْلَب وِصَالِب. قال العجاج:

فِي صُلْبٍ مِثْلِ الْعِنَانِ الْمُؤَدَمِ

وقيل: العظمُ والعَصْبُ من الرَّجْلِ، واللَّحْمُ والدَّمُ من المرأة.

[إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * قَالَهُ مِنْ قُوْرٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿٨-١٠﴾]

﴿إِنَّهُ﴾ الضميرُ للخالق، لدلالة خُلِقَ عليه.....

إنها يتولد من^(١) الدماغ. وإن كان المراد أن مُستقرَّ المنى هناك فضعيفٌ أيضًا، لأن مُستقرَّه أوعيةُ المنى، وهي عروقٌ تلتفُّ بعضها ببعض عند البيضتين^(٢).

وأجاب أن «لا شك أن أعظم الأعضاء معونة الدماغ، ومنه النخاع في الصلب، وشعب نازلة إلى مقدم البدن وهي التربة؛ على أن كلامهم محض الوهم والظن الضعيف، وكلام الله المجيد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»^(٣).

قوله: (وقرئ: «الصَّلْب» بفتحين)، «الصُّلْب» بضم الصاد وسكون اللام: هي المشهورة، والبواقي: شواذ.

قوله: (في صُلْبٍ مِثْلِ الْعِنَانِ الْمُؤَدَمِ)، أوله:

رَبِّا الْعِظَامِ فَخَمَةُ الْمَخْدَمِ^(٤)

يصفُ صلبَ امرأةٍ باللين. فَخَمَةُ الْمَخْدَمِ: عظيمةُ الساق، والعِنَانُ: السير^(٥) الذي يأخذه

(١) من قوله: «فإن كان المراد» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١١٨).

(٣) المصدر السابق بتصرف.

(٤) الرجز للعجاج، انظر: «مجموع أشعار العرب» (٢: ٥٩).

(٥) السير: ما يُقَدُّ من الجلد، والجمع: السُّيُور. انظر: «الصحاح» (٢: ٦٩٢- سير) للجوهري.

ومعناه: إنَّ ذلك الذي خَلَقَ الإنسانَ ابتداءً من نُطفَةٍ ﴿عَلَى رَجَبِهِ﴾ على إعادته خصوصاً ﴿لِقَائِهِ﴾ لبيّنُ القدرة لا يَلْتَأُتُ عليه ولا يَعْجُزُ عنه. كقوله:

إِنِّي لَفَقِيرٌ

الراكبُ بيده. المؤدَم: أي المتخذُ مِنَ الأديم. وعن بعضهم: جاء الصُّلْبُ، بضمِّتين، وقد قرئ به، واستشهد بقول الشاعر.

قوله: (ومعناه: إن ذلك الذي خلق الإنسان)، يعني: إن في بحْيِ الفعلِ مجهولاً أولاً. والإضمارِ قبلَ الذِّكرِ ثانياً، الدلالةُ على أن الكلامَ من بابِ إرخاءِ العنان. أي: ما أقولُ: إنني أنا المبدئُ والمعيد، بل أقولُ: إنَّ ذلك الذي تُعورِفُ عندكم واشتهر وتُقرُونَ أنه الخالق، هو القادرُ على الإعادة؛ فجيءَ بِإِنَّ واللامِ وتنكيرِ الخبرِ، ليدلَّ على ردِّ بليغ، وعلى إنكارِ مبالغِ عنهم، بأنَّه لا حشرَ ولا نشرَ، بل إمَّا تعطيلٌ أو أمرٌ آخرُ كما اختلفَ فيه المبتلون.

يعني: لا تتعلَّقُ القدرةُ بشيءٍ من الأشياءِ، إلَّا بإعادةِ الأرواحِ إلى الأجسادِ، ومن ثمَّ نصَّ على قولِهِ: «على إعادته خصوصاً ﴿لِقَائِهِ﴾»؛ قال الإمام: «الضميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ للخالق، مع أنه لم يتقدَّم ذكرُه، لأنه قد تقرَّرَ في بدائِهِ العقولِ، أن القادرَ على هذه التصرفات هو الله تعالى، ولذلك كانَ كالمذكور»^(١).

قوله: (لا يَلْتَأُتُ عليه)، الجوهري: «الآلياتُ: الاختلاطُ والالتفاتُ، يُقالُ: التائتِ الحُطوبِ والتائتِ برأسِ القلمِ شعرةً». يعني: دَلَّ التنكيرُ في ﴿لِقَائِهِ﴾ على كمالِ القُدرةِ، كما التنكيرُ في قولِ الشاعر:

لئنْ كانَ يُهدى بَرْدُ أنيابه العُلا
لأفقرَ مِنِّي، إِنِّي لَفَقِيرٌ^(٢)

يريدُ: بليغِ الفقرِ جدًّا، ومضى شَرْحُه في «البقرة».

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١١٩).

(٢) البيت لكثير عزة كما عراه الزمخشري في «الكشاف» (١٣: ٧٥)، عند تفسير الآية (٦١) من سورة يس. وقيل: لمجنون ليلي كما في «الأغاني» (٢: ٤٤)، ولم أهد إليه في ديوانيهما.

﴿يَوْمَ تَبْلَى﴾ منصوبٌ بـ ﴿رَجِيبٍ﴾؛ وَمَنْ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِي ﴿رَجِيبٍ﴾ لِلْمَاءِ وَفَسَّرَهُ بِرَجْعِهِ إِلَى مَخْرَجِهِ مِنَ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ أَوْ الإِخْلِيلِ، أَوْ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى نَصَبَ الظَّرْفَ بِمُضْمِرٍ ﴿تَبْلَى التَّرَائِبِ﴾ مَا أُسِرَّ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ وَغَيْرِهَا، وَمَا أُخْفِيَ مِنَ الْأَعْمَالِ. وَبِلَاؤِهَا: تَعَرَّفُهَا وَتَصَفُّحُهَا، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا طَابَ مِنْهَا وَمَا خَبَثَ،

قوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى﴾ منصوبٌ بـ ﴿رَجِيبٍ﴾، قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: «لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِهِ، لِلْفَصْلِ بَيْنَ الصَّلَةِ وَالْمَوْصُولِ بِقَوْلِهِ ﴿لِقَادِرٍ﴾، وَلَا يَنْتَصِبُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ ﴿قَادِرٍ﴾» لِأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ؛ فَإِذَنْ يَنْتَصِبُ بِمُضْمِرٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿رَجِيبٍ﴾، أَي: بَعَثَهُ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرَ. وَإِنْ شِئْتَ بِمُضْمِرٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَأَلَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾^(١). وَمَنْعَ أَبُو الْبِقَاءِ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِـ ﴿رَجِيبٍ﴾ لِلْعَلَّةِ الْمَذْكُورَةِ، وَأَجَازَ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِـ ﴿قَادِرٍ﴾^(٢). وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْفَصْلَ غَيْرُ مَانِعٍ لِأَنَّهُ فِي تَقْدِيرِ التَّأخِيرِ، قُدِّمَ مُرَاعَاةً لِلْفَوَاصِلِ، عَلَى أَنْ الظَّرْفَ اتَّسَعُوا فِيهِ مَا لَمْ يَتَّسَعُوا فِي غَيْرِهِ.

قوله: (وَمَنْ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِي ﴿رَجِيبٍ﴾ لِلْمَاءِ، وَفَسَّرَهُ بِرَجْعِهِ إِلَى مَخْرَجِهِ) إِلَى قَوْلِهِ (نَصَبَ الظَّرْفَ بِمُضْمِرٍ)، وَفِي «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ»، قَالَ مَجَاهِدٌ: عَلَى رَجْعِهِ: عَلَى رَدِّ النَّطْفَةِ فِي الإِخْلِيلِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: عَلَى رَدِّ الْمَاءِ إِلَى الصُّلْبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: إِنَّهُ عَلَى رَدِّ الْإِنْسَانِ مَاءً كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ لِقَادِرٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ عَلَى بَعْثِ الْإِنْسَانِ وَإِعَادَتِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ قَادِرٌ، وَهَذَا أَوْلَى الْأَقَاوِيلِ لِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَبْلَى التَّرَائِبِ﴾، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ^(٣)، لِأَنَّهُ مُرَدُّدٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنَّا نَعْرِفُ مَا عَلَيْنَا حَافِظٌ﴾، أَي: يَوْمَ تَبْلَى مَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَكَانَتْ خَفِيَّةً عَلَيْهِ وَعَلَى النَّاسِ، فَحَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَا لَهُ نَاصِرٌ يَدْفَعُ عَنْهُ غَيْرُ اللَّهِ.

قوله: (نَصَبَ الظَّرْفَ بِمُضْمِرٍ)، أَي: بـ «اذْكُرْ» قَبْلَهُ، أَوْ بِقَوْلِهِ: «كَانَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ» بَعْدَهُ.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٤٨).

(٢) انظر: «التبيان» (٢: ١٢٨١) للعكبري.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٣٩٤) للبعوي.

وعن الحسن أنه سَمِعَ رجلاً ينشد:

سَيَقَى لها في مُضْمَرِ القَلْبِ والحِشَا سَرِيرَةٌ وُدٌّ يَوْمَ تُبلى السَّرَائِرُ

فقال: ما أغفله عما في ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾! ﴿قَالَهُ﴾ فما للإنسان، ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ من مَنَعَةٍ في نفسه يَمْنَعُ بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ولا مانع يَمْنَعُه.

[﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْجِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ ١١ - ١٤]

سُمي المطر رجعاً، كما سمي أوباً قال:

رَبَاءٌ شَمَاءٌ لَا يَأْوِي لِقَلْبِهَا إِلَّا السَّحَابُ وَإِلَّا الأُوبُ وَالسَّبَلُ

تسمية بمصدرين: رَجَعَ، وآب؛ وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يُرْجَعُه إلى الأرض.....

قوله: (فقال: ما أغفله عما في ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾)، يعني: يشتغل بالشدائد ولا يتفطن لها، إذ لو عقل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبلى السَّرَائِرُ﴾ فأله من قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ، شغله عن هذه المحبة، لكنه ذهل عن تلك الشؤون حتى تكلم بهذا. روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: «يُبدي الله تعالى يوم القيامة كل خير وسير، فيكون إما زيناً في الوجوه أو شيناً فيها». يعني: من حفظها كان وجهه مشرقاً، ومن ضييعها كان وجهه أغبر.

قوله: (رَبَاءٌ شَمَاءٌ) البيت^(١)، وفي «المطلع»: زَنَاءٌ، بالزاي والنون المشددة، من: زَنَأَ في الجبل: إذا صعد فيه. ويروى: «رَبَاءٌ»، بالراء والباء الموحدة من تحت، يُقال من: رَبَأَ: الرَبِيئَةَ: الدَّيْدَبَانَ، إذا صعد المرأباً وهو المرَّقَب. تم كلامه.

السَّمَم: ارتفاع الأنف، والنعت منه الأشم. وقيل: شَمَاءٌ مضاف إليه، والسَّبَلُ: المطر الجود. يصف الهضبة بالارتفاع، والمعنى: هذا الرجل رَبَأَ قلعية شِءاً.

قوله: (كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض)، لعل هذه الوجة غير مرضي، لأن هذا الرَّعَمُ باطلٌ، وقد مرَّ بطلانُه في «البقرة»، ولم يذكره الإمام ولا المفسرون.

(١) البيت للمتنخل الهذلي، انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣: ١٢٨٥).

أو أرادوا التفاؤلَ فسمَّوه رجعاً، وأوباً ليرجع ويؤوب. وقيل: لأن الله يُرجعه وقتاً فوقتاً. قالت الخنساء:

كالرَّجْعِ فِي الْمُدْجِنَةِ السَّارِيَةِ

وَالصَّدْعُ: مَا يَتَصَدَّعُ عَنْهُ الْأَرْضُ مِنَ النَّبَاتِ ﴿إِنَّهُ﴾ الضميرُ للقرآن، ﴿فَصَلِّ﴾ فاصلٌ بين الحقِّ والباطل، كما قيل له فرقان ﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزِيلِ﴾ يعني: أنه جدُّ كلِّه لا هُوادة فيه. ومن حقِّه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور،.....

قوله: (كالرَّجْعِ فِي الْمُدْجِنَةِ السَّارِيَةِ)، أوله:

يَوْمَ الْوَدَاعِ تَرَى دَموعًا جارية^(١)

الْمُدْجِنَةُ: السَّحَابَةُ الْمَظْلَمَةُ، وَالسَّارِيَةُ مِنَ السَّحَابِ: مَا بَيْنَ الْغَادِيَةِ وَالرَّائِحَةِ.

قوله: ﴿إِنَّهُ﴾: الضمير للقرآن، روى الإمام عن القفال أنه قال: «إنَّ المعنى أن ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم يوم تُبلى فيه سرائركم، قولٌ حقٌّ وكلامٌ فصل»، ثم قال الإمام: «هذا أولى، لأنَّ عَوْدَ الضميرِ إلى المذكورِ السالفِ أحرى»^(٢).

وقلتُ: ويؤيده قضية النظم، وهو أنه تعالى لما بدأ في مُفْتَحِ السورة بما دلَّ على إثباتِ الحشر، وأكَّده بالإقسامِ بالنجم الثاقب، ثنى بالإقسامِ بقوله: ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتُ الرِّجِّحِ﴾، لإثباتِ ذلك المطلوبِ تشديدًا وتقريرًا، ولذلك نفى الهزل، وعبرَ عن إنكارهم بالكيد والحيلة والتلبيس على العوام، قال الإمام: «الكيدُ: هو إلقاء الشبهات، كقولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]، قال: ﴿مَنْ يُعْجِ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيضٌ﴾ [يس: ٧٨]»^(٣).

قوله: (لا هُوادةَ فيه)، الأساس: «بينهم هُوادةٌ وهُوادةٌ، وما في فلانِ هُوادةٌ: رفق ولين».

قوله: (ومن حقِّه)، وهو خبرٌ، والمبتدأ: «أن يكون مهيباً»، وقد وصفه الله تعالى بذلك:

(١) البيت للخنساء، ولم أهدِّ إلى أوله في «ديوانها». انظر: «ديوانها»، ص ٤٠٥.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٢١).

(٣) المصدر السابق.

معظمًا في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه، أن يُلِمَّ بهزلٍ أو يتفكَّه بمزاح، وأن يُلقَى
ذهنه إلى أن جبارَ السموات يخاطبه فيأمره وينهاه، ويَعِدُّه ويوعده، حتى إن لم يستغزِه
الخوفُ ولم تتبَّالغ فيه الخشية، فأدنى أمره أن يكون جادًا غيرَ هازل، فقد نعى الله
ذلك على المشركين في قوله: ﴿وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ [النجم: ٦٠ - ٦١].
﴿وَالغَوَافِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ مَوْلَا *﴾ [١٥ - ١٧].

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني أهل مكة يعملون المكائد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق، وأنا
أقابلهم بكَيْدي: من استدراجي لهم وانتظارِي بهم الميقات الذي وقَّته للانتصارِ منهم،
﴿فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: لا تدعُ بهلاكهم ولا تستعجلُ به،

حال من الضمير المجرور في «حقه»، يريد أنه من المعلوم أن القرآن كله جدٌ وليس بهزلٍ؛ وإنما
وصفه الله تعالى بذلك، ليكون مهيبًا في الصدور، معظمًا في القلوب. روينا عن الترمذي
والدارمي، عن الحارث الأعور، عن علي رضي الله عنه، قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:
إنها ستكونُ فتنةٌ. قلتُ: فما المخرجُ منها يا رسولَ الله؟ قال: كتابُ الله، فيه نبأٌ من قبلكم،
وخبْرٌ ما بعدكم، وحُكْمٌ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله،
ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله». الحديث^(١).

قوله: (يترفع به قارئه)، أي: يُعظِّمه بأن لا يشتغلُ بما يخالفُ تعظيمه، من الإلام بالهزل،
والتفكُّه بالمزاح. «الأساس»: «دخلتُ عليه فلم يرفع لي رأسًا، ورُفعت له غايةٌ فسما إليها».

قوله: (أن يُلِمَّ)، أي: أن ينزل. الجوهري: «قد ألمَّ به، أي: نزل به».

قوله: (وأن يُلقي ذهنه)، عطفٌ على قوله: «أن يكون مهيبًا» على سبيل البيان، يدلُّ عليه
قوله: «أن جبارَ السموات يخاطبه»، أي: به، لا على قوله: «أن يُلِمَّ» لفساد المعنى.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٣١).

﴿أَمَهُمْ رُؤِيدًا﴾ أي إمهالاً يسيراً؛ وكرّر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصير.
 عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «الطارق»، أعطاه الله بعدد كلِّ نجمٍ في السَّماءِ
 عشرَ حسناتٍ».

قوله: (أي: إمهالاً يسيراً)، جعله صفةً مصدرٍ محذوف، ومنه قوله: ضَعَهُ رُؤِيدًا، أي:
 وضعًا رُؤِيدًا^(١)؛ قَالَ الإمام: «واعلم أن رُؤِيدًا»: إما اسمٌ للأمرِ كقولك: رُؤِيدَ زَيْدًا، أي:
 خله ودَعَهُ وارفق به، ولا تَنصَرَفُ فيه حيثُذٍ لأنه غيرُ متمكّن. أو يكونُ بمنزلةِ سائرِ المصادر،
 تقول: رُؤِيدَ زَيْدٍ، كما تقول: ضَرَبَ زَيْدٌ. أو يكونُ نعتًا منصوبًا، أي: إمهالاً يسيراً، أو يكونُ
 حالًا، أي: أمهلهم غيرَ مستعجل، قَالَ أبو عبيدة: تكبيرُه: رُود، وأنشد:

يمشي ولا تَكَلِّمُ البطحاءَ مِشِيتهُ كأنه ثَمَلٌ يمشي على رُودٍ^(٢)

أي: على مَهَلٍ ورفقٍ وتؤدّة. وذكر أبو علي في بابِ أسماءِ الأفعال: «رُؤِيدَ زَيْدًا، يريدُ:
 أُرُودَ زَيْدًا، وأمَهله، وأرفق به».

قوله: (وكرّر وخالف بين اللفظين)، يعني: مَهَلٌ وأمَهَلٌ، ومعناها واحدٌ والبابُ مختلف.
 ولَمَّا كان الأصلُ في التكرارِ الموافقة، فلَمَّا خولفَ آذَنَ أنه لأمرٍ ما؛ فقوله: «لزيادةِ التسكين»،
 يتعلّق بكلِّ واحدٍ من التكريرِ والمخالفة، فكانه قيل: كَرَّرَ وخالفَ لمزيد، مزيدِ التسكينِ منه.

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِعَوْنِ اللَّهِ

* * *

(١) قوله: «ومنه قوله: ضَعَهُ رُؤِيدًا، أي: وضعًا رُؤِيدًا»، سقط من (ح)، (ف).
 (٢) البيت للجموح الظفري كما في «اللسان» (٣: ١٨٩ - رود)، وانظر: «شرح القوائد السبع الطوال
 الجاهليات» لأبي بكر الأنباري، ص ٤٠٣. وقال الفراء: «رُؤِيدًا: تصغير (رود)، والرُود: المهل، يقال:
 فلانٌ يمشي على رُودٍ، أي: على مهل». انظر: «شرح المفصل» (٤: ٢٩) لابن يعيش.

سورة الأعلى

مكية، وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعى * فَجَعَلَهُ

عُشَاءً أَحْوَى] ﴿١-٥﴾

تسبيحُ اسمه عزَّ وعلا: تنزيهه عما لا يصحُّ فيه من المعاني التي هي إلحادٌ في أسمائه، كالجبرِ والتشبيه ونحو ذلك، مثل أن يفسَّرَ ﴿الْأَعْلَى﴾ بمعنى العلو الذي هو القهرُ والافتدَار، لا بمعنى العلوِّ في المكانِ والاستواءِ على العرشِ حقيقةً؛.....

سورة الأعلى

مكية، وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (مثل أن يُفسَّرَ ﴿الْأَعْلَى﴾)، متصلٌ بقوله: «تنزيهه»، أي: تسبيحُ اسمه: تنزيهه عما لا يصحُّ فيه، مثل أن يفسَّرَ ﴿الْأَعْلَى﴾ بمعنى العلوِّ الذي هو القهر والافتدَار، لا بمعنى العلوِّ في المكان.

الراغب: «العلوُّ ضدُّ السفلى، والعلوُّ: الارتفاع، وقد علَا يعلو علواً، وعلِي يعلو علواً فهو عليٌّ؛ ف«علا» بالفتح: في الأمكنة والأجسام أكثر، والعلِيُّ هو الرفيعُ القدر، من: عليّ، وإذا

وَأَنْ يُصَانَ عَنِ الْإِبْتِدَالِ وَالذِّكْرِ، لَا عَلَى وَجْهِ الْخُشُوعِ وَالتَّعْظِيمِ.....

وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يعلو أَنْ يَحِيطَ بِهِ وَصِفَ الْوَاصِفِينَ، بَلْ عَلِمَ الْعَارِفِينَ، وَعَلَى ذَلِكَ يُقَالُ: تَعَالَى، نَحْوُ: ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]. وَتَخْصِيصُ لَفْظِ التَّفَاعُلِ مِبَالِغَةٌ ذَلِكَ، لَا عَلَى سَبِيلِ التَّكْلِيفِ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْبَشَرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، أَي: أَعْلَى مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ أَوْ يُعْتَبَرَ بِغَيْرِهِ»^(١).

قَوْلُهُ: (وَأَنْ يُصَانَ عَنِ الْإِبْتِدَالِ)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «تَنْزِيهِهُ»، أَي: تَسْبِيحُ اسْمِهِ: تَنْزِيهُهُ ذَاتَهُ عَمَّا لَا يَصِحُّ فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي، وَأَنْ يُصَانَ اسْمُهُ مِنْ أَنْ يُتَبَدَّلَ، وَأَنْ يُذَكَّرَ إِلَّا عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَى (أَنْ يُفَسَّرَ)، عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنَ اللَّفِّ التَّقْدِيرِيِّ، بَأَنْ يُقَالُ: تَسْبِيحُ اسْمِهِ: تَنْزِيهِهُ عَمَّا لَا يَصِحُّ فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي، وَعَمَّا لَا يَلِيقُ بِاسْمِهِ مِنْ خِلَافِ التَّعْظِيمِ، فَالاسْمُ عَلَى الْأَوَّلِ مُقَحَّمٌ كَمَا فِي قَوْلِ الْقَائِلِ:

إِلَى الْحَوْلِ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكَ^(٢)

وإلى المعنى الأول ينظر قول محيي السنة: «قال قوم: نزه ربك عما يصفه الملحدون، جعلوا الاسم صلة^(٣)؛ يحتاج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحداً، لأن أحداً لا يقول: سبحان اسم الله، بل: سبحان الله»^(٤). وإلى المعنى الثاني، يلمح قوله: «وقال الآخرون: نزه تسمية ربك، بأن تذكره وأنت له معظّم ولذكره محترم، جعلوا الاسم بمعنى التسمية»^(٥).

(١) «مفردات القرآن» للراغب، ص ٥٨٢-٥٨٣ بتصرف.

(٢) البيت للشاعر لبيد بن ربيعة، وعجزه:

وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَى

انظر: «ديوانه»، ص ٢١٤.

(٣) في (ح): «صفة».

(٤) «معالم التنزيل» (٨: ٣٩٩).

(٥) المصدر السابق (٨: ٤٠٠).

وقال الإمام: «إنه كما يجب تنزيه ذاته وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعية لها عن الرفث وسوء الأدب»^(١).

وقال القاضي في «شرح المصابيح»: «قال مشايخنا: التسمية هو اللفظ الدال على المسمى، والاسم هو المعنى المسمى به»، كما أن الوصف قد يطلق ويراد به اللفظ، كذلك الاسم يطلق ويراد به المسمى، إطلاقاً لا اسم الدال على المدلول، وعليه اصطلاح النحاة. ويدل على أنه للمعنى دون اللفظ قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾، و﴿بَنَزَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [يوسف: ٤٠]؛ فإن من المعلوم أن عبدة الأصنام ما عبدوا اللفظ وإنما عبدوا المسمى.

وقالت المعتزلة: الاسم هو التسمية دون المسمى^(٢). وقال حجة الإسلام: «الاسم هو اللفظ الدال على المعنى بالوضع لغة، والمسمى هو المعنى الموضوع له، والتسمية: وضع اللفظ وإطلاقه»^(٣). وقال الراغب: «ما ذكّر من الخلاف في أن الاسم، هل هو المسمى أو هو غيره؟ كلاهما صحيح؛ فإن من قال: إن الاسم وهو زيد أو عمرو هو المسمى، نظر إلى قولهم: رأيت زيدا، وزيد رجل صالح، فإن زيدا هاهنا عبارة عن المسمى، والرؤية به تعلقت. ومن قال: هو غير المسمى، نظر إلى نحو قولهم: سميت ابني زيدا، وزيد اسم حسن، فإنه عنى أني سميت ابني بهذا اللفظ، وأن هذا اللفظ محكوم عليه بالحسن. فإذا، قولك: زيد حسن، لفظ مشترك يصح أن يعنى به أن هذا اللفظ حسن، وأن يعنى به أن المسمى حسن. وأما تصور من قال: لو كان الاسم هو المسمى، لكان من قال: النار أحرقت فمه، فهو بعيد، لأن عاقلاً لا يقول: إن زيدا الذي هو زاي، وياء، ودال، هو الشخص»^(٤).

(١) «مفاتيح الغيب» (١: ٩٦-٩٧)؛ قاله في تفسير الآية (١) من سورة الفاتحة.

(٢) انظر: «المواقف» (٣: ٣٠٣) للإيجي.

(٣) «المقصد الأسنى» للغزالي، ص ٣٠.

(٤) «مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة» للراغب، ص ١١١ بتصرف.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿الْأَعْلَى﴾ صفةً للرب، والاسم؛ وقرأ عليُّ رضي الله عنه: سبحانَ رَبِّي الأَعْلَى. وفي الحديث: لَمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال رسولُ الله ﷺ: «اجعلوها في رُكوعِكُمْ»، وكانوا يقولون في الرُّكوع: اللهم لك رَكَعْتُ، وفي السُّجود: اللهم لك سَجَدْتُ. ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي خلق كلَّ شيء فسَوَّى خَلْقَهُ تَسْوِيَةً، ولم يأتِ به متفاوتاً غيرَ ملتئم، ولكن على إحكامٍ واتِّساقٍ، ودلالةٍ على أنه صادرٌ عن عالم، وأنه صَنَعَةٌ حَكِيمٍ، ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قَدَّرَ لكلِّ حيوانٍ ما يُصلِحُهُ، فهدهاه إليه وعَرَّفَهُ وَجْهَ الانتفاعِ به؛ يُحَكِّمُ أَنْ الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنةٍ عَمِيَتْ،

واعلم أن المصنّف قال في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «ولله الأوصافُ الحسنَى، وهي الوصفُ بالعدلِ والإحسانِ وانتفاءِ الشَّبهِ بالخلق. وذرُوا الذين يُلحدون في أوصافه، فيصفونه بمشيئةِ القبائح، وخلقِ الفحشاءِ والمنكر، وبما يدخلُ في التشبيهِ كالرؤيةِ ونحوها»^(١). وأخفى هذه المعاني في قوله: «هي إلحادٌ في أسمائه كالجَبرِ والتشبيهِ ونحو ذلك» هاهنا^(٢).

ونحنُ معاشِرَ أهلِ السنة، ننزّهُ أسماءَه بأن نمجِّدَه بأسمائه الحسنَى الواردةٍ في النقلِ الصحيح، وننزّهُ صفاته بأن لا نخوضُ فيها من تلقاءِ أنفسنا، بل نصفُه بما جاء في الكتابِ والسنة، بعد أن نعتقدُ أنه تعالى ليس كمثله شيء.

قوله: (عن الابتذال)، الجوهرى: «ابتذال الثوب وغيره: امتهانه، والتبذُل: تَرَكِ التَّصَاوُنَ».

قوله: (وفي الحديث: لَمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤])، الحديثُ رواه أبو داودَ وابنُ ماجه والدارميُّ، عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ، وليسَ فيه: «وكانوا يقولون» إلى آخره^(٣).

(١) انظر: (٦: ٦٧٦).

(٢) انظر ما تقدم ص ٣٩٠.

(٣) الحديثُ أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابنُ ماجه (٨٨٧)، والدارمي (١٣٠٥).

وقد أهدمها الله أن مسح العين بورق الرّازيانج الغصّ يردُّ إليها بصرها، فربما كانت في برية بينها وبين الرّيف مسيرة أيام فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عمّاها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرّازيانج لا تُخطئها، فتحكُّ بها عينيها وترجعُ باصرةً بإذن الله. وهداياتُ الله للإنسان إلى ما لا يُحَدُّ من مصالحه وما لا يُحصَرُ من حوائجه في أغذيته وأدويته، وفي أبوابِ دنياه ودينه، وإلهاماتُ البهائم والطيور وهوامِّ الأرض: بابٌ واسعٌ، وشوْطٌ بطين، لا يحيطُ به وصفٌ واصفٌ؛ فسبحانَ ربي الأعلى. وقرئ: (قَدَرَ) بالتخفيف. ﴿أَحْوَى﴾ صفةٌ لـ«غشاء»، أي: ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنبته. ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته ورفيفه، ﴿غُشَاءً أَحْوَى﴾ دريناً أسود. ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَحْوَى﴾ حالاً من ﴿الْمَرْعَى﴾،

قوله: (وشوْطٌ بطين)، الأساس: «ومن المجاز: شأو بطين، أي: بعيد، قال كعب بنُ زهير^(١)».

فَبَصْبُصَنَ بَيْنَ أَدَانِي الْغَصَا وَبَيْنَ عُيْزَةِ شَاوَأَ بَطِينَا

وتباطنَ المكان: تباعد. بَصْبُصَ الكلبُ وتَبَصْبُصَ: حركَ ذنبه، والتَّبَصْبُصُ: التملُّق.

قوله: (وقرئ: «قَدَرَ» بالتخفيف)، الكسائي، والباقون: بالتشديد^(٢).

قوله: (ورفيفه)، الجوهري: «رَفَّ لَوْنُهُ يَرِفُ - بالكسر - رَفًّا ورفيفاً، أي: برق وتلألأ. ثوبٌ وشجرٌ رفيفٌ: إذا تَنَدَّتْ».

قوله: (دريناً أسود)، الجوهري: «الدَّرِين: حطامُ المرعى إذا قَدِمَ، وهو ما يَلِي مِنَ الحشيش، قَلَّ ما ينتفعُ به الإبل».

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَحْوَى﴾ حالاً من ﴿الْمَرْعَى﴾)، قال صاحبُ «الكشف»: ﴿أَحْوَى﴾ فَسَّرُوهُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَسْوَدٌ يَابِسًا، وَالثَّانِي: أَحْضَرَ يَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ لِشِدَّةِ الرِّي.

(١) في الأصول الخطية: «زهير»، وليس بصواب. انظر: «شرح ديوان كعب بن زهير»، ص ١٠٢.

(٢) حجة من قرأ بالتشديد لإجماع القراء عليه في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ مَّقَدَّدَةً نَقِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ فردُّ

ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٥٩.

أي: أخرجَه أحوى أسودَ من شدّة الخضرَة والرّي، ﴿فَجَعَلَهُ غَثَاءً﴾ بعد حوّته.

[﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ٦-٧]

بَشَّرَهُ اللهُ بِإِعْطَاءِ آيَةِ بَيِّنَةٍ، وَهِيَ: أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ جَبْرِيْلُ مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ وَهُوَ أَمِيٌّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ، فَيَحْفَظُهُ وَلَا يَنْسَاهُ، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فَذَهَبَ بِهِ عَنْ حِفْظِهِ بِرَفْعِ حُكْمِهِ وَتَلَاوِثِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ تُنْسِيَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وَقِيلَ: كَانَ يُعْجَلُ بِالْقِرَاءَةِ إِذَا لَقِنَهُ جَبْرِيْلُ، فَقِيلَ: لَا تُعْجَلْ، فَإِنَّ جَبْرِيْلَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْكَ قِرَاءَةً مُكَرَّرَةً إِلَى أَنْ تَحْفَظَهُ؛ ثُمَّ لَا تَنْسَاهُ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ تَذَكَّرَهُ بَعْدَ النِّسْيَانِ.....

فَعَلَى الثَّانِي: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ؛ إِذِ التَّقْدِيرُ: الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَحْوَى، أَي: أَخْضَرَ، فَجَعَلَهُ غَثَاءً، وَلَا يَكُونُ ﴿فَجَعَلَهُ غَثَاءً﴾ فَصْلًا بَيْنَ الصَّلَاةِ وَمُتَعَلِّقَهُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَجَعَلَهُ﴾ أَيْضًا فِي الصَّلَاةِ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَبَعْضِهَا جَائِزٌ^(١).

هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الْبَقَاءِ: «قِيلَ: ﴿أَحْوَى﴾ حَالٌ مِنَ ﴿الْمَرْعَى﴾، أَي: أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَخْضَرَ، ثُمَّ صَيَّرَهُ غَثَاءً؛ فَقَدَّمَ بَعْضَ الصَّلَاةِ»^(٢)، وَمِنْ ثَمَّ قَدَّرَ الْمَصْنُفُ: فَجَعَلَهُ غَثَاءً بَعْدَ حَوِّتِهِ. قَوْلُهُ: (فَيَحْفَظُهُ وَلَا يَنْسَاهُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾)، أَعْلَمَ أَنَّهُ أَجْرِي ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تَارَةً عَلَى حَقِيقَةِ الْإِسْتِثْنَاءِ، وَأُخْرَى عَلَى الْمَجَازِ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَعَلَى وَجْهِ:

أَحَدَهَا: قَوْلُهُ: «فَيَحْفَظُهُ وَلَا يَنْسَاهُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾». وَالْمُرَادُ بِالنِّسْيَانِ عَلَى هَذَا مَا هُوَ قَسِيمُ النَّسْخِ، مِنْ رَفْعِ الْحُكْمِ وَالتَّلَاوَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِيهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. وَيَلْحَقُ بِهَذَا الْوَجْهِ الْوَجْهُ الْأَخِيرُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾، عَلَى النَّهْيِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَنْسِيكَهُ بِرَفْعِ تَلَاوِثِهِ لِلْمَصْلُحَةِ».

وِثَانِيهَا: قَوْلُهُ: «أَنْ تَحْفَظَهُ ثُمَّ لَا تَنْسَاهُ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ»، فَإِنَّ النِّسْيَانَ عَلَى هَذَا هُوَ الْمُتَعَارَفُ، وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ: لَا يَنْسَاهُ نِسْيَانًا كَلْبِيًّا كَمَا قَالَ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٤٩).

(٢) «التيان» (٢: ١٢٨٣) للعكبري.

أو قال: إلا ما شاء الله، يعني: القلة والنُدرة، كما رُوي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسبَ أيُّ أنها نُسخت، فسأله فقال: نَسيتها أو قال: إلا ما شاء الله، الغرض نفي النسيانِ رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه: أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله. ولا يقصدُ استثناء شيء، وهو استعمال القلة في معنى النفي.....

والفرق بين الوجه الأول والثاني، هو أن الإقراء على الأول محمول على رعاية مصالح الدين، فالنسبُ أن الإنساء يُحمل على ما يجبُ أن يُنسى كالنسخ. وعلى الثاني كان الإقراء الحفظ، فاحتيج إلى التكرار؛ وإنما تكرر لأن يستقر ولا يُنسى فيتذكر، وإليه أشار بقوله^(١): «ثم تذكره بعد النسيان».

وثالثها: قوله: «قال: إلا ما شاء الله، يعني: القلة والنُدرة»، أي: أصل الحكم، أي لا ينسأه أثبتة، لأن النسيان غير مطلوب أصالة، قال الإمام: «ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع، بل من الآداب والسنن، لأنه لو نسي شيئاً من الواجبات لاختل أمر الشرع»^(٢).

وأما الثاني، فقوله: «قال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾»، والغرض نفي النسيان، وذلك على سبيل المبالغة، أي أنه تعالى لم يشأ النسيان، فلا يقع على مذهبه لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، قال المصنف: «عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله»^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِيَّايَ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، قال: «﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في معنى كلمة: تأييد، كأنه قيل: لا تقولنه أبداً»^(٤).

قوله: (وهو من استعمال القلة في معنى النفي)، مثاله: قل رجل يقول كذا، أي: ما رجل يقول كذا.

(١) من قوله: «والفرق بين الوجه الأول» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح)، (ف).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٢٩).

(٣) انظر: (٩: ٤٤٩)، في تفسير الآية (٢٤) من سورة الكهف.

(٤) انظر: (٩: ٤٤٩). وانظر: «شرح الأصول الخمسة» للقااضي عبد الجبار، ص ١٦٠.

وقيل: قوله ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ على النهي، والألفُ مزيدةٌ للفاصلة، كقوله: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، يعني: فلا تُغفلُ قراءته وتكريره فتنسَاهُ، إلا ما شاء الله أن يُنسيكهُ برفع تلاوته للمصلحة، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ يعني: أنك تجهرُ بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت، والله يعلمُ جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر، فلا تفعل، فأنا أكفيك ما تخافه. أو يعلمُ ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهرَ وبطنَ من أحوالكم، وما هو مصلحةُ لكم في دينكم ومفسدةٌ فيه، فينسى من الوحي ما يشاء؛ ويتركُ محفوظاً ما يشاء.

[﴿وَيُنَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ * فَذَكَرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيِّدَكَرْ مَنْ يَخْشَى * وَيَنْجِبَهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ * ٨-١٣]

﴿وَيُنَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ معطوفٌ على ﴿سَنُقَرِّثُكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ اعتراضٌ، ومعناه: ونوفقك للطريقة التي هي أيسرٌ وأسهل،

قوله: (وقيل: قوله ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ على النهي، والألفُ مزيدةٌ)، قال أبو علي: «بناه عن التشاغل والإهمال المؤدبين إلى نسيان ما يقرأ، لأن^(١) النسيان ليس بفعل الناسي فيُنهي عنه لأنه من فعل الله، فيُحْدِثُه عند إهمال تكريره وتَرْكِ مراعاته»^(٢). وقلت: ونحوه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقولهم: لا أرينك هاهنا، وإليه الإشارة بقوله: «فلا تُغفلُ قراءته وتكريره فتنسَاهُ».

قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ اعتراضٌ، فعلى الوجه الأول: هو كالتعليل لِمَا وردَ عليه قوله: ﴿سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، وإليه الإشارة بقوله: «إنك تجهرُ بالقراءة» إلى قوله: «فلا تُغفلُ، فأنا أكفيك ما تخافه». وعلى الثاني: توكيدٌ لمضمون الكلام السابق من مُفْتَحِ السورة واللاحق إلى مَخْتَمِهَا، لأنها محتوية^(٣) على الأمور الدنيوية والأخروية، ولذلك عمم المعنى

(١) في (ف): «إلا أن».

(٢) لم أهد إليه.

(٣) في (ح): «مجبولة»، وفي (ف): «مختومة».

يعني: حفظ الوحي. وقيل للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذاً. وقيل: نوفقك لعمل الجنة.

فإن قلت: كان الرسول ﷺ مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع، فما معنى اشتراط النَّفْع؟

قلت: هو على وجهين، أحدهما: أن رسول الله ﷺ قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتواً وطغياناً، وكان النبي ﷺ يتلظى حسرة وتلهفاً ويزداد جدأ في تذكيرهم وحرصاً عليه، فقيل له: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، فأعرض عنهم وقل: سلام،

وقال: «يعلم ما أسررتهم وما أعلنتهم من أقوالكم وأفعالكم» إلى آخره، فيكون الخطاب في ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ لكل أحد، ويقويه ما روينا من حديث عقبة بن عامر: «لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قال: اجعلوها في سجودكم»^(١).

والوجه الأول، وهو أن يختص الخطاب برسول الله ﷺ، أظهر وأوفق لتأليف النظم، لما ذكر أن نبي الله ﷺ كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل عليه السلام، فقيل له: لا تعجل، وسبح باسم ربك الأعلى الذي له تلك القدرة الكاملة من الخلق والتسوية وكيته وكيته، وله ذلك العلم الشامل من الإحاطة بالسر وأخفى. ثم عقب الأمر بقوله بالتسبيح ما كان مهتماً بشأنه من الخلق من قوله: ﴿سُنُّرَتِكَ فَلَا تَسْوَى﴾، ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْبُرَى﴾، جزاء لانتجائه إلى القادر على كل مقدور والعالم بكل معلوم، ووسط أحد الوصفين، أعني العلم، بين المعطوفين، لكونه أقرب من الآخر إلى المقصود، وإليه الإشارة بقوله: «والله يعلم جهرك معه، وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر»، ثم أتبع ذلك ما هو مبعوث به ومرسل إلى الخلق لأجله من قوله: «فذكر».

قوله: ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، فأعرض عنهم وقل: سلام، أي: أعرض عن هؤلاء الذين كررت التذكير معهم، وألزمت الحجة عليهم، وذكر لمن ينفع التذكير

(١) سبق تخريجه.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ وذلك بعد إلزام الحجّة بتكرير التذكير. والثاني: أن يكون ضهره شرطاً، ومعناه ذمّاً للمذكّرين، وإخباراً عن حالهم، واستبعاداً لتأثير الذكرى فيهم. وتسجيلاً عليهم بالطبع على قلوبهم، كما تقول للواعظ: عِظِ الْمَكَّاسِينَ إِنْ سَمِعُوا مِنْكَ. قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون،

معهم مِمَّنْ يَخَافُ وَعِيدَ اللّهِ، فيطابقه قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقلت: النظم يساعد قول الواحدي ومحبي السنة، قالوا: «عِظْ يَا مُحَمَّدُ أَهْلَ مَكَّةَ إِنْ نَفَعَ التَّذْكَيرُ أَوْ لَمْ يَنْفَعْ، لِأَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بُعِثَ مَبْلَغاً لِلْإِنذَارِ، فَعَلِيهِ التَّذْكَيرُ فِي كُلِّ حَالٍ نَفَعَ أَوْ لَمْ يَنْفَعْ، تَأْكِيداً لِلْحَجَّةِ وَاكْتِسَاباً لِلْمَثُوبَةِ، وَلَمْ يَذْكَرِ الْحَالَةَ الثَّانِيَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، لِيُوَافِقَ قَوْلَهُ: ﴿سَيَذَكُرُ مَنْ يَخْشَى * وَنَجِّنَبُهَا الْأَسْفَى * الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ١٠-١٢]»^(١).

قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾، يعني: منك التذكير، ومنهم الإقبال والقبول أو الاجتناب والإيابة، وللأولين الفلاح والنجاح، وللآخرين الصلّي بالنار الكبرى. «واعلم أنّ الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام: منهم من قطع بصحته، ومنهم من جور وجوده، ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالإثبات، ومنهم من أصرّ على إنكاره. والقسمان الأولان يتنفعون بالتذكير بخلاف الثالث، ولذلك قال: ﴿سَيَذَكُرُ مَنْ يَخْشَى * وَنَجِّنَبُهَا الْأَسْفَى﴾. ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على حصول الخشية في القلب، وصفات القلوب مما لا اطلاع لأحد عليها، وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلاً للمقصود، لأن المقصود تذكير من يتفجع بالتذكير، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير»^(٢)، هذا تلخيص كلام الإمام.

قوله: (المكّاسين)، أي: العشارين، الجوهرية: «المكّاس: العشار، والمكّس: ما يأخذه العشار».

(١) «الوسيط» (٤: ٤٧٠-٤٧١) للواحدي، وانظر: «معالم التنزيل» (٨: ٤٠١) للبغوي.

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٣١-١٣٢) بتصرف.

﴿سَيَذَكَّرُ﴾ فيقبل التذكرة ويتنفع بها، ﴿مَنْ يَحْشَى﴾ الله وسوء العاقبة، فينظر ويفكر حتى يقوده النظر إلى اتباع الحق: فأما هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين، فلا تأمل أن يقبوا منت. ﴿وَيَنْجَبُهَا﴾ ويتجنب الذكرى ويتحاماها، ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر؛ لأنه أشقى من النمسق. أو الذي هو أشقى الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: نزلت في الوئيد بن نعيبة وعتبة بن ربيعة. ﴿النَّارُ الْكُبْرَى﴾ السفلى من أطباق النار، وقيل: ﴿الْكُبْرَى﴾ نار جهنم والصغرى: نار الدنيا. وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ لأن الترجع بين الحياة والموت أقطع من الصبي. فهو متراح عنه في مراتب الشدة؛ والمعنى: لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه.

[﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤَوتُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ

وَأَبْقَى﴾ ١٤-١٧]

﴿تَزَكَّى﴾ تطهّر من الشرك والمعاصي، أو تطهّر للصلاة، أو تكثّر من التقوى، من الزكاء وهو النباء. أو تفعلّ من الزكاة، كتصدّق من الصدقة.

قوله: (لأن الترجع)، الترجع: التردد، الأساس: «ترجع في القول: تميل فيه»، قال الزجاج: «لا يموت موتاً يستريح به من العذاب، ولا يخفى حياة يجده معها روح الحياة»^(١).

قوله: (﴿تَزَكَّى﴾: تطهّر من الشرك والمعاصي)، قال الإمام: «هذا التفسير متعين، لأن مراتب أعمال المكلف ثلاث: أولها: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾. وثانيها: استحضار معرفة الله وصفاته وأسمائه، وهو المراد من قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾. وثالثها: الاشتغال بخدمة الله عز وجل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَصَلَّى﴾، لأن من تخلّى عن الرذائل وتحلّى بالفضائل، لا بد أن يظهر في جوارحه نور ذلك بالخضوع والخشوع»^(٢).

قوله: (أو تكثّر من التقوى: من الزكاء)، قال الزجاج: «ومعنى ﴿تَزَكَّى﴾: تكثّر من تقوى الله، ومعنى الزاكي: النامي الكثير»^(٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣١٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٣٤).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣١٦).

﴿فَصَلِّ﴾ أي: الصلوات الخمس، نحو قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177]، وعن ابن مسعود: رحم الله امرءاً تصدَّق وصلَّى. وعن علي رضي الله عنه أنه التصدَّق بصدقة الفطر وقال: لا أبالي أن لا أجد في كتابي غيرها، لقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: أعطى زكاة الفطر، فتوجَّه إلى المصلِّي، فصلَّى صلاة العيد، وذكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح. وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة، لأن الصلاة معطوفة عليها، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسائه عز وجل. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ذَكَرَ مَعَادَهُ وَمَوْفَقَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ فَصَلَّى لَهُ.....

قوله: (نحو قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177])، قال الإمام: «وفيه إشكال، لأن عادة الله تقديم الصلاة على الزكاة، والأولى: تزكئ من الشرك والمعاصي ثم صلَّى، أو تطهَّر للصلاة ثم صلَّى»^(١).

قوله: (أي: أعطى زكاة الفطر، فتوجَّه إلى المصلِّي)، قال الإمام: «وفيه إشكال لأن السورة مكية بالإجماع، ولم يكن حيثيذ عيداً ولا فطر»^(٢). وفي «السيط»^(٣): «لا يمتنع أن يقال: إن الله تعالى أخبر عمَّا سيكون».

قوله: (وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة، لأن الصلاة معطوفة عليها)، قال الإمام: «إن الآية دلَّت على مدح من ذَكَرَ اسمَ الله فصلَّى عقبيه، وليس فيها أنها تكبيرة الإحرام، ولعل المراد: ذَكَرَ الله بقلبه وذَكَرَ ثوابه وعقابه، فدعاه ذلك إلى فعل الصلاة»^(٤).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٣٤) بتصرف.

(٢) المصدر السابق (٣١: ١٣٤).

(٣) في الأصول الخطية: «الوسط»، وليس بصواب؛ وصوابه: «السيط»، لأن الرأي المنقول عن الواحدي في الثاني له، لا في الأول. انظر: «السيط» (٢٣: ٤٤٨) للواحدى بتصرف.

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٣٤).

وعن الضحاك: وذكر اسم ربّه في طريق المصلّي فصلّى صلاة العيد ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ فلا تفعلون ما تفلحون به. وقرئ: (يؤثرون) على الغيبة. ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود: بل أنتم تؤثرون. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أفضل في نفسها وأنعم وأدوم. وعن عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفحة أرنب.

[إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى * ١٨ - ١٩]

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى ﴿وَأَبْقَى﴾ يعني أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وقيل: إلى ما في السورة كلها. وروي: عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مئة وأربعة كتب، منها على آدم: عشرُ صحف، وعلى شيث: خمسون صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس: ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم: عشرُ صحائف والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان. وقيل: إن في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسان، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

قوله: («يؤثرون» على الغيبة)، أبو عمرو: بالياء التحتانية، والباقون: بالتاء. وعلى الغيبة الضمير لأهل مكة، أمر رسول الله ﷺ بالتذكير نفع أم لم ينفع، ثم أضرب عنه بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾، ولذلك لا ينجع فيهم الترغيب والترهيب.

وعلى الخطاب عام لكل أحد، والمضروب عنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، أي: أنتم، يا بني آدم، تؤثرون الحياة الدنيا، لأنه من جيلتكم كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، فلا تفعلون ما تفلحون به.

قوله: (إلا كنفحة أرنب)، النهاية: «وفي الحديث: «ما الأولى عند الآخرة إلا كنفحة أرنب»، أي: كوثيته من مجثمه، يريدُ تقليل مدتها».

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ الأعلى، أعطاه اللهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعددِ كُلِّ حرفٍ أنزله اللهُ على إبراهيمَ وموسىَ ومحمدٍ».

وكان إذا قرأها قال: سبحانَ ربي الأعلى، وكان عليٌّ وابنُ عباسٍ يقولان ذلك.
وكان يحبُّها وقال: أوَّلُ من قال (سبحانَ ربي الأعلى): مكيائيل عليه السلام.

قوله: (وكان يحبُّها)، أي: الرسول ﷺ.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سورة الغاشية

مكية، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تَشْفَى مِنْ عَيْنٍ أَدِيمَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [٧-١]

﴿الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني القيامة، من قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وقيل: النار، من قوله: ﴿وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، ﴿وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشيت، ﴿خَشِيعَةً﴾ ذليلة. ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه،

سورة الغاشية

مكية، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (تعمل في النار عملاً)، ذكر في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ وجوهاً ثلاثة: الأول مبني على أن العمل والتعب كلاهما في الآخرة، والثاني أن العمل في الدنيا والنصب في الآخرة، والثالث أن العمل والنصب كلاهما في الآخرة. وفي أن يكون العمل والنصب في الدنيا إشكال، لأن ﴿خَشِيعَةً * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أخبار لـ ﴿وَجُوهٌ﴾، وقد قيّدت بقوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛

وهو جَرَّهَا السَّلَاسِلَ والأغلالَ، وخوضُها في النار كما تخوضُ الإبل في الوَحْل، وارتقاؤها دائبةً في صعودٍ من نار، وهبوطها في حدودٍ منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمالَ السوء والتذت بها وتنعمت، فهي في نصبٍ منها في الآخرة، وقيل: عملت ونصبت في أعمالٍ لا تجدي عليها في الآخرة. من قوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان: ٢٣]. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٢]، وقيل: هم أصحابُ الصَّوامع، ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصَّومِ الدائب، والتهجدِ الواصب. وقرئ: (عاملةٌ ناصبةٌ) على الشتم. وقرئ: ﴿تَصَلَّى﴾ بفتح التاء و﴿تُصَلَّى﴾ بضمها. و﴿تُصَلَّى﴾ بالتشديد.

فالوجه أن يُجْعَلَا خبرين لمبتدأ محذوف، حكايةً عن الحالِ الماضية كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَكِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، كأنه تعالى يخبرُ عن أحوالهم في القيامة على سبيلِ الحكاية عن الحالِ الماضية.

قوله: (دائبةً)، الجوهري: «دأب في عمله، أي: جدَّ وتعب، دأباً ودؤباً فهو دائب، والدائبان: الليل والنهار».

قوله: (وهبوطها)، عطفٌ على «ارتقاؤها»، و«في صعود» خبره. كما أن «في حدودٍ منها» خبرٌ «هبوطها»، و«دائبةً» حالٌ من الضمير في الجازِّ والمجرور. والجملتان مُبَيَّنَاتٌ لتشبيهِ العاملِ بخوضِ الإبل في الوَحْل.

قوله: (الواصب)، الجوهري: «وَصَبَ الشيءُ يَصِبُ وصوباً: إذا دام»، أي: ما نفعها هذه الأفعال لأنها لم تكن مع الإيوان.

قوله: (وقرئ: ﴿تَصَلَّى﴾ بفتح التاء)، أبو عمرو وأبو بكر: بضمِّ التاء، والباقون: بفتحها، وبالتشديد: شاذ^(١).

(١) أي: تُصَلَّى، على المبالغة؛ قرأها أبو عمرو من طريق ثانية. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٣٤٧) لأبي حيان.

وقيل: المصلى عند العرب: أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمرأ كثيراً، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه، فأما ما يُشوى فوق الجمر أو على المقل أو في التنور، فلا يُسمى مصلياً. ﴿أَنِيقٌ﴾ متناهية في الحر، كقوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَيْ﴾ [الرحمن: ٤٤]. الضريع: يبسُ الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته الإبل، وهو سُم قاتل، قال أبو ذؤيب:

رَعَى الشُّرِقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى وَعَادَ صَرِيحاً بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ

وقال:

وَحُسْنٌ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكُلُّهَا حَدْبَاءٌ دَامِيَةٌ الْيَدَيْنِ حَرُودٌ

قوله: (وقيل: المصلى عند العرب أن يحفروا حفيراً)، قيل على هذا: معنى الآية معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، ﴿لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

قوله: (رعى الشبرق) البيت^(١)، إذا ذوى: أي ذبل. النحوص: الأتان الحائل.

قوله: (وحسن) البيت^(٢)، الهزم: ما يبس وتكسر من الضريع. وناقء حدباء: إذا بدا عظم وركها، والحرود: قليلة اللبن؛ يصف نوقاً حسن في مرعى سوء غير ناجع، وهزلن، وكلهن داميات الأيدي من وضعها على الضريع ذي الشوك، عُصْبِن^(٣) من سوء الحال، أو قليلة اللبن.

(١) لم أقف على البيت في «شرح أشعار الهذليين»، وهو مما ينسب لأبي ذؤيب. انظر إشارة المحقق إلى ذلك المصدر نفسه (٣: ١٣٠٩).

(٢) البيت لقيس بن العيزارة الهذلي، انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٢: ٥٩٨).

(٣) في (ط): «وغضبي». الناقاة العصبوب: هي التي لا تُدِرُّ حتى تُعَصَّب. انظر: «فقه اللغة» للثعالبي، ص ١٩٤.

فإن قلت: كيف قيل ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ وفي الحاقه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾ [الحاقة: ٣٦]. قلت: العذاب ألوان، والمعذبون طبقات؛ فمنهم أكلة الرزوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾. ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام، أو ضريع، يعني: أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس، وإنما هو شوك، والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به. وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقره. ومنفعتا الغذاء متفتيتان عنه: وهما إماطة الجوع، وإفادة القوة والسمن في البدن. أو أريد: أن لا طعام لهم أصلاً: لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن، وهو منها بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد: نفى الظل على التوكيد. وقيل: قالت كفار قريش: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فتزلت ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ فلا يخلو: إما أن يتكذبوا ويتعتتوا بذلك وهو الظاهر، فإرد قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدّقوا فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير مُسمن ولا مُغنٍ من جوع.

[﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ * لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيبةٌ * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَائِبٌ مَبْنُوتَةٌ﴾ [٨-١٦]

﴿نَاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة وحسن، كقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، أو مُتَنَعِمَةٌ. ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضية بعملها لسا رأته ما أداهم إليه من الكرامة والثواب. ﴿عَالِيَةٍ﴾ من علو المكان أو المقدار.....

قوله: (فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعتتوا بذلك) إلى آخره، الانتصاف: «فعلى الأول يكون صفة لازمة شارحة لحقيقة الضريع، وعلى الثاني صفة مخصصة»^(١).

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٤٢)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٨) للعراقي.

﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب، أو الوجوه، ﴿لَغِيَةً﴾ أي: لَغَوًا، أو كلمة ذات لَغْوٍ، أو نفساً تلغو، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رَزَقَهُم من النعيم الدائم.....

قوله: ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ (يا مخاطب)، أي: هو من الخطاب العام، كقوله:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ (١)

قوله: (أو كلمة ذات لغو)، قيل: يريد أن لغواً يجوز أن يكون مصدرًا أو صفةً، فإن كان صفةً؛ فإما صفة «كلمة»، أي: كلمة ذات لَغْوٍ، وإما صفة «نفس» وهو ظاهر، قال صاحب «الكشف»: «لاغية: لغواً، كالعافية والعاقبة» (٢).

قوله: (لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة)، قال الإمام: وهو قول الزجاج (٣)، وقال القفال: «أهل الجنة مُنْزَهُونَ عن اللغو لأنها منزل جيران الله، وهكذا كل مجلس في الدنيا شريف مكرم يكون مبرءاً عن اللغو» (٤). وقلت: ومن ثم وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مجلس رسول الله ﷺ بقوله: «لا تُثْنِي فَلَئِنَّا» (٥)، أي: لا فَلَئِنَّا ولا إِنْشَاءً (٦).

(١) البيت لأبي الطيب، وعجزه:

وإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمْرَدًا

وهو ذائع الصيت، انظر: «العرف الطيب» (٢: ١٨٣).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٥٠).

(٣) أي: «لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة» قول الزجاج، انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣١٨).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٤١).

(٥) من حديث طويل للحسن والحسين سبَّطِي رسول الله ﷺ، ومنه أن الحسين رضي الله عنه سأل أباه عن مجلس رسول الله ﷺ، فأجابته: «مجلسه مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الْحُرْمُ، وَلَا تُثْنَى فَلَئِنَّا، مُتَعَادِلِينَ يَتَفَاوَضُونَ فِيهِ بِالْتَقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ يُوقِرُونَ الْكَبِيرَ، وَيُرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيُؤَيِّرُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ، وَيَحْفَظُونَ الْعَرِيبَ». انظر: «المعجم الكبير» (١٧٨٦٨) للطبراني، و«دلائل النبوة» (١: ٢٨٦ وما بعدها) للبيهقي. والفَلَئِنَاتُ: السَّقَطَاتُ، والمعنى هنا: لَمْ يَكُنْ لِمَجْلِسِهِ ﷺ فَلَئِنَاتٌ يَحْتَاجُ أَحَدٌ أَنْ يَحْكِيهَا. وانظر: «المثل السائر» (٢: ٢٤٨) لابن الأثير.

(٦) في (ط): «لا تُثْنِي فَلَئِنَّا»، أي: لا فَلَئِنَّا ولا إِنْشَاءً.

وقرى: ﴿لَا تُسْمَعُ﴾ على البناء للمفعول بالتاء والياء. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يريد عيوناً في غاية الكثرة، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤]، ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار أو السمك، ليرى المؤمنُ بجلوسه عليه جميع ما حوَّله ربُّه من الملك والنعيم. وقيل: مخبوءة لهم، من رَفَعَ الشيءَ إِذَا خَبَّاهُ.....

قوله: (وقرى: «لا تُسمع» على البناء للمفعول)، ابن كثير وأبو عمرو: بالياء التحتانية. و«لاغية» بالرفع، ونافع: كذلك إلا بالتاء^(١). والباقون: بالتاء المفتوحة، و«لغية» بالنصب.

قوله: (يريد عيوناً في غاية الكثرة كقوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤])، قال في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤]: «هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه»^(٢). وقلت: هذا التعكيس يجيء: تارةً على التهكم نحو قوله: ﴿زُبَيْمًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢]، وأخرى على التمليح كما نحن بصديده، وقول الشاعر:

قد أترك القِرْنَ مُصْفَرًا أَنَامِلُهُ^(٣)

وقوله تعالى: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(١) أي: قرأ بالتاء: لا تُسمعُ لاغيةً. وحجة ابن كثير وأبي عمرو أنها موافقة لإعراب رؤوس الآي قبلها وبعدها، ولأن الخطاب ليس مصروفاً إلى واحد. وجاءت «لا تُسمعُ» على لفظ اللاغية دون المعنى؛ الذي هو «اللغو». انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٦٠.

(٢) انظر ما تقدم ص ٣١٣.

(٣) البيت للخنساء، وعجزه:

كَأَنَّ فِي رِيظَتَيْهِ تَضَعُ رَمَانَ

انظر: «ديوانها» بشرح ثعلب، ص ٤١٤. وقد ورد صدر البيت نصاً عند ذي الرمة، قال:

والتارك القِرْنَ مُصْفَرًا أَنَامِلُهُ فِي صَدْرِهِ قِصْدَةٌ مِنْ عَامِلٍ صَرِدٍ

انظر: «ديوانه»، ص ٧٢.

﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ كلما أرادوها وجدوها موضوعةً بين أيديهم، عتيده حاضرة، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها. أو موضوعةً على حافاتِ العيونِ معدةً للشرب. ويجوزُ أن يراد: موضوعةً عن حدِّ الكبار، أو ساطُ بين الصَّغِيرِ والكَبِيرِ، كقوله: ﴿قَدَرُوهَا نَقِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى جنبِ بعض، مساندةً ومطارح، أينما أراد أن يجلسَ جَلَسَ على مِسْوَرَةٍ واستندَ إلى أخرى. ﴿وَزْرَائِيٌّ﴾ وبُسْطُ عِرَاضٍ فاخرة. وقيل: هي الطنافسُ التي لها خَمَلٌ رقيق. جمع زِرِّيَّة، ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطةٌ أو مفرقةٌ في المجالس.

[﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ١٧-٢٦]

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ نظر اعتبار، ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً عجيباً، دالاً على تقديرٍ مقدر، شاهداً بتدبيرٍ مدبر، حيث خلقها للنهوضِ بالأنقالِ وجَرَّها إلى البلادِ الشاحطةِ فجعلها تبركاً حتى تحملَ عن قُرْبِ وِسْر، ثم تنهَضُ بما حملت، وسخرها منقادةً لكلِّ من اقتادها بأرمتها: لا تُعَازُ ضعيفاً ولا تُمانعُ صغيراً،

قوله: (جلس على مسورة)، جزاءً للشرط، أي: النهارقُ بعضها مساندةً وبعضها مطارح، أي: مفارش، أينما أراد أن يجلسَ جلسَ على وِسَادَةٍ مثل الفراش، وأسندَ إلى وِسَادَةٍ لأنَّ النهارقَ الوسائدُ مطلقاً، قال الواحدي: «نهارقُ: وسائد، على قولِ الجميع، واحدها تُمْرِقَةٌ بضمِّ النون، وعن الفراء: مُفْرِقَةٌ، بكسر النون»^(١).

قوله: (على مسورة)، الأساس: «جلس على المسورة وجلسوا على المساور، وهي الوسائد».

(١) «الوسيط» (٤: ٤٧٥) للواحدي، وانظر: «معاني القرآن» (٣: ٢٥٨) للفراء.

وَبَرَّأَهَا طِوَالَ الْأَعْنَاقِ لَتَنوَاءَ بِالْأَوْقَارِ. وعن بعض الحكماء، أنه حَدَّثَ عن البعيرِ وبديعِ خَلْقِهِ، وقد نشأ في بلادٍ لا إبلَ بها، ففكَّرَ ثم قال: يوشكُ أن تكونَ طِوَالَ الْأَعْنَاقِ، وحينَ أرادَ بها أن تكونَ سفائنَ البرِّ صَبَّرَهَا على احتمالِ العَطَشِ؛ حتى إن أظماءَها لترتفعُ إلى العِشْرِ فصاعداً، وجعلها ترعى كلَّ شيءٍ نابتٍ في البراري والمفاوزِ مما لا يرعاه سائرُ البهائمِ. وعن سعيد بن جبیر قال: لقيتُ سُريماً القاضي فقلت: أين تريد؟ قال: أريد الكُنَاسَةَ: قلتُ: وما تصنعُ بها؟ قال: أنظرُ إلى الإبلِ كيف خُلِقَتْ.

فإن قلت: كيف حَسَنَ ذِكْرُ الإبلِ مع السماءِ والجبالِ والأرضِ ولا مناسبة؟

قوله: (برأها)، أي: خلقها. الجوهري: «برأ الله الخلقَ برءاً، والبرئَةُ: الخلق». قال المصنف: «البارئ: هو الذي خلق الخلقَ بريئاً من التفاوت»^(١).

قوله: (لتنوء بالأنقال)^(٢)، الجوهري: «نأء بالِحِمْلٍ: إذا نهَضَ به مُثْقَلاً، ونأء به الحِمْلُ إذا أثقله». يعني: الحكمةُ في خَلْقِ طُولِ أعناقِها، اقتدارُها على النهوضِ بالأحمالِ الثقيلة؛ فإنَّ الأعناقَ وعليها الرُّؤوسُ مع تلك الأثقالِ، كالفَرَسَطون^(٣) تُجْعَلُ فيه القناطيرُ، ويجعلُ في أقصاه مقداراً يسير، فيوازي ذلك الثقيلَ باستعانةِ الطولِ فيه.

قوله: (لترتفع إلى العِشْرِ)، الجوهري: «العِشْرُ بالكسر: ما بين الوَرْدَيْنِ، وهو ثمانية أيام، لأنها تردُّ اليومَ العاشرَ. وكذلك الأظماءُ كُلُّها بالكسر. وليس لها بعد العِشْرِ اسمٌ إلا في العشرين، فإذا وَرَدَتْ يومَ العشرين قيل: ظمُّوها عِشْرانَ، وهو ثمانية عشرَ يوماً. فإذا جاوزتِ العشرين فليس لها تسميةٌ، فإنما هي حَوَازِي بالحاءِ والزاي. حَوَزَ الإبلُ: ساقها إلى الماء».

قوله: (الكناسة)، الجوهري: «هي القُمامة، وهي اسمٌ موضعٍ في الكوفة».

(١) انظر: (٢: ٤٩٠)؛ في تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) في «الكشاف»: بالأوقار، وهما بمعنى واحد.

(٣) الفَرَسَطون: هو القَبَانُ بلغة أهل الشام كما قال الأزهرى. انظر: «تهذيب اللغة» (٩: ٢٩٠) (مادة:

قسطس)، و«روح المعاني» (٨: ٧٠).

قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظراً للعرب في أوديتهم وبواديمهم؛ فانتظمتها الذكر على حسب ما انتظمتها نظراً لهم، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والعين، وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مُشَبَّهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز. ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعاً بعيد المدى بلا مساكٍ وبغير عمد. ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً ثابتاً، فهي راسخة لا تميل ولا تزول، و﴿كَيْفَ سَطِحتْ﴾ سطحاً بتمهيد وتوطئة، فهي مهادٌ للمتقلب عليها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خلقت، ورفعت، ونصبت، وسطحت، على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها، فحذف المفعول. وعن هارون الرشيد أنه قرأ: ﴿سَطِحتْ﴾ بالتشديد

قوله: (الإطلب المناسبة)، استثناء مفرغ، أي: لم يدعه شيء إلا طلب المناسبة.

قوله: (على طريق التشبيه والمجاز)، والمجاز عطف على طريق البيان، أي المجاز الذي يقع على طريق التشبيه، وهو الاستعارة، أي: استعار الإبل للسحاب بعد^(١) التشبيه به، والقرينة انضمامه مع السماء والجبال^(٢).

قوله: (بلا مساك)، الجوهرية: «يقال فيه: إمساكٌ ومساكٌ ومساكة، أي: بُخل».

قوله: (﴿سَطِحتْ﴾ بالتشديد)، قال ابن جني: «ولإنما جاز التضعيف بالتكرير، من قبل أن الأرض بسيطة فسيحة، فالعمل فيها مكرراً على قدر سعتها، كقولك: قُطعتِ الشاة، لأنها أعضاء يختص بكل عضو منها عمل»^(٣).

(١) من قوله: «البيان، أي المجاز» إلى هنا، سقط من (ح)، (ف).

(٢) قال الإمام في المناسبة بينها: «التناسب فيها أن الكلام مع العرب وهم أهل أسفار على الإبل في البراري، فربما انفردوا فيها، والمنفرد يتفكر لعدم رفيق يحادثه وشاغل يشغله، فيتفكر فيما يقع عليه طرفه؛ فإذا نظر لسا معه رأى الإبل، وإذا نظر لما فوقه رأى السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً رأى الجبال، وإذا نظر لأسفل رأى الأرض، فأمر بالنظر في خلوته لما يتعلق به النظر من هذه الأمور، فبينها مناسبة بهذا الاعتبار».

«مفاتيح الغيب» (٣١: ١٤٤) بتصرف.

(٣) «المحتسب» (٢: ٣٥٥-٣٥٦).

والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقاتِ الشاهدةِ على قدرة الخالق، حتى لا ينكروا اقتداره على البعثِ فيسمعوا إنذارَ الرسولِ ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقاءه. أي: لا ينظرون، فذكّرهم ولا تُلحّ عليهم، ولا يُمنكّ أنهم لا ينظرون ولا يذكرون، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ كقوله: ﴿إِن عَلَيكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ بمسَلَط،

قوله: (أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقاتِ الشاهدةِ على قدرة الخالق، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث)، بيانٌ لتوافقِ نَظْمِ الآياتِ بفتحةِ السورة، وأن الخطابَ بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ مع العرب، وأن هذه الأشياءَ المذكورةَ منتظمةٌ على حسبِ عُرْفِهِمْ، وما ثبت في متخيلاتهم في أوديتهم وبواديه، نبتهم أولاً بقوله ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾، وفحْمِ المستفهم منه وعظّمه؛ إذ المعنى: تنبّهوا لهذا الأمرِ الخطيرِ والخطبِ الجسيم، وهبوا من رعدةِ الغفلة، فخوّفهم بالصّلَى في النارِ وبإطعامِ الضريع، ولما كانَ حديثاً مناسباً للإبل كما قال، وهو جنسٌ من الشوكِ ترعاه الإبلُ ما دام رطباً، وأرادَ أن يقرّر ذلك، أتى بتنبيةٍ آخرَ على سبيلِ النظر^(١)، ليضمّم شاهدَ العقلِ مع شاهدِ النصّ، وأتسّس الدلائل والشواهدَ على حسبِ ما ألقوه في بواديه وأوديتهم، وعدلَ من الخطابِ إلى الغيبةِ توبيخاً لهم وتنبيةً على مظانّ الافتكار، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى آخره. قال الإمام: «لعلّ الحكمةَ في ذكرِ هذه الأشياءِ المتباينة، التنبيةُ على أنّ هذا الوجهَ من الاستدلال، غيرُ مختصّ بنوعٍ دون نوع، بل هو عامٌّ في الكلِّ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا نُسِجُ بَحْرٍ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو ذكرَ نوعاً أو نوعين وراعى بينهما المناسبةَ لم يكن كذلك، بل ذكرَ أموراً متباعدةً جداً، ليؤدّن بأن الأجرامَ العلويةَ والسفليةَ، عظيمةَ وحقيرةَها، صغيرةَها وكبيرةَها، متساويةٌ في الدلالةِ على الصانعِ الحكيم. وهذا وجهٌ حسنٌ مقبولٌ وعليه الاعتماد»^(٢).

قوله: ﴿بِمُصَيِّرٍ﴾: بمسَلَط، الجوهرى: «المصيطرُ والمصيطرُ: المسَلَطُ على الشيءِ

(١) في (ف): «النظم».

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٤٣).

كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء؛ على أن (سَيَطِرَ) متعدّدٌ عندهم وقولهم: تُسَيِّطِرُ يَدُلُّ عَلَيْهِ. ﴿مَنْ تَوَلَّى﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لست بمستولٍ عليهم، ولكن مَنْ تَوَلَّى ﴿وَكَفَرَ﴾ منهم؛ فإنَّ الله الولاية والقهر. فهو يعذبُه ﴿الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ الذي هو عذابُ جهنم. وقيل: هو استثناءٌ من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّرْ إلا مَنْ انقطعَ طمعك من إيمانه وتولّى، فاستحقَّ العذابَ الأكبرَ وما بينهما اعتراض. وقرئ: ﴿أَلَا مَنْ تَوَلَّى﴾ على التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود: (فإنَّه يعذبُه).

ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. وأصله من السَّطْر، لأن الكتابَ مُسَطَّرًا، والذي يفعلُه مُسَطَّرٌ ومسيطرٌ، يقال: سيطرتُ (١) علينا.

قوله: (وقولهم: تُسَيِّطِرُ)، قيل: لَمَّا جاء «تُسيطر» بمعنى: تسلط، دلَّ على أن «مسيطر» متعدّدٌ كما قالوا: دَخَرَجَ وتَدَحَّرَجَ.

قوله: (وقيل: هو استثناءٌ من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾)، الكواشي: «هو استثناءٌ متصلٌ، أي: فذكِّرْ إلا مَنْ لا مطمع لك في إيمانه»، وقال القاضي: «الاستثناءٌ متصلٌ؛ فإنَّ جهادَ الكفارِ وقتلهم تسلطٌ، وكأنه أوعدهم بالجهادِ في الدنيا، وما بينهما اعتراض» (٢).

وقلت: كأنه قيل: لست عليهم بمسيطر، أي بمتسلطٍ بالقتلِ والجهادِ إلا مَنْ تَوَلَّى وكفر. وقال القاضي: «وما يدلُّ على ترجيح الاستثناء المنقطع، قراءةٌ من قرأ: أَلَا، على التنبيه» (٣).

قوله: (وقرئ: ﴿أَلَا مَنْ تَوَلَّى﴾)، قال ابن جني: «قرأ ابن عباس وزيد بن أسلم وقاتدة وزيد بن علي: أَلَا، بالتخفيف، وهو افتتاحُ كلام، و«مَنْ» شرطٌ وجوابه «فيعذبُه الله»، كقولهم: مَنْ قامَ فيضربُه زيدٌ، أي: فهو يضرُّه زيدٌ، أي: مَنْ يتولَّى ويكفرُ به فهو يعذبُه الله» (٤).

(١) في «الصَّحاح»: «سيطرت»، ولعلَّ صوابه ما أثبتناه من شرح الإمام الطَّيْبِيِّ.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٨٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «المحتسب» (٢: ٣٥٦).

وقرأ أبو جعفر المدني (إِيَابَهُمْ) بالتشديد. ووجهه أن يكون (فِعَالاً) مصدر (أَيَّبَ) فَيَعَلَّ من الإياب. أو أن يكون أصله إِيَاباً: فِعَالاً من أَوَّبَ، ثم قيل: إِيوَاباً كديوان في دِوَانٍ، ثم فُعَلَّ به ما فُعَلَّ بأصل: سَيِّدٌ وَمَيِّتٌ.

فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟

قلت: معناه التشديد في الوعيد، وأن إِيَابَهُمْ ليس إلا إلى الجبارِ المقتدرِ على الانتقام، وأن حسابَهُمْ ليس بواجبٍ إلا عليه، وهو الذي يحاسبُ على النقيِرِ والقِطْميرِ. ومعنى الوجوب: الوجوبُ في الحكمة.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ «الغاشية»، حاسبه الله حساباً يسيراً».

قوله: (ما فُعَلَّ بأصلِ سيّد)، أي سيّد، جعل الواو ياءً لكسرة ما قبله وأدغم في الياء، كذا جعل الواو في إِيوَابٍ ياءً وأدغم، قال الزجاج: «أدغمت الياء في الواو، وانقلبت الواو ياءً لأنها سُبقت بسكون»^(١).

قوله: (التشديدُ في الوعيد)، وذلك أنه تعالى علَّلَ قوله: ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ بقوله ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾، والتفت فيه من الغيبة إلى الحكاية، ومن الاسمِ الجامعِ إلى صيغة الكبرياء والجبروت، وقدمَ الظرفينِ على عامليهما، وإليه الإشارةُ بقوله: «ليس إلا إلى الجبارِ المقتدر».

الانتصاف: «وفي «ثم» الدلالة على أن الحسابَ أشدُّ من الإياب، لأنه موجبُ العذاب وبدؤه»^(٢).

قوله: (ومعنى الوجوبِ الوجوبُ في الحكمة)، الانتصاف: «أخطأ على عادته في قاعدته،

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣١٩).

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٤٥)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٨) للعراقي.

ولا يجبُ على الله شيءٌ»^(١).

وقال الإمام: «محاسبة الكفار إنما تكون لإيصال العقاب إليهم، وذلك حقُّ على الله، ولا يجبُ على المالك أن يستوفي حقَّ نفسه. ومعنى الوجوب: امتناع وقوع الخلف من الله تعالى بحكم الوعد»^(٢).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِحَمْدِ اللَّهِ

* * *

(١) لم أقف على قول ابن المنير في حواشيه على «الكشاف»، وكلامه بنصه في «الإنصاف» (ق ١٤٨) للعراقي.

وأشير هنا إلى أن نقول الطيبي عن ابن المنير، هي بواسطة «الإنصاف» لا من «الانتصاف» مباشرة.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٤٦).

سورة الفجر

مكية، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالْفَجْرِ* وَلَيْلٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ* هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَمِيرٍ﴾ ١-٥].

أقسم بالفجر كما أقسم بالصُّبْحِ في قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ﴾ [المدثر: ٣٤]، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، وقيل: بصلاة الفجر. أراد بالليالي العَشْرَ: عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ.

فإن قلت: فما بالها منكراً من بين ما أقسم به؟

قلت: لأنها ليالٍ مخصوصةٌ من بين جنسِ الليالي: العشرُ بعضُ منها. أو مخصوصةٌ

بفضيلةٍ ليست لغيرها.

سورة الفجر

مكية، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (أو مخصوصةٌ بفضيلةٍ ليست لغيرها)، يريد أن التنكير للتفخيم والتهويل، وعلى الأولٍ للتقليل؛ فقوله: «بعضُ منها» بدلٌ من «ليالٍ» إلى آخره، فقسَمَ الأزمانَ عشراً عشراً وجعلهُ جنساً، وأرادَ بها بعضاً منها.

فإن قلت: فهلا عُرِّفَتْ بلامِ العَهْدِ، لأنها لِيَالٍ معلومةٌ معهودة؟

قلتُ: لو فُعِلَ ذلك لم تستقلَّ بمعنىِ الفضيلةِ الذي في التنكير؛ ولأنَّ الأحسنَ أن تكونَ اللاماتُ متجانسةً، ليكونَ الكلامُ أبعدَ من الألغازِ والتعميةِ. وبالشفعِ والوترِ: إما الأشياءُ كلها شَفَعَهَا وَوَتَّرَهَا، وإما شَفَعَ هذه الليالي وَوَتَّرَهَا. ويجوزُ أن يكونَ شَفَعَهَا يومَ النَّحرِ، وَوَتَّرَهَا يومَ عرفة، لأنه تاسعُ أيامِها وذاك عاشُرُها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه فَسَّرَهما بذلك.....

قوله: (لو فُعِلَ ذلك لم تستقلَّ بمعنىِ الفضيلةِ)، يعني: لو عُرِّفَتْ الليالي احتجتَ لِمَا يرادُ من اختصاصِها بالفضيلةِ إلى مزيدِ انضمامِ قرينةٍ خارجيةٍ بخلافِ التنكير؛ فإنَّ دلالتهِ على الفضيلةِ بنفسِه؛ لأنه موضوعٌ له مستقلٌّ به؛ ولأنها لو عُرِّفَتْ لم تَمَيِّزُ عن المذكوراتِ فيما قُصِدَ منها وانخرطت في سلكِها، ولو حُصِّصَتْ منها شيءٌ من غيرِ تغييرٍ، لدخلَ في حدِّ اللُّغزِ، وهو المرادُ من قوله: «الأحسنُ أن تكونَ اللاماتُ متجانسةً ليكونَ الكلامُ أبعدَ من الألغازِ والتعميةِ». قوله: (وبالشفعِ)، معطوفٌ على قوله: (بالليالي العشرِ).

قوله: (أنه فَسَّرَهما بذلك)، رويَنا عن الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، عن النبي ﷺ، قال: «إنَّ العشرَ هي عَشْرُ الأضحى، والوترُ يومُ عرفة، والشَّفَعُ يومُ النَّحرِ»^(١). وروى الإمامُ أحمدُ والترمذي، عن عمرانَ بنِ حصين، أن رسولَ الله ﷺ سئِلَ عن الشَّفَعِ والوترِ، قال: «الصلاةُ بعضُها شَفَعٌ وبعضُها وَتْرٌ»^(٢).

وقلتُ: هذا هو التفسيرُ الذي لا تحيدَ عنه، وجملةُ القولِ ما قاله القاضي: «فلعله تعالى أفردَها بالذكرِ من أنواعِ المدلولِ، لِمَا رآها أظهرَ مَدخلًا في الدينِ، أو مناسبةً لما قبلها، أو أكثرَ منفعةً موجبةً للشكرِ، أو أبينَ دلالةً على التوحيدِ»^(٣).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤٥١١) عن جابر.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩١٩)، والترمذي (٣٣٤٢).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٨٦-٤٨٧).

وقد أكثرُوا في الشَّفَعِ والوَتْرِ حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل، جديرٌ بالتلْهِي عنه، وبعد ما أقسمَ بالليلي المخصوصة أقسم بالليلِ على العموم. ﴿إِذَا يَسِرُّ﴾ إذا يَمْضِي؛ كقوله: ﴿وَأَيْلِيلٌ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿وَأَيْلِيلٌ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧]، وقرئ: ﴿وَالْوَتْرُ﴾ بفتح الواو،

الراغب: «الشَّفَعُ ضمُّ الشيءِ إلى مثله، ويقالُ للمشفوعِ شَفَعٌ، ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾: قيل: الشَّفَعُ المخلوقاتُ من حيثُ إنها مركبات، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجَجِينَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، والوترُ: هو اللهُ تعالى من حيثُ إن له الوحدةَ من كلِّ وجه، والشفاعةُ: الانضمامُ إلى آخرِ ناصرٍ له وسائلاً عنه، وأكثرُ ما يستعملُ في انضمامٍ من هو أعلى مرتبةً إلى مَنْ هو أدنى منه»^(١).

قوله: «قليلُ الطائل»، الأساس: «وما حَلِيَتْ»^(٢) بطائل: بفائدة، وهذا أمرٌ غيرُ طائل، للدون من الأمر».

قوله: «بالتلْهِي عنه»، الأساس: «لَهَيْتُ عنه وتَلَهَيْتُ وأتَهَيْتُ: شُغِلْتُ وأعرضت». قوله: «إذا يَمْضِي»، كقوله: ﴿وَأَيْلِيلٌ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿وَأَيْلِيلٌ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧]، قال القاضي: «التقييدُ بذلك»^(٣) لِمَا في التفاوتِ من قوةِ الدلالةِ على كمالِ القدرة، ووفورِ النعمة. أو يَسْرِي فيه: من قولهم: صَلَّى المَاقَمَ»^(٤). وقلتُ: وخلاصةُ التقييدِ أنه تَتَمِيمٌ لمعنى القدرة أو النعمة.

قوله: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ بفتح الواو، حمزة والكسائي: بالكسر، والباقون: بفتحها. قال صاحبُ

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٥٧-٤٥٨.

(٢) في (ط): «حصلت». ومن أقوالهم: ما حَلِيَّ بطائل، ولا حَظِيَّ بنائل. «الأساس: حظي».

(٣) سقط لفظ «بذلك» من (ح)، (ف).

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٨٧).

وهما لغتان كالحَبِيرِ والحِجْرِ في العدد، وفي التَّرَّة: الكسْرُ وَحَدَه. وقرئ: (الوَتْر) بفتح الواو وكسر التاء، رواها يونس عن أبي عمرو، وقرئ: (والفَجْر) و(الوَتْر)، و(يَسْر)؛ بالتنوين، وهو التنوينُ الذي يقعُ بدلاً من حرف الإِطلاق. وعن ابن عباس: وليالِ عَشْرٍ بالإضافة، يريد: وليالِ أيامِ عَشْرِ. وباء ﴿يَسْر﴾ تُحذفُ في الدرج، اكتفاءً عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتُحذفُ مع الكسرة، وقيل: معنى ﴿يَسْر﴾ يُسْرَى فيه.....

«المطلع»: «هما لغتان في العدد^(١)، والفتحُ لغةُ أهلِ الحجاز. وأما الوَتْرُ بمعنى التَّرَّة، فبالكسر لا غير». النهاية: «التَّرَّة: النقصُ، وقيل: التَّبعة، والتاءُ فيه عَوْضٌ من الواوِ المحذوفة^(٢)، مثل: وَعَدْتُهُ عِدَّةً».

قولُه: (اكتفاءً عنها بالكسرة)، قال الزجاج: «حذفُ الياءِ أحبُّ إليَّ من إثباتها، لأنَّ القراءةَ بذلك أكثر، والفواصلُ تُحذفُ معها الياءات، ويدلُّ عليها الكسرات»^(٣). وقال محيي السنة: «مَنْ أثبتَ الياءَ فلأنها لأمُ الفعل، والفعلُ لا تُحذفُ منه في الوقف، نحو: هو يقضي، وأنا أقضي»^(٤). وقال أبو علي: «إن الفواصلَ والقوافي من مظنة الوقف، والوقفُ موضعُ تغييرٍ تُغيَّرُ فيه الحروفُ الصحيحةُ بالتضعيفِ والإسكانِ والإشمامِ والرَّومِ، فغيرُ هذه الحروفِ المشابهة بالزيادة، أولى بالحذف»^(٥).

قولُه: (وقيل: معنى ﴿يَسْر﴾ يُسْرَى فيه)، روى محيي السنة أن الأَخفشَ سئلَ عن العلة

(١) في (ف): العقد، وليس بصواب. وفي «البيسط» (٢٣: ٤٨٧-٤٨٨) للواحدي: «أهلُ العالية يقولون: الوَتْرُ في العدد، والوَتْرُ في الدَّخْلِ، وتميم تقول: وَتْرٌ في العدد والدَّخْلِ سواء». والدَّخْلُ: الثَّارُ، وطلبُ المكافأةِ بجنائيةٍ جنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك. انظر: «اللسان» (مادة: دخل).

(٢) في (ط): «الياء المحذوفة»، وليس بصواب.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢١).

(٤) «معالم التنزيل» (٨: ٤١٧).

(٥) «الحجّة للقراء السبعة» (٦: ٤٠٥).

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء (قَسَمَ) أي مُقَسِّمٌ به، (لَّذِي حِجْرٍ) يريد: هل يحقُّ عنده أن تعظَّمَ بالإقسام بها. أو: هل في إقسامي بها إقسامٌ لذي حجر، أي: هل هو قَسَمٌ عَظِيمٌ يؤكد بمثله المقسَّم عليه. والحِجْرُ: العقل؛ لأنه يحجِّرُ عن التهافِ فيما لا ينبغي، كما سُمِّيَ عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنه يعقلُ وينهِي. وحِصَاةٌ: من الإحصاء وهو الضبطُ وقال الفراء: يقال: إنه لذو حِجْرٍ، إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها؛ والمقسَّمُ عليه محذوف وهو (لِيُعَذِّبَنَّ) يدلُّ عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر: ٦]، إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣].

[﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلِي لَم يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ * وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْعَالَمِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ﴾ ٦-١٤]

قيل لعقبِ عادِ بنِ عوصِ بنِ إرمِ بنِ سامِ بنِ نوحِ: عادٌ، كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأوليين منهم عادُ الأولى وإرمُ، تسمية لهم باسم جدِّهم،

في سقوط الياء، قال: الليل لا يسري، ولكن يسرى فيه، فهو مصروف؛ فلما صرفه بخسه حظُّه من الإعراب، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، ولم يقل: بغيه؛ لأنه صرفه من: باغية^(١).

قوله: (أي: هل هو قَسَمٌ عَظِيمٌ يؤكد بمثله المقسَّم عليه)، في ذِكْرِ مثله أيضاً تعظيمٌ، لأنه نحو قولك: مثلكَ يجود، والمعنى: قَسَمٌ عَظِيمٌ مُكْفٍ وَمَقْنَعٌ فِي الْقَسَمِ، قَالَ الْإِمَامُ: «دَلَّ الاستفهامُ على التأكيدِ كمن ذَكَرَ حِجَّةً بِالغَةِ، ثُمَّ قَالَ: هل فيما ذَكَرْتُهُ حِجَّةٌ؟ والمعنى: مَنْ كَانَ ذَالِبٌ، عِلْمٌ أَنَّ مَا أَقْسَمَ اللهُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فِيهِ عَجَائِبٌ وَدَلَائِلٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالرَّبُّوبِيَّةِ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَقْسَمَ بِهِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى خَالِقِهِ»^(٢).

(١) «معالم التنزيل» (٨: ٤١٧).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٥٠).

ولمن بعدهم: عادُ الأخيرة. قال ابن الرقيات:

مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوْلُهُ أَدْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهَا إِرْمًا

فإِرمُ في قوله: ﴿إِرْمٌ﴾ عطفُ بيانٍ لعادٍ، وإيدانٌ بأنهم عادٌ الأولى القديمة. وقيل: ﴿إِرْمٌ﴾ بلدُتهم وأرضُهم التي كانوا فيها، ويدلُّ عليه قراءةُ ابنِ الزبير (بعادِ إِرْم) على الإضافةِ وتقديره: بعادِ أهلِ إِرْم، كقوله: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريفِ والتأنيث. وقرأ الحسن: (بعادِ إِرْم)، مفتوحتين. وقرئ: (بعادِ أُرْم) بسكونِ الراءِ على التخفيف، كما قرئ: (بوزِقِم). وقرئ: (بعادِ إِرْم ذاتِ العِمادِ) بإضافةِ إِرْم إلى ذاتِ العِمادِ. والإِرْمُ: العَلَمُ، يعني: بعادِ أهلِ أعلامِ ذاتِ العِمادِ. و﴿ذَاتِ أَلْعِمَادِ﴾ اسمُ المدينة،

قوله: (مَجْدًا تَلِيدًا) البيت^(١)، «أولُه» مبتدأ، و«أدرك» الخبر؛ أي: حازَ مجداً قديماً. والتاليدُ والتلاذُّ ما ورثَ الرجلُ من آبائه، بناه أولُه، أي: أبوه أدرك عاداً، أي: أدرك المجدُ عاداً، أرادَ قَدَمَ مجده.

قوله: («أُرْمُ»، بسكونِ الراءِ)، الأُرْمُ: لغةٌ في الأَرْمِ بمعنى العَلَمِ، فمن قرأ بسكونِ الراءِ، فهو تخفيفُ أُرْم بكسر الراءِ، والإيرْمُ أيضاً عَلَمٌ.

قوله: (أهلِ أعلامِ ذاتِ العِمادِ)، قال الإمام: «قيل: ذاتُ العِمادِ، لأنهم كانوا أهلَ البناءِ الرفيعِ، وكانوا يعالجونَ الأعمدةَ فينصبونها، وينون فوقها القصورَ، قال تعالى في وصفهم: ﴿أَتَّبَعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً﴾ [الشعراء: ١٢٨]، أي: علامةً وبناءً رفيعاً»^(٢).

الراغب: «الإِرْمُ: عَلَمٌ يُبنى من الحجارةِ، وجمعه أَرَام، وقيل للحجارة: أُرْمُ، ومنه قيلَ للمتغيظ: يحرقُ الأُرْم. وقوله تعالى: ﴿إِرْمُ ذَاتِ أَلْعِمَادِ﴾، إشارةٌ إلى أعلامِها المرفوعةِ المزخرقةِ،

(١) لابن قيس الرقيات، انظر: «ديوانه»، ص ١٥٥.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٥٢).

وقرى: (بعادَ أَرَمَ ذاتَ العِمَادِ) أي جعلَ اللهُ ذاتَ العِمَادِ رمياً بدلاً من فَعَلَ رَبُّكَ؛ وذاتُ العِمَادِ إذا كانتَ صفةً للقبيلة، فالمعنى: أنهم كانوا بدويين أهلَ عَمَدٍ، أو طوَالَ الأجسامِ على تشبيهِ قُدودِهِم بالأعمدة، ومنه قولُهُم: رَجُلٌ مُعَمَّدٌ وَعُمُدَانٌ: إذا كان طويلاً. وقيل: ذاتُ البناءِ الرفيع، وإن كانت صفةً للبلدةِ فالمعنى: أنها ذاتُ أساطين. وروى أنه كان لعادِ ابنان: شَدَاذٌ وشَدِيدٌ؛ فَمَلَكَ وقَهْرًا، ثم ماتَ شديدٌ وخلصَ الأمرُ لشَدَادٍ، فملكَ الدنيا ودانتَ له ملوكُها، فسمعَ بذكرِ الجنةِ فقالَ ابني مثلها، فبنى إِرَمَ في بعضِ صحاري عَدَنَ في ثلاثِ مِئَةِ سنة، وكان عمرُهُ تسعَ مِئَةِ سنة، وهي مدينةٌ عظيمةٌ قصورُها من الذهبِ والفضة، وأساطينُها من الزبرجدِ والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجارِ والأنهارِ المُطَرِّدة؛ ولما تَمَّ بناؤها سارَ إليها بأهلِ مملكته؛ فلما كان منها على مسيرةِ يومٍ وليلةِ بعثَ اللهُ عليهم صيحةً من السماءِ فهلكوا. وعن عبدِ اللهِ بنِ قلابَةَ: أنه خرجَ في طلبِ إِبِلٍ له، فوقعَ عليها، فحملَ ما قدرَ عليه مما تَمَّ، وبلغَ خبرُهُ معاويةَ فاستحضره، فقَصَّ عليه، فبعثَ إلى كعبِ فسأله فقال: هي إِرَمُ ذاتُ العِمَادِ، وسيدخلُها رجلٌ من المسلمين في زمانِكَ، أحمرُّ أشقرٌ قصيرٌ، على حاجبه خالٌ وعلى عقبه خالٌ، يخرجُ في طلبِ إِبِلٍ له؛ ثم التفتَ فأبصرَ ابنَ قلابَةَ فقال: هذا والله ذلكَ الرَّجُلُ. ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا﴾ مثلُ عادٍ، ﴿فِي الْبَلَدِ﴾ عِظَمَ أَجْرَامِ وَقوَّة، كان طولُ الرجلِ منهم أربعَ مئةِ ذراعٍ،

وما بها أَرَمٌ وأريم، أي: أحد. وأصلُهُ اللَّزِمُ لِلزَّمِ، وخصَّ به النَّفْيُ كقولِهِم: ما بها ديار، وأصلُهُ للمقيمِ في الدار»^(١).

قوله: (بعادَ أَرَمَ ذاتَ العِمَادِ)، المشهورةُ: بتنوينِ «عادٍ»، وفتحِ الميمِ في ﴿إِرَمَ﴾، والبواقي: شواذٌ^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٤.

(٢) انظر: «معجم القراءات القرآنية» (٨: ١٣٩-١٤٠).

وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقبها على الحي فيهلكهم، أو لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير: (لم يخلق مثلها)، أي: لم يخلق الله مثلها. ﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قَطَعُوا صَخْرَ الْجِبَالِ واتخذوا فيها بيوتاً، كقوله: ﴿وَتَنَحِتُونَ مِنْ آلِجِبَالٍ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩] قيل: أول من نَحَتَ الجبال والصخور والرُخام: ثمود، وبنوا ألفاً وسبع مئة مدينة كلها من الحجارة. قيل له: ذو الأوتاد، لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد، كما فعل بإشطة بنته وبأسيه. ﴿الَّذِينَ طَعَوْا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محلّ النصب على الدم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على: هم الذين طَعَوْا، أو مجروراً على وصف المذكورين عادٍ وثمودٍ وفرعونٍ يقال: صبَّ عليه السوطُ وغشاه وقنعه، وذكر السوط: إشارة إلى أن ما أحلّه بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يُعذَّب به.

قوله: (ومضاربهم التي كانوا يضربونها)، المغرب: «وصرَبَ الخيمة، وهو المَضْرِبُ للقبّة؛ بفتح الميم وكسر الراء، ومنه: كانت مضاربُ رسولِ الله في الحِلِّ ومُصَلَّاه في الحرم»^(١).

قوله: (ضبَّ عليه السوطُ وغشاه وقنعه)، نقل الإمام عن القاضي: «شبهَ عذابه بصبِّ السوطِ الذي يتواترُ على المضروبِ فيهلكه»^(٢). وقال الواحدي: «وأجادَ الزجاجُ في تفسيرِ هذه الآية، فقال: جعلَ سوطه الذي ضربهم العذاب»^(٣).

الأساس: «ومن المجاز: قنعتُ رأسه بالعصا وبالسوط».

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٦: ٢) للمطرزي.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٥٣)، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي المتوفى سنة (٤١٥ هـ).

(٣) «الوسيط» (٤: ٤٨٢) للواحدي، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢٢).

وعن عمرو بن عبيد: كان الحسنُ إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوطٍ منها. المرصاد: المكان الذي ترقب فيه الرصد، مفعال من: رَصَدَه، كالمليقات من: وَقَّتَه. وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربُّك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إن ربك لبالمرصاد يا فلان، عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من تُوعَدُ بذلك من الجبابرة، فلله درّه أي أسدٍ فراسٍ كان بين ثوبيه،

قوله: (المرصاد: المكان الذي ترقب فيه)، الراغب: «الرَّصَدُ: الاستعداد للترقب، يقال: رَصَدَ له، وترصّد وأرصدته له، قال تعالى: ﴿وَرِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ١٠٧]»^(١).

قوله: (وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه)، يعني أن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ استعارةٌ تمثيلية؛ شبه حالة كونه تعالى حفيظاً لأعمال العباد، ومترقباً لها ومجازياً عليها على التقير والقطمير، ولا مَحِيدَ للعباد عن أن لا يكون مصيرهم إلا إليه، بحالة مَنْ قَعَدَ على طريق السائلة يترصد، ولا غَنَاءَ لهم عن عبور البهائم، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك. وروى الواحدي عن الكلبي أنه قال: «لا يفوته شيءٌ من أعمال العباد، كما لا يفوت مَنْ بالمرصاد شيءٌ»^(٢).

قوله: (أي أسدٍ فراسٍ كان بين ثوبيه)^(٣)، فيه مبالغاتٌ ولها مراتب؛ ففي الدرجة الرابعة: هو أسدٌ، على ما تقرّر في مراتب التشبيه. ثم فيه أسدٌ على التجريد، كقولك: رأيتُ فيك أسداً. ثم أسدٌ بين ثوبيه على الكناية، كما تقول: المجد بين ثوبيه. ثم أيُّ أسدٍ على التفضيم

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٥٥.

(٢) «الوسيط» (٤: ٤٨٢).

(٣) في (ح): يديه، وسقط من (ف).

يَدُقُّ الظلمةَ بِإِنْكَارِهِ، وَيَقْصَعُ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ بِاحْتِجَاجِهِ.

[﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ

فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ١٥-١٦]

فَإِنْ قُلْتُ: بِمِ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾؟

قُلْتُ: بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا الطَّاعَةَ

وَالسَّعْيَ لِلْعَاقِبَةِ، وَهُوَ مُرْصِدٌ بِالْعُقُوبَةِ لِلْعَاصِي؛ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَلَا يَرِيدُ ذَلِكَ وَلَا يُهْمُهُ إِلَّا الْعَاجِلَةُ وَمَا يُلِدُّهُ وَيُنَعَّمُهُ فِيهَا.

والتعظيم. ثم وصفه بفراس وفيه مبالغتان: البناء ومعنى التميم، لأنه كالترشيح للتشبيه. ثم إقحام «كان» للدلالة على أن هذا الوصف لازم، كالخلفي لقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وعمرو هذا كان معتزلياً، طعن فيه مسلم في «صحيحه»^(١)، وقد ذكرنا نبذاً من أخباره في سورة الكهف.

قَوْلُهُ: (وَيَقْصَعُ)، «قَصَعْتُ الرَّجْلَ قِصْعًا: صَغَرْتُهُ وَحَقَرْتُهُ، وَقَصَعْتُ هَامَتَهُ إِذَا ضَرَبْتَهَا

بِئْسَطٍ كَفَكَ»^(٢).

قَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا الطَّاعَةَ)، الانتصاف: «هذا من فاسدِ

الاعتقاد، ويُعَيَّرُ بِأَنْ يُقَالَ: لَا يُطَلَّبُ وَلَا يَأْمُرُ عِبَادَهُ إِلَّا بِالطَّاعَةِ»^(٣). وقُلْتُ: خلاصةُ الجوابِ أَنْ الفَاءُ فِي ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾، رَابِطَةٌ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ، وَمَوْذَنَةٌ بِالْبُؤْنِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَنَافِيَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يُطَلَّبُ مِنَ الْعِبَادِ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ، وَهُوَ بِالْمِرْصَادِ كَالْمُرْتَقِبِ الَّذِي لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ، فَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، وَالْإِنْسَانُ غَافِلٌ مَوْلَعٌ بِالتَّلَهِّيِّ، وَمَنْغَمَسٌ فِي أُمُورِ الْعَاجِلَةِ، إِنْ أَصَابَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدُّنْيَا اطمأن إليه، وَإِنْ جَاوَزَهُ حَظٌّ مِنْهَا ضَجَرَ وَقَطَطَ.

(١) انظر: مقدمة مسلم في «صحيحه»، باب أن الإسناد من الدين، ص ٢٨.

(٢) كذا في «الصحاح» (٣: ١٢٦٦ - قصع) للجوهري، على عادة الطيبي في النقل عنه، والتصريح باسمه.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٧٩)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٨) للعراقي.

فإن قلت: فكيف توازن قوله، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾، وحقّ التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أمّا وأمّا، تقول: أما الإنسان فكفور، وأما المملّك فشكور. أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك؛ وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك؟

قلت: هما متوازنان من حيث إنّ التقدير: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه؛ وذلك أن قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، ودخول الفاء لهما في (أمّا) من معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقاتل ربي أكرم من وقت الابتلاء، فوجب أن يكون ﴿فَيَقُولُ﴾ الثاني خبراً لمبتدأ واجب تقديره.

فإن قلت: كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟

قوله: (فكيف توازن قوله ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾)، تقرير السؤال أن «أمّا» كلمة تفصيل، ولا يجيء إلا متعدداً، ومن شرط مدخولها التوازن بين الفقرتين^(١)، والتقابل بينهما؛ فإن كان بعد الأولى اسماً^(٢)، فالواجب بعد الثانية الاسم نحو قولك: أما الكافر فكفور، وأما المؤمن فشكور. وإن كان شرطاً فشرطاً نحو قولك: أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك، وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك. وأما الاسم بعد الأولى والشرط بعد الثانية، فلا توازن بينهما كما في الآية. وأجاب أن الموازنة حاصلة، لأن «أمّا» التفصيلية تقتضي أن يكون مدخولها مبتدأ وخبره مقيد بالفاء. و«إذا» هاهنا ليست بشرط، بل هي ظرف، و﴿فَيَقُولُ﴾ خبر المبتدأ، ودخول الفاء لتضمين «أمّا» معنى الشرط، وعلى هذا قوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾، فينبغي أن يُقدّر مبتدأ وهو ضمير «الإنسان»، وإليه الإشارة بقوله: «فوجب أن يكون ﴿فَيَقُولُ﴾ الثاني خبراً لمبتدأ واجب تقديره».

(١) في (ف): «القريتين».

(٢) كذا في الأصول الخطية، وتقديره: «فإن كان الذي بعد الأولى اسماً».

قلت: لأنَّ كلَّ واحدٍ منها اختبارٌ للعبد، فإذا بسطَ له فقد اختبرَ حاله أيشكرُ أو يكفر؟ وإذا قُدِّرَ عليه فقد اختبرَ حاله أيصبرُ أم يجزع؟ فالحكمةُ فيهما واحد، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فإن قلتَ: هَلَّا قال: فأهانَه وقَدَّرَ عليه رزقه، كما قال فأكرمَه ونعمه؟

قوله: (هَلَّا قال: فأهانَه وقَدَّرَ عليه رزقه)، يعني: وجهُ التوافقِ بين القريتين أن يقال: فأما الإنسانُ إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمَه ونعمه، فيقول: ربي أكرمني. وأما إذا ما ابتلاه ربُّه فأهانَه وقَدَّرَ عليه رزقه، فيقول: ربي أهانني. فلمَ تركَ مردوفَ ﴿قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، وهو «فأهانَه»؟

وخلاصةُ الجواب: أن سعةَ الرزقِ، إنَّ عُدَّ إكراماً، لكن تضييقَه ليس بإهانة. وقلتُ: الأمرُ عند العارفين والمحققين بالعكس، قال الزجاج: «هذا يُعنى به الكافر، تكونُ الكرامةُ والهوانُ عنده بكثرةِ حظوظِ الدنيا وقلته. وصفةُ المؤمنِ أن الإكرامَ عنده توفيقُ الله إلى ما يودُّه إلى حظِّ الآخرة»^(١). فإذا ذُنَّ التقديرُ ما ذكره محيي السنة: «فأما الإنسانُ إذا ما ابتلاه ربُّه بالنعمةِ، فأكرمَه بالمالِ ووسَّعَ عليه، فيقول: ربي أكرمني بما أعطاني. وأما إذا ما ابتلاه بالفقرِ، فقَدَّرَ عليه رزقه، أي: أعطاه ما يكفيه أو ضيَّقَ عليه، فيقول: ربي أذلَّنني بالفقر»^(٢). وبعضُه ما روينا عن سيِّد الخلقِ أنه قال: «عَرَضَ عَلَيَّ ربي بطحاءَ مكةَ ذهباً، فقلت: لا يا رب، أشبعُ يوماً وأجوعُ يوماً، فإذا جَعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ، وإذا شَبَعْتُ حَمَدْتُكَ وشكرتُكَ». أخرجه الترمذي عن أبي أمامة^(٣).

قال حجةُ الإسلام: «بلغنا أنهم كانوا إذا سَلَكَ بهم سبيلُ الرخاءِ حزنوا وأشفقوا، وقالوا: ما لنا والدنيا؟ وما يراؤ بنا؟ فكأنهم كانوا على جناحِ خوفٍ. وإذا سَلَكَ بهم سبيلُ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢٣).

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٤٢١).

(٣) انظر: «سنن الترمذي» (٢٣٤٧).

قلت: لأن البسْطَ إكرامٌ من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقديرُ فليس بإهانةٍ له؛ لأن الإخلالَ بالتفضُّل لا يكونُ إهانةً، ولكن تركاً للكرامة، وقد يكونُ المولى مُكرماً لعبده ومُهيئاً له، وغيرَ مكرم ولا مُهين؛ وإذا أهدى لك زيدٌ هديةً قلتَ: أكرمني بالهدية، ولا تقول: أهانني ولا أكرمني إذا لم يُهد لك.

فإن قلتَ: فقد قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ فصَحَّحَ إكرامه وأثبتته، ثم أنكروا قوله: ﴿رَبِّتْ أَكْرَمِنِ﴾ وذمه عليه، كما أنكروا قوله: ﴿أَهَانِنِ﴾ وذمه عليه.

قلتُ: فيه جوابان، أحدهما: أنه إنما أنكَّرَ قوله ربي أكرمن وذمه عليه؛

البلاءِ فرحوا واستبشروا وقالوا: الآنَ يَتَعَاهَدُنَا رَبُّنَا»^(١). ويؤيدُ هذا التأويلَ كلمةُ الردعِ في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

قال محيي السنة: «ردَّ الله على مَنْ ظنَّ أن سعةَ الرزقِ إكرامٌ وأن الفقرَ إهانة. المعنى أن الإكرامَ والإهانةَ لا يدورانِ على المالِ والسعة، لأنه تعالى يوسعُ على الكافرِ لا لكرامته، ويقدر على المؤمنِ لا لهوانه، وإنما يكرمُ المرءَ بطاعته، ويهينهُ بمعصيته»^(٢) ثم أضربَ إلى ذمِّ ما أورثهم غناهم وسعتهم من محبةِ المالِ والتمتعِ بألوانِ المشتبهات من الأطعمةِ والأشربةِ ومنعِ الحقوقِ عن المستحقين بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَايِرِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، أي: دَغ ذلك القولُ وانظرْ إلى هذا الفعل. الانتصاف: «في تخصيصه البسْطَ أنه إكرامٌ من الله من غيرِ سابقة، بناءً على أصله الفاسد؛ لأن كلَّ نعمةٍ من الله كذلك»^(٣).

قوله: (فيه جوابان)، أما الجوابُ الأوَّلُ فتلخيصُه: أن انصبابَ قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ غيرُ انصبابِ ﴿رَبِّتْ أَكْرَمِنِ﴾؛ لأن المعنى بقوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾، أن الله أعطاه ما أعطاه على

(١) «إحياء علوم الدين» (٣: ٣٦٥) للغزالي.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٤٢١).

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٤٩)، وانظر: «الانتصاف» (ق١٤٨) للعراقي.

لأنه قاله على قصدٍ خلافَ ما صحَّحه اللهُ عليه وأثبتته، وهو قصدهُ إلى أن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له مُستحقاً مُستوجباً على عادةِ افتخارِهِم وجلالةِ أقدارِهِم عندهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]،

وجِه التفضيل ابتداءً، من غير أن يستوجبهُ بالتقوى بناءً على مذهبه. وبقوله «أكرمني»، أن الله أعطاني ما أعطاني لا على وجه التفضيل باستحقاقٍ نسبي وحسبي. والثاني أنها متوافقان، وأن الثاني تقريرٌ للأول، لكن المنكر^(١) قوله: ﴿رَبِّي أَهْنَنِي﴾.

الانتصاف: «في الإضرابِ بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ إلى قوله ﴿وَيُحِبُّونَ أَمْوَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، إشعارٌ بإبطالِ الجوابِ الثاني، لأنه ذهبَ إلى أن قوله «ربي أكرمني» غيرُ مذموم، لأن معنى قوله ﴿لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الآية، أن للغني المكرم بسببِ الرزقِ حالتين: إحداها اعتقادهُ أن إكرامَ الله له عن استحقاق، والثانية، وهي أشدُّ، وهو أن لا يعرفَ بها الإكرامَ أصلاً، فيكونُ جاحداً لا يؤدي حقَّ الله فيها^(٢).

قوله: (مستحقاً ومستوجباً)، بكسرِ الحاءِ والجيم، ويُروى بفتحهما. قيل: هو إما حالٌ من مفعولِ «أعطاه»، أو من الضميرِ في «له» لأنه مفعولُ «إكراماً»، وقوله: «على عادةِ افتخارِهِم»، بدلٌ من قوله: «على قصدٍ خلافَ ما صحَّحه اللهُ تعالى عليه»، أي: قاله على عادةِ افتخارِهِم. وقوله: «وإنما أعطاه اللهُ» حالٌ من الضميرِ في «قاله». وقوله: «مما لا يعتدُّ اللهُ» بيانٌ سابقة، أي: أعطاه اللهُ على وجهِ التفضيل من غير أن يسبقَ منه ما لا يدخلُ في الاعتدادِ من الكرامةِ إلا بذلك وهو التقوى. هذا المعنى مقتبسٌ من قوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولذلك قال: «دون الأنسابِ والأحساب»، أي: لم يسبقَ منه تقوى يستحقُّ به المعطى مما أعطاه اللهُ. وأما الأنسابُ والأحسابُ فلا مدخلُ له في الاستحقاق. الانتصاف: «القُدريَّةُ أيضاً يرونَ أن التعظيمَ الأعظمَ في الآخرةِ حقُّ مستحقِّ»^(٣).

(١) في (ج): «المتكرر».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٥٠)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٨، ١٤٩) للعراقي.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٥٠)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٨).

وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله إلا به، وهو التقوي دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها. والثاني: أن ينساق الإنكار والذم إلى قوله: ﴿رَبِّ أَهْنِن﴾، يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه، وإذا لم يتفضل عليه سمي ترك التفضل هوأنا وليس بهوان، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾. وقرئ: ﴿فَقَدَّرَ﴾ بالتخفيف والتشديد، وأكرم، وأهان: بسكون النون في الوقف، فيمن ترك الباء في الدرج مكتفياً منها بالكسرة.

[﴿كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ١٧-٢٠]

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوله. ثم قال: بل هناك شرٌّ من القول. وهو: أن الله يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة، وحض أهله على طعام المسكين، ويأكلونه أكل الأنعام، ويحبونه فيشحون به. وقرئ: ﴿يُكْرِمُونَ﴾ وما بعده بالياء والتاء.

قوله: (ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾)، يعني: أن الله تعالى أثبت له الإكرام؛ فقوله ﴿أَكْرَمَن﴾ تقرير لذلك، فلا يكون منكراً ولم تثبت له الإهانة، ولم يقل: فأهانته، فيكون قوله: ﴿رَبِّ أَهْنِن﴾ منكراً.

قوله: (وقرئ: ﴿فَقَدَّرَ﴾، بالتخفيف والتشديد)، ابن عامر: بالتشديد، والباقون: بالتخفيف^(١).

قوله: (﴿يُكْرِمُونَ﴾ وما بعده بالياء والتاء)، أبو عمرو: بالياء التحتانية فيها، والباقون: بالتاء^(٢).

(١) هما لغتان، والمعنى: ضيق عليه رزقه ولم يوسعه له. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٦١.

(٢) وحجة قراءة أبي عمرو، أنه لما تقدم ذكر الإنسان ويراد به الجنس والكثرة، وعلى لفظ الغيبة، جعل «يكرمون» عليه. انظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٤٠٩) للفارسي.

وقرى: ﴿تَحْتَضُونَ﴾ أي: يَحْتَضُ بعضكم بعضاً، وفي قراءة ابن مسعود: (ولا تُحَاضُونَ) بضم التاء، من المُحَاضَةِ. ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ ذَا لَمْ وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. قَالَ الْحَطِيبَةُ:

إِذَا كَانَ لَمًّا يَتَّبِعُ الذَّمُّ رَبَّهُ فَلَا قَدَسَ الرَّحْمَنِ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا

يعني: أنهم يجمعون في أكْلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم. وقيل كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة، وهو عالم بذلك فيلتم في الأكل بين حلاله وحرامه. ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً، من غير أن يعرق فيه جيبته، فيسرف في إنفاقه،

قوله: (وقرى: ﴿تَحْتَضُونَ﴾)، بفتح التاء: الكوفيون، أي: تتحاضون، بحذف إحدى التاءين. والباقون: بغير ألف^(١).

قوله: (إِذَا كَانَ لَمًّا) البيت^(٢)، فلا قدس: فلا طهر، والطواحن من الأضراس التي تسمى الأرحاء، تقول إذا كان الأكل اللّم، أي: كأكل الأنعام من غير تمييز بين الحلال والحرام: يتبع صاحبه ذم الناس، فلا طهر تلك الأسنان التي تطحن ذلك المأكول.

قوله: (من الظلمة)، قيل: أراد بها الميت الظالم، أي: الذي من الظلمة، وفي نسخة: المظلمة.

قوله: (مهلاً)، تابع لـ «سهلاً»، نُصِبَ حالاً، أي: حال الرفق والسهولة.

قوله: (فيسرف)، عطف على قوله «ظفر»، أي: الذي ظفر بالمال فهو يسرف، كقولك: الذي جاءني فيسرع.

(١) تحاضون بالألف، أي: لا يحض بعضهم على ذلك بعضاً، وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧]. وبغير الألف والتاء، أي: لا تأمرون بإطعام المسكين، وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٤]. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٦٢-٧٦٣.

(٢) لم أقف عليه في «ديوان الحطيبية» بشرح ابن السكيت.

ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوراث البطالون. ﴿حَبَّاجِمًا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشَّرِه ومنع الحقوق.

[﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاتَىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا﴾ ٢١-٢٦].

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكاراً لفعالهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسُّرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة؛ ويومئذ بدل من ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ وعامل النصب فيها ﴿يَنْذِكُرُ﴾. ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكاً بعد دك. كقوله: حسبته باباً باباً، أي: كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً.

فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟

قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه؛ مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة، ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم،

قوله: (دكاً بعد دك، كقوله: حسبته باباً باباً)، أي: التكرير للاستيعاب، قال ابن الحاجب: «يثبت له حسابه باباً باباً، أي مفصلاً. والعرب تكرر الشيء مرتين، فتستوعب تفصيلاً جميع جنسه باعتبار المعنى الذي دل عليه اللفظ المكرر، فإذا قلت: بينت له الكتاب باباً باباً، فمعناه: بينت له مفصلاً باعتبار أبوابه»^(١)، وإليه الإشارة بقوله: «حتى عادت هباءً منبثاً».

قوله: (عن بكرة أبيهم)، عن بعضهم: كان لزيان عشرة بنين يُغَيرون ويصيدون، فخرجوا يوماً فأنأخوا في بعض المراعي، فهجم عليهم العدو وقتلهم وجعل رؤوسهم في

(١) الإيضاح شرح المفصل (١: ٣٤٠) لابن الحاجب.

﴿صَفَا صَفًا﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صفاً مُحْدِقِينَ بِالْجَنِّ وَالْإِنْسِ .
 ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ﴾ [النازعات: ٣٦] وروى: أنها لما
 نزلت تَغَيَّرَ وجهُ رسولِ الله ﷺ وعُرِفَ في وجهه حتى اشتدَّ على أصحابه، فأخبروا علياً
 رضي الله عنه، فجاء فاحتضنه من خلفه وقبَّله بين عاتقيه؛ ثم قال: يا نبيَّ الله، بأبي أنت
 وأمي ما الذي حدثَ اليوم، ما الذي غيرَكَ؟ فتلا عليه الآية. فقال عليٌّ: كيف يُجاء بها؟
 قال: يجيءُ بها سبعون ألفَ ملكٍ يقودونها بسبعين ألفَ زمام، فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لو تُرُكْتُ
 لأحرقت أهلَ الجمع.

[﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾] أي: يتذكركم ما فرطَ فيه، أو يتعظ، ﴿وَأَنَّى لَهُ
 الذِّكْرَى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى، لا بد من تقدير حذف المضاف، وإلا فين:
 يومٌ ﴿يَنْذِكُرُ﴾، وبين ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ تنافٍ وتناقض.

مِخْلَاة^(١)، فحملتها ناقة لزيان تُدعى الدُهيم، فجاءت إلى بيت زيان، فلما رأى المِخْلَاة
 قال: أصابَ بنيَّ بيضَ النعام، فضربَ بيده فيها فأخرج رأساً منها، فقال: آخِرُ البزِّ على
 القلوص^(٢)، يعني: لا تُصييون بزاً آخر، فذهب مثلاً. وقال الناس: جاؤوا على بكرة أبيهم،
 أي: ناقة أبيهم. الجوهري: «جاؤوا على بكرة أبيهم: يُضربُ للجماعة إذا جاؤوا معاً، ولم
 يتخلف منهم أحد، وليس هناك بكرة في الحقيقة».

قوله: (بأبي أنت وأمي)، النهاية: «الباء في «بأبي» متعلقة بمحذوف، قيل: هو اسمٌ،
 فيكون ما بعده مرفوعاً تقديره: أنت مُفدى بأبي وأمي. وقيل: هو فعلٌ وما بعده منصوب،
 أي: فديتُك بأبي وأمي، وحذف هذا المقدَّر لكثرة الاستعمالِ وعلم المخاطب به».

قوله: (فين [يوم] ﴿يَنْذِكُرُ﴾ وبين ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ تنافٍ وتناقض)، لأنه تعالى

(١) المِخْلَاة: ما يجعل فيه الخلق، والخلق: الرطب من الحشيش، واحده: خَلَاة. انظر: «الصحاح» (٦):
 ٢٣٣١-خلا).

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» (١: ٧٨، ٣٧٧-٣٧٩).

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ هذه، وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا، كقولك: جئتُه لعشر ليالٍ خلونَ من رجب؛ وهذا أبلغ دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدِهم وإرادتهم، وأنهم لم يكونوا مُتَّجِبِينَ عن الطاعات مُجْبِرِينَ على المعاصي، كمذهب أهل الأهواء والبدع، وإلا فما معنى التحسُّر؟ قرئ بالفتح: (يَعَذَّبُ وَيُوَثِّقُ)، وهي قراءةُ رسولِ الله ﷺ. وعن أبي عمرو أنه رَجَعَ إليها في آخرِ عمره. والضميرُ للإنسانِ الموصوف. وقيل: هو أبي بن خلف أي: لا يعذَّبُ أحدٌ مثلَ عذابه،

أثبت له التذكيرَ أولاً، ثم نفاه عنه آخرَ آي في آن واحد، نحو قوله: ﴿وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: 1٧]. قال الزجاجُ ورواه محيي السنة: «يومئذ يُظهِرُ الإنسانُ التوبةَ، ومن أين له التوبة؟»^(١).

قولُه: (وهذا أبلغ دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدِهم)، قال الإمام: «هذا التحسُّرُ على فعلهم الذي كان مسنداً إليهم ظاهراً، ومُحَقِّقُه: لیت اللہ وفقنی علی فعلِ الطاعة»^(٢).

قولُه: (قرئ بالفتح: «يعذَّبُ» و«يوثقُ»)، الكسائي، والباقون: بكسرهما^(٣).

قولُه: (والضميرُ للإنسانِ الموصوف)، قال أبو علي: «وَضَعَ العذابَ موضعَ التعذيب في هذا القول، كما وضع العطاءَ موضعَ الإعطاء في قولِ القائل: وبعدَ عطائكِ المنة»^(٤)

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢٤)، وانظر: «معالم التنزيل» (٨: ٤٢٢) للبغوي.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٥٩) بتصرف.

(٣) المعنى بالفتح فيها: لا يُعَذَّبُ أحدٌ يوم القيامة كما يعذَّبُ الكافر، وبالكسر: لا يعذَّبُ أحدٌ في الدنيا مثل عذاب الله في الآخرة. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٦٣.

(٤) البيت للقطامي، وتماؤه:

أكثرأ بعد ردِّ الموتِ عنِّي وبعد عطائكِ المنة الرُّتاعا

انظر: «ديوانه»، ص ٣٧.

فالمصدر الذي هو عذابٌ مضافٌ إلى المفعول به. والوثاقُ أيضاً في موضع الإيثاق^(١). وقال ابنُ الحاجبِ في «الأمالي»: «العاملُ في الظرفِ «يعذَّبُ»، وقد جاء ما بعد النفي عاملاً في الظرف في مواضع، والضميرُ في «عذابه» في قراءة الكسر^(٢) للإنسانِ المتقدم ذكره، ولا يحسنُ أن يكونَ لله، لأنَّ المعنى: لا يعذَّبُ يومَ القيامةِ عذابَ الله أحدٌ، فلا يقوى المعنى لهما سيقَ له، وهو تعظيمُ عذابِ الله لهذا الإنسانِ أكثرَ من عذابِ غيره^(٣).

وقلتُ: ويوافقه أيضاً معنى القراءة بالفتح ويساعده النظم؛ فإنَّ المعنى: كلُّ واحدٍ من الزبانيةِ يعذَّبُ أهلَ النارِ أنواعاً من الأعدبة، لكن لا يعذَّبُ أحدٌ منهم أحدًا عذاباً مثلَ عذابِ هذا الإنسانِ، الذي طغى وتكبرَ وتجبرَ، وقابلَ إكرامَ الله إياه وإفضاله بالكفرانِ، ومنَعَ من إكرامِ اليتيمِ والحضِّ على طعامِ المسكينِ، بل أكلَ نصيبه ونصيبَ الأيتامِ من الميراثِ أكلاً كلاً كالأنعامِ، وأحبَّ المالَ حباً جماً شديداً مع الشرِّه والحرصِ، فكما جمعَ بين هذه الرذائلِ، يُجمعُ له بين ما لا نهايةَ له من التنكيلِ^(٤).

ويمكنُ أن يقالَ: إن المرادَ بالإنسانِ أمةً بنُ خلفٍ وذووه لهما قال، وقيل: هو أمةُ بنُ خلفٍ، وكما قال: إنَّ قوله ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾، متصلٌ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ﴾. وتحريره أنه تعالى لهما بين ما فعلَ بأولئك الطغاةِ من قومِ عادٍ وثمودَ وفرعونَ، حيث صبَّ عليهم سوطَ عذابٍ، أتبعه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ﴾ تخلصاً. أي: فعلَ بأولئك ما فعلَ، وهو ترصدٌ هؤلاءِ الكفارِ الذين طغوا على أفضلِ البشرِ وسيّدِ الرسلِ، وامتنعوا مما جاء به من الأمرِ بمكارمِ الأخلاقِ ومعالي الأمورِ، والنهيِ عن سفاسفها ورذائلها، فيصبُّ عليهم في الدنيا سوطَ عذابٍ، ويعذبهم في الآخرةِ عذاباً فوقَ كلِّ عذابٍ، وإليه لَمَحَ بقوله: «لتناهيهِ في كفرِهِ وعنادِهِ».

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٤١١) للفارسي.

(٢) أي: يعذَّبُ عذابه.

(٣) «الأمالي النحوية» (١: ٣١) لابن الحاجب.

(٤) في (ح): «التسهيل».

ولا يوثق بالسلاسل والأغلالِ مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد، كقوله: ﴿وَلَا نُرْزِزُ وَازِرَةً وَّزَرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]. وقرئ: بالكسر، والضميرُ لله تعالى؛ أي: لا يتولى عذابَ الله أحد؛ لأنَّ الأمرَ لله وحده في ذلك اليوم، أو للإنسان؛ أي: لا يعذبُ أحدٌ من الزبانية مثل ما يعذبونه.

[﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً * فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ ٢٧ - ٣٠].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ﴾ على إرادة القول، أي: يقول الله للمؤمن: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ﴾ إِمَّا أَنْ يَكَلِّمَهُ إِكْرَامًا لَهُ كَمَا كَلَّمَ مُوسَىٰ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ مَلَكٍ. و﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الأمانة التي لا يستفزها خوفٌ ولا حُزنٌ، وهي النفسُ المؤمنةُ أو المطمئنةُ إلى الحق التي سَكَنَهَا ثَلَجُ اليقين فلا يُخَالَجُهَا شَكٌّ، ويشهدُ للتفسير الأول، قراءةُ أَبِي ابْنِ كَعْبٍ: (يا أيتها النفسُ الأمانةُ المطمئنة).

قوله: (ثَلَجُ اليقين)، الأساس: «ومن المجاز: ثَلَجُ فؤاده وتَلَجَّتْ فؤاده بالخير، والحمدُ لله على بَلَجِ الحقِّ وثلَجِ اليقين». يريد: أن في قلقِ الشكِّ واضطرابِ القلبِ سُخونة، وفي ضده برودة.

قوله: (ويشهدُ للتفسيرِ الأولِ قراءةُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ)، وقلتُ: النظمُ أيضاً يساعِدُ عليه، لأن في قوله ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾، إشعاراً بأن النفسَ الأمانةَ بالسوءِ، تصيرُ حينئذٍ لوامةً، لقوله: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، قال:

وجادت بوضلي حين لا ينفع الوصل^(١)

فحكمه أن لا يعذبَ عذابه أحدٌ، ولا يوثقُ وثاقه أحد، وحكمُ النفسِ المطمئنةِ حينئذٍ

(١) البيت لبشر بن حزم الكلاعي، وصدرة:

أنت وحياض الموت بيني وبينها

فإن قلت: متى يقال لها ذلك؟ قلت: إما عند الموت، وإما عند البعث، وإما عند دخول الجنة. على معنى: ارجعي إلى موعد ربك ﴿رَاضِيَةً﴾ بها أوتيت، ﴿مَرْضِيَةً﴾ عند الله، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم، وقيل: النفس الروح. ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي. وقرأ ابن عباس: (فادخلي في عبدي)، وقرأ ابن مسعود: (في جسد عبدي). وقرأ أبي: (اتني ربك راضية مرضية، ادخلي في عبدي) وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب.....

أن يقال لها: ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي. والذي عليه ظاهر كلام الإمام إيثاثر المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَذَّكَّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، لأن النفس الزكية إذا أخذت في الترقى في سلسلة الأسباب والمسببات، لا تقف إلا عند مقطع^(١) الحاجات، ولا تطمئن إلا إليه^(٢).

قال ابن عطاء: «النفس المطمئنة هي العارفة بالله الذي لا تصبر عن الله طرفة عين»، وقال القاسم: «يا أيها الروح المتصلة بالحق، اطمانت ورضيت بما قضى لك وعليك، ارجعي إلى الذي زينك بهذه الزينة العظيمة، حتى يصلحك للرجوع منه إليه»^(٣).

قوله: ﴿فَادْخُلِي [فِي عِبَادِي]﴾ في جملة عبادي الصالحين، قال الإمام: «هذه حالة شريفة، لأن الأرواح القدسية تكون كالمرايا المصقولة، فإذا انضمت بعضها إلى بعض تنعكس الأشعة، فيظهر في كل منها ما لكلها، فنكون سبباً لتكامل السعادات وتعظيم الدرجات، وذلك هو السعادة الروحانية»^(٤). وقلت: ومن ثم جيء على وجه التسميم بالسعادة الجسمانية، وقيل: وادخلي جنتي.

(١) في (ف): مهطع.

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٦١) للرازي، بتصرف.

(٣) انظر: «حقائق التفسير» (٢: ٣٩٤) للشلمي.

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٦٢) بتصرف.

وقيل: في حُبَيْبِ بْنِ عَدِيِّ الَّذِي صَلَّبَهُ أَهْلُ مَكَّةَ وَجَعَلُوا وَجْهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ لِي عِنْدَكَ خَيْرٌ فَحَوِّلْ وَجْهِي نَحْوَ قِبْلَتِكَ، فَحَوَّلَ اللَّهُ وَجْهَهُ نَحْوَهَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدًا أَنْ يَحْوِلَهُ، وَالظَّاهِرُ الْعَمُومُ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «الْفَجْرِ» فِي اللَّيَالِي الْعَشْرِ غُفِرَ لَهُ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله: (في حُبَيْبِ بْنِ عَدِيِّ)، في «جامع الأصول»: «هو أنصاريُّ أوسِيٌّ شهدَ بدرًا، وأسَرَ في غزوةِ الرَّجِيعِ، فانطلقوا به إلى مكةَ فاشتراه بنو الحارثِ بنِ نوفلٍ، وكانَ قد قَتَلَ الحارثَ يَوْمَ بَدْرِ كَافِرًا، فأقامَ عندهم أسيرًا، ثُمَّ صَلَّبُوهُ فِي التَّنْعِيمِ»^(١). وروينا في صحيح البخاري عن أبي هريرةَ حديثًا طويلًا فيه^(٢).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِعَوْنِ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ

* * *

(١) «جامع الأصول» (١٢: ٣٤٤) لابن الأثير.

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٣٠٤٥).

سورة البلد

مكية، وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَالْوَالِدِ وَمَا وُلِدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ *
أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿١ - ٧﴾]

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد؛ واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن سُرخييل: يجرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته، أو سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقسم ببلده،

سورة البلد

مكية، وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (أو سأل رسول الله ﷺ)، عطف على قوله: «أقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام»، وفائدة القسم على الأول راجعة إلى تعظيم مكابدة الإنسان المشاق والشدائد، ثم اعترض بين القسم والمقسم عليه مكابدة النبي ﷺ، توكيداً لتلك المكابدة ولإرادة ذلك التعظيم.

على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد؛ واعترض بأن وَعَدَهُ فَتَحَ مَكَّةَ تَمِيمًا للتسليّة والتنفيس عنه. فقال: وأنت حلّ بهذا البلد، يعني: وأنت حلّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك أن الله فَتَحَ عليه مَكَّةَ وَأَحْلَاهَا له، وما فَتَحَتْ على أحدٍ قبله ولا أُحِلَّتْ له فأحلّ ما شاءَ وحَرَّمَ ما شاءَ؛ قَتَلَ ابنَ خَطْلٍ وهو متعلِّقٌ بأستارِ الكعبة، ومُقْبَسَ بنِ صُبابَةَ وغيرهما، وحَرَّمَ دارَ أبي سفيان، ثم قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرامٌ إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعصدُ شجرها،.....»

فَتَرَ «وأنت حلّ» بقوله: «إن مثلك على عظيم حُرْمَتِكَ»، وجعله من باب: أنت تجود، وقد مرّ غير مرّة أن «أنت»، إذا بُني عليه الخبرُ في مقامِ التعظيم، نظيرُ «مثل» في: مثلك يجود. وفائدة الاعتراض إرادة التثبيت من الرسول ﷺ، لجعل حاله مؤكدة للحكم العام الذي عليه جبلة جنس الإنسان، وتعجيبٌ من حال كفار مكة حيث صلحت أن يُستشهد بها لذلك. وعلى الثاني راجعة إلى تعظيم المقسم به، ثم إلى تعظيم الرسول ﷺ تسليّة، ولذلك أتى بلفظة «هذا» دلالة على كمال التمييز كقوله:

هذا أبو الصقر فردًا من محاسنيه^(١)

ولا شك أن ترك استحلال البلد تعظيمٌ لشأنه، ثم أكد تلك الحرمة بقوله: «وأنت حلّ بهذا البلد»، أي: أنت على الخصوص تستحلّه دون غيرك لجلالة شأنك، كما جاء: «لم تحل لأحد قبلي ولا لأحد بعدي»^(٢)، و«أنت» على هذا من باب التقديم للاختصاص، نحو: أنا عرفت، ولذلك كانت المعترضة تميمًا للتسليّة، قال الواحدي: «إن الله تعالى لما ذكر القسم بمكة، دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حرامًا، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده ويكون بها حلالًا»^(٣).

قوله: (فلا يعصدُ شجرها)، النهاية: «يعصد: يُقطع، يقال: عصدتُ الشجرةَ أعصده»

(١) البيت لابن الرومي في «ديوانه» (٣: ٣٥٤)، وعجزه:

وهو ابنُ شيبانَ بين الطلح والسلم

(٢) عن أبي هريرة في حديث تحريم مكة، انظر: «صحيح البخاري» (٤٣١٣).

(٣) «الوسيط» (٤: ٤٨٨) للواحدي.

ولا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا وَلَا تَحِلُّ لِقَطْعِهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ. فقال العباس: يا رسولَ الله. إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا؛ فقال ﷺ: «إلا الإذخر».

فإن قلت: أين نظيرُ قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ في معنى الاستقبال؟

قلت: قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ومثله واسع في كلام العباد، تقول لمن تعده الإكرام والحياء: أنت مُكْرَمٌ مَحْبُوبٌ، وهو في كلام الله أوسع؛ لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة. وكفالك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال. وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة عن وقت نزولها، فبألّ الفتح؟

عَضْدًا. والحللا مقصور: النبات الرقيق ما دام رطبًا، واختلاؤه: قَطْعُهُ، وأخَلَّتِ الأَرْضُ: كَثُرَ خَلَاهَا، فإذا يبس فهو حشيش. القَيْنُ: الحداد.

قوله: (إِلَّا لِمُنْشِدٍ)، المنشِدُ: المعرف. عن بعضهم: تأويل الحديث على قول أبي حنيفة رضي الله عنه، تأكيدٌ لثلاثٍ يُظَنُّ أن حكمَ لُقْطَةِ مَكَّةَ بخلافه في سائر البلدان. وعلى قول الشافعي رضي الله عنه، تخصيصُ مَكَّةَ بهذا الحكم، وهو أنه لا يجوز لأحدٍ أخذَ اللُقْطَةَ إِلَّا لِمُنْشِدٍ، بخلافِ سائرِ البلدان^(١). القَيْنُ: الحداد.

قوله: (عن وقت نزولها)، قيل: هو متعلق بقوله «أين» من حيث المعنى، لأنه استفهامٌ إنكارٍ عن مقاربة الهجرة وقت نزول الآية، فكأنه قيل: بعدت الهجرة عن وقت نزولها بعدًا، وإن كانت الهجرة بعيدة فكيف بالفتح؟ وإذا ثبت أن وقت نزول الآية بعيدٌ عن الفتح، فلا يكون قوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ بمعنى الحال، ويجوز أن يكون حالًا مقدرة وإن كانت جملةً، وقد مرَّ في سورة هود عند قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ تَجَرَّبْنَاهَا وَمُرْسِنَاهَا﴾ [هود: ٤١]، اعتراضٌ وجواب.

(١) وذلك أن حَرَمَ مَكَّةَ شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى، «مَنَابَةُ لِلنَّاسِ يَعُودُونَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْأُخْرَى، فَرُبَّمَا يَعُودُ مَالِكُهَا مِنْ أَجْلِهَا، أَوْ يَبْعَثُ فِي طَلِبِهَا، فَكَأَنَّهُ جَعَلَ مَا لَهْ بِهِ مَحْفُوظًا عَلَيْهِ». انظر: «الفتحة الإسلامي وأدلته» (٦): ٦٢٩) للزحيلي.

فإن قلت: ما المراد باليد وما ولد؟

قلت: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ولده، أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرّم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل، وبمن ولده وبه.

فإن قلت: لِمَ نُكِّر؟

قلت: للإيهام المستقل بالمدح والتعجب.

فإن قلت: هلاً قيل ومن ولده؟

قلت: فيه ما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: بأي شيء وضعت، يعني موضوعاً عجيب الشأن. وقيل: هما آدم وولده. وقيل: كل واليد وولد. والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا، فهو أكبد: إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة. ومنه اشتقت المكابدة، كما قيل: كبتة بمعنى أهلكه. وأصله: كبدته، إذا أصاب كبدته.

قوله: (هو مسقط رأسه)، الأساس: «ومن المجاز: هذا البلد مسقط رأسي، وفلان يحن إلى مسقطه»، قال:

نخرجنا جميعاً من مساقط رؤسنا على ثقة منا بجود ابن عامر^(١)

قوله: (وبمن ولده وبه)، أي: بمن ولده، أي: بإسماعيل وبه، أي: بالرسول ﷺ.

قوله: (فيه ما في قوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦])، يعني: أوتر «ما» على «من» لإرادة الوصف، ليفيد في مقام المدح ما لا يكتبه كنهه من التعظيم.

(١) من مقطوعة قالها رجل من ثقيف، وقد مع رجل أنصاريّ على والي عثمان بن عفان على البصرة عبد الله ابن عامر، مطلعها:

أمامة ما سغني الحريرص بزائد فتيلًا، ولا عجز الضعيف بضائر

قال لبيد:

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدِ

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب. والضمير في ﴿أَيْحَسَبُ﴾ لبعض صنديد قريش الذين كان رسول الله ﷺ يكابدُ منهم ما يكابد. والمعنى: أيطنُّ هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين: أن لن تقومَ قيامة، ولن يُقدَرَ على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه، ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم، أنه يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ يريدُ كثرة ما أنفقَه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم، ويدعونها معالي ومفاخر، ﴿أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياء الناسِ وافتخاراً بينهم، يعني: أن الله كان يراه وكان عليه رقيباً. ويجوزُ أن يكونَ الضميرُ للإنسان،

قوله: (يا عينُ هَلَّا بَكَيْتِ) البيت، قبله:

ما إن تُعْرِي النونُ من أحدٍ لا والدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلَدٍ (١)

يرثي لبيد أخاه أربد بن ربيعة، وهو الذي جاء النبي ﷺ مع عامر بن الطفيل، فدعا رسول الله ﷺ عليهما (٢)، فأربدُ أصابته صاعقة، وأصابَ عامراً طاعونٌ، فقال: أَعْدَّةٌ كَعُدَّةِ البعير، والموتُ في بيتِ سلولية؟!

قوله: (هذا الصنديد)، النهاية: «كُلُّ عَظِيمٍ غَالِبٍ صِنْدِيدٌ، وَالْجَمْعُ: الصَّنَادِيدُ، وَهَمَّ عَظْمَاءُ الْقَوْمِ وَرَوْؤُسُهُمْ».

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ الضميرُ للإنسان)، عطفٌ على قوله: «والضميرُ في ﴿أَيْحَسَبُ﴾ لبعضِ صنديد قريش»، ولما دَلَّ اختلافُ مرجعِ الضميرين على اختلافِ المعنى، قال: «على أن يكونَ المعنى: أقسمُ بهذا البلد»، إلى آخره. فحصلَ من هذا الاختلافِ إشكالٌ، وهو أنه حين جعلَ الضميرُ للصناديد، لم قرَّعه على المعنيين السابقين في أولِ السورة؟ وحين جعلَ

(١) انظر: «ديوان لبيد» ص ٤٩، ٥٠.

(٢) انظر: حديثها مطوَّلاً في «المعجم الأوسط» (٩١٢٧) للطبراني.

على أن يكون المعنى: أُقسِمُ بهذا البلدِ الشريف، ومن شرفه أنك حلُّ به مما يقترفه أهله من المآثم متحرِّج بريء، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: في مَرَض، وهو مَرَضُ القلبِ وفسادِ الباطن، يريد: الذين عَلِمَ اللهُ منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد هو أبو الأشد، وكان قويا يُسَطُّ له الأديمُ العكاظي فيقومُ عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا يُنزعُ إلا قِطْعاً وَيُنْقَى موضعَ قدميه. وقيل: الوليدُ بنُ المغيرة. (لُبدًا) قرئ: بالضم والكسر: جمع لُبْدَةٍ ولِبْدَةٍ، وهو ما تَلَبَّدَ يريد الكثرة: وقرئ: (لُبْدًا) بضميتين: جمع لَبُود. ولُبْدًا: بالتشديد جمع لا يبد.

الضميرُ للإنسانِ لِمَ كَانَ المعنى ما ذكره وما وقع الاستفهامُ في ﴿أَيَحْسَبُ﴾ على التقديرين؟ ولم خصَّ قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾ على هذا بما خصَّه؟ ويمكن أن يقال: إن الكبد إذا فسرت بالمشاق والشدائد رجع المعنى إلى مقاساة الرسول ﷺ من القوم المكابد؛ فحينئذ يكون ﴿أَيَحْسَبُ﴾ واردًا على توبيخ القوم، فيجب أن يكونوا أقوامًا مخصوصين. وإذا فسرت المكابدة بمرض القلب والعقائد الفاسدة، فالواجب أن يراد من جنس الإنسان الموصوف به. والمناسب على هذا أن يجعل ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، تأكيدًا لبراءة ساحته صلوات الله عليه من هذه المكابدة، ومما اقترفوه من المآثم وأمراض القلب، وكالتعليل لتعظيم المقسم به. ولذلك قال: «ومن شرفه أنك حلُّ به مما يقترفه أهله من المآثم».

قوله: (من المآثم)، الأساس: «وتحرَّج من كذا: تأثمت، ووقع في الحرج وهو ضيق المآثم»؛ فقوله: (حلُّ به متحرِّج بريء)، أخبارٌ مترادفة.

قوله: (وقيل: الذي يحسب)، مردودٌ إلى قوله: «والضميرُ في «يحسب» لبعض صناديد قريش»، وتعيينٌ للمُبهم.

قوله: (ولُبْدًا، بالتشديد، جمع لا يبد)، قال ابن جني: «هي قراءة أبي جعفر، ويجوز أن

[﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا أَفْجَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكَّرَبَةٍ * أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتَّبِعَا دَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِنْكِ مَنَّا دَا مَرَبَةٍ﴾ ٨-١٦]

﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصرُ بهما المرئيات، ﴿وَلِسَانًا﴾ يُرْجَمُ به عن ضميره. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يطبقهما على فيه ويستعينُ بهما على النطقِ والأكلِ والشربِ والنفعِ وغير ذلك، ﴿وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقَي الخيرِ والشر. وقيل: التدين. ﴿فَلَا أَفْجَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يعني: فلم يشكرُ تلك الأيادي والنعمَ بالأعمالِ الصالحة: من فكَّ الرقابِ وإطعامِ اليتامى والمساكين،

يكونَ بلفظٍ واحد، مثل: زُمِّل، وجُبِّأ. ولفظٍ جمعٍ نحو قائمٍ وقومٍ، وصائمٍ وضومٍ^(١). الزمِّل بالزاي: الجبان الضعيف.

قوله: ﴿النَّجْدَيْنِ﴾: أي: طريقَي الخيرِ والشر، قال الزجاج: ﴿النَّجْدَيْنِ﴾: الطريقين الواضحين، والنَّجْدُ: المرتفعُ من الأرض. المعنى: ألم نبين له طريقَي الخيرِ والشر بيانًا كيبان الطريقين العاليتين^(٢).

قوله: (وقيل: التدين)، في «المطلع»: «التدينين مما تُقسَّمُ به العرب، فتقول: أما ونَجْدِيها ما فعلت، تريد: وتُدَيي الأم، لأنها كالنجدين للبطن، وهو كالغور».

قوله: ﴿فَلَا أَفْجَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، يعني: فلم يشكرُ تلك الأيادي والأنعامَ بمعالجةِ الأعمالِ^(٣) الصالحة، قال محيي السنَّة: «ذَكَرُ الْعَقَبَةَ هَاهُنَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِمُجَاهِدَةِ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ فِي أَعْمَالِ الْبَرِّ، فَجَعَلَهُ كَالَّذِي يَتَكَلَّفُ صَعُودَ الْعَقَبَةِ»^(٤)، وإليه الإشارةُ بقوله: «جَعَلَ الصَّالِحَةَ:

(١) «المحتسب» (٢: ٣٦١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢٩).

(٣) كذا في (ح) و(ف)، وفيه مخالفة للفظ «الكشاف»، أما في (ط) فلم يتم العبارة بل قال: ﴿فَلَا أَفْجَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يعني: فلم يشكره إلى آخره، ونص «الكشاف» في (ط) كالمثبت في المتن.

(٤) «معالم التنزيل» (٨: ٤٣١).

ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة، وأساس كل خير؛ بل غمط النعم وكفر بالمنعم. والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله، لا أن يهلك مالا لبدأ في الرياء والفخار، فيكون مثله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَكَ قَوْمٍ﴾ [آل عمران: ١١٧] الآية.

فإن قلت: قل ما تقع (لا) الداخلة على الماضي إلا مكررة، ونحو قوله:

فأي أمر سيئ لا فعله

لا يكاد يقع، فما لها لم تكرر في الكلام الأوضح؟

عقبة، وعملها: اقتحاماً لها، قال صاحب الفرائد: «هذا تنيية على أن النفس لا توافق صاحبها في الإنفاق لوجه الله ألبته، فلا بُدَّ من التكلف وحمل المشقة على النفس. والذي توافقته النفس هو الافتخار والمراءة، فكأنه تعالى ذكر هذا المثل بإزاء ما قال: ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾، والمراد بيان الإنفاق المفيد، وإن ذلك الإنفاق مُضر». وقلت: في التمثيل بالعقبة بعد ذكر النجدين ترشيح، ثم التفرغ عليه بالافتحام تربية لتلك المبالغة.

قوله: قل ما تقع «لا» الداخلة على الماضي إلا مكررة، الراغب: «(لا): يستعمل في العدم المحض، نحو: زيد لا عالم، وهو يدل على كونه جاهلاً، وذلك يكون للنفي. و(لا): ويستعمل في الأزمنة الثلاثة، ومع الاسم والفعل، غير أنه إذا نفي به الماضي، فإما أن لا يؤتى بعده بالفعل، نحو أن يقال لك: هل خرجت؟ فتقول: لا، أي: لا خرجت. ولكن قل ما يُدكر بعده الماضي، إلا إذا فصل بينهما بشيء نحو: لا رجل ضربت ولا امرأة، أو يكون عطفًا نحو: ما خرجت ولا ركبت، أو عند تكريره نحو: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١]، وعند الدعاء نحو: لا كان ولا أفلح، ونحو ذلك. ومما نفي به المستقبل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقد حمل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١]. وقوله: ﴿وَمَا

قلتُ: هي متكررة في المعنى؛ لأن معنى ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ فلا فك رغبة، ولا أطعم مسكيناً. ألا ترى أنه فسّر اقتحام العقبة بذلك. وقال الزجاج قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدل على معنى: ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، ولا آمن.....

لَكَرُّ لَا تُفْلِلُونَ ﴿النساء: ٧٥﴾، يصح أن يكون في موضع الحال، أي: ما لكم غير مقاتلين. وقد يكرُر ﴿لَا﴾ في المتضادين ويراد إثبات الأمر فيهما جميعاً، نحو: زيد ليس بمقيم ولا ظاعن، أي: يكون تارة كذا وتارة كذا. وقد يقال ذلك ويراد إثبات حالة بينهما، نحو أن يقال: ليس بأبيض ولا أسود، وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ [النور: ٣٥]، فقد قيل: معناه: إنها شرقية وغربية، وقيل: معناه: مصنوعة عن الإفراط والتفريط^(١).

قوله: (ألا ترى أنه فسّر اقتحام العقبة بذلك)، يريد أن المفسر والمفسر واحد؛ فإن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ منفي عن تلك العقبة، لأن المعرف باللام إذا أعيد معرفاً كان الثاني عين الأول، فتكون الجملة معترضة مُفحمة لبيان العقبة، مقررة لبيان معنى الإبهام والتفسير؛ فإن ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ مفسر بقوله ﴿فَكَ رَغْبَةً * أَوْ إِطْعَمَ﴾، والمفسر منفي، والمفسر كذلك لاتحادهما في الاعتبار، وكأنه قيل: فلا فك رغبة، ولا أطعم مسكيناً^(٢).

قوله: (وقال الزجاج: قوله ﴿ثُمَّ كَانَ﴾)، هذا وجه آخر، وصورة كلامه أنه قال: «قلما يتكلم العرب في مثل هذا المكان إلا بـ (لا) مرتين أو أكثر، فلا تقول: لا جنتني، تريد: ما جنتني. وإن قلت: لا جنتني ولا زرتني صلح. وهذا التكرير هاهنا موجود، لأن قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدل عليه، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن^(٣). وقلت: فعلى هذا يكون من اللف التقديري، لأن الضمير في ﴿كَانَ﴾ للمذكور، ولا يكون الإيمان داخلاً

(١) «مفردات القرآن» للراغب، ص ٧٥٣، ٧٥٤.

(٢) في (ح): «الكلام».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢٩).

والاقتحام: الدخول والمجاززة بشدة ومشقة. والقحمة: الشدة، وجعل الصالحة: عقبة، وعملها: اقتحاماً لها، لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة والله شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان. وفك الرقبة: تخليصها من رق أو غيره. وفي الحديث: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: دُلّني على عمل يدخلني الجنة. فقال: تُعتق النّسمة وتفك الرقبة. قال: أو ليسا سواء؟ قال: لا، إعتاقها أن تنفرد بعقبتها. وفكها: أن تعين في تخليصها من قود أو غرم، والعتق والصدقة من أفاضل الأعمال. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: أن العتق أفضل من الصدقة، وعند صاحبيه الصدقة أفضل، والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أبيضه في ذي قرابة، أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ فَكَّ رَقَبَةً فَكَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ».....

تحت مفهوم العقبة المعبرة عن الأعمال الصالحة، وعلى الأول داخل تحتها جزء منها، لكنه أشرفها. ونقل عن أبي علي الفارسي أنه ردّ قول الزجاج، وقال: «إذا كانت «لا» بمعنى «لم»، كان التكرير غير واجب، وإن تكررت في موضع نحو ﴿فَلَا صَلَافٌ وَلَا صَلَافٌ﴾، فهو كتكرير ﴿وَلَمْ يَسْرِفُوا﴾ نحو: ﴿لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]»^(١).

قوله: (وفي الحديث أن رجلاً قال)، الحديث رواه محيي السنة في «شرح السنة»، عن البراء بن عازب^(٢).

قوله: (مَنْ فَكَّ رَقَبَةً)، الحديث من رواية البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، قال النبي ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّىٰ فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ»^(٣).

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٤١٤-٤١٥).

(٢) «شرح السنة» (٢٤١٩: ٩) (٣٥٤) للبيهقي، وانظر: «الأدب المفرد» للبخاري (٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧١٥) ومسلم (٢٢-١٥٠٩).

قرئ: (فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٍ) على: هي فُكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ. وقرئ: (فَكُّ رَقَبَةٍ) أَوْ أَطْعَمَ، على الإبدالِ من اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ اعتراضٌ، ومعناه: أنك لم تَدْرِ كُنْهَ صعوبتها على النفسِ وكُنْهَ ثوابها عند الله. والمسغبةُ، والمقربةُ، والمتربةُ مَفْعَلَاتٌ، من سَغَبَ إِذَا جَاعَ وَقَرَّبَ فِي النِّسْبِ، يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي. وَتَرَبَّ: إِذَا افْتَقَرَ، ومعناه: التصقَّ بالتراب. وأما أَتَرَبَّ فاستغنى، أي: صارَ ذا مالٍ كالترابِ في الكثرة، كما قيل: أترى.....

قوله: (وَقُرئُ: «فَكُّ رَقَبَةٍ»)، ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو والكسائيُّ: «فَكُّ»، بفتحِ الكافِ، «رَقَبَةٍ»: بالنصبِ، «أَوْ أَطْعَمَ»: بفتحِ الهمزةِ وحذفِ الألفِ. والباقونَ: برفعِ الكافِ والخفضِ وكسرِ الهمزةِ وألفِ بعد العين^(١).

قال أبو البقاء: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾: ما اقتحامُ العقبة؟ لأنه فسره بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾؛ وهو فعلٌ، سواءً كان بلفظِ الفعلِ، أو بلفظِ المصدرِ. والعقبةُ: عينٌ، فلا يفسرُ بالفعلِ، فمن قرأ: «فَكُّ... أَوْ أَطْعَمَ»، فسّرَ المصدرَ بالجملةِ الفعليةِ لدلالاتها عليه. ومن قرأ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أَوْ إِطْعَمَ، كان التقديرُ: هو فُكُّ رَقَبَةٍ، والمصدرُ مضافٌ إلى المفعولِ، و﴿إِطْعَمَ﴾ غيرُ مضافٍ إلى المفعولِ، ولا ضميرٌ فيها، لأنَّ المصدرَ لا يتحمَّلُ الضميرَ. وذهبَ بعضُ البصريينَ إلى أن المصدرَ إِذَا عملَ في المفعولِ، كانَ فيه ضميرٌ كالضميرِ في اسمِ الفاعلِ. و﴿يَبْسَمًا﴾: مفعولُ (إِطْعَامٍ)^(٢). والمصنفُ أيضًا أشارَ إلى هذا حيث قال: «لأن معنى ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾: فلا فُكُّ رَقَبَةٍ ولا أَطْعَمَ مسكينًا».

قوله: (يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي)، قال الزجاج: «وزيدٌ قرابتي قبيح، لأن

(١) حجةٌ من قرأ بالفعلِ قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فلما كان ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فعلًا، وجبَ أن يكون المعطوف عليه مثله، أي: فهلَّا فُكُّ رَقَبَةٍ أَوْ أَطْعَمَ فكان من الذين آمنوا. وحجةٌ من قرأ بالرفع أنها تفسير لقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَيْبَةُ﴾ [الفارعة: ١٠]، وكذلك ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ﴾ [الهمزة: ٥]، إذ الجواب: فُكُّ رَقَبَةٍ، ونازٌ حامية، وناز الله الموقدة، على الترتيب.

انظر: «حجة القراءات» ص ٧٦٤، ٧٦٥.

(٢) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٨٨-١٢٨٩).

وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿ذَامَتْرَبِي﴾ الذي مأواه المزابيل، ووصفُ اليومِ بذِي مَسْغَبَةٍ نحو ما يقولُ النحويون في قولهم: هُمُّ ناصِب: ذُو نَصَب. وقرأ الحسن: (ذَا مَسْغَبَةٍ) نصبه بإطعام. ومعناه: أو إطعامٌ في يومٍ من الأيامِ ذَا مَسْغَبَةٍ.

[﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ١٧ - ٢٠]

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جاء بـ ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره،

القراءة مصدر^(١)، قال:

يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وذو قرابته في الحيِّ مسرور^(٢)

قوله: (ووصفُ اليومِ بذِي مَسْغَبَةٍ)، أي: على النسبة، قيل: معناه أنه ثابتٌ له وحاصلٌ. روى الإمام عن الحسن أنه قال: «يومٌ يُجرِّصُ فيه [على] الإطعام، وقال أبو علي: معناه ما قالوا في قولهم: ليلُهُ نائمٌ ونهاؤه صائمٌ، أي: ذو نوم، وذو صوم»^(٣).

قوله: (جاء بـ ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت)، ويجوز أن تجرى على حقيقتها، قال صاحبُ «الكشف»: «يجوز أن يكونَ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٢٩).

(٢) البيت من مقطوعة اختلف في نسبتها إلى قائلها، ففي «مجالس نعلب» (١: ٢٢٠-٢٢١).

تأتي أمورٌ فلا تدري: أعاجلها	خيرٌ لنفسك أم ما فيه تأخيرٌ
فاستقدرِ اللهَ خيراً وارضى به	فبيننا العسرُ إذ دارت مياسيرُ
وبيننا المرءُ في الأحياءِ مغتبطاً	إذ صار في الرِّمَسِ تعفوه الأعاصيرُ
يبكي عليه غريبٌ ليس يعرفه	وذو قرابته في الحيِّ مسرورٌ
حتى إذا لم يكن إلا تذكُّره	والدهرُ أيَّتْمًا حالَ دهاريُرٍ

وثمة تخريجها كاملاً.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٦٩)، وانظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٤١٥) لأبي علي الفارسي.

ولا يثبتُ عملٌ صالحٌ إلا به. والمرحمةُ: الرحمة، أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبرِ على الإيمانِ والثباتِ عليه. أو بالصبرِ عن المعاصي وعلى الطاعاتِ والمِحَنِ التي يُبتلى بها المؤمن، وبأن يكونوا متراحين متعاطفين، أو بما يؤدي إلى رحمة الله. الميمنةُ والمشامةُ: اليمينُ والشمال، أو اليَمْنُ والشُّؤْم، أي: الميامينُ على أنفسهم والمشائيمُ عليهن. قرئ: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ بالواو والهمزة، من: وَصَدْتُ البابَ وَأَصَدْتُهُ: إذا أَطْبَقْتَهُ وَأَغْلَقْتَهُ. وعن أبي بكرِ بنِ عياشٍ: لنا إمامٌ يهْمُرُ

لترتيبِ خبرِ عليٍّ خبر، كقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] (١)، قَالَ الإمامُ فِي وَجْهِ: إِنْ مَنْ أَتَى بِهِذِهِ الْقُرْبَى تَقَرَّبَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، قَبْلَ إِيْمَانِهِ بِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ آمَنَ بِهِ يُثَابُ عَلَيْهِ (٢).

وَقُلْتُ: عَلَى هَذَا، «كَانَ» بِمَعْنَى «صَارَ»، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ عَنِ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّنُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ صَلَاةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ، هَلْ لِي فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ حَكِيمٌ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسَلِمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ» (٣).

قَوْلُهُ: (أَي: أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَى الْإِيْمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ)، قَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، أَنْ يَدُلَّ النَّاسَ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَيَمْنَعَهُمْ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْبَاطِلِ؛ وَأَنَّ الْأَصْلَ فِي التَّصَوُّفِ (٤) أَمْرَانِ: صِدْقٌ مَعَ الْحَقِّ، وَخُلُقٌ مَعَ الْخَلْقِ» (٥).

وَقُلْتُ: وَفِيهِ تَحْرِيطٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٥٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٢٠).

(٤) في (ف): «التصدق».

(٥) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧٠) بتصرف.

﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾؛ فَأَسْتَهِي أَنْ أَسُدَّ أُذُنِي إِذَا سَمِعْتَهُ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ «لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» أَعْطَاهُ اللَّهُ الْأَمَانَ مِنْ غَضَبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾، حمزة وحفص وأبو عمرو: بالهمزة، وحمزة إذا وقف أبدلها واواً. والباقون: بغير همز. في «الكواشي»: «من همز جعل من: آصَدْتُ الباب: أَطْبَقْتُهُ. وَمَنْ لَمْ يَهْمَزْ جُعِلَ خَفَّفَ: آصَدْتُ، أَبَدَلَ الْهَمْزَةَ وَآوَا لِلضَّمَّةِ قَبْلَهَا، أَوْ مِنْ أَوْصَدْتُ بِمَعْنَى آصَدْتُ؛ ففَاءُ الْفَعْلِ وَآوُ، فَلَا يَهْمَزُ اسْمُ الْمَفْعُولِ، إِذْ لَا أَصَلَ لَهُ فِي الْهَمْزَةِ»^(١).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِعَوْنِ اللَّهِ

* * *

(١) و«موصدة» على وزن «مفعلة» على الأصل، و«موعلة» من غير همز، ولا سبيل إلى همزها إلا على قول من قال:

لَحَبُّ الْمُوقَدَانِ إِلَى مُوسَى وَجَعْدَةٌ إِذْ أَضَاءَ هُمَا الْوَقُودُ

انظر: «ديوان جرير» (٢: ٢٨٨).

سورة الشمس

مكية، وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهَآ * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَئَهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَآءُ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَبَّعَهَا * وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ١-١٠]

ضحاهها: ضوءها إذا أشرقت وقام سلطانها؛ ولذلك قيل: وقت الضحى، كأن وجهه شمس الضحى. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار،

سورة الشمس

مكية، وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (ضحاهها: ضوءها إذا أشرقت)، في «المطلع»: «عن مجاهد والكلبي: وضحاها: ضوءها إذا أشرقت وارتفعت، والإشراق بعد الشروق، لأن الشروق الطلوع، ثم الضحوة، ولذلك قيل: كأن وجهه شمس الضحى».

قوله: (ولذلك)، أي: ولأجل أن المراد بضحاهها ضوءها وإشراقها، أضيف الوقت إليه، فقيل: وقت الضحى، كما يقال: وقت الإشراق.

والضحى فوق ذلك. والضحاء بالفتح والمد: إذا امتدَّ النهارُ وقربَ أن ينتصف، ﴿إِذَا نَلَّهَا﴾ طالعاً عند غروبها أخذاً من نورها؛ وذلك في النصفِ الأوَّل من الشهر. وقيل: إذا استدارَ فتلاها في الضياء والنور. ﴿إِذَا جَلَّتْهَا﴾ عند انتفاخِ النهارِ وانبساطه، لأنَّ الشمسَ تنجلي في ذلك الوقتِ تمامَ الانجلاء. وقيل: الضميرُ للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض، وإن لم يجر لها ذكر، كقولهم: أصبحت باردة؛ يريدون الغداة، وأرسلت: يريدون السماء. إذا يغشاها، فتغيب وتظلم الآفاق.

قوله: ﴿أَخَذًا مِنْ نورها؛ وذلك في النصفِ الأوَّل من الشهر﴾، قال الفراء: «إن القمرَ يأخذُ الضوءَ من الشمس، يقال: فلانٌ يتبعُ فلانًا في كذا، أي: يأخذُ منه»^(١). وفي «الوسيط»: ﴿وَأَلْقَمَ إِذَا نَلَّهَا﴾: تبعها؛ يقال: تلا يتلو تُلُوًّا، إذا تبع^(٢). قال المفسرون: وذلك في النصفِ الأوَّل من الشهر، إذا غربت الشمسُ تلاها القمرُ في الإضاءة وحلَّفها في النور. وقال الإمام: «تلاها في الضياء، أي صارَ كالقائم مقامَ الشمسِ في الإنارة، وذلك في الليالي البيض»^(٣).

الراغب: «تلاه: تبعه متابعه ليس بينها ما ليس منها، وذلك تارة يكونُ بالجسم وتارة بالاعتداء في الحكم، ومصدره تَلُوٌّ وتُلُوٌّ. وتارة بالقراءة وتدبر المعنى ومصدره تلاوة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَمَ إِذَا نَلَّهَا﴾؛ فإنها يرادُ به هاهنا الاعتداء والمرتبة، وذلك أنه فيما يقال: إن القمرَ يقتبسُ النورَ من الشمس، وهو لها بمنزلة الخليفة»^(٤).

قوله: ﴿عند انتفاخِ النهار﴾، الأساس: «ومن المجاز: انتفخَ النهارُ: علا».

قوله: ﴿إذا يغشاها، فتغيب وتظلم الآفاق﴾، قال الإمام: «يغشى الليلُ فيُزيلُ ضوءها، وذلك يقوي القول: إن الضميرَ في ﴿جَلَّتْهَا﴾ للشمس، لتتفق الفواصل، وليُطابق بين قوله

(١) لم أهتم إلى موضعه.

(٢) «الوسيط» (٤: ٤٩٤) للواحدى.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧٢).

(٤) «مفردات القرآن»، ص ١٦٧.

فإن قلت: الأمر في نصبٍ (إذا) مُعْضِلٌ: لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواواتِ عاطفةً فتنصبَ بها وتجرّ، فتقعُ في العطفِ على عاملين في نحو قولك: مررتُ أمسٍ بزيد، واليومَ عمرو. وإما أن تجعلهنَّ للقسم، فتقع فيا اتفق الخليلُ وسيبويه على استكراهه.

قلتُ: الجوابُ فيه أن واو القسم مُطَّرَحٌ معها إبرازُ الفعلِ أطراحاً كلياً، فكان لها شأنٌ خلافَ شأنِ الباء، حيث أبرزَ معها الفعلَ وأضمر، فكانت الواوُ قائمةً مقامَ الفعلِ والباءُ سادةً مسدّهما معاً، والواواتُ العواطفُ نوابغٌ عن هذه الواو، فَحَقِيقُنَّ أن يكنَّ عواملَ على الفعلِ والجارِّ جميعاً، كما تقول: ضربَ زيدٌ عمراً، وبكرٌ خالداً؛ فترفعُ بالواوِ وتنصبُ لقيامها مقامَ ضَرَبَ الذي هو عاملُها.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾، وبين قوله: ﴿وَأَيُّلٌ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، فلما حُسِنَ جَعَلَ اللَّيْلُ يَغْشَى الشَّمْسَ، يَحْسُنُ أَنْ النَّهَارُ يَجْلِيهَا. وَقَالَ الْقَفَّالُ: وهذه الأقسامُ الأربعةُ دائرةٌ مع الشمسِ بحسبِ أوصافِها^(١).

قوله: (مررتُ أمسٍ بزيد)، أمسٍ: منصوبٌ بـ«مررتُ»، وزيد: مجرورٌ بالباء؛ فإذا قلتُ: واليومَ عمرو، فقد نصبتُ اليومَ، وجررتُ عمراً بالواو، وقد جعلتُ هذه الواوُ نائبةً عن «مررتُ» وعن الباء. ولا يجوزُ جعلُ الضعيفِ نائبةً عن قوتين.

قوله: (على استكراهه)، قال صاحبُ «المطلع»: «يعني أن الخليلَ وسيبويه^(٢) استقروا كلامَ العرب، فعلموا أن لا بدَ لكلِّ قَسَمٍ من مُقسَمٍ عليه، لأنه هو المطلوبُ بالقسم؛ فلو زعمتُ أن الكلَّ قَسَمٌ، فقد جئتُ بأقسامٍ كثيرةٍ ليسَ لكلِّ واحدٍ مقسَمٌ عليه على حدة. وقد سبقَ القولُ فيه في فواتح البقرة مشبعاً».

قوله: (أن واو القسم مطَّرَحٌ معها إبرازُ الفعل)، وعن بعضهم: الأصل: أقسمتُ بالله؛ فهاهنا تصيرُ الواوُ نائبةً عن الفعلِ المضميرِ في «إذا»، ونائبةً عن الباءِ في «الليل»، وإنما لم يجزِ إظهارُ الفعلِ مع الواو، لأن الباءَ تلصقُ كلَّ شيءٍ، والواوُ لا تلصقُ إلا فعلَ القسم، فطلبنا

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧٣) بتصرف.

(٢) انظر: «الكتاب» (٣: ٥٠١) لسيبويه.

للاختصاص أضمر الفعل معها، لأن الواو فرغ عن الباء. وقال ابن الحاجب: «يلزم من مجيء الواو حذف الفعل، كأنهم جعلوها عوضاً من الباء والفعل معاً، ومن ثم أجيبت: لما استدل على جواز العطف على عاملين بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢]، بأن واو القسم جرت مجرى الباء والفعل معاً، فصح إعمالها بالاعتبارين، وكانت كأنها عامل واحد، أي: عامل واحد له معمولان، نحو: ضرب زيدٌ عمرًا وبكرٌ خالدًا، ولا خلاف في جواز ذلك»^(١).

وقال صاحب «اللباب»: «ما ذكره صاحب «الكشاف» لطيف، ولكن يردُّ عليه مثل قوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ * الْجَوَارِ الْكُنَسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٥-١٨]، حيث صرح بالعاملين وليس هناك شيء ناب عنها وعمل عملها، والأحسن عندي أن «إذا» هاهنا قد انسلخ^(٢) للظرفية، ويكون منصوب المحل بدلاً من الليل، كأنه قيل: والليل وقت غشيانه، قال:

وبعد غدٍ يا لهف نفسي من غدٍ إذا راح أصحابي ولستُ برائح^(٣)

حيث أبدل «إذا» من «غدٍ»، أو على حذف مضاف نحو: وغشيان الليل إذا يغشى، و«إذا» ظرف لهذا المضاف، ولا يحسن إعمال فعل القسم فيه إذ القسم مطلق وليس بمقيد بوقت من الأوقات، لصحة الكلام واستقامته في النهار.

وقال صاحب «الانتصاف»: «أجاز ابن الحاجب العطف على عاملين، وجعل هذه الآية حجته في مخالفة سيبويه، ورد جواب الزمخشري في ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] بأنه لم يستمر في التكوير، وكان يستحسن من نفسه هذا الاستنباط. ويمكن أن يقال: إن الواو

(١) «الايضاح شرح المفصل» (٢: ١٥٣، ١٥٤) بتصرف.

(٢) في (ف): «تصلح»، وليس المراد.

(٣) البيت لهذبة بن الخشرم من مقطوعة مطلعها:

ألا عُلَّاني قبل نُوحِ النوائجِ وقيل اطلاع النفس بين الجوانح

في قوله: ﴿وَأَيْلٍ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧] وأو القسم، وفي ﴿وَالصَّبْحِ﴾ [التكوير: ١٨] عاطفة، فيطرُد ما قال الزمخشري». فإن قيل: خالفتم سيويه؛ فإنه لا يرى الواو المتعقبة للقسم ابتداء قسم، بل عاطفة، وقد جعلتم الواو الأولى المتعقبة لباء القسم، وهي في ﴿وَالْحَنَسِ﴾، قسماً. قلنا: إنها تكلمت سيويه في واو تعقبت قسماً بالواو، فأما إذا جاءت الواو بعد الباء فلم يذكره؛ فإن الذي ذكره سيويه فيه تكرار الواو في معنى واحد، وهو مُستكرهٌ بخلاف هذا، ألا ترى أنه لو صدر القسم بالواو ثم تلاه قسم بالباء، لتحتّم كونهما قسَمَيْنِ. وأيضاً فكان المانع لسيويه من جعل الواو الثانية قسماً مستقلاً، مجيء الجواب واحداً، واحتياج الواو الأولى إلى محذوف؛ فالعطف يغني عن تقدير محذوف، فلا يلزم اطّرادُه في الباء التي هي أصل للقسم، لا سيما مع التصريح بفعل القسم وتأكيده بزيادة «لا»؛ ففي مجموع ذلك ما يغني عن إفراده بجواب، ولا كذلك الواو، فإنها ضعيفة المكنة في القسم بالنسبة إلى الباء، فلا يلزم من حذف جواب، ويصح الدلالة عليه حذف جوابٍ دونه في الوضوح. فهنا نكتة خصت إيراد السؤال بالواو الثانية في قوله: ﴿وَأَيْلٍ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧] دون الثالثة، لأنه لا يلزم منها العطف على عاملين؛ لأننا نجعلها نائبة عن الباء، ونجعل «إذا» فيها منصوبة بالفعل مباشرة، إذ لم يتقدم في جملة الفعل ظرف يعطف عليه «إذا»، فهو كقولك: مررتُ بزيد وعمرو اليوم، فالיום منصوبٌ بالفعل مباشرة؛ فمرورك بزيد مطلقٌ غيرٌ مقيد بظرف، فالمقيد به عمرو خاصة، فالظرف وإن عمل فيه الفعل مباشرة، فهو مقيدٌ للقسم بالليل لا للقسم بالحنس»^(١).

قال الدارُ الحديثي: «إن الواو في قوله: ﴿وَأَيْلٍ إِذَا عَسَّسَ﴾ وَالصَّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٧]- [١٨]، وقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالسَّقَطِ﴾ * وَأَيْلٍ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا أَتَقَّ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٨]، للقسم لا للعطف، وجوابٌ أحد القسمين محذوف، وهو أسهل تحملاً من ارتكاب العطف على عاملين».

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧١٠)، وانظر «الإنصاف» (ق ١٤٦-١٤٧) للعراقي.

جَعَلْتُ (ما) مصدرية في قوله: ﴿وَمَا بَدَّلْنَاهَا﴾ ﴿وَمَا مَحَّضْنَاهَا﴾ ﴿وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾، وليس بالوجه لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ وما يؤدي إليه من فساد النظم، والوجه أن تكون موصولة،

قوله: (جعلت) مصدرية في قوله ﴿وَمَا بَدَّلْنَاهَا﴾، روى الواحدي عن عطاء: «والذي بناها، والكلبي: ومن بناها. وقال الفراء والزجاج: (ما): بمعنى المصدر»^(١). الراغب: «تسوية الشيء: جعله سواء، إما في الرفع أو الصعة. قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، أي: جعل خلقك على ما اقتضت الحكمة، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾، إشارة إلى القوى التي جعلها مقومة للنفس، فنسب الفعل إليها، لأن الفعل كما يصح أن ينسب إلى الفاعل، يصح أن ينسب إلى الآلة، نحو: سيف قاطع، وهذا أولى من قول من قال: أراد ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾، يعني: الله، لأن «ما» لا يعبر به عن الله، إذ هو موضوع للجنس، ولم يرد [به] سمع يصح»^(٢).

قوله: (وما يؤدي إليه من فساد النظم)^(٣)، وذلك أن ضمير الفاعل في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ الله تعالى، والفاء فيه للترتيب؛ فلا يجوز: ونفس وتسويتها فألهما الله، فلا بد من ذلك التقدير، فإذا نوجب النظم السري الموافقة بين سائر القرائن.

قال الإمام: «أورد القاضي عبد الجبار هذا القول وأبى إلا أن يكون مصدرًا، لما يلزم من تقديم الأقسام بغير الله على أقسامه بنفسه عز وجل»^(٤).

وأجاب الإمام عنه «بأن أعظم المحسوسات الشمس، فذكرها الله تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظيمها، ثم ذكر ذاته المقدسة ووصفها بصفات ثلاث، ليحظى العقل بإدراك جلال الله وعظمته كما يليق به، والحس لا ينازعه، فكان ذلك طريقًا إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات، إلى بيداء أوج كبريائه»^(٥).

(١) «الوسيط» (٤: ٤٩٥) للواحدي، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٣٢) للزجاج.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٤٤٠.

(٣) في «ف»: «الضَّم»!

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧١) بتصرف.

(٥) المصدر السابق.

وإنما أُوثِرْتُ على مَنْ لإِرَادَةِ معنَى الوصفية، كأنه قيل: والسَاءُ، والقَادِرِ العَظِيمِ الذي بناها، ونفسٍ، والحكيمِ الباهرِ الحِكْمَةَ الذي سَوَّاهَا، وفي كلامِهِمْ: سَبْحَانَ مَا سَخَّرَكُنَّ لَنَا.

فإن قلتَ: لِمَ نَكَّرتِ النفسَ؟

قلتُ: فيه وجهان، أحدهما: أن يريدَ نفساً خاصةً من بين النفوسِ وهي نفسُ آدم، كأنه قال: وواحدةً من النفوسِ. والثاني: أن يريدَ كُلَّ نفسٍ ويُكَّـرُ للتكثيرِ على الطريقةِ المذكورةِ في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].....

قولُهُ: (لِإِرَادَةِ معنَى الوصفية)، لأن (ما) يستعملُ في الصفات، إذا أردتَ أن تسألَ عن صفةِ زيد، فقلت: ما زيدٌ؟ والجوابُ عنه: فقيهٌ أم طبيب. وإذا سألتَ عن ذاته فقل: مَنْ هو؟ والجوابُ عنه: إنه زيد.

قولُهُ: (الباهرِ الحِكْمَةَ الذي سَوَّاهَا)، قَالَ الإمام: «تسويتُها: تعديلُ أعضائها على ما يشهدُ به علمُ التشريح، وإعطاؤها القوةَ السامعةَ والباصرةَ والمخيَّلةَ والمفكرةَ والمذكَّرةَ، على ما يشهدُ به علمُ النَّفْسِ»^(١). ويهذه الدقِيقَةُ خصَّصَ المصنّفُ تفسِيرَ «ما» في ﴿نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ بصفةِ الحِكْمَةِ.

قولُهُ: (سَبْحَانَ مَا سَخَّرَكُنَّ لَنَا)، يخاطبُ النساءَ، وفي «سَبْحَانَ» ما في معنَى التعجُّبِ؛ يتعجَّبُ من كونهنَّ مسخراتٍ للرجال، قال الزجاج: «قيل: «ما» هاهنا بمعنى «مَنْ»، وحكي عن أهلِ الحجاز: سَبْحَانَ مَا سَبَّحَتْ لَهُ»^(٢).

قولُهُ: (وَيُكَّـرُ للتكثيرِ على الطريقةِ المذكورة)، وهي أنه من عكسِ كلامِهِمْ الذي يَقصدون به الإفراطَ فيما يعكسُ عنه. ويجوزُ أن يكونَ التنكيرُ فيه للتعظيمِ والتفخيمِ، قَالَ الإمام: «يريدُ

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧٤).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٣٢).

ومعنى إلهام الفجور والتقوى: إلهامها وإعاقها، وأن أحدهما حسنٌ والآخرُ قبيحٌ، وتمكينه من اختيار ما شاء منها بدليل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ فجعله فاعلَ التزكية والتدسية ومتوليها،

نفساً خاصةً من بين النفوس، وهي النفس القدسية النبوية، وذلك أن كلَّ كثرة لا بد لها من وحدة تكون هي الرئيس؛ فالمرکبات جنسٌ تحته أنواع، ورئيسها الحيوان، والحيوانُ جنسٌ تحته أنواع، ورئيسها الإنسان، والإنسانُ أصنافٌ ورئيسهم النبي، والأنبياءُ كثيرون، ورئيسهم المصطفى صلواتُ الله عليه^(١).

قوله: (بدليل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾)، يريد أنه لما أسند التزكية والتدسية إلى ذي النفس، علم أنه متمكنٌ من اختيار ما شاء من الفجور والتقوى، وعلم أن المراد من إلهام الفجور والتقوى، إلهامُ الله لا خلقها.

الانتصاف: «دَسَّ في كلامه نوعين من الباطل:

أحدهما: تفسيرُ «أهَمَّها» بقوله: «أفهمها الفجور والتقوى»، وأن أحدهما حسنٌ والآخرُ قبيحٌ». وظنَّ الحسنَ والقبيحَ مُدركين للأحكام، إلا أنا لا ننكرُ أن العقلَ يدركُ الأحكامَ الشرعية، بل لا بدَّ في كلِّ حُكمٍ شرعي من مقدمة عقلية موصلة إلى العقيدة، وسمعية دالة على خصوص الحكم.

وثانيهما: وهي^(٢) التي كشفَ القناعَ عنها، وهي أن التزكية والتدسية ليستا مخلوقتين لله تعالى، وذكرَ فيها مجردَ دعوى مقرونة بسفاهة. فنقول: لا شك أن الضميرَ يمكنُ عودَه إلى الله تعالى وإلى ذي النفس، لكن عودَه إلى الله تعالى أولى لوجهين:

أحدهما: أن الجملَ سيقَّتْ سياقةً واحدةً من قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَّا﴾، وضمَّ نبره

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧٤) بتصرف.

(٢) أي: النزعة الثانية كما في «الانتصاف»، أي: الباطل الثاني.

والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى، والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور.

كلُّها تعودُ إلى الله تعالى بالاتفاق، ولم يجرِ لغيرِ الله تعالى ذِكْر. ومَنْ ادَّعى عَوْدَ الضميرِ إلى ذي النفس، فإنما يتمحله من حيث المعنى، وعَوْدُ الضميرِ إلى ما جرى نطقاً أولى.

والثاني: أن الفعل في الآية التي استشهد بها، وهي قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، مطاوعٌ «زَكَّى»، فهذا أولى أن يدل لنا، وأن المعنى: قد أفلح من زكاه الله فتزكى، وعنده الفاعل في الآيتين واحد، وأضاف إليه الفعلين المختلفين، ويحتاج في تصحيحه تعدد اعتبار ونحن عنه في غنى، ونحن لا ننكر أن تُضاف التزكية والتدسية إلى العبد لأنه فاعلها، كما يضاف إليه طاعته ومعصيته؛ لأن له عندنا قدرة مقارنة، بل ننفي أن تكون قدرة العبد مؤثرة خالقة^(١).

قوله: (والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى، والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور)، راعى في التقدير معنى اللف والنشر مع الطباق المعنوي، ونَبّه به على التقابل^(٢) المعنوي بين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾، وأنها متفرعان على قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، وقد لُح من القريبتين معنى قوله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله». أخرج الترمذي عن شداد بن أوس^(٣)، لأن الكياسة تقتضي الفلاح، وأن يفوز صاحبها ببغيته، ومن أتبع نفسه هواها خاب وخسر: وإنما قلنا: إن قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ * ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾، متفرع على قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، لأن الأفعال الاختيارية موقوفة على حصول داعية مخلوقة لله تعالى، فليجرب العاقل نفسه، فإنه ربما يكون ذاهلاً عن شيء، فتقع صورته في قلبه، وينبعث منه ميل، ويترتب على الميل حركة الأعضاء، فيصدر منه الفعل.

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٥٩)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٩) لنعراقي.

(٢) في (ط): «الفاعل»، وفي (ف): «التعاقب».

(٣) في (ح)، (ف): «من».

وأصل دَسَى: دَسَسَ، كما قيل في تَقَضَّضٍ: تَقَضَّى. وسئل ابن عباسٍ عنه فقال: أتقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].....

قال الواحدي وصاحبُ «المطلع»: «الإلهامُ أن يوقِعَ في القلبِ التوفيقَ والخذلان؛ فإذا أوقعَ في قلبِ عبدٍ شيئاً، فقد ألزَمَهُ ذلك الشيء»^(١)، رَوينا عن البخاري ومسلم وأبي داود، عن عمران بن حصين، أن رجلين من مُزينة أتيا رسولَ الله ﷺ، فقالا: يا رسولَ الله، أرأيتَ ما يعملُ الناسُ ويكُدحون فيه، أشيءٌ قُضيَ عليهم ومضَى فيهم، مِن قَدَرٍ قد سَبَقَ، أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتتِ الحجَّةُ عليهم؟ فقال: لا بلْ شيءٌ قُضيَ عليهم ومضَى فيهم، وتصديقُ ذلك في كتابِ الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلَمَّهَا جُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٢).

قوله: (وسئل ابن عباسٍ عنه)، أي: عن فاعلِ زَكَّى ودَسَى. وأجاب: أن فاعلَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، وفاعلُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، وفاعلُ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وفاعلُ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ سواء، أي: الضميرُ المستترُ في ﴿زَكَّاهَا﴾، عائِدٌ إلى «مَنْ»، والبارزُ إلى النفس، وكذا في ﴿دَسَّاهَا﴾. ولما كان ظاهرُ هذا التأويلِ موافقاً لمذهبه، قال: «وأما قولُ مَنْ زَعَمَ أن الضميرَ في «زَكَّى» و«دَسَى» الله، فمن تَعَكُّسِ القَدَرِيَّةِ»، وهو كلامٌ خارجٌ عن جراءةٍ عظيمةٍ، لما رَوينا عن مسلمٍ والنسائي، عن زيد بن أرقم، أن رسولَ الله ﷺ، قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكَّها أنتَ خيرٌ من زكَّاهَا، أنتَ وليُّها ومولاها»^(٣).

وروى الواحدي عن ابن عباسٍ أنه قال: «قد أفلحتُ نفسٌ زكَّاهَا اللهُ تعالى، وأصلحَها وطَّهرَها ووفَّقَها للطاعة، وخابتُ وخسرتُ نفسٌ أضلَّها اللهُ وأغواها»^(٤)، ونحوُ منه في «معالم التنزيل»^(٥). وقد تقررَ عند صاحبِ «الانتصاف»، أن النظمَ لا يساعِدُ إلا هذا التأويلَ.

(١) انظر: «الوسيط» (٤: ٤٩٥) للواحدي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٠) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) والنسائي (٥٥٣٨).

(٤) «الوسيط» (٤: ٤٩٧).

(٥) (٨: ٤٣٩).

وأما قول من زعم أن الضمير في رَكِي ودَسَى لله تعالى، وأن تأنيث الراجع إلى مَنْ؛ لأنه في معنى النفس: فمِنْ تعكيسِ القَدْرِيَّةِ الذين يُورِّكون على الله قدرًا هو بريءٌ منه ومتعالٍ عنه، ويُحيون ليالِيهم في تَمَحُّلٍ فاحشَةٍ يَنسبونها إليه.

فإن قلت: فأين جواب القسم؟

قلت: هو محذوفٌ تقديره: لِيَدْمِدَنَّ اللهُ عليهم، أي: على أهل مكة لتكذيبهم رسولَ الله ﷺ، كما دَمَدَمَ على ثمود؛ لأنهم كَذَّبوا صالحًا. وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّكَهَا﴾ فكلامٌ تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء.

الراغب: «تزكية الإنسان نفسه ضربان: أحدهما بالفعل وهو محمود، وإليه قصد بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّكَهَا﴾، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَّكَ﴾ [الأعلى: ١٤]. والثاني بالقول، وأما قول كتزكية العدل غيره، وهو مذمومٌ أن يفعل الإنسان بنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى﴾ [النجم: ٣٢]. وتنبه عن ذلك تأديبٌ لِقُبْحِ مدحِ الإنسان نفسه عقلاً وشرعاً، ولذلك قيل لحكيم: ما الذي لا يَحْسُنُ وإن كان حقاً؟ قال: مدحُ الرجل نفسه^(١). وقال أيضاً: «الحَيَّةُ: فَوْتُ المَطْلُوبِ، قال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا﴾^(٢).

قوله: (يُورِّكون)، أي: يَنسبون ويُضيفون إليه. الجوهرى: «ورَّك فلانٌ ذَنبَهُ على غيره: أي: قَرَفَهُ به».

قوله: (تقديره: لِيَدْمِدَنَّ اللهُ عليهم)، قال الزجاج: «الجواب: قد أفلح، أي: لقد أفلح؛ حذف اللام لطول الكلام»^(٣)، وتبعه القاضي ثم قال: «كأنه لما أراد به الحث على تكميل

(١) «مفردات القرآن»، ص ٣٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٠.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٣١).

[كَذَبَتْ نَمُوذُ يَطْعُونَهَا * إِذْ أُنْبِتَتْ أَشْقَنَهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقَيْنَهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا] [١١-١٥]

الباءُ في ﴿يَطْعُونَهَا﴾ مثلها في: كتبتُ بالقلم. والطَّغوى من الطُّغيان: فصلوا بين الاسم والصفة في فعلٍ من بناتِ الياء، بأن قلبوا الياءَ واوًا في الاسم، وتركوا القلبَ في الصِّفة، فقالوا: امرأة خزياً وصديا، يعني: فعلت التَّكذيبَ بِطُغْيَانِهَا، كما تقول: ظلمني بجرأته على الله. وقيل: كذبتُ بها أوعدتُ به من عذابها ذي الطَّغوى كقوله: ﴿فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]،

النفسِ والمبالغة فيه، أقسمَ عليه بما يدُّهم على العلمِ بوجودِ الصانعِ، ووجوبِ ذاته وكمالِ صفاته، الذي هو أقصى درجاتِ القوة النظرية، ويذكرُهم عظامِ آلائه، ليَحْمَلَهُمْ على الاستغراقِ في شكرِ نعمائه، الذي هو منتهى كمالِ القوةِ العملية. وقيل: استطرَدَ بذكرِ بعضِ أحوالِ النفسِ، والجوابُ محذوفٌ تقديره: لِيُدْمِدَمَنَّ اللهُ^(١)، إلى آخره. كأنه رجَّحَ قولَ الزجاجِ على قولِ المصنِّف. فعلى هذا: يكونُ قوله: ﴿كَذَبَتْ نَمُوذُ يَطْعُونَهَا﴾ [الشمس: ١١]، كلاماً تابعاً^(٢) على سبيلِ الاستطرادِ لقوله: ﴿وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾، فإنَّ الطغيانَ أعظمُ أنواعِ التَّدسيةِ، وعلى تأويلِ المصنِّف: استطرادُ جوابِ القسمِ على طريقِ التشبيهِ.

قوله: ﴿خَزِيًا وَصَدِيًا﴾، «خزياً» من: خَزِي الرجلُ؛ إذا استَحيا، والصَّدَى: العطشُ، يقال: رجلٌ صَدٍ وامرأةٌ صَدِيَا.

قوله: (وقيل: كذبتُ بها أوعدتُ به)، عطفٌ على قوله: «الباءُ في ﴿يَطْعُونَهَا﴾: مثلها في قوله: كتبتُ بالقلم» فالباءُ صلةٌ مثلُ قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦]، ويؤيدُ الأولُ قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٩٦).

(٢) كذا في الأصول الخطية: «كلام تابع!»

وقرأ الحسن: (بطغواها) بضم الطاء كالحسنى والرَّجعى في المصادر. ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ﴾ منصوبٌ بكذبْت، أو بالطَّغوى. و﴿أَشَقَّيْنَهَا﴾ قُدازُ بنُ سالف. ويجوزُ أن يكونوا جماعة، والتوحيد لتسويتك في أفعال التفضيل إذا أضفته. بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وكان يجوزُ أن يقال: أشقَّوها، كما تقول: أفاضلهم. والضميرُ في (لهم) يجوزُ أن يكونَ للأشقين والتفضيلُ في الشقاوة، لأنَّ من تولى الفقرَ وباشره كانت شقاوته أظهرَ وأبلغ. و﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نصبٌ على التحذير، كقولك الأسدُ الأسدُ، والصبيُّ الصبيُّ، بإضمارِ: ذروا أو احذروا عقرها، ﴿وَسُقَيْنَهَا﴾ فلا تزروها عنها، ولا تستأثروا بها عليها، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذَّروهم منه من نزولِ العذابِ إن فعلوا ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ فأطبق عليهم العذاب، وهو من تكريرِ قولهم: ناقةٌ مذمومة: إذا ألبسها الشَّحْمُ، ﴿يَذْنِبُهُمْ﴾ بسببِ ذنبهم. وفيه إنذارٌ عظيمٌ بعاقبةِ الذنبِ، فعلى كلِّ مذنبٍ أن يعتبرَ ويحذَرَ،

قوله: (والتوحيد لتسويتك في أفعال التفضيل إذا أضفته)، تقول: هذان أفضل الناس، وهؤلاء أفضلهم.

قوله: (نصبٌ على التحذير)، أي: اتركوا العقرَ والسُّقيا؛ يقال: سقَيْته وأسقَيْته، والاسْمُ: السُّقيا، أي: احذروا سقيا الناقة، فلا تمنعوا سقياها.

قوله: (ولا تستأثروا بها)، أي: بسقياها على الناقة؛ يقال: استأثرت بالشيء، أي: استبدت به.

قوله: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ﴾: فأطبق عليهم، الراغب: «دمدم عليهم ربهم: أهلكهم وأزعجهم، وقيل: الدمدمَةُ حكايةُ صوتِ الهرة، ومنه: دمدم فلانٌ في كلامه، والدمامُ: يُطلَى به^(١)، وبغيرِ مُدمدمٍ بالشَّحْمِ»^(٢).

(١) الدمام: دواءٌ تُطلَى به جبهةُ الصبي وظاهرُ عينيه، وكلُّ شيءٍ طلي به فهو دمام. «الصحاح» (٥: ١٩٢١ - دمم).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٣١٧، ٣١٨.

﴿فَسَوَّيْنَهَا﴾ الضميرُ للدَّمدمة، أي: فسَوَّاهَا بينهم لم يُفَلِّتْ منها صغيرُهُم ولا كبيرُهُم. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا﴾ أي: عاقبتها وتَبِعَتْهَا؛ كما يَخَافُ كُلُّ معاقِبٍ من الملوِكِ فيبقى بعضُ الإبقاء. ويجوزُ أن يكونَ الضميرُ لثمودَ على معنى: فسَوَّاهَا بالأرضِ، أو في الهلاكِ، ولا يَخَافُ عقبى هلاكِها. وفي مصاحفِ أهلِ المدينةِ والشامِ: فلا يَخَافُ. وفي قراءةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: ولم يَخَفُ.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ «الشمس»، فكأنما تصدَّقَ بكلِّ شيءٍ طلعتْ عليه الشمسُ والقمرُ».

قوله: (في مصاحفِ أهلِ المدينةِ والشامِ)، أهلِ المدينةِ: نافع، (والشامِ): ابنُ عامرٍ. واللهُ أعلمُ.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سورة الليل

مكية، وهي إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ ١-٤].

المغشي: إما الشمس من قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤] وإما النهار من قوله: ﴿يَغْشَىٰ اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣] وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]. ﴿تَجَلَّىٰ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبيّن وتكشّف بطلوع الشمس، ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وقيل: هما آدم عليه السلام وحواء. وفي قراءة النبي ﷺ: (والذكر والأنثى).....

سورة الليل

مكية، وهي إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾)، الجوهري: «وقب الظلام: دخل على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].»

قوله: (وفي قراءة النبي ﷺ)، رواها البخاري ومسلم والترمذي، عن عبد الله بن مسعود وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ^(١). قال ابن جنّي: «والذكر والأنثى» بغير ﴿وَمَا

(١) انظر: البخاري (٣٧٤٢) ومسلم (٢٨٢-٨٢٤) والترمذي (٢٩٣٩).

وقرأ ابن مسعود: (والذي خَلَقَ الذَكَرَ والأُنْثَى). وعن الكسائي: (وما خَلَقَ الذَكَرِ والأُنْثَى) بالجرِّ على أنه بدلٌ من محلِّ «ما خَلَقَ»، بمعنى: وما خَلَقَهُ اللهُ، أي: ومخلوقِ اللهُ الذَكَرِ والأُنْثَى. وجاز إضمارُ اسمِ اللهُ؛ لأنه معلومٌ لانفراذه بالخلق، إذ لا خالقَ سواه. وقيل: إن الله لم يَخْلُقْ خلقاً من ذوي الأرواحِ ليس بذكرٍ ولا أنثى. والحُثْيُ، وإن أشكلَ أمرُه عندنا فهو عند الله غيرُ مُشكَلٍ، معلومٌ بالذكورةِ أو الأنوثة؛ فلو حلفَ بالطلاقِ أنه لم يلقَ يومه ذكراً ولا أنثى، وقد لُقي حُثْيُ مشكلاً: كان حائناً؛ لأنه في الحقيقةِ إمَّا ذكراً أو أنثى، وإن كان مشكلاً عندنا. «سُتَى» جمعُ سُتَيْتٍ، أي: إن مساعيكُم أشتاتٌ مختلفة، وبيان اختلافها فيما فصلَ على أثره.

[﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٥-٧﴾].

﴿أَعْطَى﴾ يعني حقوقَ ماله، ﴿وَاتَّقَى﴾ اللهُ فلم يَعْصِه. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ بالخصلةِ الحُسْنَى، وهي الإيمان. أو بالملَّةِ الحُسْنَى، وهي ملَّةُ الإسلام، أو بالثبوتِ الحُسْنَى: وهي الجنة. ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ فَسَنِيَرُهُ لها من يَسَّرَ الفرسَ للركوبِ إذا أسرَّجها وأجَمَّها. ومنه قوله عليه السلام: «كُلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ له».....

خَلَقَ: قراءةُ النبي ﷺ، وعليُّ وابن مسعود وابن عباسٍ وأبي الدرداء، وهي شاهدةٌ لقراءةِ مَنْ قرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَكَرَ والأُنْثَى﴾، بجرِّ ﴿الذَكَرِ﴾ لكونه بدلاً من ﴿مَا﴾^(١).

قوله: ﴿فَسَنِيَرُهُ لها﴾، عن بعضهم: تيسَّر، كذا. واستيسَّرَ: أي: تسهَّلَ وتيسَّأ، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَهُ وَامَّا يَتَسَّرَ﴾ [المزمل: ٢٠]، ويسَّرْتُ كذا، أي: سهَّلتهُ وهيأته، قال تعالى: ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

قوله: ﴿كُلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ له﴾، الحديث من رواية البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجه، عن عليِّ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهُ ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلَّا وكُتِبَ مقعدهُ مِنَ النارِ ومقعدهُ مِنَ الجنةِ، قالوا: يا رسولَ اللهُ، أفلا نتكلُّ على كتابنا؟ فقال: اعملوا،

(١) «المحتسب» (٢: ٣٦٤)، وانظر: «البحر المحيط» (٨: ٣٦٢) لأبي حيان.

والمعنى فسنلطفُ به ونوفِّقه حتى تكونَ الطاعةُ أيسرَ الأمورِ عليه وأهونَها، من قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له. أما مَنْ كان من أهلِ السعادة، فسيصيرُ لعملِ السعادة، وأما مَنْ كان من أهلِ الشقاوة، فسيصيرُ لعملِ الشقاء، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾، الآيتين^(١). وما أدري كيف أوردَ هذا الحديث هاهنا، وهو يهدمُ قاعدةَ مذهبه^(٢).

الانتصاف: «هَلَّا أطالَ لسانه في هذا المقام، لكن قصره الحق، فتراه يتأولُ الكلامَ بخلق اللطف والخذلان، ويَحْمِلُهُ على ما لا يحتمله»^(٣).

روى محيي السنّة عن الخطابي أنه قال: «قولهم: أفلا نتكلُّ على كتابنا؟ مطالبةٌ منهم بأمرٍ يوجبُ تعطيلَ العبودية، ورؤمٌ أن يتخذوا حجّةً لأنفسهم في تركِ العمل، فأعلمهم النبي ﷺ بقوله: اعملوا، فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له، بأمرين لا يُبطلُ أحدهما بالآخر: باطنٌ هو العلةُ الموجبةُ في حُكمِ الربوبية، وظاهرٌ هو السمةُ اللازمةُ في حقِّ العبودية، وهو أمانةٌ مخيلةٌ غيرُ مفيدةٍ حقيقة العلم. ونظيره الرزقُ المقسومُ مع الأمرِ بالكسب، والأجلُ المضروبُ في العمر مع المعالجةِ بالطب؛ فإنك تجدُ المغيبَ فيها علةً موجبةً، والظاهر البادي سبباً مخيلاً، وقد اصطَلَحَ الناسُ خاصتهم وعامتهم، أن الظاهرَ منها لا يتركُ بسببِ الباطن»^(٤).

وقلتُ: تلخيصُه: عليكم بشأنِ العبودية وما خُلقتُم لأجله وأمرتم به، وكلُّوا أمورَ الربوبيةِ المغيبةِ إلى صاحبِها، فلا عليكم بشأنها، والله أعلم.

قوله: (حتى تكونَ الطاعةُ أيسرَ الأمورِ عليه وأهونَها)، رويها عن أبي داود، عن سالم قال: قال رجلٌ من خزاعة: «ليتني صليتُ فاسترحتُ! فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعتُ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩) ومسلم (٤٧٢٦).

(٢) القائمة على أن الإنسان يخلق أفعاله، ومن ثم فهو المسؤول عنها من خيرٍ وشر.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٦٢)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٩).

(٤) «شرح السنّة» (١: ١٣٣) للبغوي.

[«وَأَمَّا مَنْ يَخُلُ وَاسْتَغْفَرَ * وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ * فَسَنَسِيرُهُ لِمُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * ٨ -

[١١].

﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ وَزَهَدَ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ كَأَنَّهُ مُسْتَغْفِرٌ عَنْهُ فَلَمْ يَتَّقِهِ. أَوْ اسْتَغْفِرُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُ فِي مَقَابِلَةِ ﴿وَأَتَّقَى﴾. ﴿فَسَنَسِيرُهُ لِمُسْرَى﴾ فَسَنَخَذْلُهُ وَنَمْنَعُهُ الْأَلطَافَ، حَتَّى تَكُونَ الطَّاعَةُ أَعْسَرَ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَأَشَدَّهُ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَمِيحًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أَوْ سَمَّى طَرِيقَةَ الْخَيْرِ بِالْيُسْرَى،

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: أَقِمِ الصَّلَاةَ يَا بَلالُ، أَرِحْنَا^(١). وَفِي «الجامع»؛ أَنَّهُ ﷺ، كَانَ يَسْتَرْوِحُ بِأَدَائِهَا مِنْ شُغْلِ الْقَلْبِ بِهَا. وَقِيلَ: كَانَ اسْتِغَالُهُ بِالصَّلَاةِ رَاحَةً لَهُ لِأَنَّهُ كَانَ يَعُدُّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَعَبًا، فَكَأَنَّهُ يَسْتَرِيحُ بِالصَّلَاةِ مِنْ مَنَاجَاةِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢)، وَمَا أَقْرَبَ الرَّاحَةَ مِنْ قُرَّةِ الْعَيْنِ!^(٣).

قَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مُسْتَغْفِرٌ عَنْهُ فَلَمْ يَتَّقِهِ)، يَعْنِي: الَّذِي يَقْتَضِيهِ التَّقَابُلُ أَنْ يَقَالَ: وَأَمَّا مَنْ يَخُلُ وَلَمْ يَتَّقِ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَعْطَى وَاتَّقَى﴾، لَكِنْ وُضِعَ مَوْضِعَهُ ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ وَضَعًا لِلسَّبَبِ مَوْضِعَ الْمَسَبِّ، وَلِذَلِكَ أَتَى بِالْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: «فَلَمْ يَتَّقِهِ».

قَوْلُهُ: (أَوْ اسْتَغْفِرُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ)، يَعْنِي أَنْ قَوْلَهُ ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾، لَمَّا وَقَعَ مَقَابِلًا لِقَوْلِهِ: ﴿أَعْطَى وَاتَّقَى﴾، يُقَدَّرُ تَارَةً: اسْتَغْفِرُ عَنِ اللَّهِ، وَأُخْرَى: اسْتَغْفِرُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُ مَقَابِلٌ لَهُ، لِأَنَّ الْمُتَّقِيَ ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾، فَإِنْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَن يَقَالَ فِي حَقِّهِ: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤١].

قَوْلُهُ: (أَوْ سَمَّى طَرِيقَةَ الْخَيْرِ)، عَطَفُ عَلَى قَوْلِهِ: «وَالْمَعْنَى: فَسَنَلطَفُ بِهِ»؛ فَالْيُسْرَى

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥).

(٢) من حديث أنس عن النبي ﷺ، قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». أخرجه النسائي (٣٩٤٠) وانظر: «المسند» (١٢٢٩٣) للإمام أحمد.

(٣) «جامع الأصول» (٤٣٧٥) (٦: ٢٦٣) لابن الأثير.

لأن عاقبتها اليسر؛ وطريقة الشر العسري، لأن عاقبتها العسر. أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسنديهما في الآخرة للطريقين. وقيل: نزلنا في أبي بكر رضي الله عنه، وفي أبي سفيان بن حرب. ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾ استفهام في معنى الإنكار،

والعسري على الأول محمولتان على الطاعة، سُميت بهما لأنه تعالى يسرها على المكلف بمنح الألفاظ، أو عسرها عليه بالخذلان، قال القفال: «هو من قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فلما سُمي الألفاظ الداعية إلى الطاعة بتيسير اليسري، سُمي ترك هذه الألفاظ بتيسير العسري»^(١).

وقال الإمام: «المعنى بتيسير اليسري: تسهيلها على من أراده تعالى، حتى لا يعتربه من الكسل والتشاغل ما يعترى المرائي والمنافق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٨]»^(٢).

وعلى الثاني مفسرتان بالطاعة والمعصية، وهو أحسن طباقاً بالحديث المروي: «كلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له» إلى آخره، وأقرب إلى أصول أهل السنة، كما أن الأول أقرب إلى أصولهم. وقال الإمام: «كلٌ ما أدت عاقبته إلى الراحة والأمر المحمود، فذلك اليسري، وهو وصف كل الطاعات. وكلٌ ما أدت عاقبته إلى التعب والردي، فذلك العسري، وهو وصف كل المعاصي. واستدل الأصحاب بهذه الآية على صحة قولهم في التوفيق والخذلان. وأما وجه تأنيث اليسري والعسري، فإن كان المراد منهما جماعة الأعمال فذلك ظاهر، وإن كان المراد عملاً واحداً، يرجع التأنيث إلى الحالة أو الفعل، ويجوز أن يراد الطريقة، أي: اليسري والعسري»^(٣).

قوله: (نزلنا في أبي بكر رضي الله عنه، وفي أبي سفيان)، وروى الواحدي وحمي السنة،

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٨٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٣١: ١٨١، ١٨٢) بتصرف.

أو نفمي، ﴿تَرَدَّى﴾ تَفَعَّلَ من الرَّدَى وهو الهلاك، يريد: الموت. أو تَرَدَّى في الحفرة إذا قُبِر، أو تَرَدَّى في قَعْر جهنم.

[إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٢-١٣﴾].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: ثواب الدارين للمهتدي، كقوله: ﴿وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

[﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَسَوْفَ يُرْضَى﴾ ١٤-٢١].

أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، اشترى بلالاً من أمية بن خلف بردة وعشر أواق، فأعتقه الله تعالى، فأنزل الله إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، سعي أبي بكر وأمية^(١). وروى الإمام عن القفال أن السورة نزلت في أبي بكر الصديق وإنفاقه على المسلمين، وفي أمية بن خلف وبُخله وكفره بالله تعالى، لكن معانيها عامة لقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾^(٢). وقلت: دل على العموم الحديث^(٣) الذي روينا عن الأئمة.

قوله: (إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا)، قال القاضي: «إن علينا الإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا، أو إن علينا بيان طريقة الهدى لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]»^(٤). وقال الزجاج: «علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال»^(٥).

(١) انظر: «الوسيط» (٤: ٥٠٣) للواحيدي، و«معالم التنزيل» (٨: ٤٤٨) للبغوي، و«أسباب النزول» للواحيدي أيضاً، ص ٥٢٤.

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٧٩).

(٣) «كل ميسر لسا خلق له»، وقد سبق تحريجه.

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٩٩).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٣٦).

وقرأ أبو الزبير: (تَتَلَطَّى).

فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا يَصْلُنَهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ وقد علم أن كل شقي يضلها، وكل تقي يجنبها، لا يختص بالصلي أشقى الأتقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمت أنه نكّر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى، فما تصنع بقوله: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة؟

قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيها المتناقضتين فقليل: الأتقى، وجعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تُخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تُخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه. ﴿يَتَزَكَّى﴾ من الزكاء، أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياء ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة.

قوله: (الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين)، يعني أبا بكر رضي الله عنه، وأمياً بن خلف^(١) قبحة الله كما سبق.

الانتصاف: «بني على مفهوم الآية لورود صيغة التخصيص، وحاصل جوابه^(٢) أن التخصيص له فائدة سوى النفي عما عدا المخصص وهي المقابلة، وهذا يلاحظ ما لحظه الشافعي في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أجد في ما أوحى إليّ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية فإنه لم يقل بمفهوم حصرها، بل جعل فائدة المقابلة الرد لأحكام الجاهلية لانفي ما عدا المحصور^(٣)، والزخشري

(١) في (ح)، (ف): «أبي بن خلف»، وهو تحريف. ومن قوله: «يعني أبا بكر» إلى قوله: «كما سبق»، سقط من (ط).

(٢) أي: جواب الزخشري.

(٣) انظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٤: ١٥١-١٥٣).

خاصة ضاق ذرعه في هذه الآية حذراً على قاعدته^(١)، وبأبي الله إلا نقضها، فنقول: الصلبي في اللغة: أن يخفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاةٍ فيدسوها وسطه؛ فأما ما يُشوى فوق الجمر، أو على المقل، أو في التنور، فلا يسمى مصلياً. هذا بعينه ذكره الرخشري في سورة الغاشية^(٢)؛ فالصلة أشد أنواع التعذيب. والناس عندنا ثلاثة أنواع: مؤمنٌ فائر، ومؤمنٌ عاصي، وكافر. فالفائر يطفى نوره لهب النار، والعاصي يُعذب في الطبقة الأولى، حتى إن منهم من تبلغ النار إلى كعبته، وأشدهم من تصل إلى موضع سجوده، ولا يُعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها بالصلبي؛ فلا يصلها إلا الكافر، وسيُجنبها الأتقى بالكلية لا يسمع حسيبها، فالعاصي ليس بأتقى ولا أشقى؛ فلا يصلها ولا يُجنبها، بل يُعذب بغير الصلبي^(٣).

وقلت: ويؤيد هذا التأويل اللفظتان، أعني ﴿لَا يَصَلَّاهَا﴾ و﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾، فإن إحداهما دلت على معنى البُجوحة^(٤)، والأخرى على المعنى البعيد، ولذلك قال: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

النهاية: «في حديث عمر رضي الله عنه، قال: «عليكم بالجنبية فإنها عفاف»، قال الهروي: يقول: اجتنبوا النساء ولا تقربوا ناحيتهن، يقال: رجل ذو جنب، أي: ذو اعتزال عن الناس، متجنبٌ لهم».

(١) القائمة على أن الفاسق من الموحدين مخلد في النار كالكافر، وذلك مناقض لما عقد عليه أهل السنة والجماعة مذهبهم في هذه المسألة، من أن عصاة الموحدين يخرجون من النار برحمة الله تعالى، ثم بشفاعة الشافعين.

انظر: «المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف» ص ١٠٩٤، ١١٠٧.

(٢) انظر ما تقدم ص ٤٠٦؛ قاله في تفسير الآية (٤) من سورة الغاشية.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٦٣)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤٩، ١٥٠).

(٤) في (ح)، (ف): «التجوحة».

فإن قلت: ما محلّ يَتَزَكَّى؟

قلت: هو على وجهين: إن جعلته بدلاً من ﴿تُؤْتِي﴾ فلا محلّ له؛ لأنه داخل في حُكْم الصَّلَاةِ، والصَّلَاةُ لا محلّ لها. وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿تُؤْتِي﴾ فمحلّه النصبُ. ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مستثنى من غير جنسِهِ وهو النِّعْمَةُ أي: ما لأحدٍ عنده نعمةٌ إلا ابتغاء وجه ربّه، كقولك: ما في الدار أحدٌ إلا حماراً. وقرأ يحيى بن وثّاب: (إلا ابتغاء وجه ربّه) بالرفع: على لغةٍ من يقول: ما في الدار أحدٌ إلا حمارٌ، وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي خازم:

أَضَحَّتْ خَلَاءَ قِفَاراً لَا أُنَيْسَ بِهَا إِلَّا الْجَادِزُ وَالظَّلْمَانُ تَخْتَلِفُ

وقول القائل:

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَالْأَلْعَيْسُ

ويجوز أن يكون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مفعولاً له على المعنى،

قوله: (والصَّلَاةُ لا محلّ لها)، قيل: لأن الصَّلَاةَ بعضُ الاسم، وبعضُ الاسم لا محلّ له، ولأن الصَّلَاةَ ليست بقائمةٍ مقامَ المفرد.

قوله: (على لغةٍ من يقول)، وهي لغة بني تميم، وسبق تقريره في النمل.

قوله: (أضحت خلاءً) البيت، بعده:

وَقَفْتُ فِيهَا قَلْوصِي كِي تُجَاوِبَنِي أَوْ يُجَبِّرَ الرَّسْمُ عَنْهُمْ آيَةً صَرَفُوا^(١)

القِفَارُ: جمع قَفْر، وهي الخالي من المفاوز. والجَادِزُ: أولادُ البقر. والظَّلْمَانُ: جمع الظَّلِيمِ، وهو ذَكَرُ النِّعَامِ.

قوله: (ويجوز أن يكون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾)، مفعولاً له) وعلى هذا المستثنى داخل في المستثنى منه حقيقة، لأن المعنى: لا يؤتي ماله لأمرٍ من الأمور، إلا ابتغاء وجه ربّه^(٢).

(١) انظر: «ديوان بشر بن أبي خازم»، ص ١٠١.

(٢) من قوله «مفعولاً له» إلى هنا، سقط من (ح)، (ف).

لأن معنى الكلام: لا يُؤتي ماله إلا ابتغاء وجهِ رَبِّه، لا لمكافأةِ نعمةٍ. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾
مُوعَدٌ بِالثَّوَابِ الَّذِي يُرْضِيهِ وَيُقَرِّئُ عَيْنَهُ.

وعن رسول ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «وَاللَّيْلِ»، أَعْطَاهُ اللَّهُ حَتَّى يَرْضَى، وَعَافَاهُ مِنَ الْعُسْرِ وَيَسِّرَ لَهُ الْيُسْرَ».

وقوله: (لَا لِمُكَافَأَةِ نِعْمَةٍ)، توكيدٌ للاستثناء. والتركيبُ مما رَدَّهُ صاحبُ «المفتاح».

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا لِلَّهِ وَمُصَلِّيًا

* * *

سورة ﴿وَالضُّحَى﴾

مكية، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [١-٣]

المراءد بالضحى: وقت الضحى، وهو صدرُ النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها.

سورة ﴿وَالضُّحَى﴾

مكية، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وهو صدرُ النهار حين ترتفع الشمس)، الراغب: «الضحى: انبساطُ الشمسِ وامتدادُ النهار، وسمي الوقتُ به، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾». وضحى يضحى: تعرّض للشمس، وضاحية كلُّ شيء: ناحيته البارزة. الأضحية جمعها أضاحي، وقيل: ضحية وضحايا، وأضحاة وأضحى، وتسميتها بذلك في الشرع لما ورد: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ صَلَاتِنَا هَذِهِ فَلْيُعِدْ»^(١).

(١) الحديث بهذا اللفظ في مسند البزار (٦٧١٥) من حديث أنس، وانظر: «البخاري» (٩٥٤) و«مسلم»

(١٠-١٩٦٢) و«مفردات القرآن»، ص ٥٠٢، ٥٠٣ بتصرف.

وقيل: إنما خُصَّ وقتُ الضُّحَى بالقَسَمِ؛ لأنها الساعةُ التي كُتِمَ فيها موسى عليه السلام، وأُلقيَ فيها السَّحَرَةُ سُجَّداً، لقوله: ﴿وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحَى﴾ [طه: ٥٩] وقيل: أريدُ بالضحى: النهارُ،

قوله: (وقيل: إنما خُصَّ وقتُ الضُّحَى بالقَسَمِ، لأنها الساعةُ التي كُتِمَ فيها موسى عليه السلام)، وسُئِلتُ عنه وعن قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، فأجبتُ: إنه من بابِ قوله:

وَتَنَابَاكَ إِنَّمَا إِغْرِيضُ (١)

وذلك أن المشركين لما قالوا: إن محمداً ودَّعاه ربُّه وقلَّاه، قيل له: كيف يُودَّعُك ويقلِّك وأنت قد خُصِّصَتْ بوجوبِ ما تَقَرُّ عينُك من الصلاةِ في هذين الوقتين، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ [غافر: ٦١]، وقوله ﷺ: «كُتِبَ عَلَيَّ النَّحْرُ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ، وَأُمِرْتُ بِصَلَاةِ الضُّحَى وَلَمْ تُؤْمَرُوا بِهَا»، رواه الدارقطني في كتاب «المُجْتَنَى» (٢) عن ابن عباس (٣)، وهما الوقتان اللذان يخلو [فيهما] (٤) المحبُّ مع المحبوب، يعني: وحقُّ قُربك عندنا، وزُلفاك لدينا، إنا ما ودَّعناك ولا قليناك. ثم لا يخلو تعلقُ الوداع بالضحوة والقلبي بالليل من لطيفة، قال ابنُ عطاء: «ما حَجَبَكَ عن قُربه حينَ بعثك إلى خلقه» (٥).

(١) لأبي تمام، وعجزه:

ولألِ ثَوْمٌ وَبَسْرُقٌ وَمِيضُ

انظر: ديوانه بشرح التبريزي (٢: ٢٨٧).

(٢) سنن الدارقطني (٤٨١٣). وفي ط: «المُجْتَنَى» وليس بصواب، لأن الاسم الصحيح لسنن الدارقطني، هو: «المُجْتَنَى من السنن المأثورة عن النبي ﷺ، والتَّنبِيه على الصحيح منها والسَّقِيم، واختلاف النَّاقِلِينَ لها في ألفاظها». أثبت ذلك الأستاذ عبدالوهاب بن عبدالعزيز بن زيد، بالطائف في ١٤٣٠/٨/٦ هـ ونقلته من متدييات مكتبة المسجد النبوي الشريف على الشبكة العالمية.

(٣) من قوله: «كقوله تعالى: ومن الليل» إلى هنا، أثبتته من (ط) وسقط من (ح) و(ف).

(٤) زيادة اللفظ «فيهما» يقتضيه السياق.

(٥) «حقائق التفسير» (٢: ٤٠٠) للسلمي.

بيانه قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسْنَأُضْحَى﴾ [الأعراف: ٩٨] في مُقَابَلَةِ (بياتاً). ﴿سَجَى﴾ سَكَنَ وَرَكَدَ ظِلَامُهُ. وقيل: ليلةٌ ساجيةٌ: ساكنةُ الريح. وقيل معناه: سكونُ الناسِ والأصواتِ فيه. وَسَجَا البحرُ: سَكَنَتْ أمواجهُ. وطَرْفٌ ساجٍ: ساكنٌ فاتر. (ما وَدَعَكَ) جوابُ القسم، ومعناه: ما قَطَعَكَ قَطَعَ المودِع. وقرئ: بالتخفيف، يعني: ما تَرَكَكَ،

قوله: (وقيل: ليلةٌ ساجية: ساكنةُ الريح)، بيانٌ لما سبق. ويجوزُ أن يكونَ وجهاً آخر، قال في قوله: ﴿أَلَلَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْلَلًا لِيَسْكُنُوا فِيهَا﴾ [غافر: ٦١]: «الليلُ يجوزُ أن يوصفَ بالسكونِ على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليلٌ ساجٍ، وساكنٌ لا ريح فيه»^(١).

قوله: (وقرئ بالتخفيف، يعني: ما تَرَكَكَ)، قال ابنُ جني: «وهي قراءةُ النبي ﷺ وعُروة ابن الزبير^(٢)، وهي قليلةُ الاستعمال، قال سيبويه: استغنوا عن وَدَرَ وَوَدَعَ بقولهم: تَرَكَ، على أنها جاءت في شعرِ أبي الأسود، وأنشدناه أبو علي:

كَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَعَهُ^(٣)

إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَعْمَلُوا مِضَارِعَهُ^(٤). وقلتُ: وقد جاءَ في شعرِ المتنبي:

يَشُقِّكُمْ بِقَنَاهَا كُلَّ سَلْهَمِيَّةٍ وَالصَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ^(٥)

وإنما حَسَّنَ هذه القراءةَ الموافقةَ بين الكلمتين، كأنه قيل: ما تَرَكَكَ وما قَلَكَ، ومؤدَى معنَى المشهورَةِ إلى هذا، لأن التوديعَ أمارَةٌ المحبَّة، وقصدُهم غايةُ البُغْض، ولذلك قال: «التوديعُ: مبالغةٌ في الودع»، ونظيره ما جاءَ في الحديث: «دَعُوا الحَبْشَةَ ما وَدَعُواكُمْ، وَاثَرُوا

(١) كذا في «الكشاف» (١٣: ٥٣٦-٥٣٧)؛ قاله في تفسير الآية (٦١) من سورة غافر. ولعلَّ صوابه: «ليلٌ ساجٍ: أي: ساكنٌ لا ريح فيه». انظر: «مدارك التنزيل» (٣: ١٠٥١) للنسفي، ويقال: «ليلٌ ساجٍ: إذا كان ساكناً»، انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٤٥٤) للبغوي.

(٢) في (ح)، (ف): «وعروة وابن الزبير»، وهو تحريف.

(٣) انظر: «ديوان أبي الأسود» صنعة السكري، ص ٣٥٠.

(٤) «المحتسب» (٢: ٣٦٤)، وانظر: «الكتاب» (١: ٢٥) لسيبويه.

(٥) «العرف الطيب» (٢: ٩٤).

قال:

وَتَمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ فَرَائِسَ أَطْرَافِ الْمُتَّقِفَةِ السُّمْرِ

والتوديع: مبالغة في الودع؛ لأنَّ مَنْ وَدَّعَكَ مفارقاً فقد بالغَ في تَرْكِكَ. رُوي أنَّ الوحيَ قد تأخَّرَ عن رسولِ الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إنَّ محمداً وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلَّاهُ. وقيل: إنَّ أُمَّ جَمِيلٍ امرأةَ أَبِي لَهَبٍ قالت له: يا محمد،

التَّرْكَ ما تَرَكَوكُمْ^(١)، لِمَا فِي كُلِّ مِنَ الْفَقْرَتَيْنِ مِنْ رَدِّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ، وَفِي كِلَيْهِمَا مِنْ صِنْعَةِ التَّرْصِيعِ مَا جَبَرَ مِنْهُ^(٢).

قوله: (وَتَمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو) البيت^(٣)، وَدَعْنَا: تَرَكَنا. فَرَائِسَ: جَمْعُ فَرِيسَةٍ، وَهِيَ صَبْدُ الْأَسْوَدِ. وَالْمُتَّقِفَةُ: الرِّمَاحُ الْمُقَوَّمَةُ. وَالسُّمْرُ: جَمْعُ أَسْمَرٍ، وَهُوَ لَوْنُهُ؛ يَقُولُ: تَرَكَنا فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ قَتْلَى آلِ عَمْرٍو وَآلِ عَامِرٍ، فَرَائِسَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ مَجْرُوحِينَ مَقْتُولِينَ.

قوله: (وقيل: إنَّ أُمَّ جَمِيلٍ)، عن البخاري ومسلم والترمذي، عن جندب قال: اشتكى رسولُ الله ﷺ، فلم يَقْمِ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، فلم أَرَهُ قَرِيبَكَ مِنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَتَزَلْتُ^(٤). وفي رواية: أَبْطَأَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ الْمَشْرِكُونَ: قَدْ وَدَّعَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى﴾^(٥).

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٦) وأبو داود (٤٣٠٢). وجاء في حديث آخر: «لَيْتَهُيْنِ أَقْوَامٌ عَنْ وَدَّعِهِمُ الْجَمْعَاتِ، أَوْ لَيْخْتَمَنَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لِيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ» (مسلم: ٨٦٥)، وقال عليه السلام: «إِنْ شَرَّ النَّاسِ مَنْ وَدَّعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ» (الأدب المفرد: ١٣١١).

(٢) في (ف): «ما أآخر منه». وفي «روح المعاني» (١٥: ٣٧٥)، نقل الألويسي عبارة الطيبي، قال: «وقال انطسي: إنها حسن هذه القراءة الموافقة بين الكلمتين ... لأن رَدَّ العجز على الصدر وصنعة الترصيع، قد جبرا منه».

(٣) لم أهد إلى قائله.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٥٠) ومسلم (١٧٩٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٤٥).

ما أرى شيطانك إلا قد تَرَكَكَ، فنزلت. حُذِفَ الضميرُ من ﴿قَلَى﴾ كحذفه من (الذاكرات) في قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريد: والذاكراته، ونحوه: (فأوى، فهدى، فأغنى)، وهو اختصارٌ لفظيٌّ لظهور المحذوف.

[﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ * وَالسَّوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ٤-٥]

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ بما قبله؟

قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى، أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه: أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل،

قوله: (وهو اختصارٌ لفظي)، يعني: اختصر وحذف المفعول ليوافق الفواصل بدلالة: «ما ودَّعَكَ» عليه.

قوله: (لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك)، قال الإمام: «ويمكن أن يقال: إن المعنى: وللأحوال الآتية خيرٌ لك من الماضية، كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز، ومنصباً إلى منصب»^(١).

وقال الإمام أيضاً: «لما نزلت ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، حصل له بهذا تشریفٌ عظيم، فكأنه استعظم ذلك، فقيل له: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾، يعني: هذا التشریف وإن كان عظيماً، إلا أن ما لك عند الله في الآخرة أعظم وأعلى»^(٢).

وقلت: ويمكن أن يقال: وللآخرة خيرٌ لك في الاتصال والمحبة من الأولى، فيكتسب المعطوف من المعطوف عليه هذا^(٣) المعنى، كما اكتسب المعطوف عليه منه معنى الأوليّة؛ فإن ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ و﴿وَمَا قَلَى﴾، معناه: قَرَبَكَ وأحبَّكَ في الدنيا، بدليل «والآخرة»؛ وإن معنى ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾، خيرٌ فيما يُرْلَقُكُ وَيَمْنَحُكُ المحبة، بدلالة ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ و﴿وَمَا قَلَى﴾، إذ لا ينبغي أن يُشَابَ

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٩١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) في (ح): «بهذا»، وليس بصواب.

وهو السَّبْقُ والتقدُّمُ على جميع أنبياء الله ورسليه، وشهادة أمتِه على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكراماتِ السَّنيَّةِ. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ موعِدٌ شاملٌ لما أعطاه في الدنيا من الفلجِ والظفرِ بأعدائه يوم بدرٍ ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجا، والغلبة على قريظة والنضير وإجلالهم، وبيت عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعبِ وتهيَّب الإسلام، وفشوا الدعوة واستيلاء المسلمين،.....

الاتصال والمحبة بمعنى آخرٍ للطفِها، ويكون قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، مُعْطِيًا جميع ما أحصاه المصنّف وما لا يُحصى لإطلاقه. وأيضاً يتصل ﴿وَالضُّحَى﴾ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، بهذه الآية اتصاله بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، فتصير الآيات من الثاني، ويتحقّق فيها معنى الثاني.

قوله: ﴿وإعلاء مراتبهم بشفاعته﴾، الانتصاف: «وإخراج العصاة من النار بشفاعته»^(١).

قوله: (من الفلج)، بالجيم. الجوهرى: «الفلج: الظفر والفوز».

النهاية: «وقد فلج أصحابه وعلى أصحابه: إذا غلبهم، والاسم: الفلج، بضم الفاء».

قوله: (وما فتح على خلفائه)، عطف على «ما أعطاه»، و«ما» موصولة، والعائد محذوف، وكذا قوله: «وما قذف».

قوله: (وأنهبهم)، أي: جعلهم متمكنين من النهب. و«أنهب» متعد إلى مفعولين، وحذف أحدهما وهو العائد إلى الموصول، أي: لما أنهبوه، يقال: أنهب الرجل ماله الناس.

قوله: (وفشوا الدعوة)، قيل: هو عطف على «ما» لا على «الإسلام»^(٢). الرعب، إذ ليس بما قذف في القلوب، وفيه نظرٌ لما سيجيء.

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٦٦)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٥٠).

(٢) زيادة لفظ «الإسلام» يقتضيها السياق، إذ سقطت من الأصول الخطية، ودليل ذلك قول الطيبي بعد قليل: (فظهر من هذا أنّ قوله: «وفشوا الدعوة»، عطف على «الإسلام»).

ولمَّا ادَّخَرَ له من الثوابِ الذي لا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللهُ. قال ابنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: له في الجنة ألفُ قصرٍ من لؤلؤٍ أبيضٍ ترابُهُ المسكُ.

فإن قلت: ما هذه اللامُ الداخلةُ على سوف؟

قلت: هي لامُ الابتداءِ المؤكِّدةُ لمضمونِ الجملة، والمبتدأُ محذوفٌ تقديرُهُ: ولأنَّ سوفَ يعطيك، كما ذكرنا في: لا أقسم، أن المعنى: لأنَّا أقسم؛

قولُهُ: (ولمَّا ادَّخَرَ له من الثوابِ)، عطفٌ على قولِهِ: (لما أعطاه في الدنيا). واعلم أنه راعى في هذه المعطوفاتِ ترتيباً غريباً، لأنَّ الموعدَ إما أمرٌ يتعلَّقُ بالدنيا أو بالآخرة؛ فما يتعلَّقُ بالدنيا: أمَّا ما يختصُّ به صلواتُ الله عليه، فهو الذي أرادَهُ بقوله: «مِنَ الفَلَجِ والظفرِ بأعدائه». أو بخلفائه الراشدين، فهو قولُهُ: «ما فتحَ في أقطارِ الأرضِ من المدائن». أو بأمته من بعده، فهو المرادُ من قولِهِ: «ما قذفَ في قلوبِ أهلِ الشرقِ والغربِ»، إلى قولِهِ: «واستيلاءِ المسلمين»، لأنَّ ما يختصُّ بالأمَّةِ إمَّا النَّهْبُ أو الاستيلاء، لأنهم ما فتحوا المشرقَ والمغربَ. ولمَّا فرغَ من ذكرِ أحوالِ الدنيا وشرعَ في أحوالِ الآخرة، أعادَ اللامَ في المعطوفِ ليؤدِّنَ بالفرقِ بين المعطوفاتِ، فظهرَ من هذا أن قولَهُ: «وفُشِّو الدعوة»، عطفٌ على «الإسلام»، أي: تَهَيَّبَ فُشِّو الدعوة والاستيلاء.

قولُهُ: (هي لامُ الابتداءِ المؤكِّدةُ لمضمونِ الجملة، والمبتدأُ محذوفٌ)، قال ابنُ الحاجب: «هي لامُ التأكيدِ وليستْ لامُ الابتداءِ. وقولٌ مَنْ قالَ: إنها لامُ الابتداءِ دخلَ على الخيرِ بعد حذفِ المبتدأِ فاسدٌ، لأنَّ اللامَ مع المبتدأِ كـ «قَدَّ» مع الفعلِ و«إنَّ» مع الاسمِ، فكما لا يحذفُ الاسمُ والفعلُ وتبقى «إنَّ» و«قد»، كذلك لا تبقى اللامُ بعد حذفِ الاسمِ. وأيضاً اللامُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤]، لمجردِ التأكيدِ، مثلها في قولك: إن زيدا لقائمٌ، ولا يصحُّ أن تكونَ للحالِ، لأنَّ المعنى هو الاستقبال. وقد صرَّحَ في «مفصله»: «ويجوزُ عندنا: إن زيدا لسوفَ يقوم، ولا يميزُهُ الكوفيون»، ولو كانت للحالِ لتناقضَ مع (سوف)»^(١).

(١) «الإيضاح» (٢: ٢٧٣، ٢٧٤) بتصرف. وانظر: «المفصل» للزحمرى، ص ٣٢٨.

وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لَمْ تكونَ لَمْ قَسَمٍ أو ابتداءً؛ فلامُ القَسَمِ لا تدخلُ على المضارعِ إلا مع نونِ التأكيد، فبقي أن تكونَ لَمْ ابتداءً، ولَمْ الابتداء لا تدخلُ إلا على الجملة من المبتدأ والخبر، فلا بدُّ من تقديرٍ مبتدأ وخبر، وأن يكونَ أصلُه: ولأنت سوفَ يعطيك.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟

قلت: معناه أن العطاء كائنٌ لا محالة وإن تأخر، لما في التأخير من المصلحة.

[﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٦-٨]

عدّد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يُجَلِّه منها من أوّل تربيته وابتداء نشئته، ترشيحاً لما أراد به؛ ليقيسَ المترقّب من فضل الله على ما سلف منه، لثلا يتوقع إلا الحسنَى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره. و﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم، والمنصوبان مفعولاً وجَدَ. والمعنى: ألم تكن يتيمًا، وذلك أن أباه مات وهو جنينٌ قد أتت عليه ستة أشهر، وماتت أمُّه، وهو ابنُ ثمانين سنين، فكفله عمُّه أبو طالب، وعطفه اللهُ عليه فأحسنَ تربيته.....

وقلت: قد نصّ في «مریم» أن اللامَ مَخْلَصَةٌ للتأكيد^(١)، ولا بأس بحذف المبتدأ، والفرق بين هذه اللامِ و«إن» و«قد»، أنها مؤثران في المدخولِ عليه مع التوكيد بخلاف هذه اللام، لأن مقتضاها أن توكّد مضمونَ الجملة لا غير، وهو باقٍ وإن حُذِفَ المبتدأ.

قوله: (بين حرفي التوكيد والتأخير)، أي اللامِ و«سوف».

قوله: (ترشيحاً لما أراد به)، الأساس: «ومن المجاز: هو مرشحٌ للخلافة، وأصله ترشيحُ الظبية ولدها تُعوّده المشي». قيل: «ترشيحاً» مفعولٌ له، لقوله: «فلم يُجَلِّه»، أو لقوله: «عدّد عليه نعمه».

(١) انظر: (١٠: ٦٥)؛ في تفسير الآية (٦٦) من سورة مریم.

ومن بدع التفاسير: أنه من قولهم: دُرَّةٌ يَتِيْمَةٌ، وأن المعنى: ألم يجذك واحداً في قريشٍ عديمِ النظيرِ فأواك. وقرئ: (فأوى) هو على معنيين: إما من أواه بمعنى آواه؛ سُمِعَ بعضُ الرُّعاةِ يقول: أين آوي هذه الموقِسةَ. وإما من: أوي له؛ إذا رَجَمَهُ، ﴿ضَالًّا﴾ معناه الضلالُ عن علمِ الشرائعِ وما طريقُهُ السَّمْعُ،

قوله: (أين آوي هذه الموقِسة؟)، آوي: فعلٌ مضارعٌ من: أوي.

الجوهري: «إن بالبعيرِ لَوْقَسًا، إذا قارَفَه شيءٌ من الجَرَبِ، فهو بَعِيرٌ موقوسٌ».

قوله: (الضلالُ عن علمِ الشرائعِ وما طريقُهُ السَّمْعُ)، قال الواحدي: «أكثرُ المفسرين: وَجَدَكَ ضَالًّا عن معالمِ النبوةِ وأحكامِ الشريعةِ، غافلاً عنها فهذاك إليها، ودليلُهُ قوله: ﴿وَرِإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو اختيار الزجاج^(١)، وسيجيءُ في سورة «الكافرون»، أنه ﷺ قبل البعثةِ على أيِّ ملَّةٍ كان. وقال الجنيدي: «وجدك متحيراً في بيانِ الكتابِ المنزلِ عليك فهذاك لبيانه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال بعضهم: وجدك غافلاً بقدرِ نفسِكَ، فأشرفكَ على عظيمِ محلك، وأيضاً وجدك ضالًّا عن معنىِ تحضُّصِ المودةِ، فسقاك كأساً من شرابِ القربةِ والمودةِ، فهذاك به إلى معرفته. وقال جعفرُ الصادق: كنت ضالًّا عن محبتي لك في الأزل، فَمَمَنْتُ عليك بمعرفتي. وقال الجريري: وجدك متردداً في غوامضِ معاني المحبةِ، فهذاك بلطفه لها^(٢). وقلت: هذا ملائمٌ لمعنى الفاتحة.

الراغب: «الضلال: العدولُ عن الطريقِ المستقيمِ، ويضادُّه الهداية. ويقالُ الضلالُ لكلِّ عدولٍ عن النَّهْجِ، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإن الطريقَ المستقيمَ المرتضى صعبٌ جدًّا، ولذا قال ﷺ: «استقيموا ولن تُحْضُوا»، وقال بعضهم: كوننا مصيبين من وجه، وكوننا ضالين من وجوه كثيرة؛ فإن الاستقامةَ والصوابَ يجري مجرىِ المقرطسِ من المرمى،

(١) «الوسيط» (٤: ٥١١) للواحدي. وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) «حقائق التفسير» (٢: ٤٠١) للسلمي.

كقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل: ضَلَّ في صباه في بعض شعاب مكة، فردّه أبو جهلٍ إلى عبدِ المطلب. وقيل: أَضَلَّتْه حليمةٌ عند بابِ مَكَّةَ حين فَطَمَتْه وجاءت به لِتَرُدَّهُ على عبدِ المطلب. وقيل: ضَلَّ في طريقِ الشام حين خرج به أبو طالب. فهذاك: فَعَرَّفَكَ القرآنَ والشرائعَ، أو فأزالَ ضلالَكَ عن جَدِّكَ وَعَمِّكَ. ومن قال: كان على أمرٍ قومُه أربعين سنة، فإن أرادَ أنه كان على خلوِّهم عن العلومِ السَّمعية، فنعم؛ وإن أرادَ أنه كان على دينهم وكفرهم، فمعاذ الله؛ والأنبياءُ يجبُ أن يكونوا معصومين قبل النبوةِ وبعدها من الكبارِ والصغائرِ السائنة، فما بالُ الكفرِ والجهلِ بالصانع؟ ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] وكفى بالنبِيِّ نقيصةً عند الكفارِ أن يسبقَ له كفرٌ. ﴿عَاقِلًا﴾ فقيراً. وقرئ: (عَيَّلًا) كما قرئ: (سَيِّحَاتٍ)،

وما عدها من الجوانبِ كُلِّها ضلال. فإذا كان الضلالُ تركَ المستقيمِ عمداً أو سهواً، قليلاً أو كثيراً، صحَّ أن يُستعملَ الضلالُ في مَنْ يكونُ منه خطأ ما، ولذلك نُسِبَ إلى الأنبياءِ والكفارِ، وإن كان بينهما^(١) بونٌ بعيد، قال في حقِّ نبيِّنا صلواتُ الله عليه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ وقال أولادُ يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، وقال موسى عليه السلام: ﴿فَعَلَّمْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، أي من الساهين، وقال تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أي: تنسى. وأما الضلالُ في معرفةٍ وحدانيةِ الله ومعرفةِ النبوةِ ونحوهما، فهو الضلالُ البعيد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]»^(٢).

قوله: (كما قرئ: «سَيِّحَاتٍ»)، يعني: قرئ بدلُ ﴿سَيِّحَاتٍ﴾: «سَيِّحَاتٍ»^(٣)، وإنما شَبَّه بذلك لأنه قد جاء فيها «فِيعَل» مكان «فاعل».

(١) أي: بين الضَّالِّين.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٥٠٩-٥١٠.

(٣) وهي قراءة «عمرو بن فائد»، كما في «البحر المحيط» (٨: ٢١٩) لأبي حيان.

وعدياً، ﴿فَأَغْنَى﴾ فأغناك بهالٍ خديجة. أو بها أفاء عليك من الغنائم. قال عليه السلام: «جُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رُحمي» وقيل: قَنَّكَ وأغنى قلبك.

[﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٩-١١]

﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: (فلا تكهر) وهو أن يُعبَسَ في وجهه. وفلان ذو كَهْرورة: عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأبي وأمي هو، ما كَهْرني. النَّهْرُ، والنَّهْمُ: الزَّرَجْرُ. عن النبي ﷺ: «إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع، فلا عليك أن تزبره». وقيل: أما إنه ليس بالسائل المستجدي،

قوله: (وعدياً)، أي: وقرئ: عدياً، وفي «الموضح» أنها قراءة ابن مسعود^(١).

قوله: (فبأبي وأمي هو، ما كَهْرني)، الحديث من رواية مسلم وأبي داود والنسائي، عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: «بيننا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وأئكل أمأه! ما شأنكم تنظرون؟ وجعلوا يضربون أيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمّتونني سكّت. فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كَهْرني ولا ضربني ولا شتمني، فقال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسييح والتكبير»^(٢).

قوله: (أن تزبره)، الجوهري: «الزُّبْرُ: الزَّحْرُ والمنع، يقال: زَبَرَهُ يَزْبُرُهُ بالضم: إذا انتهره».

قوله: (أما إنه ليس بالسائل المستجدي)، أي: لم يُرد هذا السائل من يطلب الجدوى، أي: العطاء، ولكن أريد به طالب العلم.

(١) لم أهتم إلى موضعه في «الموضح» للمهدوي، و«الموضح» لابن أبي مريم. وقال الفراء: «ورأيتها في مصاحف عبد الله: «عدياً»، والمعنى واحد». انظر له: «معاني القرآن» (٣: ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣٣-٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠) والنسائي (١٢١٨).

ولكن طالب العلم إذا جاء فلا تنهره. التحديثُ بنعمة الله: شُكرها وإشاعتها، يريد: ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك. عن مجاهد: بالقرآن، فحدث: أقرئه، وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً: قرأتُ كذا وصليتُ كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وأنتم تقولون: لا تحدثُ بنعمة الله. وإنما يجوزُ مثلُ هذا إذا قُصدَ به اللطف، وأن يقتدي به غيره، وأمنَ على نفسه الفتنة. والسترُ أفضل، ولو لم يكن فيه إلا التشبُّه بأهل الرياء والسُّمعة لكفى به. وفي قراءة علي رضي الله عنه: (فخبرٌ) والمعنى: أنك كنت يتيمًا، وضالًّا وعائلاً، فأواك الله، وهداك: وأغناك؛ فمهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنسَ نعمة الله عليك في هذه الثلاث. واقتدِ بالله، فتعطفْ على اليتيم وآوِه، فقد ذقت اليتيمَ وهوانه، ورأيت كيف فعل الله بك؛ وترحَّم على السائلِ وتفقَّده بمعروفك ولا تزجره عن بابك، كما رحمك ربُّك فأغناك بعد الفقر؛ وحدث بنعمة الله كلها، ويدخل تحتها هدايته الضلال، وتعليمه الشرائع والقرآن، مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «الضحى»، جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له، وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كلِّ يتيم وسائل».

قوله: (عن عبد الله بن غالب)، في «الكاشف في أسماء الرجال»: «هو عبدُ الله بنُ غالب البصريُّ الحُدَّاني، بضمِّ الحاءِ المهملة والنون^(١)، كان عابداً واعظاً قانتاً متبتلاً، روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وروى عنه قتادة والقاسم بن فضل. قُتل يومَ الجماميم في سنة ثلاثٍ وثمانين».

قوله: (فمهما يكن من شيء)، يريد أن موقع «أما» مع مدخولها بعد قوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ

(١) في «الأنساب» (٤: ٧٦) للسمعي: «الحُدَّاني: بضم الحاء وتشديد الدال المهملتين، وفي آخرها نون بعد الألف، هذه النسبة إلى (حُدَّان)، وهم من الأزدي وعامتهم بصريون... والمشهور بها أبو فراس عبد الله بن غالب الحُدَّاني».

يَتِيحًا فَتَاوَى ﴿١﴾، موقع الحكم الذي ترتب على الوصف المناسب، فيجب المداومة عليه، لأن معنى «أما» الشرطية على تفسير سيبويه، في نحو قولهم: أما زيدٌ فذاهبٌ، هو: مهما يكن من شيء فزيدٌ ذاهبٌ. وفائدته التوكيد، يعني أنه لا محالة ذاهب، وأنه منه عزيمة، ولذلك قال: «وعلى ما حَيَّلْتُ»^(١)، أي: النفس، فلا تنس رحمة الله. وقيل: فاعلُ «ما حَيَّلْتُ» الحال، أي: على أي حالٍ كنت، يقولون: افعل على ما حَيَّلْتَهُ^(٢)، أي: ما سُبِّهتِ الحال. واعلم أن في كلامه إشعاراً بأن قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، جاء مقابلاً لقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَتَوَّأَى﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مقابلاً لقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، لقوله: «وترحم على السائل كما رحمك ربك فأغناك». وأما قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فجيء على العموم، فدخل تحته مفهوم القرينة الثانية، وهو قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أول شيء، وإليه الإشارة بقوله: «وحدّث بنعمة الله كلّها، ويدخل تحته هدايته الضلال، وتعليمه الشرائع والقرآن، مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال».

وقلت: الظاهر أن المراد بالسائل طالب العلم لا المستجدي، ولذلك أتى بكلمة التَّئِبِيهِ وحرّف الاستدراك في قوله: «أما إنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم»؛ فالجمل الثلاثُ المصدرُ بـ «أما»، كالتفصيل لتلك الحالات^(٣) الثلاث على الترتيب، ولذلك أتى بالفاء في الأولى، وعُطِفَ الآخِرَانِ عليها بالواو. نعم، الثالثة من الجوامع التي تشتمل على المذكورات وغير المذكورات. ويؤيد هذا التأويل، ما رواه الإمام عن الحسن أنه قال: «المراد من السائل من يسأل العلم، ونظيره من وجه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، وحينئذٍ يحصل الترتيب،

(١) في (ح): «جُبلت»، وكذا في الموضع الثاني الآتي.

(٢) في (ح): «جُبلته».

(٣) في (ح): الخلال.

لأنه تعالى قال أولاً: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَشَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، ثم اعتبر هذا الترتيب فأوصاه برعاية حق اليتيم، ثم برعاية من يسأله عن العلم والهداية، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه^(١). فإن قلت: ما الحكمة في تأخير حق الله عن حق اليتيم والسائل؟ قلنا: فيه وجوه: أحدها كأنه يقول: أنا غني وهما محتاجان، وتقديم المحتاج أولى. وثانيها أنه وضع في حظهما الفعل ورضي لنفسه بالقول. وثالثها أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله فحُتمت به. وأوثر ﴿فَحَدَّثَ﴾ على «فخبر»^(٢)، ليكون ذلك عنده حديثاً لا ينساه، ويوجدُه ساعةً غبَّ ساعة؛ قاله الإمام^(٣).

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٩٩).

(٢) قال الفراء: «قرأ عليّ أعرابي: «وأما بنعمة ربك فخير». فقلت: إنها هو ﴿فَحَدَّثَ﴾. قال: «حدّث» و«خبر» سواء». انظر: «مختصر شواذ القراءات»، ص ١٧٥.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣١: ٢٠٠) للرازي.

سورة ﴿التَنْشِخِ﴾

مكية، وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿التَنْشِخِ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزَرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ١-٤]

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكانه قيل: شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ؛ ولذلك عطفَ عليه (وَضَعْنَا) اعتباراً للمعنى. ومعنى: شَرَحْنَا صَدْرَكَ: فَسَّخْنَاهُ حَتَّى وَسِعَ هُمُومَ النُّبُوَّةِ وَدَعْوَةَ الثَّقَلَيْنِ جَمِيعاً.....

سورة ﴿التَنْشِخِ﴾

مكية، وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (فَأَفَادَ إِثْبَاتَ الشَّرْحِ وَإِجَابَهُ)، أي: أَنْكَرَ عَدَمَ الشَّرْحِ، فإذا أَنْكَرَ ذَلِكَ ثَبَتَ الشَّرْحَ، لأنَّ الهمزةَ لِلْإِنْكَارِ، وَالْإِنْكَارُ نَفْيٌ، وَالتَّنْفِي إِذَا دَخَلَ عَلَى التَّنْفِي عَادَ إِثْبَاتًا، وَلَا يَجُوزُ جَعْلُ الهمزةَ لِلتَّقْرِيرِ.

قولُه: (فَسَّخْنَاهُ حَتَّى وَسِعَ هُمُومَ النُّبُوَّةِ وَدَعْوَةَ الثَّقَلَيْنِ جَمِيعًا)، فإن قلت: لِمَ فَسَّرَ هَاهُنَا شَرَحَ الصَّدْرِ أَجْمَعٍ وَأَشْرَحَ مِنْ تَفْسِيرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، حَيْثُ قَالَ: «لَمَّا أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ الطَّاغِي، عَرَفَ أَنَّهُ كَلَّفَ أَمْرًا عَظِيمًا وَخَطْبًا جَسِيمًا،

أو حتى احتمال المكاراة التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، وأزلنا عنه الضيق والحرَج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: مُلِيَءَ حِكْمَةً وَعِلْمًا.....

يحتاج معه إلى احتمال ما لا يتمله إلا ذو جأشٍ رابِطٍ وصدرٍ فسيح، فاستوهب ربّه أن يشرح صدره؟^(١). قلت: إن الهموم بقدرِ الهمم، ونعم ما قال الصّاحب:

وقائلةٍ لِمَ عَرَتِكَ الهمومُ وأمرَكَ ممثِلٌ في الأممِ؟
فقلتُ: ذرني على عُصّتي فإن الهموم بقدرِ الهممِ^(٢)

ولكلِّ مقام مقال؛ فإنّ الكليم حين بُعث إلى فرعون الطاغية، طلب الانشراح كما قال: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٤-٢٥]، والحبيب لما طُلب إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، كما يجيء في حديث مالك بن صعصعة.

وقال جعفر الصادق: «ألم نشرح لك صدرك لمشاهدتي ومطالعتي. وقال ابن عطاء: ألم نخل سرك عن الكل، فغبت عن مشاهدة الكون وما سوى الحق، فشرح صدرك للنظر، وشرح صدر موسى للكلام. وقال سهل: ألم نوسع صدرك بنور الرسالة، فجعلناه معدناً للحقائق»^(٣).

قوله: (وعن الحسن: مُلِيَءَ حِكْمَةً وَعِلْمًا)، لعله يشير إلى ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ: «بيننا أنا عند البيت بين الناسم واليقظان، فأتيَتْ بِطَسْتٍ من ذهبٍ فيها ماءٌ رَمَزَم، فشرح صدري إلى كذا وكذا. قال قتادة: قلت، يعني لأنس: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: فاستخرج قلبي فغسل بياض زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيماناً وحكمة، ثم أتى بدائية دون البغل وفوق الحمار» الحديث بطوله^(٤).

(١) انظر: (١٠: ١٦١-١٦٢).

(٢) ديوان الصاحب بن عباد، ص ٢٨٠.

(٣) «حقائق التفسير» (٢: ٤٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (٢٦٤-١٦٤) والترمذي (٣٣٤٦) والنسائي (٤٤٨).

وعن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: (ألم نشرح لك) بفتح الحاء.....

قال الإمام: «لا يبعد أن يكون حصول الدم الأسود الذي غسلوه من قلبه صلوات الله عليه، علامة الميل والركون إلى المعاصي والتحجيم عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة كون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات، يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد»^(١). الراغب: «أصل الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم وشرحته، ومنه شرح الصدر، وهو بسطه بنور الهي وسكينة من جهة الله وروح منه»^(٢).

قوله: (قرأ: «ألم نشرح» بفتح الحاء)، أصله: «نشرحن»، فحذف وأبقى فتحة الحاء دليلاً على النون في «المتقى»، قال ابن جنى: «رويت عن أبي جعفر المنصور: «ألم نشرح»، بفتح الحاء، قال ابن مجاهد: «هذا غير جائر أصلاً»^(٣). وقال ابن جنى: «ظاهر الأمر ومألوف الاستعمال ما ذكره ابن مجاهد، لكن جاء مثل هذا فيما قرأت على أبي علي في نوادر أبي زيد:

من أيّ يوميّ من الموت أفرّ
أيوم لم يُقدّر أم يوم قُدِر؟^(٤)

قيل: أراد: لم يُقدّرَن، بالنون الخفيفة، وحذفها عندنا غير جائر، لأن نون التأكيد أشبه شيء به الإسهاب والإطناب، لا الإيجاز والاختصار. وفي نوادر أبي زيد أيضاً بيت آخر، ويقال إنه مصنوع، وهو قوله:

اضرب عنك الهموم طارقها
ضربك بالسيف قونس الفرس^(٥)

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٤).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٤٤٩.

(٣) «المحتسب» (٢: ٣٦٥).

(٤) نسب البيت في «العقد الفريد» (١: ١٠٥) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولكنه عنده بصيغة مختلفة ووزن مختلف، حيث جاء على بحر الرمل وبعده:

يوم لا يقدر لا أربه
ومن المقدور لا ينجي الحذر

(٥) البيت لطرفة بن العبد؛ قال ابن بري: «البيت لطرفة، ويقال: إنه مصنوع عليه». انظر: «اللسان» =

وقالوا: لعلّه بَيِّن الحياءِ وأشبعها في مخرجها، فظنَّ السامعُ أنه فتَحها، والوزرُ الذي أنقَضَ ظهره أي: حمّله على النقيض وهو صوتُ الانتقاضِ والانفكاكِ لثقله مثلُ لما كان يثقلُ على رسولِ الله ﷺ ويغمُّه من فرطاته قبل النبوة، أو من جهله بالأحكامِ والشرائع، أو من تهالكه على إسلامِ أولي العناد من قومه وتلفهه. ووَضَعُه عنه: أن عُفِرَ له، أو عُلِمَ الشرائع، أو مهد عذره بعد ما بَلَغَ وبالغَ.....

أراد: اضربنْ، بالنون الخفيفة، وحذفها^(١).

قوله: (وهو صوتُ الانتقاضِ والانفكاكِ)، وفي «الصّحاح»: «أنقَضَ الحِمْلُ ظهره، أي: أثقله. وأصلُه الصوت، والنقيضُ: صوتُ المحاملِ والرّحال».

الراغب: «أنقَضَ ظهره: أي كسره حتى صارَ له نقيضٌ، ونقيضُ المفاصلِ صوتُها. والظَّهْرُ استعارةٌ تشبيهاً للذَّنْبِ بالحِمْلِ الذي ينوءُ بحامله»^(٢).

قوله: (ووضعه عنه: أن عُفِرَ له)، مبتدأ وخبر، والجملة معطوفةٌ على مثلها وهي قوله: «والوزرُ مثلُ»، أي: استعارةٌ مسبوقَةٌ بالتشبيه، فيكون ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ترشيحاً لها، لأنه وصفٌ مناسبٌ للمستعارِ منه. هذا هو المعنى بقوله: «وَوَضَعُه عنه: أن عُفِرَ له» إلى آخره؛ فإذا استعيرَ الوزرُ للذَّنْبِ، فالمناسبُ أن يُحمَلَ الترشيحُ على معنى العُفْران، وإذا استعيرَ للجهلِ بالأحكامِ، فالملائمُ أن يجري على تعليمِ الشرائع، وإذا حُمِلَ على تهالكه صلواتُ الله عليه على إسلامهم، فالموافقُ أن يُتأوَّلَ بتمهيدِ العذر، أي: لا تُحْرَضُ على هداهم، ولا تذهب نفسُك عليهم حسراتٍ، لأنك بالغتَ في التبليغ، وألزمتَ عليهم الحجّة، ففيه لَفٌّ ونَشْرٌ.

= (قنس). والبيت من قصيدة مطلعها:

هل بالديارِ العُدَاةُ من حَرَسِ أم هل بربيعِ الجميعِ من أنسِ؟

انظر: «ديوانه بشرح الأعلام»، ص ١٦٣.

(١) «المحتسب» (٢: ٣٦٥-٣٦٦) بتصرف، وانظر: «النوادر» لأبي زيد، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٥٤٠، ٨٢٢.

وقرأ أنس: (وَحَلَّلْنَا وَحَطَطْنَا). وقرأ ابن مسعود: (وَحَلَّلْنَا عَنْكَ وَقَرَك). وَرَفَعُ ذِكْرِهِ: أَنْ قَرِنَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ وَالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالتَّشْهيدِ وَالْحُطْبِ، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] وَفِي تَسْمِيَتِهِ رَسُولَ اللَّهِ وَنَبِيِّ اللَّهِ؛ وَمِنْهُ ذِكْرُهُ فِي كِتَابِ الْأَوْلِيَيْنِ، وَالْأَخْذُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي زِيَادَةِ ﴿لَكَ﴾، وَالْمَعْنَى مُسْتَقِلُّ بَدُونِهِ؟

قوله: (وقرأ أنس: «وَحَلَّلْنَا وَحَطَطْنَا»)، عن ابن جني، «قال أبان: قلت لأنس: يا أبا حمزة: ﴿وَوَضَعْنَا﴾؟ قال: «وَوَضَعْنَا» و«حَلَّلْنَا» و«حَطَطْنَا» سواء. إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ، قال: اقرأ على سبعة أحرف، ما لا تَخْلُطُ مَغْفِرَةً بِعَذَابٍ، وَعَذَاباً بِمَغْفِرَةٍ»^(١).

قلت: قد جاء عن مسلم والترمذي وأبي داود والنسائي، عن أنس في حديث طويل، وفي آخره: «ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف؛ إن قلت: سمياً علياً عزيزاً حكماً، ما لم تَحْتَمِ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ»^(٢).

قوله: (وفي تسميته رسول الله ونبي الله)، قال جعفر: «لا يذكر أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية، وقال ابن عطاء: جعلت تمام الإيمان بي بذكرك معي»^(٣).

قوله: (والأخذ على الأنبياء وأمهم أن يؤمنوا به)، لعله أراد ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

(١) «المحتسب» (٢: ٣٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود واللفظ له (١٤٧٧) والنسائي (٩٤١). وانظر «صحيح مسلم» (٨٢٠) والترمذي (٢٩٤٤).

(٣) «حقائق التفسير» (٢: ٤٠٤) للشملي.

قلت: في زيادة ﴿لَكَ﴾ ما في طريقة الإبهام والإيضاح، كأنه قيل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، ففهم أن ثم مشروحا، ثم قيل: ﴿صَدْرَكَ﴾، فأوضح ما علم مبهما، وكذلك ﴿لَكَ ذِكْرَكَ﴾ و﴿عَنْكَ وَزَرْكَ﴾.

[فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥-٦﴾].

فإن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بما قبله؟

قلت: كان المشركون يُعَيِّرُونَ رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيق،

قوله: (في زيادة ﴿لَكَ﴾). قال المصنف رحمه الله (١): «يحتمل أن يكون ﴿لَكَ﴾ زيادة للاختصاص، كما في ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّهُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وإن كان المعنى مستقلا بـ«نعبدك»، وأن يكون من قبيل الأهم فالأهم».

وقال السيد ابن الشجري في «الأمالي»: «اللام في ﴿لَكَ﴾ لام العلة، نحو قولك: فعلت ذلك لإكرامك، فإن حذفتها قلت: فعلته إكرامك، وإن حذف المصدر رددت اللام فقلت: فعلت ذلك لك؛ فالمعنى: ألم نشرح هداك صدرك؟ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فلما حذف المصدر وجب إثبات اللام. وكذلك قوله: «ورفعنا لك ذكرك»، أي: رفعنا لتشريفك (٢) ذكرك» (٣).

قوله: (كان المشركون يُعَيِّرُونَ)، تلخيصه: أن قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، سبب نزوله أن المشركين كانوا يُعَيِّرُونَ رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بالفقر، فاهتم لذلك رسول الله ﷺ، فأزيل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، فدل الاستفهام على إنكار نفي الانشراح مبالغة في إثباته، يعني: ألم تر كيف فعل الله بك في بدء أمرك من انشراح الصدر والرفع من الذكر، وأنت غير عالم حينئذ بشيء مما تعلمه الآن، وأنت يومئذ حامل الذكر، ففعلنا بك ما فعلنا، فقس على ذلك ولا تهتم بتغييرهم لك وللمؤمنين بالفقر، فإن مع العسر يسرا.

(١) في (ط): «قال رضي الله عنه».

(٢) في (ح): «تشريفك لذكرك»، وفي (ف): «تشريفك ذكرك».

(٣) «أمالي ابن الشجري» (٣: ٨٧-٨٨) بتصرف.

حتى سَبَقَ إلى وَهْمِهِ أَنَّهُمْ رَغِبُوا عن الإسلام لافتقارِ أهله واحتقارِهِم، فذَكَرَهُ ما تبع به عليه من جلائلِ النِّعمِ ثم قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كأنه قال: خَوْلناك ما خَوْلناك فلا تَيْأَسُ من فَضْلِ اللهِ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ يَسْرًا.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنَّ مَعَ﴾ لِلصُّحْبَةِ، فَمَا مَعْنَى اصْطِحَابِ الْيَسْرِ وَالْعُسْرِ؟

قُلْتُ: أَرَادَ أَنْ اللهُ يَصِيبُهُمْ بِيسْرٍ بعد العسر الذي كانوا فيه بزمانٍ قريبٍ، فَقَرَّبَ الْيَسْرَ الْمُتَرَقِّبَ حتى جعله كالمقارنِ للْعُسْرِ، زيادةً في التسليةِ وتقويةِ القلوبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ما مَعْنَى قولِ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنهما: «لَنْ يَغْلِبَ عَسْرٌ يَسْرِينَ»، وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعاً: أَنَّهُ خَرَجَ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَضْحَكُ وَيَقُولُ: «لَنْ يَغْلِبَ عَسْرٌ يَسْرِينَ»؟

قُلْتُ: هَذَا عَمَلٌ عَلَى الظَّاهِرِ، وَبِنَاءٍ عَلَى قُوَّةِ الرَّجَاءِ، وَأَنْ مَوْعِدَ اللهُ لَا يُحْمَلُ إِلَّا عَلَى أَوْفَى مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ وَأَبْلَغُهُ، وَالْقَوْلُ فِيهِ أَنَّهُ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ.....

قَوْلُهُ: (وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعاً)، رَوَى مالِكٌ في «الموطأ» عن زيد بن أسلم، قال: «كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يَذَكُرُ لَهُ جُمُوعاً مِنَ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّهُمَا يَنْزِلُ بَعِيدٌ مَوْمِنٌ شِدَّةً، يَجْعَلُ اللهُ بَعْدَهُ فَرَجاً، وَلَنْ يَغْلِبَ عَسْرٌ يَسْرِينَ»^(١).

قَوْلُهُ: (هَذَا عَمَلٌ عَلَى الظَّاهِرِ)، وَالْمَعْنَى بِالظَّاهِرِ: اللَّفْظُ الْمُحْتَمَلُ الرَّاجِحُ أَحَدُ مُحْتَمَلَاتِهِ بِقَرِينَةٍ نَاهِضَةٍ، يَعْنِي: مَا ذَكَرُوهُ عَمَلٌ بِالظَّاهِرِ؛ فَإِنَّ مَا فِي التَّنْزِيلِ يَحْتَمِلُ التَّكْرِيرَ وَالِاسْتِنْفَافَ، وَالْقَرِينَةُ الَّتِي تَرْجَحُ أَحَدَ الْإِحْتِمَالَيْنِ، أَيْ: الْإِسْتِنْفَافَ لِأَنَّهُ أَوْفَاهُمَا وَأَبْلَغُهُمَا، هِيَ أَنْ مَبْنَى «أَنْ مَوْعِدَ اللهُ لَا يُحْمَلُ إِلَّا عَلَى أَوْفَى الْإِحْتِمَالَيْنِ»، عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ عَلَى قَوْلِهِ: «وَبِنَاءٍ عَلَى قُوَّةِ الرَّجَاءِ»، وَهُوَ عَلَى «عَمَلٌ بِالظَّاهِرِ» كَذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: «وَالْقَوْلُ فِيهِ» إِلَى آخِرِهِ، بَيَانٌ لِلْإِحْتِمَالَيْنِ.

(١) أَخْرَجَهُ مالِكٌ فِي «الموطأ» (١٢٨٨).

تكريراً للأولى كما كرر قوله: ﴿قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب، وكما يكرر المفرد في قولك: جاءني زيدٌ زيدٌ، وأن تكون الأولى عِدَّةً بأن العسر مردوفٌ بيسرٍ لا محالة، والثانية عِدَّةٌ مستأنفةٌ بأن العسر متبوعٌ بيسرٍ، فهما يسران على تقدير الاستئناف، وإنما كان العسر واحداً لأنه لا يَجُلُو، إما أن يكون تعريفه للعهد، وهو العسر الذي كانوا فيه، فهو هو؛ لأن حكمه حكمُ زيدٍ في قولك: إن مع زيدٍ مالا، إن مع زيدٍ مالا. وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كلُّ أحدٍ فهو هو أيضاً. وأما اليسرُ فمَنكَّرٌ متناولٌ لبعض الجنس، فإذا كان الكلامُ الثاني مستأنفاً غير مكررٍ، فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال.

فعلى هذا، لو لم يكرّر - كما هي قراءة ابن مسعود^(١)، - أفاد المراد المقصود، وذلك أن التنكير في ﴿يُسْرًا﴾، يحتمل أن يراد منه بعض من اليسر، وأن يراد منه التفضيم، ولما كان بناء الأمر على قوة الرجاء، رُجِحَ الثاني. والفرق بين هذا والأول أن دلالة الأول على المراد بالوضع كما سيحيى، ودلالة الثاني عليه باللزوم والكناية؛ فإن التفضيم في ﴿يُسْرًا﴾، اقتضى أن يتناهى في، ولو لم يكن متناهماً فيه، إذن لم يُرد به يسر الدارين، ولزم من ذلك تعدد اليسر، وأن يقال: «لن يغلب عسرُ يسرين»، وإليه الإشارة بقوله: «وذلك يسران في الحقيقة». وإذا ذهب إلى هذا المعنى في التكرير، كان أبلغ من الاستئناف، ولولا التنبيه بالأثر والحديث على هذه اللطيفة، لم يفهم ذلك. ويمكن أن يقال: لما كان ورود الآية في حق الصحابة الكرام، ووعداً لهم بالفرج بعد الشدة، أوجب أن يُحمَلَ على يسر الدارين: أما في الدنيا، فبالغنى بعد الفقر، والقوة بعد الضعف، وبالعزيز بعد الدل. وأما في الآخرة، فلا كلام فيه.

قوله: (وإنما كان العسر واحداً)، إلى آخره، اعلم أن لام التعريف عند المحققين موضوعة للإشارة والعهد، قال صاحب «التخمين»: «اعلم أن اللام لنفس الإشارة، لكن الإشارة

(١) في (ف): «ابن عباس»، وليس بصواب. وقراءة ابن مسعود: «فإن مع العسر يسراً إن مع العسر»، بحذف «يسراً» الثانية. انظر: «معاني القرآن» (٣: ٢٧٥) للقرآء.

تقع تارة إلى فردٍ لمخاطبك به عهد، وأخرى إلى جنس؛ فمعنى اللام واحدٌ على كلِّ حالٍ فاعرفه؛ فإن غلطَ الناسِ فيه عظيم، وهي فائدةٌ مذهبيةٌ^(١) «(٢)».

قلت: فإذا لا بُدَّ له من تقدُّمٍ مشارٍ إليه، فإذا جاء في الكلام ما يصلح أن يكون مشاراً إليه بأي وجه كان، تعيَّن له، قال البزدوي: «اللامُ المعرَّفةُ للعهد، وهو أن يذكر شيئاً ثم يعاوده، فيكون الثاني هو الأول، مثله قولُ علمائنا فيمن أقرَّ بألفٍ مُقيداً بقيد، ثم أقرَّ به كذلك أن الثاني هو الأول، وإذا كان كلُّ واحدٍ منها نكرةً، جاء الخلافُ في أن اتحادَ المجلسِ^(٣) شرطٌ لأن يكون الثاني عينَ الأول، فعند أبي حنيفة رحمة الله: نعم، وعند أبي يوسف: لا»^(٤).

وروى صاحبُ «المطلع» عن الفراء، أن العرب إذا ذكرت نكرةً ثم أعادتها بنكرةٍ مثلها صارتا اثنتين، كقولك: إذا كسبت درهماً فأنفق درهماً، فالثاني غيرُ الأول، فإذا أعادتها معرفةً فهي هي. وذكر الزجاج نحوه^(٥).

وقال السيدُ في «أمالِي»: «وإنما كانَ «العسرُ» معرِّفاً و«اليسرُ» منكرًا، لأن الاسمَ إذا تكرَّرَ منكرًا فالثاني غيرُ الأول، كقولك: جاءني رجلٌ فقلتُ لرجلٍ: كذا وكذا، وكذلك إن كانَ الأول معرفةً والثاني نكرةً، نحو: حضرَ الرجلُ، فقلتُ لرجلٍ: كيت وكيت؛ فإن كانَ الأولُ نكرةً والثاني معرفةً، فالثاني هو الأول، وكذلك ذكُرُ المعرفة بعد المعرفة، نحو: حضرَ الرجلُ فأكرمتُ الرجلَ، ولذلك قالَ ابنُ عباسٍ: (لن يغلبَ عسرُ يسرين)^(٦).

(١) في (ح): «مدهشة».

(٢) «التخمير شرح المفصل» (٤: ١٦٥ - ١٦٦).

(٣) في (ف): «الجنس».

(٤) «الكافي شرح البزدوي»، ص ٧٢٢، ٧٢٣.

(٥) قال الزجاج: «فذكر العسر مع الألف واللام ثم ثنى ذكره، فصار المعنى أن مع العسر يسرين»

«معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٤١)، وانظر: «زاد المسير» (٤: ٤٦١) لابن الجوزي.

(٦) «أمالِي ابن الشجري» (٣: ٨٨ - ٨٩) بتصرف.

فإن قلت: فما المراد باليسرين؟

قلت: يجوز أن يرادَ بها ما تيسَّر لهم من الفتوح في أيام رسول الله ﷺ وما تيسَّر لهم في أيام الخلفاء، وأن يرادَ يُسر الدنيا ويُسر الآخرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَوْنَ كُنُوزًا يَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ آخِذِينَ﴾ [التوبة: ٥٢] وهما حُسْنِي الظَّفَرِ وحُسْنِي الثَّوَابِ.

فإن قلت: فما معنى هذا التنكير؟

قلت: التفخيم، كأنه قيل: إن مع العسرِ يسراً عظيماً وأيُّ يسرٍ، وهو في مصحف ابن مسعودٍ مرةً واحدة.

فإن قلت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر، فلم قال: والذي نفسي بيده، لو كان العسرُ في جحرٍ لطلبه اليسرُ حتى يدخلَ عليه، إنه لن يغلبَ عسرٌ يسرين؟ قلت: كأنه قصدَ باليسرين: ما في قوله: ﴿يُسْرًا﴾ من معنى التفخيم، فتأوله بيسر الدارين، وذلك يُسرانٍ في الحقيقة.

[﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ٧-٨].

فإن قلت: فكيف تعلق قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ بما قبله؟

قلت: لَمَّا عَدَّدَ عليه نعمه السالفةَ وَوَعَدَهُ الآئِفَةَ، بعثه على الشكرِ والاجتهادِ في العبادةِ والنَّصَبِ فيها، وأن يواصلَ بين بعضها وبعضٍ، ويتابعَ ويحرصُ على أن لا يُخْلِي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغَ من عبادةٍ ذنبها بأخرى. وعن ابن عباسٍ: فإذا فرغتَ من صلاتك فاجتهد في الدعاء.....

قوله: (فما معنى هذا التنكير؟)، دَلَّ الفاءُ على إنكار، يعني: إذا أريدَ باليسرين ما ذكرت

من الوجهين، فالواجبُ أن يُجاءَ بها معرفتين، فما معنى التنكير؟

قوله: (فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء)، عطفٌ على قوله: «فإذا فرغ من عبادةٍ

ذنبها بأخرى»، فقوله ﴿فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ كلاهما مطلقان؛ يجوزُ أن يُجريا على إطلاقهما بأن

وعن الحسن: فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك. وعن الشعبي: أنه رأى رجلاً يُشيلُ حجراً فقال: ليس بهذا أمرَ الفارغ، وقعودُ الرجلِ فارغاً من غيرِ شغلٍ، أو اشتغاله بما لا يعينه في دينه أو دنياه، من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة، ولقد قال عمر رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهلاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة. وقرأ أبو السَّمال: فرغت بكسر الراء وليست بفصيحة. ومن البدع: ما روي عن بعض الرافضة أنه قرأ: (فانصب) بكسر الصاد، أي: فانصب علياً للإمامة؛ ولو صحَّ هذا للرافضيِّ لصحَّ للناصبيِّ أن يقرأ هكذا،

يقال: فإذا فرغت من عبادة ذنبها بأخرى. وأن يُخصَّصا بالصلاة والدعاء لأن الصلاة أفضل العبادات والدعاء مُحُّها، أو بالغزو والعبادة كما قيل: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(١)، أو بالدنيا والصلاة، لأن الفراغ أكثر ما يُستعمل في الأمور الدنيوية، ومنه الحديث: «فراغك قبل شُغلك»، وهذه الرواية مذكورة في «شرح السنة»^(٢) عن مجاهد.

قوله: (فارغاً سبهلاً)، النهاية: «في حديث عمر رضي الله عنه: «إني لأكره أن أرى أحدكم سبهلاً، لا في عمل دنياً ولا في عمل آخرة». التنكير في «دنيا» و«آخرة» يرجع إلى المضاف اليها، وهو العمل، كأنه قال: لا في عمل من أعمال الدنيا، ولا في عمل من أعمال الآخرة. يقال: جاء يمشي سبهلاً، إذا جاء وذهب فارغاً في غير شيء».

(١) روي عن الرسول ﷺ بعد عودته من غزوة تبوك. والجهاد الأصغر جهاد الكفار، والجهاد الأكبر جهاد النفس. والحديث أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٧٣)، عن جابر قال: «قدم على رسول الله ﷺ قومٌ غزاة، فقال ﷺ: «قدمتم خير مقدم من جهاد الأصغر إلى جهاد الأكبر»، قيل: وما جهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه».

(٢) «شرح السنة» (٤٠٢١) (١٤: ٢٢٤).

ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض عليّ وعداوته ﴿وَالْإِلَهَ رَبِّكَ فَاَرْعَبْ﴾ واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. وقرئ: (فَرَعَّبَ) أي: رَغَّبِ النَّاسَ إِلَى طَلَبِ مَا عِنْدَهُ.

عن النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فَكَأَنَّمَا جَاءَنِي وَأَنَا مُغْتَمِّمٌ فَفَرَّجَ عَنِّي».

قوله: (واجعل رغبتك إليه خصوصاً)، التخصيصُ يُفيدُه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ، قال السيّد في «الأملِي»: «جامعتِ الفاءُ الواوَ، «وإلى» متعلّقةٌ بها بعد الفاء. ومثله ﴿وَيَأْبُكَ فَطَهَّرَ﴾ [المدثر: ٤]؛ انتصبَ ما قبلَ الفاءِ بها بعدها، وهذا من عجيبِ كلامهم؛ لأنَّ الفاءَ تعطفُ أو تدخلُ في الجوابِ وما أشبهَ الجوابِ، كخيرِ الاسمِ الناقصِ، أي الموصولةِ التي صلّتها الفعلُ، وهي هاهنا خارجةٌ عمّا وُضعت له»^(١).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

* * *

(١) «أملِي ابن الشجري» (٣: ٨٩).

سورة التين

مكية، وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ١-٨]

أقسمَ بهما لأنها عجيبان من بين أصنافِ الأشجارِ المثمرة، وروى: أنه أهدى لرسولِ الله ﷺ طبقٌ من تينٍ فأكلَ منه وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلتُ إن فاكهةً نزلت من الجنة لقلتُ هذه؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها.....

سورة التين

مكية، وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (بلا عجم)، يُروى بسكون الجيم وبتفتحها. وفي «ديوان الأدب»: «العجمُ بالتحريك: النوى»^(١)، وليس فيه عجم بهذا المعنى.
الجوهري: «العامة تقول: عجم، بالتسكين».

(١) «ديوان الأدب» (١: ٢٣١).

فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس». ومرّ معاذُ بنُ جبلٍ بشجرةِ الزيتونِ فأخذَ منها قضييًّا واستاكَ به وقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «نعم السواكُ الزيتونُ من الشجرةِ المباركةِ يُطيبُ الفمَ ويذهبُ بالحفرة». وسمعتُهُ يقول: «هي سواكي وسواكُ الأنبياءِ قبلي». وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه: هو نبيُّكم هذا وزيتونُكم. وقيل: جبلانِ من الأرضِ المقدَّسةِ يقال لهما بالسريانية: طُور تينا وطُور ريتا؛ لأنها منبتا التينِ والزيتونِ. وقيل: ﴿وَاللَّيْنِ﴾ جبلاً ما بين حُلوانَ وهمذان. و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ جبلاً الشام، لأنها منابتُهما، كأنه قيل: ومنابتِ التينِ والزيتونِ. وأضيفَ الطُورُ وهو الجبل، إلى سينين: وهي البقعة. ونحو سينون: يبرون، في جوازِ الإعرابِ بالواوِ والياء، والإقرار على الياء، وتحريكِ النونِ بحركاتِ الإعراب. والبلد: مكةُ حماها الله.

والأمين: من أَمُنَ الرجلُ أمانةً فهو أمين. وقيل: أمان، كما قيل: كُرَّامٌ في كريم. وأمانته: أن يحفظَ مَنْ دَخَلَهُ كما يحفظُ الأمينُ ما يؤتمنُ عليه. ويجوزُ أن يكونَ فعيلًا بمعنى مفعول، من أَمِنَهُ لأنه مأمونٌ الغوائل، كما وصف بالأمن في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧] بمعنى ذي أمن: ومعنى القسمِ بهذه الأشياء: الإبانة عن شرفِ البقاعِ المباركةِ وما ظهرَ فيها من الخيرِ والبركةِ بسُكنى الأنبياءِ والصالحين.

قوله: (فإنها تقطع البواسير)، قال القاضي: «التينُ فاكهةٌ طيبةٌ لا فضلَ له، وعند الغدَاءِ لطيفٌ سريعُ الهضم، ودواءٌ كثيرُ النفع، فإنه يلينُ الطبع، ويحلُّ البلغم، ويطهرُ الكلتيين، ويزيلُ رَمَلَ المثانة، ويفتحُ سَدَّةَ الكَبِدِ والطَّحال، وُسْمَنُ البَدَنِ. والزيتونُ فاكهةٌ وإدامٌ ودواء، وله دهنٌ لطيفٌ كثيرُ المنافع مع لذته، لكنّه قد يَنْبُتُ حيثُ لا دهنيةٌ فيه كالجبال»^(١).

قوله: (ويذهبُ بالحفرة)، يقال: حُفرتُ أسنانه حفرًا إذا فسَدَ أسنانهَا، أي: أصولها، ويقالُ أيضًا: حَفَرْتُ حفرًا، والحفرةُ للمرّة.

قوله: (فهو أمين، وقيل: أمان)، أي: قالوا: في موضعِ أمين.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٠٧).

فمنبتُ التينِ والزيتونِ مُهاجرُ إبراهيمَ ومولِدُ عيسى ومَنْشُوهُ، والطور: المكانُ الذي نودي منه موسى، ومكة: مكانُ البيتِ الذي هو هُدًى للعالمين، ومولِدُ رسولِ الله ﷺ ومبعثُهُ. ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ في أحسنِ تعديلٍ لشكلِهِ وصورتهِ وتسويةِ لأعضائه. ثم كانَ عاقبةُ أمرِهِ حينَ لم يشكُرْ نعمةَ تلكَ الخَلْقَةِ الحسنةِ القويمةِ السويةِ، أن رَدَدَناه أسفلَ مَنْ سَفَلَ خَلْقاً وتَرْكيباً، يعني: أَقْبَحَ مَنْ قَبَّحَ صُورَةً وَأَشَوَّهَ خِلْقَةً، وهم أصحابُ النارِ أو أسفلَ مَنْ سَفَلَ مِنْ أَهْلِ الدَّرَكَاتِ. أو ثم رَدَدَناه بعد ذلكَ التَّقْوِيمِ والتَّحْسِينِ أسفلَ مَنْ سَفَلَ فِي حُسْنِ الصُّورَةِ والشَّكْلِ: حيثَ نَكسناه في خَلْقِهِ، فَقَوَّسَ ظَهْرَهُ بعد اعتداله، وابتَضَّ شعرُهُ بعد سَوادِهِ، وَتَشَنَّ جِلْدُهُ وكانَ بَضًّا، وَكَلَّ سَمْعَهُ وبصرُهُ وكانا حديدين، وَتَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ؛ فَمَشِيَهُ دَلِيفٌ، وصَوْتُهُ خُفَاتٌ، وَقُوَّتُهُ ضَعْفٌ، وَشَهَامَتُهُ خَرَفٌ. وقرأ عبدُ الله: (أَسْفَلَ السَّافِلِينَ).

فإن قلت: فكيف الاستثناء على المذهبين؟

قولُهُ: (تَشَنَّ)، الأساس: «تَشَنَّ جِلْدُهُ مِنَ الهَرَمِ، أَي: تَشَنَّجَ وَيَبَسَ. ويقال: شيخٌ كالشَّنِّ البالي».

قولُهُ: (بَضًّا)، بالباءِ الموحدةِ من تحتِ والضادِ المعجمةِ. الأساس: «قال الأصمعي: أبيضُ بَضٌّ. وهو الشديدُ البياضِ. وقال المبرد: هو الرقيقُ البَشْرَةُ الذي يؤثرُ فيه كُلُّ شَيْءٍ. وامرأةٌ غَضَّةٌ بَضَّةٌ».

قولُهُ: (فَمَشِيَهُ دَلِيفٌ)، الدَلِيفُ: المشيُّ الرَّوَيْدُ. الأساس: «دَلَفَ الشَّيْخُ والمَقْيَدُ دَلِيفًا ودُلُوفًا، وهو فوقُ الدَّبِيبِ».

قولُهُ: (خَرَفٌ)، الخَرَفُ بالتحريكِ: فسادُ العقلِ.

قولُهُ: (فكيف الاستثناء على المذهبين)، عن بعضهم: أرادَ الحجازيةَ والتميميةَ ونيسَ بذلك، بل على الوجهين المذكورين كما ينبئُ عنه الجوابُ ودخولُ الفاءِ في السؤالِ.

قلت: هو على الأول متصل ظاهر الأتصال، وعلى الثاني: منقطع. يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمي فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهزم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تحاذل نهوضهم.

فإن قلت: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ من المخاطب به؟

قلت: هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، أي: فما يجعلك كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل، يعني أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء، لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأى شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة، وتقويمه بشراً سوياً وتدرجته في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أزدل العمر، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله،

قوله: (هو على الأول متصل)، أي على أن يراد بالرد إلى أسفل سافلين، الرد إلى أسفل من سفل خلقاً وتركيباً، وهم أصحاب النار، أو أسفل من سفل من أهل الدرجات. قال الواحدي عن مجاهد: «ثم رددناه إلى النار، والنار أسفل سافلين، لأن جهنم بعضها أسفل من بعض، ثم استثنى ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: إلا هؤلاء، فإنهم لا يردون إلى النار»^(١).

قوله: (وعلى الثاني منقطع)، أي على أن يراد بـ «أسفل سافلين»، الرد إلى أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل، ولذلك قال: «لكن الذين كانوا صالحين من الهرمي، فلهم ثواب دائم».

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، أي: بسبب الشيطان يشركون بالله. والباء في ﴿بِهِ﴾ ليست بصلة ﴿مُشْرِكُونَ﴾، بل صلته محذوفة.

لم يَعْجُزْ عن إعادته، فما سببُ تكذيبك أيها الإنسان بالجزء بعد هذا الدليل القاطع. وقيل: الخطابُ لرسولِ الله ﷺ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخٰكِمِينَ﴾ وعيدٌ للكفار، وأنه يحكمُ عليهم بما هم أهلُه. وعن النبي ﷺ: أنه كان إذا قرأها قال: (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين).
عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «التين»، أعطاه الله خصلتين: العافية واليقينَ ما دام في دار الدنيا، وإذا ماتَ أعطاه الله من الأجرِ بعددِ مَنْ قرأ هذه السورة».

قوله: (وقيل: الخطابُ لرسولِ الله ﷺ)، عطفٌ على قوله: «هو خطابٌ للإنسان»، وعلى هذا لا يكونُ في الكلامِ التفات، وتكونُ «ما» بمعنى «مَنْ»، أي: فمَنْ يكذبك أيها الرسولُ الصادقُ المصدقُ، بما جئتَ به من الدينِ الحقِّ، أو بسببِ الدينِ بعدَ ظهورِ هذه الدلائلِ الدالة على نبوتك؟ أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمين؟ يحكمُ بينك وبين أهلِ التكذيب. وإذا قيل: إن الخطابَ للإنسان، ينبغي أن يُذهبَ إلى الالتفات، لما سبقَ من قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ويُجعلُ الباءُ للتسبيب، لأن الإنسانَ هو المكذب، والمعنى: أيها الإنسان، ما الذي يلجئُك^(١) إلى أن تكونَ كاذباً بسببِ تكذيبِ الجزاء. وفي الكلامِ تعجبٌ وتعجيبٌ؛ وذلك أنه تعالى لما قرَّرَ أنه خلقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويم، ثم ردهَ إلى أرذلِ العمر، دلَّ على كمالِ قدرته على الإنشاءِ والإعادة، فسألَ بعد ذلك عن سببِ تكذيبِ الإنسانِ بالجزاء، لأن ما يتعجبُ منه يُخفي سببه، وهذا كما ترى ظاهرٌ جليٌّ، وإليه الإشارةُ بقوله: «فما سببُ تكذيبك أيها الإنسانُ بالجزاء، بعد هذا الدليلِ القاطع؟»، وعلى هذا قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخٰكِمِينَ﴾، وعيدٌ للكفار، وأنه يحكمُ عليهم بما هو أهلُه.

قوله: (قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»)، الحديثُ من رواية الترمذي وأبي داود، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ منكم ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾، فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخٰكِمِينَ﴾، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»^(٢).

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) في (ح): «بعجبك».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٤٧) وأبو داود (٨٨٧).

سورة العلق

مكية، وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَلَمْ نَكُ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَهُ الْقَلَمَ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ١-٥].

عن ابن عباسٍ ومجاهد: هي أولُ سورةٍ نزلتُ،

سورة العلق

مكية، وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (هي أولُ سورةٍ نزلتُ)، عن الإمام أحمدَ والبخاري ومسلم والترمذي، عن يحيى ابن أبي كثير، قال: سألتُ أبا سلمةَ عن أولِ ما نزلَ من القرآن. قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ﴾. قلتُ: يقولون: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؟ قال: سألتُ جابراً عن ذلك، فقلتُ له مثل الذي قلتُ لي. فقال: ما أحدثك إلا ما حَدَّثنا رسولُ الله ﷺ، إلى قوله: فنزلتُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ﴾^(١). وفي رواية عن البخاري ومسلم، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عنها في حديثٍ «في بدءِ الوحي»، هو «اقرأ باسمِ ربِّك

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢) ومسلم (١٦١).

وأكثرُ المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم. محلُّ ﴿يَاسِرَ رَبِّكَ﴾ النصبُ على الحال، أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك، قل: باسم الله، ثم اقرأ.

فإن قلت: كيف قال: ﴿خَلَقَ﴾ فلم يذكر له مفعولاً، ثم قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾؟

قلت: هو على وجهين: إما أن لا يُقدَّر له مفعولٌ وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالقٍ سواه. وإما أن يُقدَّر ويراد خَلَقَ كلَّ شيء، فيتناول كلَّ مخلوق، لأنه مطلق، فليس بعضُ المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تخصيصٌ للإنسان بالذکر من بين ما يتناوله الخلق؛ لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض.

الذي خلق^(١). ويُمكن أن يقال: إن وَجَهَ التوفيق بين الروایتين، هو أن أول ما بُدئَ به من الأمر بإنشاء القراءة هو ﴿أَقْرَأْ﴾، ومن الأمر بإنشاء الإنذارِ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ * قُرْ فَأَنْذِرْ.

قوله: ﴿مَحَلُّ﴾ ﴿يَاسِرَ رَبِّكَ﴾ النصبُ على الحال، في «الكواشي»: «الباء دخلت لتدل على الملازمة^(٢) والتكرير، كأخذتُ بالخطام وأخذتُ الخطام، أو دخلت لتدل على البداية باسمه تعالى ومحلها حال، أي: اقرأ مبتدئاً باسم ربك».

قوله: ﴿قل: باسم الله، ثم اقرأ﴾، الجملة بيانٌ لقوله: «اقرأ مفتتحاً باسم ربك، ولذلك أُخليت من العاطف».

قوله: (لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض)، يعني: هذا من باب قوله: ﴿وَمَلَأْتِكُمْ مِنْهُ رُسُلَهُمْ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، لكن تقييده الأشرف بقوله: ﴿مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾، إيباءً إلى تفضيل الملائكة. وقال القاضي: «الذي خلق كلَّ شيء، ثم أفرده ما هو أشرف وأظهر صنْعاً وتديراً»^(٣). وقال صاحبُ «الكشف»: «خصص بعد التعميم؛ فهو

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣) و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) في (ح): «الملائكة».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٠٩).

ويجوزُ أن يراد: الذي خلق الإنسان، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: ١-٣] ف قيل: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ مبهماً، ثم فسره بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تفخيماً لخلق الإنسان، ودلالة على عجبِ فطرته.

كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ فالغيبُ عامٌ لكل ما غابَ عنا، ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وعكسه قول الشاعر:

وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبْطِئَ حَاسِدٌ أَوْ أَنْ يَلُومَ لِحَاجَةِ لُؤَامِهَا^(١)

ألا ترى أن اللومَ أعمُّ من التبطئة، لأن التبطئة نسبُ قوم إلى البُطءِ وهو بعضُ اللوم. أن يُبْطِئَ: أي لأن يُبْطِئَ. وقلت: إنما علل تخصيص الإنسان بالذكر بقوله: «لأن التنزيل إليه»، لأن الأمر بقراءة المنزل مرتب على وصف الله عز وجل بخلق الأشياء، ثم تخصيص خلق الإنسان، وذلك لأنه هو المشرفُ بأن التنزيل إليه.

قوله: (خلق الإنسان)، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: ١-٣]، عن بعضهم: إنه استشهد به من حيث إن خلق الإنسان خلق عظيم. وقلت: تقريره أن قوله ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ كقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، في أن المراد منه خلق الإنسان فأبهم، كما أن المراد من قوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾: عَلَّمَ الْإِنْسَانَ الْقُرْآنَ. ثم قيل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾: تفسيرٌ أو بيانٌ للمجمل، كما قيل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤] كذلك، والفاء في قوله: «فقيل: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾»، عطفٌ ما بعدها بقوله: «يراد»، وما توسطَ بينها اعتراض. ويمكن أن يقال: إنه إذا جعلت الصلة ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، كان القصدُ في علة القراءة هو

(١) البيت للبيد من معلقته الشهيرة، وجاء هنا ملفقاً من بيتين، قال لبيد:

أقضي اللبانة لا أفرط ريبة أو أن يلوم بحاجة لؤامها
وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يَبْطِئَ حَاسِدٌ أو أن يميل مع العدو لثامها

فإن قلت: لم قال ﴿مِنْ عَلَيَّ﴾ على الجمع، وإنما خُلِقَ من عَلَقَةٍ، كقوله: ﴿مِنْ نُفُوسِهِ﴾
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ؟

قلت: لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].
﴿الْأَكْرَمُ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، يُنعمُ على عباده النعم التي لا تُحصى، ويحلّم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كُفْرهم وجُحودهم لنعمه وركوبهم المناهي واطّراحهم الأوامر، ويقبلُ توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فمن لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكراً، حيث قال: ﴿الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فدلّ على كمال كرمه بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم،

خُلِقَ الإنسان، كأنه قيل: اقرأ لأجل أنه خلقتك للقراءة كما قال نَمّة، وأخر ذكر ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ عن ذكره، ثم أتبعه إياه ليُعلم أنه إنما خَلَقَهُ للدين، وليحيط به علماً بوحيه وكتبه.

قوله: ﴿الْأَكْرَمُ﴾: الذي له الكمال في زيادة كرمه، الكواشي: «الأكرم: الذي لا يوازيه كريم، ولا يعادله في الكرم نظير. أو أكرم بمعنى كريم». وقوله: «ينعم على عباده» بيان للجملة الأولى.

قوله: (حيث قال: ﴿الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾)، يعني لَمَّا أُطلق ﴿الْأَكْرَمُ﴾ وأبرزه في معرض «أفعل»، ليدلّ على الكمال في زيادة الكرم^(١)، وعلى الأنعام التي لا تُحصى، ثم أردفه بقوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، وجعله توطئة وتمهيداً لقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، علّم أن ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية^(٢) تكراً، وفي ذكر بدء حال الإنسان وأخسها وهو كونه عَلَقَةً، وانتهاء حاله وهو صيرورته عالماً، وإيصاله إلى أعلى المراتب، غاية الامتنان. يعني: كان ذليلاً مهيناً، فاقتضى كرم الربوبية إلى ارتقائه ذروة العزّ والشرف بفضلِهِ ولُطفِهِ، ثم في جعلِ ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، توطئة إدماج وتنبية على فضلِ علمِ الكتابة.

(١) في (ح): «القدر».

(٢) في (ف): «العملية».

وَنَبَّهَ عَلَى فَضْلِ عِلْمِ الْكِتَابَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ، وَمَا دُونَتْ الْعُلُومُ وَلَا قُيِّدَتْ الْحِكْمُ وَلَا ضُبُطَتْ أَحْبَابُ الْأَوَّلِينَ وَمَقَالَتُهُمْ، وَلَا كُتِبَ اللَّهُ الْمَنْزِلَةُ إِلَّا بِالْكِتَابَةِ؛ وَلَوْلَا هِيَ لَمَا اسْتَقَامَتْ أُمُورُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَلَى دَقِيقِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَلَطِيفِ تَدْبِيرِهِ دَلِيلٌ إِلَّا أَمَرَ الْقَلَمَ وَالخَطَّ، لَكَفَى بِهِ. وَلِبَعْضِهِمْ فِي صِفَةِ الْقَلَمِ:

وَرَوَاقِمِ رُقُشٍ كَمَثَلِ أَرَاقِمِ قُطْفِ الْخُطَا نِيَالَةَ أَقْصَى الْمَدَى
سُودِ الْقَوَائِمِ مَا يَجِدُ مَسِيرُهَا إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بِيضُ الْمَدَى

وقرأ ابن الزبير: (عَلَّمَ الْخَطَّ بِالْقَلَمِ).

[﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَنْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا نُطِيعُه وَأَسْجُدُ وَأَقْتَرِبُ ﴾ ٦-١٩]

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يُذكر لدلالة الكلام عليه ..

قوله: (ولبعضهم في صفة القلم)، قيل: يعني به نفسه. قُطْفُ الْخُطَا: ضَيْقَةُ الْخُطَا. الرُّقُشُ كالتَّقَشُّ، والرُّقُشُ جمعُ الرَاقِشِ. والأَرَاقِمُ جمعُ أَرَقَمٍ، وهي حِيَّةٌ فِيهَا سَوَادٌ وَبِيضٌ. وَرَوَاقِمُ مِنَ الرَّقْمِ وَهُوَ الْكِتَابَةُ. وَالْمَدَىُّ جمعُ الْمُدْيَةِ وهي السُّكَيْنُ العَرِيضُ. يَقُولُ: رَبُّ أَقْلَامٍ مَنْقُوشَةٌ، كَمَثَلِ الأَرَاقِمِ، مِتْقَابَرَةُ الْخُطُوةِ، لَا تَجِدُ فِي السِّرِّ إِلَّا إِذَا قَطَعْتَهَا السُّكَيْنُ.

قوله: (ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه)، الباءُ في «بنعمة الله» صلةٌ «كفر» و«بطغيانه»، ومثلها: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ.

قوله: (وإن لم يُذكر لدلالة الكلام عليه)، أي: وإن لم يُذكر الكافر بنعمة الله الطاغية على ربه، فإن الكلام السابق دلَّ على أنه تعالى خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْعَلَقَةِ، ثُمَّ عَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، فَرَفَعَهُ مِنْ حَضِيضِ الْخِيسَةِ إِلَى يَفَاعِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ،

﴿أَنْ رَأَاهُ﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني وعلمتني، وذلك بعض خصائصها. ومعنى الرؤية: العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين. و﴿أَسْتَفَى﴾ هو المفعول الثاني ﴿إِنَّ إِلَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان، تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان. والرُّجعى: مصدرٌ كالْبشرى بمعنى الرجوع. وقيل: نزلت في أبي جهل، وكذلك ﴿أَرَاهَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾. وروى: أنه قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكة فضةً وزهبا، لعنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريلُ فقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم. وزوي عنه لعنه الله أنه قال: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فوالذي يحلفُ به، لئن رأيتُه توطأتُ عنقه،

وعلمناه ما لم يعلم، ليشكر تلك النعمة الجليلة، فطغى وكفر، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَاهُ * اسْتَفَى﴾. وكذلك اللاحق وهو التعليل بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَاهُ * اسْتَفَى﴾، فيقدّر بعد قوله ﴿مَا لَمْ يَمَمْ﴾، ما يصح أن يكون ﴿كَلَّا﴾ ردعاً له. فعلى هذا، يحسن الوقف على ﴿كَلَّا﴾. وفي «الكواشي»: «يجوز أن يكون ﴿كَلَّا﴾ تنبيهاً فيقف على ما قبلها، وردعاً فيقف عليها». وفي «المرشد»: «الوقف على ﴿مَا لَمْ يَمَمْ﴾ تام. قالوا: أول ما نزل من القرآن هذه السورة، فلما بلغ هذا الموضع جبريل طوى النمط، فحكى الفراء بأنه وقف تام، لقطع جبريل عليه السلام الكلام عنده، ولأن الكلام تام لا يحتاج إلى غيره»^(١).

قوله: (وزوي عنه لعنه الله)، أي عن أبي جهل. الحديث مختصر من رواية الإمام أحمد ابن حنبلٍ والبخاري عن أبي هريرة^(٢).

قوله: (قال: فوالذي يحلفُ به)، أي: فوالذي يحلفُ به أبو جهل. قال المصنف: «يخفي الراوي حلفه، كي لا يذكر اللات والعزى الذي يحلفُ به».

(١) «المرشد في الوقف والابتداء» (٤: ٨٦٠) للذهبي.

(٢) انظر: «المسند» (٨٨٣١) للإمام أحمد، وتامم تخريجه ثمة.

فجاءه ثم نَكَصَ على عَقْبِيهِ، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم، فقال: إن بيني وبينه لخذقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباده الله عن صلاته، إن كان ذلك الناهي على طريقةٍ سديدةٍ فيما ينهى عنه من عبادة الله،

قوله: (وهولاً وأجنحةً)، أي: أولي أجنحةً، وهم الملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ [فاطر: ١]. وفي الحديث: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم»^(١).

قوله: (ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباده الله)، قال الإمام: «أرأيت إن كان على الهدى، خطاب لمن؟ فيه وجهان: أحدهما: أنه خطاب للنبي ﷺ، ولو جعلناه لغيره لاختلَّ النَّظْمُ، لأن ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الأولى والثالثة خطاب له، كأنه تعالى يقول: أيها الرسول، أرأيت إن كان على هدى واختار الرأي الصائب والاهتداء والأمر بالتقوى، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن حديثه؟ أي: تلهف عليه أنه كيف قوت على نفسه المراتب العالية.

وثانيهما: أنه خطاب للكافر، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم، والمولى القائم بين يديه المظلوم والظالم، والحاكم الحاضر عنده المدعى والمدعى عليه، يُخاطبُ هذا مرةً وهذا مرةً، فلما خاطب النبي ﷺ بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾، التفت إلى الكافر وقال: أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى، ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى، أأنهاه مع ذلك؟»^(٢).

وقلت: بناءً الكلام على «إن» الشرطية، وعلى التنكير في ﴿عَبْدًا﴾ معلوم، لأنه الرسول ﷺ، دل على أن المقام مقام إرخاء العنان والكلام المنصف. ولذلك خصَّ المصنف لفظ «البعض» أولاً في قوله: «بعض عباده الله»، وقال كما يعتدُّ ثانياً، ثم ثلث بقوله: «كما نقول نحن»؛ فحينئذ الواجب أن يكون المخاطب بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾، غير النبي ﷺ وغير الكافر، لقوله: «أخبرني عمن ينهى بعض عباده الله»، فإن الناهي والمنهيَّ خارجان عن مورد

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥) و(٣٥٣٦)، والنسائي (١٥٨) من حديث صفوان بن عسال.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٢٢) بتصرف.

أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتوحي عن الدين الصحيح كما نقول نحن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ وَيَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِ مِنْ هُدَاهُ وَضَلَالِهِ فِيجَازِيهِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ. وهذا وعيد.

فإن قلت: ما متعلق رأيت؟

قلت: الذي ينهى مع الجملة الشرطية، وهما في موضع المفعولين.

فإن قلت: فأين جواب الشرط؟

قلت: هو محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، ألم يعلم بأن الله يرى. وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قلت: فكيف صحَّ أن يكون ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ جواباً للشرط؟

الخطاب، فكأنه تعالى يجعل الغير حاكماً بين أهل الحق وأهل الباطل، ويهضم من حق أهل الحق، ويقول: أيها الحاكم، أخبرني عمن يزعم أنه على الحق، وينهى عبداً من عبادة الله عن عبادة الله وطاعته، لا أقول إنه رسول الله وصفوته من خلقه، بل هو بعض خلقه، أو يأمره بعبادة الأوثان، ويعتقد أنه أمر بالمعروف والتقوى. وأخبرني أيضاً عما نقول نحن: إن ذلك الأمر والنهي حاصل على التكذيب للحق والتوحي عن الدين الصحيح، فما حكمك في ذلك؟ قال بعضهم: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وأختاها متوجهات إلى ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾، وهو مقدر عند الأولين، وترك إظهاره اختصاراً، كما في قوله: ﴿ءَأَتَوْكَ أَفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]. مثاله أن تقول: أخبرني عن زيد إن وفدت عليه، أخبرني عنه إن استخبرته عنه، أخبرني عنه إن توصلت إليه، أما يوجب حقي؟

قوله: (تقديره: ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أو أمرًا بالتقوى)، يعني: الشرط قوله: ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾،

وجزاؤه ما دلَّ عليه جزاء الشرط الثاني، وهو ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾، وترك ذكره اختصاراً.

قوله: (فكيف صحَّ) أي: كيف صحَّ أن يكون الاستفهام^(١) جزاءً للشرط؟ وخلاصة

(١) أي: ألم يعلم.

الجواب أن الاستفهام دخل^(١) بين الشرط والجزاء مؤكدة مقررة للتعجب. قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾؟ [الزمر: ١٩]: «الهمزة جاءت مؤكدة معادة بين المبتدأ المتضمن للشرط، وبين الخبر للطول»^(٢)؛ فعلى هذا، لا يقال: إن أكرمك، أكرمني؟ إلا مع من استمر معه الإكرام، واستمر منه عدم المبالاة.

فإن قلت: ذكر أن ﴿الَّذِي يَنْهَى﴾ مع الجملة الشرطية، هما في موضع المفعولين، لأنها مبتدأ وخبر، والخبر شرط وجزاء. هذا صحيح في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الأولى. وأما الثالثة، فليس فيها سوى الجملة الشرطية، وقد تقرر أنه لا يُحذف المفعول الأول، إلا إذا كان الفاعل والمفعولان شيئا واحداً، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، على القراءة بالياء التحتانية^(٣)، أي: لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم في سبيل الله أمواتاً. وإنما جاز الحذف لأنه في الأصل مبتدأ، فيحذف كما يُحذف المبتدأ، لكن بذلك الشرط. قلت: إنما لم يحذف المفعول الأول للإلباس. فأما إذا قامت قرينة، نحو كون الفاعل والمفعولين شيئاً واحداً، وثم قرينة ظاهرة تدل على المحذوف، كما نحن بصدد من تصريحه بالقرينة الأولى، فما المانع من الجواز؟ وقد سبق عن المالكي وصاحب «التحفة» في سورة «القصص» جواز ذلك^(٤)، على أن ﴿أَرَأَيْتَ﴾ استخباراً ومتعلقه الجملة الشرطية. وفاعل ﴿كَذَّبَ﴾ ضمير راجع إلى الناهي والأمر، فلا يحتاج إلى شيء آخر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ كُلسًا أَعْبَدْتُمْ عِندَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠]، في وجهه.

(١) أي: همزة الاستفهام دخلت.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٩).

(٣) قراءة هشام، انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني، ص ٩١.

(٤) قال صاحب «التحفة»: «يجوز الاقتصار في باب كسوت على أحد المفعولين بدليل وبغير دليل، لأن الأول فيهما غير الثاني، وأجاز بعضهم حذف الأول إذا كان هو الفاعل معني، نحو قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ [النور: ٥٧]، أي: ولا يحسبن الذين كفروا إياهم معجزين. نقلنا عن «روح المعاني» (١٠: ٣٠٧) للالوسي؛ قاله في تفسير الآية (٦٢) من سورة القصص.

قلت: كما صحّ في قولك: إن أكرمك أتكرمني؟ وإن أحسن إليك زيد هل تُحسنُ إليه؟

فإن قلت: فما «أرأيت» الثانية وتوسطها بين مفعولي «أرأيت»؟

قلت: هي زائدة مكررة للتوكيد. وعن الحسن أنه أُميَّة بنُ خلفٍ كان ينهى سلمانَ عن الصلاة. ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لأبي جهلٍ وخسوءٌ له عن تهنئه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات، ثم قال: ﴿لِنَ تَرَبُّنِي﴾ عما هو فيه، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذنٌ بناصيته ولنسحبته بها إلى النار. والنسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. قال عمرو بن معديكرب:

قَوْمٌ إِذَا يَقَعُ الصَّرِيخُ رَأَيْتَهُمْ
مِنْ بَيْنِ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ

قوله: (وأمره بعبادة اللات)، إشارة إلى تفسيره لقوله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالنَّقْوَى﴾ على زعمه كما قال: «أمرًا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد».

قوله: (قَوْمٌ إِذَا نَقَعَ^(١) الصَّرِيخُ) البيت^(٢)، النَّقْعُ: الصُّرَاخُ، وَنَقَعَ الصَّوْتُ وَاسْتَنَقَعَ، أَي: ارتفع إذا صَوَّتَ المصَوِّت. ويروى:

إِذَا فَرَعُوا الصَّرِيخَ

والفزع: الرُّعْبُ والثُّصْرَةُ أيضاً، والصَّرِيخُ والصَّارِحُ: المستغيث، والمهرُ: الفَتِيٌّ من الخيل، أو سَافِعٌ: أي آخذٌ بناصية فرسه بالسرعة من غير لجام. الراغب: «النَّسْفَعُ: الأَخْذُ بِسُفْعَةِ الفرس، وهي سوادُ ناصيته، قال تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]. وباعتبار السواد يقال للأثافي: سُفِعَ، وبه سُفْعَةٌ غضب، اعتباراً بما يعلو من اللون الدخاني وَجْهَ مَنْ اشْتَدَّ غَضَبُهُ»^(٣). يصفُ القومُ بأنهم يُغِيثُونَ المستغيثَ بسرعةٍ وَيَنْصَرُونَ، وبعضهم يُلْجِمُونَ الخيل، وبعضهم يأخذون ناصية الخيل ولا يُلْجِمُونَ.

(١) في (ف): «يقع»، كما أورده المصنف، ورواية الديوان: قومٌ إذا سمعوا.

(٢) للشاعر حميد بن ثور الهلالي، لا لعمرو بن معدي كرب كما أورده المصنف. انظر: «ديوان حميد»، ص ١١١.

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٤١٣.

وقرى: (لنفسعن) بالنون المشددة. وقرأ ابن مسعود: (لأسفعا). وكتبها في المصحف بالألف على حكم الوقف، ولما علم أنها ناصية المذكور اكتفي بلام العهد عن الإضافة. ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من «الناصية»؛ جاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة؛ لأنها وُصفت فاستقلت بفائدة. وقرئ: (ناصية) على: هي ناصية، و(ناصية) بالنصب، وكلاهما على الشتم. ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي، وهما في الحقيقة لصاحبها. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطيء. والنادي: المجلس الذي يتندي فيه القوم، أي: يجتمعون. والمراد: أهل النادي. كما قال جرير:

لَهُمْ مَجْلِسٌ صُهِبَ السَّبَالِ أَدْلَةٌ

قوله: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من «الناصية» إلى قوله: (وُصِفَتْ فاستقلت بفائدة)، قال ابن الحاجب: «سئلت: لم جمع بين ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ * نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، فهلا اقتصر على إحداهما؟ فأجبت: أن الأولى ذُكرت للتنصيص على ناصية الناهي، والثانية ذُكرت تنبيهاً على علّة السّفْع، ليشمل بظاهره على كل ناصية هذه صفتها»^(١).

قوله: (ووصفها بالكذب والخطأ)، قال الزجاج: «تأويله: بناصية صاحبها كاذب، كما يقال: نهاره صائمٌ وليله قائم، أي: هو صائمٌ في نهاره وقائمٌ في ليله»^(٢). وقلت: والمبالغة فيه أن الكافر بلغ في الكذب والخطأ، إلى حيث إن الكذب والخطأ ظاهراً من ناصيته، على نحو قولهم: وجهه نصفُ الجمال.

قوله: (لهم مجلسٌ صُهِبَ السَّبَالِ أَدْلَةٌ)، أي: لهم أهلٌ مجلس. الأساس: «شعرٌ أصهبٌ: بينٌ

(١) لم أقف على شرح ابن الحاجب على «كافية»، وهو من تحقيق المغفور له الدكتور جمال مخيمر في رسالته للدكتورة، قال ابن الحاجب في «الكافية» عن المبدل والمبدل منه: «ويكونان معرفتين ونكرتين ومختلفتين، وإذا كان نكرةً من معرفة، فالنعت مثل «بالناصية ناصية كاذبة». انظر: «شرح الكافية» (٢: ٤٠٤) للإسترابادي.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٤٥).

وقال زهير:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَانٌ وَجُوهُهُمْ

والمقامة: المجلس. روي أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنك؟ فأغظ له رسول الله ﷺ؛ فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً، فنزلت. وقرأ ابن أبي عملة: (سَيُدْعَى الزبانية) على البناء للمفعول، والزبانية في كلام العرب: الشُرطُ، الواحد، زِبْنِيَّةٌ، كِعِفْرِيَّةٍ، من الزَّين وهو الدَّفْعُ.

الصُّهْبِيَّةُ، وهو حمرة في سواد. ومن المجاز: «هُوَ أَصْهَبُ السَّبَالِ» للعدو، قال ابن قيس الرقيات:

وظلالُ السِّوْفِ شَيَّبَنَ رَأْسِي واعتناقِي في الحربِ صُهِبَ السَّبَالِ^(١)

قال الميداني: «صُهِبُ السَّبَالِ: كناية عن الأعداء، قال الأصمعي: صُهِبُ السَّبَالِ وسودُ الأكبادِ، يُضْرَبَانِ مثلاً للأعداءِ وإن لم يكونوا كذلك»^(٢)، وأنشد البيت.

قوله: (رُوي أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ)، الحديث أخرجه الترمذي عن ابن عباس، مع تغيير يسير^(٣).

قوله: (زِبْنِيَّةٌ كِعِفْرِيَّةٍ)، قال الأخفش: «قال بعضهم: الواحدُ: زباني، وبعضهم: زابن، وبعضهم: زِبْنِيَّةٌ. قال: والعربُ لا تكادُ تعرفُ هذا، وتجعله من الجمع الذي لا واحد له، مثل: أباييل»^(٤). وقال الجوهرى: «قال أبو عبيدة: العِفْرِيَّةُ من كلِّ شيءٍ: المبالغ. يقال: فلانٌ عِفْرِيَّةٌ نَفْرِيَّةً، وعِفْرِيَّةٌ نَفْرِيَّةً، وفي الحديث: «إنَّ اللهَ يَبْغِضُ العِفْرِيَّةَ النَّفْرِيَّةَ، الذي لا يُرْزَأُ في أهلٍ ولا مالٍ». والعِفْرِيَّةُ: المُصَحَّحُ، والنَّفْرِيَّةُ إتياع».

(١) انظر: «ديوانه»، ص ١١٣.

(٢) «مجمع الأمثال» (١: ٣٩٥).

(٣) انظر: «سنن الترمذي» (٣٣٤٩).

(٤) «معاني القرآن» (٢: ٥٤١) للأخفش.

وقيل: زَبْنِي، وكأنه نُسِبَ إلى الزَّيْنِ، ثم غُيِّرَ للنسب، كقولهم إِمْسِي؛ وأصله: زَبَانِي، فقيل: زَبَانِيَّةٌ على التعويض؛ والمراد: ملائكةُ العذاب. وعن النبي ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً» ﴿كَلَّا﴾ ﴿رَدْعٌ لَأَبِي جَهْلٍ﴾ ﴿لَا نَطْعَمَهُ﴾ أي أثبت على ما أنت عليه من عِضْيَانِهِ، كقوله: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [القلم: ٨]. (وَاسْجُدْ) ودُمُّ على سجودك، يريد: الصلاة (وَاقْتَرِبْ) وتَقَرَّبْ إلى ربك. وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبدُ إلى ربه إذا سَجَدَ».

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة العلق، أُعطي من الأجرِ كأننا قرأ المفصل كله».

قوله: (وفي الحديث)، عن مسلم وأحمد، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء»^(١). وعن مسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي، عن معدان^(٢) بن طلحة قال: لقيتُ ثوبانَ مولى رسول الله ﷺ، فقلت: أخبرني بعملٍ يُدخلني الله به الجنة، فقال: سألتُ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجدُ لله سجدةً إلا رفَعَكَ اللهُ بها درجةً، وحوطَ عنكُ بها خطيئةً»^(٣)، والله أعلم.

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى

* * *

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) والإمام أحمد (٩٤٦١).

(٢) في الأصول الخطية: «سعدان».

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٨) والترمذي (٣٨٨) والنسائي (١١٣٩) وابن ماجه (١٤٢٢).

سورة القدر

مختلف فيها، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَلِمَةَ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ] ﴿١-٥﴾.

عَظَمَ الْقُرْآنُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: أَحَدُهَا: أَنْ أَسْنَدَ إِنْزَالَهُ إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ مَخْتَصَبًا بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ جَاءَ بِضَمِيرِهِ دُونَ اسْمِهِ الظَّاهِرِ شَهَادَةً لَهُ بِالنَّبَاهَةِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ. وَالثَّلَاثُ: الرَّفْعُ مِنْ مَقْدَارِ الْوَقْتِ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ.

سورة القدر

مكية، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ: (وَجَعَلَهُ مُخْتَصَبًا بِهِ)، يُرِيدُ أَنْ التَّرْكِيْبَ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْفَاعِلِ الْمَعْنَوِيِّ، نَحْوُ: أَنَا كَفَيْتُ مَهْمَمَكَ، أَنَا قَضَيْتُ حَاجَتَكَ. وَفِي إِثَارِ صِبْغَةِ الْجَمْعِ تَعْظِيمٌ دُونَهُ كُلُّ تَعْظِيمٍ.

قَوْلُهُ: (الرَّفْعُ مِنْ مَقْدَارِ الْوَقْتِ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ)، فِيهِ لَطِيفَةٌ، حَيْثُ قَالَ أَوَّلًا: «عَظَمَ الْقُرْآنُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ»، ثُمَّ قَالَ: «الرَّفْعُ مِنْ مَقْدَارِ الْوَقْتِ». وَالظَّاهِرُ الرَّفْعُ مِنْ مَقْدَارِهِ حَيْثُ أَنْزَلَهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَعَدَلَ لِيُؤَدِّنَ بِأَنَّ اللَّيْلَةَ شَرُفَتْ بِنَزْوَلِهِ فِيهَا، وَصَارَتْ ذَاتَ خَطِرٍ

روي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. وأمله جبريل على السفرة، ثم كان يُنزل على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة. وعن الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. واختلفوا في وقتها؛ فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر القول أنها السابعة منها؛ ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحبي من يريد لها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها، فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وأن لا يتكلم الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفترطوا في غيرها.

وشرف، فيلزم شرفه وخطره بالطريق الأولى، ثم ترقى في الرفع من مقدارها بقوله: ﴿وَمَا آدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، ثم إلى أعلى بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، ثم إلى أعلى بقوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾.

قوله: (روي أنه أنزل جملة واحدة)، فإن قلت: ذكرت في شرح الخطبة أن الإنزال عبارة عن تحريك الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهو مختص بالأجرام فلا يتحقق في الكلام، فوصف بصفة حامله^(١) للتباسب به. وهذا المجاز إنما يستقيم في إنزال جبريل عليه السلام القرآن على النبي ﷺ، فكيف يستقيم إنزاله من اللوح إلى السماء، لأن ذلك من غير واسطة؟ قلت: الإنزال حينئذ مستعار للمعاني من الأجرام؛ شبه نقل القرآن من اللوح إلى السماء وثبوته فيها، بنزول جسم من علو إلى أسفل، وقيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. وعلى هذا ظهوره في عالم الشهادة، أعني اللوح، من عالم الغيب الذي هو العالم الأعلى^(٢)، يمكن أن يفسر^(٣) بالنزول؛ فعلى الأول هو مجاز مرسل، وعلى الثاني مجاز مسبوq بالتشبيه.

قوله: (على أنها في شهر رمضان)، روي عن مسلم والترمذي وأبي داود، عن زر بن حبيش، قال: سمعتُ أبي بن كعب يقول، وقيل له: إن عبد الله بن مسعود يقول: «من قام السنة أصاب ليلة القدر». فقال أبي: «والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان، يخلف ولا

(١) في (ح): «حاصلة».

(٢) في (ح): «الإلهي».

(٣) في (ف): «يُفسر».

ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها، من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وقيل: سُميت بذلك لخطرها وشرها على سائر الليالي، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ يعني: ولم تَبْلُغِ دِرَايَتِكَ غَايَةَ فَضْلِهَا وَمُنْتَهَى عُلُوِّ قَدْرِهَا، ثم يَبَيِّنُ ذَلِكَ بِأَنَّهَا ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكَّرها؛ من تَنْزُلِ الملائكة والرُّوح، وفَضْلِ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. ودُكِّرَ فِي تَخْصِيصِ هذه المدة أن رسولَ الله ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَبَسَ السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلْفَ شَهْرٍ، فَعَجِبَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ ذَلِكَ،.....

يستثنى، والله إني لأعلم^(١) أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين». الحديث^(٢).

قوله: (ليلة تقدير الأمور)، نقل الإمام عن الواحدي أن القدر في اللغة بمعنى التقدير، وهو جعل الشيء على مقدار غيره من غير زيادة ولا نقصان. وقال: «سُميت به لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام. عن ابن عباس، أن الله تعالى قدر فيها كل ما يكون في تلك السنة، من مطرٍ ورزقٍ وإحياءٍ وإماتةٍ إلى السنة القابلة، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وليس المراد أن تقدير الله لا يحدث إلا في تلك الليلة؛ فإنه تعالى قدر المقادير في الأزَلِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلِ الْمُرَادُ إِظْهَارُ تِلْكَ الْمَقَادِيرِ لِلْمَلَائِكَةِ»^(٣).

قوله: (وقيل: سُميت بذلك لخطرها)، نقل الإمام عن الزهري أنه قال: «ليلة القدر ليلة العظمة والشرف؛ من قولهم: لفلان قدر عند فلان، أي: منزلة وشرف، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. وهو يحتمل أن يراد منه، أن من أتى بفعل الطاعات صار ذا قدر وشرف، أو أن الطاعات لها في تلك الليلة قدر زائد وشرف. وعن أبي بكر الوراق: سُميت ليلة القدر، لأنه نُزِّلَ فِيهَا كِتَابٌ ذُو قَدْرٍ، عَلَى لِسَانِ مَلَكٍ ذِي قَدْرٍ، عَلَى أَمَةٍ لَهَا قَدْرٌ»^(٤).

(١) في (ج): «لا أعلم»، وليس بصواب.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩-٧٦٢) والترمذي (٣٣٥١) وأبو داود (١٣٧٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٢٨)، وانظر: «الوسيط» (٤: ٥٣٢)، و«البيسط» (٢٤: ١٩٠) كلاهما للواحد.

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٢٨).

وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يُسمَّوا عابدين من أولئك العباد. ﴿نَزَّلُ﴾ إلى السماء الدنيا، وقيل: إلى الأرض، ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل. وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة، ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: تنزل من أجل كل أمر قضاءه الله لتلك السنة إلى قابل. وقرئ: (من كل أمر) أي: من أجل كل إنسان. وقيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلّموا عليه في تلك الليلة. ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة، أي: لا يُقدَّرُ الله فيها إلا السلامة والخير، ويُقضى في غيرها بلاءً وسلامةً. أو: ما هي إلا سلامٌ لكثرة ما يُسلّمون على المؤمنين. وقرئ: ﴿مَطَّلَعٌ﴾ بفتح اللام وكسرها.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة «القدر»، أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».

قوله: (ما هي إلا سلامة)، يريد أن ﴿هِيَ﴾ مبتدأ و﴿سَلَّمَ﴾ الخبر، فقدم وجعل نفس السلام لإعطاء معنى الاختصاص. قال صاحب «الكشف»: ﴿هِيَ﴾ ابتداء و﴿سَلَّمَ﴾ خبرٌ مقدم، وهو بمعنى الفاعل، أي: هي مُسلّمة. ولا بُد من هذا التقدير ليصح تعليق ﴿حَتَّى﴾ به؛ لأنه إذا حمل على المصدر لم يجز تعليق ﴿حَتَّى﴾ به؛ لأنه لا يُفصل بين الصلة والموصول^(١). ويجوزُ تعليقه بقوله: ﴿نَزَّلُ الْمَلَكِكَةَ﴾، ولا يجوزُ أن تكون ﴿هِيَ﴾ مبتدأ، و﴿حَتَّى﴾ في موضع الخبر، لأنه لا فائدة فيه؛ إذ كلُّ ليلة بهذه الصفة.

قوله: (وقرئ: ﴿مَطَّلَعٌ﴾)، الكسائي: «مَطَّلَعٌ»، بكسر اللام، والباقون: بفتحها. قال الزجاج: «فمن فتح فهو المصدرُ بمعنى الطلوع، يقال: طلَّعَ الفجرُ طلوعاً ومطلعاً. ومن كسر فهو اسمٌ لوقتِ الطلوع»^(٢). وعن بعضهم: ولا يجوزُ أن يراد هنا موضعُ الطلوع. والله أعلم.

تَمَّتِ السُّورَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى

* * *

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٦٧).

(٢) «معاني القرآن وإعراجه» (٥: ٣٤٨).

سورة البينة

مكية، وقيل: مدنية، وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ الْقِيمَةُ * وَمَا نَفَرَ قَلِيلٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِيَ رَبَّهُ * ١-٨].

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي ﷺ: لا ننفكُ مما نحنُ عليه من ديننا.

سورة البينة

مدنية، وهي ثمان آيات^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (لا تَنفَكُ مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ دِينِنَا)، رُوي عن المصنّف أنه قال: (٢) هذا من باب

(١) في (ط): «سورة القيمة... تسع آيات»، وهو موافق لعدّ البصريين والشاميين، والأول موافق لعدّ غيرهم. أما «سورة القيمة» فهو اسم آخر لها.

(٢) لم أهتد إلى موضعه.

ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعودُ الذي هو مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، وهو محمدٌ ﷺ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرَّقهم عن الحق ولا أفرَّهم على الكفرِ إلا مجيءُ الرسولِ ﷺ؛ ونظيره في الكلام أن يقولَ الفقيرُ الفاسقُ لمن يعظه: لستُ بِمُنْفَكٌ مما أنا فيه حتى يرزقني اللهُ الغنى، فيرزقه اللهُ الغنى فيزدادُ فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن مُنْفَكاً عنِ الفسقِ حتى توسر، وما عمَّست رأسك في الفسقِ إلا بعد اليسار؛ يذكُّره ما كان يقولُه توبيخاً وإلزاماً. وانفكاكُ الشيء من الشيء: أن يزيله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفكَّ من مفصله؛ والمعنى: أنهم مُتَشَبِّهون بدينهم ولا يتركونه إلا عند مجيء البينة. و﴿الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة.

الحكاية بزعمهم، وقوله: «وما نفرق الذين أوتوا الكتاب» إلزامٌ عليهم؛ حكى اللهُ كلامهم على سبيل التوبيخ والتعير، وجاء به في بعض النسخ^(١) بدل قوله: «البينة الواضحة»: «والبينة: القرآن، ﴿أولم تأتيم بينة ما في الصحف الأولى﴾ [طه: ١٣٣]، و﴿رسول من الله﴾: جبريل، وهو التالي للصحفِ المطهرةِ المتسخةِ من اللوح، التي ذكرت في سورة «عبس»^(٢)، ولا بد من مضافٍ محذوفٍ وهو الوحي، ويجوز أن يراد النبي ﷺ. فإن قلت: كيف نسب تلاوة الصحفِ المطهرةِ إليه وهو أمي؟ قلت: إذا تلا مثل المسطور فيها كان تالياً، وشرح هذه الرواية قوله: ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾، معناه أن القرآن فيه بيانٌ أو حجةٌ ما في الكتبِ المتقدمة، أو هو مصداقها.

قوله: (التي ذكرت في سورة عبس)، يعني: قوله ﴿فِي صُحُفٍ مَّكْرَمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]، أي: صحفٍ متسخةٍ من اللوح، مكرمةٍ عند الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩].

قوله: (لا بُد من مضافٍ محذوف)، أي: القرآن وحيُّ رسولٍ من الله.

(١) وهو ما ورد في نص «الكشاف» من (ط)، لكنه لم يرد في الأصل الخطي المعتمد من «الكشاف»، وورد في النسختين المطبوعتين منه في الهامش.

(٢) قال تعالى: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مَّكْرَمَةٍ * تَرْفَعُهُ مَطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢-١٦].

و﴿رَسُولٌ﴾ بدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾. وفي قراءة عبد الله: (رسولاً) حالاً من البيئته. ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من الباطل. ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾ مكتوبات، ﴿قِيَمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل؛ والمراد بتفرقهم: تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه، أو تفرقهم فرقاً؛ فمنهم من آمن، ومنهم من أنكروا، وقال: ليس به؛ ومنهم من عرف وعاند.

قوله: (و﴿رَسُولٌ﴾ بدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾)، قال الإمام: «وفائدته الإعلام بأن ذاته كانت بيئته على نبوته؛ لأنه كان في نهاية من الجِدِّ في تقرير النبوة، وفي غاية من الصدق وكمال من العقل. وروي عن حجة الإسلام أن مجموع الأخلاق الفاضلة، كان بالغاً فيه إلى حدِّ الإعجاز، أو أن معجزاته كانت في غاية الظهور والكثرة»^(١). وقلت: الدليل على أن المراد بالبيئته رسول الله ﷺ، قوله: «لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود»، ولعل السر في جعله^(٢) ﴿الْبَيِّنَةَ﴾ توطئة لذكر الرسول، التعريض بهم بقولهم: «النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل»، كما وبخهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾. ولهذا السر أيضاً أفرد ذكرهم عن المشركين في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، كأنهم عيروا بالتفرق وهم أهل الكتاب، لأن جحود العالم أقبح من إنكار الغافل.

قوله: (﴿صُحُفًا﴾: قراطيس ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾)، الراغب: «الصحيفة: المبسوط من الشيء كصحيفة الوجه، والصحيفة التي يكتب فيها، وجمعها صحائف وصُحف، قال تعالى: ﴿تَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾؛ أريد بها القرآن، جعله^(٣) صُحُفًا فيها كتب، من أجل تَصَمُّنِهِ لزيادة ما في كتب الله والمصحف ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة»^(٤). وقال أيضاً: «أراد بقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قِيَمَةٌ﴾، لأن القرآن مجمع ثمرة كتب الله المتقدمة»^(٥).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٤٠)، وانظر «المتخذ من الضلال» للغزالي، ص ٥١؛ حيث قال كلاماً في غاية الأهمية عن النبوة وحقيقتها واضطرار كافة الخلق إليها.

(٢) في (ح): قوله.

(٣) في (ح) و(ف): «جعلها».

(٤) «مفردات القرآن»، ص ٤٧٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٩١.

فإن قلت: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركون أولاً، ثم أفرّد أهل الكتاب في قوله: (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)؟

قلت: لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وُصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي، ولكنهم حرّفوا وبدّلوا،.....

قوله: (إلا بالدين الحنيفي)، كُتِبَ عن مجموع ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى آخره، بالدين الحنيفي. وفي عطف ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، على ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المقيد بالإخلاص، واختصاصهما بالذكر دون سائر العبادات، الدلالة على شرفهما واستبادهما بشرط الإخلاص.

وقال الإمام: «ذلك المجموع كله، هو دين الملة المستقيمة المعتدلة، فكما أن مجموع الأعضاء بدنٌ واحد، كذا هذا المجموع دينٌ واحد. واحتجّ القائلون بأن الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية. وأجيب بأن المشار إليه المجموع، وهو محكوم بأنه الدين القيمة؛ فالدين غير ﴿الدين القيم﴾، لأن الدين القيم هو الدين الكامل المستقل بنفسه، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلًا، وكانت آثاره ونتائجه حاصله معه، من الصلاة والزكاة وغيرهما؛ فإذا لم يوجد هذا المجموع، لم يكن الدين القيم حاصلًا، والنزاع في مجرد الدين»^(١).

فيقال: هذا الجواب ضعيف، لأن «القيمة» على القراءة الشاذة، أي: «وذلك الدين القيمة»^(٢)، صفة^(٣) مميزة فارقة للملة المستقيمة عن المعوجة، وهي غير دين المسلمين، لقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]. وعلى المشهورة: مضافٌ إمّا إلى الملة المستقيمة، أو إلى الأمة القيمة بالحق، إضافة بيان كانه قيل: وذلك دين المسلمين. الراغب: «الدين أعم من الإسلام، إذ هو يستعمل في الحق والباطل. والإسلام لا

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٤٥، ٤٦) بتصرف.

(٢) قراءة ابن مسعود، انظر: «إعراب القرآن» (٥: ١٦٩) لابن النحاس.

(٣) في (ط): «ضعيفة».

﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دينُ الملةِ القيمة. وقرئ: (وذلك الدينُ القِيَمَةُ) على تأويلِ الدينِ بالِمِلَّةِ.

فإن قلت: ما وجهُ قوله: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؟

يستعملُ إلا في الحق^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال: «القيمة هاهنا اسمُ الأمةِ القائمةِ بالقسطِ المشار إليهم بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]»^(٢).

قوله: (أي: دينُ الملةِ القِيَمَةُ)، قال صاحبُ «الكشف»: «لا بُدَّ من هذا التقدير، لأنه إذا لم يُحمَلْ على هذا، كان إضافة الشيء إلى صفته، وهي بمنزلة إضافة الشيء إلى نفسه^(٣)»، قال محيي السنة: «أضافَ الدينَ إلى القيمةِ وهي نعتُه لاختلافِ اللفظين، وأنتَ «الْقِيَمَةُ» ردًّا بها إلى الملة. وقيل: الهاءُ فيها للمبالغة، وقيل: «الْقِيَمَةُ» هي الكتبُ التي جرى ذكرُها، أي: وذلك دينُ الكتبِ القيمةِ فيما تدعو إليه وتأمُرُ به. وقال النضرُ بنُ شميل: سألتُ الخليلَ عنها فقال: «القيمةُ» جمعُ القيمِ، والقيَمُ والقائمُ واحد، ومجازُه: وذلك دينُ القائمين لله بالتوحيد»^(٤).

الراغبُ: «القيمةُ هاهنا: اسمُ الأمةِ القائمةِ بالقسطِ، المشار إليهم بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]»^(٥).

قوله: (ما وجهُ قوله: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؟)، يعني كان من حقِّ الظاهر أن يقال: «بأن يعبدوا الله» بالباء، فما وجهُ الإتيانِ باللام؟ فأجاب بأن صلة الأمرِ محذوفة، واللامُ للتعليل؛

(١) لم أهدئ إلى موضعه، ولعله في «تفسيره».

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٦٩١.

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٦٩).

(٤) «معالم التنزيل» (٨: ٤٩٦، ٤٩٧).

(٥) «مفردات القرآن»، ص ٦٩١.

قلتُ: معناه: وما أمرُوا بما في الكتابين إلا لأجلِ أن يعبدوا الله على هذه الصفة.
 وقرأ ابنُ مسعود: (إلا أن يعبدوا)، بمعنى: بأن يعبدوا.....

فالتقديرُ^(١): «وما أمرُوا بما في الكتابين إلا لأجلِ أن يعبدوا الله»، وهو استثناءٌ من أعمّ عام المفعولِ له المقيّد بقيد الإخلاص، قال الإمام: «هذا يدلُّ على مذهبِ أهلِ السُّنة، حيثُ قالوا: العبادةُ ما وَجِبَتْ لكونها مفضيةً إلى ثوابِ الجنة، أو إلى البُعدِ من عقابِ النار، بل لأجلِ أنك عبدٌ وهو معبود، وفيه أن مَنْ عَبَدَ للثوابِ والعقابِ لم يكن مخلصاً. وفي الحقيقةِ الثوابُ والعقابُ هما معبودان»^(٢). وَرَوَى السُّلَمِيُّ عن بعضهم، «أن الإخلاصَ أَلَا يَطَّلِعَ على عملِكَ إلا الله، ولا ترى نفسَكَ فيه. وتعلّم^(٣) أن المنّةَ لله عليك في ذلك حيثُ أَهْلَكَ لعبادته، ووفّقَكَ لها ولا تطلبُ من الله ثواباً. وعن سهل: نَظَرَ الأكيّاسُ في الإخلاص، وهو أن تكونَ حركاتُ العابدِ وسكناتُهُ في سِرِّهِ وعلانِيتهِ لله تعالى وحده، لا يبازيجُه شيء»^(٤).

قوله: (وقرأ ابنُ مسعود: «إلا أن يعبدوا»، بمعنى: بأن يعبدوا)، قيل: الأولى أن يقال: بمعنى: لأن يعبدوا؛ ليوافقَ القراءةَ المشهورةَ في المعنى؛ وإنما حمّله على ذلك أن مقتضى الظاهرِ هو أن يقال: ما أمرُوا إلا لعبادةِ الله؛ ليكونَ المأمورُ به مذكوراً، وإنما عدلنا عن هذا المعنى في المشهورةِ لوجودِ اللام، وإذ لم تكن اللامُ في هذه القراءة، فليحملَ على ما هو الظاهر، ولذلك سأل: ما وَجِهُ قوله ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؟ أي: الأصلُ أن يقال: بأن يعبدوا الله. وقيل عليه: إنه لما وردَ المشهورةُ على ما ورد، عَلِمَ أن الغرضَ بيانُ أنهم إنما أمرُوا في التوراةِ بما أمرُوا، لأجلِ أن يعبدوا الله بالإخلاص، تحريضاً على الإخلاصِ وعدمِ الإشرافِ في العبادة، فيجبُ أن تُحمَلَ القراءةُ الشاذةُ على المشهورةِ لهذا الغرض.

(١) من قوله: «ما وَجِهُ قوله» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح)، (ف).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٤٣).

(٣) تعلّم بمعنى: اعلم.

(٤) «حقائق التفسير» (٢: ٤١٠).

وقلت: بل الغرض من السياق، إظهار توبيخ أهل الكتاب، والتعني على تعكيس أمرهم، لأن جملة قوله: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الآية، إما حال من فاعل ﴿نَفَرَقَ﴾ مقررّة لجهة الإشكال، أو عطف على جملة قوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، من باب تفويض ترتب الثاني على الأول، على خلاف المقتضى^(١) إلى ذهن السامع. يعني: كان من موجب اتفاق الكتابين، أعني ما معهم، وهذا القرآن المجيد على دين التوحيد، الموافقة مع من يوافقهم فيه ومعاضدته والتفادي عن مخالفته، والتفرق عنهم وهم قد عكسوا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]. وهذا الغرض كما حصل من التعليل بأن قيل: وما أمروا، وإنما قيل: في الكتابين لأجل أن يعبدوا الله مخلصين، قد يحصل من هذا التقرير أيضاً بأن يقال: وما أمروا بما في الكتابين إلا بعبادة الله مخلصين، لا سيما ظاهر عطف ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يناسب الباء. ولذلك قال أبو البقاء في قوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢]: «قيل اللام بمعنى الباء، أو هي زائدة»^(٢).

وقال الزجاج: «فيه وجهان: أحدهما أن يكون التقدير: وأمرنا لنسلم ولأن نقيم، وأن يُحمل على المعنى، لأن المعنى: أمرنا بالإسلام وقيام الصلاة»^(٣).

وقلت: وأما قضية النظم، فإنه تعالى لما عيّر أهل الكتاب والمشركين في تقاعدهم عما وعدوا من أنفسهم، وما كانوا يقولون قبل المبعث: لا ننفك عن ديننا حتى يبعث النبي الموعود، ثم بين ما لهم من الخزي دُنيا والنكال دُنيا وعقبى، وما لأعدائهم من الذين قاموا على ما وعدوا تشويراً لأولئك وتحسيراً لهم، من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ إلى آخر السورة،

(١) في (ح): «مفضي».

(٢) «البيان في إعراب القرآن» (١: ٥٠٨).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٢٦٣). والوجه الثاني أن يكون عمولاً على قوله: ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا﴾ ﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢]؛ أي: يدعونه أن أقيموا الصلاة.

قرأ نافع: (البريئة) بالهمز؛ والقراء على التخفيف. والنبى، والبرية: مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل.....

وَسَطَ^(١) بين الكلامين النعي على أهل الكتاب خاصة، وأظهر أنهم أشدُّ غيًّا وعناداً، حيث خالفوا مع ما يوجب الموافقة، والله أعلم.

قوله: (والقراء على التخفيف)، أي: مُطبِقون متفقون على التخفيف، سوى نافع وابن ذكوان عن ابن عامر. وطعن بقوله: «والنبى، والبرية: بما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل» على قراءة نافع. قيل: الطعن مردودٌ عليه، لأن تخفيف الهمزة في «نبى» و«برية»، إنما يُتصورُ على قولٍ من يقول: إن نبياً مشتقاً من النبأ، والبرية من برأ الله الخلق. وأما من يرى أن النبى من النبوة وهو الارتفاع، والبرية من البرى وهو التراب، فلا مدخل لهما في الهمزة أصلاً، فلا يصحُّ قوله: «استمر تخفيفه ورفض الأصل». ثم لو سُلم أنه من الهمز، فلا يستمر أيضاً، لأنه قد ثبت أنهم يقولون: نبياً وبرية، فكيف يصحُّ دعوى التزام البراءة والترك مع ثبوتها؟ بل نافع مقدّم على جميع القراء، وقد قدّمه الشيخ الشاطبي على القراء كلهم، وقال فيه رحمه الله تعالى:

فأما الكريمُ السَّرُّ في الطَّيبِ نافعٌ فذاك الذي اختارَ المدينةَ منزلاً^(٢)

رُوي أنه كان إذا قرأ القرآن، يفوح طيب المسك من فيه، فقيل له: أتنطيب للقراءة؟ فقال: لا، ولكن رأيت النبي ﷺ في المنام، فتقل^(٣) في في، فكلما قرأت القرآن يفوح ريح المسك من في. قال صاحب «النهاية»: «قيل: إن النبي مشتق من النباوة، وهي الشيء المرتفع، ومنه حديث البراء قال: قلت: ورسولك الذي أرسلت، فردّ عليّ وقال: ونبيك الذي أرسلت. وإنما ردّ ليختلف اللفظان ويجمع له الشأنين: معنى النبوة والرّسالة، ويكون تعديداً للنعمة في الحالين.

(١) جواب «لما» في قوله بداية الفقرة: لما عيّر أهل الكتاب.

(٢) انظر: «إبراز المعاني من حزر الأمانى» لأبي شامة المقدسي، ص ٢٦.

(٣) في (ط)، (ف): فقرأ، وليس بصواب.

وقرى: (خيارُ البرية) جمع خَيْرٍ، كجِيادٍ وطِيابٍ في جمع جَيِّدٍ وطَيِّبٍ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرَأ ﴿لَوْ يَكُنْ﴾، كان يومَ القيامةِ مع خيرِ البريةِ مساءً ومقبلاً».

وقال سيبويه: ليس أحدٌ من العربِ إلا ويقول: تَنبأ مسيلمَةُ بالهمز، غير أنهم تركوا الهمزَ في النبيِّ، كما تركوه في الذَّرِيَّةِ والبريةِ، إلا أهلَ مكةَ فإنهم يَهْمزونها ويخالفون العربَ في ذلك»^(١).

قوله: (وقرى: «خيارُ البريةِ»)، روى ابنُ جنِي أن إماماً لأهلِ مكةَ سَمِعَ يقرأ: «خيار»، فيجوزُ أن يكونَ جمعَ «خَيْرٍ»، فيكسَّرُ فيُعِلُّ^(٢) على: فَعَالٍ، نحو: صائِمٌ وصِيَامٌ^(٣)، وكيسُّ وكياس.

وأن يكونَ جَمْعُ خائِرٍ كقولك: هو خَيْرٌ وأنا خائِرٌ له، وأن يكونَ جمعَ خَيْرٍ الذي هو ضدُّ الشرِّ، كقولك: هذا مَجْبُولٌ مِن خَيْرٍ»^(٤).

خاتمة

قال القاضي في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾: «ذلك المذكورُ من الجزاءِ والرضوانِ لمن خشيَ ربَّه، لأنَّ الخشيَّةَ ملاكُ الأمرِ، والباعثُ على كلِّ خيرٍ»^(٥) وقلتُ: ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

الراغب: «رضا العبدِ عن الله: أن لا يكرهَ ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمراً لأمره، ومُنْتَهياً عن نَهْيهِ، قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، والرضوانُ: الرضا

(١) لابن الأثير، وانظر: «الكتاب» (٣: ٤٦٠) لسيبويه.

(٢) في الأصولِ الخطية: «فَعَلٌ»، وذلك صوابٌ باعتبار الوزنِ الصوتي، وقَبِلُ باعتبار الوزنِ الصرفي.

(٣) في الأصولِ الخطية: صَوْمٌ وصِيَامٌ، حتى تستقيم له العبارة. والصوابُ أن الطيبي نقل عبارة ابن جنِي منقوصةً فاختلَّ المعنى؛ فتمام العبارة: «فيكسَّرُ فيُعِلُّ» على «فَعَالٍ»، كما كُسِّرَ «فاعلٌ» على «فَعَالٍ»،

نحو: صائمٌ وصيامٌ، وقائمٌ وقيامٌ. ونظيره - أي: خيرٌ - كَيْسٌ وكياسٌ.

(٤) «المحتسب» (٢: ٣٦٨).

(٥) «أنوار التنزيل» (٥: ٥١٧).

الكثير. ولَمَّا كَانَ أَعْظَمَ الرِّضَا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، خُصَّ الرِّضْوَانُ فِي الْقُرْآنِ بِمَا كَانَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] (١).

وقال الجُنَيْد: «الرِّضَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ الْعِلْمِ وَالرِّسْوَحِ فِي الْمَعْرِفَةِ، وَالرِّضَا حَالٌ يَصْحَبُ الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَيْسَ مَحَلُّهُ مَحَلُّ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالصَّبْرِ وَالْإِسْفَاقِ، وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَزُولُ عَنِ الْعَبْدِ فِي الْآخِرَةِ. بَلِ السَّعِيدُ يَتَنَعَّمُ بِالرِّضَا فِي الْجَنَّةِ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى يَقُولَ لَهُمْ: بِرِضَائِي أُحْلِكُمْ دَارِي، أَي: بِرِضَائِي عَنْكُمْ رَضِيْتُمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ: الرَّوْحُ وَالرَّاحَةُ فِي الرِّضَا، وَالْيَقِينُ وَالرِّضَا بَابُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ، وَمَحَلُّ اسْتِرْوَاحِ الْعَابِدِينَ» (٢)، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) «مفردات القرآن»، ص ٣٥٦.

(٢) «حقائق التفسير» (٢: ٤١١، ٤١٢) للسُّلَمِيِّ، بِتَصْرُفٍ.

سورة الزلزلة

مختلف فيها، وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَسْنَانًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *] ١-٨.

﴿زِلْزَالَهَا﴾ قرئ بكسر الزاي وفتحها؛ فالمكسور: مصدر، والمفتوح: اسم؛ وليس في الأبنية فعّلال بالفتح إلا في المضاعف.

سورة الزلزلة

مدنية، وهي تسع آيات^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وليس في الأبنية فعّلال بالفتح إلا في المضاعف)، وفي «الكواشي»: «وقد جاء «ناقة جزعال» التي تطلع، و«قسطال» اسم للغبار، وليس من المضاعف. وقيل: أما بهرام وشهرام فعجميان». وأما القهقار فلغة ضعيفة؛ في «الصحاح»: «القَهْقَرُ، بتشديد الراء: الحجر الصلب، وكان أحمد بن يحيى وحده يقول: القَهْقَارُ».

(١) في (ف): «سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، ثمان آيات، مكية، وهو موافق لعدّ المدنيين، والأول موافق لعدّ غيرهم. انظر: «البيان» للداني ص ٢٨٣.

فإن قلت: ما معنى ﴿زَلَزَلَاهَا﴾ بالإضافة؟

قلت: معناه زلزالها الذي تستوجبُه في الحكمة ومشيئة الله، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقيَّ إكرامه، وأهنِ الفاسق إهانته، تريد: ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كلَّه وجميع ما هو ممكنٌ منه. الأثقال: جمعٌ ثقل، وهو متاع البيت، وتحملُ أثقالكم جعلَ ما في جوفها من الدفائنِ أثقالاً لها.

قوله: (الذي ليس بعده)، أي: ليس بعده زلزال، أي: ليس فوقه وأقوى منه.

المغرب: «وقوله: وإن كانَ ليسَ بالذي لا بَعْدَ له^(١)، أي: ليسَ بنهايةٍ في الجودةِ وهو من قولهم: هذا ممَّا ليسَ بعده غايةٍ في الجودةِ والرداءة. وربَّما اختصروا وقالوا: ليسَ بعده، ثم أُدخلَ عليه «لا» التافية للجنس، واستعملَ الاسمَ المتمكَّن^(٢)».

قوله: (أو زلزالها كلَّه)، أي: القدرَ اللائقَ بها ويضافُ إليها. والفرقُ بينه وبينَ الوجهِ السابق، هو أن السابقَ مستندٌ إلى الفاعلِ ومقتضى مشيئته، ومن ثم قال: «زلزالها الذي تستوجبُه في الحكمة». والثاني وإن دلَّ على الشمول، ولكن دون الأولِ في الشدَّة، وفي قوله «تستوجبُه في الحكمة» إشارةٌ إلى مذهبه^(٣)، قال الإمام: «أي الزلزالَ المكتوبَ عليها إذا قُدِّرَتْ تقديرَ الحِي. رُوي أنها تُزلزلُ من شدةِ صوتِ إسرافيلَ عليه السلام^(٤)»، وليس ذلك إلا إذا قُدِّرَ أنها حيَّةٌ فزعةٌ، كما كانت متكلمةً في قوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

قوله: (جعلَ ما في جوفها من الدفائنِ أثقالاً لها)، الراغب: «أثقالها: قيل: كنوزها، وقيل: ما تَضَمَّنَتْ من أجسادِ البشرِ عند الحشر، وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧]: أي: أحمالكم الثقيلة^(٥)».

(١) في (ط): «لا يَعدُّه».

(٢) «المغرب في ترتيب العرب» (١: ٨٠) للمطرزي.

(٣) في الإرادة والمشيئة.

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٥٥).

(٥) «مفردات القرآن» ص ١٧٤.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ زُلْزِلَتْ هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها؛ وذلك عند النفخة الثانية حين تُزَلْزَلُ وتلفظ أمواتها أحياء، فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع، كما يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]. وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث؛ فأما المؤمن فيقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

فإن قلت: ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها؟

قلت: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زُلْزَلَتْ ولم لَفِظَتْ الأموات؟ وأن هذا ما كانت الأنبياء يُنذرونه ويُحذرون منه. وقيل: يُنطقها الله على الحقيقة، وتُخبر بما عمل عليها من خيرٍ وشرٍ. وروي عن رسول الله ﷺ: «تشهد على كلِّ أحدٍ بما عمل على ظهرها».

فإن قلت: ﴿إِذَا﴾ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ما ناصبهما؟

قوله: ﴿مَا لَهَا﴾ زُلْزِلَتْ؟، قيل: هذه إشارة إلى أن في الكلام حذفاً، وهو حال من الضمير المجرور لأنه مفعول، أي: أي شيء ثبت لها في هذه الحال، لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُبْعِرِينَ﴾ [المدثر: ٤٩].

قوله: «تشهد على كلِّ أحدٍ بما عمل على ظهرها»، روى الإمام أحمد بن حنبلٍ والترمذي، عن أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، قال: «أندرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كلِّ عبيدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم [كذا] (١) كذا وكذا، فهذه أخبارها» (٢).

(١) سقط لفظ «كذا» من الأصول الخطية.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٣) والإمام أحمد (٨٨٦٧).

قلت: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من ﴿إِذَا﴾، وناصبُهما ﴿تُحَدَّثُ﴾. ويجوزُ أن يتنصبَ
﴿إِذَا﴾ بمضمرٍ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بتحدُّث. فإن قلت: أين مفعولا ﴿تُحَدَّثُ﴾؟

قوله: (أين مفعولا ﴿تُحَدَّثُ﴾؟)، قيل: في السؤالِ والجوابِ نَظَرٌ، لأن «حدَّث» ليس متعدياً إلى مفعولين، بل هو متعدُّ إلى مفعولٍ واحدٍ، والمحدوفُ الذي صرَّحَ بذكره هاهنا هو المفعولُ به، وأما المذكورُ وهو ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فمفعولٌ مطلق، وهما لا يُسمَّيانِ مفعولين في اصطلاح النحاة. نعم، إذا ذُكرتِ خصوصيةُ المصدرِ في هذا البابِ جُعِلَ منصوباً، ويُسمَّيه بعضُ النحاةِ حينئذٍ مفعولاً ثانياً وثالثاً، نحو: حدَّثتُ زيداً عمراً قائماً، ويقالُ حينئذٍ: هو متعدُّ إلى ثلاثةِ مفاعيلٍ، وقد ذُكرَ وحُقِّقَ في موضعه أنه ليس كذلك، وأنه متعدُّ إلى واحدٍ، وأن «زيداً قائماً» نصباً لوقوعها موقعَ المصدرِ. وأما إذا ذُكرَ المصدرُ بلفظه نحو: حدَّثته حديثاً وخبراً، فلا يقولُ أحدٌ: إنه متعدُّ إلى مفعولين.

والدليلُ على ما ذكرنا أن ابنَ الحاجبِ بعدما بيَّن أن «زيداً قائماً» نُصبَ في مثلِ هذا الموضعِ لوقوعه موقعَ المصدرِ، لا لكونه مفعولاً ثانياً وثالثاً، قال: «بقي أن يقال: كيف يصحُّ أن يقع ما ليس بفعلٍ في المعنى مصدرًا، وهو المفعولُ الثاني والثالث؟» ثم قال: «والجوابُ عنه أنه لم يكن مصدرًا باعتبارِ كونه زيداً قائماً، ولكن باعتبارِ كونه حديثاً مخصوصاً، فالوجهُ الذي صحَّ الإخبارُ به عن الحديثِ إذا قلت: حدَّثني^(١) زيدٌ عمروٌ منطلقٌ، هو الذي صحَّ^(٢) وقوعه مصدرًا»^(٣).

وقلتُ: ويمكنُ أن يقال: إن «حدَّثتُ وأخواتها» متعدياتٌ إلى مفعولٍ واحدٍ حقيقةً، وجعلُها متعدياتٍ إلى ثلاثةٍ أو إلى اثنين تَجَوُّزٌ أو تَضْمِينٌ؛ قالَ في «المفصل»: «حدَّثتُ

(١) في (ح)، (ف): «حدَّثتُ»، وفي (ط): «حديث»، وليس بصواب.

(٢) في «الإيضاح»: «صحَّ».

(٣) «الإيضاح شرح المفصل» (٢: ٥٣) لابن الحاجب.

قلت: قد حذف أولهما، والثاني: ﴿أَخْبَارَهَا﴾، وأصله تحدث الخلق أخبارها؛ إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً لليوم.

فإن قلت: بيم تعلق الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾؟

قلت: بتحدث، معناه: تحدث أخبارها بسبب إيجاء ربك لها، وأمره إياها بالتحدث. ويجوز أن يكون المعنى: يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها،.....

أجري مجرى أعلمت لموافقته له في معناه، فعُدِّي بتعديته^(١). قال صاحب «الإقليد»: «الأصل في أنبأ ونبأ، وأخبر وخبر، التعدي إلى مفعول واحد، نحو: أنبأت زيداً بكذا، ثم حذف الجار فيقال: أنبأته كذا، وفي التنزيل: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ [التحریم: ٣]، أي: بهذا، ﴿نَبَأَ عِبَادِي أَيَّ أَنَا الْفَقُورَ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]؛ فإذا عُدَّت إلى ثلاثة، فليس إلا لإجرائها مجرى أعلمت». فظهر أن سؤال المصنف مبني على هذا، وجوابه يدل عليه حيث صرح بقوله: «كأنه قيل: يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها؛ لأنك تقول: حدّثته كذا وحدّثته بكذا».

قوله: (إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار)، أي: الغرض في الآية هو المفعول الثاني لا الأول، لأن السورة مسوقة في هزل القيامة، أي: يوم عظيم تحدث فيه الجمادات.

قوله: (يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها)، والظاهر أن الباء على هذا كالباء في قولك: لئن لقيت فلاناً، لتلقين به رجلاً متناهيًا في الخير. المعنى: يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها المتناهية في بابها، فيكون من باب التجريد، ولذلك قال: «على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها: تحديث بأخبارها»؛ قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]: «أراد

(١) «المفصل» للزمخشري، ص ٢٥٧-٢٥٨.

على أن تحديدها بأن ربك أوحى لها: تحديث بأخبارها، كما تقول: نصحتني كل نصيحة، بأن نصحتني في الدين. ويجوز أن يكون ﴿بأن ربك﴾ بدلاً من ﴿أخبارها﴾ كأنه قيل: يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها؛ لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا، و﴿أوحى لها﴾ بمعنى أوحى إليها، وهو مجاز كقوله: ﴿أن يقول له، كن فيكون﴾ [يس: ٨٢] قال:

أوحى لها القرار فاستقرت

وقرأ ابن مسعود: (تنبى أخبارها)، وسعيد بن جبير: تنبىء، بالتخفيف. يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف، (أشتاتاً) بيض الوجوه آمنين؛ وسود الوجوه فزعين. أو يصدرون عن الموقف أشتاتاً يفرق بهم طريقا الجنة والنار،

بالثاني الأول بعينه، أي: أخذنا منهم بذلك الميثاق^(١) ميثاقاً غليظاً^(٢)، وعليه المثال: نصحتني بكل نصيحة، بأن نصحتني في الدين؛ جرد من النصيحة في الدين النصيحة الكاملة، وعليه قول الشاعر:

فأنساني كل المنى بزيارة كانت مخالسة كخطفة طائر
فلو استطعت إذا خلعت على الدجى لتطول ليلتنا سواد الناظر^(٣)

قوله: (وهو مجاز)، أي: استعارة تمثيلية كما سبق في قوله: ﴿كن فيكون﴾؛ شبه إرادة إظهار ما فيها من الأحوال بما يُلقى إلى المأمور، لإظهار ما يراؤ منه من سرعة الامتثال.

(١) قوله: «بذلك الميثاق»، سقط من (ح)، (ف).

(٢) انظر: (١٢: ٣٨٦-٣٨٧).

(٣) البيتان للمجدد بن الظهر الحنفي الإربلي، أخذ البيت الثاني من قول المعري:

يسود أن سواد الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

انظر: «التذكرة الفخرية»، ص ١٤٨-١٤٩، و«ديوان سقط الزند»، ص ١٠٦.

لِئْرُوا جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ. وَفِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ: (لِئْرُوا) بِالْفَتْحِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: (بِرِّه) بِالضَّمِّ. وَيَحْكِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا آخَرَ ﴿حَيْرًا يَرَهُ﴾ فَقِيلَ لَهُ: قَدِمْتَ وَأَخْرَجْتَ؛ فَقَالَ:

حُذَا بَطْنَ هَرَشَى أَوْ قَفَاهَا فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبَيْ هَرَشَى هُنَّ طَرِيقُ

وَالذَّرَّةُ: النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ، وَقِيلَ: (الذَّر) مَا يُرَى فِي شِعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ الْهَبَاءِ.

فَإِنَّ قَلْبَ: حَسَنَاتُ الْكَافِرِ مَحْبُطَةٌ بِالْكَفْرِ، وَسَيِّئَاتُ الْمُؤْمِنِ مَغْفُورَةٌ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ،

فَمَا مَعْنَى الْجِزَاءِ بِمِثَالِ الذَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ؟

قَلْبُ: الْمَعْنَى فَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا مِنْ فَرِيقِ السُّعْدَاءِ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا مِنْ فَرِيقِ الْأَشْقِيَاءِ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا﴾.

قَوْلُهُ: (حُذَا بَطْنَ هَرَشَى) الْبَيْتِ، هَرَشَى: عَقَبَةٌ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ قَرِيبَةٌ مِنْ «الْحُحْفَةِ» لَهَا

طَرِيقَانِ؛ يَخَاطَبُ صَاحِبِيهِ وَيَقُولُ لَهَا: سِيرَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الشَّنِيَةِ أَوْ فِي قَفَاهَا، فَإِنَّ فِي كِلَا الْجَانِبَيْنِ

طَرِيقًا لِلْإِبْلِ، وَهَذَا مِثْلُ فِيمَا سَهَّلَ الطَّرِيقُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. قِيلَ: كَانَ الْأَعْرَابِيُّ ظَنَّ أَنَّ التَّقْدِيمَ

وَالتَّأخِيرَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ جَائِزٌ وَهُوَ خَطَأٌ، فَإِنَّهُ غَفَلَ عَنِ اللَّطَائِفِ الْقِرَائِيَّةِ، وَلَا مَعْنَى لِإِيرَادِ

الْبَيْتِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَكَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الْعِنَايَةَ مَنْوُطَةٌ بِالْخَيْرِ، وَالشَّرُّ عَارِضٌ، قَالَ الْقَاضِي

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَتَمَهَّدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٤-٤٥]: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ عِلَّةٌ لـ ﴿يَتَمَهَّدُونَ﴾،

وَالِاقْتِصَارُ عَلَى جِزَاءِ الْمُؤْمِنِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ» (١).

قَوْلُهُ: (لِأَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا﴾)، يَعْنِي: ﴿فَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تَفْصِيلٌ لِلنَّاسِ، وَهُمْ فَرِيقَانِ:

السُّعْدَاءُ وَالْأَشْقِيَاءُ، أَي: الْآيَةُ مَخْتَصَةٌ.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٣٣٩).

الانصاف: «سؤاله مبني على قاعدتين:

إحدهما: أن حسنات الكافر مُحَبَطَةٌ بالكفر وفيه نظر؛ فإن أُريدَ به أنه لا يُثابُّ بها فصحيح، وأما تخفيفُ العذابِ فغيرُ مُسَلَّم، وقد وردت في الأحاديث أن حاتماً يُخَفِّفُ اللهُ عنه لكرمه، وفي حقِّ أبي طالبٍ وغيره، فلها أثرٌ في تخفيفِ العذاب.

وثانيتهما: أن اجتنابَ الكبائرِ يوجبُ تكفيرَ الصغائرِ، فهو خلافُ مذهبِ أهلِ السنة؛ فتكفيرُ الصغائرِ بأحدِ أمرين، إمَّا بالتوبة، وإمَّا بمشيئةِ الله بالمغفرة؛ فهذا السؤالُ ساقطٌ عندنا»^(١).

وقال الإمامُ: «يجوزُ أن يقالَ: إن حسناتِ الكافرِ وإن كانت مُحَبَطَةً بكفره، لكن الموازنةُ معتبرةٌ عندكم، فبقدرِ تلك الحسناتِ ينحطُّ من عقابِ كفره، وكذا القولُ في الجانبِ الآخرِ، فلا يكونُ ذلك قادحاً في عمومِ الآية»^(٢).

وقلتُ: الآيةُ تحتلُّ معنيين: أن يرادَ بإحدى القريتينِ السعداءُ وبالأخرى الأشقياءُ لتكريرِ الموصول، وأن يرادَ العمومُ في كلِّ قرينةٍ كما يقال: فمن يعملُ مثقالَ ذرةٍ من المؤمنين والكافرين خيراً يره، ومن يعملُ مثقالَ ذرةٍ من المؤمنين والكافرين شراً يره. وعلى الأولِ وردَ كلامُ المصنّفِ، وما رَوَى محيي السُّنةِ والإمامُ عن محمدِ بنِ كعبِ القرظي: فمن يعملُ مثقالَ ذرةٍ من خيرٍ وهو كافر، فإنه يرى ثوابَ ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله، حتى يلقي الآخرةَ وليس له فيها خيرٌ. ومن يعملُ مثقالَ ذرةٍ من شرٍّ وهو مؤمنٌ، كُفِّرَ ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله، حتى بلغ الآخرةَ وليس له فيها شرٌّ^(٣). لكنَّ قصدَ المصنّفِ في ذلك إدخالَ مُرتكبِ الكبيرةِ في زُمرَةِ الكفارِ والأشقياءِ، لأن حسناتِ مُرتكبِ الكبيرةِ مُحَبَطَةٌ به فلا يرى غيرَ الشرِّ، كما أن صغائرَ مُجتنبِ الكبائرِ مُكفَّرةٌ به، فلا يرى غيرَ الخيرِ، يُعلمُ ذلك من سؤاله. وعلى الثاني ما رواه الواحدِيُّ عن مقاتل: فمن يعملُ في الدنيا مثقالَ ذرةٍ خيراً،

(١) «الانصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٨٥)، وانظر: «الانصاف» (ق ١٥٠) للعراقي.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٥٨).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٥٠٣)، و«مفاتيح الغيب» (٣٢: ٥٨).

يَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْفِرْحُ بِهِ، وَكَذَلِكَ الشَّرُّ فَيَرَاهُ فِي كِتَابِهِ، فَيَسُوؤُهُ ذَلِكَ^(١). وَرَوَى مُحَمَّدِي السُّنَّةِ وَالْإِمَامُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ عَمَلٌ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا، إِلَّا أَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَتُغْفَرُ لَهُ سَيِّئَاتُهُ وَيُثَبِّتُ بِحَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَتَرُدُّ حَسَنَاتُهُ وَيُعَذَّبُ بِسَيِّئَاتِهِ^(٢). وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ يَسَاعِدُهُ النِّظْمُ وَالْمَعْنَى وَالْأَسْلُوبُ.

أَمَّا النِّظْمُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ كَمَا سَبَقَ، تَفْصِيلٌ لِمَا عَقَّبَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَسْنَانًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾، فَيَجِبُ التَّوَافُقُ. وَالْأَعْمَالُ جَمْعٌ مُضَافٌ يَفِيدُ الشُّمُولَ وَالِاسْتِغْرَاقَ، وَ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ مَقِيدٌ بِقَوْلِهِ ﴿أَسْنَانًا﴾، يَفِيدُ أَنَّهُمْ عَلَى طَرَائِقَ شَتَّى لِلنُّزُولِ فِي مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمَنْ تَمَّ كَانَتْ الْجَنَّةُ ذَاتَ دَرَجَاتٍ، وَالنَّارُ ذَاتَ دَرَكَاتٍ.

وَأَمَّا الْمَعْنَى، فَإِنَّهَا وَرَدَتْ لِبَيَانِ الْإِسْتِقْصَاءِ فِي عَرْضِ الْأَعْمَالِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وَأَمَّا الْأَسْلُوبُ، فَإِنَّهَا مِنَ الْجَوَامِعِ الْحَاوِيَةِ لِفَوَائِدِ الدِّينِ أَصُولًا وَفُرُوعًا، رَوَيْنَا عَنْ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ، فَقَالَ: لَمْ يَنْزِلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَائِذَةُ^(٣)، فَتَلَاهَا.

قَوْلُهُ: عَنِ الْحُمْرِ، أَي: عَنِ صَدَقَةِ الْحُمْرِ. وَالْفَائِذَةُ: أَي الْمُنْفَرِدَةُ فِي مَعْنَاهَا؛ فَذَّ الرَّجُلُ عَنْ أَصْحَابِهِ إِذَا شَدَّ عَنْهُمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مَعَاوِيَةَ عَمِّ الْفَرَزْدَقِ، أَنَّهُ

(١) انظر: «الوسيط» (٤: ٥٤٣) للواحيدي.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٥٠٢-٥٠٣) للبغوي، وانظر: «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٥٨) للرازي.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٦٣) ومسلم (٩٨٧-٢٤) مطولاً. والآية هي قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله».

أتى النبي ﷺ، فقرأ الآية، فقال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها^(١). وفي «الحقائق»: قيل لبعض الحكماء: عِظْ، فتلا الآية. فقال السائل: فقد انتهت الموعظة^(٢).

قوله: (من قرأ [سورة] ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ أربع مرات)، رويها عن الترمذي، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ عدلت له بنصف القرآن»^(٣).

تَمَّتِ السُّورَةُ



(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٥٩٣).

(٢) انظر: «حقائق التفسير» (٢: ٤١٤) للسلمي.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣).

سورة ﴿وَالْعَدِيدِ﴾

مختلف فيها، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالْعَدِيدِ صَبْحًا﴾ * فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا * فَالْمُعِيرَاتِ صَبْحًا * فَأَتَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١-١١].

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتصبح، والصبح: صوت أنفاسها إذا عدون.

سورة ﴿وَالْعَدِيدِ﴾

مدنية^(١)، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (والصبح: صوت أنفاسها)، الراغب: «قيل: الصبح: صوت أنفاس الفرس تشبيهاً بالصبح، وهو صوت الثعلب. وقيل: هو الخفيف العدو، وقد يقال ذلك للعدو. وقيل: الصبح كالصبح، وهو مد الصبغة في العدو، وشبه عدوه به كشبهه بالنار في كثرة حركاتها»^(٢).

وعن بعضهم: صبح الخيل في عدوها: إذا سمع من أفواها صوت ليس بصهيل ولا تحممة، يعني: أنهم يصبحن في المعركة عند الكر والفر.

(١) في (ف): «مكية».

(٢) «مفردات الراغب»، ص ٥٠١.

وعن ابن عباسٍ أنه حكاه فقال: أح. قال عنتره:

والخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضُ - سَجَّ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا

وانتصابُ ضَبْحاً على: يَضْبَحْنَ ضَبْحاً، أو بالعاديات، كأنه قيل: والضَّابِحَاتِ؛ لأن الضَّبْحَ يكونُ مع العَدُوِّ، أو على الحال، أي: ضابِحَاتٍ. ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ توري نارَ الحُبَابِ وهي ما يَتَقَدَّحُ من حوافرِها، ﴿قَدَحًا﴾ قَادِحَاتٍ صَاكَاتٍ بحوافرِها الحِجَارَةَ. والقَدْحُ: الصَّكُّ، والإيراءُ: إخراجُ النارِ؛ تقول: قَدَحَ فَأُورِي، وَقَدَحَ فَأَصْلَدَ، وانتصبَ قَدْحًا بما انتصبَ به ضَبْحًا. ﴿فَالْمُعِيرَتِ﴾ تغيِّرُ على العَدُوِّ، ﴿صُبْحًا﴾ في وقتِ الصبحِ. ﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فهَيَّجَنَ بذلك الوقتِ غباراً. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ بذلك الوقتِ، أو بالنَّقْعِ، أي: وَسَطْنَ النَّقْعَ الجَمْعَ. أو فوسَطْنَ ملتبسَاتٍ به ﴿جَمْعًا﴾ من جموعِ الأعداءِ. وَوَسَطَهُ بمعنى تَوَسَّطَهُ. وقيل: الضميرُ لمكانِ الغارةِ، وقيل: للعدوِّ الذي دَلَّ عليه ﴿وَأَلْعَدِيَّتِ﴾ ويجوزُ أن يراد بالنَّقْعِ: الصِّيَاحِ،

قوله: (نَارَ الحُبَابِ)، الجوهرى: «الحُبَابِ: اسمُ رجلٍ بخيلٍ كان لا يوقدُ إلا ناراً ضعيفةً مخافةَ الصَّيْفَانِ، فضربوا بها المثلَ حتى قالوا: نارُ الحُبَابِ لما تقدَّحُه الخَيْلُ بحوافرِها».

قوله: (فَأَصْلَدَ)، الجوهرى: «صَلَدَ الرَّزْدُ يَصْلِدُ - بالكسر - صَلوداً: إذا صَوَّتَ ولم يُخْرِجْ ناراً، وَأَصْلَدَ الرَّجُلُ، أي: صَلَدَ زَنْدَهُ».

قوله: (وقيل: الضميرُ لمكانِ الغارةِ)، قال الفراء: «الضميرُ في ﴿بِهِ﴾ للمكانِ الذي انتهى إليه، والموضعِ الذي تقعُ فيه الإغارةُ، لأن في قوله ﴿فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا﴾، دليلاً على أن الإغارةَ لا بُدَّ لها من موضعٍ»^(١). وقال الواحدي: «يقال: وَسَطْتُ المَكَانَ، أي: صرْتُ في وَسَطِهِ، يعني: صرْتُ بعدوهنَّ وَسَطًا جمعِ العَدُوِّ»^(٢).

(١) «معاني القرآن» (٣: ٢٨٥).

(٢) «الوسيط» (٤: ٥٤٤).

من قوله عليه السلام: (ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَةٌ)، وقولٍ لبيد:

فَمَتَى يَنْقَعُ صُرَاخُ صَادِقٍ

أي: فهَيَّجْنَ في المغارِ عليهم صياحاً وِجَلَبَةً. وقرأ أبو حيوة: (فَأَثَرْنَ) بالتشديد، بمعنى: فأظهرنَ به غباراً؛ لأنَّ التأثيرَ فيه معنى الإظهار، أو قلبَ تَوَزَّنَ إلى وَثَّرَنَ، وقلبَ الواو همزةً، وقرئ: (فوسَطُنَ) بالتشديد للتعدية، والباءُ مزيدةٌ للتوكيد، كقوله: ﴿وَأَتَوْا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٥] وهي مبالغةٌ في وَسَطُنَ.

قوله: (ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَةٌ)، وفي «الاستيعاب» قال: «بلغَ عمرَ بنَ الخطاب، أن نسوةً من نساءِ بني المغيرة اجتمعنَ في دارِ يبيكينَ على خالدِ بنِ الوليد، فقالَ عمر: وما عليهنَّ أن يبيكينَ أبا سليمانَ، ما لم يكن نَقْعٌ أو لَقْلَقَةٌ»^(١).

النهاية: «وفي حديثِ عمرَ رضي اللهُ عنه: ما عليهنَّ أن يَسْفِكْنَ من دموعهنَّ على أبي سليمانَ، ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَةٌ، يعني: خالدَ بنَ الوليد. النَّقْعُ: رَفْعُ الصوت، وقيل: شَقُّ الجُيوب، وقيل: وضعُ الترابِ على الرأسِ من النَّقْعِ: الغبار، وهو أولى؛ لأنه قرَنَ به اللَّقْلَقَةُ، وهي الصَّوت، فحملُ اللَّفْظَيْنِ على المعنيينِ أولى من معنى واحدٍ».

قوله: (فمتى يَنْقَعُ صُرَاخُ صَادِقٍ)، ونمائه في «الصَّحاح»:

يُخْلِبوهُ ذاتَ جَرْسٍ وَرَجَلٍ^(٢)

«الحَلْبَةُ: خَيْلٌ تُجْمَعُ للسِّبَاقِ من كُلِّ أوب، ولا تخرُجُ من إصطبل واحد، كما يقالُ للقوم إذا جاؤوا من كُلِّ أوبٍ للنُّصرة: قد أحلبوا».

قوله: (وقرئ: «فوسَطُنَ» بالتشديد)، قال ابنُ جنبي: «قرأها عليُّ رضي اللهُ عنه وابنُ أبي ليلى وقتادة، أي: أثَرَنَ باليدِ نَقْعاً، ووسَطُنَ بالعدو جمعاً، فأضمرَ المصدرُ لدلالةِ اسمِ الفاعلِ،

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٢: ١٤) لابن عبد البرّ.

(٢) انظر: «ديوان لبيد»، ص ١٩١، وفي «الصَّحاح»: «جَلْبُوهُ» بدل «يُخْلِبوهُ».

وعن ابن عباس: كنتُ جالساً في الحِجْرِ فجاءَ رجلٌ فسألني عن ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ففسَّرْتُهَا بالخيل، فذهبَ إلى عليٍّ وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت، فقال: ادعُه لي، فلما وقفتُ على رأسيه قال: تُفتي الناسَ بما لا علمَ لك به، والله إن كانتَ لأوَّلَ غزوةٍ في الإسلامِ بَدْرُ، وما كان معنا إلا فرسان: فرسٌ للزُّبيرِ وفرسٌ للمقداد ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الإبلُ من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى؛ فإن صحَّت الروايةُ فقد استعيرَ الضَّبْحُ للإبل، كما استعيرَ المشافرُ والحافرُ للإنسان، والشَّفَتانِ للمُهر، والشَّفْرُ للثورةِ وما أشبه ذلك. وقيل: الضَّبْحُ لا يكونُ إلا للفرسِ والكلبِ والثعلب. وقيل: الضَّبْحُ بمعنى الضَّبْع، يقال: ضَبَحَتِ الإبلُ وضَبَعَتْ إذا مَدَّتْ أظباعها في السير، وليس بِبَيْت. وجمَع: هو المزدلفة.

فإن قلت: علامَ عطفَ ﴿فَأَتْرَنَ﴾؟

كما أضمرَ لدلالة الفعلِ عليه في قوله: مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ، أي: كَانَ الكَذِبُ شَرًّا لَهُ. فأما «وَسَطْنُ» بالتشديد، فعلى معنى: مَيَّزَنَ به جمعاً، أي: جَعَلَنَّهُ شَطْرَيْنِ، «قسمين، شقين»^(١).

قوله: (إن كانت لأوَّلَ غزوةٍ)، «إن» مخففةٌ من الثقيلة، واسمُ «كانت» ضميرُ الآية، و«بَدْرُ» خبرٌ مبتدأٌ محذوف، غيرُ منصرفٍ في الأصحِّ كقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾ [يوسف: ٩٩]، للعلميةِ والتأنيثِ.

قوله: (والثَّفْرُ للثورةِ)، الجوهري: «الثَّفْرُ للَسَّبَاعِ وكلِّ ذاتِ مِخْلَبٍ، بمنزلةِ الحَيَاءِ من الناقة، وربَّما استعيرَ لغيرها، قال الأخطل:

جزى الله عنّا الأعورين ملامةً وفزوةً ثَفَرَ الثورةِ المتضاجمِ^(٢)

نصبَ «ثَفَرَ الثورةِ» بدلاً من «فَزْوَةٌ» وهو لَقْبُهُ، وخَفَضَ «المتضاجمِ» وهو من صفةِ الثَّفْرِ على الجوار، كقولك: جُحِرُ ضَبٌّ خَرِبٌ. وهو من الأضجِمِ، أي: مُعَوِّجُ الفمِ^(٣).

(١) «المحتسب» (٢: ٣٦٩).

(٢) «ديوان الأخطل»، ص ٣٢٦.

(٣) في (ح): «مفتوح الفم».

قلت: على الفعل الذي وُضِعَ اسْمُ الفاعِلِ موضِعَهُ؛ لأنَّ المعنى: واللاتي عَدَوْنَ فَأَوْرَيْنَ، فَأَعْرَزْنَ فَأَثَرْنَ. الكنود: الكفور، وكندَّ النعمة كُنوداً، ومنه سمي: كِنْدَةً؛ لأنه كندَّ أباه ففارقَه. وعن الكلبي: الكنود بلسانِ كِنْدَةَ: العاصي، وبلسانِ بني مالك: البخيل، وبلسانِ مضر وربيعة: الكفور، يعني: إنه لنعمة ربِّه خصوصاً لشديدُ الكُفْرانِ؛ لأنَّ تفريطَه في شكرِ نعمةٍ غيرِ الله تفريطٌ قريبٌ لمقاربةِ النعمة، لأنَّ أجلَّ ما أُنعِمَ به على الإنسان من مثله نعمةُ أبيه، ثُمَّ إِنَّ عَظَمَها في جَنبِ أدنى نعمةِ الله قليلةٌ ضئيلةٌ. ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ على كِنودِه، ﴿لشَهِيدٌ﴾ يشهدُ على نَفْسِه ولا يقدرُ أن يحدِّه لظهورِ أمرِه. وقيل: وإنَّ الله على كِنودِه لشاهدٌ على سبيلِ الوعيد. ﴿الْخَيْرُ﴾ المألُ من قولِه تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

قوله: (على الفعل الذي وُضِعَ اسْمُ الفاعِلِ موضِعَهُ)، الانتصاف: «والحكمة في مَجِيئِه فعلاً تصويرُ هذه الأفعالِ في النفس؛ فإنَّ التصويرَ يحصلُ بإيرادِ الفعلِ بعدَ الاسمِ، لِمَا بينهما من التخالُف، وهو أبلغُ من التصويرِ بالأسماءِ المتباينة، وكذلك التصويرِ بالمضارعِ بعدَ الماضي»^(١). وقلت: وحظُّ هذا المقامِ من الفائدة، أنها إنما وُصِفَتْ بالأوصافِ الثلاثِ، لِيُرْتَبَ عليها ما قُصِدَ من الظَّفَرِ بالفتحِ وغلبةِ العدو، فأوقَعَ الفعلينِ الماضيينِ مُسَبِّينَ عن أسماءِ الفاعلينِ، فأفادَ أنَّ تلكَ المداومةَ إنما حَقَّقَتْ هاتينِ البُعيتينِ.

قوله: (لأنَّ تَفْرِيطَه)، تعليلٌ لقوله: «إنه لنعمة ربِّه خصوصاً لشديدُ الكُفْرانِ»، ومعنى الاختصاصِ مُستفادٌ من تقديمِ معمولِ «لكنود» عليه، ومعنى الشدَّةِ من بناءِ «كنود» من «فَعول»، وتصدَّرِ الجملةِ بأنَّ واللامِ في الخبرِ.

قوله: (تَفْرِيطٌ قريبٌ)، أي: غيرُ مجاوزٍ للحدِّ، وقوله: «لِمُقارَبَةٍ» تعليلٌ لقوله: «قريبٌ»؛ من قولهم: شيءٌ مُقارِبٌ ومُؤامٌ وأمَمٌ، أي: وسطٌ بين الجيِّدِ والرديءِ.

قوله: ﴿الْخَيْرُ﴾: المألُ، الراغب: «الخيرُ: ما يرغبُ فيه الكلُّ، كالعقلِ والعدلِ والفضلِ والشيءِ النافعِ، والشرُّ ضدُّه».

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٨٦)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٥٠) للعراقي.

والشديدُ: البخيلُ المسك، يقال: فلان شديدٌ ومتشددٌ. قال طرفة:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي
عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

وقيل: الخيرُ ضربان: خيرٌ مطلق، وهو أن يكونَ مرغوباً فيه بكلِّ حال، وعند كلِّ أحد، كما وردَ في وصفِ الجنة: «لا خيرَ بخيرِ بعده النار، ولا شرَّ بشرٍ بعده الجنة». وخيرٌ وشرٌّ مقيدان، وهو أن يكونَ خيراً لواحدٍ شرّاً لآخر، كالمالِ ربّما كانَ خيراً لزيدٍ وشرّاً لعمرو، ولذلك وَصَفَهُ اللهُ تعالى بالأمرينِ فقالَ في موضع: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: مالاً، وقالَ في آخر: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * شَارِحٍ لَهُمْ فِي الْغَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقالَ بعضُ العلماء: لا يقالُ للمالِ خيرٌ حتى يكونَ كثيراً ومن مكانٍ طيبٍ؛ رُوي أن عليّاً رضي اللهُ عنه دخلَ على مولى له، فقالَ له: ألا أوصي؟ قال: لا، لأن الله تعالى قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وليسَ لك مالٌ كثير، وعلى هذا قوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، أي: للمالِ الكثير. والاختيارُ طلبُ ما هو خير، وقد يقالُ لِمَا يراه الإنسانُ خيراً وإن لم يكن خيراً. والمختارُ في عُرفِ المتكلمين، يقالُ لكلِّ فعلٍ يفعله الإنسانُ لا على سبيلِ الإكراه، فقولهم: هو مختارٌ في كذا، فليسَ يريدون به ما يراؤ بقولهم: فلانٌ له اختيار؛ فإن الاختيارَ أخذُ ما يراه الخير^(١).

قوله: (شديدٌ ومُتَشَدِّدٌ)، الراغب: «الشديدُ والمتشددُ: البخيل، فالشديدُ يجوزُ أن يكونَ بمعنى مفعولٍ كأنه سُدِّدٌ، كما يقال: غُلٌّ عن الأفضال، وإلى نحوِ هذا أشارَ بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]. ويجوزُ أن يكونَ بمعنى فاعلٍ كالمتشددِ، كأنه سَدَّ صُرَّتَهُ»^(٢).

قوله: (أرى الموتَ يعْتَامُ) البيت^(٣)، يعْتَامُ: يختار، وعقيلةٌ كلُّ شيءٍ أكرمه، والفاحشُ: البخيلُ الذي جاوزَ الحدَّ في البخل. يقول: أرى الموتَ يختارُ كرامَ الناس، وكرائمَ الأموالِ التي يُضَنُّ بها.

(١) «مفردات القرآن» للراغب، ص ٣٠٠-٣٠٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٧.

(٣) لطرفة في معلقته، انظر: «ديوانه بشرح الشتمري»، ص ٤٩.

يعني: وإنه لأجل حبِّ المالِ، وأنَّ إنفاقه يثقلُ عليه، لبخيلٍ ممسكٍ. أو أرادَ بالشديدِ: القوي، وأنه لِحُبِّ المالِ وإيثارِ الدنيا وطلبها قويٌّ مُطيق، وهو لِحُبِّ عبادةِ الله وشكرِ نعمتهِ ضعيفٌ مُتقاعِس. تقول: هو تشديدٌ لهذا الأمر، وقويٌّ له: إذا كان مطيقاً له ضابطاً. أو أراد: إنه لِحُبِّ الخيراتِ غيرُ هَشٍّ مُنبسط، ولكنه مُنقبض. ﴿بُعْثِرَ﴾ بُعِثَ. وقرئ: بُخِرَ وبُحِثَ، وبُخِرَ، وَحَصَّلَ على بنائيهما للفاعل. وَحَصَّلَ: بالتخفيف. ومعنى (حُصِّلَ) جُمِعَ في الصُّحُفِ، أي: أظهِرَ مُحَصَّلاً مجموعاً. وقيل: مُبَيَّنَّ بين خيره وشره، ومنه قيل للمُنخُلِ: المُحَصَّل. ومعنى علمه بهم يومَ القيامة: مجازاته لهم على مقاديرِ أعمالهم؛ لأنَّ ذلك أُنزِلَ خَبرُهُ بهم. وقرأ أبو السَّمال: (إن ربَّهم بهم يومئذ خبير).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قرأ سورةَ «والعاديات»، أعطِيَ من الأجرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعددِ من باتَ بالمزدلفةِ وشهدَ جمعاً».

قوله: (ومعنى «حُصِّلَ» جُمِعَ في الصُّحُفِ، أي: أظهِرَ مُحَصَّلاً مجموعاً)، الراغب: «التحصيلُ: إخراجُ اللُّبِّ من القشور، كإخراجِ الذهبِ من حجرِ المعدن، والبرِّ من التَّنِّينِ، قالَ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: أظهِرَ ما فيها وجمع، كإظهارِ اللُّبِّ من القشْرِ وجمعه، أو كإظهارِ الحاصلِ من الحساب. وَحَوْصَلَةُ الطيرِ: ما يَحْصُلُ فيه الغذاء»^(١).

قوله: (ومعنى علمه بهم يومَ القيامة)، قيل: فيه إشارةٌ إلى أن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، وهو العاملُ في «إذا» ومفعولاه محذوفان، أي: أفلا يعلمهم عاملين ما عملوا إذا بُعِثَ؟ أي: أفلا يجازيهم إذا بعثَ؟ أو يقول: أُجْرِي العِلْمُ مجرى الفعلِ اللازم، أي: أفلا يكونُ له العِلْمُ في هذه الحال؟ أي: أفلا يجازيهم حينئذٍ؟ يعني: يُجَازِيهِمْ^(٢)؛ ثم حَقَّقَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾.

(١) «مفردات القرآن»، ص ٢٤٠.

(٢) من قوله «أي: أفلا يعلمهم» إلى هنا، سقط من (ط).

قال أبو البقاء: «العامل في ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: «يَعْلَم»، وقيل: العامل فيه ما دَلَّ عليه خبرُ «إِنَّ»، وهو «لَحْيِر». والمعنى: إذا بُعْثِرَ جُوزوا»^(١).

وقال صاحبُ «الكشف»: «لا يجوزُ أن يعملَ فيه «لَحْيِر» بنفسه، لأنَّ ما بعدَ «إِنَّ» لا يعملُ فيما قبله»^(٢).

الجوهري: «يقال: مِنْ أَيْنَ خَبَرْتَ هذا الأمر؟ أي: مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ؟ والاسمُ: الخَبْرُ بالضم، وهو العِلْمُ بالشيء، والخبِيرُ: العالم».

قال الإمام: «دَلَّتْ هذه الآيةُ على أنه تعالى عالمٌ بالجزئياتِ الزمانياتِ وغيرها، لأنه تعالى نَصَّ على كونه عالماً بكيفيةِ أحوالهم في ذلك اليوم، فكيفَ لا يكونُ منكرُهُ كافراً؟»^(٣).

[تَمَّتِ السُّورَةُ] ^(٤)

* * *

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٣٠٠).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٧٤).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٦٦).

(٤) زيادة يقتضيها المقام طرداً للباب على وتيرة واحدة في نهاية كلِّ سورة.

سورة القارعة

مكية، وهي عشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿الْقَارِعَةُ﴾ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمَةٌ هَاطِيَةٌ *
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ١-١١].

الظرفُ نصب بمضمرٍ دلَّت عليه القارعة، أي: تَفْرَع ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ سَبَّهَم بالفراش في الكثرة والانتشارِ وَالصَّعْفِ وَالذَّلَّةِ،
والتطايرِ إلى الداعي من كلِّ جانب، كما يتطايرُ الفراشُ إلى النار؛ قال جرير:
إِنَّ الْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتُ وَقَوْمَهُ مِثْلَ الْفَرَاشِ غَشِيَنِ نَارِ الْمُصْطَلِيِّ

سورة القارعة

مكية، وهي عشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (إِنَّ الْفَرَزْدَقَ) البيت^(١)، ما علمت: أي الذي علمته، وهي معترضة. يَهْجُوهُ وَقَوْمَهُ،

(١) ديوان جرير، ص ٩٤٣.

وفي أمثالهم: أضعف من فراشة وأذل وأجهل، وسُمِّي فراشاً لتفرشه وانتشاره. وشبّه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألواناً؛ لأنها ألوان، وبالمنفوش منه؛ لتفريق أجزائها. وقرأ ابن مسعود: (كالصوف). الموازين: جمع موزون وهو العمل الذي له وزنٌ وخطرٌ عند الله، أو جمع ميزان. وثقلها: رُجحانها؛ ومنه حديثُ أبي بكرٍ لعمرَ رضي الله عنهما في وصيته له: (وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة بتابعهم الحق وثقلها في الدنيا، وحق ميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل، وإنما خفت موازين من خفت موازينه لتابعهم الباطل وخفتها في الدنيا، وحق ميزان لا توضع فيه السيئات أن يخف) ﴿فَأُمَّهُ هَكَوِيَةٌ﴾ من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة: هوت أمه؛ لأنه إذا هوى أي: سقط وهلك، فقد هوت أمه تُكللاً وحزناً قال:

هَوَتْ أُمَّهُ مَا يَبْعَثُ الصُّبْحُ غَادِيَا وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يَثُوبُ

أي: إنهم ضعفاء أذلاء جهلاء، أمثال الفراش غشين، أي: حضرن في غشوة الليل ناز الذي يضطلي بها الشاعر وهو جرير. وقيل: غشين: اقتحمن. قيل: «ما» في «ما علمت»: مصدرية، والمدة معه مقدرة، أي: أن الفرزدق وقومه دوام علمي بهم ضعفاء.

قوله: (ومن حديث أبي بكر رضي الله عنه)، الحديث رواه صاحب «جامع الأصول»، عن رزين العبدي^(١)، وذكرناه بتمامه في «الأعراف».

قوله: (هوت أمه) البيت، قائله: كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه^(٢). ما يبعث، من المبعث: من النوم، والغادي: الذي يغدو، وهو حال. وهوت أمه: دعاء لا يُراد به الوقوع، بل التعجب والمدح، أي: أي شيء يبعث الصبح منه حين يغدو، وأي شيء يرد الليل منه

(١) انظر: «جامع الأصول» (٢٠٨٠) (٤: ١٠٨).

(٢) انظر القصيدة بتمامها: «ديوان الأصمعيات»، الأصمعية (٢٥)، ص ٩٣.

فكانه قيل: وأما مَنْ خَفَّتْ موازينه فقد هَلَكَ. وقيل: ﴿هَآوِيَةٌ﴾ من أسَاءِ النار، وكأنها النار العميقة هَيَوِيَّ أَهْلِ النَّارِ فيها مَهْوَى بعيداً، كما روي: (يهوي فيها سبعين خريفاً) أي: فَمَآوَاهِ النَّارِ. وقيل: لِلْمَأْوَى: أُمٌّ، على التشبيه؛ لأنَّ الأُمَّ مأوى الولدِ ومَفْزَعُهُ. وعن قتادة: فَأُمُّ هَاوِيَةٍ، أي: فَأُمُّ رَأْسِهِ هَاوِيَةٌ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، لأنه يُطْرَحُ فيها منكوساً. ﴿هَيْمَةٌ﴾ ضميرُ الداهيةِ التي دَلَّ عليها قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَآوِيَةٌ﴾ في التفسيرِ الأول، أو ضميرُ (هاوية).....

حين يرجع، وحُذِفَ لفظَةُ «منه» في الموضعين لدلالة الكلامِ عليها، كما حُذِفَ مِنْ قَوْلِهِ: السَّمْنُ مَنْوَانٍ بَدْرَهُمْ، وفيه معنى التجريد، أي: يبعثُ الصُّبْحُ منه مغيراً والليلُ غانماً. قوله: (سبعين خريفاً)، عن بعضهم: عُبِّرَ بالخريفِ عن السَّنة، لأنَّ الشَّامَ والزَّرُوعَ تَنمو في هذا الوقت، ويُعَبَّرُ بآخرِ الوقتِ عن كُلِّهِ.

قوله: (في التفسير الأول)، أي: إذا فُسِّرَ «أُمَّ هَاوِيَةٍ» بالدَّعاء، ومن قولهم: هَوَتْ أُمَّهُ؛ وَإِنَّا جُعِلَ الضميرُ للداهية، لأنَّ الشَّخْصَ إِذَا سَقَطَ وَهَلَكَ وَصَارَتْ أُمَّهُ ثَكْلِي وَخَزْبِي، فقد أصابته الداهية. وعلى التفسير الثاني: أُمَّهُ بمعنى المأوى، و﴿هَآوِيَةٌ﴾ من أسَاءِ النَّارِ. وأظهرُ التفسيرين الأول، لأنَّ ﴿فَأُمُّهُ هَآوِيَةٌ﴾ مقابل لقوله: ﴿فَهُوَ فِي عَيْشِكُمْ رَاضِيَةٌ﴾، والهلاكُ أَنَسَبُ إِلَى العيشِ لأنه الحياةُ المَخْتَصَّةُ بالحيوان، فكما بولغ في القرينة التالية بما أُرِدَف به، بولغ في السابقة بالإسنادِ المجازي.

الراغب: «العيشُ: الحياةُ المَخْتَصَّةُ بالحيوان، وهو أَخْصَصُ مِنَ الحياة، لأنَّ الحياةَ تَقَالُ فِي الحيوان، وفي الباري تعالى، وفي المَلَكِ، وَيُسْتَقُّ مِنْهُ المَعِيشَةُ لِإِمْتِنَانِهِ مِنْهُ، قال تعالى: ﴿مَنْحَنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. وقال في أهل الجنة: ﴿فَهُوَ فِي عَيْشِكُمْ رَاضِيَةٌ﴾، وقال ﷺ في الحديث: «لا عيشَ إِلاَّ عيشُ الآخرة»^(١).

(١) «مفردات القرآن»، ص ٥٩٦، والحديث أخرجه البخاري (٢٩٦١).

والهَاءُ لِلسَّكْتِ، وَإِذَا وَصَلَ الْقَارِئُ حَذَفَهَا. وَقِيلَ: حَقُّهُ أَنْ لَا يُدْرَجَ لِثَلَاثِ يُسْقَطُهَا الْإِدْرَاجُ؛ لِأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي الْمُصْحَفِ، وَقَدْ أُجِيزَ إِثْبَاتُهَا مَعَ الْوَصْلِ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «الْقَارِعَةِ»، ثَقَّلَ اللَّهُ بِهَا مِيزَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قَوْلُهُ: (وَالهَاءُ لِلسَّكْتِ، وَإِذَا وَصَلَ الْقَارِئُ حَذَفَهَا)، قَالَ فِي «الْمُرْشِدِ»: ﴿مَا هِيَ﴾: وَقَفَّ كَافٍ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: وَقَفَّ جَيِّدٌ، ثُمَّ فُسِّرَ بِقَوْلِهِ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

[تَمَّتِ السُّورَةُ]

* * *

(١) انظر: «المرشد في الوقف والابتداء» (٤: ٨٦٧) للعماني.

سورة التكاثر

مكية، وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿١-٨﴾].

ألهاه عن كذا وأفهامه: إذا شغله. و﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباري في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر، وهؤلاء: نحن أكثر. روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً، فكثرتهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكتنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات، فكثرتهم بنو سهم.....

سورة التكاثر

مكية، وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (فكثرتهم بنو سهم)، أي: غلبوهم بالكثرة، من قولهم: كاثرتُه فكثرتُه. والتكاثرُ تكلفُ الكثرة مالا وعدداً.

والمعنى: أنكم تكاثرتُم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتُم بالأموات؛ عبّر عن بلوغهم ذكّر الموتى بزيارة المقابر تهكماً بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم. والمعنى: أهاكم ذلك وهو بما لا يعنينكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يعنينكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهمّة. أو أراد: أهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم، منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت لا همّ لكم غيرها، عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم. وزيارة القبور: عبارة عن الموت؛ قال:

لن يُخلّص العام خليلٌ عشراً ذاق الضماد أو يزور القبراً

قوله: (صرتم إلى المقابر فتكاثرتُم بالأموات)، فعلى هذا، ﴿الْمَقَابِرُ﴾ كناية عن الانتقال من ذكر الأحياء إلى ذكر الأموات تفاخراً؛ وإنما كان تهكماً، لأن زيارة القبور شرعت لتذكّر الموت، ورفض حبّ الدنيا، وترك المباهاة والتفاخر. وهؤلاء عكسوا، حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة، والاستغراق في حبّ الدنيا، والتفاخر في الكثرة. روينا عن مسلم وأبي داود والنسائي، عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَهَيْتُمْ عن زيارة القبور؛ فزوروها»^(١). وفي رواية أبي داود: «فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة»^(٢).

قوله: (أو أراد: أهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم)، فحاصل الوجه الثلاثة راجع إلى أن المراد بالزيارة، إما الانتقال من الذكر إلى الذكر، أو إلى حقيقة الزيارة، أو إلى الموت. و«منفقين» حال من ﴿الْمَهْتِكُمْ﴾، و«عما هو أولى بكم» متعلق بأهاكم.

قوله: (لَنْ يُخَلِّصَ العام)، البيت^(٣) قال في «الفاثق»: «صَمَدُ المرأة جمعها واتخاذها

(١) أخرجه مسلم (٣٧-١٩٧٧) والنسائي (٢٠٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٥).

(٣) نسبة الخطيب الشربيني في «السراج المنير» (٤: ٤٢٦) للأخطل ولم أهد إليه في «ديوانه»، ونسبه ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٥: ٢٥٧) للمقدم الدبيري.

وقال:

زارَ القُبُورَ أبو مالِكِ فأصبحَ ألامَ زُوارِها

وقرأ ابنُ عباس: (أأهاكم)؟ على الاستفهام الذي معناه التقرير. ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ وتنبيةٌ على أنه لا ينبغي للناظرِ لنفسِهِ أن تكونَ الدنيا جميعَ همِّه ولا يهتمَّ بدينه.....

الخليلين»^(١)، قال أبو ذؤيب:

تُرِيدِينَ كَيْما تَضْمَدِينِي وَخالِداً وهل يُجْمَعُ السِّيفانِ وَيُحَكُّ في غَمْدِ^(٢)

قائله: مقدادُ بنُ حسانِ الزُّبيري^(٣)، قبله:

إني رأيتُ الضَّمْدَ شيئاً نُكِّرا

وكانتِ المرأةُ في الجاهلية تتخذُ سوى زوجها خليلاً، وهو الضَّمْد.

قوله: (عَشراً)، أي: عَشَرَ ليالٍ، ورُوي بكسرِ العين، أي: معاشرَةً، والمعاشرَةُ: المخالطة، وكذلك التعاشُر، والاسمُ: العِشْرَة. والخليلُ: الزوج. المعنى: لن يُخلصَ زوجُ معاشرَةِ امرأةٍ عَشَرَ ليالٍ، إلا أن يموت. ذاق^(٤) الضَّهاد: صفةُ الخليل.

قوله: ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ وتنبيةٌ، أي: ردٌّ للكلامِ السابق، وتنبيةٌ على ما دلَّ عليه الكلامُ التالي، فاعتبرَ في ﴿كَلَّا﴾ كِلا مفهومَيْه، قال الإمام: «كَلَّا: متصلٌ بما قبله على وجهِ الرَدِّ والتكذيب، أي: ليس الأمرُ كما يتوهمُه هؤلاء من أن السعادةَ الحقيقيةَ بكثرةِ العددِ والأموالِ

(١) «الفاق في غريب الحديث» (٢: ٣٤٨) للزمخشري.

(٢) «شرح أشعار الهذليين» (١: ٢١٩).

(٣) ونسبه ابن عاشور في «التحريير والتنوير» (٢٥: ٢٥٧) للمقدم الذبيري، ولعله «الزُّبيري». وفي «اللسان»

(ضمَد) نُسب إلى شخص اسمه «مدرَك».

(٤) في (ط)، (ف): «ذات»؛ وكذا رواية «اللسان»:

ذات الضَّهاد أو يزور القبرا

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنذارٌ ليخافوا فيتنبَّهوا من غفلتهم. والتكريرُ: تأكيدٌ للردعِ والإنذارِ عليهم. و﴿ثُمَّ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنذارَ الثاني أبلغُ من الأوَّلِ وأشدُّ، كما تقول للمنصوح: أقولُ لك ثمَّ أقولُ لك: لا تفعل، والمعنى: سوفَ تعلمون الخطأَ فيما أنتم عليه إذا عايتم ما قدامكم من هَوَلٍ لِقَاءِ اللهِ، وإنَّ هذا التنبيةَ نصيحةٌ لكم ورحمةٌ عليكم. ثم كرَّرَ التنبيةَ أيضاً وقال: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ محذوفُ الجواب، يعني: لو تعلمونَ ما بين أيديكم علمَ الأمرِ اليقين، أي: كعلمكم ما تستيقنونَه من الأمورِ التي وكلتم بِعِلْمِهَا هَمَمَكُم،

والأولاد، ومتصلٌ بما بعده على معنى: حقاً سوفَ تعلمون، لكن حينَ يصيرُ الفاسقُ تائباً، والكافرُ مسلماً، والحريصُ زاهداً^(١). وفي كلامِ المصنّف إشعارٌ بهذين المعنيين.

الكواشي: «الوقفُ على ﴿الْمَقَابِرِ﴾: تام، إنْ جُعِلَ ﴿كَلَا﴾ تنبيهاً، وإنْ جُعِلَ رَدْعاً، الوقفُ على ﴿كَلَا﴾».

فإن قلت: على ما ذهبَ إليه المصنّف، يلزمُ استعمالُ اللفظِ المشتركِ في كِلا مَعْنِيهِ المخالف. قلتُ: ليس كذلك؛ إذ المرادُ أنه إذا ابتدئَ بها وقعَ الاستئنافُ عندها، فيقدَّرُ السؤالُ: فما جزاءُ هؤلاء الغفلة، وما يقالُ في حقِّهم؟ فيُجاب: حقاً سيعلمونَ مآلَ حالهم حينَ يرونَ الجحيم، ففي الكلامِ رَدْعٌ من حيثُ المعنى. وإذا وَقَفَ عليها يقعُ السؤالُ بعدها، أي: فما يُفعلُ هؤلاءِ المطرودينَ الذينَ ارتدعوا؟ فيقال: سوفَ يعلمون ما يُفعلُ بهم حينَ يرونَ الجحيم؛ فالكلامُ مستلزمٌ للتنبيةِ من حيثُ المعنى. قالَ صاحبُ «المُرشد»: «حتَّى زُرْتُمُ المقابر: وقفٌ تام، وتَبَدَّى ﴿كَلَا﴾ في معنى التهديدِ والوعيدِ»^(٢).

قوله: (يعني: لو تعلمونَ ما بين أيديكم)، قيل: المرادُ بالعلمِ هاهنا: هو علمُ الشيءِ في نفسه، لا علمُه على صفته.

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٧٥).

(٢) «المُرشد في الوقف والابتداء» (٤: ٨٦٨) للعثماني.

لَفَعَلْتُمْ مَا لَا يُوصَفُ وَلَا يُكْتَنَى؛ وَلَكِنَّكُمْ ضَلَّالٌ جَهْلَةٌ؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿لَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾
 فَيَنْ لَّهُمْ مَا أَنْذَرَهُمْ مِنْهُ وَأَوْعَدَهُمْ بِهِ؛ وَقَدْ مَرَّ مَا فِي إِضْحَاحِ الشَّيْءِ بَعْدَ إِهَامِهِ مِنْ تَفْخِيمِهِ
 وَتَعْظِيمِهِ، وَهُوَ جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ، وَالْقِسْمُ لِتَوْكِيدِ الْوَعِيدِ، وَأَنْ مَا أَوْعَدُوا بِهِ مَا لَا
 مَدْخَلَ فِيهِ لِلرَّيْبِ؛ وَكَرَّرَهُ مَعْطُوفًا بِشَمِّ تَغْلِيظًا فِي التَّهْدِيدِ وَزِيَادَةً فِي التَّهْوِيلِ. وَقَرَأَ:
 (لَتَرُونَ) بِالْهَمْزِ وَهِيَ مُسْتَكْرَهَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ اسْتَكْرَهْتَ وَالْوَاوُ الْمَضْمُومَةُ قَبْلَهَا هَمْزَةٌ قِيَاسٌ مُطَّرَدٌ؟

قُلْتَ: ذَاكَ فِي الْوَاوِ الَّتِي صَمَّتْهَا لِازْمَةٍ، وَهَذِهِ عَارِضَةٌ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ. وَقَرَأَ:
 (لَتَرُونَ) وَ(لَتَرُونَهَا) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أَي: الرَّؤْيَى الَّتِي هِيَ
 نَفْسُ الْيَقِينِ وَخَالِصَتُهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِالرَّؤْيَى: الْعِلْمُ وَالْإِبْصَارُ ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ عَنِ
 الْلَهْوِ وَالتَّنَعُّمِ الَّذِي سَعَلَكَمُ الْإِلْتِدَادُ بِهِ عَنِ الدِّينِ وَتَكَالَيْفِهِ.

قَوْلُهُ: (ذَاكَ فِي الْوَاوِ الَّتِي صَمَّتْهَا لِازْمَةٍ)، قَالَ الزَّجَّاجُ: «الْقِرَاءَةُ: ﴿لَتَرُونَ﴾، بَضْمٌ
 الْوَاوِ غَيْرِ مَهْمُوزٍ، فَصَمَّتِ الْوَاوُ لِسُكُونِهَا وَسُكُونِ النُّونِ، وَقَدْ هَمَزَهَا بَعْضُهُمْ، وَالنَّحْوِيُّونَ
 يَكْرَهُونَهَا لِأَنَّ صَمَّتْهَا غَيْرٌ لِازْمَةٍ، لِأَنَّهَا حُرِّكَتْ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَيَهْمَزُونَ الْوَاوِ الَّتِي صَمَّتْهَا
 لِازْمَةٍ، نَحْوُ: أَذُورُ، جَمْعُ دَارٍ، وَيَجُوزُ: أَذُورٌ أَيْضًا»^(١).

قَوْلُهُ: (وَقَرَأَ: ﴿لَتَرُونَ﴾)، ابْنُ عَامِرٍ وَالْكَسَائِيُّ: بِضَمِّ التَّاءِ^(٢)، وَالْبَاقُونَ: بِفَتْحِهَا. وَلَا
 خِلَافَ فِي السَّبْعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَتَرُونَهَا﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ.

قَوْلُهُ: ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أَي: الرَّؤْيَى الَّتِي هِيَ نَفْسُ الْيَقِينِ، قِيلَ: أَرَادَ أَنْ ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾
 نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَالْعَيْنُ هَاهُنَا بِمَعْنَى نَفْسِ الشَّيْءِ، كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ نَفْسَهُ وَعَيْنُهُ. وَالصَّوَابُ
 أَنَّ الرَّؤْيَى هَاهُنَا بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ لَا الْعِلْمِ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٥٨).

(٢) أَي: «لَتَرُونَ»، وَأَصْلُهَا: لَتَرَأْيُونَ؛ فَنَقَلْتُ فَتْحَةَ الْهَمْزَةِ إِلَى الرَّاءِ، وَحَذَفْتُ تَخْفِيفًا، ثُمَّ اسْتَقَلَّتِ الضَّمَّةُ
 عَلَى الْيَاءِ فَحَذَفُوهَا، فَالْتَقَى سَاكِنَانِ (الْيَاءِ وَالْوَاوِ) فَاسْقَطَتِ الْيَاءُ، ثُمَّ التَقَى سَاكِنَانِ (الْوَاوِ وَالنُّونِ)،
 فَحَرَّكَتِ الْوَاوُ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ. انظُرْ: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧٧١-٧٧٢.

فإن قلت: ما النعيم الذي يُسأل عنه الإنسان ويعاتبُ عليه؟ فما من أحدٍ إلا وله نعيم؟ قلتُ: هو نعيمٌ من عَكَفَ هِمَّتَهُ على استيفاءِ اللذاتِ، ولم يَعِشْ إلا لياكلِ الطَّيِّبِ ويلبسِ اللِّينِ، ويقطعَ أوقاته باللَّهْوِ والطَّرْبِ، لا يعبأُ بالعلمِ والعملِ، ولا يُحْمَلُ نفسه مَشَاقِقَهُمَا؛ فأما مَنْ تَمَتَّعَ بنعمةِ الله وأرزاقِهِ التي لم يَخْلُقْهَا إلا لعباده، وتَقَوَّى بها على دراسةِ العلمِ والقيامِ بالعملِ، وكان ناهضاً بالشكرِ، فهو من ذلك بمعزِلٍ؛ وإليه أشارَ رسولُ الله ﷺ فيما يروى: «أَكَلُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ تَمَرًا وَشَرَبُوا عَلَيْهِ مَاءً فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ».

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿الْهَمَّكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ بِالنَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ».

وقلتُ: هذا هو الذي أراده بقوله: «ويجوزُ أن يرادَ بالرؤية العلمُ والإبصارُ»، على العطفِ التفسيري. وقال القاضي: «عينُ اليقين: الرؤيةُ التي هي نفسُ اليقين؛ فإنَّ عِلْمَ المشاهدةِ أعلى مراتبِ اليقين»^(١).

وقال شيخنا شيخُ الإسلامِ قُدَّسَ سِرُّهُ في «العوارف»: «عِلْمُ اليقينِ ما كان من طريقِ النظرِ والاستدلالِ، وعينُ اليقينِ ما كان من طريقِ الكشوفِ والتَّوَالِ، وحقُّ اليقينِ ما كان بتحقيقِ الانفصالِ عن لَوِثِ الصَّلْصَالِ، بورودِ رائدِ الوصالِ. وقال الجُنَيْدُ: حقُّ اليقينِ ما يتحققُ العبدُ بذلك، وهو أن يُشَاهِدَ^(٢) الغيوبَ كما يشاهدُ المرئياتِ مشاهدةً عَيَانًا^(٣)».

قولُه: (هو نعيمٌ من عَكَفَ هِمَّتَهُ على استيفاءِ اللذاتِ)، قال القاضي: «الخطابُ بقوله: ﴿لَتُسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، مخصوصٌ بكلِّ مَنْ ألهاه دُنْيَاهُ عن دينه، لا للمؤمنينِ للقرينةِ

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٢٤).

(٢) في (ف): «لا يشاهد»، وليس بصواب.

(٣) «عوارف المعارف» (٢: ٣٢٠) للسهروردي.

والنصوص الكثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقيل: مخصوص بالكفار، وقيل: عام؛ إذ كلُّ يُسأل عن شكره^(١).

وقلت: ويعضده ما روينا عن مسلم والترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة: خرج رسول الله ﷺ، فإذا هو بأبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، فقال: ما أخرجكما عن بيتكما؟ قالوا: الجوع. قال: وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما. فجاؤا ببيت أنصاري، فجاءهم بعذق فيه بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطْبٌ وذَبِجٌ لهم، فأكلوا من الشاة والعذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَّوا، قال رسول الله ﷺ لهما: «والذي نفسي بيده، لتُسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة»^(٢). الحديث مختصر.

وروى الواحدي عن مقاتل: «يعني كفار مكة، كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيُسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ولم يشكروا ربَّ النعم، حيث عبدوا غيره وأشركوا به، ثم يُعذَّبون. هذا قول الحسن»^(٣).

وقلت: ويؤيده أن الخطاب من أول السورة مع المتكاثرين والمتباهين وهم كفرة، على ما سبق. ولما كان الاشتغال بنعيم الدنيا من صفات الغافلين، ويجب على المؤمن أن يجتنب عن رذائل الأخلاق، غلظ رسول الله ﷺ حيث قال: لتُسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، لأنه صلوات الله عليه فسر الآية بما قال.

تَمَّتْ

* * *

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠-٢٠٣٨) والترمذي (٢٣٦٩).

(٣) لم يذكر قول الحسن، وقوله: «لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار». «الوسيط» (٤: ٥٤٩) للواحدي.

سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾

مكية، وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿١-٣﴾]

أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالصَّلَاةُ أَوْسَطُ﴾ [البقرة: ٢٣٨] صلاة العصر، في مٌصحفٍ حفصة، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ فَاتَتْهُ الْعَصْرُ فَكَانَهَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»،

سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾

مكية، ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (فَكَانَهَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ)، النهاية: «وَتَرَ: أَي نَقَصَ، يقال: وَتَرْتُهُ إِذَا نَقَصْتَهُ، فَكَانَكَ جَعَلْتَهُ وَتَرَ بَعْدَ أَنْ كَانَ كَثِيرًا. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْوَتْرِ: الْجَنَابَةِ؛ فَشُبِّهَ مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ بِمَنْ قُتِلَ حَمِيمُهُ، أَوْ سُلِبَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ. وَيُرْوَى بِنَصْبِ الْأَهْلِ وَرَفْعِهِ، فَمَنْ نَصَبَ جَعَلَهُ مَفْعُولًا ثَانِيًا لِوَتَرَ، وَأَضْمَرَ فِيهَا مَفْعُولًا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ عَائِدًا إِلَى الَّذِي فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ، وَمَنْ رَفَعَ لَمْ يُضْمَرَ وَأَقَامَ الْأَهْلَ مَقَامَ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لِأَنَّهُمُ الْمَصَابُونَ الْمَأْخُودُونَ؛ فَمَنْ رَدَّ النِّقْصَ إِلَى الرَّجْلِ نَصَبَهَا، وَمَنْ رَدَّهُ إِلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ رَفَعَهَا».

ولأنَّ التَّكْلِيفَ فِي أَدَائِهَا أَشَقُّ لِتَهَافُتِ النَّاسِ فِي تِجَارَاتِهِمْ وَمَكَاسِبِهِمْ آخِرَ النَّهَارِ، وَاسْتِغْلَاهُمْ بِمَعَايِشِهِمْ. أَوْ أَقْسَمَ بِالْعَشِيِّ كَمَا أَقْسَمَ بِالضُّحَىٰ لِمَا فِيهِمَا جَمِيعاً مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ. أَوْ أَقْسَمَ بِالزَّمَانِ لِمَا فِي مُرُورِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْعَجَائِبِ. وَالإِنْسَانُ: لِلجِنْسِ. وَالْحُسْرُ: الْحُسْرَانُ، كَمَا قِيلَ: الْكُفْرُ فِي الْكُفْرَانِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ النَّاسَ فِي خُسْرَانٍ مِنْ تِجَارَاتِهِمْ إِلَّا الصَّالِحِينَ وَحَدَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ اشْتَرَوْا الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا، فَرَبِحُوا وَسُعِدُوا، وَمَنْ عَدَاهُمْ تَجَرَّعُوا خِلَافَ تِجَارَاتِهِمْ، فَوَقَعُوا فِي الْخُسَارَةِ وَالشَّقَاوَةِ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا يَسُوعُ إِنْكَارَهُ، وَهُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ: مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ كِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عَنِ الْمَعَاصِي وَعَلَى الطَّاعَاتِ، عَلَى مَا يَبْلُو اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالْعَصْرِ﴾، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَكَانَ مِمَّنْ تَوَاصَىٰ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَىٰ بِالصَّبْرِ».

قَوْلُهُ: (لِتَهَافُتِ)، وَهُوَ التَّسَاقُطُ قِطْعَةً قِطْعَةً، وَتَهَافَتَ الْفَرَاشُ فِي النَّارِ: تَسَاقَطَ.

قَوْلُهُ: (أَوْ أَقْسَمَ بِالزَّمَانِ)، قَالَ الزَّجَّاجُ: «وَالْعَصْرُ: الدَّهْرُ، وَالْعَصْرُ: الْيَوْمُ، وَالْعَصْرُ: اللَّيْلَةُ، قَالَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ:

وَلَا يَلْبِثُ الْعَصْرَانِ يَوْمًا وَلَيْلَةً إِذَا طُلِبْنَا أَنْ يُدْرِكَ مَا تَيَمَّمَا» (١)

قَوْلُهُ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ إِلَى آخِرِهِ، الرَّاغِبُ: «الْوَصِيَّةُ: التَّقَدُّمُ إِلَى الْغَيْرِ بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مَقْرُونًا بُوَعِظَ وَنَصِيحَةٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَرْضٌ وَاصِيَةٌ: مُتَّصِلَةٌ بِالنَّبَاتِ، يُقَالُ: أَوْصَاهُ وَوَصَّاهُ، وَتَوَاصَى الْقَوْمُ: إِذَا أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» (٢)، يُقَالُ: «قَدَّمْتُ إِلَيْهِ بِكَذَا، إِذَا أَمَرْتَهُ قَبْلَ وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَى الْفِعْلِ» (٣).

(١) «ديوانه»، ص ٨، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٣٥٩: ٥) للزجاج.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٨٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٦١.

قال الإمام: «الآية فيها وعيدٌ شديد، لأنه حَكَمَ بالخسارِ في جميع الناسِ، إلا مَنْ كانَ آتياً بالإيمانِ والعملِ الصالحِ والتواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر، فَدَلَّ ذلك على أن النجاةَ تتعلقُ بمجموعِ هذه الأمور، وكما أنه يلزمُ المكلفَ تحصيلُ ما ينحصرُ نفسه به، يلزمُه في غيره: الدعاءُ إلى الدين، والنصيحةُ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر، وأن يجبَ له ما يجبُ لنفسه. ثم كررَ التواصي ليتضمنَ الأولُ الدعاءَ إلى الله، والثاني الثباتَ عليه»^(١).

[تَمَّتِ السُّورَةُ] ^(٢)

* * *

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٨٥).

(٢) زيادة تقتضيها عادة الطيبي في نهاية كل سورة.

سورة الهمزة

مكية، وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يُحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ *
 كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْجِدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ
 * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [١ - ٩].

الهُمَزُ: الكَسْر، كالهَرَم. وَاللُّمَزُ: الطَّعْن؛ يقال: لَمَزَهُ وَلَهَزَهُ طَعَنَهُ،

سورة الهمزة

مكية^(١)، تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (الهُمَزُ: الكَسْر)، عن بعضهم: الهمزُ كالعصر^(٢) باليد، [يقال]^(٣): همزتُ الشيءَ في كَفَي، ومنه: الهمزُ في الحروف. وهمزُ الإنسان: اغتياؤه، يقال: رجلٌ هامزٌ وهمازٌ وهُمَزَةٌ.

(١) في (ف): «مكية بخلاف»، وفي (ط): «مدنية».

(٢) في (ف): كالقهر.

(٣) زيادة اللفظ «يقال» يقتضيهما السياق.

والمراد: الكسرُ من أعراضِ الناسِ والغَضُّ منهم، واغْتِيَابُهُمْ؛ والطَّعْنُ فِيهِمْ. وبناءُ (فُعَلَّة) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مِنْهُ قَدْ ضَرِيَ بِهَا. ونحوُهُمَا: اللَّعْنَةُ وَالضُّحْكَةُ، قال:

وإن أُغْيِبَ فأنْتَ الهامزُ اللَّمَزَةُ

قوله: (والغضُّ منهم)، الجوهري: «وَعَضَّ مِنْهُ يَغُضُّ بِالضَّمِّ، أَي: وَضَعَ وَنَقَصَ مِنْ قَدْرِهِ». وعن غيره: مِنْهُ غَضُّ الطَّرْفِ وَالصَّوْتِ: خَفَضُهَا، وَعَضَّ الْمَلَامَةَ: كَفَّهَا.

قوله: (وبناءُ فُعَلَّة يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مِنْهُ)، الانتصاف: «ما أَحْسَنَ مُقَابَلَةَ الْهُمَزَةِ وَاللُّمَزَةِ بِالْحُطْمَةِ، لِأَنَّهُ لَمَّا وَسَمَهُ بِهَذِهِ السَّمَةِ، وَبِهَا يَدُلُّ عَلَى الرَّسُوخِ وَالتَّمَكُّنِ، تَوَعَّدَ فِيهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِيَحْصَلَ التَّعَادُلُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْجِزَاءِ»^(١).

وقلت: فِيهِ لَطِيفَةٌ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ التَّعَادُلِ، وَهِيَ أَنَّ الْهُمَزَ فِيهِ مَعْنَى الْكَسْرِ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَالْحُطْمُ فِيهِ مَعْنَى الْكَسْرِ مِنَ الْأَضْلَاعِ، وَالتَّبَدُّ فِيهِ اسْتِحْقَاقٌ وَاسْتِقْلَالٌ، لِأَنَّهُ كَانَ يَزْعَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِرَامَةِ، قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْنَاكُمْ نُجُودًا، فَتَبَدَّنْهُمْ فِي أَلْيَسٍ﴾ [القصص: ٤٠]: «شَبَّهَهُمْ اسْتِحْقَاقًا لَهُمْ وَاسْتِقْلَالًا لِعَدِيهِمْ، بِحَصِيَّاتٍ أَخَذَهُنَّ أَحَدٌ فِي كَفِّهِ فَطَرَحَهُنَّ فِي الْبَحْرِ»^(٢). روى الواحدِيُّ عَنِ مِقَاتِلٍ: «هِيَ تُحَطَّمُ الْعِظَامُ، وَتَأْكُلُ اللَّحْمَ حَتَّى تَهْجَمَ عَلَى الْقُلُوبِ»^(٣).

قوله: (وإن أُغْيِبَ فأنْتَ الهامزُ اللَّمَزَةُ)، قيل: أوله:

تُذَلِّي بُوْدِي إِذَا لَا قَيْتِي كَذِبًا^(٤)

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٧٩٥)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٥٠) للعراقي.

(٢) انظر: (١٢: ٦٤)؛ في تفسير الآية (٤٠) من سورة القصص.

(٣) «الوسيط» (٤: ٥٥٣) للواحدِي.

(٤) البيت لزياد الأعجم، انظر: «ديوانه»، ص ٧٨.

وقرى: (ويلُّ للهُمَزَةِ اللَّمَزَةِ)، وقرى: (ويلُّ لكلُّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) بسكون الميم، وهو المَسْخَرَةُ الذي يأتي بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويُسْتَم. وقيل: نزلت في الأحنس ابن شريق وكانت عادته الغيبة والوقية. وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد ابن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ وَغَضَهُ منه.

ويجوزُ أن يكونَ السَّبَبُ خاصاً والوعيدُ عاماً، ليتناولَ كلَّ مَنْ باشرَ ذلكَ القبيحَ،

وأُشِدَّ الزجاجُ لزيادةِ الأعجم:

إذا لقيتُكَ عن سُخْطِ تُكاشِرني وإن تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامزَ اللَّمزه^(١)

ابن السُّكَيْت: «الكُثْرُ: التَّبَسُّم، يقال: كثر الرَّجُلُ وأفْتَرَ وابتسَم، كلُّ ذلكَ تبدو منه الأسنان»^(٢).

قوله: (بالأوابد)، الأساس: «ومن المجاز: فلانٌ مولعٌ بأوابد الكلام، وهي غرائبُه، وبأوابد الشُّعر، وهي التي لا تُشاكلُ جَوْدَةً».

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ السَّبَبُ خاصاً والوعيدُ عاماً)، روى الإمامُ عن الفراءِ أنه قال: «كونُ اللفظِ عاماً، لا ينافي أن يكونَ المرادُ منه شخصاً معيناً، كما أن إنساناً لو قال لك: لم أزرُكَ أبداً، فتقولُ: كلُّ مَنْ لم يزرُنِي لا أزورُه، وهو المسمَّى في «أصول الفقه»^(٣) بتخصيصِ العامِّ بقريئةِ العُرْف»^(٤).

(١) رواية الديوان:

إذا لقيتُكَ بُدِي لي مكاشرةً وإن أغيب، فانت الهامزُ اللَّمزه

انظر: «ديوانه»: ص ٧٨، و«معاني القرآن وإعرابه». (٥: ٣٦١) للزجاج.

(٢) كذا في «الصحاح» (٢: ٨٠٦ - كشر) للجوهري.

(٣) في (ح): «عُرْفُ الأصُوليين».

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٨٦).

وليكون جاريًا مجري التعريض بالوارد فيه، فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه. ﴿الَّذِي﴾
 بدلٌ من كُلِّ، أو نصبٌ على الذم. وقرئ: (جَمَعَ) بالتشديد، وهو مطابق لـ(عَدَدَه).
 وقيل: (عَدَدَه) جعله عُدَّةً لحواثِ الدَّهر. وقرئ: (وَعَدَدَه) أي: جمع المال وضبط
 عَدَدَه وأحصاه، أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه، من قولك: فلان ذو عَدَدٍ وعُدَد:
 إذا كان له عَدَدٌ وافِرٌ من الأنصار وما يُضِلُّحُهم. وقيل: ﴿وَعَدَدَهُ﴾ معناه: وعده على
 فك الإدغام، نحو: ضَمِنُوا.

قولُه: (وليكون جاريًا مجري التعريض بالوارد فيه)، يعني: إذا كان الواردُ منه الأخرس
 أو أمية أو الوليد، ويُجاء باللفظ على العموم تعريضاً، كان أزجر له وأنكى فيه، إذ لم يُصرَّح
 باسمه حتى يلبس لمن كافحه به جلد النمر، بل يبعثه على الفكر في أحوال نفسه، وأنه هل
 دخل في هذا العام^(١) أول الناس بما اغتاب به خير البرية وتقص من حقه؟ الأساس:
 «نَكَيْتُ في العدو نكايَةً: إذا أكثر الجراح فيهم، يقال: فلان قليل النكايَةِ طويل الشكايَةِ».

قولُه: (أو نَصَبٌ على الذم)، قيل: يجوز أن يكون صفة لـ «كُلِّ» لأنه معرفة، كما ذكر
 في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: أن ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ محلُّها النصب على الحال من
 ﴿كُلِّ﴾، لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة^(٢).

قولُه: (ضَمِنُوا)، أي في قول الشاعر:

مَهْلًا أَعَادَلْ هَلْ جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي
 أَنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَمِنْتُوا^(٣)

(١) في (ح): «المقام».

(٢) انظر: (١٤: ٥٤٢)؛ في تفسير الآية (٢١) من سورة ق.

(٣) البيت لقعنب بن أم صاحب، كما صرح بذلك سيويه في كتابه (١: ٢٩)، ولعله من قصيدته التي مطلعها:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا قَرَحًا
 مَنِي، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

انظر: «شرح ديوان الحماسة» (٣: ١٠١٣) للمرزوقي. وقد نسب الخطابي في «غريب الحديث» (٣: ٥٢)

لكعب بن زهير، ولم أهد إليه في «ديوانه».

﴿أَخْلَدَهُ﴾ وَخَلَدَهُ بِمَعْنَى أَي: طَوَّلَ السَّهْلَ أَمَلَهُ، وَمَنَاهُ الْأَمَانِيَّ الْبَعِيدَةَ، حَتَّى أَصْبَحَ لِفِرْطٍ غَفْلَتِهِ وَطُولِ أَمَلِهِ يَحْسَبُ أَنَّ الْمَالَ تَرَكَهُ خَالِدًا فِي الدُّنْيَا لَا يَمُوتُ، أَوْ يَعْمَلُ مِنْ تَشْيِيدِ الْبِنْيَانِ الْمَوْثِقِ بِالصَّخْرِ وَالْأَجْرِ وَغَرَسِ الْأَشْجَارِ وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، عَمَلٌ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ مَالَهُ أَبْقَاهُ حَيًّا. أَوْ هُوَ تَعْرِيفُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَخْلَدَ صَاحِبَهُ فِي النَّعِيمِ؛ فَأَمَّا الْمَالُ فَمَا أَخْلَدَ أَحَدًا فِيهِ. وَرُوي أَنَّهُ كَانَ لِلْأَخْنَسِ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِينَارٍ، وَقِيلَ: عَشْرَةُ آلَافٍ.....

فقوله: «وقيل: ﴿وَعَدَدَهُ﴾، معناه: وعده» عطف على قوله: «﴿وَعَدَدَهُ﴾»، أي: جمع المال وضبط عدده» فعلى هذا: هو مفعول فعل محذوف على طريقة قوله:

عَلَفْتَهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا^(١)

قوله: (أو يعمل)، عطف على قوله: «يَحْسَبُ»، وقوله: «أو هو تعريض» عطف على قوله: «أي: طَوَّلَ الْمَالَ أَمَلَهُ» إلى آخره، من حيث المعنى. ولذلك غيّر العبارة؛ فهو وجهان على تقدير وجوه ثلاثة، وتقرير ذلك أن «يَحْسَبُ» حال من الضمير في «جَمَعَ»، والحسبان: إما حساب الخلود في الدنيا، أو في النعيم أبداً، كما قال القائل: «وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا» [الكهف: ٣٦]، وقال العاصم بن وائل: «لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا» [مريم: ٧٧]. وعلى الأول: الحسبان إما حقيقي؛ فهو المراد من قوله: «يَحْسَبُ أَنَّ الْمَالَ تَرَكَهُ خَالِدًا فِي الدُّنْيَا»، أو مجازي؛ فهو المعنى بقوله: «أو يعمل من تشييد البنيان»، كما قال تعالى: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَبْنُونَ * وَتَسْخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]. وعلى الثاني: في الآية تعريض.

(١) الرجز لذي الرّمه، وصدرة:

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وَارَدَا

انظر: «ديوانه»، ص ٥٨. وقد يرد في كتب النحو صدراً عمجزة:

حَتَّى سَتَّتْ هَمَّالَةَ عَيْنَاهَا

وعن الحسن: أنه عادَ مويراً فقال: ما تقولُ في ألوفٍ لم أفتدِ بها من لثيمٍ ولا تفضّلتُ على كريمٍ؟ قال: ولكن لماذا؟ قال: لنبوة الزّمان، وجفوة السُّلطان، ونوائب الدّهر، ومخافة الفقر. قال: إذن تدّعه لمن لا يحمّلك، وتردّ على من لا يعذرك. ﴿كَلَّا﴾ رَدَعُ له عن حسبانهِ.

ثمّ المناسبُ على الأوّل أن يُجعلَ ﴿الَّذِي﴾ بدلاً من ﴿كُلِّ﴾، لأنّ المعنى: ويلٌ للذي جمعَ مالاً وعدده، وطوّلَ بعدَ ذلك أمله ووقع في الغرور، لأنّه حسبَ أن ماله تركه خالداً في الدنيا. وعلى الثاني أن يجعلَ نصباً على الذم، لأنّ المعنى: ويلٌ للطاعنِ الفاسق، أعني: الذي جرّأه^(١) على الطّعنِ والفسق، جمعُ المالِ والاعتمادُ على الرّجال، ومع ذلك يحسبُ أن ماله يُخلّده في النعيم، ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾؛ بل الذي يُخلدُ صاحبه في النعيم المقيم في الجنة، هو العملُ الصالح، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، فحينئذٍ يحصلُ من الوجهين نشرٌ لِمَا لَفَّ في قوله: «الذي: بدلٌ من «كل»، أو نصبٌ على الذم»، والله أعلم.

قوله: (لم أفتدِ بها من لثيم)، أي: ما جعلتُ مالي فداءً لعرضي منه لأسلمَ من أذاه، وأنشد:

أصونُ عرضي بمالي لا أدنّسه لا باركَ اللهُ بعدَ العِرضِ في المالِ^(٢)

قوله: (لنبوة الزّمان)، الأساس: «نبا عني فلان: فارقني، وبينني وبينه نبوة، وهو يشكو نبوة الزمان وجفوته».

قوله: ﴿كَلَّا﴾ رَدَعُ له عن حُسابهِ، قال الإمام: «أي ليس كما ظنّ أن المالَ والعددُ يُخلد، بل العلمُ والصّلاح، قال عليّ رضي الله عنه: «ماتَ خزانُ المالِ وهم أحياءُ والعلماءُ

(١) في (ف): «جزاؤه»، وليس بصواب.

(٢) البيت لحسان بن ثابت، وبعده:

احتسألُ للمالِ إن أودى فأجمعه ولستُ للعِرضِ إن أودى بمُحتالٍ

انظر: «ديوانه» (١: ٣١٤).

وقرى: (لَيْبُذَانٌ) أي: هو وماله. و(لَيْبُذَنٌّ)، بضم الذا، أي: هو وأنصاره، و(لَيْبُذَنَّهُ)، ﴿فِي الْحَطْمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يُلقى فيها. ويقال للرجل الأَكُول: إنه لِحَطْمَةٍ. وقرئ: (الحاطمة) يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب، ولا شيء في بدن الإنسان اللطيف من الفؤاد، ولا أشد تالماً منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه. ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. ومعنى اطلاع النار عليها: أنها تعلوها وتغلبها وتشمّل عليها. أو تطلع على سبيل المجاز معادن مؤجّبهها.

باقون ما بقي الدهر». أو حقاً لينبذ واللام جواب القسم، فدلّ على حصول القسم في ﴿كَلَّا﴾، وفي النبذ الإهانة والتحقير، لأنه كان يزعم أنه من أهل الكرامة^(١).

قوله: (ولا شيء في بدن الإنسان اللطيف من الفؤاد)، الراغب: «الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد، إذا اعتبر فيه معنى التّفؤد، أي: التوقّد، يقال: فأدت اللحم: سويته، ولحم فئيد: مشوي». وتخصيص الأفئدة في قوله تعالى: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِئَةِ﴾، تنبيه على فرط تأثيره^(٢).

قوله: (أو تطلع على سبيل المجاز معادن مؤجّبهها)، وفي اختصاص لفظ «معادن» تلويح إلى عكس معنى قوله ﷺ: «الناس معادن كعادن الذهب والفضة»^(٣)، ولما كانت أفئدة هؤلاء محل مقرّ الرجس والخبث من العقائد الفاسدة الموجبة للنار، وأقر بدء إحراق^(٤) كل أحد على قدر استحراقه، قيل: تطلع على المجاز معادن مؤجّبهها. وفي «التيسير»: قال أبو سعيد: إنها تعلم مقدار ما يستحق كل منهم من العذاب، لِمَا كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعُقَايِدِ الْفَاسِدَةِ، من قولك: اطلع فلان على أمرنا، أي: وقف عليه، وعلمه، أي: جعلها الله بحيث

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٨٨).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٦٤٦.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٩٠١٣)، وتمام الحديث: «فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». وانظر: «صحيح البخاري» (٣٣٨٣)، و«صحيح مسلم» (١٩٩-٢٥٢٦).

(٤) في (ح): «أحزان»!

﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مُطَبَّعَةٌ. قال:

نَحْنُ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤَصَّدَةٌ

وقرى: (في عُمْدٍ) بضمّتين، و(عُمْدٍ)، بسكون الميم، و(عَمَدٍ) بفتحيتين. والمعنى: أنه يؤكدُ يأْسَهُم من الخروجِ وَتَيَقُّنَهُم بحَبْسِ الأبد، فتؤَصَّدُ عليهم الأبوابُ وَتُمَدَّدُ على الأبوابِ العُمْدُ، استيثاقاً في استيثاق.

تحرقُ كُلَّ أَحَدٍ على استحقاقِهِ، لا تزيد ولا تنقص، كأنها وقفت^(١) على مبلغِ استحقاقِهِ، قال: ولَمَّا جازَ وصفُها بالتعْيِظِ وبأنها تدعو من أدبِرَ وتولّى، جاز وصفُها بهذا.

قوله: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾: مُطَبَّعَةٌ، الراغب: «الوصيدة»^(٢): حُجْرَةٌ تجعلُ للمالِ في الجبلِ، يقال: أوصدتُ البابَ^(٣) وأصدتُهُ: أطبقْتُهُ وأحكمتُهُ، قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾، وقرئ بالهمز^(٤).

قوله: (وقرى: «في عُمْدٍ»)، أبو بكرٍ وحمزةٌ والكسائيُّ: بضمّتين، والباقون: بفتحيتين^(٥).

قوله: (وَتُمَدَّدُ على الأبوابِ العُمْدُ)، قيل: على هذا: ﴿في عَمَدٍ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾، أعني العائدُ إلى الأبوابِ، وعلى قوله: «موثقين في عمد»: حالٌ من الضميرِ في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

(١) في (ف): «وقعت».

(٢) في الأصول الخطية: «الوصيد».

(٣) في (ح): «المال»، وفي (ف): «النار»!

(٤) «مفردات القرآن»، ص ٨٧٢.

(٥) من ضمّ فعلى أن مفردها: عمود، نحو: صبورٌ وصُبرٌ، ومن فتح فعلى أن مفردها: عمدة، نحو: بقرةٌ وبقيرٌ، وتمرةٌ وتمر. وقالوا في جمع عمود: عمد، بالفتح أيضاً، نحو: أديمٌ وأدم. انظر: «حجة القراءات»، ص ٧٧٣.

ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة، مؤثقتين في عمْدٍ ممدّدةٍ مثل المقاطر التي تُقطرُ فيها اللصوص، اللهم أجزنا من النار يا خير مُستجار.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة «الهمزة»، أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعددِ مَنْ استهزأ بمحمّدٍ وأصحابه».

قوله: (مثل المقاطر)، الجوهري: «المقطرة وهي الفلق، وهي خشبةٌ فيها خروقٌ تُدخلُ فيها أرجلُ المحبوسين». وقلتُ: الوجهُ الأولُ مناسبٌ لما روي أن الآيةَ نزلت في أحنس بن شريق، أو أمية بن خلف، أو الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسولِ الله ﷺ؛ فإنه تعالى لما بين أن ﴿الخطمة﴾، هي النارُ التي تطالعُ معادنَ موجيها، أتبعه قوله: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾، أي: النارُ طالعتُ على استحقاقٍ هؤلاءِ بسببِ اغتياهم خيرَ البشر، فكانت عليهم مؤصدةً مطبقةً، فأكدَ يأسهم من الخروج، وتيقنهم بحبسِ الأبد. والثاني موافقٌ لأن يراد بقوله: ﴿لكلِّ همزةٍ لَمزةٌ﴾ العموم، وهو المشارُ إليه بقوله: «وهو المسخرَةُ الذي يأتي بالأوبد والأصاحيك»، لأنه يطعنُ في أعراضِ الناسِ، كاللصِّ الذي يسرقُ أموالهم؛ فعلى هذا، يلزم^(١) خلودُهم في النار.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) في (ح): «لا يلزم».

سورة الفيل
مكية، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿الذَّرَّ تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ١-٥]

رُوي أَنَّ أِبْرَهَةَ بْنَ الصَّبَاحِ الْأَشْرَمَ مَلِكَ الْيَمَنِ مِنْ قَبْلِ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ، بَنِي كَنِيسَةَ بَصْنَعَاءَ وَسَمَّاهَا الْقُلَيْسَ، وَأَرَادَ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهَا الْحَاجَّ،

سورة الفيل
مكية^(١)، خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (الأشرم)، الشَّرْمُ: قطعُ الأَرْتَنِيَّةِ وثَقْرِ الناقة، قيل: سُمي أشرم، لأن أباه صَرَبَهُ بِحَرِّيَّةٍ فَشَرَّمَ أَنْفَهُ وَجَبِينَهُ.

(١) في (ف): «مكية بخلاف»، وفي (ط): «مدنية».

فخرج رجلٌ من كِنَانَةَ ففَعَدَ فِيهَا لَيْلًا، فأغضبه ذلك. وقيل: أَجَّجَتْ رُفْقَةً من العربِ ناراً فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فأحرقَتْهَا، فحلفَ لِيَهْدَمَنَّ الكعبةَ، فخرجَ بالحِشَّةِ ومعه فيلٌ له اسمُه محمود، وكان قويا عظيماً، واثنا عَشَرَ فيلاً غيرَه. وقيل: ثمانية، وقيل: كان معه ألفُ فيل، وكان وحده؛ فلما بلغَ المَغَمَّسَ خرجَ إليه عبدُ المطلبِ وعَرَضَ عليه ثلثَ أموالِ تَهَامَةَ ليرجع، فأبى وعَبَأَ جيشَه وَقَدَّمَ الفيل، فكانوا كلُّها وَجَّهوه إلى الحرمِ بركَ ولم يَبْرَحْ، وإذا وَجَّهوه إلى اليمينِ أو إلى غيرِها من الجهاتِ هَرُولٌ؛ فأرسلَ اللهُ طيراً سوداً، وقيل: خضراً، وقيل: بيضاً، مع كلِّ طائرٍ حَجَرٌ في منقارِه، وحجرانِ في رِجلَيْه، أكبرُ من العدسةِ وأصغرُ من الحِمَّةِ. وعن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما أنه رأى منها عندَ أمِّ هانئٍ نَحْوَ قفيزٍ مخططةٍ بِحُمْرَةٍ كالجُرْعِ الظَّفَارِيِّ، فكان الحجرُ يقعُ على رأسِ الرَّجُلِ فيخرجُ من دُبُرِه، وعلى كلِّ حجرٍ اسمٌ من يقعُ عليه، ففروا فهلكوا في كلِّ طريقٍ ومنهَلٌ؛ ودَوِيٌّ أبرهَةٌ فتساقطتْ أناملُه وآرأبُه، وما ماتَ حتى انصدعَ صدرُه عن قلبِه. وانفلتَ وزيرُه أبو يكسومِ وطائرٌ يَحُلِقُ فوقه، حتى بلغَ النجاشيَّ فقَصَّ عليه القِصَّةَ، فلما أتمَّها وقعَ عليه الحجرُ فخرَّ ميتاً بين يديه.

قوله: (فَعَدَ فِيهَا لَيْلًا)، كناية، أي: قَضَى حاجتَه.

قوله: (المَغَمَّسِ)، قيل: موضعٌ بين مكةَ ومِنَى.

قوله: (وعَبَأَ جيشَه)، الجوهري: «عَيَّيْتُ الجيشَ تَعْيِيَةً وَتَعْبِيَةً وَتَعْبِيئًا، إذا هيأته في مواضعه، وقال أبو زيد: عَبَأْتُهُ، بالهمز».

قوله: (ودَوِيٌّ أبرهَةٌ)، الدَّوِيُّ مقصور: المرَضُ، يقال: منه: دَوِيٌّ بالكسر، أي: مَرِيضٌ، وقيل: أي مَرِيضٌ من الداءِ.

قوله: (وآرأبُه)، الإِزْبُ: العَضُو، يقال: السُّجُودُ على سبعةِ آرابٍ^(١).

قوله: (وطائرٌ يُحَلِقُ)، تحليق الطائر: ارتفاعُه في طيرانِه.

(١) كذا في «الصحيح» (١: ٨٦-أرب) للجوهري. وقد سبق تخريج حديث السجود على سبعة آراب.

وقيل: كان أبرهة جدّ النجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ بأربعين سنة، وقيل: بثلاثٍ وعشرين سنة. وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيلٍ وسائسه أعميين مُقعدين يستطعمان. وفيه أن أبرهة أخذ لعبدٍ المطلبٍ ممتي بَعير، فخرج إليه فيها، فَجَهَره وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيدُ قريشٍ وصاحبُ عيرِ مكة الذي يُطعمُ الناسَ في السَّهْلِ والوحوشِ في رؤوسِ الجبال، فلما ذَكَرَ حاجته قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودينُ آبائك وعِصمتكم وشرفكم في قديم الدهر،

قوله: (الذي كان في زمن النبي ﷺ)، صفةٌ مميّزةٌ للنجاشي، قال صاحبُ «الجامع»: «النجاشيُّ: لقبُ ملكِ الحبشة، فالذي أسلم وأمنَ بالنبي ﷺ، هو أضحمة، أسلم قبل الفتح، ومات قبله أيضاً، وصلى عليه النبي ﷺ»^(١).

قوله: (بأربعين سنة)، أي: قبل مبعثه، و«بأربعين» خبرٌ بعد خيرٍ من «كان» الأول، أي: كان موجوداً وملكاً قبل مبعثه ﷺ بأربعين سنة، وهذه الرواية أقربُ من «ثلاثٍ وعشرين سنة»، لأنه صلواتُ الله عليه بإجماعِ أهلِ النقلِ ولَدَ عامِ الفيل، وبُعثَ بعد أربعين سنة، وأسلمَ النجاشيُّ بعدَ البعثةِ في السنةِ الخامسة، روى ابنُ الجوزي: «وُلدَ رسولُ الله ﷺ، يومَ الإثنينِ لعشرٍ خلونَ من ربيعِ الأولِ عامِ الفيل^(٢)». وقال ابنُ إسحاق: «لاثني عشرة ليلة مضت منه»^(٣)، وعن ابنِ قتيبة، قال: «أجمعوا على أن رسولَ الله ﷺ، وُلدَ عامِ الفيل^(٤)».

قوله: (فيها)، أي: في شأنِ الإبلِ واستخلاصها منه.

قوله: (فجهره)، الأساس: «رأيتُه فَجَهَرُته واجتَهَرُته، واستَجَهَرُته: رأيتُه عظيمَ المرآة. وجَهَرُني فلان: راعني بجماله وهيئته».

(١) «جامع الأصول» (١٢: ١٨٧، ٩٥٦) لابن الأثير.

(٢) «الوفاء بأحوال المصطفى» (١: ١٥٤) لابن الجوزي.

(٣) «السيرة النبوية» (١: ٩٩) لابن إسحاق.

(٤) «المعارف» لابن قتيبة، ص ١٥٠.

فألهاك عنه ذؤودٌ أخذَ لك؛ فقال أنا ربُّ الإبل، وللبيتِ ربُّ سيمينعُه، ثم رجعَ وأتى بابَ البيتِ فأخذَ بحلقته وهو يقول:

لأهمَّ إنَّ المرءَ يَمُـ	نَعُ فَا مَنَعَ حِلا لَكَ
لا يَغْلِبَنَّ صَـ	ومحاهمُ غَدُوا مَحَالَكَ
إنَّ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَغـ	بِتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ
يا رَبِّ لا أَرْجُوهُمُ سِوَاكَ	يا رَبِّ فَا مَنَعَ مِنْهُمُ حِمَاكَ

قوله: (ذؤودٌ أخذَ لك)، الذؤودُ من الإبل: ما بين الثلاثة إلى العشرة^(١)، وكأنه قلَّله^(٢) وهي كثيرةٌ جداً، تحقيراً ورذعاً عن طلبه في تلك الحالة.

قوله: (لأهمَّ إنَّ المرءَ) الأبيات، لأهمَّ: أصله: اللهم. «رِحَالَكَ» - ويروى: «حِلَالُكَ» - جمعُ حِلَّة، وهو الموضعُ الذي يَحُلُّ فيه الناس. قيل: حِلَالُكَ، بكسرِ الحاء: هم القومُ المجتمعون المتجاورون، والمرادُ سكانُ الحَرَمِ^(٣).

الأساس: «حَلَلْتُ بالقومِ وحَلَلْتُ الدارَ، وهي مَحَلَّتْهم وحِلَّتْهم، وحيَّ حِلَّةً وحِلالاً: حالون في مكان».

قوله: (صَلِيْبُهُمْ)، يقال: جاءَ الرومُ ومعهم الصُّلْبَانُ. والمَحَالَّةُ والمَحَال: الحيلة، ويقال: المرءُ يعجزُ لا مَحَالَّةَ. قيل: المِحَال: العقوبة، وقيل: القوة، من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

قوله: (فَأَمْرٌ ما)، زائدةٌ مؤكِّدةٌ، أو موصولةٌ، أي: الذي بَدَا لَكَ من المصلحة. في «النهاية»:

(١) كذا في «الصحاح» (٢: ٤٧١ - ذود) للجوهري.

(٢) في (ف): «ملكه»!

(٣) في (ف): «بيان، ولعلها بَيَّات».

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطيرٍ من نحو اليمنِ فقال: والله إنها لطيْرٌ غريبةٌ ما هي
ببحريّةٍ ولا تهايميّة. وفيه: أن أهل مكة قد احتوا على أموالهم، وجمع عبدُ المطلب من
جواهرهم وذهبهم الجوّز، وكان سببَ يساره. وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه،
أنه سُئل عن الطيرِ فقال: حمامٌ مكة منها. وقيل: جاءت عشيّةً ثم صبّحتهم. وعن
عكرمة: من أصابته جدّرتُه وهو أوّل جدريّ ظهر. وقرئ: (لم ترّ) بسكونِ الرّاءِ
للجدِّ في إظهارِ أثرِ الجازم،

«غَدَوْا» بالغين المعجمة: «الغدُو»: أصلُ الغد، وهو اليومُ الذي يأتي بعدَ يومك، فحذفت
لامه. ولم يُستعمل تاماً إلا في الشعر، ومنه قولُ الشاعر:

وما الناسُ إلا كالديارِ وأهلِها بها يومٌ حلّوها وغدوّاً بلاقع^(١)

ولم يُردْ عبدُ المطلبِ الغدَ بعينه، وإنما أرادَ القريبَ من الزمان.

قوله: (الجوّز)، بفتح الجيم وسكونِ الواو وبالراءِ، من نسخةٍ قوبلتُ بخط^(٢) المصنّف:
المالُ الكثير؛ سُمي بذلك لمجاوزته الحدَّ في الجمع. وروي بالحاءِ والزاي. الجوهري: «الجوّزُ:
الجمع، وكلُّ من صمَّ إلى نفسه شيئاً، فقد حازه حَوْزاً وحيازةً، واحتازه». وروي: «الجوّز»،
الجوهري: «غيثٌ جوّزٌ، إذا كان غزيراً كثيراً المطر، وقيل: جوّزٌ مثلُ نُغر، وأنشدوا:

لا تَسْقِه صَيِّبَ عَزَافٍ جُجُوز^(٣)

العزَفُ: دويُّ الرّعد.

(١) البيت لذي الرُّمّة، انظر: «ديوانه»، ص ١٥٨.

(٢) في (ف): «بأصل».

(٣) البيت لجندل بن المثنى، وقبله:

ياربَّ ربِّ المسلمين بالسُّوز

انظر: «الصحاح» (٢: ٦٠٧ - جار).

والمعنى: أنك رأيت آثار فعلِ الله بالحبشة، وسمعت الأخبارَ به متواترةً، فقامت لك مقامُ المشاهدة. و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصبٍ بـ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، لا بـ ﴿أَلْتَرَرَ﴾؛ لما في ﴿كَيْفَ﴾ من معنى الاستفهام ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضَلَّلَ كَيْدَهُ، إذا جعله ضالاً ضائعاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥]، وقيل لامرئ القيس: الْمَلِكُ الضَّلِيلُ؛ لأنه ضَلَّلَ مُلْكَ أَبِيهِ، أي: ضَيَّعَهُ، يعني: أنهم كادوا البيتَ أولاً ببناءِ القُلَيْسِ، وأرادوا أن يَنْسَخُوا أمره بصرفِ وجوه الحاجِّ إليه، فَضَلَّلَ كَيْدَهُمْ بإيقاعِ الحريقِ فيه؛ وكادوه ثانياً بإرادةِ هدمه، فَضَلَّلَ بِإرسالِ الطيرِ عليهم (أَبَابِيلَ) حَزَائِقَ،

قوله: (والمعنى: أنك رأيت آثار فعلِ الله بالحبشة)، قَالَ الْقَاضِي: ﴿أَلْتَرَرَ﴾: خطابٌ لرسولِ الله ﷺ، وهو وإن لم يَشْهَدْ تلكَ الموقعة، لكنْ شَاهَدَ آثارَهَا وسمعَ بالتواترِ أخبارَهَا، فكانه رآها. وإنما قيل: «كَيْفَ فَعَلَ»، ولم يقل: ما فَعَلَ، لأن المرادَ أن يُذَكَّرَ ما فيها من وجوهِ الدلالةِ على كمالِ علمِ الله وقدرته، وعِزَّةِ نبيِّه وشرفِ رسوله، لأنها من الإرهاصات^(١).

وقال الإمام: «الأشياء لها ذواتٌ ولها كيفيات، والكيفياتُ هي التي يُسَمِّيها المتكلمون «وَجْهَ الدليل»، واستحقاقُ المدحِ إنما يحصلُ برؤيةِ الكيفياتِ لا برؤيةِ الذواتِ، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا﴾ [ق: ٦]. ولا شك أن هذه الواقعة كانت تأسيساً لنبوته وإرهاصاً لرسالته^(٢)، وهو من الرُّهْصِ: الساقِ الأسفلِ من الجدارِ، وذلك أن يتقدم على دَعْوَى النبوةِ ما يشبهُ المعجزةَ، كإِظلالِ الغمامِ لرسولِ الله ﷺ، وتكلمِ الحجرِ والمدْرِ معه.

قوله: (حَزَائِقَ)، أي: جماعات. الأساس: «بين يديه حِرْقَةٌ وحَزِيقَةٌ وحَزِيقٌ، أي: جماعة. ويقال: تَتَابَعُوا كأنهم حِرْقُ الجراد».

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٣٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ٩٢).

الواحدة: إِبَّالَةٌ. وفي أمثالهم: ضَغْتُ عَلَى إِبَّالَةٍ، وهي: الحُرْمَةُ الكبيرة، شُبِّهَتِ الحِرْقَةُ من الطيرِ في تَضَامُّهَا بالإِبَّالَةِ. وقيل: أبايِلٌ مثل عباديدَ وشمايطَ لا واحدَ لها، وقرأ أبو حنيفةَ رحمه الله: (يُزْمِيهِمْ) أي: اللهُ تعالى أو الطيرُ؛ لأنه اسمُ جمعٍ مُذَكَّرٌ؛ وإنما يُوْتَتْ عَلَى المعنى. وَسَجَّيْلٌ: كأنه عِلْمٌ للديوانِ الذي كُتِبَ فيه عذابُ الكفارِ، كما أَنَّ سَجَّيْنًا عِلْمٌ للديوانِ أعمالهم، كأنه قيل: بحجارةٍ من جملةِ العذابِ المكتوبِ المدوّن، واشتقاقه من الإِسْجَالِ وهو الإِرْسَالُ؛ لأنَّ العذابَ موصوفٌ بذلك، وأرْسَلَ عليهم طيراً، فأرسلنا عليهم الطوفان. وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: من طينٍ مطبوخٍ كما يُطْبَخُ الأَجْرُ. وقيل: هو مُعَرَّبٌ من سَنَكِيلٍ. وقيل: من شديدِ عذابه؛

قوله: (ضَغْتُ عَلَى إِبَّالَةٍ)، قَالَ المِيدَانِي: «الإِبَّالَةُ: الحُرْمَةُ من الحطَب، والضَغْتُ: قَبْضَةٌ حَشِيشٍ مختلطةُ الرطبِ باليابس. وَيُرْوَى: إِيْبَالَةٌ، وبعضهم يقول: إِبَّالَةٌ مخففاً. ومعناه: بليَّةٌ عَلَى أُخْرَى»^(١).

قوله: (مثل: عباديد وشمايط)، الجوهري: «العباديد: الفِرْقُ من الناسِ الذاهبون في كَلِّ وَجْهٍ. والشَّمايط: القطعُ المتفرقة، يقال: جاءت الخيلُ شَمايط، أي: متفرقةً أرسالاً». قوله: (من الإِسْجَالِ، وهو الإِرْسَالِ)، الأساس: «هذا مُسْجَلٌ، أي: مرسلٌ مُطْلَقٌ، إن شاء أخذه، وإن شاء لم يأخذه. وأُسْجِلَتِ البهيمةُ مع أمها: إذا أُرْسِلَتْ».

قوله: (وقيل: من شديد عذابه)، قَالَ الزجاجة: «والعربُ إذا وَصَفَتِ المكروهَ بسَجَّيْلٍ، فإنها تعني به الشدَّة، ولا يوصفُ به غيرُ المكروه، قَالَ ابنُ مِقْبَلٍ:

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضاحيةً صَرَبًا تَواصى به الأبطالُ سَجَّيْنًا^(٢)

وفي حاشية كتابه: كذا أنشده أبو عبيدة في «مجازة»^(٣)، وفي شعرِ ابنِ مِقْبَلٍ: سَجَّيْنًا،

(١) «مجمع الأمثال» (١: ٤١٩).

(٢) «ديوان ابن مِقْبَلٍ»، ص ٢٣٦.

(٣) أي: سَجَّيْلًا، انظر: «مجاز القرآن» (٢: ٣١٢).

ورَوَا بَيْتَ ابْنِ مُقْبِلٍ:

ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِيلاً

وإنما هو سَجِينَا، والقصيدَةُ نونيةٌ مشهورةٌ في ديوانه؛ وشبَّهوا بوريقِ الزَّرْعِ إذا أُكِلَ، أي: وَقَعَ فِيهِ الْأَكَالُ: وهو أن يأكله الدُّود. أو يَتَبَّنِ أَكَلْتَهُ الدَّوَابُّ وَرَأَيْتَهُ؛ ولكنه جاء على ما عليه آدابُ القرآن، كقوله: ﴿كَأَنَّا يَا كُفْلَانَ الطَّلْعَامُ﴾ [المائدة: ٧٥] أو أريد: أُكِلَ حَبُّهُ فَبَقِيَ صِفْرًا مِنْهُ.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفِيلِ، أَعْفَاهُ اللَّهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ مِنَ الْحَسْفِ وَالْمَسْخِ».

وهو الصواب. الرَّجْلَةُ: جماعةُ الراجل، وضاحيةٌ كلُّ شيءٍ: ناحيته البارزة، سَجِينًا: صفةٌ «ضَرْبًا»^(١). وفي غيرِ روايةِ الزجاج:

البيضُ عن عُرضِ

البيض: السُّيُوف. وعُرُضُ كُلِّ شيءٍ، بالغينِ المعجمةِ^(٢) مضمومةٌ: وَسَطُهُ، وقيل: ناحيته.

أي: رُبَّ رَجُلَةٍ يَضْرِبُونَ السُّيُوفَ فِي الْمَعْرَكَةِ عَنْ جَوَانِبٍ مُخْتَلِفَةٍ ضَرْبًا شَدِيدًا، كما تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ.

قوله: (كقوله: ﴿كَأَنَّا يَا كُفْلَانَ الطَّلْعَامُ﴾ [المائدة: ٧٥])، يعني: عُبِّرَ عَنِ الرَّوْثِ

وعن فَضْلَاتِ الْإِنْسَانِ فِي الْآيَاتِينَ بِمَا ذُكِرَ مِرَاعَاةَ الْحُسْنِ الْأَدَبِ؛ شُبَّهَ تَقَطُّعُ أَوْصَالِهِمْ بِتَفَرُّقِ أَجْزَاءِ الرَّوْثِ، وَفِيهِ مَعَ تِلْكَ الْمِرَاعَاةِ إِظْهَارُ تَنْسُوِيهِ حَالِهِمْ وَسَوْءِ مَالِهِمْ.

قوله: (أَكَلَّ حَبُّهُ فَبَقِيَ صِفْرًا)، أي: خَالِيًا مِنَ الْخَيْرِ. المعنى: كَعَضْفِ مَا كَوَّلَ الْحَبَّ،

كما يقال: فَلَانٌ حَسَنٌ، أي: حَسَنُ الْوَجْهِ، حُذِفَ لِكَوْنِهِ مَعْلُومًا، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ^(٣).

تَمَّتِ السُّورَةُ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٦٤).

(٢) لعل صوابه: بالعين المهملة.

(٣) انظر: «البيسيط» (٢٤: ٣٣١) للواحددي.

سورة قريش

مكية، وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[لَا يَلْفِيفُ قُرَيْشٌ * إِذْ لَبِثَتْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ] [٤ - ١]

﴿لَا يَلْفِيفُ قُرَيْشٌ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم
الرحلتين.

فإن قلت: فلم دخلت الفاء؟

سورة قريش

أربع آيات، مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿فَلِمَ دخلتِ الفاء﴾، الفاء دخلت على الإنكار، أي: إذا كان «لإيلاف» متعلقاً بقوله
«فليعبدوا»، فلم دخلت فاء التعقيب بين العامل ومعموله؟ وأجاب أن الفاء جزاء شرط
محذوف ولا بُد من هذا التقدير؛ لأنه إذا كان التقدير: فليعبدوه لإيلاف قريش، تبقى الفاء

(١) في (ط): «مدنية، وهي خمس آيات»، وكونها خمس آيات هو عدُّ المكيين والمدنيين، أما كونها أربع
آيات فهو عدُّ غيرهم. انظر: «البيان» للداني ص ٢٩٠.

قلتُ: لما في الكلام من معنى الشرط، لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم، على معنى: أن نعم الله عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. وقيل: المعنى: اعجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هو متعلق بما قبله، أي: فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلاف قريش، وهذا بمنزلة التضمين في الشعر: وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به، وهما في مصحف أبي سورة واحدة، بلا فصل. وعن عمر: أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب.....

ولا متعلق لها. ويجوز أن يُحمل على التوكيد والفاء للتعقيب، كما يقال: لإيلاف قريش ليعبدوه، فليعبدوا، وكذا قوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾^(١)، وقد مرَّ عن الزبير عن الزجاج جوازُه، وعليه قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]، قال: «دخلتِ الفاءُ المعنى الشرط، كأنه قيل: وما كانَ فلا تدعُ تكبيره»^(٢).

قوله: (لأن المعنى: إما لا فليعبدوه)، روي عن المصنف أنه قال: تقول العرب: أفعُل هذا إما لا، أي: إن كنت لا تفعل غيره فافعل هذا، و«ما» مزيدة، عوض من «كان» المحذوفة، وقد أمالوا «لا»^(٣) لأنه ساد مسد الفعل كلبى، ولقيامها مقام الفعل، ويقال: أعطني هذا إما لا.

قوله: (فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلاف قريش)، قال الزجاج: «المعنى: أهلك الله أصحاب الفيل، لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف»^(٤).

قوله: (في الثانية من صلاة المغرب)، أي: في الركعة الثانية، وفي الركعة الأولى سورة والتين، هذا ظاهرٌ بأنها سورة واحدة.

(١) تمام الآية: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(٢) سقط قوله: «عن الزبير» من (ط).

(٣) سقط لفظ «لا» من (ح)، (ف).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٦٥).

وقرأ في الأولى: (والتين). والمعنى أنه أهلك الحبيشة الذين قَصَدوهم ليتسامع الناس بذلك، فيتَهَيَّبُوهم زيادةً تَهَيَّبٍ، ويَحْتَرِمُوهم فضلَ احترام، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم، فلا يجترىء أحدٌ عليهم، وكانت لقريش رحلتان؛ يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولادة بيته، فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم، والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلاًفاً: إذا آلفته، فأنا مؤلف. قال:

مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الزَّهْوِ غَيْرِ الْأَوَارِكِ

وقري: (لثلاف قريش) أي: لمؤالفة قريش.

قوله: (من المؤلِّفات)، يقال: آلفتُ المكانَ أولفُهُ إيلاًفاً إذا آلفته، فأنا مؤلف. الزَّهْوُ غيرُ الإدراك، الزَّهْوُ: البَقْلُ، والزَّهْوُ أيضاً البُسْرُ الملوّن. ويقال: زَهَتِ الإبِلُ زَهْواً، إذا سارت بعدَ الوَرْدِ ليلَةً وأكثر. وزَهْوَتْها أنا: يتعدى ولا يتعدى. وإبِلٌ زاهيةٌ^(١): لا ترعى^(٢) الحَمْضَ. وبعضهم يزوي: الزَّهْوُ بالزَّاءِ، وهو السيرُ السَّهْلُ، يقال: جاءت الخيلُ رَهْواً. الأوارِكُ جمعُ أَرَكَة، وهي الإبِلُ الأكلُ للأرَاك. الجوهري: «أرَكَتْ إذا قامت في الأراك، وهي الحَمْضُ، فهي أَرَكَة، والجمعُ: أوارِك».

قوله: (أي: لمؤالفة قريش)، قيل: على هذا، إلف^(٣) مصدرُ فاعلٌ، فيكونُ بمعنى مؤالفة، نحو: ضاربٌ مضاربةً وضرباً.

(١) في «اللسان» (زها)، قال ابن الأعرابي: «الإبِلُ إبِلان: إبِلٌ زاهية لا تقربُ العِضاء، وهي الزواهي. وإبِلٌ عاضيةٌ ترعى العِضاء، وهي أحمدها وخيرها».

(٢) في (ط): «ترعى».

(٣) في (ف): «الإنف»، وليس بصواب، قال أبو علي: «الإلفُ والإلافُ مصدرُ أَلَفَ، والإيلافُ مصدرُ أَلَفَ». «الحجة» (٦: ٤٤٦).

وقيل: يقال: أَلْفَتْهُ الْفَأَ وَالْإِفَاءَ. وقرأ أبو جعفر: (لِإِلْفِ قَرِيْشٍ)، وقد جَمَعَهَا مَنْ قَالَ:

رَعَمْتُمْ أَنْ إِنْخَوْتَكُمْ قُرَيْشٍ هُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلْفٌ

وقرأ عِكْرَمَةَ: (لِيَأْلَفَ قَرِيْشُ إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ). وقريش: ولدُ النَّضْرِ ابنِ كِنَانَةَ، سُمُّوا بِتَصْغِيرِ الْقَرْشِ: وَهُوَ دَابَّةٌ عَظِيْمَةٌ فِي الْبَحْرِ تَعْبُثُ بِالسُّفْنِ، وَلَا تُطَاقُ إِلَّا بِالنَّارِ. وَعَنْ مَعَاوِيَةَ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: بِمِ سُمِّيَتْ قَرِيْشٌ؟ قَالَ: بِدَابَّةٍ فِي الْبَحْرِ تَأْكُلُ وَلَا تُؤْكَلُ، وَتَعْلُو وَلَا تُعْلَى. وَأَنْشُد:

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْـ رَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا

قوله: (وقيل)، إشارة إلى أنه مصدرُ فَعَلٍ، نحو: كَتَبَ كِتَابًا.

قوله: (رَعَمْتُمْ) البيت، بعده: [الوافر]:

أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاعت بنو أسدٍ وخافوا

قائله مساورُ بنُ هِنْدٍ يَهْجُو بَنِي أَسَدٍ^(١)، ويقول: إنكم لستم من قريش ولا قريش منكم، فدعواكم أخوتهم بهم باطلة؛ لأنهم أطعموا من جوع وأومنوا من خوف، ولستم كذلك، قال المصنفُ رحمه الله: وهذا من أبيات المعاني: المصراعُ الأوَّلُ حكايةٌ لدعواهم، والمصراعُ الثاني احتجاجٌ عليهم وإلزام.

قوله: (وقريش هي التي) البيت، بعده على ما رواه الواحدي ومحيي السنة للجُمحي^(٢):

قُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْـ رَ، بِهَا سُمِّيَتْ قَرِيْشٌ قَرِيْشًا
تَأْكُلُ الْعُثَّ وَالسَّمِيْنَ وَلَا تُتْـ رُكُّ يَوْمًا لِذِي جَنَاحِيْنَ رِيْشًا

(١) انظر: «شرح ديوان الحماسة» (٣: ١٠١٣) للمرزوقي.

(٢) انظر «الوسيط» (٤: ٥٥٦) للواحدي و«معالم التنزيل» (٨: ٥٤٦) للبغوي.

والتصغيرُ للتعظيم. وقيل: مِنَ الْقَرْشِ وهو الكَسْبُ: لأنهم كانوا كَسَّابِينَ بتجاراتهم وَضَرَبَهُمْ فِي الْبِلَادِ. أَطْلَقَ الْإِيْلَافَ ثُمَّ أَبْدَلَ عَنْهُ الْمَقِيدَ بِالرَّحْلَتَيْنِ، تَفْخِيماً لِأَمْرِ الْإِيْلَافِ، وَتَذْكَيراً بِعِظَمِ النِّعْمَةِ فِيهِ؛ وَنَصَبَ الرَّحْلَةَ بِيْلَافِهِمْ مَفْعُولاً بِهِ، كَمَا نَصَبَ ﴿يَتِيمًا﴾ بِـ ﴿إِطْعَمَهُ﴾ [البلد: ١٤]، وَأَرَادَ رَحْلَتِي الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ، فَأَفْرَدَ لِأَمْنِ الْإِلْبَاسِ، كَقَوْلِهِ:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ

وقرى: (رُحْلَةٌ) بِالضَّمِّ: وَهِيَ الْجِهَةُ الَّتِي يُرْحَلُ إِلَيْهَا. وَالتَّنْكِيرُ فِي ﴿جُوعٌ﴾ وَ﴿خَوْفٌ﴾ لِشِدَّتَيْهَا، يَعْنِي: أَطْعَمَهُم بِالرَّحْلَتَيْنِ مِنْ جُوعٍ شَدِيدٍ كَانُوا فِيهِ قَبْلَهَا، وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ عَظِيمٍ وَهُوَ خَوْفُ أَصْحَابِ الْفِيلِ، أَوْ خَوْفُ التَّخْطَفِ فِي بِلَدِهِمْ وَمَسَايِرِهِمْ. وَقِيلَ: كَانُوا قَدْ أَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ حَتَّى أَكَلُوا الْحَيْفَ وَالْعِظَامَ الْمُحْرِقَةَ، وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفِ الْجُنَادِ فَلَا يَصِيْبُهُمْ بِلَدِهِمْ.....

هكذا في البلادِ حيِّي قريشِ
ياكلونَ البلادَ أكلاً كميثاً
ولهـم آخرَ الزمانِ نبِيٌّ
يُكثرُ القتلَ فيهم والخموشاً^(١)

قوله: (كَمَا نَصَبَ ﴿يَتِيمًا﴾ بِـ ﴿إِطْعَمَهُ﴾ [البلد: ١٤])، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «﴿يَتِيمًا﴾ مَفْعُولٌ ﴿إِطْعَمَهُ﴾، وَذَهَبَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ إِلَى أَنَّ الْمَصْدَرَ إِذَا عَمَلَ فِي الْمَفْعُولِ، كَانَ فِيهِ ضَمِيرٌ كَالضَّمِيرِ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ»^(٢).

قوله: (وَهِى الْجِهَةُ الَّتِي يُرْحَلُ إِلَيْهَا)، وَفِي الْكَوَاشِي: «أَصْلُ الرَّحْلَةِ السَّيْرُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ لِكُلِّ سَيْرٍ».

(١) كميثاً: سريعاً، والخموش جمع الخمش، كالحذش في الوجه والبدن.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٨٩) للعكبري.

وقيل: ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف، من أن تكون الخلافة في غيرهم. وقرئ: ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ بإخفاء النون.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة ﴿لَا يَلْفُ فَرِيضٍ﴾، أعطاه الله عشر حسناتٍ بعددٍ مَنْ طاف بالكعبة واعتكف بها».

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سورة الماعون

مكية، وقيل مدنية، وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ * وَلَا يَحْصُ
عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ١ - ٧].

قري: أَرَيْتَ، بحذف الهمزة، وليس بالاختيار؛ لأن حذفها مختص بالمضارع،
ولم يصحَّ عن العرب: رَيْتَ،

سورة الماعون

مدنية، وهي ست آيات^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (قُرَيْعَ: «أَرَيْتَ»)، قراءة الكسائي، قال: «إنما سهَّل من أمرها وقوع حرف
الاستفهام»، أي: إذا وقع في أوله حرف الاستفهام، نُقلَ همزة أخرى بعدها، فحذف.

(١) كذا في (ط)، وفي (ف): «سورة الدين، سبع آيات، مكية إجماعاً»، وهي سبع آيات في عدِّ الكوفيين
والبصريين، وست في عدِّ غيرهم. انظر «البيان» للداني ص ٢٩١.

ولكن الذي سهّل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام، ونحوه:

صاح هل رأيت أو سمعت براع رَدَّ في الصَّرْع ما قرى في الحلاب؟

وقرأ ابن مسعود: (أرأيتك) بزيادة حرف الخطاب، كقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]. والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَلِكَ الَّذِي﴾ يكذب بالجزاء، هو الذي ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾، أي: يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى، ويردّه ردّا قبيحا بزجر وحُشونة. وقرئ: (يدع)، أي: يترك ويخفو، ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين،.....

قوله: (صاح) البيت، وفي معناه قول أبي الطيب:

وما ماضي الشَّبَابِ بمسردٍ وما يومٌ يمرُّ بمُسْتَعَادٍ^(١)

أصله: يا صاحب، فرخم. والقري جمع الماء في الحوض. والعُلبَةُ القَدْحُ الذي يُخلَبُ فيه، من الخشب، والجمع: عُلبٌ وعِلاب^(٢)، يقول: يا صاحب، هل رأيت أو سمعت براع رَدَّ إلى الصَّرْع ما حلب من اللبن، وجمعه في القَدْح؟

قوله: (أرأيتك، بزيادة حرف الخطاب)، عن بعضهم: أكد معنى الخطاب في التاء بالكاف.

قوله: ﴿وَلَا يَحْضُ﴾: ولا يبعث أهله، الراغب: «الحض: التحريض كالحث، إلا أن الحث يكون بسير وسوق، والحض لا يكون بذلك. وأصله: الحث على الحضيض وهو قراة الأرض»^(٣).

(١) من قصيدة مطلعها:

أحادٌ أم سُداسٌ في أحادٍ لَيْلَتُنَا المنوطة بالتنادي

انظر: «العرف الطيب» (١: ٢٠٩).

(٢) العلاب، في الرواية الثانية للبيت، بدل «الحلاب». انظر: «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٠٤)، و«روح المعاني» (١٥: ٤٧٥).

(٣) «مفردات القرآن»، ص ٢٤١.

جَعَلَ عَلَّمَ التَّكْذِيبِ بِالْجِزَاءِ مَنَعَ الْمَعْرُوفِ وَالْإِقْدَامَ عَلَى إِيْذَاءِ الضَّعِيفِ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَوْ آمَنَ بِالْجِزَاءِ وَأَيَّقَنَ بِالْوَعِيدِ، لَحَشِيَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَقَابَهُ وَلَمْ يُقَدِّمَ عَلَى ذَلِكَ، فَحِينَ أَقْدَمَ عَلَيْهِ: عَلَى أَنَّهُ مُكَذَّبٌ، فَمَا أَشَدَّهُ مِنْ كَلَامٍ، وَمَا أَخَوْفَهُ مِنْ مَقَامٍ، وَمَا أْبْلَغَهُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِأَنْ يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ وَرَخَاوَةِ عَقْدِ الْيَقِينِ، ثُمَّ وَصَلَ بِهِ قَوْلُهُ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ يَسْهَوْنَ عَنِ الصَّلَاةِ قَلَّةً مِبَالَاةٍ بِهَا، حَتَّى تَفُوتَهُمْ أَوْ يَخْرُجَ وَقْتُهَا، أَوْ لَا يُصَلُّونَهَا كَمَا صَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالسَّلْفُ،

قَوْلُهُ: (الَّذِينَ يَسْهَوْنَ عَنِ الصَّلَاةِ)، الرَّاعِبُ: السَّهْوُ خَطَأٌ عَنِ غَفْلَةٍ، وَذَلِكَ ضَرِبَانٌ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِنْسَانِ جَوَالِيَهُ وَمَوْلِدَاتُهُ، كَمَنْ شَرِبَ خَمْرًا ثُمَّ ظَهَرَ مِنْهُ مَنَكْرٌ لَا عَنْ قَصْدٍ. وَالثَّانِي أَنْ لَا يَكُونَ مِنْهُ مَوْلِدَاتُهُ، كَمَجْنُونٍ سَبَّ إِنْسَانًا؛ فَالثَّانِي مَغْفُوفٌ عَنْهُ، وَالْأَوَّلُ مَاخُودٌ بِهِ، وَعَلَى نَحْوِ الْأَوَّلِ ذَمُّ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿^(١).

قَوْلُهُ: (أَوْ لَا يُصَلُّونَهَا)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «يَسْهَوْنَ عَنِ الصَّلَاةِ»، كَأَنَّهُ قَالَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: إِخْرَاجُهَا عَنْ وَقْتِهَا قَلَّةً مِبَالَاةً، أَوْ تَرْكُ أِبْعَاضِهَا وَهِيَائِهَا وَأَدَائِهَا وَالطَّمَانِينَةَ فِيهَا غَفْلَةً وَسَهْوًا، وَلِذَلِكَ قَالَ: «وَلَكِنْ يَنْقُرُونَهَا نَقْرَ الطَّائِرِ الْحَبَّةِ»^(٢).

عَنْ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُبَيْلٍ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَافْتِرَاشِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوْطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ كَمَا يُوْطَّنُ الْبَعِيرُ»^(٣). وَعَنْ الْبُخَارِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: «رَأَى حَذِيفَةَ رَجُلًا يَصَلِّيَ فَطَقَّفَ، فَقَالَ لَهُ حَذِيفَةُ: مُذْ كَمْ تَصَلِّيَ هَذِهِ

(١) «مفردات القرآن»، ص ٤٣١.

(٢) في «الكشاف» (في الصفحة التالية): «ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات».

(٣) أخرجه أبو داود (٨٦٢) والنسائي (١١١٢).

ولكن يَنقرونها نقرأ مِن غيرِ خشوعٍ وإخباتٍ ولا اجتنابٍ لما يُكرهُ فيها: من العَبَثِ باللَّحِيَةِ والثِيَابِ وكثرةِ التَّثَاوُبِ والالتفاتِ، لا يَدْرِي الواحدُ منهم عن كمِ أَنْصَرَفَ، ولا ما قرأَ مِنَ السُّورِ، وكما ترى صلاةَ أكثرَ مَنْ ترى، الذين عادتُهُمُ الرِّياءُ بأعمالِهِمُ ومنعُ حقوقِ أموالِهِمُ. والمعنى: أن هؤلاء أحقُّ بأن يكونَ سَهُوَهُمُ عن الصلاةِ التي هي عمادُ الدِّينِ، والفارقُ بين الإيمانِ والكفرِ، والرِّياءُ الذي هو شعبةٌ من الشُّركِ، ومنعُ الزكاةِ التي هي شقيقةُ الصلاةِ وكنزَةُ الإسلامِ، عَلِمًا على أنهم مكذِّبونَ بالدِّينِ.....

الصلاة؟ قال: منذ أربعين سنة. قال: ما صليت منذ أربعين سنة، ولو مت وأنت تصلي هذه الصلاة، مت على غيرِ فطرةِ محمدٍ ﷺ، ثم قال: إن الرجلَ لَيُخَفِّفُ وَيُتَمِّمُ وَيُحْسِنُ^(١).

قوله: (والرِّياءُ... ومنعُ الزكاةِ)، هما مرفوعانِ على العطفِ على اسمِ «يكون»، وهو «سهوهم». والخبرُ: «علماً»، فيقدَّرُ للمعطوفِ عليهما مثلُ هذا الخبرِ، على منوالِ قولِ الشاعرِ:

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ، والرأيُ مختلفُ^(٢)

وإنما جُعِلَ المذكوراتُ عَلِمًا على أنهم مكذِّبونَ بالدِّينِ، لما قالَ آنفاً، ثم وُصِّلَ به قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، أي: وُصِّلَ به اتصالُ المسبِّبِ بالسَّببِ، والجزاءُ بالشرطِ، على سبيلِ الترقِّي، كأنه قيل: هل عرفتَ الذي يكذبُ بالجزاءِ مَنْ هو؟ فإن لم تعرفه، فاعرف أنه الدافعُ للبتيم المانعُ يره، وهل عرفتَ أعظمَ من ذلك وأدهى منه؟ فإن تاركَ الصلاةِ والزكاةِ والمرايِ أعظمُ منه، لأن العبادَةَ هي المقصودةُ بالذاتِ من خَلْقِ العالمِ.

فعلى هذا، الواجبُ أن يُفسَّرَ ﴿الْمَاعُونَ﴾ بمنعِ الزكاةِ، تميمًا لذكرِ الصلاةِ لا ترقياً، فثبتَ أن إنكارَ الجزاءِ هو الأصلُ في إبطالِ الحكمةِ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وشرعيةِ العباداتِ، والحضُّ على سائرِ المبرّاتِ والخيراتِ، والعيادُ باللهِ من ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٧٩١) والنسائي (١٣١٢).

(٢) البيت للشاعر قيس بن الخطيم في «ملحق ديوانه»، ص ٢٣٩.

وكم ترى من المُتَسَمِّينَ بالإسلام، بل من العلماءِ منهم مَنْ هو على هذه الصفة، فيا مصيبتاه! وطريقةٌ أخرى: أن يكونَ ﴿فَذَلِكَ﴾ عطفاً على ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ﴾ إِمَّا عطفَ ذاتٍ على ذاتٍ، أو صفةٍ على صفةٍ،

قال الإمام: «اعلم أن إنكارَ القيامةِ كالأصلِ لجميعِ أنواعِ الكفرِ والمعاصي؛ لأنه تعالى جعلَ عَلَمَ التكذيبِ بالقيامةِ، الإقدامَ على إيذاءِ الضعيفِ ومنعِ المعروفِ. يعني أنه لو آمنَ بالجزاءِ وأيقنَ بالوعيدِ، لما صدَرَ عنه ذلك؛ فموجبُ الذنبِ هو التكذيبُ بالقيامةِ»^(١).

قوله: (إمَّا عطفَ ذاتٍ على ذاتٍ، أو صفةٍ على صفةٍ)، وعلى الوجهِ الأولِ، الفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ لقوله: «إن لم تعرفه فذلك»، أي: فاعرفُ أنه ذلك الذي يكذبُ بالجزاءِ، فالتعريفُ في «الذي»، على تقديرِ الذاتِ للعهدِ، وعلى تقديرِ الوصفِ يحتملُ الجنسَ أيضاً، ولذلك اختلفَ المفسرون: عن مقاتل: الذي يكذبُ بالدينِ، هو العاصِ بنُ وائلٍ. وعن السدي ومقاتل: هو الوليدُ بنُ المغيرة. وعن ابنِ عباس: رجلٌ من المنافقين. هذا في «المعالم»^(٢). وفي الكواشي: «لا تقفُ على ﴿الْمَسْكِينِ﴾ إن جعلتَ ﴿الَّذِي﴾ جنساً، وجعلتَ «المصلين» داخلاً في جملةِ الكلامِ. ويكونُ جوابُ «أرأيتَ» - أي متعلقه - محذوفاً، تقديره: ما تقولُ فيمن يكذبُ بالحقِّ ويدفعُ اليتيمَ ويؤذي المسكينَ؟ أحسنُ فعلٍ! فويلُ لهم، فوضعَ «المصلين» موضعَ لهم».

قلتُ: من هذا يُعلمُ أن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، على الأولِ منقطعٌ عن الكلامِ السابقِ، من حيثُ إن المرادَ بالمصلينَ غيرَ المكذبِ بالدينِ، لأنه الكافرُ كالوليدِ والعاصي، و«المصلون»: المسلمون. وإنما جعلَ المنعُ بالمعروفِ والإقدامُ على إيذاءِ الضعيفِ عَلَماً للتكذيبِ بالجزاءِ، ليؤذنَ بأنها من الشدةِ والغلظةِ بمكانٍ ينبغي أن يحترزَ المؤمنونَ عن أمثالها، لأنها من أوصافِ الكافرينِ المكذبينَ بيومِ الدينِ، وإليه الإشارةُ بقوله: «فما أشدَّه من كلامٍ، وما أخوفه من مقامٍ!، وأنها جديرةٌ بأن يُستدلَّ بها على صغفِ^(٣) الإيمان».

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٠٦).

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٥٤٩) للبيهقي.

(٣) في (ف): «حفظ»!

ويكون جواب ﴿أَرَأَيْتَ﴾ محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، كأنه قيل: أخبرني، وما تقول فيمن يكذب بالجزاء؟ وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين؟ أنعم ما يصنع؟ ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي: إذا علم أنه مسيء، فويل للمصلين، على معنى: فويل لهم، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم؛ لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرثين، غير مزكين أموالهم.

فإن قلت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذب، وهو واحد؟ قلت: معناه الجمع، لأن المراد به الجنس.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ وبين قولك: (في صلاتهم)؟ قلت: معنى: (عن): أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى (في): أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم.

والذي يدل على أن المراد بالمصلين غير المكذب، قوله: «ثم وصل به قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾»، كأنه قال: «فإذا كان الأمر كذلك، فويل للمصلين الذين يسهون»، حيث ذكر لفظ «الأمر»، ولم يذكر أن «المصلين» من وضع المظهر موضع المضمير بخلافه في الوجه الأخير، فإنه قال: «أي: إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين، على معنى: فويل لهم». فعلى هذا، المراد بالمصلين: المكذب كما قال: «لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة»، قال الإمام: «فعلى هذا التقدير، الآية دالة على أن الكافر له مزيد عقوبة، بسبب إقدامه على محظورات الشرع، وتركه لواجبات الدين، وهو يدل على صحة قول الشافعي: إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع»^(١).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٠٧).

وعن أنس رضي الله عنه: الحمد لله على أن لم يقل: في صلاتهم. وقرأ ابن مسعود: (لا هون).

فإن قلت: ما معنى المراءاة؟

قوله: (وعن أنس: الحمد لله على أن لم يقل: في صلاتهم)، قال الإمام: «روي عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: لو قال تعالى: في صلاتهم ساهون، لكان هذا الوعيد في المؤمنين أولى، لكنه قال: عن صلاتهم ساهون. والساهي عن الصلاة هو الذي لا يذكرها، ويكون فارغاً عنها. وهذا القول ضعيف، لأن السهوَ عن الصلاة لا يجوز أن يكون مفسراً بترك الصلاة، لأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، وأيضاً فإن السهوَ عن الصلاة بمعنى التَّرك، لا يكون نفاقاً ولا كفراً. ويمكن أن يجاب عن الأول، بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مصلين نظراً إلى الصلاة، وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظراً إلى المعنى، كما قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]»^(١).

وقلت: ويمكن أن يقال: إن المراد بالمصلين، مَنْ مِنْ شأنه أن يؤدي ما عليه من شكر نعم الله، ولذلك أضافها في قوله «عن صلاتهم» إليهم، ليؤذن بأنها حق ثابت لازم على المكلف، ومن حقه أن لا يتجاوز عن الإقامة عليها وحفظ أركانها وهيئاتها وسُنَنِها، إلى السهوَ فضلاً عن التَّرك. هذا مبني على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع. وقال الإمام: «ويجاب عن الاعتراض الثاني بأن النسيان عن الصلاة، هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة، وهذا لا يصدر إلا عن المنافق الذي يعتقد أن لا فائدة في الصلاة. وأما المسلم الذي يعتقد فيها الفوائد، فيمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب في شيء من أجزائها. نعم، قد يتطرق له السهوَ في بعض أجزائها، فثبت أن السهوَ في الصلاة من أفعال المؤمن، وعن الصلاة من أفعال الكافر»^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٠٧) بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

قلت: هي مفاعلةٌ من الإراءة، لأن المرائي يُري الناسَ عمله، وهم يُرونه الشناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجلُ مرائياً بإظهارِ العملِ الصالحِ إن كانَ فريضةً، فمن حقِّ الفرائضِ الإعلانُ بها وتَشهيرها، لقوله عليه الصلاةُ والسلام: «ولا عُمةَ في فرائضِ الله»؛ لأنها أعلامُ الإسلامِ وشعائرُ الدين؛ ولأن تاركها يستحقُّ الذمَّ والمقت، فوجبَ إماطةُ التُّهمةِ بالإظهار؛ وإن كانَ تطوعاً، فحقُّه أن يُخفى، لأنه مما لا يُلامُّ بتركه ولا تُهمةٌ فيه؛ فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جليلاً، وإنما الرياءُ أن يقصدَ بالإظهارِ أن تراه العين، فبئسَ عليه بالصلاح. وعن بعضهم: أنه رأى رجلاً في المسجدِ قد سجدَ سجدةَ الشُّكرِ وأطالها، فقال: ما أحسنَ هذا لو كان في بيتك؛ وإنما قالَ هذا لأنه توسمَ فيه الرياءَ والسُّمعة؛ على أن اجتنابَ الرياءِ صعبٌ إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: «الرياءُ أخفى من دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ المظلمةِ على المسحِ الأسود». «الماعون» الزكاة، قال الراعي:

قومٌ على الإسلامِ لما يَمْنَعُوا مَاعُوهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا

قولُه: (ولا عُمة)، وروى: ولا غررَ في فرائضِ الله. النهاية: «في حديثِ وائلِ بنِ حُجر: أي: ولا تُسترُ وتُخفى فرائضه، وإنما تُظهرُ وتُعلنُ ويُجهرُ بها».

قولُه: (قومٌ على الإسلام) البيت^(١)، المانعون فيه الزكاة، تعريضُ بأهلِ الردة، أي: لسنا من أهلِ الردةِ حتى تُعاملونا معاملةً لهم.

(١) البيت للراعي النميري من قصيدته الذائعة الصيت، التي مدح فيها عبد الملك بن مروان، وشكا إليه من السُّعاة، ومطلعها:

ما بالُ دَفكٍ بالفراشِ مذيلاً أقذَى بعينك أم أردتَ رحيلَا

وعن ابن مسعود: ما يُتَعَاوَرُ فِي الْعَادَةِ مِنَ الْفَأْسِ وَالْقَدْرِ وَالذَّلْوِ وَالْمِقْدَحَةِ وَنَحْوِهَا.
وعن عائشة: الْمَاءُ وَالنَّارُ وَالْمِلْحُ؛ وَقَدْ يَكُونُ مَنَعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَحْظُورًا فِي الشَّرِيعَةِ إِذَا
اسْتَعِيرَتْ عَنْ اضْطِرَارٍ، وَقَبِيحًا فِي الْمَرْوَةِ فِي غَيْرِ حَالِ الضَّرُورَةِ.
عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿أَرْزَأَيْتَ﴾، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ إِنْ كَانَ لِلزَّكَاةِ مُؤَدِيًا».

قوله: (ما يُتَعَاوَرُ فِي الْعَادَةِ)، الجوهري: «اعتوروا الشيء، أي: تداولوه فيما بينهم،
وكذلك تَعَوَّرُوهُ وَتَعَاوَرُوهُ».

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سورة الكوثر

مكية، وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثِرِ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَر * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ]

[٣-١]

في قراءة رسول الله ﷺ: «إنا أنطيناك» بالنون، وفي حديثه ﷺ: «وأنطوا الشَّجَّة». والكوثر: فَوْعُلٌ من الكثرة، وهو المفرط الكثرة.

سورة الكوثر

ثلاث آيات، مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قولُه: «وأنطوا الشَّجَّة»، النهاية: «وهي لغة اليمن. كتب صلوات الله عليه لوائل: أنطوا الشَّجَّة، أي: أعطوا الوسط من الصدقة، لا من خيار المال ولا من رذالته، وألحقها تاء التأنيث لانقائها من الاسم إلى الوصفية»^(٢).

(١) في (ط): «مدنية، وهي ثلاث آيات»، وفي (ف): «مكية إجماعاً».

(٢) «النهاية» (١: ٢٠٦ - ٢٠٧: ٥ - نطا).

وقيل لأعرابية رجعت إليها من السفر: بم آب ابنيك؟ قالت: آب بكوثر. وقال:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب
وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا

وقيل: الكوثر نهر في الجنة. وعن النبي ﷺ: أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال:

«أندرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وعنديه ربي، فيه خير كثير»، وروي في صفته: «أحلى من العسل، وأشدُّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد؛ حافناه الزبرجد، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء».

قوله: (ابن العقائل)، أي: المختار من النساء، وعقيلة كل شيء أكرمه. والكوثر من الرجال: الكثير الخير والعطاء. والبيت للكُميت^(١).

قوله: (إنه نهر في الجنة)، وروينا في صحيح البخاري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال في الكوثر: «هو الكثير الخير». قيل لابن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: «النهر الذي في الجنة، من الخير الذي أعطاه الله تعالى إياه»^(٢).

وعن أحمد بن حنبل والترمذي وابن ماجه والدارمي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافناه من ذهب، ومجره على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج»^(٣).

وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: «شاطئه دُرٌّ مجوف، وآبته كعدد نجوم السماء»، أخرجه البخاري^(٤).

(١) انظر: «ديوانه»، ص ١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥٩١٣) والترمذي (٣٣٦١) وابن ماجه (٤٣٣٤) والدارمي (٢٨٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٦٥).

وروي: «لا يظمأ من شرب منه أبداً: أول وارديه: فقراء المهاجرين: الدنسو الثياب، الشعث الرؤوس، الذين لا يزوجون المتعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد»، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره، لو أقسم على الله لأبره.....

قوله: (لا تفتح لهم أبواب السدد)، الحديث من رواية الترمذي عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «حوضي مثل ما بين عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليّ فقراء المهاجرين، الشعث رؤوساً، الدنس ثياباً، الذين لا ينكحون المتعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد»^(١). وقال الترمذي: قال عمر بن عبد العزيز: قد نكحت المتعمات فاطمة بنت عبد الملك، وفتحت لي أبواب السدد. لا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ^(٢).

وفي «الجامع»: «السدد جمع سدة، وهي الباب هاهنا»^(٣). وفي «النهاية»: «السدة كالظلة على الباب لتقي الباب من المطر، وقيل: هي الساحة بين يدي الباب، وقيل: هي الباب نفسه، أي: لا تفتح لهم الأبواب. وفي حديث أبي الدرداء، أنه أتى باب معاوية فلم يؤذن له، فقال: من يغش سدد السلطان يقيم ويقعد».

وقلت: الأشبه أن تحمل الإضافة في أبواب السدد على البيان، فيكتفى بها عن أبواب الملوك والعظماء، على أن يراد بالسدة الظلة أو الساحة.

قوله: (لو أقسم على الله لأبره)، قاله صلوات الله عليه في حديث الربيع، روي عن البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي، عن أنس بن مالك، أن الربيع عمته كسرت ثيابه جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش^(٤) فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، وأبوا إلا

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٤).

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٢٤٤٤).

(٣) «جامع الأصول» (٧٩٩٠) (١٠: ٤٦٤) لابن الأثير.

(٤) الأرش: العوض.

وعن ابن عباسٍ أنه فَسَّرَ الكوثرَ بالخيرِ الكثيرِ، فقال له سعيدُ بنُ جبْرِ: إن ناساً يقولون: هو نهرٌ في الجنة! فقال: هو من الخيرِ الكثيرِ. والنَّحْرُ: نَحْرُ البدنِ؛ وعن عطية: هي صلاةُ الفجرِ بجمعٍ، والنَّحْرُ بومئى. وقيل: صلاةُ العيدِ والتَّضْحِيَّةِ. وقيل: هي جنسُ الصلاةِ. والنَّحْرُ: وضعُ اليمينِ على الشمالِ، والمعنى: أُعْطِيَ ما لا غايةَ لكثرتِهِ من خيرِ الدارينِ الذي لم يُعْطِه أحدٌ غيرك، ومُعْطِي ذلك كلُّه أنا إلهُ العالمينِ،

القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنسُ بنُ النَّضْرِ: يا رسولَ الله، أتُكسرُ نيةُ الرُّبِيعِ؟ لا، والذي بعثك بالحقِّ لا تُكسرُ نيةُها. فقال رسولُ الله ﷺ: يا أنس، أليسَ كتابَ الله القصاص؟ فرضيَ القومُ فَعَفَوْا، فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّ من عبادِ الله من لو أقسمَ على الله لأبره^(١). معناه: لو سألَ الله لأجابَه. والإقسامُ هاهنا بمعنى الاستعطاف.

قوله: (ومُعْطِي ذلك كلُّه أنا إلهُ العالمينِ)، إيذانٌ باختيارِ قولِ ابنِ عباسٍ: إن الكوثرَ الخيرُ الكثيرُ، وبإفادةِ ضميرِ الجمعِ الدالِّ على العظمةِ والكبرياءِ، فإن قائله ليسَ إلا إلهُ العالمينِ، وأن المُعْطِي لم يكن عظيمًا، إلا أن المُعْطِي عظيم. ولأجلِ تَبَيُّنِ المناسبتين، رُتِبَ عليه قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، ووُضِعَ المظهرُ موضعَ المضمَرِ، يعني: كما أنَّ المعطى والمعطيان، فأنتَ بأعظم ما يمكنُ من العباداتِ البدنيةِ والماليةِ.

وإنما أوترَ النَّحْرُ ليدمجَ معنى معطى قطع النفسِ عن اللذاتِ العاجلةِ، وضمَّ مع ذلك ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ تكميلًا لما بَشَّرَه، قال الإمام: «لَمَّا بَشَّرَه بالنَّعمِ العظيمةِ، وقد علمَ أن كمال ذلك إنما يكونُ بقهرِ الأعداءِ، قيل: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾»^(٢).

نَقَلَ السُّلَمِيُّ عن جعفرِ الصادقِ: «إنا أعطيناك نوراً في قلبك ذلكَ عَلَيَّ، وَقَطَعَكَ عَمَّا سِوَايَ. وعن القاسمِ: إنَّ شَانِئَكَ المنقطعُ عن خيراتِ الدارينِ»^(٣)، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣) ومسلم (١٦٧٥) وأبو داود (٤٥٩٥) والنسائي (٤٧٥٧).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٢٥).

(٣) «حقائق التفسير» (٢: ٤٢٢) للسُّلَمِيِّ.

فاجتمعت لك الغيبتان السَّيِّئَتان: إصابةُ أشرفِ عطاء، وأوفره، من أكرمٍ مُعْطٍ وأعظمٍ مُنعم؛ فاعبُد ربَّكَ الذي أعزَّكَ بإعطائه، وشرفَكَ وصانَكَ من مَنِ الخلق، مُرَاغِباً لقومك الذين يعبدون غيرَ الله. ﴿وَأَحْسَرُ﴾ لوجهه وباسمه إذا نَحَرْتَ، مخالفاً لهم في النَّحْرِ للأوثان. ﴿وَأَبْتَرُ﴾ مَنْ أَبْغَضَكَ مِنْ قَوْمِكَ لمخالفتِكَ لهم، ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ لا أنت؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ يولَدُ إلى يومِ القيامة من المؤمنين فهم أولادُك وأعقابُك، وذِكْرُكَ مرفوعٌ على المنابر والمنار، وعلى لسانِ كُلِّ عالمٍ وذاكِرٍ إلى آخرِ الدَّهْرِ، يُبدَأُ بذكرِ الله ويُثنى بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يَدْخُلُ تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتر، وإنما الأبتَرُ هو شانئكَ المنسِيٌّ في الدنيا والآخرة، وإن ذَكَرَ ذَكَرَ باللَّعن. وكانوا يقولون: إنَّ محمداً صُنْبُورٌ، إذا مات مات ذِكْرُه. وقيل: نزلت في العاصِ بنِ وائل، وقد سَمَّاهُ الأبتَرُ، والأبتَرُ: الذي لا عَقَبَ له، ومنه الحمازُ الأبتَرُ الذي لا ذَنْبَ له.

قوله: (والمَنَارُ)، النهاية: «المَنَارُ جمعُ مَنَارَةٍ، وهي العلامةُ بينَ الحَدِيثَيْنِ. ومنه حديثُ أبي هريرة: «إنَّ للإسلامِ صُوبِيَّ ومَنَاراً»، أي: علاماتٍ وشرائعَ يعرفُ بها». وقيل: المَنَائِرُ^(١): جمعُ المَنَارَةِ التي يُوَدَّنُ عليها، والأصلُ: مَنَاوِرٌ؛ لأنه من النور، بَدَلُ الهمزة من الواو، وقد يُشَبَّهُ الأصلُ بالزائد، كما قالوا: مَصائبٌ، وأصلُه: مَصاوبٌ.

قوله: (فمثلك لا يقال له: الأبتَرُ^(٢))، وهو نحو قولك: «مثلك لا يَبْخُلُ» في الكناية، أي: مَنْ هو في صِفَتِكَ، مِنْ أَنْ كُلِّ مَنْ يولَدُ من المؤمنين إلى آخرِ الدَّهْرِ أولادُه، لا يقال له: الأبتَرُ.

قوله: (صُنْبُورٌ)، النهاية: «الأبتَرُ الذي لا عَقَبَ له. وأصلُ الصُنْبُورِ سَعَفَةٌ تَنْبِتُ في جِذْعِ النخلةِ لا في الأرض. وقيل: هي النخلةُ المنفردةُ التي يَدُقُّ أسفلها. أرادوا أنه إذا قُلِعَ انقطعَ ذِكْرُه، كما يذهبُ أثرُ الصُنْبُورِ، لأنه لا عَقَبَ له».

(١) من قوله: «جمعُ مَنَارَةٍ» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «أبتَر».

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الكوثر، سَقاه اللهُ من كلِّ نهرٍ في الجنة، ويُكتبُ له عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ قُرْبانٍ قَرَّبَهُ العبادُ في يومِ النحرِ أو يُقَرِّبُونَهُ».

قولُه: (أو يُقَرِّبُونَهُ)، عن بعضهم: «أو» للتنويع.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سورة الكافرون

مكية، وهي ست آيات

ويقال لها ولسورة الإخلاص: المُشَقِّقَاتَانِ، أي: المبرِّتَانِ مِنَ النِّفَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ١-٦]

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد، هلّم فاتبع ديننا وتبع دينك: تعبد ألهتنا سنةً ونعبد إلهك سنة، ...

سورة الكافرون

مكية^(١)، وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وتتبع)، عن بعضهم: هو عطفٌ على محلّ «فاتبع»، لأنه لو كان مضارعاً لكان مجزوماً، لأنه جواب «هلّم». وقوله: «تعبد» إلى آخره، تفسير.

(١) في (ف): «مكية بخلاف».

فقال: (معاذ الله أن أشرك بالله غيره) فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت؛ فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم؛ فأيسوا. ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل، لأن ﴿لَا﴾ لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ﴿مَا﴾ لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن (لَنْ) تأكيد فيما تنفيه (لا). وقال الخليل في (لن): إن أصله (لا أن) والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطالبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي: وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف تُرجى مني في الإسلام. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

فإن قلت: فهلاً قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟

قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث، وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

قوله: (فاستلم)، أي: قبل؛ يقال: استلم الحجر، أي: صافحه، ثم عمّ في كل مُماسّة^(١).
قوله: (فهلاً قيل)، يعني: قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾، قرينة لقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، فلم خولف في الثانية إلى ﴿مَّا أَعْبُدُ﴾، وكان الظاهر «ما عبدت»، كما قيل في الأولى «ما عبدتم»؟

قوله: (وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت)، الانتصاف: «هذا القول خطأ أصلاً وفرعاً، أما أصله فإن القدري يعتقد أن النبي ﷺ، لم يكن قبل البعث على دين نبي قبله، لأن ذلك غمزة في حقه ومنفر عن أتباعه، ويعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله وأدلة توحيده ومعرفة، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع؛

(١) في (ف): «مما شبة».

فتلك عبادة قبل المبعث، يجب أن لا يظنوا به عليه السلام الإخلال بها فأصلهم حيثئذ يقتضي أنه ﷺ كان قبل المبعث يعبد الله عز وجل، فحافظ الزمخشري [على] (١) هذا الأصل في عدم اتباعه لنبي (٢) سابق، فأخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل. والحق أنه ﷺ كان متعبداً قبل الوحي ويتحنن في غار حراء؛ فإن كان مجيء قوله «أعبد»، لأن الماضي لم تحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيحمل الأمر فيما عبثت، على مجموع العبادة الحاصلة التي لم تعلم إلا بالشرع، لا على مجرد توحيد الله ومعرفة؛ فإن ذلك لم يزل ثابتاً له عليه السلام قبل البعثة. وأما مجيئه مضارعاً، فلتصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها، كقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ وَالْقَنَاطِطِ الْمَقْبُورَةِ﴾ [الحج: ٦٣]، والأصل: أصبحت؛ عدل عنه للمعنى المذكور (٣). وقلت: يجوز أن يحمل على الاستمرار في الماضي والآتي بقريظة التقابل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ٢٩]، بعطف الماضي على المستقبل. والصحيح أنه صلوات الله عليه كان قبل المبعث متعبداً بشرع.

روى ابن الجوزي في كتاب «الوفا»، عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «من قال: إن رسول الله ﷺ كان على دين قومه، فهو قول سوء، أليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب؟ وقال أبو الوفاء علي بن عقال: كان رسول الله ﷺ متديناً قبل بعثته، بما يصح عنده أنه من شريعة إبراهيم عليه السلام، وأما بعد بعثته، فهل كان يتعبد بشريعة من قبله؟ فيه روايتان: إحداهما: أنه كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي إليه،

(١) سقط لفظ «على» من الأصول الخطية.

(٢) في الأصول الخطية: «بشيء».

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٨٠٩)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٥١) للعراقي.

لا^(١) من جهتهم ولا نَقْلِهِمْ ولا كَتَبِهِم المنزلة^(٢)، واختارها أبو الحسن التميمي، وهو قول أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله.

والرواية الثانية: أنه لم يكن متعبداً بشيء من الشرائع، إلا ما أوحى إليه من شريعته، وهو قول المعتزلة والأشعرية. ولأصحاب الشافعي وجهان كالروايتين. واختلف القائلون بأنه متعبداً بشرع من قبله: بأي شريعة كان متعبداً؟ قال بعضهم: كان متعبداً بشريعة إبراهيم عليه السلام، وعليه أصحاب الشافعي رحمهم الله. وقيل: بشريعة موسى عليه السلام إلا ما نُسخ في شرعنا. وظاهر كلام أحمد رحمه الله تعالى، أنه كان متعبداً بكل ما صحَّ أنه شريعة لنبي قبله، ما لم يثبت نسخه، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتِدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال ابن قتيبة: لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل عليه السلام، من ذلك: حج البيت، والختان، وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثاً، وأن للزوج الرجعة في الواحدة والاثنتين، ودية النفس مئة من الإبل، والغسل من الجنابة، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر، فكان رسول الله ﷺ، على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم. وأما قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا أَلَايْمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، يُعنى به: شرائع الإيمان، ولم يرد به الإيمان الذي هو الإقرار بالله^(٣). تمَّ كلام ابن الجوزي.

وقلت: غرض المصنف من ارتكاب هذا المحذور، دفع التكرار من الكلام باختلاف الزمانين المستقبل والماضي؛ فإنه جعل القريتين الأولى للاستقبال والأخرين للماضي، ولذلك توجه عليه السؤال. والأوجه أن يقال: إن الكلام ما وقع في عبادة رسول الله ﷺ، وأنه أي شيء عبد فيما مضى من الزمان، بل وقع فيما يُستقبل، كما يشهد له سبب النزول بقوله: «ما أعبد»، على ظاهره. وأما قوله: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ على الماضي، فللمبالغة من التبري عنهم وعن عبادتهم، فهو على خلاف الظاهر.

(١) سقط لفظ «لا» في (ح) و(ف).

(٢) في (ط): «المبدلة».

(٣) «الوفا بأحوال المصطفى» (١: ٢٢٩-٢٣٠) لابن الجوزي.

قَالَ الإمام: «في الآية قولان: الأول: أنه لا تكررَ فيها، وفيه وجوه:

أحدها أن الأول للاستقبال، لأن «لا» لا تدخلُ إلا على مضارعٍ في معنى الاستقبال، أي: لا أفعلُ في المستقبلِ ما تطلبونه مني من عبادةِ أهتكم، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبُ منكم من عبادةِ إلهي، ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، أي: لستُ في الحالِ بعبادٍ معبوديكم، ولا أنتم في الحالِ بعبادين معبودي.

وثانيها: أن يُقلب، فيجعلَ الأول للحالِ والثاني للاستقبال، وعليه كلامُ الزجاجِ والواحدي ومحيي السنة؛ قال الواحدي: «وإنما جيءَ بـ «ما» بدلَ «من» ليقابلَ قوله «ما تعبدون» حملاً للثاني على الأول»^(١). وقال الزجاجُ ومحيي السنة: «هذا خطابٌ لمن سبقَ في علم الله أنه لا يؤمن»^(٢).

وثالثها: قولُ أبي مسلم: المقصودُ من الأولين المعبود، و«ما» بمعنى «الذي»، أي: لا أعبدُ الأصنامَ ولا تعبدونَ الله، وفي الأخرين «ما» مصدرية، أي: ولا أنا عابدٌ مثلَ عبادتكم المبنية على الشك، ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي المبنية على اليقين^(٣).

ورابعها: أن تُحمَلَ الأولى على نفي الاعتبارِ الذي ذكره، والثانية على العامِ بجميع الجهات، أي: لا أعبدُ ما تعبدون رجاءً أن تعبدوا الله، ولا أنتم عابدون رجاءً أن أعبدَ صنمكم، ثم قال: ولا أنا عابدٌ صنمكم لغرضٍ من الأغراض، بوجهٍ من الوجوه، وكذا أنتم لا تعبدون الله لغرضٍ من الأغراض؛ مثاله: من يدعو غيره إلى الظلم لغرضِ التنعم، فيقول: لا أظلمُ لغرضِ التنعم، بل لا أظلمُ أصلاً، سواءً كان للتنعم أو غيره.

(١) «الوسيط» (٤: ٥٦٥)، و«البيسط» (٢٤: ٣٩١) كلاهما للواحدي.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٥٦٤) للبخاري واللفظ له، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٧١).

(٣) في (ح): «الشك».

فإن قلت: فلم جاء على (ما) دون (من)؟

قلت: لأن المراد الصفة، كأنه قال: لا أعبدُ الباطل، ولا تعبدون الحق. وقيل: إن (ما) مصدرية، أي: لا أعبدُ عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي. ﴿لَكَرِهْتُمُوهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لكم شرككم، ولي توحيدى. والمعنى: أنى نبى مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى، فدعوني كفافاً ولا تدعوني إلى الشرك.

والقول الثاني: هو أن يُسَلَّم حصول التكرار، وهو لوجهين: أحدهما أن التكرار يفيد التوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التوكيد أشدَّ كان التكرير أحسن، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا المقام؛ لأنهم رجعوا إليه^(١) في هذا المعنى مراراً، وطمعوا فيه لما رأوا فيه من الحرص على إيمانهم.

وقال محيي السنة: «قال أكثر أهل العلم: إن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز»^(٢).

وقلت: هذا الوجه هو الذي اخترناه لطباقة المقام، ثم المختار الوجه الرابع من القول الأول. وثانيهما: أنهم ذكروا تلك الكلمة مرتين، يعني: تعبد ألهتنا شهراً وتعبد إلهك شهراً، وتعبد ألهتنا سنة وتعبد إلهك سنة، فأتى الجواب على التكرار على وفق قولهم، وفيه ضرب من التهكم؛ فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد، فإنه مجازى لدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافاً^(٣). نقل هذا الوجه محيي السنة عن القتيبي^(٤)، أخصر منه.

قوله: (فَدَعُونِي كَفَافاً)، النهاية: «الكفاف هو الذي لا يفضل عن الشيء، ويكون بقدر

(١) أي: إلى رسول الله ﷺ.

(٢) «معالم التنزيل» (٨: ٥٦٤).

(٣) هنا انتهى كلام الإمام الرازي بطوله، «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٣٥-١٣٦) بتصرف.

(٤) «معالم التنزيل» (٨: ٥٦٤).

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة «الكافرون»، فكأنها قرأ ربع القرآن، وتباعدت منه مَرَدَةُ الشياطين، وبرئ من الشُّرك ويُعافى من الفَرْع الأكبر».

الحاجة إليه، وهو نصبٌ على الحال. وقيل: أرادَ به مكفوفاً عني شُرهم^(١). وقيل: أن لا تنالوا متي ولا أنال منكم، أي: تكفون عني وأكف عنكم^(٢). فإذا، في قوله ﴿لَكَرَّ دِينُكَ وَوَلِيَ دِينَ﴾ معنى التواركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه، فيكون منسوخاً بآية القتال^(٣). وقال القاضي: «ولي ديني الذي أنا عليه لا أرفضه، فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد، فلا يكون منسوخاً»^(٤). وقد فُسر «الدين» بالحساب^(٥) والجزاء والدعاء والعبادة^(٦).

قوله: (فكأنها قرأ ربع القرآن)، روينا عن الترمذي، عن ابن عباس وأنس، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكُفْرُوت﴾، عدلت له ربع القرآن»^(٧).

تَمَّتِ السُّورَةُ



(١) في (ط): «شُرهم»، وفي (ف): «شركهم».

(٢) «النهاية» (٤: ١٩١).

(٣) آية القتال هي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩].

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٣٩) بتصرف.

(٥) في (ف): «بالحسبات».

(٦) في (ح): «والعبادة».

(٧) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣).

سنة ثمان، ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوازن، وحين دخلها وقف على باب الكعبة، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»، ثم قال: «يا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً؛ أخ كريم وابن أخ كريم». قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئناً، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء، ثم بايعوه على الإسلام، ﴿في دين الله﴾ في ملة الإسلام التي لا دين له يُضاف إليه غيرها، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥]. ﴿أفواجاً﴾ جماعات كثيفة؛ كانت تدخل في القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه بكى ذات يوم، فقيل له.....

من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها، فتقرب منها شيئاً فشيئاً، أي: قد قرب النصر من وقته، فكن مترقياً لوروده مستعداً لشكره»^(١).

وقلت: فيه وفي كلام المصنف نظر، لأن فتح مكة مقدم على نزول السورة، لهما روينا عن مسلم، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: «أتدري آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً؟» قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. قال: «صدقت»^(٢). وفي كلام المصنف إيدان به، وذلك أنه قال: «وكان فتح مكة لعشر مَضِينٍ من شهر رمضان سنة ثمان». وقيل: إنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع، وكانت حجة الوداع في السنة العاشرة، لأنه صلوات الله عليه، مكث تسع سنين ولم يحج، ثم أذن له في السنة العاشرة. قوله: (وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه بكى ذات يوم)، الحديث أخرجه أحمد

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢١) (٣٠٢٤).

فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «دخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجاً، وسيُخرجون منه أفواجاً» وقيل: أراد بالناسِ أهلَ اليمن. وقال أبو هريرة: لَمَّا نزلت، قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهُ أكبرُ جاءَ نصرُ الله والفتحُ، وجاءَ أهلُ اليمن: قومٌ رقيقةٌ قلوبُهُم، الإيَّانُ يمان، والفقهُ

ابنُ حنبلٍ عنه^(١)، ورواه الدَّارِمِيُّ عن أبي هريرة^(٢).

قوله: (الإيَّانُ يمان)، الحديثُ من رواية البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة^(٣)، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أتاكم أهلُ اليمن؛ فإنهم أرقُّ أفئدةً، وألينُ قلوباً، الإيَّانُ يمان، والحكمةُ يمانيةً»^(٤)، وفي رواية: الفقهُ يمان، الحديث^(٥).

النهاية: «إنما قالَ: الإيَّانُ يمان والحكمةُ يمانيةً، لأنَّ الإيَّانَ بدأ من مكة، وهي من تهامة، وتهامةٌ من أرضِ اليمن، ولهذا يقال: الكعبةُ يمانية. وقيل: إنه صلواتُ الله عليه قالَ هذا القولُ وهو بتبوك، ومكةُ والمدينةُ يومئذٍ بينه وبين اليمن، فأشارَ إلى ناحيةِ اليمنِ وهو يريدُ مكةَ والمدينةَ. وقيل: أرادَ بهذا القولِ الأنصارَ لأنهم يمانيون، وهم نصرُوا الإيَّانَ والمؤمنينَ وأوَّوهم، فُنسبَ الإيَّانُ إليهم»، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩]. وعن غيره: أريدَ بالحكمةِ السُّنَّةُ والفقهُ، لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. ويروى: الفقهُ يمان؛ هذا ثناءٌ على أهلِ اليمنِ لإسراعِهِم إلى الإيَّانِ، وحُسنِ قَبولِهِم إياه.

وَقَلْتُ: لعلَّ المعنيَّ من الفقهِ، ما عناهُ الحسنُ في ما روينا عن الدَّارِمِيِّ عن عمران، قال: قَلْتُ للحسنِ يوماً في شيءٍ قاله^(٦): يا أبا سعيد، ليسَ هكذا تقولُ الفقهاء. فقال: «ويحك!

(١) أي عن جابر بن عبد الله، انظر الحديث (١٤٦٩٦).

(٢) «سنن الدارمي» (٩٠).

(٣) من قوله: قوله: «الإيَّانُ يمان» إلى هنا سقط من ح، ف.

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (٨٤-٥٢)، والترمذي (٣٩٣٥).

(٥) انظر: «مسند الإمام» (٧٦٢٧، ١٠١٣٤).

(٦) سقط لفظ «قاله» من (ح) و(ف)، وفي (ط): «قال».

بيان، والحكمة يمانية» وقال: «أجد نفس^(١) ربكم من قبل اليمن».

وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض، فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس لنا به يدان، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر، وقرئ: يدخلون، على البناء للمفعول.

فإن قلت: ما محل ﴿يَدْخُلُونَ﴾؟

ورأيت فقيهاً قط؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه^(٢).

قوله: (أجد نفس^(٣) ربكم من قبل اليمن)، النهاية: «النفس مستعار من نفس الهواء الذي يرده^(٤) التنفس إلى الجوف، فيبرد من حرارته ويعدّها، أو من نفس الريح الذي يتنفسه فيستروح إليه، أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها، فينفرج به عنه. يقال: أنت في نفس من أمرك، واعمل وأنت في نفس من عمرك، أي: في سعة وفسحة».

قوله: (أما إذ ظفر)، يروى «أما» مخففاً ومثقلاً. والثاني هو الوجه، لأن «أما» تفصيلية، أي: أما إذا لم يظفر بأهل الحرم، فكنا نطمع^(٥) في غلبتنا عليه، وأما إذ ظفر به، فليس لنا به يدان.

(١) في الأصل الخطي والنسخ المطبوعة لـ «لكشاف»: «نفير»، وفي النسخة (ط) المشتملة على تفسير «الكشاف» وشرحه: «نفس»، وهو الصواب، وهو المثبت في الحديث. انظر: «مسند البزار» (٣٧٠٢)، و«شرح السنة» للبغوي (٤٠١)، وكذا ذكره الحافظ الزيلعي في «تخریج أحاديث الكشاف» (٤: ٣١٥).
(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٤).

(٣) في (ح): «نفير».

(٤) في (ح) و(ف): «يرد»، وهو مخالف للمعنى.

(٥) في (ح): «نقطع».

قلتُ: النصبُ إما على الحالِ، على أن رأيتَ بمعنى أبصرتَ أو عرفتَ. أو هو مفعولٌ ثانٍ على أنه بمعنى علمتَ. ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فقل: سبحانَ الله؛ حامداً له. أي: فتعجب لتيسيرِ الله ما لم يُحطَرُ ببالكِ وبالِ أحدٍ من أن يغلبَ أحدٌ من أهلِ الحرم، واحمده على صنعه. أو: فاذكره مُسَبِّحاً حامداً، زيادةً في عبادته والثناء عليه،

قوله: (فقل: سبحانَ الله: حامداً له، أي: فتعجب)، والباءُ في ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ للحال، أي: قُلِ التَّسْبِيحَ وَأَنْتَ مُلْتَبِسٌ بِالْحَمْدِ؛ فإذن لا يكونُ القصدُ بذكرِ التسبيحِ الذكر. قال: «والأصلُ في ذلك أن يسبحَ اللهُ في رُؤيةِ العجيبِ من صنائعه، ثم كثرَ حتى استعملَ في كلِّ متعجبٍ منه»^(١). «الانصاف»: «الأمرُ على هذا بمعنى الخبر، لأن الأمرَ في صيغةِ التعجبِ ليس مراداً»^(٢)، والمرادُ أن هذه القصةَ من شأنها أن يُتَعَجَّبَ منها»^(٣).

قوله: (أو: فاذكره مُسَبِّحاً حامداً)، فعلى هذا، يكونُ القصدُ بذكرِ التسبيحِ، الذكرَ على سبيلِ التضمينِ، ولذلك أوقعه حالاً، و﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ حالٌ على التداخلِ، لأن التضمينَ يجعلُ المضمَّنَ حالاً في الأكثرِ. قال القاضي: «المعنى: فأثنِ على الله بصفاتِ الجلالِ، حامداً له على صفاتِ الإكرام»^(٤).

وقلتُ: هذا الوجهُ أولى من الأولِ وأحسنُ التماماً، وقد مرَّ في سورةِ الفتحِ أنه تعالى، إنها جعلَ فتحَ مكةَ علةً للمغفرةِ، لأنه كان سبباً لأن يؤمرَ رسولُ الله ﷺ بالاشتغالِ بخاصةِ نفسه، بعدَ بذلِ المجهودِ فيما كُلِّفَ به من تبليغِ الرسالةِ ومجاهدةِ أعداءِ الدين، وبالإقبالِ على العبادةِ والتقوى، والتأهبِ للمسيرِ إلى المقاماتِ العليةِ واللُّحوقِ بالرفيقِ الأعلى، وإليه يُلْمَحُ

(١) انظر: (١١ : ٤١)؛ في تفسير الآية (١٦) من سورة النور.

(٢) في (ط)، (ح): «أمراً»، وفي «الإنصاف» (ق ١٥١): خيراً.

(٣) لم أهدِ إلى موضعه، وهو بنصه في «الإنصاف» (ق ١٥١) للعراقي.

(٤) «أنوار التنزيل» (٥ : ٥٤٢).

بقوله: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ لِقَائِهِ، فَاخْتَارَ لِقَاءَ اللَّهِ»^(١). وَمَنْ تَمَّ بِكَيْ عَمَّهُ الْعَبَّاسُ حِينَ تُلِّتُ عَلَيْهِ السُّورَةُ، وَقَالَ: نُعِيْتُ إِلَيْكَ^(٢) نَفْسُكَ.

وهذا المعنى هو الذي فهم منه ابن عمه حَبْرُ الأُمَّة، حين ردّ على أولئك الشيوخ، وقال: نُعِيْتُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ^(٣)، وَصَدَّقَهُ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَمَّا مَا رَوَى مُحْيِي السُّنَّةِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ أَنْ قَوْلَهُ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ أَي: وَاسْتَغْفِرُهُ لِيَغْفَرَ لَكَ اللَّهُ^(٤)؛ فَالمرادُ مِنْهُ أَنَّ هَذَا التعليلَ^(٥) متعلقٌ بمضميرٍ بعدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٦)، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، لِأَنَّ مَرَجِعَ السُّورَتَيْنِ إِلَى قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ وَحَالَةٍ مُتَّحِدَةٍ، لَا أَنَّ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ متعلقٌ بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ بعينه، لِمَا يُؤَدِّي إِلَى إِخْلَالِ النِّظْمِ الْمُعْجَزِ الْفَائِتِ لِلْقُوَى وَالْقَدَرِ، فَكَيْفَ وَنَزُولُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾، كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ مَرَجِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَتَأَخَّرُ نَزُولُ سُورَةِ النَّصْرِ عَنِ الْفَتْحِ بَسْتَيْنِ؟ وَقَدْ أَسْلَفْنَا فِي سُورَةِ هُودٍ قَانُونًا يَضْمُ أَطْرَافِ قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ، فِي مَقَامَاتٍ شَتَّى، عَلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ دَلَّ اتِّحَادُ الْقِصَّةِ عَلَى هَذَا الْمُقَدَّرِ، فَمَا تَصْنَعُ بِمَا رَوَى مُحْيِي السُّنَّةِ أَيْضًا عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ، أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ مُرَدُّوهُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣٩٠٤)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) في (ف): «إلينا».

(٣) روى البخاري (٤٩٦٩) عن ابن عباس، أن عمر رضي الله عنه، سأله عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قالوا: فتح المدائن والقصور. قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجل، أو مثل ضرب لمحمد ﷺ، نُعِيْتُ لَهُ نَفْسُهُ.

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٧: ٢٩٧).

(٥) في (ف): «التعليق».

(٦) من قوله: «بدلالة الظاهر» إلى هنا، سقط من (ح)، (ف).

وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿ [محمد: ١٩]، أي: استغفر ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، و﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٥] ^(١).

قلت: هذا مما يقوي ما أثرناه من التعلق المعنوي؛ لأنك إذا جعلت التعلق فيه لفظياً، وقعت في فيفاء، وخبطت خبط عشواء، ألا ترى كيف قرن ^(٢) مع ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قوله ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو علة لقوله: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]، المعلق بقوله: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا﴾، وعطف عليه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ﴾، كما قال المصنف: «ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين»، إلى قوله: «فيستحقوا الثواب فيثيبهم، ويعذب الكافرين والمنافقين» ^(٣).

وعلى هذا ورد ما روينا عن مسلم والترمذي، عن أنس: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إِلَى ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١-٥]، مَرَّجَعَهُ مِنَ الْحَدِيثِ، وَهُمْ يَخَالِطُهُمُ الْحُزْنُ وَالكَآبَةُ ^(٤)، وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحَدِيثِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا» ^(٥). وفي رواية الترمذي: «فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، لقد بين لك الله ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟» فنزلت: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ولعل القائل لما نظر أن رسول الله ﷺ، إذا استغفر لذنبه وذنب المؤمنين، لا بد أن يغفر الله له، ويستجيب دعاءه في حق أمته، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، علق به من حيث المعنى، ولأجل هذه الدققة، أثر لفظ راجع ومردود على متعلق، والله أعلم.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٧: ٢٩٧).

(٢) قوله «كيف قرن» سقط من (ط).

(٣) انظر: (١٤: ٣٧٥)؛ في تفسير الآيات (٤-٦) من سورة الفتح.

(٤) في (ح): «البكاء»، وسقط من (ف).

(٥) أخرجه مسلم (١٧٨٦).

لزيادة إنعامه عليك، أو فصل له. رَوَتْ أُمُّ هَانِيَةَ: أَنَّهُ لَمَّا فُتِحَ بَابُ الْكَعْبَةِ صَلَّى صَلَاةَ الضُّحَى ثِنَايَ رَكَعَاتٍ، وَعَنْ عَائِشَةَ: كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَكْثُرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وَالْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ مَعَ التَّسْبِيحِ تَكْمِيلٌ لِلْأَمْرِ بِمَا هُوَ قَوَامٌ أَمْرٍ الدِّينِ: مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالِاحْتِرَاسِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، لِيَكُونَ أَمْرُهُ بِذَلِكَ مَعَ عَصَمَتِهِ لُطْفًا لِأُمَّتِهِ؛ وَلِأَنَّ الْإِسْتِغْفَارَ مِنَ التَّوَاضُعِ لِلَّهِ وَهَضْمِ النَّفْسِ، فَهُوَ عِبَادَةٌ فِي نَفْسِهِ. وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنِّي لِأَسْتَغْفِرُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِثَّةَ مَرَّةٍ»، وَرُوِيَ: أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَصْحَابِهِ اسْتَبَشَرُوا وَبَكَى الْعِيَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَبْكِيكَ يَا عَمُّ؟» قَالَ: نُعَيْتُ إِلَيْكَ نَفْسُكَ. قَالَ: «إِنهَا لَكَمَا تَقُولُ»،

قوله: (صلاة الضحى ثناني ركعات)، الحديث روينا في «صحيح البخاري»^(١).

قوله: (كان يكثر قبل موته)، الحديث رواه البخاري ومسلم^(٢).

قوله: (والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل)، التكميل في الصناعة، هو أن يُؤتى بكلام فيرى ناقصاً فَيَتِمُّمُ بكلام آخر. وهانئا، الأمر بالتسبيح: أمرٌ بالطاعة، والإتيانُ بالطاعات، لا يكون كاملاً ما لم يُضَمَّ معها الاحترازُ عن المعاصي، قَالَ الْقَاضِي: «وَاسْتَغْفِرُهُ هَضْمًا لِنَفْسِكَ وَاسْتِقْصَارًا لِعَمَلِكَ، وَاسْتِدْرَاكًا لِمَا فَرَطَ مِنْكَ بِاللِّتْفَاتِ إِلَى الْغَيْرِ، وَقِيلَ: اسْتَغْفِرُهُ لِأَمْتِكَ. وَتَقْدِيمُ التَّسْبِيحِ ثُمَّ الْحَمْدِ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ، عَلَى طَرِيقَةِ النَّزُولِ مِنَ الْخَالِقِ إِلَى الْخَلْقِ»^(٣).

قوله: (إني لأستغفر في اليوم [والليلة] مئة مرة)، رواه البخاري والترمذي عن أبي هريرة^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (١١٧٦).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٤٩٦٧) و«صحيح مسلم» (٢١٨-٤٨٤) واللفظ له.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٤٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣٠٧) و«سنن الترمذي» (٣٢٥٩).

فعاش بعدها سنتين لم يرَ فيها ضاحكاً مستبشراً، وقيل: إن ابن عباسٍ هو الذي قال ذلك؛ فقال رسول الله ﷺ: «لقد أوتي هذا الغلامُ علماً كثيراً».

وروي: أنها لما نزلت خطبَ رسول الله ﷺ فقال: «إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين لقاءه، فاختار لقاء الله»، فعلم أبو بكرٍ رضي الله عنه، فقال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا. وعن ابن عباسٍ: أن عمرَ رضي الله عنهما كان يُدنيه ويأذن له مع أهل بدر، فقال عبدُ الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي آبائنا من هو مثله؟ فقال: إنه من قد عَلِمْتُمْ. قال ابنُ عباسٍ: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ولا أراه سألهم إلا من أجلي؛ فقال بعضهم: أمر الله نبيّه إذا فتحَ عليه أن يستغفره ويتوب إليه؛ فقلت: ليس كذلك، ولكن نُعيثُ إليه نفسه؛ فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا مثل ما تعلم، ثم قال: كيف تلو منوني عليه بعدما ترون؟ وعن النبي ﷺ: أنه دعا فاطمةَ رضي الله عنها فقال: «يا بئاه إنه نُعيثُ إليّ نفسي»، فبكت، فقال: «لا تبكي، فإنك أولُ أهلي لحوقاً بي». وعن ابن مسعودٍ أن هذه السورة تسمى سورة التوديع، ﴿كَانَ تَوَابًا﴾ أي: كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلّفين تواباً عليهم إذا استغفروا، فعلى كلِّ مستغفرٍ أن يتوقع مثل ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾، أُعطيَ من الأجرِ كمن شهدَ مع محمدٍ يوم فتح مكة».

قوله: (وعن ابن عباسٍ: أن عمرَ رضي الله عنه كان يُدنيه)، الحديث أخرجه الإمام أحمدُ والبخاريُّ والترمذيُّ^(١).

قوله: (يُدنيه)، أي: يقدّمه ويسوّيه مع الشيوخ، ويأذن له في الدخول عليه.

قوله: (دعا فاطمةَ رضي الله عنها)، الحديث مختصرٌ من رواية الدارمي، عن ابن عباسٍ^(٢).

* * *

(١) انظر: البخاري (٣٦٢٧) والترمذي (٣٣٦٢) والإمام أحمد (٣١٢٧).

(٢) انظر: «سنن الدارمي» (٧٩).

سورة ﴿تَبَّتْ﴾

مكية، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ١-٥]

التَّبَابُ: الهلاك. ومنه قولهم: أشابَةٌ أم تَابَةٌ، أي: هالكةٌ من الهرم والتَّعْجِيزِ.

سورة ﴿تَبَّتْ﴾

مكية، وهي خمسة آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (التَّبَابُ: الهلاك)، الراغب: «التَّبُّ والتَّبَابُ: الاستمرارُ في الخسران، يقال: تَبَّأَ له وتَبَّأَ له وتَبَّيْتُهُ: إذا قلتَ له ذلك، ولتضمَّنِ الاستمرارَ قيل: استَبَّ لفلانٍ كذا، أي: استمرَّ. و«تَبَّتْ يدا أبي لهب»، أي: استمرتُ في الخسران، قال الله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]، أي: تحسير»^(١).

قوله: (والتَّعْجِيزِ)، عن بعضهم: عَجَزَتِ المرأةُ وَعَجَزَتْ: إذا صارت عجزوزاً، كما تقول: تَتَّبِيبَتِ المرأةُ: إذا صارت تَبَّيَّةً.

(١) «مفردات القرآن»، ص ١٦٢.

والمعنى: هَلَكْتَ يداه؛ لأنه فيما يُروى: أخذَ حجراً ليرمي به رسولُ الله ﷺ ﴿وَتَبَّ﴾ وهَلَكَ كُلُّهُ، أو جُعِلَتْ يداه هالكتين. والمراد: هلاكُ مجملته، كقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ومعنى: ﴿وَتَبَّ﴾: وكانَ ذلكَ وحصل، كقوله:

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلُ

قوله: (والمراد: هلاكُ مجملته)، ونحوه قولُ الشاعر:

وإن امرءاً ضننتُ يداهُ على امرئٍ بنيلِ يدٍ من غيرِهِ لبخيلٍ^(١)

أي: ضنّ على امرئٍ. الجوهري: «يقال: هذا ما جنّت يداك، أي: جنّيت».

قوله: (ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾: وكانَ ذلكَ وحصل)، عن بعضهم: فتبَّ على الأول: دعاءٌ، وعلى الثاني: خبر. و«تبتَّ» دعاءٌ على كلِّ حال. قال الإمام: «يجوزُ أن يرادَ بالأولِ هلاكُ عملِهِ، وبالثاني هلاكُ نفسه، ووجهُهُ أن المرءَ إنما يسعى لمصلحةِ نفسه وعملِهِ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنه محرومٌ من الأمرين»^(٢).

وقلتُ: النظمُ يساعدُ قولَ الإمام، لأن ما بعده بيانٌ وتفسير؛ فإنَّ قوله: ﴿مَا أَعْنَى عَنْهُ مَا لَهُ، وَمَا كَسَبَ﴾، إشارةٌ إلى هلاكِ عملِهِ، وقوله: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، إشارةٌ إلى هلاكِ نفسه. وقالَ «تَبَّ» أولاً على الماضي، ليؤدّنَ بالقطعِ على سننِ إخبارِ الله عن المستقبل، و﴿سَيَصِلُنَّ﴾ ثانياً على الاستقبال، حكايةً للحالِ الآتية، تصويراً لها في مشاهدةِ السامع. يؤيِّدُهُ أيضاً قراءةُ ابنِ مسعود رضي اللهُ عنه: «وقد تَبَّ»، لأنَّ «قد» للتحقيقِ كما في قولِ الشاعر:

وقد فَعَلُ^(٣)

(١) البيت لأبي تمام يعاتب شخصاً في ضنّته عليه بجاهه، انظر: «ديوانه» (٤: ٤٨٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٥٤).

(٣) البيت للنابغة، ورواية «الديوان»، ص ٨٢:

جزى اللهُ عبساً في المواطنِ كلِّها جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فَعَلُ =

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَقَدْ تَبَّ)، وَرَوَى: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] رَقِيَ الصَّفَا وَقَالَ: يَا صَبَاحَاهُ، فَاسْتَجْمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ. فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، يَا بَنِي فَهْرٍ، إِنَّ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ بَسْفِحَ هَذَا الْجَبَلِ خَيْلًا أَكْتُمُ مُصَدَّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ؛ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّ لَكَ، أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ.

تقديره: جزاني جزاء الكلابِ العاويات، ويروى: العاديات، جزاءُ الله شرَّ جزائه وقد فعل ذلك، أي: كان ذلك وقد حصل.

قوله: (وروي أنه لما نزل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤])، الحديث من رواية البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي، عن ابن عباس، قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهْر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش. فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، كنتم مصدقني؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبَّ لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت^(١).

قوله: (يا صباحاه)، النهاية: «هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها: إذا صاحوا للغارة؛ لأنهم أكثر ما كانوا يُغيرون عند الصباح، فكانه يريد: قد جاء الصباح فتأهبوا».

قوله: (بسفح هذا الجبل)، سفح الجبل: أسفله، حيث يسفح فيه الماء.

= وفي «مفاتيح الغيب» (١: ٥٥):

جزى ربُّه عني عدي بن حاتم جزاء الكلابِ العاويات وقد فعل

وانظر: «روح المعاني» (١٥: ٤٩٧) و«التحرير والتنوير» (٣٠: ٥٢٨) لابن عاشور.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٣٥٥) (٢٠٨) والترمذي (٣١٨٥) والإمام أحمد (٨٤٠٢).

فإن قلت: لم كناه، والتكنية تكريمة؟

قلت: فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم، فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجرى الكنية على الاسم، أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء، وأن تبقى سمة له، ذُكر الأشهر من علميه، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: «يدا أبو هب»، كما قيل: علي بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان؛ لتلا يُغيّر منه شيء فيشكل على السامع، ولقليته بن قاسم أمير مكة ابنان، أحدهما: عبد الله بالجر، والآخر عبد الله بالنصب. كان بمكة رجلاً يقال له: عبد الله بجر الدال، لا يُعرف إلا هكذا.

والثاني: أنه كان اسمه عبد العزّي، فعُدل عنه إلى كنيته.

والثالث: أنه لما كان من أهل النار وماله إلى نار ذات هب، وافقت حاله كنيته؛ فكان جديراً بأن يُذكر بها. ويقال: أبو هب، كما يقال: أبو الشر للشرير، وأبو الخير للخير، وكما كنى رسول الله ﷺ أبا المهلب أبا صفرة،

قوله: (لتلا يُغيّر منه شيء فيشكل على السامع)، «الانصاف»: «وفيه دليل على أن الرفع أسبق وجوه الإعراب، ألا تراهم حافظوا على صورته وصيغته، فاشتهر الاسم بهذا، وعُدل عن اسمه عبد العزّي إلى كنيته لكرهته»^(١).

قوله: (ولقليته)، قليته: بالفاء المفتوحة واللام المكسورة، ويروى: «ولفكيتة» بالكاف

والتصغير.

قوله: (وكما كنى رسول الله ﷺ أبا المهلب: أبا صفرة)، وليس في «جامع الأصول» له ذكر. وأما المهلب، فهو أبو سعيد، المهلب بن أبي صفرة. وأبو صفرة اسمه ظالم بن سراق بن صبيح الأزدي. ومهلب صاحب الحروب المشهورة مع الخوارج، مات سنة ثلاث وثمانين

(١) «الانصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٨١٤)، وانظر: «الانصاف» (ق ١٥١) للعراقي.

بصفرة في وجهه. وقيل: كُنِيَ بِذَلِكَ لِتَلَهَّبَ وَجْتِيهِ وَإِشْرَاقِهَا، فَيَجُوزُ أَنْ يُذَكَّرَ بِذَلِكَ تَهَكُّمًا بِهِ، وَبِافْتِخَارِهِ بِذَلِكَ. وقرئ: (أَبِي لَهَبٍ) بالسكون، وهو من تغيير الأعلام، كقولهم: شَمْسُ بَنِي مَالِكٍ بِالضَّمِّ. ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ استفهامٌ في معنى الإنكار، ومحلُّه النَّصْبُ أو نفي، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مرفوعٌ، وما موصولةٌ أو مصدريةٌ بمعنى: ومكسوبه. أو: وكسبه. والمعنى: لم يَنْفَعْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ بِمَالِهِ، يعني: رأسَ المَالِ والأرباح، أو ماشيته وما كَسَبَ مِنْ تَسْلِيهَا وَمَنَافِعِهَا،

بَمَرُو الرُّودِ، فِي أَيَّامِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مِرْوَانَ، وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ تَابِعِي الْبَصْرَةِ، رَأَى عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١).

قوله: (وقيل: كُنِيَ بِذَلِكَ)، هذا قسيمٌ للوجه الثالث وليس بوجه رابع، يعني: أو ثرت الكنية إما لاشتهاره بها واختصاصها به، حتى إنه لو سُمِّيَ لِالتَّبَسُّ، أو إِنِهَا سَيَّانٌ، فَعُدِّلَ إِلَى الْكِنْيَةِ وَلَوْ سُمِّيَ لِحَازٍ، أَوْ عُدِّلَ إِلَيْهَا رِعَايَةً لِنَكْتَةٍ، وَهِيَ إِذَا لَانَتْ بِهَا، أَنَّهُ جَهَنَّمِيٌّ، كِنَايَةٌ مَجْرَدَةٌ أَوْ مَعَ التَّهَكُّمِ. وَقَدْ أَشَارَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ» إِلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَالْأَوَّلِ مِنَ الثَّلَاثِ (٢).

قوله: (وقرئ: «أَبِي لَهَبٍ» بالسكون)، ابنٌ كثيرٌ، وَالباقون: بفتحِ الهاء. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «لَهَبٌ»، بِالْفَتْحِ وَالْإِسْكَانِ لِعَتَانَ (٣).

قوله: (ومحلُّه النَّصْبُ)، أَي عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، أَي: أَيُّ غَنَاءٍ. ذَكَرَ أَبُو الْبَقَاءِ الْوَجْهَيْنِ، وَقَالَ: «مَا» لَا يَكُونُ بِمَعْنَى «الَّذِي» (٤). رُوِيَ عَنِ الْمُصَنِّفِ: الْمَالُ اسْمٌ عَامٌّ؛ فَعِنْدَ أَهْلِ الْبَدْوِ اسْتَعْمَلُوا فِي الْإِبِلِ، وَعِنْدَ ذَهَابَتِهِمْ فِي الضَّبْعَةِ.

(١) انظر: «جامع الأصول» (١٢: ٩١٩)، وفيه: رأى عمرو ولم يَرَوْ عَنْهُ.

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص ١٨١.

(٣) «التيبان» (٢: ١٣٠٨) للعكبري. وقال ابنُ زنجلة: «واتفاقهم على الفتح يدلُّ على أنه أجودُّ من

الإسكان». «حجة القراءات»، ص ٧٧٦، وانظر: «الحجة» (٦: ٤٥١) للفارسي.

(٤) «التيبان» (٢: ١٣٠٨).

وكانَ ذا سَابِيا، أو مالَهُ الذي ورثَهُ من أبيه والذي كَسَبَهُ بنفسِهِ، أو مالَهُ التَّالِدَ والطَّارِفَ.
وعن ابنِ عباسٍ: ما كَسَبَ وَلَدُهُ. وحُكِيَ أن بني أبي لُهبِ احتَكَموا إليه، فاقتلوا، فقامَ
يَحْجِزُ بينهم، فدفعَهُ بعضهم فوقَ فغَضِبَ، فقال: أُخْرِجُوا عني الكَسَبَ الخبيثَ، ومنه
قولُهُ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «إن أَطيبَ ما يَأْكُلُ الرَّجُلُ من كَسْبِهِ، وإن وَلَدَهُ من كَسْبِهِ»،
وعن الضحاك: ما يَنْفَعُهُ مالُهُ وعملُهُ الخبيثَ، يعني كيدَهُ في عداوةِ رسولِ الله ﷺ. وعن
قتادة: عملُهُ الذي ظَنَّ أَنَّهُ منه على شيءٍ، كقولِهِ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان:
٢٣] ورُوي أَنَّهُ كانَ يقولُ: إن كانَ ما يقولُ ابنُ أخي حقًا، فأنا أَفتدي منه نفسي بهالي
وولدي، ﴿سَيَصِلُنَّ﴾ قرئ: بفتحِ الياءِ وبضمِّها مخفَّفًا ومشدَّدًا، والسينُ للوعيدِ، أي:
هو كائنٌ لا محالةَ وإن تَرَاخى وقتَهُ. ﴿وَأَمْرَاتُهُ﴾ هي أمُّ جميلِ بنتُ حربٍ أختُ أبي
سفيانَ، وكانتَ تَحْمِلُ حزمةً من الشُّوكِ والحَسَكِ والسَّعدانِ فتشرُّها بالليلِ في طريقِ
رسولِ الله ﷺ. وقيل: كانتَ تَمشي بالنَّميمةِ، ويقالُ للمُشَاءِ بالنِّائمِ المُفسدِ بينَ الناسِ:
يحملُ الحطَبَ بينهم،

قولُهُ: (وكانَ ذا سَابِيا)، النِّهايةُ: «السَّابِيا: التَّاجُ في المواشي وكثيرها، يقالُ: إن لآلِ
فلانٍ سَابِيا، والجمعُ السَّوابِيا، وهي في الأصلِ الجِلْدَةُ التي يخرُجُ فيها الولدُ، وقيل: هي
المشيمة». وعن بعضهم: سَابِيا غيرُ منصرفٍ، وهو اسمُ التَّاجِ.

قولُهُ: (التَّالِدِ)، وهو المألُ القديمُ، نقيضُ الطَّارِفِ.

قولُهُ: (إن أَطيبَ ما يَأْكُلُ الرَّجُلُ)، الحديثُ أخرجه أبو داودَ، عن عائشةَ رضي اللهُ عنها^(١).

قولُهُ: (سَيَصِلُنَّ: قرئَ بفتحِ الياءِ)، وهي المشهورةُ، وبالضمِّ شاذَّةُ.

(١) انظر: «سنن أبي داود» (٣٥٢٨).

أي: يُوقَدُ بينهم النَّائِرَةُ وَيُورَثُ الشَّرَّ. قال:

مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تُضْطَدَّ عَلَى ظَهْرِ لَأْمَةٍ ولم تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطْبِ الرَّطْبِ

جعلَه رَطْباً لِيَدُلَّ عَلَى التَّدْخِينِ الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرِّ، وَرُفِعَتْ عَطْفاً عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿سَيَّضَلِي﴾ أَي: سَيَّضَلِي هُوَ وَامْرَأَتُهُ. وَ﴿فِي جِيدِهَا﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَوْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَفِي جِيدِهَا: الْخَبْرُ. وَقُرئ: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطْبِ﴾ بِالنَّصْبِ عَلَى الشَّتْمِ؛ وَأَنَا أَسْتَحِبُّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ وَقَدْ تَوَسَّلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِجَمِيلٍ: مَنْ أَحَبَّ شَتْمَ أُمَّ جَمِيلٍ. وَقُرئ: (حَمَّالَةَ لِلْحَطْبِ) وَ(حَمَّالَةَ لِلْحَطْبِ): بِالتَّنْوِينِ، وَالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ. وَقُرئ: (وَمُرَّتُهُ) بِالتَّصْغِيرِ.....

قوله: (مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تُضْطَدَّ) الْبَيْتُ (١)، لَمْ تُضْطَدَّ: لَمْ تَوْجَدْ؛ شُبِّهَتْ بِالمَهَا وَأَجْرِي صَفْتُهَا عَلَيْهَا. وَاللَّأْمَةُ: الْأَمْرُ الَّذِي يُلَامُ عَلَيْهِ، أَي: لَمْ تَوْجَدْ رَاكِبَةً خَصَلَةَ ثُلَامٍ عَلَيْهَا؛ يَصِفُ امْرَأَةً بِكِرَامَةِ الْعِرْضِ. وَيُرْوَى: بِالْخَطْرِ الرَّطْبِ. الْخَطْرُ الرَّطْبُ: الْخَطْبُ الَّذِي يُحْطَرُ بِهِ، أَي: يُجْعَلُ مِنْهُ خَطِيرَةٌ، وَالْمَعْنَى: لَمْ يَمْشِ بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، فَتَلْقَى فِيهِمُ الْعِدَاوَةَ.

قوله: (جعلَه رَطْباً لِيَدُلَّ عَلَى التَّدْخِينِ الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرِّ)، يَعْنِي: مَا كَفَى بَأْنَ جَعَلَهُ خَطْباً، بَلْ جَعَلَهُ رَطْباً لِلِإِيغَالِ وَالتَّمِيمِ لِإِرَادَةِ الْمُبَالَغَةِ، قَالَ امْرؤُ الْقَيْسِ:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيَا كَأَنَّ سَنَانَهُ سَنَا هَبَّ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ (٢)

قوله: (قُرئ: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطْبِ﴾، بِالنَّصْبِ)، عَاصِمٌ، وَالباقون: بِالرَّفْعِ (٣).

(١) لم أهدئ إلى قائله، وفي «الأساس» للزنجشري: أنشد يعقوب، وذكر البيت، ص ٨٨.

(٢) «ديوانه»، ص ١٧٧.

(٣) بالرفع عطفاً على «سَيَّضَلِي» وتقديره: سَيَّضَلِي نَاراً هُوَ وَامْرَأَتُهُ....، وَبِالنَّصْبِ ذَمّاً لَهَا، فَجَرَتْ الصِّفَةَ عَلَيْهَا لِلذَّمِّ لَا لِلتَّخْصِيصِ... انظر: «الحجة» (٦: ٤٥٢) للفارسي.

المسدُّ: الذي قُتِلَ من الحبالِ فتلاً شديداً، من ليفٍ كان أو جِلْد، أو غيرهما، قال:

وَمَسَدٍ أَمْرٍ مِنْ أَيْانِقِ

ورجلٌ ممسودٌ الخلقِ مجدولُهُ. والمعنى: في جِديها حبلٌ مما مُسِدَ من الحبال، وأنها تَحْمَلُ تلك الحزمة من الشوكِ وتربطُها في جِديها كما يفعلُ الخطّابون، تخسيساً لحالها، وتحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعضِ الخطّابات من المَوَاهِنِ،

قوله: (وَمَسَدٍ أَمْرٍ مِنْ أَيْانِقِ)، تمامه عن الزجاج^(١):

صُهْبٌ عِتَاقٍ ذَاتِ مَخٍّ رَاهِقٍ^(٢)

الأصهب^(٣)، وفي «المطلع»: ليسَ بأنيابٍ ولا حقائق^(٤). أَمْرٌ: أي قُتِلَ. الأيانقُ جمعُ أَيْنُقٍ، وهو جمعُ ناقةٍ؛ أرادَ أن المسدَّ قُتِلَ من جِلْدِ الأيانقِ^(٥). صُهْبٌ: صفةٌ لأيانقِ. الأصهبُ من الإبل: الذي يخالطُ بياضه حمرة. راهق: مستعارٌ من راهق الغلامُ فهو مراهم. والأنيابُ جمعُ ناب. يعني: هذا المسدُّ لم يَتَّخِذْ من جِلْدِ صغيرة ولا كبيرة، وإنما اتخذ من جِلْدِ فتيةٍ قويّة.

قوله: (مجدولُهُ)، الجوهرى: «جاريةٌ مجدولةٌ الخلق: حسنةُ الجدل».

قوله: (من المَوَاهِنِ)، جمعُ الماهنة، المَهْنَةُ بالفتح: الخدمة، والمَاهِنُ: الخادم.

(١) لم يذكر تمامه الزجاجُ في «معاني القرآن» (٥: ٣٧٦). ولعلَّ الصواب: تمامه عن «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، فقد ذكر البيت بتمامه (٢: ٣١٥).

(٢) الرجز لعامة بن طارق في «لسان العرب» (حقيق)، و«تاج العروس» (حقيق)، ولعثمان بن طارق في «اللسان» (زهق)، على أن الرواية: ذاتُ مَخٍّ زاهق، لا راهق كما ورد عند الطيبي.

(٣) سقط لفظ «الأصهب» من (ط).

(٤) أي ليست نوقاً مُسِنَّةً ولا فتية.

(٥) حبلٌ من مسد: من ليفٍ أو خوص، وقد يكون من جِلْدِ الإبل أو من أوبارها، ومَسَدَتْ الحبل مسدًا: أجدتُ فتله. انظر: «الصحاح» (٢: ٥٣٨ - مسد) للجوهري.

لِتَمْتَعِضَ مِنْ ذَلِكَ وَيَمْتَعِضَ بِعُلْمِهَا؛ وَهِيَ فِي بَيْتِ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ، وَفِي مَنْصِبِ الشَّرِيفَةِ وَالسَّادَةِ. وَلَقَدْ عَيَّرَ بَعْضُ النَّاسِ الْفَضْلَ بْنَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَتَبَةَ ابْنَ أَبِي لَهَبٍ بِحَمَالَةِ الْحَطَبِ، فَقَالَ:

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَمْ مَا تَعَيَّرُ مِنْ حَمَالَةِ الْحَطَبِ
عَرَاءُ شَادِخَةٍ فِي الْمَجْدِ عُرَّتُهَا كَانَتْ سَلِيلَةَ شَيْخِ نَاقِبِ الْحَسَبِ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ حَالَهَا تَكُونُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا حِينَ كَانَتْ تَحْمِلُ حِزْمَةَ الشُّوكِ؛ فَلَا تَزَالُ عَلَى ظَهْرِهَا حِزْمَةً مِنْ حَطَبِ النَّارِ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، أَوْ مِنَ الضَّرِيعِ وَفِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِمَّا مُسَدِّدٌ مِنْ سِلَاسِلِ النَّارِ؛ كَمَا يُعَذِّبُ كُلَّ مَجْرِمٍ بِهَا يُجَانِسُ حَالَهُ فِي جُرْمِهِ.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿تَبَّتْ﴾، رَجَوْتُ أَنْ لَا يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي لَهَبٍ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ».

قَوْلُهُ: (لِتَمْتَعِضَ)، مَعِضْتُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَمَعِضُ مَعْضًا، وَامْتَعِضْتُ مِنْهُ، إِذَا غَضِبْتَ وَشَقَّ عَلَيْكَ (١).

قَوْلُهُ: (مَاذَا أَرَدْتَ) الْبَيْتَيْنِ، أَرَدْتُ: أَي: مِلْتُ: ضَمَّنَ الْإِرَادَةَ مَعْنَى الْمِيلِ وَعُدِّي بِإِلَى. الشَّادِخَةُ: الْغُرَّةُ الَّتِي فَشَّتْ فِي الْوَجْهِ مِنَ النَّاصِيَةِ إِلَى الْأَنْفِ وَلَمْ تُصَبِّ الْعَيْنَيْنِ (٢)، يُوصَفُ بِهَا كِرَائِمُ الْخَيْلِ. وَالْمُرَادُ بِالشَّيْخِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَليْسَ بِهِ؛ لِأَنَّهَا بِنْتُ حَرْبٍ، أُخْتُ أَبِي سَفْيَانَ كَمَا ذَكَرَهُ.

قَوْلُهُ: (وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنْ حَالَهَا تَكُونُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا)، فَعَلَى هَذَا: ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾، الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿سَبَّحْتَهُ﴾،

(١) كَذَا فِي «الصَّحَاحِ» (٣: ١١٠٧ - مَعْض).

(٢) «الصَّحَاحِ» (١: ٤٢٤ - شَدْخ).

أو يعطف ﴿وَأَمْرَاتُهُ﴾ على الضمير. وعلى الأول لا يجوزُ الحال، بل عطفُ جملةٍ على جملة، قال أبو البقاء: «(امرأته) فيه وجهان: أحدهما مبتدأ والخبرُ حَمَّالَةٌ»، وثانيهما هو معطوفٌ على الضمير في ﴿سَيِّصَلَنِي﴾؛ فعلى هذا^(١)، في «حَمَّالَةٌ» وجهان: أحدهما نعتٌ لما قبله، والثاني تقديرُه: وهي حَمَّالَةٌ^(٢).

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) أي: فعل الوجه الثاني.

(٢) «التبيان» (٢: ١٣٠٨) للعكبري.

سورة الإخلاص

مكية، وقيل: مدنية، وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ١-٤]

﴿هُوَ﴾ ضميرُ الشأن، و﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشأن، كقولك: هو زيدٌ منطلق،
كأنه قيل: الشأن هذا، وهو أن الله واحدٌ لا ثاني له.
فإن قلت: ما محلُّ ﴿هُوَ﴾؟
قلت: الرفعُ على الابتداء والخبرِ الجملة.

فإن قلت: فالجملة الواقعة خبراً لا بدَّ فيها من راجع إلى المبتدأ، فأين الراجع؟
قلت: حكمُ هذه الجملة حكم المفرد في قولك: (زيدٌ غلامك) في أنه هو المبتدأ في
المعنى، وذلك أن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشأن الذي هو عبارةٌ عنه، وليس كذلك
(زيدٌ أبوه منطلق)؛ فإن زيدا والجملة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بدَّ مما يصلُّ بينهما.
وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد، صِفْ لنا ربَّك الذي تَدْعونا إليه، فنزلت،
يعني: الذي سألتموني وَصَفَهُ هو الله، و﴿أَحَدٌ﴾: بدلٌ من قوله: ﴿اللَّهُ﴾،

سورة الإخلاص

مكية، وقيل: مدنية، وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (الذي سألتموني وَصَفَهُ هو الله، و﴿أَحَدٌ﴾: بدل)، قال أبو البقاء: ﴿هُوَ﴾: مبتدأ

أو على: هو أَحَدٌ، وهو بمعنى واحد، وأصله: وَحَدٌ.....

بمعنى المسؤول عنه؛ لأنهم قالوا: ربك من نحاسٍ أم من ذهب؟ فعلى هذا: يجوز أن يكون ﴿اللَّهُ﴾ خبرَ المبتدأ، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل، أو خبرٌ مبتدئاً محذوف. ويجوز أن يكون ﴿اللَّهُ﴾ بدلاً، و﴿أَحَدٌ﴾ الخبر. وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ بدلٌ من الواو؛ لأنه بمعنى الواحد^(١)، وإبدال الواو المفتوحة همزةً قليلة، وقيل: الهمزة أصلٌ كالمهمزة في «أحد» المستعمل للعموم.

قوله: (وهو بمعنى واحد)^(٢)، وفيه احتمالان: أحدهما أن يتعلق بالوجه الثاني، وهو أن يكون ﴿هُوَ﴾ جواباً عن قولهم: صِفْ لنا ربك، ولفظة ﴿هُوَ﴾ ضميرُ المسؤول؛ فإذا لا بُدَّ من الفرق بين واحدٍ وأحد؛ قال في «الأحزاب»: «أحدٌ في الأصلِ بمعنى وَحَدٍ، وهو الواحد، ثم وضع في النفي العامِّ مستويّاً فيه المذكرُ والمؤنثُ والواحدُ وما وراءه»^(٣).

وروى صاحبُ «النهاية» عن الأزهرى أنه قال: «الفرقُ بين الواحدِ والأحدِ: أن الأحدُ بُني لنفي ما يُذكرُ معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والواحدُ: اسمٌ بني لفتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أحد^(٤)؛ فالواحدُ منفردٌ بالذات في عدم المثل والنظير، والأحدُ منفردٌ بالمعنى. وقيل: الواحدُ هو الذي لا يتجزأ، ولا يُثنى، ولا يقبلُ الانقسام، ولا نظيرَ له ولا مثل، ولا يجمعُ هذين الوصفين إلا اللهُ تعالى».

وقال الأزهرى في «تفسير أسماء الله الحسنى»: «الأحدُ من صفاتِ الله التي استأثر اللهُ بها، فلا يشركه فيها شيءٌ، ولا يوصفُ شيءٌ بالأحدِ غيرُ الله؛ لا يقال: رجلٌ أحدٌ، ولا درهمٌ أحدٌ؛ وإنما يقال: رجلٌ واحدٌ»^(٥).

(١) «التيبان» (٢: ١٣٠٩).

(٢) من قوله: «وإبدالُ الواو المفتوحة» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح)، (ف).

(٣) انظر: (١٢: ٤١٦)؛ في تفسير الآية (٣٢) من سورة الأحزاب.

(٤) قوله: «من الناس، ولا تقول: جاءني أحد»، سقط من (ح)، (ف).

(٥) لم أقف على هذا الكتاب للأزهري.

وقرأ عبدُ الله وأبي: (هُوَ اللهُ أَحَدٌ) بغير (قُلْ)، وفي قراءة النبي ﷺ: (اللهُ أَحَدٌ) بغير (قُلْ هُوَ)، وقال: «مَنْ قرأ: اللهُ أَحَدٌ، كان بَعْدِلِ القرآن». وقرأ الأعمش: (قل هو اللهُ الواحد). وقرئ: (أحدُ اللهُ) بغير تنوين؛

إذا عَلِمَ هذا، فنقول: إنهم لما قالوا: صِفْ لنا رَبَّكَ الذي تدعوننا إليه، قيل لهم: المسؤولُ عنه اللهُ^(١)، وهو واحدٌ متفردٌ بالذاتِ في عدمِ المثلِ والنظير؛ فإجراءُ الكلامِ للتمييز، والصفةُ فارقة. وإن استلزمَ التعظيم، على أن يكونَ «هو» ضميرَ الشأن، فإجراءُ الأوصافِ لمجردِ التعظيم؛ لأنه ابتداءُ أمرِ الرسولِ ﷺ، إرشاداً للقوم، وتنبهاً على معبودٍ عظيمِ الشأنِ قاهرِ السلطان، فكأنه قيل: قُلْ يا محمدُ: الشأنُ والأمرُ أن اللهُ أَحَدٌ لا ثاني له، فدلَّ بقوله: ﴿اللهُ﴾، على جميعِ صفاتِ الكمال، وبالأحدِ على جميعِ صفاتِ الجلال؛ فالمناسبُ أن يقال: واحدٌ لا ثاني له، لأنه دالٌّ لنفي ما يُذكرُ معه. والاحتمالُ الثاني، وهو أن يتعلَّقَ بالوجهينِ كليهما^(٢)، أي: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ الشأن، أو ﴿هُوَ﴾ بمعنى المسؤول؛ فحينئذٍ لا فرقَ بين أحدٍ وواحد، قال الجوهرى: «الأحدُ بمعنى الواحد، وهو أولُ العدد»، وقال صاحبُ «النهاية»: «الواحدُ هو الفردُ الذي لم يزلْ وحده، ولم يكن معه آخر».

قوله: (كانَ يَعدُلُ^(٣) القرآن)، قيل: كان قراءته يَعدُلُ قراءةَ القرآن، والحديث^(٤) استشهداً لهذه القراءة. ولعلَّ المرادُ أن قوله: «قل هو» كالمقدمةِ والتمهيدِ لقوله: «اللهُ أَحَدٌ»، وهو إنما يستقيمُ على جَعْلِ الضميرِ للشأن.

(١) سقط لفظ الجلالة «الله» من (ح)، (ف).

(٢) أي: الوجهين اللذين ذكرهما العكبري، وهما: أن «هو» ضمير الشأن، أو بمعنى المسؤول.

(٣) في الأصل الخطي من «الكشاف»، والنسخ المطبوعة: «بَعْدِلِ القرآن»، وفي نص «الكشاف» من (ط): «يعدُلُ القرآن»، وعليه شرح الطيبي.

(٤) «في التحرير والتنوير» (٣٠: ٥٣٩) لابن عاشور: روي أن النبي ﷺ قال: «من قرأ: اللهُ أَحَدٌ، كان يعدلُ ثلث القرآن»، ولم أهدئ إلى تحريجه بهذا اللفظ. أما أن «قل هو اللهُ أَحَدٌ» تعدلُ ثلث القرآن، فقد رواها الأئمة في كتبهم. انظر: البخاري (٥٠١٣) ومسلم (٢٥٩) (٨١١) وأبو داود (١٤٦١) والنسائي (٩٩٥) والترمذي (٢٨٩٩).

أسقطَ ملاقاتِهِ لَامَ التعريف. ونحوه:

ولا ذاكِرِ اللهُ إلا قليلاً

والجيدُ هو التنوين، وكسره لالتقاء الساكنين. ﴿الصَّكْمُ﴾ فَعَلٌ بمعنى مَفْعُولٍ، مِنْ صَمَدٍ إِلَيْهِ إِذَا قَصَدَهُ، وَهُوَ السَّيِّدُ الْمَصْمُودُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ.....

قوله: (ولا ذاكِرِ اللهُ إلا قليلاً)، أوله:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ^(١)

أي: ذكّرته. أي: ولا ذاكِر، على إرادة التنوين، فحذف لالتقاء الساكنين، فبقي «الله» منصوباً لا مجروراً للإضافة. و«ذاكِرٍ» جَرٌّ عطفاً على «مُسْتَعْتَبٍ»، أي: ولا ذاكِر. أي: ذكّرته ما كان بيننا من المودة، فوجد غير راجع بالعتاب من قُبْح ما فَعَلَ.

قوله: (والجيدُ هو التنوين)، وهي المشهورة.

قوله: (وهو السَّيِّدُ^(٢) المصمودُ إليه في الحوائج)، وأنشد الزجاجُ للأسدي^(٣):

لقد بَكَرَ الناعيَ بِخَيْرِي بني أسدٍ بعمرو بن مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

الصَّمَدُ: أي يصمدُ إليه كلُّ شيءٍ، أي: الذي خلق الأشياءَ كلها، لا يستغني عنه شيءٌ. روى محيي السنّة عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ والحسنٍ وسعيد بن جبير: «الصَّمَدُ: الذي لا جَوْفَ له، وقال الشعبي: الذي لا يأكلُ ولا يشرب»^(٤).

(١) سبق تخريجه والحديث عنه.

(٢) في (ح)، (ف): «الصَّمَدُ».

(٣) هو سَبْرَةُ بن عمرو الأسدي، ويقال: إنه لهند بنت معبد تبكي عمها. انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥):

(٣٧٨) للزجاج، و«زاد المسير» (٤: ٥٠٦) لابن الجوزي، و«الدر المنثور» (١٥: ٧٧٨) للسيوطي.

(٤) «معالم التنزيل» (٨: ٥٨٨).

والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتُقَرِّون بأنه خالق السماوات والأرضِ وخالقكم، وهو واحد متوحدٌ بالإلهية لا يُشَارِكُ فيها، وهو الذي يَصْمَدُ إليه كلُّ مخلوقٍ ولا يَسْتَغْنون عنه، وهو الغنيُّ عنهم. ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ لأنه لا يُجَانَسُ، حتى يكون له من جنسه صاحبةٌ فيتوالدا. وقد دَلَّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]. ﴿وَلَمْ يُولِدْ﴾ لأن كلَّ مولودٍ مُحَدَّثٌ وجِسْمٌ، وهو قديمٌ لا أوَّلَ لوجوده وليسَ بجِسْمٍ ولم يُكافئه أحد، أي: لم يُبائله ولم يُشاكله. ويجوزُ أن يكونَ من الكفاءة في النكاح، نفيًا للصاحبة: سألوه أن يصفه لهم، فأوحي إليه ما يحتوي على صفاته، فقوله: ﴿هُوَ اللهُ﴾ إشارة لهم إلى مَنْ هو خالقُ الأشياءِ وفاطرُها،

الرَّاعِب: «الذي ليسَ بأجوف، شيطان: أدونُ من الإنسانِ كالجُمادات، وأعلى وهو الباري تعالى وتقدس. والقصدُ بقوله «الصَّمَد»، تنبيهٌ أنه بخلافِ مَنْ أثبتوا له الإلهية، وإلى نحو هذا أشار بقوله: ﴿وَأُمَّهُ صِدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]»^(١).

قوله: (وقد دَلَّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١])، عطفٌ على قوله: (لأنه لا يُجَانَسُ)، يعني: «لم يلد»: إِمَّا كنايةً عن كونه تعالى متعالياً عن الجنسية؛ لأن مَنْ جَانَسَ شيئاً اتَّخَذَ من جنسه صاحبةً، ومَنْ اتَّخَذَ صاحبةً حَصَلَ التوالدُ. أو بالعكس بأن يقال: كيف يكون له ولدٌ، وأنه ما اتَّخَذَ صاحبةً؟ لأن الولادة لا تكونُ إلا بين زوجين من جنسٍ واحد، وهو متعالٍ عن مجانسٍ؛ فلم يَصِحَّ أن تكونَ له صاحبة، فلم تَصِحَّ الولادة، قاله في تفسير هذه الآية في الأنعام^(٢).

قوله: (فقوله: ﴿هُوَ اللهُ﴾)، الفاءُ تفصيليةٌ، والمُجْمَلُ قوله: «ما يحتوي على صفاته». ولَمَّا كان اللهُ اسماً للذات، وقرَّرَ في فاتحة الكتاب استحالة كونه وصفاً، لكن له في كلِّ مقامٍ بحسبِ

(١) «مفردات القرآن»، ص ٤٩٢، ٤٩٣.

(٢) انظر (٦: ١٩٤).

مقتضاه معنى، وخصوصية سؤال المشركين، أوجب أن يفسر بأنه الخالق، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ فالله هاهنا، جواباً، إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء؟ وأنت تعلم أن مُصَحِّح الخالقية هو العلمُ والقُدرةُ، فاندرج تحته هاتان الصفتان، وإليه الإشارة بقوله: «وفي طي ذلك وَصَفَهُ بأنه قادرٌ عالمٌ، ولا يكونُ قادراً عالماً، حتى يكونَ عالماً حياً سميعاً بصيراً. ثم عَقَبَ هذه الأوصافَ معنى الوجدانية بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾. ولما اقتضى الفردانية قَطْعَ السبيلِ من الغير، أثبتَ له صفة الصمدانية، ليكونَ الالتجاءُ إليه.

ولما عُلمَ من ذلك ثبوتُ الذاتِ المستلزمة للصفاتِ من الخالقيةِ والعالميةِ والقادريةِ والحَيَّةِ والإلهيةِ، أريد^(١) بيانُ كمالها وأنها مباينةٌ لصفاتِ المخلوقاتِ فيما مضى ويُستقبل. والآنَ قيل: «لم يلدُ ولم يولدْ ولم يكن له كفواً أحدٌ»، ولحجة الإسلامِ كلامٌ إجماليٌّ فيها، قال: «أحدٌ: هو الواحدُ الذي هو مرفوعُ الشركة، والأحدُ الذي لا تركيبَ فيه فالواحدُ نفِيُ الشريكِ والمثل، والأحدُ نفِيٌ للكثرةِ في ذاته، والصمدُ الغنيُّ المحتاجُ إليه غيرُه، وهو أحدِيُّ الذاتِ وواحدِيُّ الصفاتِ، لأنه لو كان له شريكٌ في مُلكِه، لما كانَ غنياً محتاجاً إليه غيرُه، بل كانَ محتاجاً في قوامِه ووجودِه إلى أجزاءِ تركيبِه؛ فالصمديةُ دليلٌ على الوجدانيةِ والأحديةِ، و«لم يلدُ» دليلٌ على أن وجودَه المستمرّ، ليسَ مثلَ وجودِ الإنسانِ الذي يبقى نوعُه بالتوالدِ والتناسلِ، بل هو وجودٌ مستمرٌّ أزليٌّ أبديٌّ، و«ولم يولد» دليلٌ على أن وجودَه ليسَ مثلَ وجودِ نفسِ الإنسانِ الذي^(٢) يتحصَّلُ بعدَ العدمِ: يبقى دائماً إما في جنَّةٍ عاليةٍ لا تفتنى، وإما في هاويةٍ لا تنقطع. «ولم يكن له كفواً أحدٌ»، دليلٌ على الوجودِ الحقيقي الذي له تعالى، هو الوجودُ الذي يفيدُ وجودَ غيرِه، ولا يستفيدُ الوجودُ من غيرِه؛ فقوله تعالى: «هو اللهُ أحدٌ»، دليلٌ على إثباتِ ذاته المقدَّسة المنزهة. والصمديةُ تقتضي نفِيَ الحاجةِ عنه واحتياجِ غيره إليه،

(١) في (ط): «وأريد».

(٢) من قوله: «يبقى نوعه» إلى هنا، سقط من (ح)، (ف).

وفي طَيِّ ذلك وَصَفَهُ بأنه قادرٌ عالمٌ؛ لأنَّ الخَلْقَ يَسْتَدْعِي القُدْرَةَ والعِلْمَ، لكونه واقعاً على غايةِ إحكامٍ واتساقٍ وانتظامٍ، وفي ذلك وَصَفَهُ بأنه حَيٌّ سَمِيعٌ بصيرٌ. وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ وَصَفَ بالوحدانيةِ ونفيِ الشركاء. وقوله: ﴿الصَّكْمُ﴾ وَصَفَ بأنه ليسَ إِلَّا محتاجاً إليه، وإذا لم يكنْ إِلَّا محتاجاً إليه، فهو غني، وفي كونه غنياً مع كونه عالماً، أنه عدلٌ غيرُ فاعِلٍ للقبايح، لعِلْمِهِ بِقُبْحِ القبيحِ وعِلْمِهِ بغناه عنه. وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَصَفَ بالِقَدَمِ والأولويةِ. وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ نَفْيٌ لِلشَّيْءِ والمُجانسةِ. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ تقريرٌ لذلك وَبَيَّتْ للحُكْمِ به.

فإن قلت: الكلامُ العربيُّ الفصيحُ أن يؤخَرَ الظرفُ الذي هو لَعْوٌ غيرُ مستقرٍ ولا يُقَدِّمُ، وقد نصَّ سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدماً في أفصحِ كلامٍ وأعربَه؟

«ولم يولد»^(١) في آخرِ السورة، سلبٌ ما يوصفُ به غيره عنه، ولا طريقٌ في معرفةِ الله تعالى أوضحٌ من سلبِ صفاتِ المخلوقاتِ عنه».

قوله: (ليسَ إِلَّا محتاجاً إليه)، والاستثناءُ مفرَّغٌ، أي: ليسَ اللهُ إِلَّا محتاجاً إليه، أي بالنسبةِ إلى المخلوقاتِ.

قوله: (لَعْوٌ غيرُ مستقرٍ)، الظرفُ المستقر: هو الذي يفتقرُ تمامُ الكلامِ إليه، وذلك بأن يكونَ خبراً كما في قولك: ما كانَ فيها أحدٌ خيراً منك. واللَعْوُ أن يكونَ الكلامُ تاماً بدونَه كما في قولك: ما كانَ أحدٌ خيراً منك فيها؛ وإنما قُدِّمَ في الأولِ المستقرُ لكونه مقصوداً، وإنما رُفِضَ في الآيةِ الأصلِ، لأنها سيقَتُ لبيانِ التوحيدِ. قال ابنُ الحاجب: «إنما قُدِّمَ لاهتمامِ تناسبِ الفواصلِ، فلو قُدِّمَ على «أحد» لحصلَ الغرضُ، لكن كان يقعُ الفصلُ بين الجزأين اللذين هما مسندٌ إليه، فقُدِّمَ عليهما جميعاً وحصلَ الغرضُ»^(٢).

(١) في (ف): «ولم يولد».

(٢) لعله من «شرحه» على «كافيته»، ولم أقف عليه كما أشرتُ سابقاً؛ إذ لم أهدِ إليه في «شرحه» على «المفصل».

قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه؛ وهذا المعنى مَصَّبُهُ ومَرَكزُهُ هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناهُ، وأحَقَّهُ بالتقدم وأجراه. وقرئ: ﴿كُفُوا﴾ بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء.

وقال صاحب «الانتصاف»: «نقل سيويه أنه سمع بعض الجفأة من العرب يقرأ: ولم يكن أحد كفواً له، فجرى هذا الجلف على عادته، فجفا طبعه عن لطف المعنى، الذي لأجله اقتضى تقديم الظرف والخبر على الاسم، وذلك أن الغرض الذي سبقت إليه الآية، نفي المكافأة والمساواة عن ذات الله تعالى، فكان تقديم المكافأة المقصودة بأن تُسلب عنه أنه أولى، ثم لما قُدمت لتسلب ذكر معها الظرف، لتبين الذات المقدسة بسلب المكافأة»^(١). وقلت: تلخيصه أن مراعاة المعنى الذي يقتضيه المقام، أخرى وأحقُّ وأقدم من مراعاة اللفظ والفواصل.

قوله: (وقرئ: ﴿كُفُوا﴾، بضم الكاف)، حَفْص: بضمها وضم الفاء من غير همز، وحمزة: بإسكان الفاء مع الهمزة في الوصل، فإذا وقف أبدل واواً مفتوحة، والباقون: بضم الفاء مع الهمزة.

الراغب: «الكُفُّ: في المنزلة والقدر، ومنه الكِفَاءُ لَشَقَّةٍ تُنْصَحُ»^(٢) بالأخرى، فيجَلَّلُ بها مؤخرُ الخباء^(٣). يقال: فلان كَفُّ فلانٍ في المناكحة والمحاربة ونحو ذلك. ومنه المكافأة أي: المساواة والمقابلة في الفعل، والإكفاء: قلب الشيء كأنه إزالة المساواة، ومنه الإكفاء^(٤) في الشعر^(٥).

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٨١٨)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٥١) للعراقي.

(٢) أي: تخاطبها، يقال: نصحت الثوب، إذا خطته. «اللسان» (نصح).

(٣) في (ح)، (ف): «البيت».

(٤) الإكفاء في الشعر: «أن ترفع قافيةً وتخفض أخرى». انظر: «الكافي في العروض والقوافي» للتبريزي

ص ١٦٧.

(٥) «مفردات القرآن»، ص ٧١٨.

فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصرٍ منها وتقاربٍ طرفيها؟
قلت:

لأمرٍ ما يُسودُّ من يسودُّ

قوله: (عدل القرآن كله)، يُروى بفتح العين وكسرها، قال الأخفش: العدل بالكسر: المثل، والعدل بالفتح: أصله مصدر قولك: عدلت بهذا عدلاً حسناً، تجعله اسماً للمثل، لتفرق بينه وبين عدل المتاع. وقال الفراء: العدل بالفتح: ما عادل الشيء من غير جنسه، والعدل بالكسر: المثل. وتقول: عندي عدل غلامك، وعدل شاتك، إذا كان غلاماً يعدل غلاماً، أو شاةً تعدل شاة، فإذا أردت قيمته من غير جنسه، نصبت العين، وربما كسرها بعض العرب، وكان منهم غلط^(١).

والصحيح: ثلث القرآن؛ رويناه عن البخاري ومسلم ومالك وأبي داود والنسائي، عن أبي سعيد، أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقأها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن»^(٢). قال القاضي: «ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلهية، والرد على من ألد فيها، جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن، لأن مقاصد القرآن محصورة في بيان العقائد، والأحكام، والقصص، ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات من ذلك»^(٣).

قوله: (لأمرٍ ما يُسودُّ من يسودُّ)، أوله:

عزمت على إقامة ذي صباح^(٤)

(١) من قوله: «يُروى بفتح العين وكسرها» إلى هنا، سقط من (ح)، (ف). وانظر: «معاني القرآن» (١):

(٣٢٠) للفراء، قاله في تفسير الآية (٩٥) من سورة المائدة.

(٢) سبق تحريجه في هذه السورة.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٤٩).

(٤) لم أهد إلى قائله.

وما ذاك إلا لاحتوائها على صفاتِ الله تعالى وعَدْلِهِ وتَوْحِيدِهِ، وكفى دليلاً مَنْ اعترفَ بفضليها وصدَّقَ بقولِ رسولِ الله ﷺ فيها: إِنَّ عِلْمَ التَّوْحِيدِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِمَكَانٍ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَالْعِلْمُ تَابِعٌ لِلْمَعْلُومِ: يَشْرَفُ بِشَرَفِهِ، وَيَتَضَعُ بِضَعْفَتِهِ؛ وَمَعْلُومُ هَذَا الْعِلْمِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ، وَمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ وَمَا لَا يَجُوزُ، فَمَا ظَنُّكَ بِشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ وَجَلَالَةِ مَحَلِّهِ،

و«ما» مزيدةٌ إيهاميةٌ^(١)، أي: لأمرٍ عظيمٍ يُسَوِّدُ مِنْ يَسُودِ.

قوله: (وكفى دليلاً مَنْ اعترفَ)، «مَنْ اعترفَ» مفعولٌ «كفى»، والفاعلُ ما دَلَّ عليه لاحتوائها على صفاتِ الله، والضميرُ في «بفضلها» للسورة، و«صدَّقَ» عطفٌ على «اعترفَ»، و«بقولِ رسولِ الله ﷺ» متعلِّقٌ بـ «صدَّقَ». وقوله: «أن علم التوحيد» متعلِّقٌ بـ «دليلاً» وهو تمييز، أي: كفى ذلك مَنْ اعترفَ بفضلِ السورة، وصدَّقَ بقولِ الرسولِ، دليلاً على أن علم التوحيد من الله بمكان. والمرادُ بقولِ النبي ﷺ، ما رواه في خاتمة السورة: «أُسِّسَتْ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ» إلى آخره؛ ولم أجد الحديثَ في الأصولِ المعتمدة^(٢).

وقد وردَ عن الترمذيِّ وأبي داودَ وابنِ ماجه، عن بريدة، أن رسولَ الله ﷺ سمعَ رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأنني أشهدُ أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمد، الذي لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحد». فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، لقد سألَ اللهَ باسمِهِ الأعظمِ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى^(٣).

(١) في (ف): «أنتها منه».

(٢) استغربه الحافظ الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤: ٣٣١)، ثم ذكر ما رواه ابن أبي شيبة في كتابه المفرد في «فضائل القرآن» عن كعب الأحمار موقوفاً: «أن الله تبارك وتعالى أسَّس الأرضين على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

وأخرجه مرفوعاً الدينوري في «المجالسة» (٣٤٥٨) من حديث أنس، وعزاه السيوطي في «الجامع الصغير» إلى تمام الرازي. والمرفوع لا يصح.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٧٥) وأبو داود (١٤٩٣). وابن ماجه (٣٨٥٧).

وإنافته على كلِّ علم، واستيلائه على قصبِ السَّبِقِ دونه؛ ومن أزدراه فلصَّغفِ عِلْمِهِ بمعلومه، وقلةِ تَعْظِيمِهِ له، وخُلُوه من خَشْيَتِهِ، وبُعْده من النَظَرِ لعاقبته. اللهم احْشُرْنَا في زُمرَةِ العالَمِينَ بكِ العَامِلِينَ لكِ، القَائِلِينَ بَعْدَكَ وتَوْحِيدِكَ، الخائِفينَ من وَعِيدِكَ.

وتُسمَى «سورة الأساس» لاشتغالها على أصولِ الدِّينِ، وروى أبو وأنس عن النبي ﷺ: «أُسِّسَتِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبْعُ على قُلِّ هو اللهُ أَحَدٌ»، يعني ما خُلِقَتْ إِلَّا لتَكُونَ دَلَالَةً على تَوْحِيدِ اللهِ ومعرفةِ صِفَاتِهِ التي نَطَقَتْ بها هذه السورة.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنه سمعَ رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فقال: «وَجِبَتْ». قيل: يا رسولَ اللهِ وما «وَجِبَتْ»؟ قال: «وَجِبَتْ له الجنة».

قوله: (فقال: وَجِبَتْ)، الحديثُ أخرجه مالكٌ وأحمدُ والترمذيُّ والنسائيُّ عن أبي هريرة^(١).

خاتمة من كلامِ الشيخِ فصيحِ الدينِ رحمه اللهُ:

لم يُعطف ﴿اللهُ الصَّكْمُ﴾ على الجملةِ المتقدمة؛ لأنها محققةٌ لمضمونها ومبينةٌ لها، وكذا ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنها محققةٌ لمضمونِ ﴿اللهُ الصَّكْمُ﴾؛ لأن الغنى^(٢) المطلق الذي يفتقرُ إليه كلُّ شيءٍ، لا ينبغي أن يكونَ والدًا ولا مولودًا؛ لأن ذلك يستلزمُ الافتقارَ بالضرورة. وعطفَ «لم يولد» على ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأن «لم يولد» لم يُنبئ عن معنى «لم يلد»، فلم يكن محققاً لمعناه، بل الجملتان محققتان لمضمونِ الجملةِ السابقة. وعطفَ «ولم يكن له كفواً أحدٌ»، أن مضمونها لم يكن محققاً لمضمونِ السابقتين؛ لأنها تُنبئ عن أنه لا يمكنُ أن يكونَ له مماثلٌ في شيءٍ بما ذُكر في الذاتِ والصفاتِ، فهو واحدٌ لا شريك له تعالى وتقدس وتَعْظُم.

(١) أخرجه مالك (٥٥٨) والإمام أحمد (٨٠١١) والترمذي (٢٨٩٧). والنسائي (١١٦٥١).

(٢) في (ف): «المعنى».

وَعَرَفَ الْخَيْرُ فِي ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾، نَفِيًّا لِنَفِي مَنْ زَعَمَ وَسَمَىٰ غَيْرَهُ صَمْدًا، وَتَكْرَّرَ فِي ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُسَمِّوْا أَشْيَاءَ «أَحَدًا» بِهَذَا الْمَعْنَى.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

سورة الفلق

مختلف فيها، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ] ﴿١-٥﴾

الْفَلَقُ وَالْفَرَقُ: الصُّبْحُ، لِأَنَّ اللَّيْلَ يُفَلَّقُ عَنْهُ وَيُفَرِّقُ: فَعَلَّ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ. يُقَالُ فِي الْمَثَلِ: هُوَ أَيْبُنُ مَنْ فَلَقَ الصُّبْحَ، وَمَنْ فَرَّقَ الصُّبْحَ. وَمَنْ قَوْلُهُمْ: سَطَعَ الْفُرْقَانُ، إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ. وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ مَا يَفْلُقُهُ اللَّهُ،

سورة الفلق

مكية، وقيل: مدنية، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (لأن الليل يُفَلَّقُ عنه)، أي: لأن الليل يَنْشَقُّ عن الصبح، فيخرجُ الصبح؛ فَعَلَّ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛ فَالليْلُ مَفْلُوقٌ عَنْهُ.

قوله: (وقيل: هو كلُّ ما يَفْلُقُهُ)، قَالَ الْقَاضِي: «هُوَ يَعْمُ جَمِيعَ الْمَمَكِّنَاتِ؛ فَإِنَّ تَعَالَى فَلَقَ ظِلْمَةَ الْعَدَمِ بِنُورِ الْإِبْجَادِ عَنْهَا، سَيِّمَا مَا يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِ، كَالْعَيُونِ وَالْأَمْطَارِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَوْلَادِ، وَيَخْتَصُّ عُرْفًا بِالصُّبْحِ، وَلِذَلِكَ فُسِّرَ بِهِ. وَتَخْصِيصُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَغْيِيرِ الْحَالِ، وَتَبَدُّلِ وَحْشَةٍ

كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو وادٍ في جهنم أو جُبُّ فيها، من قولهم لما اطمأنَّ من الأرض: الفلق، والجمع: فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دورَ أهلِ الذمة وما هم فيه من خفضِ العيش، وما وسَّعَ عليهم من دنياهم، فقال: لا أبالي، أليس من ورائهم الفلق؟ فقيل: وما الفلق؟

الليل بسرورِ النور، ومحاكاةِ الخيرِ بيومِ القيامة، والإشعارِ بأن من قدر أن يزيلَ ظلمةَ الليلِ عن هذا العالم، قدر أن يزيلَ عن العائدِ ما يخافُه. ولفظُ الرَّبِّ هاهنا أوقع من سائرِ الأسماء، لأن الإعادةَ مِنَ المضارِّ^(١) قريبة^(٢).

قوله: (لا أبالي، أليس من ورائهم الفلق؟)، أي: لا أبالي بحسنِ دورهم وخفضِ عيشهم. ثم استأنفَ مستفهماً على سبيلِ التقرير: أليس من ورائهم الفلق؟ ونظيره ما روينا عن البخاريِّ ومسلمٍ وأحمدَ والترمذيِّ والنسائيِّ، عن ابنِ عباسٍ في حديثٍ طويل، عن عمر^(٣) رضي اللهُ عنه: دخلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ، فسلمتُ وهو متكئٌ على رمالٍ حصيرٍ قد أثر في جنبه وفيه، فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيتُ فيه شيئاً ردَّ البصرَ إلا أهبةً ثلاثة، فقال: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهُ أن يوسعَ على أمتك، فقد وسَّعَ على فارسَ والرومِ وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، ثم قال: أفي شك أنت يا ابنَ الخطاب؟ أولئك قومٌ قد عجلتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. فقلت: استغفر لي يا رسولَ اللهِ. الحديث^(٤). وأما تفسيرُ الفلقِ بأنه وادٍ في جهنم، فروى محيي السنَّة عن ابنِ عباسٍ في رواية، أن الفلقَ سجنٌ في جهنم، وعن الكلبي أنه وادٍ في جهنم^(٥).

(١) قوله «من المضارِّ»، سقط من الأصول الخطية.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٥٠).

(٣) في (ط): «عن عثمان».

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٦٨) ومسلم (٣١-١٤٧٩) وأحمد (٢٢٢) والترمذي (٣٣١٨). والنسائي (٩١١٢).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ٥٩٥).

قال: بيَّت في جهنم إذا فُتِحَ صاحَ جميع أهل النار من شدَّة حرِّه. ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من شَرِّ خَلْقِهِ، وشَرُّهم: ما يفعلُه المكلفون من الحيوان من المعاصي والمآثم، ومُضَارَّةٌ بعضهم بعضاً من ظلمٍ وبغْيٍ وقَتْلٍ وضرَبٍ وشتمٍ وغير ذلك، وما يفعلُه غيرُ المكلفين منه من الأكلِ والنَّهْسِ واللَّدغِ والعَضِّ كالسَّبَّاعِ والحشرات، وما وَضَعَهُ اللهُ في المواتِ من أنواعِ الضررِ كالإحراقِ في النارِ والقَتْلِ في السُّمِّ. و«الغاسقُ»: الليلُ إذا اعتكَرَ ظلامُه، من قوله تعالى: ﴿ أَقْبِرِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] ومنه: غَسَقَتِ العَيْنُ امتلأت دَمْعاً، و غَسَقَتِ الجراحةُ: امتلأت دماً. ووقوبُه: دخولُ ظلامه في كلِّ شيءٍ، ويقال: وَقَبَتِ الشَّمْسُ إذا غابت. وفي الحديث: لَمَّا رَأَى الشَّمْسَ قد وَقَبَتِ قال: هذا حينُ حِلِّهَا، يعني صلاةَ المغرب. وقيل: هو القمرُ إذا امتلأ،

قولُه: (وشرُّهم: ما يفعلُه المكلفون من الحيوان)، لعلَّ إيقاعَ «من الحيوان» بياناً للمكلفين، لإخراجِ الملائكةِ منهم. قال القاضي: «خَصَّ عالمَ الخلقِ بالاستعاذَةِ عنه لانحصارِ الشرِّ فيه؛ فإنَّ عالمَ الأمرِ خيرٌ كُلُّهُ، وشرُّه اختياريٌّ لازمٌ ومتعدِّدٌ، كالكفرِ والظلمِ، وطبيعيٌّ كإحراقِ النارِ وإهلاكِ السمومِ»^(١).

قولُه: (إذا اعتكَرَ ظلامُه)، الجوهري: «اعتكَرَ الظلامُ: اختلطَ كأنه كَرَّ بعضُه على بعضٍ من بُطءٍ انجلايَه».

قولُه: (ويقال: وَقَبَتِ الشَّمْسُ، إذا غابت)، الراغب: «الْوَقْبُ كالنُّقْرَةِ في الشيءِ، ومنه وَقَبَتِ الشَّمْسُ، والإيقابُ: تَغْيِيهَا»^(٢).

قولُه: (هذا حينُ حِلِّهَا)، برفعِ «حين»، وكسرِ الحاءِ، وجرِّ^(٣) اللامِ من «حلِّها». النهاية:

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٥٠).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٨٧٩.

(٣) في (ح)، (ف): «وجزم».

وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: تَعَوَّذِي من شرِّ هذا، فإنه الغاسقُ إذا وَقَب، ووقوبه: دخوله في الكسوفِ وأسودَّه. ويجوزُ أن يرادَ بالغاسقِ: الأسودُ من الحياتِ، ووقبه: صرَّبه ونقَّبه. والوقبُ: النقْبُ، ومنه: وَقْبَةُ الثريدِ؛ والتعوذُ من شرِّ الليل؛ لأن انبثائه فيه أكثر، والتحرُّزُ منه أصعب، ومنه قولهم: الليلُ أخفى للويل، وقولهم: أغدَرَ الليل؛

«وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وَقَبَتْ، قال: هذا حينُ حلَّها؛ وَقَبَتْ: غابت. وحينُ حلَّها: الوقتُ الذي يحلُّ فيه أداؤها، يعني: صلاةَ المغرب. والوقوبُ: الدخولُ في كلِّ شيء.»

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها)، الحديثُ أخرجه الإمامُ أحمدُ والترمذي^(١)، وليس فيه: أخذُ بيدي؛ روى الإمامُ عن ابنِ قتيبة: «إنما سُمي القمرُ غاسقاً، لأنه يُكسَفُ فيغسِقُ، أي: يذهبُ ضوءُه، ويسود، ووقوبه: دخوله في ذلك الاسوداد»^(٢). وقال: «وقد صحَّ أن القمرَ في جزمه غيرُ مستنير، فسُمي بالغاسق لهذا. ووقوبه المحاقُ في آخرِ الشهر، لأنه حينئذٍ قليلُ القوةِ وفي غايةِ الرذالة، ولذلك يشتغلُ السحرةُ فيه بالسحر الذي يورثُ التمريضَ، وهذا مناسبٌ لسببِ نزولِ السورتين»^(٣)، والله أعلم.

قوله: (الليلُ أخفى للويل)، قال الميداني: «أي: افعل ما تريدُ ليلاً، فإنه أسترُّ لسركِ وأولُ من قال ذلك ساريةُ بنُ عويمِرِ بنِ عديٍّ^(٤) العُقيلي»^(٥)، وسببه مذكورٌ في كتابه. قوله: (أغدَرَ الليل)، قيل: هو من بابِ أحصدَ الزرع، أي: حانَ وقتُ غَدْرِهِ^(٦). وقيل: صارَ ذا غَدْرٍ.

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٣٣٦٦) و«مسند الإمام أحمد» (٢٤٣٢٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٧٨)، ولم أهد إليه في «الأنواء» لابن قتيبة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في الأصول الخطية: «أبي عذر» بدل «عدي».

(٥) «مجمع الأمثال» (٢: ١٩٣).

(٦) في (ح)، (ف): «حصيده».

لأنه إذا أظلم كثر فيه العَدْر، وأُسِنِد الشرُّ إليه لملاستِهِ له من حُدُوثِهِ فِيهِ. النَّفَاثَاتُ: النساءُ، أو النفوسُ، أو الجماعاتُ السواحرُ اللاتي يَعْقِدْنَ عُقَدًا فِي خِيوطِ وَيَنْفِثْنَ عَلَيْهَا وَيَرْقِينَ، وَالنَّفْثُ: النَّفْخُ مَعَ رِيْقٍ، وَلَا تَأْثِيرَ لَذَلِكَ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ ثَمَّ إِطْعَامُ شَيْءٍ ضَارٍ، أَوْ سَقْيُهُ، أَوْ إِشْمَامُهُ، أَوْ مَبَاشِرَةُ الْمَسْحُورِ بِهِ عَلَى بَعْضِ الْوَجْهِ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ فِعْلًا عَلَى سَبِيلِ الْاِمْتِحَانِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ الثَّبْتُ عَلَى الْحَقِّ مِنَ الْحَشْوِيَّةِ وَالْجَهْلَةِ مِنَ الْعَوَامِ،

قوله: (يَتَمَيَّزُ بِهِ الثَّبْتُ عَلَى الْحَقِّ مِنَ الْحَشْوِيَّةِ)، الْاِنتِصَافُ: «الْقَدْرِيَّةُ يَنْكُرُونَ السَّحْرَ، وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَارِدَانِ بِوَقْعِهِ، وَالْأَمْرُ بِالتَّعَوُّذِ مِنْهُ دَلِيلٌ عَلَيْهِ. وَقَدْ سُحِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ (١) وَجُفِّ طَلْعَةَ ذَكَرٍ» (٢).

وقلتُ: الْحَدِيثُ رَوَيْنَاهُ عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَابْنِ مَاجَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «سُحِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا لِيُحَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَكُنْ فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدِي، دَعَا اللَّهَ وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لِبَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ الْيَهُودِيِّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ. قَالَ: فِي مَاذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةَ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بَثْرِ ذِي أَرْوَانَ، الْحَدِيثُ (٣).

الرَّاعِبُ: «تَأْثِيرُ السَّحْرِ فِي النَّبِيِّ ﷺ، لَمْ يَكُنْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي بَدَنِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِنْسَانٌ أَوْ بَشَرٌ، كَمَا كَانَ يَأْكُلُ وَيَتَغَوَّطُ وَيَغْضَبُ وَيَسْتَهْيِي وَيَمْرُضُ، فَيَصْحُ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَبِيٌّ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ قَادِحًا فِي النَّبِوَةِ. أَوْ وَجَدَ لِلْسَّحْرِ تَأْثِيرًا فِي أَمْرِ يَرْجِعُ إِلَى النَّبِوَةِ،

(١) فِي (ط): «وَمُشَاقَّة»، وَهِيَ إِحْدَى الرِّوَايَاتِ، وَسَيَذْكَرُهَا الطَّبِيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

(٢) «الْاِنتِصَافُ» بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ» (٤: ٨٢١)، وَانظُرْ: «الْاِنتِصَافُ» (ق ١٥٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٦٦) وَمُسْلِمٌ (٤٣-٢١٨٩) وَابْنُ مَاجَةَ (٣٥٤٥).

فَيَنْسِبُهُ الْحَشَوِيَّةُ وَالرَّعَاعُ إِلَيْهِنَّ وَإِلَى نَفْسِهِنَّ، وَالثَّابِتُونَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْبُرُونَ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى الْإِسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِنَّ؟

قُلْتُ: فِيهَا ثَلَاثَةٌ أَوْجِهٌ، أَحَدُهَا: أَنْ يُسْتَعَاذَ مِنْ عَمَلِهِنَّ الَّذِي هُوَ صَنْعَةُ السَّحْرِ وَمِنْ إِثْمِهِنَّ فِي ذَلِكَ. وَالثَّانِي: أَنْ يُسْتَعَاذَ مِنْ فَتْنِهِنَّ النَّاسُ بِسِحْرِهِنَّ وَمَا يَخْدَعَنَّهُمْ بِهِ مِنْ بَاطِلِهِنَّ. وَالثَّلَاثُ: أَنْ يُسْتَعَاذَ مِمَّا يَصِيبُ اللَّهَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ عِنْدَ نَفْسِهِنَّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِهِنَّ النِّسَاءُ الْكَيْدَاتُ،

كما أن جُرْحَهُ وَكَسَرَ ثَنَائِيهِ يَوْمَ أَحُدٍ، لَمْ يَقْدَحْ فِيهَا ضَمَنَ اللَّهُ لَهُ مِنْ عَصْمَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وكما لا اعتدادَ بِهَا يَقَعُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ غَلْبَةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى بَعْضِ النَّوَاحِي، فِيهَا ذُكِرَ مِنْ كِمَالِ الْإِسْلَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] (١)، قَالَ الْقَاضِي: «وَلَا يَوْجِبُ ذَلِكَ صِدْقَ الْكُفْرَةِ فِي أَنَّهُ مَسْحُورٌ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ أَنَّهُ مَجْنُونٌ بِوَاسِطَةِ السَّحْرِ» (٢).

النهاية: «أَنَّهُ طَبَّ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَهُوَ الشَّعْرُ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ عِنْدَ التَّسْرِيحِ بِالْمُشْطِ». وَيُرْوَى: مُشَاقَّةٌ، وَهِيَ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ الْإِبْرَيْسِمِ وَالْكَتَّانِ عِنْدَ تَخْلِيصِهِ وَتَسْرِيحِهِ. وَالْمَشْقُ: جَذْبُ الشَّيْءِ لِيَطُولَ. «الْجُفَّ: وَعَاءُ الطَّلَعِ، وَهُوَ الْغِشَاءُ الَّذِي يَكُونُ فَوْقَهُ». قَوْلُهُ: (الرَّعَاعُ)، الْأَحْدَاثُ وَالطَّغَامُ (٣).

قَوْلُهُ: (النِّسَاءُ الْكَيْدَاتُ)، شَبَّهَ كَيْدَهُنَّ بِالسَّحْرِ، اخْتَصَرَهُ صَاحِبُ «الْإِنْصَافِ» ثُمَّ قَالَ: «لَوْ فَسَّرَ غَيْرُ الزَّخْمَشَرِيِّ هَذَا، لَعُدَّ مِنْ بَدَعِ التَّفَاسِيرِ» (٤).

(١) لم أهتد إلى موضعه، ولعله في «تفسيره».

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٥١).

(٣) انظر: «الصحيح» (٣: ١٢٢٠ - رجع) للجوهري.

(٤) «الإنصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٨٢١)، وانظر: «الإنصاف» (ق ١٥٢).

من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] تشبيهاً لكيدهنَّ بالسحرِ والنَّفثِ في العُقَدِ. أو اللاتي يَفْتِنَنَّ الرَّجَالَ بتعريضهنَّ لهم وعرضهنَّ محاسنهنَّ، كأنهنَّ يَسْحَرَنَّهُمْ بذلك، ﴿إِذَا حَسَدًا﴾ إذا ظَهَرَ حَسَدُهُ، وعُجِلَ بمقتضاه من بَغْيِ الغوائلِ للمَحْسُودِ؛ لأنه إذا لم يُظْهِرْ أثرَ ما أضمَره فلا صَرَرَ يَعُودُ منه على مَنْ حَسَدَهُ، بل هو الضَّارُّ لِنَفْسِهِ لا غَتْمَاهِ بسرورٍ غيرِه. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أرَ ظالماً أشبهَ بالمظلومِ من حاسِدٍ. ويجوزُ أن يرادَ بشرَّ الحاسِدِ: إثمُه وساجَّةُ حالِه في وقتِ حَسَدِه، وإظهاره أثره.

فإن قلت: قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تعميمٌ في كلِّ ما يُستَعَاذُ منه، فما معنى الاستعاذةِ بعَدِه من الغاسِقِ والنفاثِ والحاسِدِ؟

قلت: قد خَصَّ شَرُّهُ هؤلاءِ من كلِّ شَرٍّ لِحَفَاءِ أمرِه، وأنه يَلْحُقُ الإنسانَ من حيثُ لا يعلم، كأنها يُغْتَالُ به. وقالوا: المُدْجِي الذي يَكِيدُكَ من حيثُ لا تَشْعُرُ.

فإن قلت: فلمَ عُرِّفَ بعضُ المستعاذِ منه ونُكِرَ بعضُه؟ قلت: عُرِّفَتِ النفاثاتُ؛ لأنَّ كلَّ نَفَاثَةٍ شَرِّيرَةٌ، ونُكِرَ غَاسِقٌ؛ لأنَّ كلَّ غَاسِقٍ لا يَكُونُ فيه الشَّرُّ، إنما يَكُونُ في بعضِ دونَ بعضٍ، وكذلك كلُّ حاسِدٍ لا يَضُرُّ. وربَّ حَسَدٍ مَحْمُودٌ، وهو الحَسَدُ في الخيراتِ. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا حَسَدَ إِلَّا في اثنتين»،

قوله: (كأنها يُغْتَالُ به)، الأساس: «فلانٌ يُغْتَالُ مَنْ يَمُرُّ به، وقتلَه غيلةً، وأخافُ غائلته، أي: عاقبةَ شَرِّه».

قوله: (لا حَسَدَ إِلَّا في اثنتين)، رويَنا عن البخاري، عن أبي هريرة، أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا حَسَدَ إِلَّا على اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ، فهو يتلوه آناً الليل والنهار، فسمعه جاره فقال: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان، فعملتُ مثل ما يعمل. ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو ينفقه في حقِّه، فقال: يا ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان، فعملتُ مثل ما يعمل»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٦).

وقال أبو تمام:

وَمَا حَاسِدٌ فِي الْمَكْرُمَاتِ بِحَاسِدٍ

وقال:

إِنَّ الْعُلَا حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ «المعوذتين»، فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها».

النهاية: «الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة، فيتمنى أن تزول عنه، فتكون له دونه. والغبط: أن يتمنى أن يكون له مثلها، ولا يتمنى زوالها عنه. ومعنى الحديث: ليس حسدٌ لا يضرُّ إلا في اثنتين».

قولُه: (وما حاسدٌ)، أولُه:

وإني لمحسودٌ وأعدُّ حاسدي

وقيل: أوله:

هُمُ حَسَدُوهُ - لا ملومين - مَجْدَهُ (١) وما حاسدٌ في المكرمات بحاسدٍ (٢)

وقال:

وَاعْذِرْ حَسَوْدَكَ فِيهَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ إِنَّ الْعُلَا حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ (٣)

مثلٌ هاهنا مثلٌ ما في قولك: يجود. أي: إن العُلا حَسَنٌ فيها الحسد.

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

(١) في (ف): «بحسده!».

(٢) «ديوان أبي تمام» بشرح التبريزي (٢: ٧٣).

(٣) المصدر السابق (٢: ٢١).

سورة الناس

مختلف فيها، وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْغَيْثِ وَالنَّكَّاسِ﴾ ١-٦]

قري: (قُلْ أَعُوذُ) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونحوه: فَخُذْ أَرْبَعَةً. فَإِنْ قَلتَ: لم قيل ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ مضافاً إليهم خاصة؟

قلتُ: لأن الاستعاذة وقعت من شرِّ الموسوسِ في صدورِ الناسِ، فكأنه قيل: أَعُوذُ من شرِّ الموسوسِ إلى الناسِ برَبِّهم الذي يملكُ عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيثُ بعضُ الموالي إذا اعتراهم خطبُ بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم.

سورة الناس

مكية، وقيل: مدنية، وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (لَمْ قِيلَ: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾)، أي أنه ربُّ جميع العالمين، فلمْ خُصَّ بالناسِ هاهنا؟ وأجاب: إن المستغيثُ هو الناسُ وحده إلى ربِّه ومالكه ومعبوده، مما يُصيبُه من البلاء.

قولُه: (كما يستغيثُ بعضُ الموالي إذا اعتراهم خطبُ بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم)، راعى فيه الترقّي في الإغاثة؛ فإن الدفَع من جهة التولية أقوى من جهة الخدمة، ثم من

فإن قلت: ﴿مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ ما هما من ربِّ الناس؟

قلت: هما عطفُ بيان، كقولك: سيرةُ أبي حفصِ عمرَ الفاروقِ. يُبَيِّنُ بِمَلِكِ النَّاسِ، ثم زيدَ بياناً بإلهِ الناس، لأنه قد يقالُ لغيره: ربُّ الناس، كقوله: ﴿أَتَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقد يقال: مَلِكُ النَّاسِ. وأما ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فخاصُّ لا شركةَ فيه، فجُعِلَ غايةً للبيان.

فإن قلت: فهلاً اكتفَى بإظهارِ المضافِ إليه الذي هو الناسُ مرّةً واحدةً؟

قلت: لأنَّ عطفَ البيانِ للبيان، فكان مَظَنَّةً للإظهارِ دونَ الإضمارِ. ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ اسمٌ بمعنى الوَسْوَسة، كالزَّلْزَالِ بمعنى الزَّلْزَلَة، وأما المصدرُ فوَسْوَاسٌ.....

جهةُ السيادةِ أضعفُ من جهةِ الخدمة. كذلك معنى القَهَّارِيةِ في الألوهيةِ أعلى منه من معنى المالكِيةِ، ثم من جهةِ التَّربِيةِ^(١).

وفي بعض التفاسير: إن دَفَعَ شَرَّ الشيطانِ ووسوسته بأحدِ أمورٍ ثلاثة، إما بأن لا يُمكنه من الوسوسةِ من حيثُ كونه ربّاً، أو بأن يُمكنه، لكن يمنعه قهراً من حيثُ المالكِيةِ، أو بأن ينهاه عن الوسوسةِ زجراً، لكن يريدُها اختياراً من حيثُ كونه إلهاً، أو يقال: إن العبدَ استعادَ بالله من الشيطانِ. وعَلَّلَ الاستعادةَ بأوصافٍ مناسبةٍ على الترقى: وَضْفَهُ عَزَّ وَجَلَّ أو لآبانه الرَّبِّ، لأنَّ أوَّلَ ما يَعْرِفُ العبدُ من ربِّه، كونه منعباً عليه ظاهره وباطنه، ثم يتقلَّبُ منه إلى المعرفةِ بأنه متصرفٌ فيه ومالكه، ثم يتقلَّبُ إلى المعرفةِ بأنه هو المعبودُ على الإطلاق، وأن لا مصيرَ إلا إليه.

قوله: (وقد يقال: مَلِكُ النَّاسِ)، الراغب: «المَلِكُ: هو المتصرفُ بالأمرِ والنهيِّ في الجمهورِ، وذلك مختصٌّ بسياسةِ الناطقين؛ ولذلك يقال: مَلِكُ النَّاسِ، ولا يقال: مَلِكُ الأشياءِ»^(٢).

قوله: (وأما المصدرُ فوَسْوَاسِ)، عن بعضهم: أرادَ بالوَسْوَاسِ الاسمَ الذي هو بمعنى الوسوسةِ وهو المصدرُ. وقال المغاربةُ: الفرقُ بين المصدرِ واسمِ المصدرِ هو أن المعنى الذي يُعَبَّرُ

(١) لعلَّ هذا الصواب، فإن رسم الكلمة يحتمل «التربية» أيضاً.

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٧٧٤.

بالكسر كززال، المراد به الشيطان، سُمي بالمصدرِ كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنَعته وشُغله الذي هو عاكفٌ عليه. أو أريدَ ذو الوسواس. والوسوسة: الصوتُ الحقيقي، ومنه: وسواسُ الحليّ. و«الخناس» الذي عادته أن يخنَس، منسوبٌ إلى الخنوس وهو التأخر كالعَوَاجِ والبَنَاتِ، لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكرَ الإنسانُ ربّه خنَسَ الشيطانُ وولّى، فإذا غفلَ وسوسَ إليه. «الَّذِي يُوسِسُ» يجوزُ في محلّه الحركاتُ الثلاث، فالجرُّ على الصّفة، والرفعُ والنصبُ على الشتم، ويحسنُ أن يقفَ القارئُ على «الخناس»، ويبتدئُ «الَّذِي يُوسِسُ» على أحدِ هذينِ الوجهين.

عنه بالفعل الحقيقي، الذي هو مبتدأ الفعل الصناعي، إذا اعتبرَ فيه تلبُّسُ الفاعلِ به وصدوره منه وتجدُّده؛ فاللفظُ الموضوعُ بإزائه مقيداً بهذا القيد، سُمي مصدراً وإن لم يعتبرَ فيه ذلك، فاللفظُ الموضوعُ^(١) بإزاء ذلك مطلقاً عن هذا القيد المذكور، هو اسمُ المصدر.

قوله: (صنَعته)، ويروى: صنِيعته. النهاية: «صَيَعَةُ الرجل: ما يكونُ منه معاشه كالصنِعة والتجارة والصناعة وغير ذلك».

قوله: (منسوبٌ إلى الخنوس)، قال: منسوبٌ من حيثُ إنه جعلَ الخنوسَ عادةً له.

قوله: (إذا ذكرَ الإنسانُ ربّه خنَس)، رويَنا في «صحيح البخاري» تعليقاً عن ابنِ عباسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الشيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابنِ آدم؛ فإذا ذكرَ اللهَ خنَس، وإذا غفلَ وسوس»^(٢).

قوله: (ويحسنُ أن يقفَ القارئُ) إلى قوله: (على أحدِ هذينِ الوجهين)، أي: الصّفةِ والشتم. وفي «الكواشي»: «يكفي الوقفُ على «الخناس» إن رفعتُ أو نصبتُ ذمّاً، فلا يجوزُ إن جرّزته: صفةٌ للخناس. وقلتُ: وفي عدمِ الجوازِ نظراً للفاصلة، قال صاحبُ «المرشد»: «فإذا قلتُ: «الرحمن الرحيم»، كان الوقفُ كافياً لأنه رأسُ آية، ولا يكونُ تاماً

(١) من قوله: «بإزائه مقيداً» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (١١٤ - سورة الناس): كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ص ٥٨٣.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيانٌ للذي يُوسوس، على أن الشيطانَ ضربان: جنِّي وإنسي، كما قال ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطانِ الإنس؟ ويجوزُ أن يكونَ ﴿مِنَ﴾ متعلقاً بـيُوسوس، ومعناه: ابتداءً الغاية، أي: يُوسوسُ في صدورهم من جهة الجنِّ ومن جهة الناس، وقيل: من الجنَّة والناس بيان للناس، وأن اسمَ الناسِ يُنطلقُ على الجنَّة، واستدلوا (بنفر) و(رجال) في سورة الجن. وما أحقُّه؛ لأن الجنَّ سُموا (جنًّا) لاجتماعهم، والناسُ (ناساً) لظهورهم، من الإيناسِ وهو الإبصار، كما سُموا بشراً؛ ولو كان يقعُ الناسُ على القبيكين، وصحَّ ذلك وثبت: لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن ويُعديه من التصنع.....

لخلوِّ المجرور، أعني: «مالك يوم الدين»، من العامل، والفصل بين النعت والمنعوت، وكذا الوقف على «المستقيم» جائزٌ وليس بحسن، وإنما جُوزَ لأنه آخر الآية^(١).

قوله: (ومن جهة الناس)، مثل أن يوسوس في قلب المسلم من جهة المنجمين والكهان أنهم يعلمون الغيب، ومن جهة الجنِّ أنهم يضرّون وينفعون. في «المطلع»: «وعن بعضهم: على البيان يكونُ «من الجنَّة والناس»، حالاً من ضمير «الذي يوسوس».

قوله: (وما أحقُّه)، يعني: ما أثبتته من قولهم: حَقَّقْتُ الشيءَ أَحَقُّه، أي: أثبتته. قال الإمام: «قيل: إن قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ قسمانٍ مندرجانٍ تحت قوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، كأنَّ القدرَ المشترك بين الجنِّ والإنسِ سُمِّي إنساناً، والإنسانَ أيضاً سُمِّي إنساناً، فيكونُ لفظُ الإنسانِ واقعاً على الجنسِ والنوعِ بالاشتراك. والدليلُ عليه ما روي أنه جاءَ نفرٌ من الجن، فقيل لهم: مَنْ أنتم؟ فقالوا: ناسٌ من الجن. وأيضاً قد سَمَّاهم اللهُ رجلاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فجازَ أن يُسميهم هنا ناساً. وهذا القولُ المتعسفُ لا يريدُ أنه ضعيفٌ، لأنَّ جعلَ الإنسانِ اسماً للجنسِ الذي يندرجُ فيه الجنُّ والإنس، بعيدٌ من اللغة^(٢).

(١) «المرشد في الوقف والابتداء» (١: ١١٨، ١١٩) للغماني.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢: ١٨٢).

وأجودُ منه أن يراذَ بالناسِ: الناسي، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] كما قرئ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ثم يُبَيَّنُ بِالْحِجَّةِ وَالنَّاسِ؛ لِأَنَّ الثَّقَلَيْنِ هُمَا النَّوْعَانِ الْمَوْصُوفَانِ بِنَسْيَانِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وعن رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما، وإنك لن تقرأ سورتين أحبَّ ولا أرضى عند الله منهما» يعني: المعوذتين. ويقال للمعوذتين: المُقَشَّقِشَتَانِ.

قوله: (وأجودُ منه)، أي: من هذا القول المتعسف: لا يريدُ أنه وجهٌ فيه جُودَةٌ، وهو أن يُحْمَلَ «الناسِ» في قوله: «صدورِ الناسِ» على الناسي، فحينئذٍ يمكنُ تقسيمه إلى الجنِّ والإنسِ، لأنها صفتانِ موصوفانِ بنسيانِ حقِّ الله.

قوله: (المُقَشَّقِشَتَانِ)، النهاية: «في الحديث: يقال لسورتيّ «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»، و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»: المُقَشَّقِشَتَانِ، أي: المبرِّئَتانِ من النفاقِ والشركِ، كما يَبْرَأُ الْمَرِيضُ مِنْ عِلَّتِهِ؛ يُقَالُ: قَدْ تَقَشَّقَشَ الْمَرِيضُ: إِذَا أَفَاقَ وَبَرَأَ».

تَمَّتِ السُّورَةُ

* * *

[تذليلٌ وتتميمٌ]^(١)

يقولُ العبدُ الفقيرُ إلى الله الغني، الإمامُ العالمُ العاملُ، والشيخُ الفاضلُ الكاملُ، الحَبْرُ المدققُ، والنَّحْرِيرُ المدققُ، عَلَامةُ عَصِرِهِ، وفريدُ دَهْرِهِ، مولانا شَرَفُ المِلَّةِ والدِّينِ، الحسينُ بنُ عبدِاللهِ بنِ محمدِ الطَّيْبِيِّ، مَنْ اللهُ عليه بأَمَنِ طَريقِهِ، وسَقاهُ مِنَ الفَرَحِ كأسِ رَحيقِهِ، وتَعَمَّدَهُ بِغُفرانِهِ، وألبَسَهُ جَلابِيبَ رَحْمَتِهِ وِرِضوانِهِ، وحَشَرَهُ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمُ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ:

وحين انتهى الكلامُ إلى هذا المقام، اقترحوا مشيرين إليَّ أن أُلحِقَ خاتمةً؛ تذيلاً للكتاب، وتتميماً لفصلِ الخطابِ، مُضَمَّنًا خصوصاً قولَهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] الآية^(٢)، وكانتِ القَريحَةُ إِذْ ذاكِ خامدةً، والطَّبيعَةُ هامدةً، فتَضَرَّعْتُ مُبتهلاً إلى الله تعالى، مُستنزلاً الواردَ الإلهيَّ والفتحَ العَبيِّيَّ، حتى بَرَقَتْ بارِقَةٌ من بوارِقِ سَحائبِ سَيِّدِ المرسلينَ، ولمَعَتْ لَمَعَةٌ من لَمَعاتِ أنوارِ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، أعني: معنَى ما أورَدَهُ الأئمَّةُ في كتبِهِم عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقرأَ فِيها بِفاتِحَةِ الكِتابِ، فَهِيَ خِداجٌ»^(٣) - ثلاثاً - غيرُ تمامٍ.

(١) هذا العنوان زيادة لهذه الخاتمة اللطيفة.

(٢) تمام الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ، سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

(٣) أي: ناقصة، من قولهم: خَدَجَتِ النَّاقَةُ، إِذا أَلْقَتْ وَلَدَها قَبْلَ أَوانِ التَّجاجِ، وَإِنْ كانَ تامَّ الحَلْقِ. وأَخَدَجَتُهُ إِذا وَلَدَتَهُ ناقِصاً، وَإِنْ كانَ لِتَهاِمِ الوِلاَدَةِ. انظر: «شرح صحيح مسلم» (٤: ١٠١) للنووي.

فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ: حَمْدِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عِلِّيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قَالَ: حَمْدِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿إِيَّاكَ نَبِّدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١). أخرجه مالك ومسلم، والترمذي وأبو داود، والنسائي وابن ماجه، رحمهم الله تعالى.

وكنا قد أسلفنا في شرح الخطبة أن المعوذتين على قضية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، مشيرتان إلى الافتتاح، وعلى موجب قوله ﷺ: «الحال المرئيل»، جواباً عن سؤال من قال: أي الأعمال أحب إلى الله^(٢)؟ مُناديتان بالارتحال، فبالحرية أن نرجع إلى ما كنا قد تكلمنا فيه مُفتحين به، أعني تفسير «الفاحة»، وأفضل التأويل: تأويل من نزل عليه التنزيل، وهذا الحديث مما احتوى على حقائق هذه السورة، وأسرارها^(٣)، ودقائقها، كما سنكشف عنها؛ هيئات، إن البحر لا يُستنزف! ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُوهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

(١) أخرجه مالك (٢٢٤)، ومسلم (٣٨-٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، وأبو داود (٨٢١)، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجه (٨٣٨).

(٢) في حديث ابن عباس، قال: قال رجل يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الحال المرئيل». قال: وما الحال المرئيل؟ قال: الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل». أخرجه الترمذي (٢٩٤٨).

(٣) من قوله «الفاحة»، وأفضل التأويل «إلى هنا، سقط من (ح) (ف)».

فَصْلٌ (١)

اعلمَ أن شرحَ هذا الحديثِ مُعْضَلٌ، وتطبيقاته على معنى السُّورَةِ أعْضَلٌ؛ ولذلك تكَلَّمَ فيه العلماءُ، واختلفوا اختلافاً متبايناً، فلا بُدَّ من إيرادِهِ، وبالله التوفيق.

قالَ الشَّيْخُ محيي الدِّينِ في «شرح صحيح مسلم»^(٢): «التمجيد: الثناءُ بصفاتِ الجلال، ووجهُ مطابقته لقوله تعالى: ﴿تَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾: هو أنه مُضْمَنٌ بأنَّ اللهَ هو المتفردُ بالملكِ في ذلك اليوم، ولا دَعْوَى لأحدٍ فيه بالملكِ كما في الدنيا، وفي هذا الاعترافِ من التعظيمِ والتفويضِ للأمرِ ما لا يخفى. وقالَ العلماءُ: المرادُ بالصلاةِ في قوله: «قَسَمْتُ الصلاةَ»: الفاتحة؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها لا تُصَحُّ إلا بها، كقوله: «الحُجُّ عَرَفَةَ»^(٣)، وفيه دليلٌ على وجوبها بعينها في الصلاة»^(٤).

وفحوى ما قاله التُّورِبِشْتِي في هذا المقام: هو أنه قد عُرِفَ المرادُ من لفظِ الصلاة، بما أُرِدَفه من التفسيرِ والتفصيلِ: أنها الفاتحة، وقالَ أيضاً: إنَّ التَّنْصِيفَ مُنْصَرَفٌ إلى آياتِ السُّورَةِ، وذلك أنها سبعُ آياتٍ: ثلاثٌ منها ثناء، وثلاثٌ مسألة، والآيةُ المتوسطةُ بين آياتِ الثَّناءِ وآياتِ المسألة، نصفُها ثناءٌ^(٥) ونصفُها دُعاء؛ فإذا نُسِئتِ بالبسملةِ آيةٌ من الفاتحة.

(١) هذا الفصل بتمامه أدرجه الإمام الطيبي في شرحه «الكاشف عن حقائق السنن»، على «مشكاة المصابيح» للخطيب التبريزي. انظر: «الكاشف» (٣: ٩٩٦-٩٩٩).

(٢) في (ح)، (ف): قال الشَّيْخُ محيي السُّنَّةِ في شرح صحيح مسلم، وليس بصواب.

(٣) أخرجه الترمذي (٨٨٩) والنسائي (٣٠١٦) والإمام أحمد (١٨٧٧٤) وثُمَّةً تمام تخريجِهِ، عن عبد الرحمن بن يَعمَرَ الدَّيْلِيِّ.

(٤) انظر: «شرح صحيح مسلم» (٤: ١٠٣، ١٠٤) بتصرف، للإمام النووي.

(٥) من قوله: «وثلاث مسألة» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله عليه: «هذا قول واضح، وأجاب الأصحاب بوجوده: أحدها: أن التنصيف عائدٌ إلى جملة الصلاة لا إلى الفاتحة، هذا حقيقة اللفظ. والثاني: أنه عائدٌ إلى ما يختص بالفاتحة من الآيات الكاملة. والثالث: معناه: فإذا انتهى العبدُ إلى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»^(١).

وقال القاضي: «الحديثُ دَلٌّ على فضلِ الفاتحةِ دونِ وجوبها، إلا أن يقال: [قَسَمْتُ]»^(٢) الصلاة من حيث إنها عامةٌ شاملةٌ لأفرادِ الصلاةِ كُلِّها، في معنى قولنا: كُلُّ صلاةٍ مقسومةٌ على هذا الوجه، ويلزمه أن كُلَّ ما لا يكونُ مقسوماً على هذا الوجه لا يكونُ صلاةً، والخالية عن الفاتحة لا تكونُ مقسومةً على هذا الوجه، فلا تكونُ صلاةً»^(٣).

هذا وإنَّ الفاءَ في قولِ أبي هريرة رضي الله عنه: «إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول»، وتقريرِ التثليث^(٤) في الألفاظِ النبوية تفسيراً للتنصيف، يكشفانِ الغطاء؛ فلا مطمع في على مَعزَى الكلامِ إلا بيانِ موقعهما؛ أما الأول: فإنَّ الفاءَ رَتَّبَتْ ما بعدها على ما قبلها، ترتيبَ الدليلِ على المدعى، لأنه رضي الله عنه استشهدَ بالحديثِ الثاني لإثباتِ الكمالِ لمطلقِ الصلاة، ونفيِ النقصانِ عنه، لأنَّ الحديثَ القدسيَّ نَصَّ إلهي في الدرجة الثانية، وإن كانَ من غيرِ واسطةٍ غالباً، لأنَّ المنظورَ فيه: المعنى، وفي التنزيلِ: اللفظُ والمعنى مَنظوران، كأنه قال: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ الكاملةَ نصفين، فلا يدلُّ على نفيِ حقيقةِ الصلاةِ كما قال، وفيه أيضاً إيجابُ إجراءِ الصلاةِ على حقيقتها، لأنَّ الكلامَ السابقَ سبقَ لها أصالةً والثاني تابعٌ له، فيكونُ الفاءُ في قوله: «إذا قال العبدُ» للتعقيبِ والشروعِ في بيانِ كيفيةِ التقسيمِ، لا المقسومِ به كما ظنَّ هذا^(٥) الذي عناه شارحُ

(١) «شرح صحيح مسلم» (٤: ١٠٣) بتصرف، للنووي.

(٢) سقط لفظ «قَسَمْتُ» من النسخ الثلاث.

(٣) «مُحْفَةُ الأبرار شرح مصابيح السنة» (١: ٦٧٩-٦٨٠) بتصرف.

(٤) في (ف): «التبكيث»، وليس بصواب.

(٥) أي: كما ظن الشيخ التوربشتي.

الصحيح بقوله: «فإذا انتهى العبد إلى ﴿الْعَمَدِ اللَّهِ﴾، وعلى هذا قياس سائر الأذكار^(١) فيها. وتخصيص الفاتحة: لتقدمها وشرفها، ولينبئ على اشتغالها على معاني الكتب السماوية، على أن مرجع الكل إلى الدعوة إلى تينك الخلتين، أعني: العبادة والشأن، وإظهار الافتقار ونفي الحول والقوة إلا به. وبهذا ظهر سرُّ قوله صلوات الله عليه: «الدعاء مخُّ العبادة»^(٢)، ولا بُدَّ أن تتشَبَّه هذا على الوجوب. وتحريره: أن قوله: «فهي خِداج» يحتمل معنيين: نفي الكمال كما سبق، ونفي الحقيقة؛ من نفي الجزء الذي ينتهي الكل بانتفائه، رجحنا الثاني بهذا الاعتبار؛ وذلك أن الصلاة عبارة عن حركات مخصوصة وأذكار مخصوصة^(٣)، فكما تنتهي بإخلال معظم حركاتها، نحو: ركوع واحد، وسجدة واحدة، كذلك ينبغي أن تنتهي بإخلال معظم أذكارها. وقد تقرر في علم البيان، أن إطلاق الجزء على الكل مشروطٌ بكون ذلك الجزء أعظمه، كما مثل شارحُ الصحيح بقوله: «الحج عرفة»، وعليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، [يعني: صلاته]^(٤)، والذي يشدُّ من عضد هذا التقرير توكيدُ الخِداج بالتذكير^(٥)، وتتميمه بالتفسير، ولأن هذا المنهج أحوط، وإلى التحقيق أقرب، والله أعلم بحقيقة الحال^(٦).

(١) في (ح) و(ف): الأركان.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، عن أنس بن مالك.

(٣) قوله: وأذكار مخصوصة، سقط من (ط)، والزيادة من «الكاشف» (٣: ٩٩٨) للطبيبي.

(٤) قوله: «يعني صلاته»، سقط من (ط)، والزيادة من «الكاشف» (٣: ٩٩٨) للطبيبي.

(٥) في «الكاشف»: «بالتكرير»، وذلك واضح من تكرير قوله: «فهي خِداج» ثلاث مرات. أما قوله «بالتذكير»، فلعله إشارة إلى حديث الفضل بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: الصلاة مثنى مثنى، تشهد في كل ركعتين، وتضرع، وتخشع، وتمسكن، وتقع بيدك، يقول: ترفعها إلى ربك، تستقبل بوجهك، وتقول: يارب يارب، فمن لم يفعل ذلك فهو خِداج". «المعجم الكبير» (١٥١٥٤) للطبراني.

(٦) من قوله: «وتحريره أن قوله: فهى خِداج» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف). وهذه الفقرة جاءت في النسخة الخطية (ط)، آخر الدعاء متصل بالخاتمة، فقد وقع بعد قوله: «واجعلهم من =

وأما الثاني: فعليه ما ذكره الخطّابي: هذا التقسيمُ راجعٌ إلى المعنى لا إلى الألفاظِ المتلوّة، لأننا نجدُ الشطرَ الآخرَ يزيدُ على الشطرِ الأوّلِ من جهةِ الألفاظِ والحروفِ زيادةً بيّنةً، فينصرفُ النصفُ إلى المعنى، لأنّ السورةَ من جهةِ المعنى نصفُها ثناءً ونصفُها دعاءً، وقسمُ الثناءِ ينتهي إلى قوله: ﴿إِنَّا لَعَبْدُكَ﴾، وباقي الآيةِ من قسمِ المسألةِ، فلهذا قالَ في هذه الآيةِ: «بيني وبين عبدي». تمّ كلامه^(١).

وتحريراً ذلك: أنه تعالى قسمَ السورةَ في هذا التقريرِ أثلاثاً، وقالَ في الثلثِ الأوّلِ: «مَجْدِي» و«أُنْتَى عَلِيٍّ» و«مَجْدِي»، فأضافها إلى نفسه. وقالَ في الثلثِ الآخرِ: «هذا لعبدي، ولعبدي ما سألت»، فخصّه بالعبد، وفي الوسطِ جمعَ بينهما وقالَ: «هذا بيني وبين عبدي». ولأنّ يربطَ النصفَ الأوّلَ بالثاني، قدّمَ فيه العبادةَ على الاستعانة، لأنّ الوسيلةَ مُقدّمةً على طلبِ الحاجةِ.

وأيضاً إن العبادةَ متفرّعةٌ على الثلثِ الأوّلِ، لأنّ استحقاقَ اختصاصِ العبادةِ به إنما كانَ لأجلِ تلكِ الأوصافِ الكاملة، وإنّ الاستعانةَ فُرِّعَ عليها الثلثُ الآتي وفُسِّرَتْ به؛ فإنّ التقديرَ: كيف أعينكم؟ فقالوا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولا اعتبارِ المعنى ولتضمّنِ الثلثِ الأوّلِ معنىِ البسمةِ، استُعنيَ عنها به، وكذلك ثلثَ الثلثِ الأوّلِ، وجعلَ الطرفين - أعني: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ - مؤسّسينَ على الوسطِ - أعني: «الرحمن الرحيم» - حيث اختصّه بالثناءِ في قوله: «أُنْتَى عَلِيٍّ عبدي»، مع أنّ الكلَّ ثناء.

= عبادك الصالحين، برحمتك يا أرحم الراحمين « فراغ، جاء بعده: «ولا بعد أن تشبّث بهذا على الوجوب، وتحريه الخ»، فقدّرت أن موضعها هنا بعد قوله في المرّة الأولى: «ولا بعد أن تشبّث بهذا على الوجوب»، ثم لا اتصال هذه الفقرة بالفكرة التي يتحدّث عنها الطيبي. ولذلك حذف العبارة المكرّرة. وكذا هي هنا في «الكاشف» للإمام الطيبي.

(١) انظر: «معالم السنن» (١: ٢٠٤) بتصرف.

وإنما قلنا مؤسسين على الوسط، لأن الرحمة الإلهية والعواطف الربانية، هي التي اقتضت إخراج الخلق من العدم إلى الوجود، للتزود للمسير إلى السعادات الأبدية، والمصير إلى الكمالات السرمديّة، وإلى هذا يُلمح ما ورد: «رحمن الدنيا ورحيم الآخرة»^(١).

فإن قلت: لِمَ قيّد الثلث الثاني والثالث بقوله: «ولعبدي ما سألت»، وأوقعه حالاً من «لعبدي»، وأطلق الأول؟

قلت: لتضمّنها الطلب والسؤال؛ أمّا في الأول: فمستفاد من السين، وفي الثاني: من صيغة الأمر. وإنّما وُضع المظهر موضع المضمّر الراجع إلى ذي الجلال، وخصّ بالعبد وكُرر، ليُشعر بأن الصلاة معراج المؤمن، ولهذا السرّ وصف الحبيب بالعبد ليلة المعراج، كما أوّماً إليه بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وظهر أيضاً أنّ المصلّي يناجي ربه، وحقّ لذلك أن تسمّى الفاتحة بالصلاة، وأن الصلاة لا تصحّ إلّا بها. والله درّ الإمام حيث أوجبها فيها^(٢)!

اللهم يا مولّي النعم، ويا راحم الأمم، ويا محيي الرّمم، أنت المعبود وأنت المستعان بكرمك، ثبتنا على صراطك، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيّن والصّديقين والشهداء والصالحين، ووقفنا على ما تُرافقهم به في دار كرامتك في جنات النعيم، وجنّبنا بشمول رافقتك عمّا نوافق به الزائغين، ممّا يكلمهم الدّين ويُثلّم اليقين، آمين، ربّ العالمين.

ويا سامع الأصوات، ويا مجيب الدّعوات، ويا مقيل العثرات، تقبل توبتي، وامح حوبتي، وأقلّ عثرتي فيما صدر مني ممّا لا ترضاه، خصوصاً فيما تصدّيت لإيراده في «فتوح الغيب»، وفيما توخّيت إبرازة «في الكشف عن قناع الريب».

وصلّ على حبيب الله، على من بدأ منه البدايات، وانتهى إليه النهايات، رَحْمَةً اللهُ المهداة

(١) من دعاء في أحاديث متعددة، انظر: «مسند البزار» (٦٢) و«مصنّف ابن أبي شيبة» (٣٠٢١٤) و«المعجم الكبير» (١٦٧٣٩) (١٦٧٤٦) للطبراني.

(٢) من قوله: «فإن قلت: لم قيّد الثلث» إلى هنا، أثبتته من «الكاشف» (٣: ٩٩٩) للطّيبي، وسقط من النسخ الثلاث.

للأُمم، سَلَفِهَا وَخَلَفِهَا، النَّازِلِ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ ذُرَاهَا، وَبَيْتِ شَرَفِهَا. وَعَلَى آلِهِ وَعِثْرَتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَعَلَى سَائِرِ الْمُكْرَمِينَ بِصُحْبَتِهِ، وَالْمُتَّبِعِينَ لُسُنَّتِهِ، الدَّارِجِينَ مِنْهُمْ وَاللَّاحِقِينَ لَهُمْ.

وَارْحَمِ أَبُوِي اللّٰذِينَ قَوْمًا أَوْدِي، وَأَصْلِحَا عِوَجِي، وَدَعَوَانِي إِلَيْكَ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَعَاذَانِي بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ. وَاجْزِ عَنَّا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ وَأَعْلَامَ الطَّرِيقَةِ وَمَشَائِجِي خَيْرًا، سَيِّئًا مَنْ عَلَمْنَا، وَأَذْبَنًا، وَنَصَحْنَا فَيْكَ، وَهَدَانَا إِلَيْكَ.

وَاخْلُفْنَا فِي أَهَالِينَا وَذَرَارِينَا، وَاسْلُكْ بِنَا وَبِهِمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَرْهِمْ سَبِيلَ الْمُتَّقِينَ، وَاجْعَلْهُمْ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ^(١).



(١) خُتِمَتِ النُّسْخَةُ (ط) بَعْدَ هَذَا بِمَا نَصَّهُ: «تَمَّ الْمَجْلَدُ الرَّابِعُ مِنْ كِتَابِ «الْكَشَافِ»، لِلْإِمَامِ الْعَلَامَةِ جَارِ اللَّهِ الرَّخْمَشَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، مَعَ شَرْحِهِ لِلْإِمَامِ الْعَالِمِ النَّخْرِيِّ، الْمُحَقِّقِ الرَّبَّانِيِّ، شَرِيفِ الْمَلَّةِ وَالِدَيْنِ، الْحَسَنِ الطَّيْبِيِّ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِغُفْرَانِهِ، وَأَسْكَنَهُ بُحْبُوحَةَ جَنَانِهِ. وَبِتَمَامِهِ كَمَلَ الْكِتَابَانِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، عَلَى يَدِ الْمَذْنِبِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ الْمُتَطَبِّبِ؛ حَزْرَهُ اسْتِغْفَاةً لِعِلْمِ التَّفْسِيرِ، عَلَيْهِ وَعَلَى أَقَارِبِهِ، وَعَلَى مَنْ يَسْتَعِدُّ لِدَلِّكَ مَخْلَصًا لَوْجَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَتَذَكُّرَةً لِمَنْ بَعْدَهُ تَمَّنَّ يُطَالَعُهُ وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَذَلِكَ لِخَمْسِ لِيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ الْحَجِّ ذِي قَعْدَةَ، عَامَ ثَلَاثَةِ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِ مِئَةٍ، حَامِدًا لِلَّهِ وَمُصَلِّيًا عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ. وَالْمَرْجُوُّ تَمَّنَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَاسْتِفَادَ مِنْهُ: الدَّعَاءُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ، وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ».

أَمَّا خَاتَمَةُ النُّسْخَةِ (ح) فَهِيَ: «تَمَّ هَذَا الْمَجْلَدُ فِي أَوْاسِطِ شَوَّالِ سَنَةِ «٩٧٤» هِجْرِيَّةً، وَأَمَّا النُّسْخَةُ (ف) فَخَاتَمَتُهَا: «تَمَّ الْكِتَابُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ، فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، أَحَدِ شَهْرٍ سَنَةِ ١١٣٤».

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَوَارَةِ: وَقَعَ الْفَرَاغُ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَجْلَدَةِ الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى جُزْأِي «تَبَارَكَ» وَ«عَمَّ»، مِنْ الْحَاشِيَةِ النَّفِيسَةِ «فُتُوحِ الْغَيْبِ فِي الْكَشْفِ عَنْ قَنَاعِ الرَّيِّبِ» لِلْإِمَامِ الطَّيْبِيِّ، عَلَى تَفْسِيرِ «الْكَشَافِ» لِلْإِمَامِ الرَّخْمَشَرِيِّ، عَلَى ثَلَاثِ نُسُخٍ خَطِيَّةٍ، فَجَرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ١٤٣٣ لِلْهِجْرَةِ، فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ عَلَى سَائِكَيْهَا وَمُحَلِّيَّهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَأَتَمَّ التَّسْلِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَى مَا وَفَّقَ وَأَعَانَ.

فهرس زُمر الآيات المفسرة

الصفحة	الآيات
سورة المعارج	
١٨-٥	[١٨-١]
٢٤-١٨	[٣٥-١٩]
٢٧-٢٤	[٤٤-٣٦]
سورة نوح	
٢٩-٢٨	[٤-١]
٣٧-٢٩	[٢٠-٥]
٤١-٣٧	[٢٤-٢١]
٤٤-٤١	[٢٧-٢٥]
٤٥-٤٤	[٢٨]
سورة الجن	
٥١-٤٦	[٥-١]
٥١	[٧-٦]
٥٦-٥٢	[٩-٨]
٥٦	[١٠]
٥٨-٥٧	[١١]

الصفحة	الآيات
٥٨	[١٢]
٥٩-٥٨	[١٣]
٦٠-٥٩	[١٥-١٤]
٦٢-٦١	[١٧-١٦]
٦٤-٦٣	[١٨]
٦٦-٦٤	[١٩]
٧٦-٦٧	[٢٨-٢٠]

سورة المزمل

٩٠-٧٧	[٤-١]
٩١-٩٠	[٥]
٩٥-٩١	[٦]
٩٥-٩٤	[٧]
٩٧-٩٥	[١٠-٨]
٩٩-٩٧	[١٤-١١]
١٠٠-٩٩	[١٦-١٥]
١٠٢-١٠٠	[١٨-١٧]
١٠٢	[١٩]
١٠٧-١٠٢	[٢٠]

سورة المدثر

١١٣-١٠٨	[٥-١]
١١٦-١١٣	[٧-٦]
١١٩-١١٦	[١٠-٨]

الصفحة	الآيات
١٣١-١١٩	[٢٥-١١]
١٣٨-١٣١	[٣١-٢٦]
١٤١-١٣٨	[٣٧-٣٢]
١٤٥-١٤١	[٤٨-٣٨]
١٤٩-١٤٥	[٥٦-٤٩]

سورة القيامة

١٦٠-١٥٠	[٦-١]
١٦٣-١٦٠	[١٥-٧]
١٧٢-١٦٣	[٢٥-١٦]
١٧٤-١٧٢	[٣٠-٢٦]
١٧٦-١٧٤	[٣٥-٣١]
١٧٧-١٧٦	[٤٠-٣٦]

سورة الإنسان

١٨٢-١٧٨	[١]
١٨٤-١٨٢	[٢]
١٨٥	[٣]
١٨٧-١٨٦	[٤]
١٩٣-١٨٨	[١٠-٥]
٢٠٧-١٩٣	[٢٢-١١]
٢١٣-٢٠٧	[٢٦-٢٣]
٢١٤-٢١٣	[٢٨-٢٧]
٢١٧-٢١٥	[٣١-٢٩]

الصفحة

الآيات

سورة المرسلات

٢٢٢-٢١٨	[٦-١]
٢٢٥-٢٢٢	[١٥-٧]
٢٢٧-٢٢٥	[١٩-١٦]
٢٢٧	[٢٤-٢٠]
٢٢٩-٢٢٨	[٢٨-٢٥]
٢٣٥-٢٢٩	[٣٧-٢٩]
٢٣٦	[٤٥-٣٨]
٢٣٩-٢٣٦	[٥٠-٤٦]

سورة النبأ

٢٤٢-٢٤٠	[٣-١]
٢٤٢	[٥-٤]
٢٤٨-٢٤٢	[١٦-٦]
٢٥٠-٢٤٨	[٢٠-١٧]
٢٥٥-٢٥٠	[٣٠-٢١]
٢٥٨-٢٥٦	[٣٦-٣١]
٢٥٩-٢٥٨	[٣٩-٣٧]
٢٦٢-٢٥٩	[٤٠]

سورة التازعات

٢٧٥-٢٦٣	[١٤-١]
٢٧٩-٢٧٥	[٢٦-١٥]

الصفحة	الآيات
٢٨٢-٢٧٩	[٢٣-٢٧]
٢٨٣-٢٨٢	[٣٦-٣٤]
٢٨٤-٢٨٣	[٣٩-٣٧]
٢٨٥-٢٨٤	[٤١-٤٠]
٢٨٧-٢٨٥	[٤٦-٤٢]

سورة عبس

٢٩٥-٢٨٩	[١٠-١]
٢٩٦-٢٩٥	[١٦-١١]
٢٩٩-٢٩٧	[٢٣-١٧]
٣٠٢-٢٩٩	[٣٢-٢٤]
٣٠٣-٣٠٢	[٤٢-٣٣]

سورة التكوير

٣١٥-٣٠٤	[١٤-١]
٣١٦-٣١٥	[١٨-١٥]
٣١٦	[٢١-١٩]
٣١٧	[٢٢]
٣٢١-٣١٩	[٢٥-٢٣]
٣٢٢-٣٢١	[٢٩-٢٦]

سورة ﴿انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار)

٣٢٣	[٥-١]
٣٢٨-٣٢٣	[٨-٦]

الصفحة	الآيات
٣٣٠-٣٢٩	[١٢-٩]
٣٣١-٣٣٠	[١٦-١٣]
٣٣٢-٣٣١	[١٩-١٧]

سورة المطففين

٣٤٢-٣٣٣	[٦-١]
٣٤٤-٣٤٢	[٩-٧]
٣٤٧-٣٤٤	[١٧-١٠]
٣٤٨-٣٤٧	[٢١-١٨]
٣٥٠-٣٤٨	[٢٨-٢٢]
٣٥٢-٣٥١	[٣٣-٢٩]
٣٥٣-٣٥٢	[٣٦-٣٤]

سورة ﴿أَنشَقَّتْ﴾ (الانشقاق)

٣٥٧-٣٥٤	[٥-١]
٣٦٠-٣٥٧	[١٥-٦]
٣٦٣-٣٦٠	[١٩-١٦]
٣٦٥-٣٦٣	[٢٥-٢٠]

سورة البروج

٣٦٨-٣٦٦	[٣-١]
٣٧٤-٣٦٩	[٩-٤]
٣٧٥-٣٧٤	[١١-١٠]
٣٧٦-٣٧٥	[١٦-١٢]

الصفحة	الآيات
٣٧٨-٣٧٧	[٢٢-١٧]
سورة الطارق	
٣٨٠-٣٧٩	[٣-١]
٣٨١-٣٨٠	[٤]
٣٨٣-٣٨١	[٧-٥]
٣٨٦-٣٨٣	[١٠-٨]
٣٨٨-٣٨٦	[١٤-١١]
٣٨٩-٣٨٨	[١٧-١٥]
سورة الأعلى	
٣٩٥-٣٩٠	[٥-١]
٣٩٧-٣٩٥	[٧-٦]
٤٠٠-٣٩٧	[١٣-٨]
٤٠٢-٤٠٠	[١٧-١٤]
٤٠٣-٤٠٢	[١٩-١٨]
سورة الغاشية	
٤٠٧-٤٠٤	[٧-١]
٤١٠-٤٠٧	[١٦-٨]
٤١٥-٤١٠	[٢٦-١٧]
سورة الفجر	
٤٢١-٤١٧	[٥-١]
٤٢٦-٤٢١	[١٤-٦]

الصفحة	الآيات
٣٧٨-٣٧٧	[٢٢-١٧]
سورة الطارق	
٣٨٠-٣٧٩	[٣-١]
٣٨١-٣٨٠	[٤]
٣٨٣-٣٨١	[٧-٥]
٣٨٦-٣٨٣	[١٠-٨]
٣٨٨-٣٨٦	[١٤-١١]
٣٨٩-٣٨٨	[١٧-١٥]
سورة الأعلى	
٣٩٥-٣٩٠	[٥-١]
٣٩٧-٣٩٥	[٧-٦]
٤٠٠-٣٩٧	[١٣-٨]
٤٠٢-٤٠٠	[١٧-١٤]
٤٠٣-٤٠٢	[١٩-١٨]
سورة الغاشية	
٤٠٧-٤٠٤	[٧-١]
٤١٠-٤٠٧	[١٦-٨]
٤١٥-٤١٠	[٢٦-١٧]
سورة الفجر	
٤٢١-٤١٧	[٥-١]
٤٢٦-٤٢١	[١٤-٦]

الصفحة	الآيات
٤٣١-٤٢٦	[١٦-١٥]
٤٣٣-٤٣١	[٢٠-١٧]
٤٣٧-٤٣٣	[٢٦-٢١]
٤٣٩-٤٣٧	[٣٠-٢٧]

سورة البلد

٤٤٥-٤٤٠	[٧-١]
٤٥١-٤٤٦	[١٦-٨]
٤٥٣-٤٥١	[٢٠-١٧]

سورة الشمس

٤٦٤-٤٥٤	[١٠-١]
٤٦٧-٤٦٥	[١٥-١١]

سورة الليل

٤٦٩-٤٦٨	[٤-١]
٤٧٠-٤٦٩	[٧-٥]
٤٧٣-٤٧١	[١١-٨]
٤٧٣	[١٣-١٢]
٤٧٧-٤٧٣	[٢١-١٤]

سورة ﴿وَالضُّحَى﴾ (الضحى)

٤٨٢-٤٧٨	[٣-١]
٤٨٥-٤٨٢	[٥-٤]
٤٨٨-٤٨٥	[٨-٦]

الآيات	الصفحة
[١١-٩]	٤٩١-٤٨٨
سورة ﴿الزَّنْزَارِ﴾ (الشرح)	
[٤-١]	٤٩٧-٤٩٢
[٦-٥]	٥٠١-٤٩٧
[٨-٧]	٥٠٣-٥٠١
سورة التين	
[٨-١]	٥٠٨-٥٠٤
سورة العلق	
[٥-١]	٥١٣-٥٠٩
[١٩-٦]	٥٢١-٥١٣
سورة القدر	
[٥-١]	٥٢٥-٥٢٢
سورة البينة	
[٨-١]	٥٣٥-٥٢٦
سورة الزلزلة	
[٨-١]	٥٤٥-٥٣٦
سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ (العاديات)	
[١١-١]	٥٥٣-٥٤٦
سورة القارعة	
[١١-١]	٥٥٧-٥٥٤

الآيات	الصفحة
	سورة التكاثر
[٨-١]	٥٦٤-٥٥٨
	سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (العصر)
[٣-١]	٥٦٧-٥٦٥
	سورة الهمزة
[٩-١]	٥٧٦-٥٦٨
	سورة الفيل
[٥-١]	٥٨٤-٥٧٧
	سورة قريش
[٤-١]	٥٩٠-٤٨٥
	سورة الماعون
[٧-١]	٥٩٩-٥٩١
	سورة الكوثر
[٣-١]	٦٠٥-٦٠٠
	سورة الكافرون
[٦-١]	٦١٢-٦٠٦
	سورة النصر
[٣-١]	٦٢١-٦١٣
	سورة ﴿تَبَّتْ﴾ (المسد)
[٥-١]	٦٣١-٦٢٢

الآيات	الصفحة
سورة الإخلاص	
[٤-١]	٦٤٣-٦٣٢
سورة الفلق	
[٥-١]	٦٥١-٦٤٤
سورة الناس	
[٦-١]	٦٥٦-٦٥٢

* * *